



٣٩٠

سَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
مُهَيْدِ الْمُرْسَلِينَ

تأليف

الاستاذ المحقق

الشيخ جعفر السبجاني

الجزء الأول

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تزل السيرة المحمّدية العطرة في جميع أبعادها موضع اهتمام الأمة الاسلاميّة من لدن بزوغ فجر الإسلام العظيم ، ومنذ الأيام الأولى من البعثة النبوية الشريفة .
ولا غرو فقد كان الرسول الأكرم محمّد بن عبد الله ﷺ يجسد بسيرته المثلى قيم الدين ويمثل بأخلاقه السامية أخلاق القرآن ، ويعكس بمواقفه الرشيدة وإدارته الحكيمة لشؤون الأمة طريقة الإسلام في إدارة دفة الحياة .
هذا مضافاً إلى أنه كان القدوة التي أمر الله تعالى المسلمين بالافتداء بها ، واقتفاء أثرها ، كما أنه كان الظاهرة الفريدة الباهرة في الأدب الرفيع والإنسانية الشفافة والعاطفة الصادقة والرحمة واللطف ، وغيرها ممّا كانت تفتقر بيئة ظهور الإسلام الأولى إليه وتتعطش إلى مثله .
من هنا أخذ المسلمون يهتمّون بكل حركات الرسول ﷺ وسلّم وسكناته ، ويتأملون في جميع أعماله وتصرفاته فاذا رأوا منه خُلُقاً بادروا إلى تكراره في سلوكهم ، وإذا شاهدوا منه عملاً أسرعوا إلى فعله في حياتهم ، وعمدوا في المآل إلى تسجيل كل صغيرة وكبيرة في هذا المجال ، وضبط كل دقيقة وجلييلة في هذا الصعيد .
وفعلاً كانت هذه السيرة الطيّبة العطرة المقدّسة هي المنهج العملي للمسلمين ، وهي سرّ تقدّمهم ، وهي رمز عظمتهم وسموّهم ، وعلوّ شأنهم وشأوهم .

ولا تزال هذه السيرة المشرفة اليوم قادرة على أن تكون ضوء المسيرة ، ومشعل الطريق ،
ومنهج العمل ومفتاح الانتصار في معركتنا ضد قوى الشر والطغيان .
وحيث إن أموراً أقحمت في هذه السيرة ، كما أن تطور الزمن وكيفية الدراسات اقتضيا
إخراج دراسات في مجال السيرة تتناول البعد الذاتي والرسالي والسياسي والقيادي والعسكري
لسيد المرسلين ﷺ بالتحقيق والتحليل ، وتناسب مع حاجة العصر ولغته ، لهذا رأت
مؤسسة النشر الإسلامي أن تقلّم للجيل الحاضر خاصة وللمسلمين عامة هذه الدراسة
القيمة في سيرة خاتم الانبياء محمد ﷺ لا تسامها بكثير من هذه المواصفات .
والدراسة هي مجموعة محاضرات للاستاذ المحقّق الشيخ جعفر السبحاني الذي عرف في
الأوساط الإسلامية بتحقيقاته العميقة في الكتاب والسنة والعقيدة والتاريخ .
وفي الوقت الذي تقوم به المؤسسة . ولله الحمد . بطبع هذه الدراسة القيمة ونشرها بعد
مقابلتها تقدّم جزيل شكرها وامتنانها لسماحة الاستاذ الأملعي الشيخ جعفر الهادي لما بذله
من جهود وافرة من تعريبها واستخراج النصوص من مصادرها سائلة الله سبحانه له
ولسماحة الشيخ المحاضر ولها المزيد من التوفيق ، كما وتدعو المولى عزّ وعلا أن يتقبّل منا
جميعاً وأن تشملنا شفاعة الرسول الأعظم وآله الأطهار ﷺ في يوم الحشر إنه خير موفق
ومعين .

مؤسسة النشر الاسلامي

التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة

السيرة المحمّدية

مدرسة الأجيال

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة »

القرآن الكريم

النبِيُّ الأكرم « محمّد » ﷺ أسوة للمسلمين ... أسوة يقتدون بها في جميع مناحي حياتهم : الفردية والاجتماعية ، والسياسية ... أسوة إلى الأبد ... في كل زمان ومكان ، في كل عصر ومصر ، لجميع المسلمين من كل لون ولغة.

ولكن كيف يتأسّى المسلمون . في مختلف الأجيال والأدوار . برسول الله ﷺ ، وكيف يقتدون بسيرته المثلى ، ويهتدون بهديه العظيم؟

إنّ هذا لا يتسنى إلا إذا كانت حياة رسول الإسلام بجميع خصوصياتها ، وتفصيلاتها ، وفي جميع مجالاتها ونواحيها ، مدوّنة مسجّلة ، بل ومحلّلة تحليلاً دقيقاً وعميقاً.

من هنا فان الضرورة تقضي بوجود تاريخ مدوّن ، مشفوع بالتحليل الدقيق ، والدراسة الموضوعية لشخصية وسيرة سيد المرسلين ﷺ في كافة مجالاتها الشخصية والرسالية والسياسية والعسكرية.

حقاً إن في حياة رسول الإسلام العظيم « محمّد بن عبد الله » ﷺ - كما هو واضح لمن تتبّع وتصفح - أموراً دقيقة ، ولكن بالغة العظمة في مداليلها ومعانيها ، بالغة الأهميّة في معطياتها ودروسها.

فرسول الإسلام ﷺ هو خاتم الأنبياء ، ورسائله وشريعته خاتمة الرسالات والشرائع ونخصته هي النهضة الكبرى التي مهّدها الأنبياء السابقون ، وقد فتحت هذه النهضة الالهية صفحة جديدة في حياة البشرية ، وغيّرت مسار التاريخ الإنساني تغييراً جذرياً ، وأسست حضارة كبرى لا تزال أواجهها . رغم مرور أربعة عشر قرناً . حياة نابضة ، فاعلة ، تهزّ الضمائر ، وتتفاعل مع العقول .

ولهذا فإنّ السيرة المحمّدية مشحونةً بالمناهج والدروس ، زاخرةً بالبصائر والعبر ، بقدر ما هي مليئة بالدقائق والحقائق ، واللطائف والاسرار .

حقاً إن حياة النبي ﷺ بحاجة إلى تعمق جديد كلما تجدد الزمن ، وكلما تقدمت العلوم والمعارف ، وتطورت الحياة ، وانفتحت أمام البشرية آفاق جديدة في شتى الأصعدة والمجالات .

ولا شك أنّ هذه المهمة ليست عملاً بسيطاً ومهمّة سهلة ، وخاصة مع ما عليه الكثير من المصادر التاريخية الأولى من تصحيف أو تحريف أو تشويه للحقائق ، أو تغيير للأمر .

فان هذه المهمة تحتاج . في ما تحتاج إليه . إلى ثلاثة أشياء أساسية :

- ١ . عقلية متفتحة ، متدبرة ، نافذة متأنية .
- ٢ . جهود كبيرة ، وتتبع واسع ، وتميز للصحيح عن السقيم ، والدخيل عن الاصيل .
- ٣ . معرفة بجوانب تتصل بالسيرة المحمّدية اتصالاً وثيقاً كالمعرفة بمكانة سيّد المرسلين ﷺ في القرآن الكريم .

فمع توفر هذه الشروط يمكن الحصول على صورة نقيّة ، ومفيدة للسيرة المحمّدية المباركة ، صورة تتفق مع روح القرآن ، وتلتقي مع الواقع ، وتصلح للاتساء ، والاقتداء ، والاهتداء والاقتفاء .

ولقد توفرت هذه الشروط . ولله الحمد . في استاذنا العلامة الحجّة المحقّق سماحة الشيخ جعفر السبحاني ، حفظه الله .

فهو المعروف بسلسلته القرآنية « مفاهيم القرآن » التي تكشف عن إحاطة كبيرة بكتاب الله العزيز ، وإلمام قليل النظير بمفاهيمه .
ولهذا كان خيرَ من قام في عصرنا الحاضر بدراسة السيرة المحمّدية الطاهرة العبقة ، فكان هذا العمل التاريخي المبارك الذي توفّرت فيه المستلزمات الثلاثة الأنفة الذكر : العقلية المتفتحة ، والمعرفة الواسعة بالقرآن الكريم وخاصة في ما يتّصل بالرّسول الأكرم ، إلى جانب التسبع الواسع والاستقصاء الكبير لمواقع العبرة والاسوة في حياة خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين .
ولا أجديني . في هذا التقديم العابر . بحاجة إلى ذكر نقاط القوة الكثيرة في هذه الدراسة المستوعبة لشخصية وحياة رسول الإسلام ، بل أرى أن يحاول القارئ الكريم بنفسه الاطلاع على ذلك حتّى لا يفوته شيء ممّا لا يفوت ، وسيقف بنفسه أيضاً على جسامته ما بذل في هذه الدراسة من جهد ، وروعة ما ضُمّنت من تحليل ، وأهمية ما احتوته من حقائق .
وفي الختام أسأل الله العليّ القدير ان يتقبل منا جميعاً هذا الجهد ، ويجعله ذخراً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، انه خير معين .

قم

جعفر الهادي

٣٠ شعبان ١٤٠٩ هجرية

التاريخ في أعظم حماساته

- * مُختبر « الحياة » العظيم.
- * « لقد عُمِّرت مع أولهم إلى آخرهم! ».
- * حياة العظماء ، والخالدين.
- * عندما يلتقي العالم الحاضر بالعالم الغابر.
- * التاريخ بين التسجيل.
- * أخطاء المستشرقين العجيبة.

يُحاول الإنسان دائماً أن ينظر إلى كل قضية من القضايا من نافذة الحس ، وإن يدرسها من خلال المنظار الحسي المادي ، لأنَّ أوثق المعلومات لديه هي تلك التي تتألف من هذه « المعلومات الحسية » ولهذا فإن المسائل التي تحظى بألّة حسّية أكثر تكسب في العادة قسطاً أكبر من ثقة الإنسان وتصديقه.

وعلى هذا الاساس عمّد العالم اليوم إلى تأسيس آلاف المختبرات الضخمة للتحقيق في شتى القضايا العلمية ، ويعكف العلماء في هذه المختبرات على دراسة وتحليل الامور المتنوعة بأسلوب خاص وطريقة معينة.

ولكن هل يمكن . تُرى . أن تدخل المسائل والقضايا الاجتماعية في نطاق التجربة المختبرية ، وتخضع للمجهر والميكروسكوب ، ليتمكن الحكم في هذه المجالات من خلال ذلك؟! ، فمثلاً ؛ هل يمكن أن نعرف عن طريق التجارب المختبرية ما يُعنيّ إليه

الاختلاف والتشردم في المجتمع الواحد ، وما يصيب شعباً من الشعوب أو أمة من الامم من هذا الطريق؟

أم هل يمكن تقييم ما تنتهي إليه جهود المستعمرين ، أو ما يؤول إليه الظلم والحيف ، من خلال تجربة حسية؟

أم هل يمكن الوقوف على نتائج « الاختلاف الطبقي » ، « والتمييز العنصري » في المجتمع عن طريق التجربة المختبرية؟

في الاجابة على كل هذه الاسئلة يجب أن نقول : كلا مع الاسف.

وذلك لأنه لا توجد للقضايا الاجتماعية . رغم أهميتها القصوى . مثل هذه المختبرات ، وحتى لو أمكن توفير مثل هذه المختبرات المناسبة لتحليل وتقييم ودراسة القضايا الاجتماعية ، فان إنشائها وإيجادها يكلف نفقات باهضة ، وتستدعي جهوداً عظيمة .

ولكن الأمر الذي في مقدوره أن يقلل من حجم هذا النقص إلى حد كبير هو أننا نملك اليوم شيئاً يسمى بـ : « تاريخ الماضين » والذي يشرح لنا ما كان عليه البشر . أفراداً وجماعات . طوال آلاف السنين من الحياة على هذه الارض ، كما ويعكس مختلف الذكريات والخواطر عنهم ، من إنتصارات وهزائم ، ونجاحات وانتكاسات ، ويوقفنا بالتالي على كل ما وقع في حياة الامم والشعوب من حوادث مرة أو حلوة .

إنّ التاريخ يذكر لنا : كيف وُجدت الحضارات المشرقة والمدنيات العظمية في العالم ، وكيف سلكت . بعد مدة . طريق السقوط والانقراض ، حتى أنها قد نُحيت عن صفحة الوجود بالمرّة ، واصبحت خيراً بعد أثر ، وبالتالي ما هي العوامل التي كانت وراء سيادة الشعوب ثم اندحارها .

إن حياة الماضين وتاريخهم يحتفظ لنا في صفحاته بقسط كبير ومهم جدا من هذه الحوادث ، ولهذا صحّ أن يقال : « التاريخ مختبر الحياة العظيم » ، فبمعونة التاريخ يمكن تقييم مختلف القضايا الاجتماعية ، ودراستها واستخلاص النتائج والعبير المفيدة منها .

وإنَّ من حُسن الحظ أننا لم نكن أول من حطَّ قدمه على هذا الكوكب ، فهذه الارضُ بسهولة وشعابها العريضة ، وتلك السماء بنجومها وكواكبها الساهرة شهدتا ملايين الملايين من البشر الذين سكنوا الارض من قبلنا ، وشهدتا افراحهم واتراحهم ، همومهم وغمومهم ، وحرورهم ، ومصالحاتهم ، وكل ما رافق واكتنف حياتهم من حبِّ وبغض وظلمات وأنوار ، وارتقاء وهبوط ، إلى غير ذلك من شؤون وشجون الحياة البشرية التي يزخر بها تاريخ الشعوب والاقوام والامم.

صحيح أنهم قد اختفوا مع الكثير من أسرار حياتهم ، وغابوا جميعاً . أشخاصاً وأسراراً . في بحر من النسيان وانسدل عليهم الستار ، إلا أن قسطاً مُلفتاً للنظر وجملة يُعتد بها من تلك الامور إما أنها قد دُوِّنت بأيدي أصحابها ، أو لا تزال طبقات الارض وبطن التلال تحتفظ بها في ثناياها وطياتها ، كما ولا تزال ذات الاطلال الصامته . في ظاهرها . تشكل أضخم متحف ، واغنى معرض ، واكبر مختبر ، يعيد لنا شريط التاريخ ويحكي وقائعه وأحداثه ، ويشرح رموزه وأسراره.

إنَّ مُطالعة تلکم الصفحات من تاريخ الامم الغابرة في الكتب ، أوفي الاطلال العظيمة ، أو في ما يعثر عليه المنقبون في بطون التلال ، وثنايا الارض تعلّمنا أموراً كثيرة ، وتضيف إلى عُمرنا عُمرًا جديدًا وزمنًا اضافياً ، لا يُستهان به وذلك بما تقدم لنا من الخبرة والعبرة ، والهدى والبصيرة.

أليست حصيلة العمر ما هي إلا ما استفاده المرء من تجارب؟ ألا يجعل التاريخ خلاصة أفضل التجارب تحت تصرفنا؟

ولقد اشار الامام اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في وصية لولده إلى هذه الحقيقة حيث قال :

« أي بُنيَّ! إنِّي وإن لم اكن عمّرتُ عمرَ من كان قبلي ، فقد نظرتُ في أعمالهم وفكرتُ في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عبّدت كأحداهم بل كأيِّ بما انتهى اليّ من أمورهم قد عمّرت مع أولهم إلى آخرهم » ^(١).

١ . نهج البلاغة ، قسم الرسائل ، رقم ٣١ .

ولكن المؤسف أن كُتِب التاريخ الموجودة الآن تعاني من نقص كبير من حيث الإشارة إلى العبر والدروس الاجتماعية المفيدة ، لأن هذه المصنفات لم تدوّن لأجل هذا الغرض ، ولهذا أُغْفِلَ فيها . في الاغلب . كل ما هو مؤثّر في كشف الحقائق التاريخية ، وإبراز العلل الكامنة وراء الحوادث المتنوعة والوقائع المختلفة ، وبالتالي فقد تجاهلت تلك الكتب والدراسات ما هو المفتاح الطبيعيّ لحلّ الرُّموز الكبرى في مسيرة التاريخ البشري ، واعتنت . بدلا عن ذلك . بالقضايا التافهة .

لقد تصدّى كثيرٌ من المؤرّخين لتدوين وتسجيل القضايا التاريخية ، تارة بهدف التسلية وأخرى بدافع إبراز الفضل لأقوامهم أو طوائفهم ، واطهار تفوقها على الاقوام والطوائف الأخرى ، وثالثة بدافع الحب والبغض ، او التعصب لهذا أو ذاك ولهذا عجزت هذه المؤلفات والكتب عن حل أية مشكلة ، وتبديد أية حيرة ، بل هي تزيد المرء ضلالا إلى ضلال ، وحيرة إلى حيرة!

ولكن رغم كل هذا يستطيع أولو النباهة والبصيرة ، واصحاب الفهم والتحقيق ان يتوصلوا . من خلال مطالعة هذه المؤلفات التاريخية على ما فيها من عيوب ونقائص ، ومع ما فيها من أساطير عن الشعوب المختلفة . إلى ما يساعدهم على كشف الكثير من اسرار وخلفيات القضايا والامور المتعلقة بالشعوب الماضية ، تماما كما يفعل الطبيب الحاذق ، أو القاضي البارغ الذي يمكنهما من خلال الوقوف على القرائن الجزئية المتفرقة ، التوصل إلى اكتشاف نوع « المرض » أو حالة « المتهم » الحقيقية ، وما يعاني منه في واقعه النفسي .

إنّ أعظم صفحات التاريخ قيمة هي تلك التي تعكس لنا حياة العظماء وسيرة الرجال الخالدين ، وتبحث عنها بصدق وامانة وموضوعية .

إنّ لحياتهم أمواجاً خاصة ، كما أنّها زاخرة بانواع الحوادث .

لقد كانوا عظماء حقاً ، وكذلك كان كل ما يرتبط بهم ، ومن ذلك تاريخهم ، إنه شيء عظيم يستحق التأمل والتدبر ، فهو يتسم بلمعان يلفت الأنظار ، ويخلب

الالباب وإنه غني بالعظات والعبر ، زاخرٌ بالبصائر والدروس وإلى درجة لا توصف .
إنهم معجزَةُ الخليقة بلا ريب ، وإن حياتهم لمهي . في الحقيقة . ملحمة التاريخ الكبرى ،
وساحة البطولات الخالدة ، ومسرح الحماسات العظمى ، الحية النابضة على مر العصور ،
والايام .

لقد كان أولئك العظماء يعيشون في الاغلب على خط الثورات والتغيرات الاجتماعية
الاول (وبعبارة أصح) كانت الثورات والتحويلات الاجتماعية تجد مصداقيتها في حياتهم
وتتجسد في مواقفهم ، ولهذا كانوا يشكلون . في واقع الأمر . حلقة الاتصال بين الدنياوات
المختلفة المتناقضة ، وكانت حياتهم الحافلة بالاحداث شاهدة للألوان المختلفة والمشاهد المثيرة
المتنوعة .

* * *

وعلى رأس أولئك الرجال التاريخيين والعظماء الخالدين رسول الإسلام العظيم محمد
ﷺ فانه لم تتسم حياة أحد . من حيث وفرة الاحداث ، وعظمة الأمواج ، كما اتسمت
به حياته ﷺ ولا اتصفت شخصية يمثل ما اتصف به ذلك النبي العظيم .
فلم يستطع احدٌ سواه أن يؤثر في بيئته ، ثم في جميع العالم ، وينفذ إلى أعماق الاعماق
بمثل السرعة والسعة التي حصلت له ﷺ .

ولم يوجد أيُّ واحد منهم قط من مجتمعه المنحط المتخلف ، حضارة بتلك العظمة
والشموخ ، كما فعله رسول الإسلام ﷺ وتلك حقيقة يقرها كل مؤرخي الشرق والغرب .
إن مطالعة عميقة لسيرة وحياة هذا الإنسان العظيم ، قادرة على أن تعلمنا الكثير الكثير
، وأن توفقنا على مشاهد متنوّعة في غاية النفع ومنتهى الفائدة .

إن مشاهد عجيبة مثل الأيام الأولى من بناء الكعبة المعظمة ، واستيطان اسلاف النبي
الكريم « مكة » وهجوم عسكر الفيل الفاشل لهدم بيت الله المعظم ، والاحداث
والملايسات المرافقة لمولد النبي ﷺ .

كما وإن مشاهد محزنة مثل وفاة « عبد الله » و « آمنة » والدي رسول الله ﷺ في مطلع حياته الشريفة بتلك الكيفية المؤلمة.

ومشاهد عظيمة ومهيبة وحافلة بالأسرار مثل الايام الاولى من نزول الوحي ، وما جرى في جبل « حراء » وما تبعه من مواقف الاستقامة والمقاومة التي ابدتها واتخذها رسول الله واصحابه المعدودون طيلة ثلاثة عشر عاماً ، في سبيل نشر الدين الاسلامي في مكة ، ومكافحة الوثنية والجاهلية.

وكذا مشاهد مثيرة وساخنة وحماسية مثل وقائع السنة الأولى من الهجرة المباركة وما عقبها من حوادث ومواقف.

* * *

ولقد ألقت جَول حياة رسول الإسلام أعظم قادة البشرية على الاطلاق كتب ورسائل ودراسات كثيرة بحيث لو اتيح لنا أن نجتمعها في مكان واحد لشكلت مكتبة عظيمة وضخمة. ويمكن القول . بشكل قاطع . بأنه ليس ثمة من عظيم استقطب اهتمام التاريخ والمؤرخين والمفكرين العالميين الكبار ، كما ليس ثمة شخصية من شخصيات العالم كتب حولها المؤلفون والباحثون هذا القدر الهائل من المؤلفات والمصنفات ، والرسائل والكتب ، كما حصل لرسول الإسلام محمد ﷺ .

إلا أن أكثر هذه الكتب والمؤلفات تعاني من أحد إشكاليين : إما أن الكتاب جاء على نسق التسجيل المجرد للحوادث ، أو النصوص التاريخية ، من دون أن يتصدى فيه مؤلفه لتحليلها ، ودراسة خلفياتها ونتائجها ، وإصدار الحكم اللازم فيها ، بل إن البعض قد تجنب عن بيان علل الوقائع الإسلامية وأسبابها ، وثمارها ومعطياتها كذلك. أو أن المؤلف . في بعضها الآخر . عمد إلى طائفة من الآراء الحدسية ، والاجتهادات الباطلة ، العارية عن الدليل واثبتها في مؤلفه على أنها الحكم الحق ،

وخلط هذه الاحكام مع بيان الحوادث ، ومن ثم اخرج كتابه ذلك إلى الجمهور المتعطش إلى تاريخ الإسلام ، على أنه التاريخ المحقق ، الممخّص .

إن الإشكال الذي يرد على الطائفة الاولى هو : أن الهدف من التاريخ ليس هو مجرد تسجيل الحوادث التاريخية وضبطها وتدوينها ، إنما هو كتابة صفحات التاريخ ، وقضاياه وأحداثه من المصادر الصحيحة الموثوق بها ، وإبراز عللها واسبابها ، وثمارها ونتائجها ، والتاريخ بهذا الشكل أعظم كنز تركه الأقدمون لنا ، ومثل هذا النوع من الدراسة التاريخية لم تُدوّن . أو أنه قلما دُنّت . حول أعظم قادة البشر ، محمد ﷺ فقد تجنب أكثر كتاب السيرة النبوية عن اظهار الرأي في الحوادث ، أو القيام بأي تحليل للوقائع ، بحجة الحفاظ على أصول الحوادث ونصوصها .

في حين أنّ هذه العُذر ، وهذا الحجة غير كافية لتبرير هذا الموقف ، لأنه كان في مقدور اولئك المؤرخين . للحفاظ على ما ذكروه . أن يؤلفوا نوعين من الكتب ، نوعاً يختص بسرد الوقائع والنصوص التاريخية على ما هي عليه من دون ابداء رأي ، أو تحليل ودراسة ، ونوعاً آخر يعتني بذكر الحوادث والقضايا التاريخية مع تحليلها ودراستها بصورة موضوعية صحيحة أو ان يتم كلا الأمرين في كتاب واحد بأن تفرز الحوادث التاريخية عن التحليل والرأي . على كل حال قلما نجد بين قدماء الكُتّاب المسلمين من تصدى للسيرة النبوية المحمّدية الطاهرة بهذه الصورة ، وقلما يوجد هناك كتابٌ يتناول حياة خاتم الانبياء وسيّد المرسلين بالتحليل المذكور .

بل لا بد من القول بان السيرة النبوية الطاهرة ليست هي وحدها التي حُرمت من مثل هذا النمط من التأليف والكتابة ، بل تشمل هذا الحرمان أكثر الحوادث التاريخية التي وقعت على مر العصور الإسلامية فهي لُرجت في الكتب من دون دراسة موضوعية وتقييم دقيق . نعم إن أول من فتح هذا الطريق على وجه عامة المؤلفين والكتاب هو :

العلامة المغربي « ابن خلدون »^(١) فقد أسس في مقدمته المعروفة باسم مقدمة ابن خلدون نمط التاريخ التحليلي بنحو من الانحاء.

وأما الطائفة الثانية من تلك الكتب فهي وإن ألفت على نمط التاريخ التحليلي واتسمت بصفة التحقيق والدراسة ولكن حيث ان بعضهم لم يتحشم عناء التتبع والاستقصاء ، أو أنه اعتمد في تحليله للحوادث على المصادر غير المتقنة وغير الصحيحة ، فقد تورط في أخطاء فضيعة محيرة ، وأكثر مؤلفات المستشرقين . التي لم تكتب في الأغلب بهدف التوصل إلى الحقيقة . من هذا النمط ، ومن هذه القماشة .

ولقد بدأ في هذه الدراسة . بعد ملاحظة هذه الاشكالات . على ان يقدم إلى القراء جهد امكانه كتابا يخلو عن عيوب ونقائص كلتا الطائفتين .

مزايا هذا الكتاب :

قد لا يكون من الضروري بيان مزايا هذا الكتاب ، واستعراض امتيازاته في مقدمته ، فذلك أمرٌ ينبغي أن يقف عليه القارئ الكريم بنفسه ضمن مطالعته لهذه الدراسة ، إلا أنه إلفاتا لنظر القارئ نشير إلى مزيتين هامتين هما :

أولا : أننا عمدنا . في هذا الكتاب . إلى تناول وبيان الحوادث والوقائع المهمة التي تنطوي على قدر ، أكبر من الفائدة ، والعبرة ، وأعرضنا صفحاً عن ذكر الاحداث الجزئية ، والوقائع الصغيرة مثل الكثير من السرايا .

ثم أننا أخذنا الحوادث التاريخية هذه من المصادر الأصلية ، والأولية ، التي دُونت في القرون الإسلامية المشرقة الاولى ، فقد استخلصنا الحادثة من مجموعة تلك المصادر ، ثم أشرنا إلى مصدر أو مصدرين من المصادر التي ذكرت الحادثة

١ . هو القاضي عبد الرحمان بن محمد الحضرمي المالكي المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، ومقدمته وتاريخه . على ما فيهما من أخطاء فضيعة في التحليل . معدودان من الكتب الجيدة المفيدة ، وهما مبتكران في نوعهما .

بصورة أكثر تفصيلا ودقة.

وربما يظن بعض القرّاء الكرام أننا اكتفينا في نقل الحوادث والوقائع بمراجعة مصدر أو مصدرين ممّا ذكرناه في أقصى الصفحة (أي الهامش) في حين أن الواقع هو غير هذا ، فنحن قد راجعنا حتّى في نقل الحوادث الصغيرة مهما صغرت ، أكثر المصادر الأصلية المعروفة ، وبعد التحقق والتثبت منها لخصناها وذكرناها في هذا الكتاب .

ولو أننا أشرنا . في جميع الحوادث والوقائع . إلى جميع المصادر التي مررنا بها لاستأثر جدول المصادر بقسم كبير من صفحات هذا الكتاب ، وهو أمرٌ من شأنه أن يبعث على الملل عند القرّاء ، فلنكي لا يحس القرّاء بأيّ تعب أو مَلَل من جانب ، ولأجل أن نحافظ على وثائقية الكتاب وأصالة أبحاثه وإتقانها من طرف آخر اكتفينا بذكر القدر اللازم من المصادر وتجنبنا تحشيداً بتلك الصورة المملّة .

وأما المزية الثانية : فإننا أشرنا . ضمن الدراسات اللازمة . إلى الاعتراضات والاشكالات ، بل وأحيانا إلى مواطن الاساءة التي قام بها المستشرقون المغرضون وأجبنّا على جميع الانتقادات والاعتراضات غير المبرّرة وغير الصحيحة بأجوبة مقنعة وقاطعة وصحيحة ، وحجّذناهم من الاسلحة التي شَهَرُها في وجه الإسلام ورسول الله ﷺ كما يقول المثل ، وتلك حقيقة يقف عليها القارئ الكريم بنحو أجلى في محلّها .

وعلى هذا الاساس عمّدنا إلى ذكر رأي المؤلّفين الشيعة (في المسائل المختلف فيها بين المؤرخين الشيعة والمؤرخين السنة) مع ذكر المصادر والشواهد التاريخية الواضحة والمبرهنة عليه ، وأزخنا كل ما يدور حول ذلك الرأي من شبهة أو إشكال ، ويستهدف إنكار صحته وحقانيته .

إننا إذ نقلمّ هذه الدراسة التحليلية لشخصية وحياة خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى القرّاء الكرام نأمل أن يهتم بها عامّة المسلمين وخاصة المثقفين والشباب منهم بوجه خاصّ ، ويتناولوا هذه السيرة العطرة بالمطالعة المتأنّية والتأمل

والتدبر ، ونأمل أن يستطيع شبابنا المؤمن المتحمّس من أن يرسم خريطة حياته وحياة مجتمعه في ضوء ما يستلهمه ويستوحيه من سيرة وحياة رسول الإسلام ﷺ في هذه الحقبة البالغة الخطورة. والله ولي التوفيق.

جعفر السبحاني

٢٦ / جمادى الآخرة / ١٣٩٢

سيّد المرسلين

في ضوء القرآن الكريم

لقد سلّط القرآن الكريم الضوء على رسول الإسلام محمّد بن عبد الله ﷺ في آيات كثيرة تناولت بيان أسمائه ونشأته وصفاته وخصاله ، وبشارات الانبياء السابقين به وعصمته وأمّيته ورسالته وخاتمته وجهوده العظيمة التي بذلها في سبيل ابلاغ مهمته ، والخطابات الخاصة الالهية الموجهة إليه وما يتوجب على المؤمنين تجاهه في حياته وبعد وفاته ، وما يتوجب عليهم تجاه أهل بيته وعترته ، ولكي تكون هذه الرؤية القرآنية الشاملة الدقيقة هي القاعدة الاساسية في دراسة الشخصية والسيرة المحمّدية العظيمة آثرنا ادراج طائفة منها

* إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَإِقْبَراً وَبُكَ الْأَكْبَرِ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ
يَمُّ لِإِسْنَدِكَ مَا يَعْلَمُ. (العلق / ٥٠١).

* مَا لَنْ يَلْبِسُكُمْ مَلَأَ مَلَأَ يَأْتِي مَنْ لَهْوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَجِي يُوْحَى عِلْمَهُ شَدِيدٌ
لَهُوَى وَرَةً يَدِي هُوَ لَا فَيُلا عَطَى بَأَهْلَى كَكَ بَلْ وَسِينِ ٥ أَوْ أُذُنِي فَوَاحِي
إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوْحَى مَا كَلَّمَ الْفُؤَادَ مَا رَأَى أَوْ قُتِمَارُهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى عِنْدَ
سِنْدَةِ الْمُنتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةَ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السُّدُودَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ
رَوَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى. (النجم / ١٧٠٢).

* وَلَوْ تَقْبُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَابِلِ لِأَجْدُنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ
مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ. (الحاقة / ٤٤٠٤٧).

* وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ. (يس / ٦٩).
* وَيَقُولُونَ أَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مِجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ. (الصفات /
٣٦٠٣٧).

* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ. (الحاقة / ٤٠).
* وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. (التكوير / ٢٤).
* سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى. (الاعلى / ٦).
* فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. (البقرة / ١٣٧).
* وَلِلَّهِ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ. (المائدة / ٦٧).
* هُوَ الْإِنشَاءُ بِالنَّوَى. (التوبة / ٧٤).
* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. (الحجر / ٩٥).

* وَمَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِئْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتِنَنَّ عَلَيْنَا غَيْرَهُ إِذَا لَاتَجِدُكَ خَلِيلًا
وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَا لَقَدْ كُفِّرْنَا تَرَكْنَا إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. (الاسراء / ٧٣٠٧٤).
* أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ. (الزمر / ٣٦).
* طَبَّرَ لَكُمْ رَبُّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا. (الطور / ٤٨).
* تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ. (آل عمران / ١٠٨).

* أَتَلَّ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ. (العنكبوت / ٤٥).

* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ. (الاحزاب / ٢).

* وَرَنَدِ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ. (الشعراء / ٢١٤).

- * فَاصْلِحْ بِمَا تُمْرُ. (الحجر / ٩٤).
- * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. (الحج / ٤٩).
- * وَمَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. (المؤمنون / ٧٣).
- * تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. (الفرقان / ١).
- * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. (الفرقان / ٥٦).
- * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ. (الأنفال / ٣٣).
- * لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ. (التوبة / ١٢٨).
- * بِالْمُؤْمِنِينَ وَرَوْفٌ رَحِيمٌ. (التوبة / ١٢٨).
- * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ. (الأنبياء / ١٠٧).
- * إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ. (الحج / ٦٧).
- * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. (الشعراء / ١٩٣).
- * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ. (البقرة / ١١٩).
- * كَمَا رَأَسْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُذَكِّرُهُمْ بِاللَّهِ شَهِيدًا. (البقرة / ١٥١).
- * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَمَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْفٍ ضَلَالٍ مُّبِينٍ. (آل عمران / ١٦٤).
- * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. (الفتح / ٢٨-٢٩).
- * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَرَأْسًا لِلَّهِ يَأْذَنُ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ يَعْزِزْهُ اللَّهُ فَلَا كَافَّةَ لِلَّهِ مَا يَفْعَلُ بِالْمُؤْمِنِينَ. (الاحزاب / ٤٦).
- * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا. (سبأ / ٢٨).
- * قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَأَخِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ وَمَا يُبَدِّلُ اللَّهُ سَمْعَكُمُ اللَّهُ أَعْيُنُكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَارُ وَمَنْ يَخْتَرِ اللَّهُ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. (سبأ / ٤٦).
- * فَفَرِّأ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. (الذاريات / ٥٠).
- * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. (النساء / ٧٨).
- * أَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ بِالْحِكْمَةِ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. (النساء / ١١٣).

- * إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ. (النساء / ١٦٣).
- * لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. (النساء / ١٦٦).
- * مَا لَكَ لِمُدَّ بِأَحَدٍ مِنْ جِبَالِكُمْ كُنْ سِرًّا لِلَّهِ خَلْفَهُمْ النَّبِيِّينَ. (الاحزاب / ٤٠).
- * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا. (الاعراف / ١٥٨).
- * وَلَا يَخْزُوكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. (يونس / ٦٥).
- * فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَبْرٌ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. (هود / ١٢).
- * وَكَيْلًا نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّهِمْ مَا نَشِئُ هِمْ وَكُلَّ جَلِيلٍ ذِي الْحِجْبِ وَمَوْعِظَةٍ وَكَرِيٍّ لِلْمُؤْمِنِينَ. (هود / ١٢٠).
- * وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلِ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ. (الرعد / ٣٢).
- * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ. (الحجر / ٨٨).
- * وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّكَ يَضِيقُ صَبْرٌ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ. (الحجر / ٩٩).
- * وَصَبْرٌ وَمَصْرُوكٌ لَا بِاللَّهِ وَتَحَرَّزْ عَلَيْهِمْ وَتَكْضِيَةً بِمَا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ. (النحل / ١٢٨).
- * لَمَّا كَلَّمَهُمْ عَلَىٰ ثَلَاثِينَ نَفْسًا يَوْمَئِذٍ إِذْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا. (الكهف / ٦).
- * طَهِّرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ. (طه / ١٣٠).
- * مَنْ يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَصَحَابَ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتَ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. (الحج / ٤٢ - ٤٤).
- * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا. (الفرقان / ٣١).
- * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. (الشعراء / ٣).
- * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. (النحل / ١٢٧).
- * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ. (الروم / ٦٠).
- * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَخْزُوكَ كُفْرُهُ. (لقمان / ٢٣).

- * مَن يَكْذِبْكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَلِي اللّٰهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ. (فاطر / ٤).
- * سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. (الأسراء / ١).
- * فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. (فاطر / ٨).
- * مَن يَكْذِبْكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ. (فاطر / ٢٥).
- * فَلَا يَخْزِنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ. (يس / ٧٦).
- * فَقَدْ يَفْقَهُ تَيْمُوتُ لِمَ بَدَّلْنَا كَلِمَآةً لَّا مَرْسِيَّتًا لِّمَنْ نَّهْمُ ۖ هِيَ أَقْسَمُ الْمُنْتَصِرُونَ. (الصفات / ١٧١).
- (١٧٢).
- * مَن جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ فَتَوَّعْنَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَابْصُرْهُمْ فَنُصِرُ ۖ يُبْصِرُونَ. (الصفات / ١٧٣-١٧٥).
- * وَتَوَّعْنَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَبَصِرَ فَنُصِرُ ۖ يُبْصِرُونَ. (الصفات / ١٧٨-١٧٩).
- * صَبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ. (ص / ١٧).
- * أَلَيْسَ اللّٰهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيَخَافُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ. (الزمر / ٣٦).
- * طَهِّرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ. (المؤمن / ٥٥).
- * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. (الانعام / ٥٢).
- * طَهِّرْ ۖ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنَ اَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَتَتَّبِعْ هَوْيَهُ وَكَانَ أُمِرًا فَطْرًا. (الكهف / ٢٨).
- * تَمَّامًا لِّمَنْ لَدُنَّ مِنَ اللّٰهِ رِجْوَاهُ ۖ إِذَا لَمَّا عَرَفَهُ لَمَّا مَرَّ لَمَّا يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِنَبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَن لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْجَبِ الَّذِينَ يُجَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ۚ إِنَّهُم مُّتَّبَعُونَ فَتَنَّهُ وَأَيُّصِيبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (النور / ٦٢-٦٣).
- * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِهَا إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ۚ سَبَّحِينَ ۚ بَدِثَ ۚ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيبُ مِنْكُمْ ۚ وَلَئِنْ لَا يَسْتَجِيبُ مِنَ الْحَقِّ ۚ ذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِن رَّوَاءِ

حِجَابِ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا
وَأُجْرَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا. (الاحزاب / ٥٣).

* لَهَا لَبِئْسَ مَا تَدْعُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ
أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
مَتَّخِذُوا لِلَّهِ لُؤْلُؤًا مَلْمُوءًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ وَءِ الْحِجْرَاتِ
كَتُوبُهُمْ مَعْقُودَةٌ يُسْتَأْتَى بِهَا كِتَابُهَا وَالَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِمْ يُحْمَلُونَ فِي الْعِلْبَانِ إِلَى أَعْيُنِ النَّارِ لِيُؤْتُوا فِيهَا سَلِيمًا ذَاتَ أَذُنٍ
الْحِجْرَاتِ / ٥٠١).

* وَعَلَّمُونَا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ
إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَبَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرُ وَالْمُفْسَدُ وَالْعِصْيَانُ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ.
الْحِجْرَاتِ / ٧).

* وَمَنْ تَكَلَّمَ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ. (القلم / ٤).

* وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. (الحجر / ٨٨).

* وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. (الشعراء / ٢١٥).

* لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ وَوُفٍ
رَحِيمٍ. (التوبة / ١٢٩).

* جَنَاحِيهِنَّ مِنَ اللَّهِ بِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
عمران / ١٥٩).

* لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَحَسَرَ اللَّهُ
كَثِيرًا. (الاحزاب / ٢١).

* قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
عمران / ٣١).

* لَا تَلْبَسُوا ثِيَابًا تَلْبَسُوا ثِيَابًا تَلْبَسُوا ثِيَابًا تَلْبَسُوا ثِيَابًا تَلْبَسُوا ثِيَابًا تَلْبَسُوا ثِيَابًا
فَضِيَّتْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا. (النساء / ٦٥).

* إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.
الاحزاب / ٥٦).

* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوفَةَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ. (الكوثر / ٢٠١).

* إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا. (الاحزاب / ٣٣).
(١)

١ - ولقد بحث سماحة الاستاذ العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحاني صاحب هذه المحاضرات حول جميع هذه الآيات ونظائرها في دراسة عميقة وشاملة في الجزء السابع من موسوعته « مفاهيم القرآن ».

شبه الجزيرة العربية

أو مَهْد الحضارة الإسلامية

الجزيرة العربية هي في الحقيقة شبه جزيرة كبيرة وتقع في الجنوب الغربي من اسيا ، وتبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع ، أي ضعف مساحة إيران ، وستة أضعاف فرنسا ، وعشرة أضعاف إيطاليا ، وثمانين ضعف سويسرة .
ويجّد شبه الجزيرة . هذا الذي هو اشبه ما يكون بمسططيل غير متوازي الاضلاع . من الشمال فلسطين وصحراء الشام ، ومن المشرق الحيرة ودجلة والفرات والخليج الفارسي ، ومن الجنوب المحيط الهندي وخليج عمان ، ومن المغرب البحر الأحمر .
وعلى هذا يحاصر هذه الجزيرة من المغرب والجنوب البحر ، ومن الشمال والشرق الصحراء ، والخليج .

وقد جرت العادة بتقسيم هذه المنطقة من القدم إلى ثلاثة اقسام :

- ١ . القسم الشمالي والغربي ويسمى بالحجاز .
 - ٢ . القسم المركزي والشرقي ويسمى بصحراء العرب .
 - ٣ . القسم الجنوبي ويسمى باليمن .
- وتشكّل داخل شبه الجزيرة هذا صحاري كبيرة ، ومناطق شاسعة رملية حارة ، وغير قابلة للسكنى تقريباً ، ومن جملة هذه الصحاري صحراء « بادية

سماوة» التي تسمى اليوم بصحراء « النفوذ » وصحراء أخرى واسعة الاطراف تمتد إلى الخليج الفارسي يُطلق عليها اليوم إسم « الربع الخالي » وقد كان يسمى قسم من هذه الصحاري سابقاً بالأحقاف ، ويسمى القسم الآخر بالدهناء.

وعلى أثر هذه الصحاري تشكل ثلث مساحة شبه الجزيرة هذا أراضي خالية من الماء والعشب وغير قابلة للسكنى ، اللهم إلا بعض ما يحصل من المياه بسبب تساقط الامطار ، في قلب الصحاري فيتجمع حولها بعض القبائل العربية بعض الوقت ، ويرعون فيها ابلهم وانعامهم ردحا قليلا من الزمن.

وأما حالة المناخ في شبه الجزيرة العربية ، فالهواء في الصحاري والأراضي المركزية (الوسطى) حارّ وجافّ جداً ، وفي السواحل مرطوبٌ ، وفي بعض النقاط معتدلاً ، وبسبب رداءة الطقس هذه لا يتجاوز عدد سكانه خمسة عشر مليون نسمة.

وتوجد في هذه الجزيرة سلسلة جبال تمتد من الجنوب إلى الشمال ، ويقارب ارتفاع أعلى قممها ٢٤٧٠ مترا.

وقد كانت معادن الذهب والفضة والاحجار الكريمة تشكل مصادر الثروة في شبه الجزيرة هذا منذ القدم ، وكان سكانها يعتنون . من بين الانعام والحيوانات . بتربية الابل والفرس أكثر من غيرهما ، ومن بين الطيور بالحمام والنعام أكثر من الطيور الأخرى.

بيد أن أكبر مصدر للثروة في الجزيرة العربية اليوم يأتي عن طريق استخراج النفط.

وتعتبر مدينة « الظهران » الذي يسميه الاوريون بالدهران المركز النفطي الرئيسي في هذه الجزيرة ، ويقع هذا البلد في ناحية الاحساء التي تقع في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على حدود الخليج الفارسي.

ولكي يتعرف القارئ الكريم على الأوضاع في شبه الجزيرة العربية هذا بنحو أكثر تفصيلا فاننا نعمد إلى شرح الاقسام الثلاثة المذكورة :

١ . « الحجاز » وهي المنطقة التي تشكل القسم الشمالي والغربي من الجزيرة

العربية وتمتد أراضيها على ساحل البحر الاحمر ابتداء من فلسطين وحتى حدود اليمن .
والحجاز بعد هذا منطقة جبلية ، وذات صحار قاحلة ، وارض حجرية ، وصخرية ،
يكثر فيها الحصى .

ولقد كانت هذه المنطقة . في التاريخ . اكثر شهرة من غيرها ، ومن المعلوم أنّ هذه الشهرة
جاءت بسبب جملة من العوامل المعنوية والدينية ، فهي الآن تضم بين جوانحها بيت الله
الحرام « الكعبة المعظمة » ، قبة ملايين المسلمين ، ومهوى افئدتهم .

وقد كانت البقعة التي تقوم عليها بنية « الكعبة المعظمة » تحظى منذ سنوات مديدة قبل
بزوغ الإسلام باحترام العرب وغيرهم ، ولهذا حَرَّموا القتال حول الكعبة تعظيماً لها ، حتى إذا
جاء الإسلام أَقَرَّ للكعبة ولما حولها ، مثل ذلك الاحترام ، والتعظيم أيضاً .

ومن أهم مبدئ الحجاز : « مكة » و « المدينة » و « الطائف » ، وكان للحجاز منذ
القديم ميناءان هما : ميناء « جدة » الذي يستخدمه أهل مكة ، وميناء « ينبع » الذي
يستخدمه أهل المدينة ، في سدّ الكثير من إحتياجاتهم ويقع هذان الميناءان على ساحل «
البحر الاحمر» .

مكة المعظمة :

وهي من أشهر مُدُن العالم وأكثر المُدُن الحجازية سُكناً ، وترتفع عن سطح البحر بما
يقارب ٣٠٠ متراً .

وإذ تقع مدينة « مكة » بين سلسلتين من الجبال لذلك فانها لا تُرى من بعيد ، ويقطنها
اليوم حوالي (١٥٠) ألفاً من السكان .

تاريخ مكة :

يبدأ تاريخ « مكة المكرمة » من زمن النبي إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقد

أسكن هذا النبيُّ ولده « اسماعيل » مع أمه « هاجر » في ارض مكة ، فنشأ اسماعيل هناك ، وتزوج من القبائل التي سكنت على مقربة من تلك المنطقة .
ثم إن إبراهيم عليه السلام بنى وبأمر من الله تعالى البيت الحرام « الكعبة » .
وتقول بعض الروايات الصحيحة إن الكعبة بنيت على يد النبي نوح عليه السلام وأن ابراهيم عليه السلام جدد بناءها .

وهكذا نشأت وبعد هذا تأسست مدينة مكة .
وتتكون نواحي « مكة » من أراضٍ سبخة شديدة الملوحة بحيث لا تكون قابلة للزراعة اصلاً ، حتى أن بعض المستشرقين يذهب إلى أنه لا يوجد أية منطقة في العالم في رداءة أوضاعها الجغرافية والمحيطية والطبيعية مثل هذه المنطقة .

المدينة المنورة :

وهي مدينة تقع في شمال مكة وتبعد عنها بـ : ٩٠ فرسخاً تقريباً ، وتحيط بها بساتين ومزارع ونخيل وافرة ، وأرضها أكثر صلاحية لغرس الاشجار والزرع .
وكانت المدينة المنورة تسمى قبل الإسلام بـ « يثرب » ، وبعد أن هاجر إليها رسول الإسلام صلّى الله عليه وآله وسلم سُميت بمدينة الرسول ، ثم أطلقت عليها لفظة « المدينة » مجردة تخفيفاً .
ويحدثنا التاريخ أن العمالقة كانوا أول من سكن هذه الديار ، ثم خلف العمالقة طائفة اليهود ، والأوس والخزرج الذين سُمي المسلمون منهم بالأنصار في ما بعد .
هذا وقد سلمت الحجاز . على عكس سائر المناطق . من طمع الطامعين وغزو الغزاة والفاحين ، ولم نشاهد فيها أي شيء من آثار حضارة الامبراطوريتين العظيمتين انذاك قبل الإسلام : الروم والفرس ، وذلك لأنها إذ كانت تتألف من أراضٍ قاحلة مجذبة غير قابلة للسكنى والعيش لم تحظ باهتمام أحد من أولئك الفاتحين حتى يفكر في تسيير العساكر ، وتجهيز الجيوش لفتحها ليعود بعد تحمّل آلاف المشاكل التي تستلزمها عملية الاستيلاء على أراضي تلك المنطقة

خالي الوفاض صفر الديدن.

وللوقوف على هذه الحقيقة اقرأ القصة التالية التي نقلها « ديودرس » .
عندما دخل ديمتريوس القائد اليوناني الكبير « بطرا » (وهي مدينة قديمة من مدن
الحجاز) بهدف فتح جزيرة العرب خاطبهُ سكانُ تلك المدينة قائلين :
لماذا تحاربنا أيها الملك ديمتريوس ونحن من سكان الصحارى التي لا تُسَدُّ فيها خلّة ، ترانا
نقطن في هذه البقاع القاحلة فرارا من العبودية. إقبل هدايانا ، وارجع إلى حيث كنت ،
سنكون من أوفى الاصدقاء لك ، ولكنك إذا رغبت في حصرنا حرمت كل هناة ، ورأيت
عجزك عن اكراننا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا ، وإذا قدرت
على اسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحدا ممن أسرت يستطيع أن يألف حياة غير التي
ألفناها.

هناك رأى ديمتريوس أن يقبل هديتهم وان يرضى بالمآب ^(١).

٢ . المنطقة الوسطى والشرقية ، التي تسمى ب « صحراء العرب » ومنطقة « نجد » التي
هي جزء من هذه المنطقة أرض مرتفعة يقوم فيها بضع قُرى صغيرة معدودة.
ولقد أصبحت الرياض التي اتخذها السعوديون عاصمة لهم بعد استيلائهم من المراكز
المهمة في هذه الناحية من الجزيرة.

٣ . المنطقة الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية ، والتي تسمى ب « اليمن » وتمتد طولاً من
الشمال إلى الجنوب حوالي (٧٥٠) كيلومترا ومن الغرب إلى الشرق حوالي (٤٠٠) كيلومترا.
وتقدر مساحة هذا البلد بستين الف ميل مربع تقريباً ، ولكنها كانت . قبل ذلك . أوسع
من هذا القدر ، وقد كان قسم منها (وهو عدن) خلال النصف الاول من القرن الأخير
تحت الانتداب البريطاني ، ومن هنا ينتهي شمالاً إلى نجد ، وجنوباً إلى عدن ، وغرباً إلى
البحر الأحمر وشرقاً إلى صحراء الربع

١ . حضارة العرب : تأليف غوستاف لوبون ص ٩١ . ٢٠٠٢ . ترجمة عادل رقمتر.

الخالى (١) .

ومن مُدُ اليمن المعروفة مدينة « صنعاء » التاريخية العريقة ، ومن موانئها المشهورة ميناء « الحديدية » التي تقع على البحر الأحمر.

ومنطقة اليمن من أكثر مناطق الجزيرة العربية خصوبة وبركة ، ولها تاريخ مشرق وعريق في المدنية والحضارة ، فقد كانت اليمن مقراً للملوك تبَّع ، الذين حكموا اليمن سنيناً مديدة وكانت اليمن قبل الإسلام مركزاً تجارياً مهماً ، وكانت في الحقيقة ملتقى طرق الحجاز ، اشتهرت في العصور القديمة بمعادن الذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، وكانت تصدر إلى خارج البلاد.

ولا تزال اثار الحضارة اليمنية القديمة باقية إلى الآن.

ولقد قام أهل اليمن الاذكياء باقامة أبنية وعمارات عالية وجميلة بمهمهم العالية في عصور كان البشر يفقد فيها الوسائل الثقيلة ، والاجهزة المعقدة.

كان ملوك اليمن يحكمون البلاد دون أي منازع ، إلا أنهم رغم ذلك لم يكونوا يمتنعون عن تنفيذ مارسمه حكماء اليمن ورجالهم من انظمة وقوانين للحكم وادارة البلاد آنذاك.

ولقد سبقوا الآخرين في الزراعة والفلاحة ، وقد نظموا لإحياء الأراضي وزراعتها ، نظاماً دقيقاً للرّي طبقوا بنوده بدقة ، ولهذا كانت بلادهم تعدّ آنذاك . من البلدان الراقية المتقدمة من هذه الناحية.

فها هو « غوستاف لوبون » المؤرخ الفرنسي المعروف يكتب حول اليمن قائلاً : إن بلاد العرب السعيدة من أغنى بقاع العالم (٢) .

ويكتب الادريسي المؤرخ المعروف الذي كان يعيش في القرن الثاني عشر حول « صنعاء » قائلاً : كانت صنعاء مقر ملوك اليمن ، وعاصمة جزيرة العرب ، وانه كان لملوكها قصر متين شهير وكانت تشتمل على بيوت مصنوعة من الحجارة

١ . لقد انقسمت اليمن مؤخرًا إلى يمن شمالية وأخرى جنوبية لكل واحد منها نظام حكم خاص وحكومة خاصّة.

٢ . حضارة العرب : ص ٩٤ .

المنحوتة^(١).

هذه الآثار العجيبة التي عثر عليها المستشرقون وعلماء الآثار في تنقيباتهم الأخيرة تثبت حضارة عجيبة لليمن في عصورها القديمة وذلك في مختلف نواحيها مثل « مأرب » و « صنعاء » و « بلقيس ».

ففي مدينة مأرب (وهي مدينة سبأ المعروفة) كانت تقوم قصور ضخمة وصروح عالية ذوات أبواب وسقوف مزينة بالذهب ، وكانت تحتوي على أوان وصحون من الذهب والفضة ، وأسرة كثيرة مصنوعة من المعدن والفلز^(٢).

ومن آثار « مأرب » التاريخية السد المعروف باسم ذلك البلد والذي لا تزال اطلاله باقية ، وهو السد الذي تهدم بسبب السيل الذي وصفه القرآن الكريم بالعرم.

فقد جاء في سورة سبأ الآية ١٥ . ١٩ قوله تعالى :

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن زَرْعِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي كُلٍّ يَبْطُونَ وَأَثَلٌ وَمِنْ سِنْدٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي الْكَافِرِينَ . جَعَلْنَا لَهُمْ فِيهَا نَهْرًا وَالْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فُورًا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِوَاهُ فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِد بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كِبُلًا مَمْرُقًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »^(٣).

١ . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق على ما في حضارة العرب ، ص ٥٥ .

٢ . حضارة العرب : ص ٩٤ .

٣ . للوقوف على المزيد من المعلومات عن اليمن قديماً وحديثاً ، راجع الكتب المؤلفة حول جغرافية العالم الإسلامي .

العرب قبل الإسلام

لمعرفة أوضاع العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إلى المصادر التالية :

- ١ . التوراة على ما فيها من تحريفات .
 - ٢ . كتابات اليونانيين والروميين في القرون الوسطى .
 - ٣ . الكتابات التاريخية التي كتبها علماء الإسلام ومؤلفوه .
 - ٤ . الآثار القديمة التي عثر عليها المستشرقون في تنقيباتهم والتي استطاعت من أن تكشف النقاب عن طائفة لا يُستهان بها من الحقائق في هذا الصعيد .
- إلا انه مع وجود كل هذه المصادر والمراجع لا تزال هناك نقاط كثيرة عن تاريخ العرب في القرون البعيدة تعاني من الغموض .

ولكن حيث أنّ دراسة أوضاع العرب قبل الإسلام هي من باب المقدمة في هذا الكتاب ، والهدف الاساسي إنما هو دراسة السيرة النبوية الطاهرة ، من هنا نكتفي في هذا الفصل باستعراض النقاط الخاصة والواضحة من حياة العرب قبيل الإسلام على اننا يمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب خاصة قبيل بزوغ الإسلام من خلال مصدرين اسلاميين اساسيين هما :

- ١ . القرآن الكريم .
- ٢ . ما ورد عن الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة .

فقد وردت في هذين المصدرين تصريحات ونصوص صريحة تكشف عن ما كان عليه العرب في الجاهلية من سوء الأحوال والأوضاع والأخلاق في جميع الأصعدة والابعاد ، وسنشير إلى أبرز هذه النصوص ونقف عندها بعض الشيء ، ولكننا نستعرض قبل ذلك شيئاً من تاريخ العرب في القرون البعيدة فنقول :

إن من المسلّم أن شبه الجزيرة العربية كان منذ أقدم العصور موطناً لقبائل كثيرة انقرض بعضها بمرور الأيام ، وفي ثنايا الأحداث ، بيد ان هناك ثلاث قبائل قد تشعّبت عنها أفخاذٌ وفروع تحظى بشهرة أكثر من بين من سكنوا هذه المنطقة .
وهذه القبائل الأُم هي :

١ . العرب البائدة : وإنما سُميت بالبائدة لأنها أُيدت بالعذاب الإلهي السماويّ أو الأرضيّ بسبب عصيانها وتمردها ، وهلكت شيئاً فشيئاً ، ولم يبق على وجه الارض من نسلهم أحداً !
ولعلمهم كانوا هم المعنيون بقوم « عاد » و « ثمود » الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم مرارا .

٢ - القحطانيّون : وهم أبناء يعرب بن قحطان الذين كانوا يقطنون في « اليمن » وسائر المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ويُسمّون بالعرب الأصلاء ، وهم اليمينون اليوم ، ومنهم قبائل الأوس والخزرج وهما قبيلتان كبيرتان كانتا تقطنان المدينة المنورة إبان ظهور الإسلام .
وقد كان للقحطانيين حكومات كثيرة ، كما كانت لهم جهودٌ كبرى في تعمير ارض اليمن واحيائها ، وقد تركوا من ورائهم حضارات ومدنيّات لا يستهان بها .
وتوجد الآن كتابات تُقرأ بصورة علمية توضح إلى حد كبير تاريخ القحطانيين وكل ما يقال عن مدنيّة العرب وحضارتهم قبل الإسلام تعود في الحقيقة إلى هذه الطائفة وخاصة من سكن منهم ارض اليمن .

٣ . العدنانيون : وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام ،

وسوف يأتي ذكر جذور هذه الطبقة في الابحاث القادمة. وخلاصة ذلك : أن إبراهيم الخليل عليه السلام أمرن يسكن ولده الرضيع اسماعيل مع زوجته « هاجر » ام اسماعيل في ارض مكة ، فخرج بهما ابراهيم عليه السلام من « فلسطين » وهبط بهما في ذلك الوادي العميق الخالي عن الماء والعشب « مكة » ثم ان يد العناية الالهية امتدت إلى تلك العائلة المهاجرة ، وجادت عليها بعين « زمزم » الذي جلب الرواء والحياة إلى تلك المنطقة القاحلة الضامئة. ثم تزوج اسماعيل من قبيلة « جرهم » التي خيّم بالقرب من مكة ، واصاب من هذا الزواج عددا كبيرا من الابناء ، والاحفاد ، وأحفاد الاحفاد كان من جملتهم « عدنان » الذي ينتهي نسبه إلى النبي اسماعيل عبر عدد من الآباء والجدود. ثم تشعبت ذرية اسماعيل إلى بطون وأفخاذ ، وعشائر وقبائل عديدة ، كان من بينها قبيلة قريش التي حظيت بشهرة أكبر ، ومنها عشيرة بني هاشم التي انحدر منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ستعرف ذلك بالتفصيل ، عما قريب.

أخلاق العرب وتقاليدهم العامة :

والمراد منها هو الأخلاق والآداب الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع ، وقد سادت بعض هذه الاخلاق والعادات والتقاليد في المجتمع العربي عامة. ويمكن تلخيص ما كان العرب يتمتعون به من أخلاق وصفات حسنة عامة في ما يلي :

لقد كان العرب زمن الجاهلية وبخاصة ولد « عدنان » أسخياء بالطبع ، يكرمون الضيف ، وقلمًا يخونون في الامانة ، لا يغتفرون نقض العهود ، ولا يتهاونون مع من يتنكر للمواثيق ، يضحون في سبيل المعتقد ، ويتحلون بالصراحة الكاملة ، وربما وجد فيهم من تمتع بذكاء لامع ، وذاكرة خارقة يحفظ بها الأشعار والقصائد الطوال ، والخطب المفصلة.

هذا إلى جانب براعتهم في فن الشعر والخطابة بحيث لم يسبقهم في ذلك غيرهم وإلى جانب أنهم كانوا مضرب المثل في الشجاعة والجرأة ، والمهارة في الفروسية والرمي .
يرون الفرار والادبار في الحرب عاراً لازماً ، وصفة ذميمة يلام صاحبها بسببها اشد اللوم .
ولكن في مقابل ذلك كله كانوا يعانون من مفاسد أخلاقية تغطي على كل كمال عندهم ، وتنسي كل فضيلة .

ولو لا تلك الكوة المباركة التي فتحت عليهم من عالم الغيب ، لطويت صفحة حياتهم الإنسانية على القطع واليقين .

يعني لو لم تبرز شمس الإسلام في أواسط القرن السادس الميلادي ، ولم تسطع اشعتها الباعثة على الحياة ، على عقولهم وقلوبهم لما رأيت اليوم من العرب العدنانيين اي اثر ، ولتكررت مقولة العرب البائدة مرة أخرى!

لقد حوّل فقدان القيادة الرشيدة ، وغياب الثقافة الصحيحة حياة العرب ، من جانب ، وانتشار الفساد والفحشاء من جانب آخر إلى حياة حيوانية مُزرية حتى أن صفحات التاريخ تروي لنا أخبارا وقصصا مفصلة عن حروب دام بعضها خمسين عاما ، وبعضها الآخر مائة عام قد نشبت بين الاطراف العربية لأسباب طفيفة ودوافع تافهة جدا .

لقد أدى عدم سيادة النظام والقانون على الحياة العربية ، وعدم وجود حكومة قوية مسيطرة على الاوضاع ، توقف البغاة والمتمردين عند حدودهم ، إلى أن يعيش العرب .
آنذاك . في صورة القبائل الرُّحَل ، ويرحلوا في كل سنة إلى منطقة معينة من الصحراء التماساً للعشب والماء لانفسهم ولانعامهم ، فاذا عثروا على ماء وعُشب أو شيء من آثار الحياة نزلوا عنده ، وأنزلوا رحالهم بجواره ، فاذا سمعوا عن وجود مكان افضل استأنفوا رحلتهم الصحراوية التماسا لحياة أكثر بركة ، وعطاء ، وأوفر خصباً وأمناً .

هذه الحيرة وهذا الضياع وعدم الاستقرار كان ناتجاً من أمرين :

الأوَّ : سوء الاوضاع الجغرافية ورداءة الأحوال الطبيعية للجزيرة العربية ، وخاصة من حيث الماء والمناخ والمراعي .

والآخر : الحروب والمصادمات الدموية الكثيرة ، واضطراب الأحوال الاجتماعية ، التي كانت تُلجئ جماعات كثيرة إلى التنقل الدائم والرحيل عن الأوطان ومغادرتها ، وعدم الاستقرار في منطقة معينة .

هل كان للعرب حضارة قبل الإسلام؟

يستنتج مؤلف كتاب « حضارة العرب » من دراسته لأوضاع العرب الجاهلية أن العرب كانوا أصحاب حضارة عريقة سبقت الإسلام بقرون .

فالقصور الضخمة التي أقاموها في مختلف نقاط ومناطق الجزيرة العربية ، والعلاقات التجارية التي كانت لهم مع ارقى شعوب الأرض ، شواهد قوية على تمدنهم وحضارتهم الغابرة ، لأن قوماً أنشأوا المدن العظيمة . قبل الرومان بقرون كثيرة . وكانت علاقاتهم بارقي وأكبر شعوب الأرض وثيقة ، لا يمكن عددهم همجاً ، وشعباً بلا حضارة .

ثم إنه يستدل . في موضع آخر من كتابه . على حضارة العرب الغابرة بادابهم ووحدة وكمال لغتهم إذ يقول :

« ولو كان التاريخ صامتا إزاء حضارة لقطعنا . مع ذلك . بوجودها قبل ظهور « محمد » بزمان طويل ، ويكفي لتمثلها أن نذكر أنه كان للعرب آداب ناضجة ولغة راقية .
والحق أن الآداب واللغة من الأمور التي لا تأتي عفواً ، وهي تتخذ دليلاً على ماض طويل ، وينشأ عن إتصال أمة بأرقى الامم اقتباسها لما عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك .»

وقد خصَّص المؤلف المذكور صفحات عديدة في كتابه لإثبات حضارة عريقة وعظيمة للعرب قبل الإسلام معتمداً في ذلك على ثلاث أمور :

١ . وجود لغة راقية .

٢ . وجود علاقات مع الامم الراقية.

٣ . وجود قصور وأبنية ضخمة ، وفخمة في اليمن كما يصفها المؤرخان المسيحيان المعروفان « هيردوتس » و « ارتميدور » اللذان كانا يعيشان قبل المسيح بقرون ، وقدامى المؤرخين المسلمين كالمسعودي ^(١) .

لا كلام في أنه كانت هناك في بعض مناطق الجزيرة العربية بعض حضارات ، ولكن الأدلة التي استند اليها المؤلف المذكور لا يمكن ان تكون شاهدا ودليلا على وجود الحضارة في جميع نقاط الجزيرة العربية أبدا.

صحيح أن تكامل اللغة يسير جنباً إلى جنب مع غيره من مظاهر المدنية ، ولكن لا يمكن ان نعتبر اللغة العربية لغة مستقلة وغير مرتبطة باللغات الأخرى اي العبرانية والسريانية والآشورية والكلدانية ، لأن جميع هذه اللغات . حسب ما يؤيده ويؤكد المتخصصون في علم اللغات . كانت ذات يوم . متحدة الأصل ، وقد تشعبت من لغة واحدة ، وفي هذه الحالة يتحمل أن تكون اللغة العربية قد حققت تكاملها عبر اللغة العبرانية أو الآشورية ، وبعد تكاملها أصبحت لغة مستقلة ، أي ان الآخرين أسهموا في تكميلها.

كما أنه لا شك أن وجود علاقات تجارية مع الأمم والشعوب الراقية هو الآخر دليل على الحضارة والمدنية إلا أنه هل كانت جميع مناطق الجزيرة العربية تملك مثل هذه العلاقات ، أم إن أكثرها كانت محرومة من ذلك؟ ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فان وجود علاقات بين حكومتين في الحجاز وهما : « الحيرة وغسان » وبين حكومتي « الفرس » و « الروم » لا يدل أبدا على وجود حضارة في المنطقتين الحجازيتين إذ أن جميع هذه الحكومات كانت متصفة بالعمالة ، فان الكثير من البلاد الافريقية هي اليوم من مستعمرات الدول الاوربية ومع ذلك لا توجد فيها أية مؤشرات ولا أية مظاهر من الحضارة الغربية الواقعية.

١ . حضارة العرب : ٧٨ . ١٠٠ .

طبعاً لا يمكن إنكار حضارة « سبأ ومأرب اليمن » العجيبة لأنه مضافاً إلى ما جاء حول هذه الحضارة في التوراة ، وما نُقِلَ عن « هيردوتس » وغيره ، كتب المؤرخ المعروف « المسعودي » عن مأرب يقول : إن ارض سبأ كانت من أخصب أراضي اليمن وأثرها وأغدقها ، وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مُروجاً ، بين بُنيان وجسد مقيم وشجر موصوف ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجدد على هذه الحال ، وفي العرض مثل ذلك ، وأنّ الراكب أو المارّ كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا يرى جهة الشمس ، ولا يفارقه الظلُّ لاستتار الارض بالعمارة والشجر واستيلائها عليها واحاطتها بها ، فكان أهلها في اطيب عيش وارفهه ، وأهنا حال وارغده ، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء ، وتدقق المياه وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ... فذلّت لهم البلاد ، واذعن لطاعتهم العباد فصاروا تاج الارض ^(١) .

وخلاصة القول أن هذه الدلائل لا تدل على وجود حضارة في كل مناطق الجزيرة العربية وخاصة منطقة الحجاز التي لم تذق طعم الحضارة أبداً ، حتّى أن « غوستاف لوبون » نفسه يعترف بهذه الحقيقة إذ يقول : « ان جزيرة العرب نجبت من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حدودها الشمالية ، وإن عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التي أوصدت دونهم أبوابها » ^(٢) .

وعلى فرض صحة كل ما قيل عن وجود حضارة شاملة في جميع مناطق الجزيرة العربية فانه يجب القول بان القدر المسلّم في هذا المجال هو انه لم يبق أي أثر من هذه الحضارات في منطقة الحجاز ، إبان طلوع الإسلام ، وبزوغ شمسهِ ، وهي حقيقة يصرح بها القرآن الكريم إذ يقول تعالى : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ^(٣) .

١- مروج الذهب : ج ٢ ، ص ١٦١ و ١٦٢ .

٢- حضارة العرب : ص ٩٣ .

٣- آل عمران : ١٠٣ .

وينبغي هنا أن نقف عند القرآن الكريم قليلا . كما وعدنا بذلك . فانه خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بدقة متناهية وبشمولية ماوراءها شمولية.

ملاحح المجتمع الجاهلي العربي في منظور القرآن :

إن القرآن يكشف إجمالا عن أن النبي ﷺ بُعث إلى قوم لم يبعث اليها احد قبله إذ يقول : « وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »^(١).

ويقول في آية أخرى : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »^(٢).

ومن المعلوم أن المقصود في هاتين الايتين ونظائرها هم قريش والقبائل القريبة اليها . على أن أشمل وصف قرآني لأوضاع المجتمع العربي الجاهلي وأحواله هو قول الله تعالى : « عَلَّمَهُمْ حِوَالَةَ اللَّهِ لِيُعَلِّمَهُمُ الْكُرْآنَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »^(٣) .

فإن هذه الآية تصوّر حياة العرب تصويراً مرعباً ، إذ تُصوّرهم اولا وكأنهم قد سقطوا في قعر بئر الجاهلية ، والضلال والشقاء فلا ينقذهم شيء من قعر التردّي والسقوط الا التمسك بحبل الله ، حبل الإيمان والقرآن . وتصوّرهم ثانياً وكأنهم على سفير جهنم يوشكون أن يسقطوا فيه ويهواوا في نيرانه ، وليست تلك النار إلا نيران العداوات والحروب التي لو لم يقض عليها الإسلام بتعاليمه لاحرقت حياة العرب جميعا .

هذه هي صورة سريعة عما كان عليه العرب في الجاهلية من جهل وسقوط .
وامّا تفصيل ذلك فيمكن الوقوف عليه بمراجعة الآيات الأخرى التي

١ . القصص : ٤٦ .

٢ . السجده : ٣ .

٣ . آل عمران : ١٠٣ .

تعرضت لذكر عادات العرب وأخلاقهم ، وأفعالهم وتقاليدهم ، بصورة مفصلة ، وها نحن نشير هنا إلى تلك العادات والاحلاق الفاسدة على ضوء تلك الآيات على نحو الاختصار تاركين التوسع في ذلك إلى مجال آخر.

لقد اتصف المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام وشاعت فيه أخلاق وعادات من أبرزها ما يلي :

١ . الشير في العبادة :

صحيح أن العرب في الجاهلية كانت . كما يكشف القرآن ذلك لنا . موحدّة في جملة من الامور والمجالات كالحالية والتدبير والذات ^(١) إلا أنهم كانوا . في الأكثر . مشركين في العبادة ، بل قد ذهبوا في هذا السبيل الباطل إلى أحطّ المستويات في إتخاذ المعبودات والوثنية.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « جَعَلُوا لِلَّهِ تَرَكَاءَ لِحْنٍ خَرَّوْا لَهُمْ خَرَّوْا لَهُ مُبِينًا وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ » ^(٢) .

وقوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعِزَّ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » ^(٣) .

وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى ما كان يعبدّه الجاهليّون من أوثان وأصنام ومبلغ ما وصلوا إليه من انحطاط ، واسفاف وانحراف في هذا المجال.

٢ . إنكار المعاد :

كان المشركون والجاهليون يرفضون الاعتراف بالمعاد الذي يعني عودة الإنسان إلى الحياة في عالم آخر للحساب والجزاء ، ويصفون من يخبر عن ذلك

١ . نعم يُستفاد من آية واحدة أنّه كان هناك اتجاه نادر بين العرب في الجاهلية ينسب الظواهر الطبيعية إلى الطبيعة والدهر يقول الله تعالى : « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (الجاثية : ٢٤) .

٢ . الأنعام : ١٠٠ .

٣ . النجم : ١٩ و ٢٠ .

اليوم بالجنون أو الكذب على الله!!

يقول تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُؤَدَّبُكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَغِيكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كَيْلٌ مُّبْرَقٌ إِنَّا كُنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَأَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِجَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ مُلَضَّلَاتٌ لَّا يَتَذَكَّرُونَ »^(١).

٣ . هَيْمَنَةُ الْخِرَافَاتِ :

لقد كانت حياة العرب الجاهلية مليئة بالخرافات التي كان منها تحريمهم الأكل من أنعام اربعة ذكرها القرآن مندداً بهذه البدعة إذ قال : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكِبْرَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »^(٢).

أما (البحيرة) بوزن فعلية بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق ، فهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها أنثى . وقيل ذكر . بحروا أذنفا وشقوها ليكون ذلك علامة وتركوها ترعى ، ولا يستعملها أحد في شيء .

وأما (السائبة) على وزن فاعلة بمعناها أو بمعنى مفعولة فهي الناقة إذا نتجت اثني عشر بطناً . وقيل عشرة . فهي تُهْمَلُ ولا تُرْكَبُ . ولا تمنع عن ماء ، ولا يشرب لبنها الاضيف .
وأما (الوصيلة) بوزن فعيلة بمعنى فاعلة أو بمعنى مفعولة فهي الشاة تنتج سبعة أبطن أو تنتج عناقين عناقين .

وأما (الحامي) بوزن فاعل من الحمى بمعنى المنع فهو الفحل من الإبل الذي يستخدم للقاح الأناث ، فاذا وُلِدَ من ظهره عشرة ابطن قالوا : حُمِي ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يُمنع من ماء ومرعى^(٣) .

والظاهر ان هذا المذهب تجاه هذه الانواع من الانعام كان بدافع الاحترام

١ . سبأ : ٧ و ٨ .

٢ . المائدة : ١٠٣ .

٣ . راجع مجمع البيان : ج ٣ ، ص ٢٥٢ و ٢٥٣ في تفسير الآية .

والشكر لما وهب أصحابها من النعم والبركات ، غير ان هذا العمل . كان في حقيقته . نوعاً من الإيذاء والإضرار بهذه الحيوانات ، لأنهم كانوا يُهملونها ويحرمونها من العناية اللازمة فكانت تشقى بقية حياتها ، وتقاسي من الحرمان ، مضافاً إلى ما كان يصيبها من التلذذ والضياع ، وما يلحق ثروتهم والنعم التي وهبها الله لهم من هذا الطريق من الضرر والخسارة . والأسوأ من كل ذلك أنهم . كما يُستفاد من ذيل الآية . كانوا ينسبون هذه المبتدعات المنكرات وهذا المنع والحظر إلى الله سبحانه وتعالى ، إذ يقول سبحانه : « وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » وقد أعلم الله في مطلع الآية أنه لم يحرم من هذه الأشياء شيئاً ، وأنهم ليكذبون على الله بادّعائهم أن هذه الأشياء من فعل الله أو أمره . وقد أشار القرآن إلى هذه الخرافات التي كانت تُكبّل عقول الناس في ذلك المجتمع إذ يقول : « وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » ^(١) .

٤ . الفساد الاخلاقي :

كان المجتمع الجاهلي العربي يعاني من فساد ذريع في الاخلاق وقد أشار القرآن الكريم إلى اثنين من أبرز وسائل الفساد ومظاهره هما : القمار (الذي كانوا يسمونه بالميسر وانما اشتق من اليسر لأنه اخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب) والخمر . وقد بلغ شغفهم بالخمر أنهم أعرضوا عن قبول الإسلام واعتناقه لأنه يحرم تناول الخمر وشربه ، كما نقرأ ذلك في قصة الاعشى عما قريب . يقول القرآن في هذا الصعيد : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا » ^(٢) .

وقد استطاع القرآن الكريم عبر مراحل أربع أن يستأصل هذه العادة البغيضة

١ . الأعراف : ١٥٧ وراجع المحرر : ص ٣٣٠ . ٣٣٢ .

٢ . البقرة : ٢١٩ .

التي كانت قد تجذرت بشكل عجيب في نفوس ذلك القوم ، حتى أصبحت السمة البارزة لحياتهم وأصبح التغني بالخمرة ، ووصفها الطابع الغالب لأدبهم ، واللون البارز الذي يصيغ قصائدهم وأشعارهم.

على أن الفساد الأخلاقي في المجتمع الجاهلي العربي قبل الإسلام لم يكن ليقصر على معاورة الخمر ، ومزاولة الميسر بل تعدى إلى ألوان أخرى ذكرها القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً ، حيث عدّ منها الزنا ، واللوط ، والقذف ، وإكراه الفتيات على البغاء وماشا كل ذلك ^(١).

٥. مَدِّ البَنَاتِ وَإِقْبَاؤُهُنَّ :

ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى عادة جاهلية سيئة أخرى كانت رائجة بين قبائل العرب الجاهلية قاطبة وهي دفن البنت حية.

فقد شجب القرآن الكريم هذه العادة البغيضة وهذا العمل اللانساني ونهى عنه بشدة في أربعة مواضع ، إذ قال تعالى : « **مَآذِ الْمُؤَدَّةِ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** » ^(٢) . وقال تعالى : « **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ مِنْ يَدِنَا إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** » ^(٣) .

وقد أتى جد « الفرزدق » « صعصعة بن ناجية بن عقيل » رسول الله ﷺ و وعد من أعماله الصالحة في الجاهلية أنه فدى مائتين وثمانين مؤودة في الجاهلية ، وأنقذهن من الموت المحتم باشتراهن من آبائهن بأمواله.

وقد افتخر « الفرزدق » بإحياء جدّه للمؤودات في كثير من شعره إذ قال :
ومبىا الذي مبع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يؤاد ^(٤)

١ - راجع للوقوف على ذلك سورة النساء : ١٥ و ١٦ . وسورة النور : ٢ و ٣ وغيرها . وراجع المحبر : ص ٣٤٠ .

٢ - التكوير : ٨ و ٩ .

٣ - الإسراء : ٣١ .

٤ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : ج ٣ ، ص ٤٥ و ٤٦ .

٦ . تصوراتهم الخرافية حول الملائكة :

ومما اشار إليه القرآن الكريم تصورات العرب الجاهلية حول الملائكة ، فقد كانوا يعتقدون أن الملائكة من الإناث وأنهن بنات الله ، إذ يقول تعالى : « فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَهُمْ الْبُنُونَ . ام خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَبَدَّ اللَّهُ فِي نَهْمِهِمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » ^(١) .

٧ . كيفية الانتفاع من الانعام :

إذا كانت العرب الجاهلية تمتنع من تناول لحوم الأنعام الاربعة المذكورة أنفا وتجتنب عن استعمال ألبانها وشعورها وأصوافها إلا أنها كانت في المقابل تتناول الدم ، والميتة والخنزير ، وتأكل من الحيوانات والأنعام التي تقتلها بصورة قاسية ، وبالتعذيب والأذى ، وربما كانت تعتبر ذلك نوعاً من العبادة ، ويُعرف ذلك من الآية التالية التي نزلت تنهى بشدة عن أكل هذه اللحوم ، وتحرم تناولها ، إذ يقول سبحانه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ مِمَّا هَلَكَ عَلَيْهِ ۗ وَاللَّهُ بِهِ مُلْمَخِئَةٌ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُحِّجَ عَلَى النُّصْبِ وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقْ » ^(٢) .

فقد حرم الله في هذه الآية أكل :

١ . الميتة .

٢ . الدم .

٣ . لحم الخنزير .

٤ . ما ذكر اسم غير الله عليه .

٥ . التي تموت خنقاً ، وهي المنخنقة .

١ . الصافات : ١٤٩ - ١٥٤ .

٢ . المائدة : ٣ .

٦ . التي تضرب حتى تموت ، وهي الموقوذة.

٧ . التي تقع من مكان عال فتموت وهي المتردية.

٨ . التي تموت نطحا من حيوان آخر وهي النطيحة.

٩ . ما افترسه سبع إلا إذا ذُكي قبل موته.

١٠ . وما ذُبِح أمام الاصنام.

٨ . الاستقسام بالأزلام :

فقد كان تقسيم لحم الذبيحة يتم عن طريق الأزلام ، والأزلام جمع (زلم) بوزن (شبر) وهي عيدان وسهام تستخدم في ما يشبه القرعة لتقسيم لحم الذبيحة .
فقد كان يشتري عشرة أنفار بعيراً ثم يذبحونه ، ثم يكتبون على سبعة منها اسهماً مختلفة من الواحد إلى السبعة ولا يكتبون على ثلاثة منها شيئاً ، ثم يجعلونها في كيس ثم يستخرجونها واحدة بعد أخرى ، كل واحدة باسم أحدهم فيأخذ كل واحد منهم من الذبيحة ما خرج له من السهم ، وهكذا يقتسمون الذبيحة بينهم ^(١) ، فنهاهم الله عن ذلك بقوله : « وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ جَمْعٌ مِنْ قَمَرٍ عَلَى مَغَاسِدٍ مِيسِرٍ وَالْقَمَارِ .

٩ . النسيء :

كان العرب الجاهليون يعتقدون حرمة الاشهر الحرم (وهي اربعة المحرم ورجب وذوالقعدة وذوالحجة) فكانوا يتخرجون فيها من القتال ، وجرت عادة العرب على هذا من زمن إبراهيم واسماعيل عليهما السلام .

الآن سَدَنَةُ الكعبة أو رؤساء العرب كانوا يعمدون أحياناً ، ولقاء مبالغ يأخذونها ، أو جرياً مع أهوائهم ، إلى تأخير الاشهر الحرم ، وهو الأمر الذي عبر

١ . راجع للوقوف على تفصيل هذه الطريقة بلوغ الارب : ج ٣ ، ص ٦٢ و ٦٣ ، والمخير : ص ٣٣٢ و ٣٣٥ .

عنه القرآن الكريم بالنسيء ثم نهي عنه وعده كفراً إذ قال : « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سِوَاءِ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » (١).

وقد ذكرت كُتُبُ التاريخ والسير كيفية النسيء وتأخير الأشهر الحرم ، الذي كان يتم بصورة مختلفة منها : أن جماعة ما لو كانت ترغب في استمرار الغارة والقتال ولم تطق تأخير النضال مدة الأشهر الحرم كانت تطلب من سدنة الكعبة ، لقاء ما تقدمه لهم من هدايا واموال ، تجويز الغارة والقتال في شهر محرم ، وتحرم القتال في شهر صفر بدله ل يتم عدد الأشهر الحرم (وهي اربعة) . وهذا هو معنى قوله تعالى : « لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » وكانوا إذا أحلُّوا القتال والغارة في الحرم من سنة حرَّموه في الحرم من السنة التالية ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « يُحِلُّونَهُ عَامًا ، وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا » .

١٠ . الربا :

ومما يشير إليه القرآن الكريم من المفاصد الشائعة ، والأعمال المنكرة في المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام : « الربا » الذي كان يشكل العمود الفقري في اقتصاد ذلك المجتمع . وقد حارب القرآن الكريم هذه العادة المقيتة ، وهذا الفساد الاقتصادي حرباً شعواء ، إذ قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَبِرِّهُ أَمَّْا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ وَرُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » (٢).

والعجيب أنهم كانوا يُبرِّونَ هذا العمل الإنساني بقولهم « إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا » (٣) فاذا كان البيع حلالاً وهو اخذ وعطاء فليكن الربا كذلك حلالاً ، فإنه أخذٌ وعطاءٌ أيضاً ، مع أن « الربا » من اشنع صور الاستغلال ، وقد ردَّ

١ . التوبة : ٣٧ .

٢ . البقرة : ٢٧٨ و ٢٧٩ .

٣ . البقرة : ٢٧٥ .

سبحانه على هذه المقالة بقوله تعالى : « وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا »^(١) ففي البيع والشراء يتساوى الطرفان في تحمل الضرر المحتمل ، بينما لا يتضرر المرابي في النظام الربوي أبداً وإنما يلحق الضرر بمعطي الربا دائماً ، ولهذا تنمو المؤسسات الربوية ، ويعظم رصيدها ، وثروتها يوماً بعد يوم فيما يزداد الطرف الآخر بؤساً وفقراً ، ولا يحصل من جهوده المضنية إلا على ما يسدُّ جوعته ، ويقيم اوده ، لا أكثر ، كل ذلك نتيجة لهذا الاسلوب الاقتصادي غير العادل.

صور من الوضع الجاهلي

ما قدمناه كان أبرز المفاصد الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي اشار اليها القرآن الكريم ، وأما التاريخ فملئ بالصور والقصص التي تحكي عن تردي حالة العرب الجاهلية وسقوطها الفضيح في فعر الفساد في جميع المناحي والجهات .
واليك في ما يلي نماذج وصور معدودة تكفي للوقوف على الحالة العامة في ذلك المجتمع نقتبسها لك من أصح المصادر واثقها :

وها نحن نقدم قصة « أسعد بن زرارة » التي تسلط الضوء على ما كان عليه الوضع الجاهلي في أكثر مناطق الحجاز ، فقد قدم « أسعد بن زرارة » و « ذكوان بن عبد قيس » - وهما من الأوس وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهنراً طويلاً ، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار ، وكان آخر حرب بينهم « يوم بُعث » وقد انتصر فيها الأوس على الخزرج . مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس ، وكان اسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة ، فنزل عليه فقال : انه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناك نطلب الحلف عليهم ، فقال له عتبة : إن لنا شغلاً لا نتفرغ لشيء . قال سعد : وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة : خرج فينا رجلٌ يدعي أنه رسول الله سقّه أحلامنا ، وسب آلهتنا وأفسد

١ . البقرة : ٢٧٥ .

شُبَّاننا ، وفرق جماعتنا ، فقال له أسعد : مَنْ هو منكم؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً ، وأعظمنا بيتاً .

وكان أسعد وذكوان ، وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم : النضير وقريظة وقينقاع ، أن هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة بالمدينة لنقتلنكم به يا معشر العرب ، فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود ، قال : فأين هو؟ قال : جالس في الحجر ، وإئتم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم ، فلا تسمع منه ولا تكلمه فانه ساحر يسحرك بكلامه ، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في شعب أبي طالب ، فقال له « أسعد » : فكيف أصنع وأنا معتمر لآبدي أن أطوف بالبيت؟ قال : ضع في أذنك القطن ، فدخل « أسعد » المسجد وقد حشا أذنيه بالقطن ، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم ، فنظر إليه نظرة فجازة ، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه : ما أجد أجهل مني؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا تعرّفه حتى ارجع إلى قومي فاخبرهم ، ثم أخذ القطن من اذنيه ورمى به وقال لرسول الله : أنجم صباحاً ، فرجع رسول الله ﷺ رأسه إليه وقال : قد أبدلنا الله به ما هو احسن من هذا ، تحية أهل الجنة : السلام عليكم ، قال له أسعد : (إنَّ عهدك بهذا القريب ، إلى ما تدعو يا محمد؟ قال : إلى شهادة ألا إله إلا الله ، واني رسول الله ، وأدعوكم إلى : « ألا تشركوا به شيئاً برأى لدين حسيه ماناً لا تقتدوا به دكم من ملاق بن برزقكم وإبائهم ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصباكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل ولميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصباكم به لعلكم تدكرن »^(١) .

١ . الأنعام : ١٥١ و ١٥٢ .

فلما سمع « أسعد » هذا قال له : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، يا رسول الله بأبي أنت وأمي ... (١).

إن الامعان في مفاد هاتين الآيتين يغنيانا عن دراسة شاملة وواسعة لوضع العرب الجاهلية لأن هاتين الآيتين تكشفان عن الأمراض الاخلاقية التي كانت تكتنف حياة العرب الجاهلية. ولهذا تلا رسول الله الآيات التي تشير إلى هذه الادواء والامراض ليلفت نظر « أسعد » إلى أهداف رسالته الكبرى.

العقيدة والدين في الجزيرة العربية :

عند ما رفع « إبراهيم الخليل » لواء التوحيد في البيئة الحجازية ، واعاد بناء الكعبة المعظمة ورفع قواعدها بمعونة ابنه « اسماعيل » ، تبعه في ذلك طائفة من الناس ممن أنار الله به قلوبهم ، إلا انه من غير المعلوم إلى اي مدى استطاع ذلك النبي العظيم أن يعبم دين التوحيد ويسط لواءه على الجميع ، ويؤلف صفوفاً مترابطة ، وجبهة عريضة قوية من الموحدين ، غير ان من المعلوم انه اصبحت تلك المنطقة مسرحاً للوثنية ولعبادة الاشياء المختلفة مع الايام فقد كانت الطبقة المثقفة من العرب تعبد الكواكب والقمر ، فهذا هو المؤرخ العربي الشهير الكلبي الذي توفي عام ٢٠٦ هجرية يكتب في هذا الصدد قائلاً كان « بنومليح » من خزاعة يعبدون الجن وكانت « حمير » تعبد الشمس ، و « كنانة » تعبد القمر ، و « تميم » الدبران ، و « لحم » و « جذام » المشتري ، و « طي » سهيلاً ، و « قيس » الشعري ، و « أسد » عطاردا.

أما الدهماء والذين كانوا يشكلون اغلبية سكان الجزيرة فقد كانوا يعبدون . مضافا إلى الصنم الخاص بالقبيلة أو العائلة . ثلاثمائة وستين صنماً ، وكانوا ينسبون أحداث كل يوم من أيام السنة إلى واحد منها.

وقد دخلت عبادة الأصنام والأوثان في مكة بعد « إبراهيم الخليل »

١- بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٨ و ٩ ، اعلام الورى : ص ٣٥ . ٤٠.

عائلاً على يد « عمرو بن لحي » ، ولكنها لم تكن في بداية أمرها بتلك الصورة التي وصلت إليها في ما بعد فقد كانوا يعتبرونها في بداية الامر شفعاء إلى الله ووسطاء بينه وبينهم ، ولكنهم تجاوزوا هذا الحد في ما بعد حتى صاروا يعتقدون شيئاً فشيئاً بأنها اصحاب قدرة ذاتية مستقلة ، وأنها بالتالي آلهة وأرباب.

وكانت الاصنام المنصوبة حول الكعبة تحظى باحترام جميع الطوائف العربية ، ولكن الاصنام الخاصة بالقبائل فقد كانت موضع احترام جماعة خاصة فقط ، ولأجل أن تبقى حرمة هذه الأصنام والأوثان الخاصة محفوظة لا يمسها أحد بسوء كانوا ينشؤون لها أماكن وبيوت خاصة ، وكانت سدانة هذه البيوت والمعابد تنتقل من جيل إلى آخر بالوراثة.

أما الأصنام العائلية فقد كانت العوائل تقتنيها للعبادة كل يوم وليلة ، فاذا أراد احدهم السفر كان اخر ما يصنعه في منزله هو ان يتمسح به أيضا.

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها ، واتخذهُ رِبّاً وجعل ثلاثة أثاقٍ لقدره ، وإذا ارتحل تركه.

وكان من يحى هَلِكَةً حُمِيْمًا لكعبة الحرام نه لى سلفهم حدلاً بَلِّ معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وجباً له فحيثما حلّوا نصبوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صباية بها ، ويمكن أن تكون هذه هي « الأنصاب » التي فسرت بالاحجار العادية غير المنحوتة وتقابلها الأوثان ، وهي الاحجار المنحوتة على هيئة خاصة ، وأما « الأصنام » فهي المعمولة من خَشَبٍ أو ذهب أوفضة على صورة انسان.

لقد بلغ خضوعُ العرب أمام الاصنام والأوثان حدّاً عجيباً جداً ، فقد كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون كسب رضاها بتقديم القرابين إليها ، وكانوا بعد نحر الهدايا يلطخون وجوه الاصنام ورؤوسها بدماء تلك الهدايا ، وكانوا يستشيرونها في مهام امورهم ، وجلائل شؤونهم ، فاذا ارادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدّوا له ومعرفة عاقبته أخيراً هو أم شرٌّ استقسم لهم أمين القداح بقدحي

(الأمر والنهي) وهي قطع كُتِبَ على بعضها (إِفْعَل) وعلى بعضها الآخر (لا تَفْعَل)
فيمدُّ أمين القداح يده ويجيل القداح ويخرج واحداً فان طَلَعَ الأمر فعل أو الناهي ترك.
وخلاصة القول ، ان الوثنيّة كانت العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية ، وقد تَفَشَّتْ فيهم
في مظاهر متنوعة ومتعددة ، وكانت الكعبة المعظمة . في الحقيقة . محطَّ أصنام العرب الجاهلية
وألهتهم المنحوتة ، فقد كان لكل قبيلة في هذا البيت صنم ، وبلغ عدد الاصنام الموضوعة في
ذلك المكان المقدس (٣٦٠) صنماً في مختلف الاشكال والهيئات والصور ، بل كان النصارى
أيضاً قد نقشوا على جدران البيت وأعمدته صوراً لمريم والمسيح والملائكة ، وقصّة ابراهيم .
وكان من جملة تلك الأصنام : « اللات » و « العزى » و « مناة » التي كانت تعتبرها
قريش بنات الله ويختص عبادتها بقريش .

وكانت « اللات » تعتبر أمُّ الالهة ، وكان موضعها بالقرب من « الطائف » وكانت من
الحجر الابيض ، واما « مناة » فكانت في عقيدتهم إلهة المصير وريّة الموت والاجل وكان
موضعها بين « مكة » و « المدينة » .

ولقد اصطحب « ابوسفيان » معه يوم « أحد » : « اللات » و « العزى » .
ويروى انه مرض ذات يوم « أبو أحيحة » وهو رجل من بني أمية ، مرضه الذي مات
فيه ، فدخل عليه ابولهب يعودده ، فوجده يبكي ، فقال : ما يبكيك يا با احيحة؟ أمن
الموت تبكي ولا بد منه؟ قال : لا ولكني اخاف ان لا تُعَبِدَ العزى بعدي! قال ابولهب : والله
ما عُبدَ حياتك (اي لا جلك) ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك!! فقال أبو احيحة : الآن
علمت ان لي خليفة^(١) .

ولم تكن هذه هي كل الأصنام التي كانت تعظّمها وتعبُدُها العرب بل كانت لقريش
اصنام في جوف الكعبة وحولها وكان اعظمها « هُبَيْل » ، كما انه لم يكن لكل قبيلة صنم
خاص فحسب بل كانت كل عائلة تعبد صنماً خاصاً بها

١ . الأصنام للكلي : ص ٢٣ .

مضافاً إلى صنم القبيلة وكانت المعبودات تتراوح بين الكواكب ، والشمس ، والقمر ، والحجر ، والخشب ، والتراب ، والتمر ، والتمثيل المنحوتة المختلفة في الشكل ، والهيكل ، والاسم ، المنصوبة في الكعبة أو في سائر المعابد.

لقد كانت الاصنام جميعها أو أغلبها معظّمة عند العرب ، يتقربون عندها بالذبائح ويقربون لها القرابين ، وجرت عادة بعض القبائل انذاك أن تختار من بين أفرادها كل سنة شخصاً في مراسيم خاصة ثم تذبحه عند أقدام اصنامها ، وتقبر جسده على مقربة من المذبح.

هذا العرض المختصر يكشف لنا كيف أن ارض الجزيرة العربية برمتها كانت قد اصبحت مسرحاً للاصنام ومستودعاً ضخماً للاوثان ، وكيف تحولت هذه البقعة من العالم ببيوتها وازقتها وصحاريها وحتى بيت الله المحرم كانت قد تحولت إلى مخزن للثُصْب المؤهّة ، والتمثيل المعبودة ، ويتجلى هذا الأمر من قول شاعرهم الذي اسلم وراح يستنكر ما كان عليه من عبادة الاصنام المتعددة الخارجة عن الاحصاء والعدّ ، إذ قال :

رَأبِّبَا وَاخِـدَا أُمَ الْفِـرِّ َ أَدِينِ إِذَا تَقَسَّـمَتِ الْأُمُورُ
عَزَلتِ اللَّاتِ وَالْعَزَى جَمِيعَا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلِيدُ الصَّبُورُ
فَلَا عُبُزِيَّ أَدِينِ وَلَا ابْتِيهَا وَلَا صَبَانِمِي بِنِي عَمْرُو أُذُرُ
وَلَا غَنَمَا أُزُورُ وَكَانَ رَبِّبَا لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حَلَمِي يَسِيرُ
وَلَكِنِ اعْبُدِ الرَّحْمَانَ رَبِّي لِيَعْتَقِرَ ذَنْبِي الرَّبُّ الْغَبُورُ^(١)

وقد حدثت بسبب الاختلاف والتعددية في عبادة الاصنام والاثان المؤهّة السخيفة الباطلة ، تناقضات ، وصراعات ، وحروب ومناحرات ، قد جرّت بالتالي ويلات ومآس وخسائر مادية ومعنوية كبرى على تلك الجماعة المتوحشة ، الضالة.

١ . بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٢ ، ص ٢٤٩ وجاء البصير .

عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت :

وعن مصير الإنسان وحالته ما بعد الموت هذه المشكلة الفلسفية العويصة كانت رؤية العرب ونظرتهم تتلخص في ما يلي :

عند ما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده على هيئة طائر شبيه باليوم يسمى عندهم بـ « الهامة والصدى » ثم يبقى هذا الطائر قريباً من جسد الميت ينوح نوحاً مقرحاً وموحشاً ، وعند ما يوارى الميت يبقى هذا الطائر مقيماً عند قبره إلى الابد!

وربما وقف على جدار منزل الميت أحياناً لِنَسْقُطُ أخبار عائلته والاطلاع على أحوالهم!!
قال شاعرهم في ذلك :

سُبِّطُ الْمَوْتِ وَالْمَنْوَنُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَام
وإذا كان المرء قدماء بموتة غير طبيعية كما لو قُتِلَ . مثلاً . فإن ذلك الحيوان ينادي باستمرار : « اسقوني ... اسقوني » اي اسقوني بسفك دم القاتل واراقتة ؛ ولا يسكن عن هذا النواح والنداء الخاص الابد الانتقام والثأر من قاتله.

قال احدهم في ذلك :

فِيَارِبِ إِنْ أَهْلِكَ وَلَمْ تُرَوْهَامَتِي بَلِيلِي أُمْتُ لَا قَبْرَ أُعْطِشُ مِنْ قَبْرِي^(١)
من هنا بالضبط تتجلى الحقيقة للقارئ ويعلم جيداً كيف أن تاريخ العرب ما قبل الإسلام وتاريخهم ما بعد الإسلام ما هو الا تاريخان على طريقتين نقيضتين :

فذلك تاريخ جاهلية ، ووثنية وإجرام ، وهذا تاريخ علم ووحداية وانسانية وإيمان ، وشتان ما بين وأد البنات ، وبين رعاية الايتام ، وبين السلب والنهب والاعارة وبين المواساة والايثار ، وبين عبادة الاوثان والاصنام الصماء العمياء

١- بلوغ الارب : ج ٢ ، ص ٣١١ و ٣١٢ .

والتقرب إلى الله الواحد القادر.

الآداب مرآة آداب الشعوب ونفسياتها :

المخلّفاتُ الفكرية والثقافية ، وما يتركه أيُّ شعب من الشعوب من قصص وحكايات افضل وسيلة للتعرف على خلفياته النفسية والأخلاقية ، ذلك لأنّ الآداب بما فيها الشعرُ والقصةُ ، والخطبةُ والحكايةُ ، والمثلُ والكنايةُ مرآة صادقةٌ تعكس المستوى الفكري لأية جماعة ، وتعتبرُ خير مقياس لتمدّنها ، وحضاراتها ، وأفكارها ونفسياتها ، تماماً كما تحكي اللوحاتُ الفنية عن حياة عائلة ، أو منظر طبيعي جميل ، أو اجتماعات صاحبة ، أو مشاهد قتالية . إن القصائد والأمثال العربية التي كانت رائجة آنذاك تستطيع . قبل كل شيء . أن تكشف عن الوجه الحقيقي لتاريخهم ونمط حياتهم وسلوكهم ، ولهذا السبب لا يجوز لأي مؤرخ واقعي يسعى إلى الحصول على صورة كاملة عن تاريخ شعب من الشعوب أن يتجاهل التركة الفكرية والأدبية والثقافية لذلك الشعب سواء أكان شعراً أم نثراً ، أمثالاً أم حكماً ، قصصاً أم أساطير .

ومن حسن الحظ أن مؤرخي الإسلام اثبتوا وسجلوا باتقان ما أثر من العرب مما يرتبط بآدابهم في العصر الجاهلي بقدر ما أُتيح لهم ذلك .

وقد كان ابو تمام « حبيب بن اويس » (المتوفى عام ٢٣١ هجرية) والذي يُعتبر من كبار أدباء الشيعة ، وله قصائد رائعة في مدح آل الرسول ، ممن اعتنى عناية بالغة بهذه الناحية ، حيث جمع في كتاب واحد طائفة كبيرة جداً من الشعر الجاهلي مفصلة في عشرة أبواب هي :

- ١ . الحماسة .
- ٢ . المرثي .
- ٣ . الادب .
- ٤ . النسيب .
- ٥ . الهجاء .

٦ . الاضافات .

٧ . الصفات .

٨ . السير .

٩ . الملح .

١٠ . مذمة النساء .

وقد تناول هذا الديوان التاريخي القيم عدد كبير من أباء المسلمين وعلمائهم بشرح آياته ، وتفسير غوامضها ، وبيان اغراضها ، ومقاصدها .
كما ترجم أصل الديوان إلى لغات اجنبية عديدة جاء ذكر طائفة منها في كتاب « معجم المطبوعات »^(١) .

مكانة المرأة عند العرب الجاهلية :

إن الباب العاشر من هذا الديوان خير وسيلة لمعرفة ما كانت عليه المرأة في العصر الجاهلي من الحرمان ، وأقوى دليل على أنها كانت تعيش . في ظل ذلك العهد . في أسوأ الحالات وأشد الظروف واتعسها .

هذا مضافا إلى أن الآيات القرآنية التي تنزلت وهي تشجب بعنف معاملة الجاهلين للعنصر النسائي ، وقسوتهم على الأنثى ، هي الأخرى افضل شاهد على مدى الانحطاط الاخلاقي والتدهور السلوكي الذي انحدروا إليه في هذا المجال .

إن القرآن الكريم يصف عادة وأد البنات بقوله : « **وَإِذَا الْمَوْؤَدَةُ سُئِلَتْ** »^(٢) أي ليستل يوم القيامة عن البنات اللاتي وُئدن وهن أحياء .

إن القرآن الكريم بهذه العبارة الموحية إنما يتحدث . في الحقيقة . عن عادة وأد البنات بمرارة ، ويشجبها بشدة حتى أنه يعتبرها جريمة نكراء لا تمر . في الآخرة . بدون حساب شديد ، وسؤال خاص .

١ . معجم المطبوعات : ص ٢٩٧ ، وقد اشتهر هذا الديوان ببابه الأول : « الحماسة » فسمي ديوان الحماسة .

٢ . التكوير : ٨ .

حقاً انه لأمر يكشف عن مدى القسوة التي كان عليها قلوب الجماعة .
إنها قسوة تغشى كل عواطف المرء فلا يعود يسمع معها نداء الضمير ، ولا يحسُّ معها
بوخز الوجدان ، انه لا يعود يسمع معها حتى صراخ بنته الجميلة البريئة ، واستغاثاتها المؤلمة
وهي ترى بألم عينيها حفيرتها ، وتحس بيدي والدها القاسي ، وهو يدفعها إلى تلك الحفرة
ويدفنها حية!

إنها قسوة تكشف عن أسوأ وأحطّ درجات الانحطاط الخلقي ، والتفهقر الإنساني .
وبنو تميم هي أول قبيلة اقدمت على هذه الجريمة النكراء ، وكان السبب أن « بني تميم »
أمتنعوا من دفع ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم إلى الملك ، فجزّد اليهم النعمان بن المنذر
حاكم العراق آنذاك جيشاً كبيراً لضرب هذا التمرّد ، وانتصر على « بني تميم » في المآل
وغنم منهم الغنائم وسبى منهم الفتيات والنساء ، فوفدت وفود « بني تميم » على النعمان
بن المنذر وكلموه في الذراري والنساء ، فحكم النعمان بان يجعل الخيار في ذلك إلى النساء ،
فأية امرأة اختارت زوجها ردّت عليه ، فاختلّفن في الخيار ، فاختار بعضهنّ العودة إلى الاهل
والاباء ، واختارت بنتٌ لقيس بن عاصم سايبها على زوجها مما أثار هذا الموقف والاختيار
غيظ والدها العجوز « قيس بن عاصم » فنذر من ذلك الحين أن يدس كل بنت تُولّد له .
وهكذا سنّ لقومه الوأد ، واخذت بقية القبائل بهذه العادة البغيضة الوحشية إرضاءً لغيرتهم
وظلّوا يمارسونها اعواماً متتالية (١) .

واليك واحدة من القصص المأساوية في هذا المجال :

قيل لما وفد « قيس بن عاصم » على رسول الله ﷺ سأله بعض الانصار عما
يتحدث به في المؤودات ، فاخبر انه ما ولدت له بنت إلا وأدها ، قال : كنت اخاف العار
وما رحمتُ منهنّ إلا بُنيّة كانت ولدتها أمها وأنا في سفر ، فدفعتها إلى أخواتها ، وقدمت أنا
من سفري فسألته عن الحمل ، فأخبرت أنها

١ - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٣ ، ص ٤٢ و ٤٣ .

ولدت ولداً ميتاً ، وكنمتُ حالها ، حتى مضت على ذلك سنونٌ ، وكبرت الصبية ، وينعت ، فزارت أمها ذات يوم ، فدخلتُ فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها جداداً ونظمت عليها ودعاً ، والبستها قلادة من جزع فقلت لها : من هذه الصبية؟ وقد اعجبني جمالها فبكت أمها ، وقالت : هذه ابنتك ، فامسكتُ عنها حتى غفلتُ أمها ثم اخرجتها يوماً فحفرت لها حفرة وجعلتها فيها وهي تقول : يا ابنت ما تصنع؟ أخبريني بحقك!! وجعلت أقلب عليها التراب ، وهي تقول : أنت مغط عليّ بهذا التراب ، أنت تاركي وحدي ، ومنصرفٌ عني ، وجعلتُ اقدفُ عليها حتى وارتتها ، وانقطع صوتها ، فتلك حسرتها في قلبي ، فدمعتُ عينا رسول الله ﷺ وقال : « إن هذه لقسوة ، ومن لا يرحم لا يرحم » (١) .

وقد ذكر ابن الاثير في كتابه « أسد الغابة » في مادة : قيس : ان النبي ﷺ سأل قيسا عن عدد البنات اللاتي وأدهرن في الجاهلية : فاجاب قيس بانه وأد اثنتي عشرة بنتا له (٢) .

وروي عن ابن عباس أنه قال : كانت الحامل إذا قُربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فاذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإذا ولدت ولداً حبسته (٣) .

المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب :

كانت المرأة عندهم تباع وتُشتري كالممتاع ، وكانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية والفردية ، حتى حق الارث .

وقد كان المثقفون من العرب يُعدون النساء من الحيوانات ، ولهذا كانوا يعتبرونهن جزءاً من أثاث البيت ويعاملونهن معاملة الرياش والفراش حتى سار

١ . حياة محمد : تأليف محمد علي سالمين ، ص ٢٤ و ٢٥ .

٢ . راجع اسد الغابة : ج ٤ ، ص ٢٢٠ ، وجاء في بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٣ ، ص ٤٣ أنه وأد بضع عشرة بنتا .

٣ . بلوغ الارب : ج ٣ ، ص ٤٣ .

فيهم المثل المعروف : « وانما امتهات الناس اوعية ».

كما أنهم غالباً ما كانوا يقتلون بناتهم في اليوم الاول من ميلادهن خشية الفقر تارة ،
ودفعا للعار والشنآن تارة أخرى.

وقد كان هذا القتل يثمُّ إما بذبحهن أو إلقاءهن من شاهق ، أو إغراقهن في الماء أو
الدفن وهن أحياء كما سبق.

وقد تعرض القرآن الكريم . الذي يعد من وجهة نظر المستشرقين الكتاب والمصدر التاريخي
العلمي الوحيد الذي لم تنله يد التحريف . تعرّض لذكر قصة من هذا النوع ضمن آيات من
سورة النحل حيث قال : « **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ
مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ لَمْ يَدْسُوهٗ فِي التَّرْبِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** »
(١).

هذا والمؤسف أكثر هو ما كان عليه وضع الزواج في الجاهلية ، حيث لم يكن يستند إلى
أي قانون ، ولم يخضع لأيّ واحد من النظم المعقولة ، بل كان وضعاً عديم النظر في ذلك
الزمان ، فلم يكن لعدد الزوجات . مثلاً . حد معلوم ، أو قاعدة ثابتة .

كما انه كلما أرادوا التخلص من مهر الزوجة عمدوا إلى ائذائها بقسوة ، حتّى تتخلى
هي بنفسها عن حقها ، وكان اقترافها لأيّ عمل مناف للعفة هو الآخر سبباً لسقوط حقها
في المهر بالمرّة .

ولطالما استغلَّ بعض الاشخاص هذا القانون الجائر للتخلص من مهور زوجاتهم فاتهموهن
بالخيانة الزوجية!!

ومن قبيح ما كانوا يفعلون ان يتزوج الرجل بزوجة أبيه بعد تطليقها ، أو وفاته وربما تناوب
الأبناء على امرأة أبيهم واحداً بعد واحد ، فقد كان الرجل من العرب الجاهلية إذا مات عن
المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه ، فان كان يحبُّ أن يتزوجها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن يريد
التزوج بها تزوّج بها بعضُ اخوته بمهر

١ . النحل : ٥٨ و ٥٩ .

جديد^(١).

وقد ابطال الإسلام هذه العادة الفاسدة حيث قال الله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا »^(٢).

وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة طائفة ممن فعلوا هذا نعرض عن ذكر أسماءهم. كما ذكرت تلك الكتب انواعاً أخرى من المناكح الفاسدة الشنيعة التي أبطها الإسلام^(٣).

ثم إن المطلقة لم يكن لها الحق . في زمن الجاهلية . في ان تتزوج برجل آخر بعد انقضاء عدتها إلا إذا اذن لها الزوج الأول الذي كان غالباً ما يأخذ مهرها في الزواج الثاني في قبالة الاذن.

وربما منع اولياؤها من أن تتزوج بزوجه الاول الذي طلقها ، ثم خطبها بعد انقضاء العدة إذا رضيت به ورغبت فيه ، أو أن تتزوج بمن أرادت واحبت . بعد انقضاء العدة . أصلاً ، حمية جاهلية.

وكان الرجل يرث امرأة ذي قرابته إذا مات عنها ، تماماً كما يرث ما خلف من أمتعة المنزل ، زاعماً بأنه أحقُّ بها من غيره ، فيعطلها (يمنعها من الزواج) أو تزُدُّ إليه صداقها ، وفي رواية ؛ إن كانت جميلة تزوجهها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، وقد نهى الله تعالى عن ذلك ، وأبطل تلك العادات إذ قال تعالى : « وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَهُنَّ فَلَ تَعْضَلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ رَأَى لَكُمْ وَطَهَّرَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُنْتَمُونَ لَا تَعْلَمُونَ »^(٤).

١ . المحرر : ص ٣٢٦ و ٣٢٧ .

٢ . النساء : ٢٢ ، وكانوا يُسمون من يتزوج زوجة أبيه الضيزن ، وكان هذا الزواج يسمى في الجاهلية « نكاح المقت » ويُسمى الولد منه : مقتي . (راجع بلوغ الارب : ج ٢ ، ص ٥٣ وجمع البيان للطبرسي : ج ٣ ، ص ٢٦) .

٣ . المحرر : ٣٣٧ . ٣٤٠ .

٤ . البقرة : ٢٣٢ .

وقال سبحانه: « لَمْ يَكُنِ لَكُم مِوَاكِفٌ لَكُم أَنْ تَرْتَبُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ » (١).

وقال تعالى: « وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » (٢).

وخلاصة القول ؛ إن المرأة كانت في العهد الجاهليّ بشرّ حال ، ويكفي لتلخيص ما قلناه انه لما خطب احدهم إلى رجل ابنته ، وذكر له المهر والصدّاق قال : إني وإن سئيتُ إلي المهر ألف وعبدان (اي عبيد ومماليك) وذوّر (وهو من الابل من الثلاث إلى العشر) عشر ، أحبُّ أصهاري إليّ القبرُ وقال شاعرهم ، في ذلك.

لِكُلِّ أَبِي بِنْتِ يُرَاعِي شُؤُوهَا ثَلَاثَةَ أَصْهَارٍ إِذَا حَمَدَ الصُّهْرَ
فَبِعَلَّ يِرَاعِيهََا وَخَدْرِيكِنَهَا وَقَبْرُ يُورِيهََا وَأَفْضَلُهَا الْقَبْرُ (٣)
كما ان العرب كانت مصفقة ومتفقة على توريث البنين دون البنات (٤).

مقارنة بسيطة :

ولو لاحظت أيها القارئ الحقوق التي قررها الإسلام في مجال (المرأة) لاذعنت . حقا . بأن هذه الاحكام والمقررات وهذه الخطوات المؤثرة التي خطاها النبي ﷺ في سبيل اصلاح حقوق المرأة ، وتحسين اوضاعها ، هي بذاتها شاهدٌ حق ، ودليل صدق على حقايتها ، وصدق ارتباطه بعالم الوحي .

فاية رعاية ولطف بالمرأة وحقوقها وأي اهتمام بشأنها وكرامتها أعلى وأكثر من ان يوصي النبي ﷺ مضافا إلى ما جاء في آيات واحاديث كثيرة تؤكّد على حقوق المرأة وتوصي أتباع هذا الدين بالرحمة بهن واحترامهن في

١ . النساء : ١٩ .

٢ . البقرة : ٢٣١ .

٣ . بلوغ الارب : ج ٢ ، ص ٩ .

٤ . المحبر : ص ٢٣٦ .

خطبته الشهيرة في (حجة الوداع) بالمرأة ، ويؤكد على ذلك اشد تأكيد إذ يقول ﷺ : « ايها الناس إن لِنساءكُم عَلَيْكُم حَقاً ، ولكم عليهنَّ حَقاً ... فاتقوا الله في النساء وأستوصوا بهنَّ خيراً ، فانهنَّ عندكم عبوانٌ ... أطعموهنَّ ممَّا تأكلون ، وألبسوهنَّ ممَّا تلبسون »^(١).

العرب والرُّوح القتالية :

من الناحية النفسية يمكن القول بان عرب الجاهلية كانوا النموذج الكامل للإنسان الحريص ، الموصوف بالطمَع الشديد ، القويّ التعلق بالماديات . لقد كانوا ينظرون الى كل شيء من زاوية منافعه ومردوداته المادية ، كما أنهم كانوا دائماً يرون لأنفسهم فضيلة وميزة على الآخرين .

كانوا يحبّون الحرية حباً شديداً ، ولذلك كانوا يكرهون كل شيء يقيّد حريتهم . يقول ابن خلدون عنهم : « إنهم (اي العرب الجاهلية) بطبيعة التوحُّش الذي فيهم اهلُ انتهاب وغيث ، ينتهبون ما قدروا عليه .. وكان ذلك عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن رنقة الحكم ، وعدم الإنقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له . »
ويضيف قائلاً : « فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس ، وان رزقهم في ضلال رماحهم وليس عندهم في أخذ اموال الناس حدُّ ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه »^(٢).

لقد كانت الاغارة وكان النهب والقتال من العادات المستحكمة عند القوم ، ومن الطبائع الثانوية في نفوسهم ، وقد بلغ ولعهم وشغفهم بكل ذلك ونزوعهم

١ . وردت هذه العبارات في مصادر مختلفة مع شيء طفيف من الاختلاف ، راجع تحف العقول : ص ٣٣ و

٣٤ .

٢ . مقدّمة ابن خلدون : ص ١٤٩ .

الشديد إليه أن أحدهم . كما يقال . سأل النبي ﷺ بعد أن سمع منه وصف الجنة وما فيها من نعيم : وهل فيها قتال؟

ولما سمع الجواب بالنفي قال : اذن لا خير فيها!!

اجل لقد سجل التاريخ للعرب ما يقرب من (١٧٠٠) وقعة وحرباً ، امتد أمد بعضها إلى مائة سنة أو أكثر ، يعني أن أجيالا كثيرة كانت تتوارث الحرب ، وتستمر في قتال الخصم ، وربّ حرب دامية طويلة الأمد إندلعت بسبب قضية تافهة ^(١) .

لقد كان العربي في العهد الجاهلي يعتقد بأنّ الدم لا يغسله الا الدم ، وقضية « الشنفرى » التي هي اشبه بالأساطير لغرابتها يمكن أن تعكس مدى « العصبية الجاهلية » التي كانت سائدة آنذاك .

فالشنفرى يُهان على يد رجل من « بني سلامان » فيعزم على الانتقام منه ، وذلك بأن يقتل مائة من تلك القبيلة ، وبعد الترتُّص الطويل يغتال تسعاً وتسعين ، ويبقى مشرداً حتى تغتأله جماعة من اللصوص عند بئر فتفعل جمجمته . بعد مقتله . فعلتها ، اذّ تتسبّب بعد مرور سنين . في قتل رجل من قبيلة . « بني سلامان » وبذلك يكتمل العدد الذي حلف على قتلهم من تلك القبيلة ، وذلك عندما يمر رجل من « بني سلامان » على تلك المنطقة فيهب طوفان شديد يلقي بجمجمة « شنفرة » على ذلك الرجل فتصيّبه في رجله بشدة ، فيموت بما لحقه من ألم وجراحة ^(٢) .

١ . العرب قبل الإسلام : ص ٣١٩ و ٣٢٠ ، هذا وتعتبر حرب داحس والغبراء ، من أيام العرب التاريخية قبل الإسلام ، وقد نشأت بسبب سباق بين فرسين هما داحس والغبراء (وهو فرسين لقيس بن زهير من بني عيس) وفرسين آخرين (لحذيفة الغدر) انتهى إلى التنازع في السباق وازداد التنافر بين المتسابقين وانجر إلى طعن أحدهما الآخر ، وأن تتهياً على اثر ذلك مقدمات حرب طويلة بين قبيلتي الرجلين وحلفائهما استمرت من عام ٥٦٨ م إلى عام ٦٠٨ م وموت كثيرين .

(راجع تاريخ العرب وآدابهم ص ٤٧ والكامل لابن الأثير : ج ١ ، ص ٢٠٤) .

٢ . تاريخ العرب : ج ١ ، ص ١١١ ، وراجع أيضاً بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٢ ، ص ١٤٥ و ١٤٦ .

ولقد بلغ أنس العرب الجاهلية بالقتال وسفك الدماء أن جعلوا القتل والسفك للدماء من
مفاخر الرجال!!

ويبدو ذلك جلياً لمن يقرأ قصائدهم الملحمية التي تفوح منها رائحة الدم ، ويخيم عليها
شبح الموت ، تلك القصائد التي يمدح فيها الشاعر نفسه أو قبيلته بما أراقوه من دماء!! ، وما
ازهقوه من ارواح وما سبوه من نساء!! ، وأيتموه من أطفال!!

ونجد في البيت الشعري التالي مدى انزعاج الشاعر العربي الجاهلي لما اصاب قبيلته من
نكسة وذل وهزيمة في ميدان القتال ، إذ يقول :
فَلَيْتَ لِي بِمُؤِ قَوْمًا إِذَا رَكَبُوا شَبَنُوا الْإِغَارَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانًا
ويصف القرآن الكريم هذه الحالة بقوله : « وَكُنْتُمْ عَلَى شِبْهٍ خُفْرَةٍ مِنَ الْبَارِ فَأَنْقَذَكُمْ
مِنْهَا »^(١) .

الاخلاق العامة في المجتمع الجاهلي العربي :

ومهما يكن من امر فان عوامل مختلفة كالجهل وضيق ذات اليد ، وجشوبة العيش ،
وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياة الاجتماعية ، وحالة البداوة الموجبة للتوحش ،
والكسل والبطالة وغير ذلك من الرذائل الاخلاقية كانت قد حولت جو الجزيرة العربية إلى
جو فاسد قائم ، حتى أن أموراً يندى لها الجبين قد اخذت طريقها إلى حياة تلك الجماعة
وراحت تتخذ شيئاً فشيئاً صفة العادات المتعارفة!!

لقد كانت الغارات وعمليات النهب ، والقمار ، والربا ، والاسر ، والسبي من الأعمال
والممارسات الرائجة في حياة العرب الجاهلية ، وكان شرب الخمر ومعاققتها بلا حدود هو
الآخر من الأعمال القبيحة الشائعة لديهم ، ولقد ترسخت هذه العادة القبيحة في حياتهم
إلى درجة انها صارت جزءاً من طبيعتهم ، وحتى أن

١. آل عمران : ١٠٣ .

شعراءهم خصّصوا مساحات كبيرة في قصائدهم لامتداح الخمر ووصفها وكانت الخانات مفتوحة في وجه الناس طيلة الوقت تستقبل الزبائن ، وقد نُصِبَت عليها رايات .
فها هو شاعرهم يقول :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِي إِلَى جَنْبِ كَرْمَةِ بُيِّ عِظَامِي بَعْدَ مَبُوتِي عُرْفُهَا
وَلَا تَبَدِّفْنِي فِي الْبَلَاةِ فـإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَاتْتُ أَنْ لَا أُذَوِّقُهَا ^(١)
لَبَدَّ بَلَغْتَ مَعَاقِرَ الْخَمْرِ مِنَ الرَّوَجِ فِي الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ بَحِثْ أَصْبَحْتَ لَفْظَةَ «
التجارة» تعادل في عرفهم بيع الخمر ، والاتجار بها .

ولقد كانت الأخلاق تفسر عند العرب الجاهلية بنحو آخر عجيب ، فأنهم مثلا كانوا يمدحون الشجاعة والمروءة والغيرة ، ولكنهم كانوا يقصدون من « الشجاعة » القدرة على الإغارة وسفك الدماء ، وكثرة عدد القتلى في الحروب!!

كما أن الغيرة كانت تعني عندهم وأد البنات حتى أن هذا العمل الوحشي كان يُعد عندهم من أعلى مظاهر الغيرة ، وكانوا يرون الوفاء والوحدة في نصره الخليف حقا أو باطلا ، وهكذا فإن أكثر القصص التي نُقِلت عن شجاعتهم وشغفهم بالحرية كانت الشجاعة والشغف بالحرية فيها تتلخص وتحسّد في الإغارة والانتقام .
انهم كانوا يعشقون . في حياتهم . المرأة والخمر والحرب ليس غير .

النزوع إلى الخرافة والاساطير في المجتمع الجاهلي :

ولقد بيّن القرآن الكريم أهداف البعثة المحمّدية المقدسة بعبارات موجزة ، ومما يلفت النظر - أكثر من أي شيء - ما ذكره تعالى في الكتاب العزيز حول أهم هذه الاهداف والغايات العليا إذ قال : « وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » ^(٢) .

١ - تفسير مفاتيح الغيب : ج ٢ ، ص ٢٦٢ ، طبعة مصر : ١٣٠٥ .

٢ - الأعراف : ١٥٧ .

فلا بدّ أن نعرف ماذا كانت تلك الأغلال والسلاسل التي كانت عرب الجاهلية ترزخ تحتها حتى قبيل بُرُوح فجر الإسلام؟
لا ريب أنّها لم تكن من جنس الأغلال والسلاسل الحديدية ، ولم يكن المقصود منها ذلك أبداً ، فماذا كانت إذنّ يا ترى؟

أجل إن المقصود من هذه الاغلال هي الأوهام والخرافات التي كانت تقيّد العقل العربي عن الحركة ، وتعيقه عن النمو والتقدم ، ولا شك أن مثل هذه السلاسل والأغلال التي تقيّد الفكر البشري وتمنعه من التحليق والتسامي ، أثقل بكثير من الاغلال والقيود الحديدية واضر على الإنسان منها بدرجات ومراتب ، لأنّ الأغلال الحديدية توضع عن الأيدي والأرجل بعد مضي زمان ، ويتحرر الإنسان منها ، بعد حين ، ليدخل معترك الحياة بعقلية سليمة مبرّاة من الأوهام والخرافات ، وقد زالت عنه ما تركته تلك الحدائد من جروح وآلام.

أما السلاسل والاغلال الفكرية (ونعني بها الاوهام والاباطيل والخرافات) التي قد تهيمن على عقل الإنسان وتكبّل شعوره فانها طالما رافقت الإنسان إلى لحظة وفاته ، واعاقته عن المسير والانطلاق ، دون ان يستطيع التحرر منها ، والتخلص من آثارها ، وتبعاتها ، اللهم إذا استعان على ذلك بالتفكير السليم ، والهداية الصحيحة .

فبالتفكير السليم وفي ضوء العقل البعيد عن أي وهم وخيال يمكنه التخلص من تلك الاغلال والقيود الثقيلة ، وأما بدون ذلك فإن أيّ سعي للإنسان في هذا السبيل سيبيء بالفشل .

إن من أكبر مفاخر نبي الإسلام أنه كافح الخرافات ، وأعلن حرباً شعواء على الأساطير ، ودعا إلى تطهير العقل من أدران الأوهام والتخيلات ، وقال : لقد جئت لاخذ بساعد العقل البشري ، وأشدّ عضده ، وأحارب الخرافه مهما كان مصدرها . وكيفما كان لوئها وأيا كانت غايتها ، حتى لو خدّمت أهدايي ، وساعدت على تحقيق مقاصدي المقدسة .

إنّ ساسة العالم الذين لا تهتمهم إلا إرساء قواعد حكمهم وسلطانهم على

الشعوب لا يتورعون عن التوسل بأية وسيلة ، والاستفادة من أية واقعة في سبيل تحقيق مآربهم حتى أنهم لا يتأخرون عن التذرع بترويح الخرافات والأساطير القديمة بين الشعوب للوصول إلى سدة الحكم ، أو البقاء فيها ما امكنهم ذلك. ولو اتفق أن كانوا رجالاً موضوعيين ومنطقيين فانهم في هذه الحالة دفعوا عن تلك الخرافات والأوهام والاساطير التي لا تنسجم مع اي مقياس عقلي بحجة الحفاظ على التراث القومي ، أو احترام راي اكثرية الشعب ، أو ما شابه ذلك من الحجج المرفوضة.

ولكن رسول الإسلام لم يكتف بإبطال المعتقدات الخرافية التي كانت تلحق الضرر به ، ومجتمعه ، بل كان يكافح ويحارب بجميع قواه كل أسطورة أو خرافة شعبية أو فكرة فاسدة باطله ، تخدم غرضه ، وتساعد على تحقيق التقدم في دعوته ويسعى إلى أن يجعل الناس يعيشون الحقيقة لا ان يعبدوا الخرافات ، ويكونوا ضحايا الاساطير والأوهام ، واليك واحداً من هذه المواقف العظيمة على سبيل المثال لا الحصر.

لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ وهو ابنه الوحيد ، حزن عليه النبي حزناً شديداً فكانت تنحدر الدموع منه على غير اختيار ، واتفق ان انكسفت الشمس في ذلك اليوم أيضاً ، فذهب المولعون بالخرافة في ذلك المجتمع (العربي) على عادتهم إلى ربط تلك الظاهرة بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلاً على عظمة المصاب به فقالوا : انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر وقال : « أئبها الناس ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بامرهم ، ومطيعان له ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا انكسفا ، أو أحدهما صلوا ».

ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف وهي ما تسمى بصلاة الايات (١).

١. بحار الأنوار : ج ٩١ ، ص ١٥٥ .

ان فكرة انكشاف الشمس لموت ابن صاحب الرسالة وان كان من شأنها ان تقوّي من موقع النبي في قلوب الناس ، وتخدم بالتالي غرضه ، وتساعد على انتشار دعوته ، وتقدمها ، إلا أنه ﷺ وسلم رفض ان يحصل على المزيد من النفوذ في قلوب الناس من هذا الطريق. على أن محاربة النبي ﷺ للخرافات والاساطير التي كانت نموذجاً بارزاً من محاربه للوثنية ، وتأليه المخلوقات وعبادتها ، لم تكن من سيرته في عهد الرسالة بل كان ذلك دأبه في جميع أدوار حياته ، حتى يوم كان صبيّاً يدرج ، فانه كان يحارب الاوهام والخرافات ، ويعارضها في ذلك السن أيضاً.

تقول حليلة السعدية مرضعة النبي ﷺ : لما تمّ له (اي لمحمّد) ثلاث سنين قال لي يوماً : « يا مَاهُ اِ لَ اِ لَ اِ اِ لَ اِ اِ لَ اِ اِ لَ اِ اِ لَ اِ اِ لَ اِ اِ لَ اِ اِ لَ اِ اِ لَ a بِالنَّهَارِ ؟ » قلت له : يا بَنِي اِنَّهُمَا يَرَعِيَانِ غَنِيْمَاتٍ ، قال : « فَمَا لِي لَا اُخْرِجُ مَعَهُمَا ؟ » قلت له : تحبُّ ذلك؟ قال : نَعَمْ.

فلما أصبح دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جنع يمانية (وهي من التمام الباطلة كانت تعلق على الشخص في أيام الجاهلية لدفع الآفات عنه) ، فنزعها ، وقال لي : « هَلَا يَا مَاهُ اِنِّي نَظُنِّي » (١).

الخرافات في عقائد العرب الجاهلية :

كانت عقائد جميع الامم والشعوب العالمية يوم بزوغ شمس الإسلام ممزوجة بألوان من الخرافات والاساطير.

فالاساطير اليونانية والساسانية كانت تخيم على افكار الشعوب التي كانت تعد في ذلك اليوم من أرقى الشعوب والمجتمعات.

على انه لا تزال خرافات كثيرة تسود وإلى الآن في المجتمعات الشرقية المتقدمة ، ولم تستطع الحضارة الراهنة أن تزيلها من حياة الناس ومعتقداتهم.

١- بحار الانوار : ج ١٥ ، ص ٣٩٢.

إن تنامي الخرافة « يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمي والثقافي في كل مجتمع ، فبقدر ما يكون المجتمع متخلفاً من الناحية الثقافية والعلمية تزداد نسبة وجود الخرافة ومقدار نفوذها في عقول الناس ونفوسهم.

لقد سجل التاريخ عن سُكَّان شبه الجزيرة العربية طائفة هائلة وكبيرة من الاوهام والخرافات ، وقد جمع السيّد محمود الألوسي أكثرها في كتابه « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » ، مُرفقاً كل ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعرية وغيرها^(١).

ومن يتصفح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات التي كانت تملأ العقل العربي الجاهل آنذاك وتتشعشع في نفوسهم ، وقد كانت هذه السلسلة الرهيبة من الأوهام هي السبب في تخلف هذا الشعب عن بقية الشعوب والأمم الاخرى.

ولقد كانت هذه الخرافات من أكبر السدود في طريق تقدم الدعوة الإسلامية ، ولهذا أجتهد النبي الأكرم ﷺ بكل طاقاته في محو وازالة آثار الجاهلية التي لم تكن سوى تلك الأوهام والاساطير والخرافات.

فعندما وجّه « معاذ بن جبل » إلى اليمن اوصاه بقوله :

« وامت أمر الجاهليّة إلا ما سنّه الإسلام مَظْهَرُ أمر الأسلام كلّ صغيره وكبيره »^(٢).

لقد وقف رسول الله ﷺ أمام جماهير كبيرة من العرب الذين كانت عقولهم تزرع تحت الافكار والمعتقدات الخرافية ردحا طويلا من الزّمن يعلن عن نهاية عهد الأفكار والاهام الجاهلية إذ قال : « كُلُّ ماثرة في الجاهليّة تحت قَدَمي »^(٣).

١ - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٢ ، ص ٢٨٦ - ٣٦٩.

٢ - تحف العقول : ص ٢٥.

٣ - السيرة النبوية : ج ٣ ، ص ٤١٢.

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي :

وللوقوف على مدى أهمية التعاليم الإسلامية وقيمتها نلفت نظر القارئ الكريم إلى نماذج من هذه الخرافات ، ومن أراد التوسع راجع المصدر المذكور.

١ . الاستسقاء باشعال النيران :

كانت العرب إذا أجدبت ، وأمسكت السماء عنهم ، وأرادوا أن يستمطروا عَمَدُوا إلى السلع والعشر (وهما أشجار سريعة الاشتعال) فحزموهما ، وعقدوهما في أذنان البقر ، وأضرموا فيها النيران وأصعدوها في جبل وَعَر ، واتبعوها يدعون الله تعالى ، ويستسقونه ، وانما يضرمون النيران في أذنان البقر تفاقولا للبرق بالنار ... وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات الاخرى ، وكانت هذه الثيران والابقار إذا صاحت من وجع الاحتراق ظننت العرب بان ذلك هو الرعد!!!

وقد قال شاعرهم في ذلك :

يا (كحل) قِيدَ أَثْقَلْتَ أَذْنَابَ الْبَقْرِ بِسَبَلْعٍ يُعْقَبُ فِيهَا وَعُشْرُ
فَهَلْ بَجَّوْدِينَ يَهْرَ أَوْ مَطْرَ؟

٢ . ضرب الثور إذا عافت البقر :

كانوا إذا أوردوا البقر فتمتتع من شرب الماء ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، بعده ويقولون :
إِنَّ الْجَنِّ تَصَدُّ الْبَقْرَ عَنِ الْمَاءِ ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَرْكَبُ قَرْنِي الثَّوْرَ ، وَلَا يَدْعُ الْبَقْرَ تَشْرِبُ الْمَاءَ ،
ولذلك كانوا يضربون وجه الثور.

وقد قال في هذا شاعرهم :

كَذَاكَ الثَّوْرُ يَضْرِبُ بِالْهَرَاوِي إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقْرَ الظِّمَاءُ
وقال آخر :

فإني إذا كالثور يضرب جنبه إذا لم يعف شربنا وعافت صواحيبه^(١)

١ . عافت أي كرهت شرب الماء.

وقال ثالث :

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها
وما ذنبه إن لم ترد بقراته
يُكسّر ضرباً وهو للورد طائع
وقد فاجأها عند ذاك الشرائع

٣ . كي صحيح الإبل ليبراً السقيم :

إذا كان يصيب الإبل مرض أو قرح في مشافرها واطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكوا مشفره وعضبه وفخذه يرون أن ذلك إن فعلوه ذهب العرّ والقرح والمرض عن إبلهم السقيمة ، ولا يعرف سبب ذلك.

وقد احتل البعض أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك وقاية للصحاح من الإصابة بالعرّ الذي أصاب غيرها ، أو أنه نوع من المعالجة العلمية ، ولكن لماذا ترى كأنوا يعمدون إلى بعير واحد من بين كل تلك الإبل ، فلا بد من القول بأن هذا الفعل كان ضرباً من الاعمال الخرافية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع الجاهلي قبل الإسلام.

وقد قال شاعرهم عن ذلك :

وكلفتني ذنب امرئ وتركته
قال آخر :

كمن يكوي الصحيح يروم براء
وقال ثالث :

فألزمتني ذنبا وغميري جرّه
حنانيل لا تكو الصّحيح بأجرها

٤ . حبس ناقة عند القبر اذامات كريم :

إذا مات منهم كريم عقلوا ناقته أو بعيره عند القبر الذي دُفن فيه ذلك الكريم ، فعكسوا عنقها ، وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت ، وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملى جلدّها ثماماً ، وكانوا يزعمون أن من مات ولم يُبل عليه (اي لم تعقل ناقة عند قبره هكذا)

حشر ماشياً ، ومن كانت له بلية (اي ناقة عقلت هكذا) حُشِرَ راكبا على بليته .

وقد قال أحدهم في هذا الصدد :

إذا مِتُّ فادفني بجراء ما بها سوى الأصرخين أو يفوِّز راكب
فإن أنت لم تُعقر عليّ مطيَّتي فلا قام في مال لك الدهر حالب
وقال آخر وهو يوصي ولده بان يفعلوا له ذلك :

أُبني لا تنس البليّة إنهما لأبيك يوم نُشِـوره مركوب

٥ . عقر الإبل على القُبور :

كانوا إذا ماتَ أحدهم ضربوا قوائم بعير بالسيف عند قبره ، وقيل أنهم كانوا يفعلون ذلك مكافأةً للميت المضياف على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للاضياف .
وقد ابطلت الشريعة المقدسة هذه العادة الباطلة في ما أبطلته فقد جاء في الحديث « لا عقر في الإسلام » .

وقد قال أحدهم حول العقر هذا :

قُبِلَ للقوافل والغُزاة إذا غَزَا والباكرين وللمجد الرائح
إن الشِجاعة والسِّماحة ضُيِّمنا قبرا بمرور على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقرْ به كُـوم الجلاذ وكل طرف سابع
وأنضح جِوانب قبره بدمائها فلقَد يكون أحاد دم وذبائح

٦ . نهيق الرجل إذا اراد دخول القرية (التعشير) :

ومن خرافاتهم أن الرجلَ منهم كان إذا ارادَ دخولَ قرية فخافَ وباءها أوجنَّها وقف على بابها قبل ان يدخلها فنَهَقَ نهيقَ الحمار ، ثم علَّقَ عليه كعبَ أرنب كأنَّ ذلكَ عودَة له ، ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير .

قال شاعرهم :

ولا يَنْبَعِ التعشير أن جُمَّ واقع ولا زعنغ يُغني ولا كعب ارنب

وقال الآخر :

لعمري إن عشبّرت من خيفة الرى نفاق حمير أنى لجزوع

٧ . تصفيق الضال في الصحراء ليتهدي :

فقد كان الرجل منهم إذا ضلّ في فلاة قلب قميصه وصفق بيديه ، كأنه يومئ بهما إلى
انسان مهتدي .

قال أعرابي في ذلك :

قلبت ثيابي والظنون تحول بي ويرمي برجلي نحو كل سبيل
فلأيا بلائى ما عرفت حليلتي وأبصرت قصدا لم يُصَبِّب بدليل

٨ . الرتم :

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عمداً إلى حيط فعقده في غصن شجرة أوفى ساقها
لذا لا يظن على لك الخيط إلى جده الم له لم ن وجته منه ن كَده أو وجده
محلولا قال : قد خانتني . وذلك العقد يسمى « الرتم » .

قال شاعرهم في ذلك :

خانتته لما رأته شبيهاً بمفرقه وغبره جلفها والعقب للرتم

وقال الآخر :

لا تحسبن رثائمها عقدها تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال ثالث :

يعلل عمرو بالرتائم قلبه وفي الحى ظي قد أحلت محارقه
فما نفعبت تلك الوصايا ولا جنبت عليه سوى ما لا يحب رثائمها

٩ . وطى المرأة القتل الشريف لبقاء ولدها :

فقد كانت العرب تقول : ان المرأة المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد ، إذا وطئت القتل
الشريف عاش ولدها .

قال احدهم :

تظلل مقاليت النساء يطأنه يُقلن ألا يلقي على المرء مئزر

١٠ . طَحَّ السِّنُّ نَحْوَ الشَّمْسِ إِذَا سَقَطَتْ :

ومن تخيلات العرب وخرافاتهم أن الغلام منهم إذا سَقَطَتْ له سنٌّ أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال : يا شمس ابدليني بسن احسن منها ولتجر في ظلمها آياتك ، أو تقول أياؤك ، وهما جميعا شعاع الشمس .

قال احدهم وهو يصف ثغر معشوقته :

سقطته أياة الشمس إلا لثاته أسفَّ ولم تكرم عليه بائثد
أي كأن شعاع الشمس اعارته ضوءها .

هذا وقد أشار شاعرهم إلى هذا الخيال (أو قل الخرافة المذكورة) إذ قال :

شادن يخلو إذا ما ابتسبت عن أقاح كاقح الرمل غر
بدلته الشمس من منبته بـرأ أبيض مصقول الاثر

١١ . تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون :

ومن تخيلات العرب أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون ، وتعرض الارواح الخبيثة له بـجسوه بتعليق الاقدار كخرقة الحيض وعظام الموتى قالوا : وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامت عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك . وانشدوا في ذلك :

فلو أن عندي جارتين وراقيا وعلق أنجاسا على المعلق
وقالت امرأة وقد بـجست ولدها فلم ينفعه ذلك ومات :

بـجسته لا ينفع التنجيس والموت لا تفوت به النفوس

١٢ . دم الرئيس يشفي :

فقد كانت العرب تعتقد أن دم الرئيس يشفي من عضه الكلب الكلب .

قال الشاعر :

بنائة مكارم وأسائة جُرح دِماؤُهُم من الكَلب الشفاء

وقال آخر :

أحلامُكُمْ لسنِقام الجهل شافية كما دِماؤُكُمْ تشفي من الكَلب

١٣ . شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل :

ومن أوهامهم وتخيلاتهم أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا احب امرأة واحبته فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام ، فان لم يفعل ذلك فسَدَ حبُّهما ، قال في ذلك احدهم :
وكم شَبَقْنَا مِن رِداءِ محبِّرٍ ومن برِيقِ عَن طَفلةِ غيرِ عانس
إذا شُبِقَ بُردُ شُبِقَ بالبردِ برِقع دواليكِ حتى كلُّنا غيرِ لابس
نروم بهذا الفعل بُقياً على الهوى والى الهوى يُغوى بهذي الوسواس

١٤ . معالجة المرضى بالأمر العجيبة :

ومن مذاهبهم الخرافية في معالجة المرضى إذا بثر شفة الصبي حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحي : الحلاً الحلاً ، الطعام الطعام ، فتُلقي له النساءُ كِسَرَ الخبز ، واقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يُلقى ذلك للكلاب فتأكله ، فيبرأ من المرض فان أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمر أو لقمة أو لحمة بثر شفته .

فقد رويت عن امرأة أنها انشدت :

ألا حلاً في شفة مشقوقه فقد قضى منخلنا حقوقه
ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم ، وظنُّوا أنَّ به مساً من الجن لانه قتل حية ، أو يربوعاً ، أو قنفذاً ، عملوا جمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملاؤها حنطة وشعيراً وتمرّاً ، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك ، فاذا اصبحوا نظروا إلى تلك

الجمال الطين فاذا رأوا انها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وان رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا : قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدف.
قال بعضهم :

قَالُوا وَقَدْ طَالَ عِنَائِي وَالسَّقْمُ إِحْمِلْ إِلَى الْجِنِّ جَمَالَاتٍ وَضَبْمُ
فَقَبِدْ فَعَلَّتْ وَالسَّقَامُ لَمْ يَرْمُ فَبِالَّذِي يَمْلِكُ بَرِّي اعْتَصِمُ
وقال آخر :

فِيالَيْتَ أَنْ الْجِنَّ جَاؤُوا حِمَالِي وَزُحِرَجَ عَنِي مَا عِنَانِي مِنَ السَّقْمِ
أَعْلَلْ قَلْبِي بِالَّذِي يَزْعُمُونَهُ فَيَالَيْتَنِي عُوفِيَتْ فِي ذَلِكَ الزَّعْمِ
ومن مذاهبهم في هذا المجال أن الرجل منهم كان إذا ظهرت فيه القوباء (وهو مرض جلدي) عاجلها بالريق.

قال احدهم :

يَا عَجَبًا لِهَذِهِ الْفَلَيْقَةِ هَبْ لُتُذْهِبَنَّ الْقُوبَاءَ الرِّيقَةَ

١٥ . خرافات في مجال الغائب :

كانوا إذا غيَّب عليهم أمر الغائب ولم يعرفوا له خبرا جاؤوا إلى بئر عادية (أي مظلمة بعيدة القعر) أو جاؤوا إلى حصن قديم ونادوا فيه : يا فلان أو يا أبا فلان (ثلاث مرات) ، ويزعمون انه إن كان ميتاً لم يسمعوا صوتاً ، وإن كان حياً سمعوا صوتاً ربما توهموه وهمماً ، أو سمعوه من الصدى فَبَنَوْا عليه عقيدتهم ، قال بعضهم في ذلك :

دَعَوْتُ أَبَا الْمَغْوَارِ فِي الْحَنْفِيرِ دَعْوَةً فَمَا آضَ صَوْتِي بِالَّذِي كُنْتُ دَاعِيًا^(١)
أَظُنُّ أَبَا الْمَغْوَارِ فِي قَصْرِ مَظْلَمٍ تَجَرُّ عَلَيْهِ الذَّارِيَاتُ السَّوَابِيَا
وقال آخر :

وَكَمْ نَادَيْتُهُ وَاللَّيْلُ سَاجٍ بِعَادِي الْبِئَارِ فَمَا أَجَابَا

١ . آض أي عاد ورجع.

ومن ذلك أن الرجل منهم كان إذا احتلجت عينه قال : (أرى من أحبه) فإن كان غائبا توقع قدمه ، وإن كان بعيداً توقع قربه ، وقال أحدهم :

إذا اختلجبت عيني أقول لعلها فتاة بني عمرو بها العين تلمع
وقال آخر :

إذا اختلجبت عيني تيقنت إنني أراك وإن كان المزار بعيدا
وكانوا إذا لا يجئون لمسافر أن يعود إليهم أوقدوا نارا خلفه ويقولون في دعائهم « أبعد
الله وأسحقه وأوقد نارا إثره » قال بعضهم :

صحوت وأوقدت للجهل نارا ود عليك الصبا ما استعارا
١٦ . عقائدهم العجبية في الجن وتأثيره :

كانت العرب في الجاهلية تعتقد في الجن وتأثير هذا الكائن في شتى مجالات حياتهم
اعتقادات عجيبة وفي غاية الغرابة .

فتارة تستعيد بالجن ، وقد استعاد رجل منهم ومعه ولد فاكله الأسد فقال :
قد استعدنا بعظيم الوادي من شبر ما فيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزبر عادي

وعن الاستعادة بالجن قال الله سبحانه في القرآن : « إِنَّهُ كَانَ رِجَالٍ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُودُونَ
بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ فَرَادٍ لَهُمْ رَهَقًا »^(١) .

ومن ذلك إعتقادهم بمتاف الجن . ولهم في هذا المجال أساطير خرافية مذكورة في محلها .
ومن هذا القبيل إعتقادهم بالغول ، فقد كانت تزعم العرب في الجاهلية أن الغيلان في
الفلوات (وهي من جنس الشياطين) تتراءى للناس ، وتغول تغولا اي تتلون تلونا فتضلهم
عن الطريق ، وتهلكهم ، ومن هذا القبيل أيضاً إعتقادهم بالسعال !!

١ . الجن : ٦ .

وقد قال أحدهم في ذلك :
وساحرة عيني لو أن عينيها
أبيت وسعلاة وغول يقفيرة إذا الليل وأرى الجن فيه أرنت

١٧ . تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء :

ومن مذاهبهم الخرافية تشاؤمهم بأشياء كثيرة وحالات عديدة :
فمن ذلك ؛ تشاؤمهم بالعطاس .
وتشاؤمهم بالغرب حتى قالوا : فلان أشام من غراب البين ، ولهم في هذا المجال أبياتٌ شعرية كثيرة منها قول أحدهم :
ليت الغراب غداة ينعب دائباً كان الغراب مقطّع الأوداج
وكذا تشاؤمهم وتطيرهم بالثور المكسور القرن والثعلب . إلى غير ذلك من التخيلات والأوهام والخرافات والاساطير ، والاعتقادات العجيبة ، والتصورات الغريبة التي تزخر بها كتب التاريخ المخصصة لبيان أحوال العرب قبل الإسلام وحتى ابان قيام الحضارة الإسلامية .

مكافحة الإسلام لهذه الخرافات :

ولقد كافح الإسلام جميع هذه الخرافات بطرق مختلفة ، واساليب متنوعة .
أما بالنسبة إلى ما كانوا يفعلونه بالحيوانات فمضافاً إلى أن أي شيء من هذه الأعمال لا ينسجم مع العقل والمنطق والعلم لأن المطر والغيث لا ينزل من السماء باسعال النيران ، وضرب الثيران لا يؤثر في البقر ، كما لا ينفع كفي البعير الصحيح في شفاء الإبل السقيمة ، وتعتبر هذه الاعمال نوعاً من تعذيب الحيوانات وقد نهى الإسلام بشدة عن تعذيب الحيوانات وايدائها ، بأي شكل كان .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتُّ حِصَالٍ :
١ . يَدَأُ بَعْلِفِهَا إِذَا نَزَّ .

٢ . ويُعرض عليها الماء إذا مرَّ به .

٣ . ولا يضرب وجهها فإنها تسبِّح بحمد ربِّها .

٤ . ولا يقف على ظهرها إلا في سبيل الله عزَّ وجل .

٥ . ولا يحتملها فوق طاقتها .

٦ . ولا يكلفها من المشي إلا ما تطيق ^(١) .

كما رُوي أنه نهى رسول الله ﷺ عن أن توسم البهائم في وجهها ، وأن تضرب في وجوهها فانها تسبِّح بحمد ربها .

ومن هنا ندرك ان التعاليم في مجال الرفق بالحيوان ، وحمايته ، على النقيض من العادات الجاهلية السائدة في البيئة العربية آنذاك .

واما بالنسبة إلى التمايم والأشياء التي كانت تعلقها العربُ على أعناق وصدور رجالها ، وأولادها ، من الأحجار والحترز ، وعظام الموتى ، ومعالجة المرضى والمصابين وغيرهم بها أحياناً فقد حاربها الإسلام ، بعد أن ابطلها كما ابطل الافاعيل التي سبق أن ذكرناها قبل هذا .

فلما جاءت جماعات من الأعراب إلى رسول الله ﷺ وسألوه عن الرقى والقلائد التي كانوا يتداوون بها أو يسترقونها بدلا عن التداوي بالعقاقير والأدوية قائلين يا رسول الله : انتداوي؟

قال رسول الله ﷺ : «دلووا لي لله َ يَصَع داء إلا وَضَع لَهُ دَاء» ^(٢) .

بل نجد النبي ﷺ يأمر سعد بن أبي وقاص عندما أصيب بمرض في فؤاده أن يعالج نفسه عند طبيب إذ قال له لما عادته وعرف بحاله : « إنك رجل مفودٌ ، إئت الحارث بن كلدة أخوا ثقيف فإنه رجُل يتطبَّب » ^(٣) .

١ . من لا يحضره الفقيه : ج ٢ ، ص ٢٨٦ ، وراجع للوقوف على أحاديث حقوق الحيوان كتاب الشؤون الاقتصادية : ص ١٣٠ . ١٥٩ أيضا .

٢ . التاج الجامع للأصول : ج ٣ ، ص ١٧٨ .

٣ . التاج الجامع للأصول : ج ٣ ، ص ١٧٩ .

هذا مضافا إلى أنه وردت أحاديث كثيرة تصحح ببطلان التمام السحرية التي لا تنفع ولا تضرّ أبداً ، وها نحنُ نشير في ما يلي إلى نموذجين من هذه الأحاديث :

١ . يقول أحدهم : دخلت على النبي ﷺ بابت لي قد علقته عليه من العذرة (وهي قلادة سحرية جاهلية) فقال : علام تدعزن أولادكن بهذا العلق ، عليكم بهذا العود الهندي « وكان ﷺ يقصد عصارة هذا العود ^(١) .

٢ . روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال : « إن كثيرا من التمام شير » ^(٢) .

هذا مضافا إلى أن النبي ﷺ وأوصيائه الكرام . بارشادهم الناس إلى ما ينبغي أن يتداووا به من العقاقير والأدوية وما أعطوه من تعاليم قيمة كثيرة في هذا المجال مما جمعه المحدثون الكبار تحت عنوان : « طب النبي » و « طب الرضا » و ... وقد وجهوا ضربة قوية أخرى إلى تلك الأوهام والتخيلات ، والحرفات والاساطير التي كان يعاني منها المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام ^(٣) .

وأما الغول ، والطيّرة ، والتشاؤم ، والهامة والنوء فقد حاربها النبي بصراحة إذ قال :
 ﷺ « لا هامة ولا نوء ولا طيرة ، ولا غول » ^(٤) .
 وقال ﷺ : « العيافة والظهور والظفر من الجبت » ^(٥) .

١ . التاج الجامع للأصول : ج ٣ ، ص ١٨٤ .

٢ . سفينة البحار : ج ١ ، مادة رقي .

٣ . وقد فتح المحدثون من الفريقين أبوابا خاصة لأحاديث الطب النبوي في كتب الحديث أيضا .

٤ . التاج الجامع للأصول : ج ٣ ، ص ١٩٦ و ١٩٧ الفصل الرابع باب نفي مزاعم الجاهلية ، قال مؤلف التاج : الهامة طائر أو البوم إذ سقط في مكان تشاءم أهله ، أو دابة تخرج من راس القليل أو من دمه فلا تزال تصيح حتى يؤخذ بئاره ، والنوء نجم يأتي بالمطر وآخر يأتي بالريح (حسب عقيدة الجاهلية) !!

٥ . التاج الجامع للأصول : ج ٣ ص ٢٠١ . قال مؤلف التاج العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها كالتفاؤل بالعقاب على العقاب ، وبالغراب على الغربة ، وبالهدوء على الهدى ، وكذا بافعالها ، وكيفية طيرانها فكانت العرب تزجر الطير وتثيره فما اخذ منها ذات اليمين تبركوا به

وعن النبي ﷺ أيضا أنه قال : « إِنَّ الرقى والتمايم والتولة شرك »^(١) .
وعن أحدهم قال : قلت يا رسول الله اموراً كنتنا نصنعها في الجاهلية ، كنتنا نأتي الكهّان ،
قال : فلا تأتوا الكهّان ، قلت : كتبنا نتطير قال : ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا
يصدنكم .» .

إن وجود النهي الشديد والمكرر في الاحاديث الكثيرة عن الطيرة والتشاؤم ، والزجر
والعيافة والتمايم والتولة والهامة والنوء والغول ، والكهانة ، وايداء الحيوانات وكيهن ،
وتعديهن ، وماشابه ذلك يدل بوضوح وقوة على مدى رسوخ هذه العادات الباطلة في الحياة
العربية الجاهلية ، يكشف عن مبلغ اعتقادهم بها ، ونزوعهم اليها وهو بالتالي يكشف عن
مغزى قوله تعالى : « وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ »^(٢) فأية سلاسل
وأغلال أثقل وأسوء عاقبة وأشدّ وطئة ، من هذه الأغلال ... أغلال الخرافة والوهم ،
وسلاسل التخيلات والاساطير!!

أوضاع العرب الإجتماعية قبيل ظهور الإسلام :

إن أولى خطواتها البشّر باتجاه النمط الإجتماعي كانت عندما أُقبل على تأسيس
واقامة الحياة القبلية ، فالقبيلة تتكون من إجتماع عدة عوائل وأسر مترابطة فيما بينها بوشائج
القرى والنسب تحت زعامة شيخ القبيلة ، وبهذا يتحقق

وتيمّنوا وما تياسر منها تشاء موابه (كما في بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٣ ، ص ٢١٢ تحت عنوان
كيفية الزجر عند العرب) .

و « الطرق » : الضرب بالحصى (للإستدلال على أمور غيبية باعتقاد الجاهليين) . والجبّ هو الباطل .
١ . التاج الجامع للأصول : ج ٣ ، ص ٢٠٣ . قال مؤلّف الجامع : « التولة » : نوع من السحر يجبّب الرجل إلى
زوجته ، وهو من عمل المشركين (أي في الجاهلية) .
٢ . سورة الاعراف : ١٥٧ .

أبسط نمط من أنماط الحياة الإجتماعية.

وقد كانت الحياة العربية . آنذاك . من هذا القبيل ، فكل مجموعة من العوائل المترابطة نسبياً تتجمع في شكل قبيلة ، وتشكل بذلك مجتمعاً صغيراً يخضع فيه الجميع لأوامر رئيس القبيلة وزعيمها ، ولقد كان الجامع بين افراد القبيلة هو الرابطة القومية ، والشيجة النسبية ، وكانت هذه القبائل تختلف في عاداتها ورسومها ، وتقاليدها وأعرافها ، اختلافاً كبيراً ، وإذ كانت كل قبيلة تعتبر القبائل الاخرى غريبة عنها لذلك كانت لا تقيم للآخرين وزناً ولا قيمة ، ولا تعترف لهم باي حق أو حرمة .

ولهذا كانت ترى الإغارة على الآخرين وقتلهم ، ونهب أموالهم ، وسلب ممتلكاتهم وسي نساءهم من حقوقها القانونية المشروعة ، اللهم إلا أن يكون بين القبيلة ، والقبيلة الأخرى حلف أو معاهدة .

هذا من جانب .

ومن جانب آخر كانت القبيلة التي تتعرض للإغارة من جانب قبيلة أخرى ترى من حقها أن تردّ الصاع صاعين ، تقتل كل أفراد القبيلة المغيرة ، لأن الدّم . في نظرهم . لا يغسله الا
الدم !!!

ولقد تبدلت أخلاقية العرب هذه بعد انضوائهم تحت لواء الإسلام الحنيف ، بل تحوّلوا من نمط الحكومة القبلية المتخلفة والنظام العشائري الضيق هذا ، إلى حكومة عالمية ، واستطاع رسول الإسلام ﷺ ان يؤلف من القبائل العربية المتفرقة أمة واحدة .

ولا شك أن تأليف أمة واحدة من قبائل وجماعات اعتادت طوال سنين مديدة من التاريخ على التنافر والتنازع ، والتخاصم والتقاتل ، والتهاجم والإغارة في ما بينها ، واستمرأت سفك الدماء ، وإزهاق الارواح ، وذلك في مدة قصيرة ، عملٌ عظيم جداً ، ومعجزة اجتماعية لا نظير لها ، لأن مثل هذا التحوّل العظيم إذا أُريدَ له أن يتمّ عبر التحولات والتطورات العادية لاحتاج إلى تربية طويلة الامد ، ووسائل لا تحصى كثيرة .

يقول « توماس كارليل » في هذا الصدد : لقد اخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحى به منها امة خاملة لا يُسمع لها صوت ولا يُحسُّ فيها حركة ، حتّى صار الخمولُ شهرةً والغموض نباهةً والضعفة رفعةً والضعف قوةً ، والشرارة حريقاً ، وشمل نوره الأتحاء وعمّ ضوؤه الأرجاء ما هُوَ إلا قرن بعد إعلان هذا الدين حتّى أصبح للعرب (المسلمين) قدم في الهند واخرى في الاندلس (١) .

وإلى هذه الحقيقة يشير ايضاً مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير « رينان » قائلاً : « لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ المخارق للعادة الذي صار به العرب أمةً فاتحةً مُبدعةً ولم يكن لجزيرة العرب شأن في القرون الأولى من الميلاذ ، حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ » (٢) .

أجل إنّ هذه القبائل العربية الجاهلية المختلفة المتناحرة لم تكن تعيش أية حضارة ، ولم تمتلك أية تعاليم وقوانين ، وأنظمة وآداب قبل مجيء الإسلام ، لقد كانت محرومة من جميع المقومات الإجتماعية التي توجب التقدم والرقي ، ولهذا لم يكن من المتوقع ابداً ان تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من الجهد والعظمة ، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع ، وأفق الحضارة الرحيب يمثل هذه السرعة التي وصلت إليه والزمن القصير الذي انتقلت فيه .

إنّ مثل الشعوب والأمم البشرية مثل المباني والعمارات تماماً .

فكما أن البناء القوي الراسخ يحتاج إلى مواد انشائية قوية معدّة باتقان ومحضرةً باحكام حتى يستطيع البناء المصنوع من هذه المواد ، والمؤسس بعناية وهندسة متقنة من الوقوف في وجه الأعاصير ، والأمطار الغزيرة كذلك يحتاج كيان كل أمة رشيدة من الأمم إلى أسس وقواعد محكمة (وهي الأصول والآداب الكاملة ، والأخلاق الإنسانية العالية) لتستطيع من البقاء والتقدم .

١ . الخطط الاستعمارية لمكافحة الإسلام : ص ٣٨ ، والإسلام والعلم الحديث : ص ٣٣ .

٢ . حضارة العرب : ص ٨٧ .

ولهذا السبب لا بد من التأمل في أمر وسر هذه الظاهرة العجيبة ولا بد أن نتساءل :
كيف تحقق ذلك التطور العظيم ، وذلك التحول العميق للعرب الجاهلية ، ومن اين
نشأ؟؟

كيف امكن ان تتحول جماعة متشتتة ، متعادية ، متناحرة ، متباغضة ، في ما بينها ،
بعيدة عن النظم الإجتماعية ، يمثل هذه السرعة إلى أمة متآلفة متاخية متعاونة متسالمة
متحابية ، وتشكل دولة قوية كياناً سياسياً شامخاً أوجب أن تخضع لها دول العالم وشعوبه ،
وتطيعها ، وتحترم مبادئها واخلاقها وآدابها آنذاك .

حقا لو كان في مقدور العرب أن يحرزوا ذلك التقدم الهائل بفعل عامل ذاتي فلماذا لم
تستطع عرب اليمن الذين كانوا يمتلكون شيئاً كبيراً من الثقافة والحضارة ، والذين عاشوا
الانظمة الملكية سنياً عديدة ، بل ورثت في احضانها ملوكاً وقادة كباراً ، أن تصل إلى مثل
هذه النهضة العظيمة الشاملة ، وتقيم مثل هذه الحضارة العريضة الخالدة .

لماذا لم تستطع العرب الغساسنة الذين كانوا يجاورون بلاد الشام المتحضرة ، ويعيشون
تحت ظل حضارة « الروم » أن يصلوا إلى هذه الدرجة من الرشد؟

لماذا لم تستطع عرب الحيرة الذين كانوا . وإلى الامس القريب . يعيشون في ظل
الامبراطورية الفارسية أن ينالوا مثل هذا الرقي والتقدم؟ وحتى لووصلوا إلى هذه الدرجة من
التقدم وحققوا هذه القفزة فانه لم يكن أمراً يثير العجب لأنهم كانوا يعيشون في أحضان
مدنيات كبرى ، ويتغذون منها ، ولكن الذي يثير الدهشة ، والعجب هو أن تستطيع عرب
الحجاز من تحقيق هذه النهضة الباهرة ، ويروثوا الحضارة الإسلامية العظمى وهم الذين كانوا
يفتقرون إلى أبسط مقومات الحضارة الذاتية ، ولم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاري مشرق
، بل كانوا كما عرفت يرزحون تحت أغلال الوهم والتخيل ، ويسيروا في ظلمات الخرافات
والأساطير .

* * *

٥١ الحيرة وغمسان :

على العموم كانت المناطق ذات المناخ الجيّد من الجزيرة العربية حتى آخر قرن قبل الإسلام تحت سيطرة ثلاث دول كبرى هي : « ايران » ، « الروم » ، « والحبشة » . فالشرق والشمال الشرقي من هذه المنطقة كانت تحت حماية « ايران » . والشمال الغربي كان تابعا للروم .

والمناطق المركزية والجنوب كانت تحت نفوذ « الحبشة » .

وعلى أثر مجاورة هذه المناطق للدول المتحضّرة المذكورة ، وما كان بينها من نزاع وتنافس دائمين ظهرت في المناطق الحدودية للجزيرة العربية دول شبه متحضّرة ، وشبه مستقلة كان كل واحد منها تابعة في حضاراتها لدولة متمدنة عظمى تجاورها .

وقد كانت دول « غسان » ، و « الحيرة » « وكنده » من هذه الدول شبه المستقلة وشبه المتمدنة ، وكانت كل واحد منها تابعة لاحدى الدول العظمى آنذاك : « ايران » ، « الروم » ، « الحبشة » .

الحيرة : يتبيّن من الآثار والأخبار أنه هاجرت . في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد . بعض الطوائف العربية ، وذلك في نهايات الحكم الأشكنازي ، إلى الأراضي المجاورة للفرات ، وسيطروا على قسم من أراضي العراق ، وقد أوجدت هذه الجماعة المهاجرة القرى والقلاع هناك ، شيئا فشيئا ، وأحدثت المدن التي من أهمّها : « الحيرة » التي كانت تقع على حافة صحراء بالقرب من مدينة الكوفة الحالية .

وقد كانت هذه المدينة . وكما يظهر من إسمها . في بداية أمرها قلعة (لأن الحيرة تعني في اللغة السريانية : الدير وما يشبهه) يسكنها العرب ثم تطورت شيئا فشيئا إلى مدينة . وقد ساعد مناخها الجميل ، والمياه الوفرة التي تأتي إليها من الفرات ، وجوده

الأحوال الطبيعية الأخرى إلى أن تجتذب إليها أصحاب الصحراء ، وسكان البوادي ،
والقفار ، كما استطاعت هذه المدينة وبفضل مجاورتها للحضارة الفارسية إن تكتسب من
ثقافتها ومدنيتها ما أفاض عليها لوناً من الحضارة والمدنية ، وقد بُنيت بالقرب من « الحيرة »
قصور مثل « الخورنق » الذي اُضُاف إلى هذه المدينة جمالا وبهاء خاصين ، وقد تعرّف
العرب الساكنون في هذه المنطقة على الخط والكتابة ، ويمكن ان تكون الكتابة والقراءة قد
سرتا منها إلى بقية مناطق الحجاز ومُدُنُها ^(١) .

ولقد كان ملوك « الحيرة » وأمراؤها من اللخمين العرب يؤيدون من قِبَل الدولة الإيرانية
بقوة ، وسبب هذا التأييد ، والحماية الإيرانية لأمرء الحيرة وملوكها كان يكمن في أن ملوك
إيران . آنذاك . كانوا يُريدون أن تكونَ الحيرة سَدًّا ، وحاجزاً بينهم وبين عرب البادية ، يدفعون
بهم خطرَ الغزاة من أهل الصحارى على الحدود الإيرانية .

ولقد سجّل التاريخ أسماء هؤلاء الأمراء ؛ وقد نظم « حمزة الاصفهاني » فهرستا بأسمائهم
، وجدولا بأعمارهم ومُدَد حكوماتهم ، ومن كان يعاصرهم من ملوك بني ساسان الإيرانيين
.^(٢)

ومهما يكن الأمر فإن دولة اللخمين العرب كانت من أكبر الحكومات العربية شبه
المتحضرة في منطقة الحيرة ، وكان آخر ملوك هذه السلسلة هو « النعمان بن المنذر »
صاحب القصة التاريخية التي تتضمن خلعته من الحكم ، وقتله بواسطة الملك الايراني :
« خسرو برويز » ^(٣) .

غَسْبَان : في أوائل القرن الخامس أو اوائل القرن السادس الميلادي هبط جماعة من
المهاجرين اليمنيين في الشمال الغربي . أقصى نقاط الجزيرة العربية . وفي جوار الإمبراطورية
الرومية ، وأسسوا دولة الغساسنة ، وقد كانت هذه الدولة

١ . فتوح البلدان للبلاذري : ص ٤٥٧ .

٢ . سِيِّ ملوك الأرض : ص ٧٣ . ٧٦ .

٣ . الأخبار الطوال : ص ١٠٩ .

تحت حماية الروم ، وكان مُلوؤها يُنصبون من جانب إمبراطوريات « قسطنطينية » مباشرة ،
تماما كما كان مُلوها « الحيرة » يُنصبون من جانب ملوك إيران.
ولقد كانت دولة الغساسنة متحضرة نوعا ما ، وحيث أن مراكز حكمها كانت قريبة من
ناحية إلى « دمشق » ومجاورة لـ : « بُصرى » مركز القسم الرومي من الجزيرة العربية من
ناحية أخرى ، لذلك تأثرت بحضارة الروم تأثراً كبيراً وبالغاً.
ولقد كان الغساسنة متحالفين مع الروميين بسبب ما كان بينهم وبين ملوك الحيرة
اللخمييين العرب والایرانیين من الاختلاف والنزاع ، ولقد حكم في دولة الغساسنة تسعة أو
عشرة من الأمراء والملوك تباعا.

الدين في أرض الحجاز :

لقد كان الدينُ الرَّائج في الحجاز هو الوثنية ، وعبادة الاصنام.
نعم كانت هناك أقليات دينية يهودية تقطن في يثرب (المدينة فيما بعد) وخيبر ، كما
انه كان هناك من يتبع المسيحية وهم سَكَّان نجران ، البلد الحدودي لليمن والحجاز.
وكان الدين الرَّائج في المناطق الشمالية من الحجاز (إي الشام حاليا) هو المسيحية
بسبب مجاورة هذه المناطق للروم وخوضها للسيادة الرومية.
ولو أننا استثنينا من الحجاز هذه المناطق الحساسة الثلاث لما وجدنا في بقية مناطق
الحجاز إلا الوثنية في أشكال مختلفة ، واعتقادات متنوعة ، اللهم إلا بضع افراد كان عددهم
لا يتجاوز عدد أصابع اليد ممن يُسمَّون بالاحناف كانوا على دين التوحيد ، وكان عددهم
بالنسبة إلى الاكثرية الساحقة من العرب الوثنيين قليلا جله^(١) .
فمنذ زمن النبي « إبراهيم » الخليل وابنه « اسماعيل » ﷺ دخل

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٢٢ و ١٢٣ .

التوحيد ، ودخلت بعض التعاليم الأخلاقية والدينية إلى أرض الحجاز ، وكان الحج وأداء مناسكه إحتراما للكعبة الشريفة هو أحد هذه التعاليم والسنن التي دخلت مع « الخليل » إلى هذه المنطقة ، ثم إن رجلا من قبيلة « خزاعة » يسمى « عمرو بن لحي » الذي كانت زعامة مكة قد عهدت إليه ، أدخل عبادة الاوثان في مكة في ما بعد ، وذلك عندما سافر هذا الخزاعي إلى بلاد الشام فوجد قوما من العمالقة يعكفون على تماثيل جميلة النقش والمنظر يعبدونها ، ويؤهونها ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي اراكم تعبدون؟؟ قالوا له : هذه اصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما فاسير به إلى ارض العرب فيعبده؟؟ فأعطوه صنماً ، وهكذا استحب عملهم ، وجلب معه إلى مكة صنما جميل النقش والنحت يدعى « هُبَل » فنصبه ودعا الناس إلى عبادته ، وتعظيمه.

وهكذا دخلت الوثنية إلى « مكة » المكرمة ، واصبحت عبادة الاوثان والاصنام عبادة رائجة في تلك الديار ^(١).

واشهر اصنام العرب هي :

- ١ . هبل وكانت أعظم اصنام العرب التي في جوف الكعبة.
- ٢ . اساف.
- ٣ . نائلة وكانت هي واساف على موضع زمزم ينحرون عندهما.
- ٤ . اللات وكانت لثقيف بالطائف.
- ٥ . العزى وكانت بنخلة الشامية ، وكانت لقريش وبني كنانة.
- ٦ . منات وكانت للاوس والخزرج ومن ذهب مذهبهم من أهل يثرب.
- ٧ . عميانس وكان بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم.
- ٨ . سعد.

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٧٨ . ٨١ ، والعمالقة هم طائفة من العرب عاشوا وسادوا ثم بادوا قبل الإسلام.

٩ . ذوالخليفة وكانت لدوس وختعم وبجيلة.

١٠ . مناف ^(١).

ولقد كانت هذه هي أشهر أصنام العرب علاوة على الأصنام الأخرى غير المعروفة التي كانت تختص بطائفة دون أخرى ، أو بعائلة دون عائلة.

العلم والثقافة في الحجاز :

كان أهل الحجاز يوصفون بالأميين ، والأمي هو من لم يتعلم القراءة والكتابة فهو كمن ولدته أمه ، أو هو باق في عدم العلم بالقراءة والكتابة على الحالة التي وُلد فيها من أمه .
ولأجل أن نعرف مدى ما كان عليه العلم والثقافة عند العرب من القيمة يكفي أن نعلم بأن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين قريش إلى ما قبل ظهور الإسلام لم يكن يتجاوز (١٧) شخصا في مكة و (١١) نفرا فقط من بين الأوس والخزرج في المدينة ^(٢) .
إذا لاحظنا هذا التخلف والانحطاط في مجال العلم والثقافة في البيئة العربية الجاهلية يتضح لنا مدى تأثير الإسلام ، وادركنا عظمة التعاليم الإسلامية في جميع الحقول الاعتقادية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية ، ولا بدّ في تقييم الحضارات أن نطالع وندرس الحلقة السابقة ، ثم نقيم الحلقة التالية في ضوء ذلك ، وفي هذه الصورة نقف على عظمة تلك الحضارة الحقيقية ^(٣) .

١ . راجع الأصنام للكليبي ، والمحرر : ص ٣١٥ - ٣١٩ .

٢ . فتوح البلدان : ص ٤٥٧ - ٤٥٩ .

٣ . للوقوف على معلومات أوسع وأكثر حول عقائد مختلف طوائف المجتمع العربي الجاهلي ، وثقافتها وتقاليدها راجع الكتابين التاليين :

ألف : « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » تأليف السيد محمود الألوسي المتوفى عام

١٢٧٠ هجري قمري .

باء : « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » تأليف الأستاذ جواد علي ، وهذا الكتاب أخرج في (١٠) مجلدات ، وقد جُمعَ فيها كل ما يرتبط بحياة العرب في العهد الجاهلي .

الإمام علي يصف العهد الجاهلي :

وقد وصف الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام تلك الحالة في خطبه ، وحيث أنه عاصر ذروة ذلك الوضع المأساوي ووصفه وصفا دقيقا لذلك ينبغي أن نقف عند كلامه قليلا ليتبين لنا جيدا ما كان عليه العرب إبان عهد الرسالة الإسلامية المباركة :

قال عليه السلام في الخطبة (الثانية) من نهج البلاغة :

« ... وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور والعلم الماثور والكتاب المسطور والنور الساطع ، والضيء اللامع ، والأمر الصاعد إزاحة للشبهات واحتجاجاً بالبينات وتحذيراً بالآيات ، وتخويفاً بالمثلات ^(١) لئلا ينجم ^(٢) فيها حبل الدين ، وترعزعت سوارى ^(٣) اليقين وأختلِف النجر ^(٤) ، وتشتت الأمر وضاق المخرج ، وعمي المصدّر فالهدى خامل ، والعمى شامل ، عصي الرّحمان ونصر الشيطان وخذل الإيمان فأهزرت دعائمها ، وتكثرت معالمه ودرست ^(٥) سبله وعقت شيركه ^(٦) أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ، ووردوا مناهله ^(٧) بهم سارت أعلامه ، وقام لواءه في فتن داستهم بأخفافها ^(٨) ووطبتهم بأظلافها ^(٩) وقامت على سنايها ^(١٠) فهم فيها تهون حائرُن جاهلون مفتنون في خير دار وشّر جبرن نؤمهم سُهود وكحلهم دُموع طلّ عالمها مُلجم وجاهلها مُكم .

وقال في الخطبة (التاسعة والثمانين) أيضا :

« أرسله صلى الله عليه وسلم على حين فتح من الرّسبل وطبول هجعة من الأيم واعتزام ^(١١) من الفتن وانتشار من الأمور وتلظّ ^(١٢) من الحرب والدنيا

١ . المثلات : العقوبات .

٢ . انجم : انقطع .

٣ . السواري : الدعائم .

٤ . النجر : الأصل .

٥ . درست : انظمست .

٦ . الشرك : الطرق .

٧ . المنهل : مورد النهر .

٨ . الحف : هو للبعير كالقدم للإنسان .

٩ . الظلف : للبقر والشاة كالخف للبعير والقدم للإنسان .

١٠ . السنايك : طرف الحافر .

١١ . اعتزم الفرس : إذا مر جاحدا .

١٢ . تلظّ : تلهب .

كاسفة الثور ظاهر الغرر على حين اصفرار من وقتها وأياس من ثمرها واغورار^(١) من مائها
قد دسست منار الهدى وظهر أعلام الردى فهي متحجبة^(٢) لأهلها عابسة في وجه طالبيها
ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة^(٣) وشعارها الخوف وثارها السيف».

وقال في الخطبة (السادسة والعشرين) : « إن الله بعث محمدا ﷺ نذيرا للعالمين
وأمینا على التنزیل منتم معشیر العبر على شبر دين وفي شبر دار منيخون^(٤) حجار
خشن^(٥) وحيات صم^(٦) تشربون الكله وتأكلون الجشب^(٧) وتسفكون دماءكم وتقطعون
أحامكم الأصنام فيكم منصوبة ولآثام بكم معصوبة^(٨) ».

وقال في الخطبة (الثالثة والثلاثين) : « إن الله بعث محمدا ﷺ وليس أحد
من العبر يقرأ كتابا ولا يدعي نبوة فساق الناس حتى بؤأهم محلثهم^(٩) وبلغهم منجاتهم
فاستقامت قنائهم^(١٠) واطمأنت صفائهم ».

وقال في الخطبة (الخامسة والتسعين) أيضا :

« ... بعثه ﷺ والناس ضلال في خيبر وحاطبون في فتنة قبد استهوتهم الأهباء
مستزلتهم الكبرياء مستحقتهم^(١١) الجاهلية الجهلاء خياري في زلزال من الأبرم وبلاء من
الجهل فبالغ ﷺ في النصيحة ومضى على الطريقة وعأ إلى الحكمة ولموعظة الحسنة ».

وقال في الخطبة (السادسة والتسعين) أيضا :

« ... مستقره خيبر مستقر ومنبئه أشير منبت في معاذ الكرامة ومماهد^(١٢) السلامة
قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار وثبتت إليه أزمة الأبصار دفن

١ - اغورار الماء : ذهابه.

٢ - تحجبه : استقبله بوجه كربه.

٣ - إشارة إلى أكل العرب للميتة من شدة الاضطرار.

٤ - منيخون : مقيمون.

٥ - الخشن : جمع خشاء من الخشونة.

٦ - الصم : التي لا تسمع لعدم انزجارها بالاصوات.

٧ - الجشب : الطعام الغليظ.

٨ - معصوبة : مشدودة.

٩ - بؤأهم محلثهم : أنزلهم منزلتهم.

١٠ - القناة : العود كناية عن القوة.

١١ - استحقتهم : طيشتهم.

١٢ - الممهّد : ما يُسَط في الفراش.

اللَّهِ بِه الضَّعَائِنِ مَطْفَأُ بِه النَّوَائِرِ ^(١) أَلْفٌ بِه إِخْوَانَا وَفَبَرَقَ بِه أَقْرَانَا أَعَزَّ بِه الدَّلَّةُ هَلَّى بِه العَزَّةُ
كَلَامُهُ بَيَانٌ وَصَمْتُهُ لِسَانٌ.»

وقال عليّ في الخطبة (١٥١) أيضا :

«... أضاءت به ﷺ البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة والجفم الجافية
مَلَأَسٌ يَسْتَحِلُّونَ الحَرِيمَ وَيَسْتَدِلُّونَ الحَكِيمَ يَخِينُونَ عَلَى فَتْرٍ ^(٢) وَيَمُوتُونَ عَلَى كُفْرٍ.»

وقال في الخطبة (١٩٨) :

«.. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ حِينَ ذَنَا مِنَ الدُّنْيَا الإِنْقِطَاعَ مَقْبَلٍ
مِنَ الآخِرِ الإِطْلَاعَ ^(٣) مَطْلَمَتٍ بِهَجَّتْهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ وَقَامَتِ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ وَحَشِينٌ مِنْهَا
مِهَادٌ ^(٤) فَرَفَ ^(٥) مِنْهَا قِيَادٌ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مَدَّتْهَا وَأَفْتَرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا ^(٦) وَتَصَرُّمٌ ^(٧) مِنْ أَهْلِهَا
وَأَنْفِصَامٌ ^(٨) مِنْ حَلَقَتِهَا وَمُنْتِشَارٌ ^(٩) مِنْ سَبَبِهَا وَعَفَاءٌ ^(١٠) مِنْ أَعْلَامِهَا وَتَكْشُفٌ مِنْ عَوْرَاتِهَا
وَقِصْرٌ مِنْ طُولِهَا.»

وقال عليّ في الخطبة (٢١٣) :

«رَأَسَلَهُ بِالضِّيَاءِ وَقَدَّمَهُ فِي الأَصْطِفَاءِ فَرْتَقَ ^(١١) بِه المِفَاتِقَ ^(١٢) وَسَاوَى ^(١٣) بِه المِغَالِبَ وَكَلَّ
بِهِ الصُّعُوبَةَ وَسَهَّلَ بِه الحِزْنَ ^(١٤) حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنِ بِيَمِينَ وَشِمَالٍ.»

وقال في الخطبة (١٩١) :

«مَشْهَدٌ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَسَبْوُهُ ابْتِغَاءً مَلَبَسَ يَضْرِبُونَ فِي عَمِيرَةٍ ^(١٥) وَيَمُوجُونَ فِي حَيْبٍ
قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْزَمَةُ الحُورِ ^(١٦) وَاسْتَعْلَقَتْ عَلَى أَفْعَادِهِمْ أَفْعَالُ الرِّينِ ^(١٧).»

١٠. عفاء الأعلام : اندراسها.

١١. رتق : سد به الفتق.

١٢. المفاتيح : مواضع الفتق.

١٣. ساور : ثاوب.

١٤. الحزونة : غلظ في الارض.

١٥. العمرة : الماء الكثير.

١٦. الحين : الهلاك.

١٧. الرين : التغطية.

١. النائرة : العدو.

٢. على فترة : على خلو من الشرائع.

٣. الأطلاع : الإتيان.

٤. خشونة المهاد : كناية عن شدة آلام الدنيا.

٥. ازف : قرب.

٦. الشرط : العلامة.

٧. التصم : التقصع.

٨. الانفصام : الانقطاع.

٩. انتشار الأسباب : تبيدها حتى لا تضبط.

فاطمة الزهراء تصف الوضع الجاهلي :

وقد وصفت السيِّدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ العهد الجاهلي بمثل ذلك إذ قالت في خطبتها أمام أبي بكر والمسلمين ^(١) :

« فَبَلَّغَ (اي رسول الله) بِالرَّسَالَةِ صَادِعًا بِالنَّذَارَةِ ^(٢) مَائِلًا عَلَى مَدْجَةِ الْمُشْرِكِينَ ضَارِبًا تَبَجُّهْمَ ^(٣) آخِذًا بِأَكْظَامِهِمْ دَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ يَكْتَسِرُ الْأَصْنَامَ وَيَنْكُثُ الْهَامَ ^(٤) حَتَّى أَنْهَضَ الْجَمْعَ وَكُلُّوا الدُّبُرَ حَتَّى تَفْرَجَ اللَّيْلُ عَنِ صُبْحِهِ وَسَبَقَ الْحَقُّ عَنِ مَحْظِهِ ^(٥) وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ وَخَرَسَتْ شَقَاشِقُ ^(٦) الشَّيَاطِينِ وَأَطَاحَ وَشَيْطُ ^(٧) التَّفَاقِ وَأَحَلَّتْ عُقْبَدَ الْكُفْرِ وَالشَّقَاقَ وَفُهِتُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيْضِ الْخِمَاصِ وَكُنَيْتُمْ عَلَى شَيْفَا خُبْرٍ مِنَ الْبَارِ مُدْقِيَةِ ^(٨) الشَّبَارِ وَنُهَيْزِ ^(٩) الطَّامِعِ وَقَبَسَةِ الْعِجْلَانِ ^(١٠) وَمَبْطِئِ الْأَقْدَامِ تَشْبِيرُوتِ الطَّرِيقِ ^(١١) . وَتَفْتَانُونَ الْقَدَّ ^(١٢) وَلَوْ قَ أَذَلَّةَ خَاسِنِينَ تَجَافُونَ بِتَخَطُّفِكُمُ النَّبَاسِ مِنْ كَرَمٍ أَتَقَدِّكُمْ لِلَّهِ عَلَى حِمِّ لَيْدٍ لِلَّيْمِ لَيْحِي يَدَنَّ حِيَّيْ بِبُهُمِ ^(١٣) الرِّجَالِ وَوُؤُ بَانَ الْعَبْرَ وَمِرَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ ^(١٤) كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، أَوْ نَجَمَ ^(١٥) قَبْرُ الشَّيْطَانِ أَوْ فَعِيرَ ^(١٦) فَاعْرَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَذَفَّ أَحَاهُ فِي لَهْوَاتِهَا ^(١٧) فَلَا يَنْكَفِي ^(١٨) حَتَّى يَطَّأَ صِمَاحَهَا بِأُحْمِصِهِ . »

- | | |
|---|---|
| ١ . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد وبلاغات النساء وغيرهما. | ١٠ . قبسة العجلان : الشعلة من النار التي يأخذها الرجل العاجل. |
| ٢ . النذار : الأندار. | ١١ . الطرق : الماء الذي خوضته الابل وبولت فيه. |
| ٣ . التبجج : الكاهل. | ١٢ . القد : قطعة جلد غير مدبوغ. |
| ٤ . الهامة : الرأس. | ١٣ . البهمة : الشجاع الذي لا يهتدي من أن يؤتى. |
| ٥ . المحض : الخالص. | ١٤ . المارد : العاتي. |
| ٦ . الشقشقة : شيء يشبه الرئة يخرج من فم البعير إذا هاج. | ١٥ . نجم : طلع. |
| ٧ . الوشيظ : الأتباع والخدم. | ١٦ . فَعَرَتْ : فتحت. |
| ٨ . المدقة : شربة من اللبن الممزوج بالماء. | ١٧ . اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم. |
| ٩ . النهزة : الفرصة. | ١٨ . ينكفي : يرجع. |

جعفر بن ابي طالب يصف العهد الجاهلي :

ويشهد بذلك أيضا ما قاله جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ملك الحبشة عندما اراد مَبْعوثًا قريش استعادتهما إلى مكة :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْإِصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنَسِيءُ الْجَوَارِ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفُ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِمَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعِفَاقَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنُخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ ، وَتَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَتْ : فَعَدَّ عَلَيهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ حَتَّى قَالَ : وَصَدَّقَنَاهُ ، وَأَمَرْنَا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمًا فَعَدَّوْنَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ نَسْتَجِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَجِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ ^(١) .

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٣٥ و ٣٣٦ . والحديث عن لم سلمة .

إمبراطوريتنا الروم وإيران

إبان عهد الرسالة

للقوف على أهمية النهضة الإسلامية المباركة التي تحققت على يدي النبي الاكرم ﷺ بعد ارساله من جانب الله تعالى وقيمتها ، تكتسب دراسة بيئتين إجتماعيتين اهمية قصوى ، وتناك البيئتان هما :

- ١ . بيئة نزول القرآن الكريم ، أي البيئة التي ظهر فيها الإسلام ، وترعرع ونمى .
- ٢ . البيئة العالمية (خارج الجزيرة العربية) ، ويعرف ذلك بدراسة عقائد الناس وافكارهم في اكثر مناطق العالم . يومذاك . مدنية وحضارة ، ومطالعة آدابهم وأخلاقهم وتقاليدهم ، وأعرافهم ، ومدنيتاهم التي كانت تعتبر أفضل الأفكار والمدنيتات ، وأرقى الحضارات ، والأوضاع آنذاك .

ولقد كانت بيئتا : الامبراطورية الرومانية ، والامبراطورية الإيرانية ألمع نقطة في ذلك اليوم . كما يدلنا التاريخ على ذلك . ولا بد أستكمالاً لهذا البحث من دراسة الأوضاع في هاتين الإمبراطوريتين ، في مناطقها ، ومن نواحيها المختلفة ، لنقف من هذا الطريق على قيمة الحضارة التي اتى بها الإسلام ، ونعرف ذلك بوجه أفضل .

أوضاع الروم إبان عهد الرسالة :

ان أوضاع الروم لم تكن بأقل سوء من أوضاع منافستها « إيران » فالحروب الداخلية من جانب والمعارك الخارجية المستمرة مع « إيران » وصراعها الدائم المستمر مع الاخيرة على منطقة « ارمينية » وغيرها كل ذلك كان يهيء الناس في تلك البلاد لقبول بثورة جديدة يضع حدا لمآسيهم ومحنهم.

ولقد كان للاختلافات والمنازعات الطائفية والمذهبية النصيب الاكبر والأوفر في توسيع رقعة هذه الاختلافات ، والمنازعات.

فالحرُب لم تتوقَّف أبداً بين الوثنيين والمسيحيين ولم تنطفئ شرارتها يوماً ابداً. فكان إذا غلب رجال الكنيسة على دست الحكم وأخذوا بمقاليدهم مارسوا أشد أنواع الضغط والأضطهاد بحق خصومهم ومنافسيهم الأمر الذي كان يساعد على إيجاد أقلية ناقمة من جهة ، كما ويمكن اعتبار ذلك عاملاً مساعداً من جهة أخرى على تهيئة الشعب الروماني لاحتضان الدعوة الإسلامية ، وتقبلها.

لقد كان حرمان طوائف كثيرة ومختلفة ناشئاً من ممارسات رجال الكنيسة الخشنة ومواقفهم المتزمتة.

هذا مضافاً إلى أن اختلاف القساوسة والرهبان النصارى فيما بينهم من جهة ، وتعدّد المذاهب من جهة اخرى كان يعمل على التقليل من هيبة الامبراطورية الرومانية وجرحها إلى الضعف والوهن المتزايد يوماً بعد يوم.

هذا بغض النظر عن أن البيض والصبفر من سبكان الشمال والمشرق كانوا يفكرون في السيطرة على المناطق الغنية من أوربة ، وربما ألحق أحدهما بالآخر خسائر فادحة وباهضة في الصرعات والمصادمات التي كانت تقع بينهما. وكان هذا هو نفسه السبب في أن تنقسم الامبراطورية الرومية إلى معسكرين : المعسكر (أو القسم الشرقي) والمعسكر (أو القسم الغربي) .

ويعتقد المؤرخون أن أوضاع الروم السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس كانت مضطربة ، ومتدهورة جداً ، حتى أنهم لا يرون في غلبة

الروم وتفوقها على إيران شاهداً على قدرتها العسكرية ، وتفوقها النظامي ، بل يرون أن هزيمة إيران كانت بسبب الفوضى التي كان سائدة انذاك في جهاز الحكم الايراني .
إن هاتين الدولتين اللتين كانتا تترجّعان على عرش السيادة والسياسة العالمية في مطلع ظهور الإسلام كانتا تعيشان حالة سيئة من الفوضى ، والمرج والمرج ، ومن البديهي أن مثل هذه الأوضاع كان من شأنها أن توجد حالة من التهيؤ الكبير والظمأ الشديد إلى دين صحيح يضع حداً ونهاية لتلك الحالة ، ويعيد تنظيم حياتهم .

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي :

المتعارف أن يعمد جماعة من البطالين والفسقة إلى طرح سلسلة من القضايا والمسائل الخاوية والنقاش حولها بهدف التوصل إلى أغراض فاسدة ، فيستهلكون بذلك أوقات الناس ، ويهدرون أعمارهم على منحرج الجدل العقيم .
وهي حالة لها مصاديق كثيرة وشواهد عديدة في كثير من بلاد المشرق ، ولسنا بصد التوسّع فيه فعلاً .

وقد كانت « الروم » تعاني يومئذ من مثل هذه الحالة أكثر من أي مكان آخر .
فقد كان ملوك الروم ورجال الحكم والسياسة تبعاً لمذاهب دينية كنسية يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعتين ومشيتين ، ولكن طائفة أخرى من النصارى وهم « اليعقوبية » كانوا يقولون بأنه : ذو طبيعة ومشيتة واحدة .

وقد وجهت هذه المسألة الباطلة نفسها ، والجدل الواهي حولها ضربة شديدة إلى وحدة الروم ومن ثم استقلالها ، وحدثت في صفوفها انشقاقاً عميقاً حيث كانت السلطات الحاكمة تضطر إلى الدفاع عن معتقداتها ، ولذلك كانت تضطهد معارضيها ، وتلاحقهم وهذا الاضطهاد والضغط الروحي سبب في لجوء البعض إلى الدولة الايرانية ، كما كان هؤلاء هم الذين تركوا المقاومة عند

مواجهة الجيش الإسلامي ، وألقوا السلاح ، واستقبلوا جنود الإسلام بالاحضان .
كانت الروم تمرُّ آنذاك بظروف اشبه ما تكون بظروف القرون الإربية الوسطى التي ينقل
عنها « فلاماريون » الفلكي الشهير القضايا التالية التي تدل على المستوى الفكري والثقافي
لأُرْبَة في القرون الوسطى :

لقد كان كتاب « المجموعة اللاهوتية » المظهر الكامل للفلسفة المدرسية في القرون
الوسطى ، وقد بقي هذا الكتاب يُدرّس في أوربة خلال أربعمئة سنة ككتاب رسمي ومعترف
به .

وقد كان من الأبحاث المطروحة في هذا الكتاب البحث حول عدد الملائكة التي يمكنها
ان تستقر على راس إِبْرَه؟! أو عدد الفراسخ بين العين اليسرى والعين اليمنى للاب الخالد؟!
إلى غير ذلك من القضايا التافهة!!

إن الامبراطورية الرومية السيئة الحظ فيما كانت تعاني من الحروب الخارجية الكثيرة ،
كانت تعاني كذلك من النزاعات والاختلافات الداخلية . التي كانت . على الاغلب . تتصف
بالصبغة المذهبية والطائفية . وكانت تدفع بالبلاد إلى حافة الهاوية ، وتزيدها قربا إليها يوماً
بعد يوم .

ولما رأى اليهود (وهي الزمرة الشريرة المتآمرة على الشعوب دائماً) تصاعد الاضطهاد
والضغط الذي يمارسه الامبراطور المسيحي الرومي خطّطت لاسقاط ذلك النظام ، فاحتلت
مدينة انطاكية ذات مرة ، ومثلت بأسقف أنطاكية الاكبر فصلموا أذنه ، وجدعوا أنفه ،
فانتقمت حكومة الروم لهذه الجناية بعد مدة ، وقتلت اليهود في انطاكية في مذبح عامة .
وقد تكرّرت هذه الجرائم الفضيعة وهذه المذابح ، والمذابح الانتقامية المضادة بين اليهود
والنصارى عدة مرات ، وربما سرت موجة الروح الانتقامية أحياناً إلى خارج البلاد ، فمثلا
اشترى اليهود من ايران ذات مرة ثمانين الف مسيحي ثم حزوا رؤوسهم انتقاما وتشفيا .
من هذا يستطيع القارئ الكريم أن يقف على الصورة القائمة للوضع السيء والمتنجس الذي
كان عليه العالم إبان بزوغ شمس الإسلام ، ويدعن . مع

المدعين . بأن التعاليم الإسلامية الرفيعة التي انقذت العالم من ذلك الوضع المأساوي لم تكن أبداً وليدة الفكر البشريّ وان نسيم الوحدة ، الناعشة ، ونعمة السلام التي يهدف إليه الإسلام ويسعى إلى تحقيقه واقارره في الحياة البشرية ليس لها من مصدر إلا الغيب ، إذ كيف يمكن القول بان الإسلام الذي يعترف حتى للحيوانات بحق العيش والحياة نابع من تلك البيئة المعرقة في القسوة والوحشية ، وناشئ من ذلك المحيط المفحم بروح الانتقام والتشفي .

لقد أبطل الإسلام جميع تلك المجادلات العقيمة والمناقشات التافهة حول مشيئة عيسى وشخصيته ، وقال في نعتة ووصفه : « ما المنيح بن مريم إلا رسول قد خَلِيتَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »^(١) .

إن هذه الآية انهدت الكثير من أبحاث رجال الكنيسة الباطلة الخاوية حول « الروح » و « المسيح » ودمه ، وشخصيته ، وحقيقته ، كما ان الإسلام بفضل التعاليم الرفيعة ، واحياء السجايا والملكات الفاضلة انقذ البشرية من المنازعات ، الفارغة ، والمذابح الفضيعة .

أوضاع إيران إبان عهد الرسالة :

إن ما دفعنا إلى دراسة أوضاع الإمبراطورية الرومية هو نفسه يحتم علينا أيضا دراسة اوضاع إيران يومذاك .

لقد صادف ظهور الإسلام وبعثة الرسول الكريم محمد ﷺ (٦١١ ميلادية) عهد السلطان الإيراني خسرو برويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) ، وفي عهد « خسرو برويز » هذا هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة (الجمعة ١٦ جولاى ٦٢٢) ، وصارت هذه الواقعة مبدء للتاريخ الإسلامي .

في هذه الأيام كانت الدولتان العظيمتان (الروم الشرقية وايران

١ . المائة : ٧٥ .

الساسانية) تسيطران على معظم مناطق العالم المتحضر ، ولم تنزل هاتان الدولتان في نزاع مستمر وصراع دائم على مناطق النفوذ حتى بعد ظهور الإسلام.

فقد بدأت حروب ايران والروم الطويلة من عهد السلطان الإيراني أنوشيروان (٥٣١ . ٥٨٩ م) واستمرت إلى عهد الملك « خسرو برويز » واستغرقت اربعاً وعشرين عاماً من الزمان^(١).

وقد سبب تحمل « ايران » و « الروم » للخسائر الكبرى ، في الارواح والثروات خلال هذه المعارك الطويلة في إضعاف تينك الدولتين ، وتعطيل وشلّ قواهما بحيث لم يبق منهما إلاّ شبح دولتين لا أكثر.

ولكي نقف على الوضع العام في ايران آنذاك من جهاته المختلفة ، وابعاده المتنوعة وبصورة أفضل ، يجب ان نلقي نظرة فاحصة على وضع الحكومات التي توالت على سدة القيادة الايرانية بعد حكم « انوشيروان » وحتى بداية دخول المسلمين.

البذخ والترف في البلاط الساساني :

كانت حياة الملوك الساسانيين تتسم عموماً بالبذخ والترف ، والتشريفات الطويلة العريضة ، وكان البلاط الساساني الفخم جداً يخلب بريقه ، بريق العيون ، ويسحر الافئدة والعقول.

وكان للايرانيين في عهد الساسانيين لواء يُعرف بـ « درفش كاوياني » اي العلم الكاوياني نسبة إلى كاوه وهو بطل قومي إيراني أسطوري ، وقد كانوا يحملونه معهم في الحروب ، أو ينصبونه فوق قصورهم اثناء إحتفالات الساسانيين الكبرى ، وقد كان هذا اللواء موشحاً ومزيناً بأغلى أنواع المجوهرات بلغت قيمتها التقديرية . حسب قول بعض الكتاب : « ٠٠٠ / ٢٠٠ / ١ » درهما (أو ما يعادل

١ . تاريخ علوم وادبيات در ايران ص ٣ و ٤ وايران در زمان ساسانيان ص ٢٦٧ (باللغة الفارسية).

٠٠٠ / ٣٠ پوند).

وقد بلغت مجموعة المجوهرات والاشياء الثمينة والتصاوير والرسوم المحيرة للعقول التي كانت تكتضُ بها قصور الساسانيين من حيث الاهمية والقيمة حدا سحرت العيون وخبّبت الالباب.

ولو أننا أردنا أن نقف على عجائب ما في تلك القصور ، وما كانت تحتوي عليه من غرائب الاشياء لكفانا أن نلقي نظرة واحدة إلى السجّادة البيضاء والكبيرة التي كانت مفروشة في احدى صالات بعض تلك القصور ، وهي السجّادة التي كانت تدعى بالفارسية بـ « بهارستان كسرى » وهو بساط كانوا يُعدّونه للشتاء إذا ذهب الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب وتعاطي الخمر فرشوه ، وشربوا عليه فكأنهم في رياض وكان هذا البساط ستيناً في ستين أرضه بذهب ووشيه بفضّوص ، وثمره بجوهر وورقه بحرير ^(١)!!
وقيل أيضاً أن هذا البساط كان مئة وخمسين ذراعاً في سبعين ذراعاً وكان منسوجاً من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية جداً!!

وقد كان « خسرو برويز » أكثر الملوك الساسانيين ميلاً إلى الترف ، والبذخ ، واتخاذ الزينة ، وقد بلغت عدده نساءه وجواريه عدة الآف.
يقول حمزة الاصفهاني في كتاب « سني ملوك الارض » واصفاً حالة الترف والبذخ التي كان يعيشها كسرى برويز : ثلاثة آلاف امرأة ، واثنان عشر.
وجاء في تاريخ الطبري : أن « كسرى ^(٢) برويز » كان قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحدٌ من الملوك ، وكان أرغب الناس في الجواهر والأواني ^(٣).

١. تاريخ الطبري ج ٢ ، ص ١٣٠.

وجاء في تاريخ الطبري : كانت هذه السجّادة ستين ذراعاً في ستين ذراعاً ، بساطاً واحداً مقدار حريب فيه طرق كالقصور ، وفضّوص كالأنهار وخلال ذلك كاللدير وفي حافته كالأرض المرزوعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب ، ونواره بالذهب والفضّة!!

٢. سني ملوك الارض والأنبياء : ص ٤٢٠.

٣. تاريخ الطبري : ج ١ ، ص ٦١٦.

الوضع الاجتماعي في ايران :

لم يكن الوضع الاجتماعي في عهد الساسانيين بأفضل من الوضع السياسي آنذاك أبداً ، فقد بلغ الاختلاف الطبقي الذي كان سائداً في ايران منذ زمن بعيد اشدّه واقوى درجاته ، واسوء حالاته في العهد الاختلاف الساساني .

فطبقة النبلاء والكهنة كانت تتميز على بقية الطبقات تميزاً كاملاً ، فهم يحتصون بجميع المناصب الاجتماعية الحساسة والعليا ، بينما حُرِم الكسبة والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعية ، ولم يكن لهم من واجب ودور في النظام إلا دفع الضرائب الثقيلة والمشاركة في الحروب .

يكتب أحد الكتاب الإيرانيين وهو الاستاذ سعيد نفيسي في هذا الصعيد قائلاً :
ان ما كان يثير روح النفاق بين الايرانيين أكثر هو سياسة التمايز الطبقي القاسي جدا الذي كان الساسانيون يتبعونها في التعامل مع الشعب ، وكان لها جذورٌ في العهود والحضارات السابقة ، ولكنها بلغت ذورتها في العهد الساساني بالذات!!
ففي الدرجة الأولى كان للعائلات السبع من النبلاء ، ثم للطبقات الخمس إمتيازات خاصة حُرِمَت منها عامة أبناء الشعب .

فالملكية كانت محصورة . تقريباً في تلك العائلات السبع مع العلم أن الشعب في العهد الساساني كان يقارب عدد نفوسه مائة وأربعين مليوناً في حين لا يبلغ عدد كل واحد من تلك العائلات الممتازة والتميّزة في شؤونها مائة ألف شخص ، فيكون مجموعها سبع مائة ألف^(١) .

وإذا افترضنا أنّ حراس الحدود وأمراءهم والمُلاك الذين كانوا يتمتعون هم الآخرون بشيء من حق الملكية كان يبلغ عددهم أيضاً سبع مائة ألف أيضاً فيكون حق التملك والمالكية حينئذٍ خاصاً بمليون ونصف من مجموع مائة

١- تاريخ اجتماعي ايران : ج ٢ ، ص ٦ - ٢٤ (باللغة الفارسية) .

واربعين مليوناً ، فقد كانت تلك الزمرة القليلة هي التي تملك ، وأما الآخرون وهم الاكثرية الساحقة فقد كانوا محرومين من هذا الحق الطبيعي الموهوب لهم من جانب الله أساساً وأصلاً.

لقد كان الكسبة والفلاحون الذين كانوا محرومين من جميع الحقوق ، والإمتيازات ولكنهم كانوا يتحملون نفقات حياة البذخ والرفاهية التي كان يرفل فيها النبلاء والأشراف والطبقات العليا ، لا يأملون خيراً وراء استمرار هذه الاوضاع ، ودوامها ، ولهذا كثيراً ما كان المزارعون والفلاحون والطبقات الدنيا من الشعب يغادرون أعمالهم ، ومزارعهم ويلجأون إلى الأديرة فراراً من الضرائب الباهضة والاتاوات القاصمة للظهور ، المبددة للثروات^(١) .
يقول مؤلف كتاب « إيران في عهد الملوك الساسانيين »^(٢) .

إن حروب إيران . الروم الطويلة بدأت من عهد حكومة الملك الإيراني انوشيروان (٥٣١ . ٥٨٩ م) .

وخلالها القول أنه كان في الامبراطورية الساسانية يملك أقلية صغيرة تقل نسبتها عن ٥ / ١ % (واحد ونصف بالمائة) من مجموع الشعب كل شيء بينما كان أكثر من (٨٩ %) من الشعب الإيراني محرومين من حق الحياة تماماً كالعبيد.

حَقُّ التعلّم خاص بالطبقات الممتازة!! :

في العهد الساساني كان ابناء الاغنياء والبيوتات الرفيعة هم وحدهم الذين يتمتعون بحق التعليم ، بينما كان عامة جماهير الشعب ، والطبقات الوسطى والدنيا محرومين من تحصيل العلوم واكتسابها.

وقد كانت هذه المنقصة بادية وواضحة في عصور ايران التاريخية جدا بحيث ذكرها الشعراء الكبار في ملاحمهم ودواوينهم الملكية المعروفة بالرغم من ان

١ . ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين : ٧٠ و ٧١ .

٢ . إيران في عهد الساسانيين : ص ٤٢٤ .

الهدف من تلك الملاحم والدواوين كان هو الحماسة ، والتفاخر بالبطولات وتجييش العواطف ، بعد مدح الملوك والامراء .

فها هو « الفردوسي »^(١) الشاعر الملحمي الفارسي المعروف ، بل اشهر شعراء ايران قد ذكر في شاهنامته (وهي الملحمة الشعرية التي يذكر فيها أجداد ملوك الفرس في قرابة ستين ألف بيت) قصة في هذا الصدد تعتبر أفضل شاهد على ما قلناه .

وقد وقعت هذه القصة في زمن « أنوشيروان » ، أي في الوقت الذي كانت الامبراطورية الساسانية تمر فيه بعهداها الذهبي .

وهذه القصة تشهد بأن اكثرية الشعب في عهد هذا الملك أيضا كانت محرومة من حق التعلم ، وممنوعة عن اكتساب الثقافة .

يقول الفردوسي : لقد أبدى حذراً استعداده لتحمل نفقات الجيش الإيراني . في حربه مع الروم . بدفع ما يحتاجون إليه من ذهب وفضة .

ومع أن السلطة في عهد « أنوشيروان » كانت بحاجة ماسة إلى مساعدات مالية كبيرة إذ كان يتعين عليها أن تجهز ما يقرب من ثلاثمائة الف مقاتل قد اصيبوا بالجماعة وقلة العتاد ، بحيث أدى ذلك إلى وقوع بعض الاعتراضات ، وإلى ظهور الفوضى في الجنود ، مما أدى بدوره إلى قلق الملك الإيراني « أنوشيروان » .

والتخوف من مضاعفات هذه الحالة ، وآثاره السيئة في قتاله للروم ، ولذلك بادر إلى استدعاء وزيره المخنك « بزرجمهر » للتشاور معه في المخلص من ذلك الوضع المخرج ، ثم امره بالتوجه إلى منطقة « مازندران » وجمع الاموال اللازمة من سكانها .

ولكن « بزرجمهر » حذر الملك من مغبة هذا العمل ، وأضاف بأن هذا من شأنه أن يضاعف من الخطر ثم اقترح جمع الاموال اللازمة عن طريق القروض الشعبية فاستحسن « أنوشيروان » اقتراحه وأمره باتخاذ الترتيبات اللازمة على

١ . راجع للتعرف السريع على شخصية هذا الشاعر : الموسوعة العربية الميسرة : ص ١٢٨٦ .

التو فيرسل الوزير مندوبين له إلى المدن الإيرانية ليكلم التجار واصحاب الثروة في الامر .
 فييدى الخلداء المذكور استعدادده لتحمل كل نفقات الجيش لوحده الا انه اشترط ذلك بان
 يسمحوا لولده الوحيد الراغب في تحصيل العلم جدا ان يتعلم .
 فاستحقر الوزير شرطه ووعده بالانجاز ، والسماح لولده بالتعلم وتحصيل العلم ، ثم عرض
 الامر على الملك انوشيروان وهو يأمل في ان يتجاوز الملك مع رغبة الخلداء وطلبه الصغير إذا
 ما قيس بما سيعطيه من اموال طائلة في تلك الاوضاع الحرجة .
 ولكن الملك استشاط غضبا لهذا الطلب ، ونهر الوزير قائلاً : دع هذا ، ما أسوأ ما تطلبه
 ، ان هذا لا يمكن ان يكون ، لان ابن الخلداء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد
 الطبقي المتبع ، فينفرط بذلك عقد الدولة ، ويكون ضرر هذا المال علينا أكثر من نفعه ،
 وشره أكثر من خيره .

ثم إن الفردوسي يعمد إلى شرح المنطق الميكافيلي حكاية عن لسان انوشيروان إذ يقول
 ناظماً ذلك في ابيات (١) :

وإذا اصبح ابن الخلداء عالماً كاتباً عارفاً فعندما يجلس ولدنا على مسند الحكم والسلطنة
 واحتاج إلى كاتب ، فانه سيضطر إلى الاستعانة بابن ذلك الخلداء . الكاتب . (وهو من عامة
 الشعب ومن ابناء الطبقة الدنيا وفي حين جرت عادتنا إلى الآن على أن نستعين بابناء
 الاشراف والنبلاء لا أبناء الطبقة الدنيا)!!!

وإذا حصل ابن الخلداء وبائع الاحذية على العلم والمعرفة أعاره العلم والمعرفة حينئذ عيونا
 بصيرة ، وآذاناً سمعية فيرى حينئذ ما يجب أن لا يراه ،

١ . وإليك هذه الأبيات باللغة الفارسية :

چو بازارگان بچه گردد دبیر	هنرمند وبسا دانش وباد گزیر
چو فرزند ما برنشد به تخت	دبیری ببادش پیروز بخت
هنر باید از مرد موزه فروش	سپارد بدو چشم بینا وگوش
بدست خردمند مرد نژاد	نماند جز از حسرت و سرد باد

ويسمع ما يجب أن لا يسمعه ، وحينئذ لا يبقى لأبناء الملوك إلا الحسرة والتأسف (١) .
وهكذا يعيد الملك دراهم الخداء المسكين إليه رافضا طلبه ويعود الخداء خائبا وهو يتوسل
بما يتوسل به المستضعفون والمحرومون المظلومون وهو الدعاء والضراعة إلى الله في الليل وفي
هذا قال الفردوسي : عاد مبعوث الملك بدراهم الخداء إليه فاصيب الخداء لذلك بغم شديد
ثم لما جن الليل تضرع الخداء إلى الله وشكا إليه الملك طالبا عدالته (٢) .

والعجيب هو أن يصف البعض هذا السلطان بالعدل وهو الذي لم يعالج أسوأ مشكلة
في المجتمع الإيراني أيام حكمه وسلطانه وهي المشكلة الثقافية ، بل تسبب في أن يصاب
الشعب الإيراني بالمزيد من المشاكل الاجتماعية وغيرها .

فقد وأد ودفن في القبور احياء ما يقرب من ثمانين الف انسان (اومائة الف كما قيل)
في حادثة واحدة ، وهي فتنة مزدك ، حتى أنه ظن أنه قد قضى على جذور تلك الفتنة وهو
لا يعلم أنها لم تُستأصل لأن مثل هذه الأساليب القمعية انما تقضي فقط على المسبب دون
السبب وتكافح المحرم لا الجرم .

لقد كان السبب الحقيقي وراء تلك الفتنة هو الظلم الاجتماعي ، والاختلاف الطبقي ،
واحتكار الثروة ، والمنصب على أيدي طبقة خاصّة وحرمان الاكثرية الساحقة من الشعب
وغير ذلك من المفاسد وكان عليه لو أراد الاصلاح أن يعالج هذه الأمور ليأتي على المشكلة
من أساسها ، ولكنه بدل ذلك كان يريد . بالقهر والقمع وفي ظلّ الحراب والسياط . أن يظهر
الناس انفسهم بمظهر الراضي وعن السلطة ، الموافق على تصرفاتها ، وأحوالها وأوضاعها
السيئة!!!

ومن هنا نعرف بطلان الحديث المروي عن النبي ﷺ

١ . راجع شاهنامه (باللغة الفارسية) وتاريخ اجتماعي ايران : ص ٦١٨ .

٢ .

فرستاده برگشتت وشهد بادرم دل كفشگر زان درم پسر زغم
شب آمد ، غمی شد ز گفتار شاه خروش جرس خواست از بارگاه

الذي قال فيه : « وُلدت في زمن الملك العادل » ويقصد به انوشيروان^(١) .

صفحة سوداء من جرائم خسرو برويز :

ومن جرائم الملك خسرو برويز ومظالمه المنكرة ما فعله بوزيره الشهير « بزرجمهر » الذي خدم البلاط الشاهنشاهي الايراني ثلاثة عشر عاما وكان ذلك موجبا لشهرته في البلاد وحسن صيته بين الناس .

فقد عمّد هذا الملك إلى سجن الوزير المذكور ، والنكاية به ، وقد كتب إلى الوزير المسجون رسالة يقول فيها : **إنَّ حظَّك من العلم والمعرفة أنه عرضك للقتل!!** فاجابه « بزرجمهر » بقوله : « فقد انتفعت بعلمي مادام قد حالفني الحظُّ ، وحيث عاكسني الآن ، فأنني اصبر وأنتفع بصبري ، فإذا فاتني فعلٌ خير كثير فأنني سعيدٌ لأنني لم أرتكب كذلك شرًّا كثيرا وإذا ما سلبي منصب الوزارة فاني في الوقت نفسه قد استرحت كذلك من غم الحيف بالناس ، فلا ابالي بما أنا فيه .» .

ولما بلغت هذه الرسالة إلى الملك « برويز » استشاط غضباً ، وأمر بقطع شفتي الوزير ، وخذع أنفه ، وعندما عرف الوزير بهذا الأمر الظالم قال : أجل أن شفتي تستحقان أكثر من هذا .

فسأله خسرو برويز : ولماذا؟ فقال : لأنهما وصفتاك عند العامة والخاصة بما لا تستحق من الأوصاف ، واعطتاك ما ليس فيك من الخصال ، فامالتا إليك القلوب ، ورغبتا فيك النفوس ، والافتدة ، وأشاعتا عنك أمجاداً لم تستحقها ، يا اسوأ الملوك وأظلم الحكام ، تقتلني الآن بسوء الظن بعد أن كنت على يقين من وفائي ، وصدقي ، واخلاصي ، وسلامتي ، فمن بعد هذا يأمل في عدلك ، ومن بعد هذا يثق بقولك؟!!

١ . راجع في هذا المجال : تذكرة الموضوعات لابن الجوزي ، اللغالي المصوغة في الاحاديث الموضوعة للسيوطي ، وكذا مجمع الزوائد للهيثمي .

فازداد « خسرو برويز » لسماع هذه الكلمات الساخنة غضباً على غضب ، وأمر من فوره بقتل الوزير ، فضرب عنقه في التو (١) .

وتلك هي معاملة ذلك الملك الموصوف زوراً بالعدل مع اقرب مقربيه ، وأكثر معاونيه إخلاصاً ، ووفاء له فكيف كانت تُرى معاملته مع سائر أفراد الرعية وبقية أفراد الشعب؟؟

حكم التاريخ في الملوك الساسانيين :

لقد اتخذ الحكام الساسانيون في عهودهم وحكوماتهم سياسة خشنة قاسية ، وقد أخضعوا الناس بسلطانهم بالسيف والعنف .

كانوا يفرضون على الناس ضرائب ثقيلة وأتاوات باهضة قاصمة للظهور ، ولهذا السبب كان عامة الشعب الايراني غير راضين على حكمهم وسيرتهم ، ولكنهم خوفاً على نفوسهم ، ما كانوا يتمكنون من الاعلان من استيائهم هذا بل لم يكن لأرباب الفكر والرأي والعارفين بالامور شأن ولا قيمة في البلاط الشاهنشاهي .

لقد بلغ الاستبدادي لدى الحكام الساسانيين حداً لم يستطع معه أحدٌ من إظهار رأيه ، ولم يجرأ احد على إبداء أية ملاحظة في شأن من الشؤون .

لقد بلغت القوة بخسرو برويز حداً عجيباً وصفه الثعالي بقوله :

قيل لخسرو برويز (كسرى) دعونا فلانا الوالي فتباطأ عن الامتثال ، فأمر الملك من فوره قائلاً ان كان يصعب عليه مجيئه ببدنه كله ، فاننا يكفيننا شيء منه ، فليؤتى براسه فحسب . (٢)

١ . يذكر الفردوسي الشاعر الملحمي هذه القصة في شاهنامته المعروفة عند ذكر وقائع انوشيروان اثناء حربه مع الروم (ج ٦ ، ص ٢٥٧ . ٢٦٠) .

٢ . ايران در عهد ساسانيان : ص ٣١٨ .

الفوضى في الحكومة الساسانية :

ومما يجب ان لا نغفل عن ذكره هو ما تعرضت له الحكومة الساسانية في اواخر عهدها من الفوضى الادراية ، وتفاقم الهرج والمرج في جهازها الحكومي .

فقد دبّ الصراع والنزاع ونشب التنافس الحاد بين الامراء ، والاعيان وقاده الجيش في ذلك العهد وذهب كل فريق يختار أميراً من أبناء العائلة المالكة ، ويقوم بتصفية الطائفة الأخرى التي اختارت أميراً آخر .

وعندما فكّر العرب المسلمون في فتح إيران كانت العائلة الساسانية المالكة قد بلغت ذروة الضعف والانقسام .

ومما يدل على ذلك تعاقب ما يقرب من ^(١٤) ملكا على مسند الحكم والسلطان خلال مئة أربعة اعوام من مقتل الملك « خسرو برويز » وجلس شيرويه مجلسه وحتى آخر ملك من ملوك بني ساسان .

وهذا يعني أن حكومة إيران انتقلت خلال مدة لا تتجاوز اربعة اعوام من يد إلى يد أخرى (١٤ مرة)!! ومن الواضح ما يلحق باية دولة ومملكة تتعرض لـ ^(١٤) انقلاب يُقتل فيه ملك ، ويحل محله ملك آخر في مثل هذه المدة القصيرة .

فقد كان كل حاكم يتسلّم زمام الحكم ويستولي على عرش السلطان يعمد إلى قتل واغتيال كل من كان يطمع في العرش ، ولا يتورع في سبيل إرساء قواعد حكمه من ارتكاب كل ما يراه ضرورياً ، فكان الأب يقتل ابنه ، والابن يقتل أباه ، وربما يقتل الاخ إخوته ، والزوجة زوجها وهكذا ...

فقد قتل « شيرويه » أباه ^(١) للحصول على مقعد الحكم والسلطان ، كما أباد اربعين شخصا من أبناء الملك « خسرو برويز » اي إخوته!! ^(٢) .

وكان « شهر براز » يقتل كل من لا يثق به ، وقد أدّى هذا إلى أن يقضي على كل أبناء سلالته من الامراء الساسانيين ممن كان قد تسنّم عرش السلطان

١ . الكامل في التاريخ : ج ١ ، ص ٢٩٦ .

٢ . تاريخ اجتماعي ايران : ج ٢ ، ص ١٥ - ١٩ .

والمملوكية قبله ، رجلا كان ذلك أم إمراة ، صغيراً كان ام كبيراً ، لكيلا يبقى في الوجود من يطمع في السلطان أو يدّعيه!!

وصفوة القول : أن الفوضى السياسية بلغت في أواخر العهد الساساني حداً بحيث كانوا يجلسون فيه الأطفال والصبيان والنساء على اريكة الحكم ، ثم يثورون عليهم ويقتلونهم بعد ايام أو أشهر ويجلون محلّهم أشخاصاً آخرين!!

وعلى هذا فإن الدولة الساسانية رغم قوتها الظاهرية كانت آخذة في الانحطاط والانحلال وسائرة نحو التمزق والفناء.

الفوضى الدينية في ايران الساسانيين :

لقد كان أهم عامل للفوضى التي كانت تعاني منها الاوضاع في العهد الساساني هو الاختلاف في المعتقدات الدينية التي كانت سائدة آنذاك.

فحيث أن « اردشير بن بابك » مؤسس السلسلة الساسانية كان ابن مؤيد (وهو رجل دين زردشتي) وقيما على بيت نار وقد تمكن من السلطان بفضل المواودة فانه اجتهد في الترويج لدين آباءه في ايران.

وفي عهد الساسانيين كان الدين الرسمي والشائع في أوساط الشعب الإيراني هو الدين الزرادشتي ، ولما كانت السلالة الساسانية قد توصلت إلى الحكم بواسطة المواودة . كما أسلفنا . لذلك كان المواودة والقيمون على بيوت النار (ونعني بهم رجال الدين الزرادشتي) يحظون بمكانة كبرى لدى البلاط الساساني إلى درجة أنهم أصبحوا يشكّلون في أواخر العهد الساساني أقوى طبقة ، وأشد الاجنحة نفوذاً في المجتمع الإيراني آنذاك.

ولقد كان الحكام الساسانيون دائماً ممنّ رشحهم للحكم المواودة ورجال الدين الزردشتي الجوسسي ، ولذلك كان الحكام يأتمرون بأوامرهم ، ولو أن أحداً منهم خالف المواودة عارضوه أشدّ المعارضة ، وسحبوا عنه تأييدهم ودّعّمهم ، ولهذا اجتهد الملوك الساسانيون في كسب رضا المواودة ، والعناية بهم أكثر من غيرهم من الطبقات ، وقد تسبّبت عناية أولئك الملوك بالمواودة وحمائيتهم لهم في تزايد

عددهم ، يوماً بعد يوم.

وقد كان الساسانيون يستغلون رجال الدين المجوس أكبر استغلالاً لتثبيت قواعد حكمهم ، وتقوية مواقعهم في السلطان ولذلك أقاموا في مختلف مناطق القطر الإيراني العريض بيوت النار ، (وهي معابد المجوس) جاعلين في كل واحد من هذه المعابد ثلة كبيرة من الموابدة كسدنة.

فقد كتب المؤرخون يقولون : ان « خسرو برويز » شيد بيتا للنار عظيما ووكل به (١٢ الف) هيريد (وهو منصب خاص ورتبة خاصة في نظام القيادة الدينية المجوسية) لينشدوا فيه الاناشيد الدينية ، ويؤدوا الطقوس والشعائر المجوسية!!^(٦).

وعلى هذا الاساس كان الدين المجوسي دين البلاط ، وكان رجاله في خدمة الملوك. هذا وقد اجتهد الموابدة . بكل ما في وسعهم . في إبقاء الطبقات الكادحة والمحرومة من ابناء الشعب الإيراني في حالة من الركود والجمود وحالة عدم الاحساس بالآلام والرضا بالأمر الواقع.

ولقد تسببت الصلاحيات الواسعة والحريات المطلقة المخولة إلى الموابدة في ابتعاد الناس عن الدين المجوسي والنفور منه ، فجماهير الشعب كانت تبحث لنفسها عن غير ما يتدين به الأشراف من عقيدة ودين.

يقول مؤلف كتاب « تاريخ اجتماعي ايران » وقد سعى الشعب الإيراني . في المال . إلى ان يتخلص من ضغوط الاشراف والموابدة واضطهادهم ، ولهذا ظهر بيت الزردشتيين في قبال الدين الرسمي « المزدية الزردشتية » الذي كان دين البلاط كما عرفنا ، وكان يدعى : مهدين (اي الدين الافضل) مذهباً آخران^(٧).

اجل وبسبب ضغوط الاشراف وتشددات الموابدة في العهد الساساني ظهرت في ايران مذاهب مختلفة الواحد تلو الآخر ، وقد حاول « مزدك » ومن قبله « ماني » ان يوجدوا بأنفسهما تحولا في الاوضاع الدينية وفي العقائد والمؤسسات ،

١ . تاريخ تمدن ساساني : ج ١ ، ص ١ (بالفارسية).

٢ . تاريخ اجتماعي ايران : ج ٢ ، ص ٢٠ .

ألا أنهما منيا بالفشل في هذا السبيل^(١).

فحوالي سنة (٤٩٧ ميلادية) قام « مزدك » ، وألغى الملكية الانحصارية (الخاصة) ، ونسخ عادة تعدد الزوجات ، ونظام الحریم وكان ذلك في مقدمة برامجہ الاصلاحية ، وقد لقيت أفكاره هذه تأييداً قوياً من قِبل الطبقات المحرومة المسحوقة التي فحرت بقيادة « مزدك » ثورة كبرى ، وانقلاباً هائلاً في المجتمع الإيراني.

ولقد كانت هذه الثورات والانتفاضات الشعبية لأجل أن يتوصل الناس إلى حقوقهم المشروعة ، الممنوحة لهم من قبل الله خالقهم وبارئهم.

ولقد قوبل مذهب « مزدك » باعتراض شديد من قِبل الموابدة ، وامراء الجيش ، وجرّ إلى فتنة كبيرة ، وإلى تردي الاوضاع في ايران آنذاك.

كما ان المذهب الزردشتي قد فقد . في أواخر العهد الساساني . حقيقته بصورة كاملة ، ووصل الأمر بعبادة النار وتقديسها إلى درجة أنهم كانوا يحرمون الدقّ على حديدة محمّاة اكتسبت لون النار ولهبها بمجاورتها لها.

وبكلمة واحدة ؛ لقد كانت أكثر المعتقدات الزردشتية الجوسية تتألف من الخرافات والأساطير ، وقد أعطت حقائق هذا الدين . في هذا العهد . مكانها لحفنة من الشعائر الجوفاء ، والطقوس الفارغة ، التي أضاف إليها الموابدة سلسلة من التشريعات الطويلة العريضة تثبيتاً لمواقفهم ، ودعماً لمكانتهم في المجتمع الإيراني يومئذ.

لقد بلغت سيطرة الخرافات والاساطير البعيدة عن العقل والمنطق على هذه العقيدة ، ورسوخها في هذا الدين حداً أقلق حتى رجال الدين الزردشتي انفسهم أيضاً ، وقد كان بين الموابدة انفسهم من أدرك منذ البداية تفاهة الطقوس والشعائر الزردشتية الجوفاء فتخلّى عنها.

١ . المذهب المانوي هو المذهب الزردشتي الخليط بالمسيحية ، فقد اخترع ماني من مسلك قومي وآخر اجني مذهباً جديداً ثالثاً.

هذا من جانب

ومن جانب آخر كان قد انفتح على الشعب الإيراني منذ أيام الملك « أنوشيروان » فما بعد طريق التفكير ، والتأمل ، والتحقيق ، ومما قد قوى هذا الامر ما حصل من اتصالات بين العقائد الزردشتية والمعتقدات المسيحية وغيرها من العقائد والاديان وما تحقق من تلاقح بينها نتيجة تسلل الثقافة اليونانية والهندية ، وغيرها إلى الوسط الإيراني ، وتسبب كل ذلك في يقظة الشعب الإيراني ، ولذلك اصبح يعاني من هذه الخرافات والاساطير التي كانت الديانة الزردشتية تعج بها أكثر من أي وقت مضى .

وعلى أية حال فان الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزردشت ، وتطرق الخرافات والاساطير الواهية الكثيرة إلى المعتقدات الزردشتية تسبب في حصول مزيد من التشتت والاختلاف والتشردم في آراء الشعب الإيراني وعقيدته .

ومع ظهور هذا الاختلاف وعلى أثر إنتشار المذاهب المتنوعة ظهر روح الشك والتردد لدى الطبقة المفكرة والمتقفة ، وسرت منهم إلى بقية الاصناف والفئات مما أدى ذلك إلى أن يفقد جماهير الشعب ثقنتها وإيمانها القطعي ، واعتقادها الكامل السابق بتلك المعتقدات .

وهكذا استشرى الهرج والمرج وعمت الفوضى واللا دينية كل مناطق إيران والمجتمع الإيراني ، كما رسم « برزويه » الطبيب الشهير في العهد الساساني حيث صور نموذجاً كاملاً عن الاختلاف الاعتقادي والتشردم الفكري ، وبالتالي اضطراب الأوضاع الإيرانية في العهد الساساني ، في مقدمة « كليلة ودمنة » .

الحروب الإيرانية الرومية :

لقد انقذ « بزرجهر » . الوزير الإيراني الشهير الذي كان يحتل مكان الصدارة في حكومة « أنوشيروان » وكان موصوفاً بالتدبير والكفاءة العالية . إيران من الاخطار التي احدثت بها في أكثر الاحايين ، ولكن علاقته بالسلطان

(انوشيروان) كانت تتأثر احيانا بسعاية الساعين ووشاية الوشاة الذين كانوا يوغرون صدر الملك ضده فيستصدرون منه قرارا بحبسه وسجنه .

وقد أوغر هؤلاء السعاة والواشون أنفسهم صدر « انوشيروان » ضد امبراطور الروم ، وألبوه عليه ، وشجعوه على توسيع رقعة نفوذه ، وتوسيع حدود بلاده واضعاف سيطرة منافسه الخطير ، متجاهلا وثيقة « الصلح الخالد » التي عقدها مع الروم واتفق فيها الجانبان على عدم التعرض بعضهم لبعض .

وأدى هذا التحريض بأنوشيروان إلى مهاجمة الروم ، واشتعلت على اثرها نيران الحرب ، واستطاع جنود ايران ان يفتحوا سورية (وقد كانت مستعمرة رومية) في مدة قصيرة تقريبا ، وحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى .

وبعد عشرين عاماً من القتال وسفك الدماء ، والكّر والفر بين الروم وايران وبعد أن فقد الجانبان قدراتهم وطاقاتهم في تلك المعارك الطاحنة ، وبعد الخسائر العظيمة التي تحملها الطرفان إضطرًا إلى عقد وثيقة الصلح مرة ثانية ، وحددوا حدود بلادهما ، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه في السابق شريطة أن تدفع دولة الروم كل عام ما يعادل (عشرين الف) دينار إلى دولة ايران .

ومن الواضح الذي لا يخفى ولا يحتاج إلى البيان أن حروباً طويلة الامد تدور رحاها بعيدا عن مركز الدولة من شأنها ان تأتي بالنتائج السيئة والتبعات الثقيلة على اقتصاد الشعب المحارب ، وصناعته وتوجه إلى هذه الجوانب ضربات قوية ، لا تزول آثارها إلا بعد زمان طويل خاصة مع ملاحظة الوسائل والأدوات في تلك العصور .
ومهما يكن فان هذه الحروب ، وهذه الحملات المكلفة هيأت المقدمات الموجبة لسقوط الحكومة الإيرانية الحتمي .

فان آثار هذه المعارك لم تهنّ بعد إلا وقد نشبت حرب أخرى دامت سبعة اعوام فان « تي باربوس » امبراطور الروم بعد ان تسنم عرش السلطان هدد بحملاته الكبيرة استقلال الدولة الإيرانية بدافع الانتقام .

وفي الأثناء . وقبل ان يتضح موقف الطرفين وموقعهما في تلك المعارك من

الهمزة أو الانتصار . مات « انوشيروان » وخلفه في إدارة البلاد ابنه « خسرو برويز » .
وقد حمل هذا الأخير على الروم ايضاً ، وذلك عام (٦١٤) بحجج معينة ، وفتح في أول حملة
من حملاته : بلاد الشام وفلسطين وأفريقية ونهب اورشليم ، وأحرق كنيسة القيامة ومزار
السيد المسيح ﷺ وهدم المدن ، ودمرها .

وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعين الف من النصارى لصالح الإيرانيين .
في مثل هذه المرحلة التي كان فيها العالم المتحضر آنذاك يحترق . في نيران الحروب والظلم
، بُعث رسول الله ﷺ بالرسالة الإسلامية ، وبلغ نداؤه المحيي للنفوس والعقول سمع
البشرية ، وقام يدعو الناس إلى الصلح والسلم ، وإلى النظم والامن .
ولقد أدى انهزام الروميين المتدينين ، المؤمنين بالله على أيدي الجوس الكفار ، عبدة النار
، إلى ان يتفاءل اهل مكة الوثنيون بهذا الحدث ، ويحدثوا (ويمنوا) أنفسهم بالانتصار على
المسلمين المؤمنين بالله عما قريب ، وانطلقوا يرددون هذه الأمنية أمام المسلمين وهم يحاولون
بها إضعاف معنوياتهم ، وزعزعة إيمانهم ، الامر الذي أقلق المسلمين .

ولم يتخذ النبي ﷺ موقفا تجاه هذه الظاهرة انتظارا لما سينزل به عليه الوحي إلى ان
نزلت آيات في هذا المجال هي الآيات الأولى من سورة الروم التي تقول : « الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ
فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سنينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ بَعْدَ
وَيَوْمئذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بَنَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعَبَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (١) .

وقد تحققت نبوءة القرآن هذه حول الروم في عام (٦٢٧ ميلادية) حيث

١ . الروم : ٦٠١ .

استولى « هرقل » على « نينوى » في حملة واحدة.

وعلى أية حال كانت الدولتان المتنافستان تطويان الدقائق والساعات الأخيرة من حياتهما فيما تستعدّان من ناحية أخرى لتجميع القوى ، والتهيؤ لشن حملات جديدة ، وخوض حروب ومعارك أخرى ولكن حيث أن الارادة الالهية كانت قد تعلقت بأن يسطع على تلك المنطقتين نور التوحيد وتنتعش نفوس الروميين والفرس الذابله الميتة بنسائم الإسلام الناعشة ، واشعته الهادية ، لذلك لم يلبث أن قُبل « خسرو برويز » على يدي ابنه « شيرويه » الذي لم يُدم سلطانه بعد اغتياله لأبيه أكثر من ثمانية أشهر ، ثم سادت ايران بعد « شيرويه » فوضى شاملة خلال اربعة اشهر ، حيث تناوب على مسند الحكم حُكّامٌ وامراء عديدون أربعة منهم من النساء ، إلى أن أنهى الجيشُ الاسلامي بحملاته الناجحة هذه الاوضاع ، ووضع نهاية لهذا الصراع السياسي الحادّ الذي استمرّ خمسين عاماً والذي ساعد بدوره على تقدم الفتوحات الإسلامية.

أسلاف رسول الإسلام (ص)

١ . بطل التوحيد : إبراهيم الخليل عليه السلام

إن الهدف من استعراض حياة النبي العظيم إبراهيم الخليل عليه السلام هو التعريف بأجداد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسلافه ، لانتهاه نسبه الشريف إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وحيث ان لهاتين الشخصيتين العظيمتين وبعض أسلاف النبي العظام نصيب هام في تاريخ العرب والإسلام ، لهذا ينبغي الحديث عن أحوالهم بصورة مختصرة ، خاصة أن حوادث التاريخ الإسلامي ترتبط ارتباطاً كاملاً . كحلقات سلسلة واحدة . بالحوادث السابقة ، أو المقارنة لبزوغ الإسلام.

فعلى سبيل المثال تُعتبر كفاية « عبد المطلب » لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمائته له ، وجهود « ابي طالب » ودفاعه الطويل عن النبي ، وعظمة الهاشميين وسمو مقامهم واخلاقهم ، وجزور معاداة الأمويين لهم ، الاسس والقواعد الموضوعية لحوادث التاريخ الإسلامي ، ولهذا كان لابد من تخصيص فصل كامل في التاريخ الإسلامي لهذه الابحاث.

إن في حياة حامل راية التوحيد النبي « إبراهيم الخليل » عليه السلام نقاطا مشرقة وبارزة جدا . فجهاده العظيم في سبيل ارساء قواعد التوحيد واقتلاع جذور الوثنية مما

لا ينسى .

وهكذا حوار اللطيف والزاخر بالمعاني مع عبدة النجوم والكواكب في عصره والذي ذكره القرآن الكريم لمعرفتنا ، افضل واسمى درس توحيدى لطلاب الحقيقة وبغاة الحق .

مولد إبراهيم :

لقد وُلِدَ بطلُ التوحيد في بيئة مظلمة كانت تسربلها ظلمات الوثنية ، وعبادة البشر ... في بيئة كان الإنسان فيها يخضع لأصنام نحتها بيديه ، كما يخضع لكواكب ونجوم .
لقد وُلِدَ حامل لواء التوحيد « إبراهيم الخليل » عليه السلام في « بابل » الذي يعدّها المؤرخون إحدى عجائب الدنيا السبع ، ويذكرون حولها قصصاً واموراً كثيرة تنبئ عن عظمتها وأهمية حضارتها ، فيقول « هيردوتس » المؤرخ المعروف . مثلاً : لقد كانت بابل بنية بشكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه الأربعة (١٢٠ فرسخاً) ومحيطه (٤٨٠ فرسخاً)^(١) .

إنّ هذا الكلام مهما كان مبالغاً فيه إلا أنه على كل حال يكشف عن حقيقة لا تقبل الإنكار ، إذا ما ضُمَّ إلى ما كتبه الآخرون عن تلك المدينة التاريخية .

غير اننا لا نرى من تلك المدينة اليوم ومن مناظرها الجميلة ، وقصورها الرائعة ، إلا تلاً من التراب في منطقة بين « دجلة » و « الفرات » ، فالموت يحيم على كل تلك المنطقة ، اللهم الا عندما يكسر علماء الآثار بتنقيباتهم جدار الصمت أحياناً ، بحثاً عن آثار تلك المدينة ، ويستخرجون بقاياها الموقوفة على معالم من حضارة اصحابها وسكانها .

لقد فتح رائد التوحيد ومُرسى اركانه « إبراهيم الخليل » عليه السلام عينيه

١ . قاموس الكتاب المقدس ، مادة بابل .

في دولة « نمرود بن كنعان ».

وكان نمرود هذا رغم أنه يعبد الصنم يدّعي الألوهية ويأمر الناس بعبادته. وقد يبدو هذا الامر عجيبا جدا فكيف يمكن ان يكون الشخص عابد صنم ومع ذلك يدّعي الالهية في الوقت نفسه ، إلا أن القرآن الكريم يذكر لنا نظير هذه المسألة في شان « فرعون مصر » ، وذلك عندما هزّ النبي موسى بن عمران عليه السلام قواعد العرش الفرعوني بمنطقه القويّ ، وحجته الصاعقة ، فاعترض أنصار فرعون وملاؤه على هذا الأمر ، وخاطبوا فرعون بلهجة معترضة قائلين : « أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَأَهْلَكَ » ^(١). ومن الواضح جلياً أن « فرعون » كان يدعي الالهية فهو الذي كان يقول : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » ^(٢) وهو القائل : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » ^(٣) ولكنه كان في الوقت نفسه عابد صنم ووثنيا.

بيد أن هذه الازدواجية ليست بأمر غريب عند الوثنيين ، ولا يمنع مانع في منطقتهم أن يكون الشخص نفسه وثنياً يعبد الصنم ، ومع ذلك يدّعي أنه اله ويدعو الناس إلى عبادته فيكون الهاً معبوداً ، يعبد الهاً أعلى منه ، لأن المقصود من المعبود والاله ليس هو خالق الكون بل هو من يتفوق على الآخرين بنحو من أنحاء التفوق ويتملك زمام حياتهم بشكل من الإشكال.

هذا والتاريخ يحدثنا أن العوائد في بلاد الروم كانت تعبد كبارها ومع ذلك كان اولئك الكبار المعبودين انفسهم يتخذون لأنفسهم معبودا أو معبودات أخرى. إن أكبر وسيلة توسّل بها « نمرود » في هذا السبيل هو استقطاب جماعة من الكهنة والمنجمين الذين كانوا يُعِدُّون الطبقة العاملة والمثقفة في ذلك العصر. فقد كان خضوع هذه الطبقة يمهد لاستعمار الطبقة المنحطة وغير الواعية من الناس. هذا مضافا إلى أنه كان يُناصر « نمرود » بعض من ينتسب إلى « الخليل »

١. الأعراف : ١٢٧.

٢. النازعات : ٢٤.

٣. القصص : ٣٨.

عائلاً بوشيجة القرى مثل « آزر » الذي كان يصنع التماثيل ، وكان عارفاً بأحوال النجوم والفلك أيضاً ، وكان هذا هو الآخر أحد العراقيين التي كانت تمنع الخليل من انجاح مهمته ، لأنه مضافاً إلى مخالفة الرأي العام له ، كان يواجه مخالفة أقاربه أيضاً.

لقد كان نمروود غارقاً في عالم خيالي عندما دق المنجمون فجأة أول ناقوس للخطر وقالوا له : سوف تنهار حكومتك ، ويتهاوى عرشك وسلطانك على يد رجل يولد في تلك البيئة ، الأمر الذي أيقظ أفكاره النائمة ، فتساءل من فوره ، وهل وُلد هذا الرجل؟ فقيل له : لا ، انه لم يولد بعد. فأمر من فوره بعزل الرجال عن النساء (وذلك في الليلة التي انعقدت فيها نطفة ابراهيم الخليل ﷺ عدو نمروود ، وهادم ملكه ، ومزيل سلطانه وهي الليلة التي حددها وتكهن بها المنجمون والكهنة من انصار نمروود) ومع ذلك كان جلاوزة « نمروود » يقتلون كل وليد ذكر ، وكان على القوابل ان يسجلن اسماء المواليد في مكتبه الخاص. ولقد اتفق أن انعقدت نطفة « الخليل » في نفس الليلة التي منع فيها اي لقاء جنسي بين الرجال ، وازواجهم.

لقد حملت أم إبراهيم به كما حملت أم موسى به ، وامضت فترة حملها في خفاء وتستر ، ثم لجأت بعد وضع وليدها العزيز إلى غار بجبل على مقربة من المدينة حفاظاً عليه ، وراحت تتفقد بين حين وآخر من الليل والنهار ، قدر المستطاع.

وقد أرضى هذا الاسلوب الظالم « نمروودا » وأراح باله بمرور الزمن ، إذ أيقن بانه قد قضى به على عدو عرشه ، وهادم سلطانه ، وتخلص منه.

لقد قضى « إبراهيم » ﷺ ثلاثة عشر عاماً في ذلك الغار البدي كان يتصل بالعالم الخارجي عبر باب ضيق ، ثم أخرجته أمه من ذلك الغار بعد ثلاثة عشر عاماً ، ودخل « ابراهيم » في المجتمع ، فاستغرب المجتمع النمروودي وجوده وانكروه^(١).

١ - تفسير البرهان : ج ١ ، ص ٥٣٥.

لقد خرج « إبراهيم » من الغار ، مؤمناً بالله بفطرته ، وقوى توحيده الفطري ، بمشاهدة الأرض والسماء ، والنظر في سطوع الكواكب والنجوم والتأمل في ما يجري في عالم النبات من نمو وحركة إلى غير ذلك مما يجري في عالم الطبيعة العجيب .

لقد واجه إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من الغار جماعة من الناس بهرتهم أحوال الكواكب وعظمة أمرها ، ففقدوا عقولهم تجاه هذه الظاهرة ، كما رأى جماعة أخرى أخطأ فكرياً من سابقتها يعبدون اصناماً منحوتة ، بل واجه ما هو اسوأ بكثير من أعضاء الطوائف والجماعات الضالة إذ رأى رجلاً يستغل جهل الناس وغبائهم ويدعي الألوهية ويفرض عليهم عبادته والخضوع له!!

لقد كان إبراهيم عليه السلام يرى لثأً عليه أن يهيب نفسه لخوض المعركة في هذه الجهات الثلاث المختلفة ، وقد نقل القرآن الكريم قصة نضال النبي « إبراهيم » عليه السلام في هذه الاصعدة والجهات الثلاث وسنقل لك في ما يأتي وباختصار ما ذكره القرآن في هذا المجال .

إبراهيم ومكافحته للوثنية :

كانت ظلمات الوثنية قد خيمت على منطقة بابل (موضع ولادة الخليل) برمتها . فالآلهة المدعاة ، والمعبودات (السماوية والارضية) الباطلة قد سحرت عقول مختلف فئات الشعب ، فبعضها في نظرهم هي أرباب القدرة والسلطة ، وبعضها الآخر وسيلة الزلفى والتقرب إلى الله إلى غير ذلك من التصورات السخيفة في هذا الصعيد .

وحيث أن طريقة الأنبياء في هداية البشرية وارشادهم هي الاستدلال بالبراهين ، والاحتجاج بالمنطق ، لانهم إنما يتعاملون مع قلوب الناس وعقولهم ، ويتبنون إيجاد حكومة تقوم على أساس الإيمان واليقين ، ومثل هذه الحكومة لا يمكن اقامتها بالسيف أو بالنار والحديد . لهذا يبدأون حركتهم بالتوعية الفكرية .

إن علينا أن نفرق بين الحكومات التي يريد الأنبياء تأسيسها ، وحكومة

الفراغة والنمارة.

ان هدف الطائفة الثانية هو : الرئاسة والزعامة ، والحفاظ عليها بكل وسيلة ممكنة في حياتهم ، وان تلاشت وتهاوت من بعدهم.

ولكن الانبياء والرسل يريدون حكومة تبقى قائمة في جميع الحالات وماثلة في جميع الاوقات ، في الخلوة والجلوة ، في وقت الضعف ، وفي وقت القوة ، في حياتهم وبعد مماتهم ... انهم يريدون أن يحكموا على القلوب لا على الابدان ، وهذا الهدف لا يتحقق ابداً عن طريق القوة واستخدام العنف والقهر!! انما يتحقق عن طريق الحجة والبرهان.

لقد بدأ النبي « إبراهيم » عمله بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه الذين كان في طبيعتهم وعلى رأسهم « آزر » وهو الوثنية وعبادة الاصنام ، ولكنه لم ينته من هذه المعركة ولم يجرز إنتصارا كاملا في هذه الجبهة بعد إلا وواجه عليه جبهة أخرى ، وكانت هذه الجماعة أعلى مستوى من افراد الجماعة السابقة في الفهم والثقافة. لان هذه الجماعة . على خلاف أقرباء إبراهيم . قد نبذت عبادة الأوثان والأصنام^(١) ، والمعبودات الارضية الحقيرة ، وتوجهت بعبادتها وتقديسها إلى الكواكب والنجوم والاجرام السماوية.

ولقد بين « الخليل » عليه السلام في حوارهِ العقائدي مع عبّاد الاجرام السماوية ، ومكافحته لمعتقداتهم الفاسدة ، سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية التي لم يصل إليها الفكر البشري يومذاك ، وذلك ببيان بسيط مدعوم بأدلة لا تزال إلى اليوم موضع اعجاب كبار العلماء ، ورواد الفلسفة والكلام.

والأهم من ذلك . في هذا المجال . أن القرآن الكريم نقل أدلة « إبراهيم الخليل » عليه السلام باهتمام خاص وعناية بالغة ولهذا ينبغي لنا أن نتوقف عندها قليلا ، وهذا ما سنفعله في هذه الصفحات .

١ . ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره عليه السلام مع الوثنيين ، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبدة الأجرام السماوية.

حوار الخليل مع عبدة الكواكب :

ذات ليلة وقف إبراهيم عليه السلام عند ابتداء مغيب الشمس يتطلع في السماء . وهو ينوي هداية الناس . وبقي ينظر إلى النجوم والكواكب من أول الغروب من تلك الليلة إلى الغروب من الليلة التالية ، وخلال هذه الساعات الاربع والعشرين حاور وجادل ثلاث فرق ، من عبدة النجوم وابطل عقيدة كل فرقة منها بأدلة محكمة ، وبراهين متقنة قوية .
فعندما أقبل الليل وخيم الظلام على كل مكان وهو يخفي كل مظاهر الوجود ومعالمه في عالم الطبيعة ظهر كوكب « الزهرة » من جانب الأفق وهو يتلألأ . فقال إبراهيم لعُباد هذا الكوكب . وهو يتظاهر بموافقتهم جلباً لهم ، ومقدمة للدخول معهم في حوار . : « هذا ربي . » .

وعندما افل ذلك الكوكب وغاب عن الانظار قال : « لا احب الآفلين » .
ويمثل هذا المنطق الجميل أبطل عقيدة عبدة الزهرة ، واطهر خواءها وفسادها .
ثم إنه عليه السلام نظر إلى كوكب القمر المنير الذي يسحر القلوب بنوره وضوئه ، فقال .
متظاهرا بموافقة عبدة القمر . : « هذا ربي » ثم رد بأسلوب منطقي محكم تلك العقيدة أيضا ،
عندما امتدت يد القدرة المطلقة وملت أشعة القمر من عالم الطبيعة ، وعندها إتخذ إبراهيم عليه السلام هيئة الباحث عن الحقيقة ومن دون أن يصدم تلك الفرق المشركة ويجرح مشاعرهم إذ قال : « قَ ° يَهْدِينِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » ^(١) لِأَنَّ الْقَمَرَ قَدْ أَفْلَ أَيضاً كَمَا أَفْلَ سَابِقُهُ فَهُوَ كَغَيْرِهِ أُسِيرَ نِظَامِ عُلُويٍّ لَا يَتَخَلَّفُ ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَدَّ رَبًّا يُعْبَدُ ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّضَرُّعِ .

ولما ولى الليل وأدبر ، واكتسحت الشمس الوضوءة باشعتها حجب

١ . الأنعام : ٧٧ .

الظلام ، وبثت خيوطها الذهبية على الوهاد والسهول ، والتفت عبدة الشمس إلى معبودهم ، تظاهر ابراهيم بالاقرار بربوبيتها اتباعاً لقواعد الجدل والمناظرة ولكن افول الشمس وغروبها اثبت هو الآخر بطلان عبادتها ايضاً بعد أن اثبت خضوعها للنظام الكوني العام ، فترا « الخليل » ﷺ من عبادتها بصراحة .

وعندئذ أعرض ﷺ عن تلك الطوائف الثلاث وقال : « إني وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ^(١) .

لقد كان المخاطبين في كلام إبراهيم ﷺ هم الذين يعتقدون بأن تدبير الكائنات الارضية ، ومنها الإنسان قد انيطت إلى الاجرام السماوية وفوضت اليها!! وهذا الكلام يفيد أن الخليل ﷺ لم يقصد المطالب الثلاث التالية :

١ . اثبات الصانع (الخالق) .

٢ . توحيد الذات وأنه واحد غير متعدد .

٣ . التوحيد في الخالقية ، وأنه لا خالق سواه .

بل كان تركيزه ﷺ على التوحيد في « الربوبية » و « التدبير » وادارة الكون ، وانه لا مدبر ولا مربي للموجودات الأرضية إلا الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا فانه ﷺ فور إبطاله لربوبية الاجرام السماوية قال : « وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... » وهو يعني ان خالق السماوات والأرض هو نفسه مدبرها وربها ، وانه لم يفوض أي شيء من تدبير الكون ، - لا كله ولا بعضه - إلى الاجرام السماوية ، فتكون النتيجة : أن الخالق والمدبر واحد لا أن الخالق هو الله والمدبر شيء آخر .

ولقد وقع المفسرون ، والباحثون في معارف القرآن في خطأ ، والتباس عند التعرض لمنطق « إبراهيم » ﷺ وشرح حوارته هذا ، حيث تصوروا أن الخليل ﷺ قصد نفي « ألوهية » هذه الأجرام يعني الألوهية التي تعتقد بها

١ . الأنعام : ٧٩ .

جميع شعوب الأرض ويكون هذا الكون الصاحب آية وجوده.

بينما تصوّر فريق آخر ان « إبراهيم » كان يقصد نفي « الخالقية » عن هذه الأجرام السماوية ، لأنه من الممكن ان يخلق إله العالم كائناً كامل الوجود والصفات ثم يفوض إليه مقام الخالقية في حين أن هذين التفسيرين غير صحيحين ، بل كان هدف الخليل عليه السلام . بعد التسليم بوجود اله واجب الوجود ، وتوحيده ، ووحداية الخالق . البحث في قسم آخر من التوحيد ، الا وهو التوحيد « الربوبي » ، وبالتالي اثبات أن خالق الكون هو نفسه مدبر ذلك الكون أيضاً ، وعبارة « وَجَّهْتُمْ وَجْهِي ... » أفضل شاهد على هذا النوع من التفسير .

من هنا كان التركيز الأكبر في بحث ابراهيم على مسألة « الرب » و « الربوبية » في صعيد الاجرام كالقمر والزهرة والشمس (١) .

هذا واستكمالا للبحث الحاضر لابدأ من توضيح برهان النبي « ابراهيم » عليه السلام . لقد استدل « ابراهيم » في جميع المراحل الثلاث بأقول هذه الاجرام على أنها لا تليق بتدبير الظواهر الارضية وبخاصة الإنسان .

وهنا ينطرح سؤال : لماذا يُعتبر أقول هذه الاجرام شاهدا على عدم مدبريتها؟ إن هذا الموضوع يمكن بيانه بصور مختلفة ، كل واحدة منها تناسب طائفة معينة من الناس .

ان تفسير منطق « الخليل » عليه السلام واسلوبه في إبطال مدبرية الاجرام السماوية وربوبيتها بأشكال وصور مختلفة أفضل شاهد على أن للقرآن الكريم أبعادا مختلفة وأن كل بُعد منها يناسب طائفة من الناس .

١ . لقد بيّنا مراتب التوحيد من وجهة نظر القرآن الكريم في كتابنا « معالم التوحيد في القرآن الكريم » وأثبتنا هناك أنّ التوحيد في الذات غير التوحيد في الخالقية ، وأن هذين النوعين من التوحيد غير التوحيد في الربوبية ، وهي غير المراتب الأخرى للتوحيد ، فراجع الكتاب المذكور تقف على هذه الحقيقة .

واليك في ما يلي التفاسير المختلفة لهذا الاستدلال :

الف : إن الهدف من اتخاذ الرب هو أن يستطيع الكائن الضعيف في ظل قدرة ذلك الرب من الوصول إلى مرحلة الكمال ولا بد ان يكون لمثل هذا الرب ارتباط قريب مع الموجودات المراد تربيتها بحيث يكون واقفاً على أحوالها ، غير منفصل عنها ، ولا غريب عليها.

ولكن كيف يستطيع الكائن الذي يغيب ساعات كثيرة عن الفرد المحتاج إليه في التربية ويُحرم ذلك الفرد من فيضه وبركته ، ان يكون رباً للموجودات الأرضية ومدبراً لها؟! من هنا يكون أقول النجم ، وغروبه ، الذي هو علامة غربته وانقطاعه عن الموجودات الارضية خير شاهد على أن للموجودات الأرضية رباً آخر ، منزهاً عن تلك النقيصة عارياً عن ذلك العيب.

باء : انّ طلوع الأجرام السماوية وغروبها وحركتها المنظمة دليل على أنها جميعاً خاضعة لمشيئة فوقها ، وانها في قبضة القوانين الحاكمة عليها ، والخضوع لقوانين منظمة هو بذاته دليل على ضعف تلك الموجودات ، ومثل هذه الموجودات الضعيفة لا يمكن أن تكون حاكمة على الكون ، أو شيء من الظواهر الطبيعية ، وأما استفادة الموجودات الارضية من نور تلك الاجرام وضوئها فلا يدل أبداً على ربوبية تلك الأجرام ، بل هو دليل على أن تلك الأجرام تقويّ وظيفة تجاه الموجودات الأرضية بأمر من موجود أعلى.

وبعبارة أخرى : إن هذا الأمر دليل على التناسق الكوني ، وارتباط الكائنات بعضها ببعض.

جيم : ما هو الهدف من حركة هذه الموجودات؟ هل الهدف هو أن تسير من النقص إلى الكمال أو بالعكس؟

وحيث أن الصورة الثانية غير معقولة ، وعلى فرض تصورهما لا معنى لأن يسير المريّي والمدبر للكون من مرحلة الكمال إلى النقص والفناء ، يبقى الفرض الأول وهو بنفسه دليل على وجود مربّبٍ آخر يوصل هذه الموجودات القوية في ظاهرها

من مرحلة إلى مرحلة ، هو . في الحقيقة . الربُّ الَّذِي يبلغ بهذه الموجودات وما دونها إلى الكمال.

طريقة الأنبياء في الحوار والجدال :

لقد اسلفنا في ما سبق أن « ابراهيم » - بعد خروجه من الغار . واجه صنفين منحرفين عن جادة التوحيد هما :

١ . الوثنيون .

٢ . عبدة الاجرام السماوية .

ولقد سمعنا حوار « ابراهيم » ﷺ وجداله مع الفريق الثاني ، وعلينا الآن أن نعرف كيف حاور الوثنيين وعبدة الاصنام؟

إن تاريخ الانبياء والرسل يكشف لنا عن أنهم كانوا يبدأون دعوتهم من انذار الاقربين ثم يوسعون دائرة الدعوة لتشمل عامة الناس كما فعل رسول الإسلام في بدء دعوته حيث بدأ بانذار عشيرته الاقربين لما امره الله تعالى بذلك إذ قال : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »^(١) . وبذلك أسس دعوته على إصلاح اقربائه وعشيرته .

ولقد سلك « الخليل » ﷺ نفس هذا المسلك أيضا إذ بدأ عمله الاصلاحى باصلاح اقربائه .

ولقد كان لأزر بين قومه مكانة اجتماعية عليا فهو . مضافا إلى معلوماته في الصناعة وغيرها . كان منجماً ماهراً ، وذا كلمة مسموعة ورأي مقبول في بلاط « نمرود » في كل ما يخبر به من أخبار النجوم ، وكل ما يستخرجه وما يستنبطه من الامور الفلكية ويذكره من تكهنات .

لقد ادرك « ابراهيم » انه بجلبه لأزار (عمه) يستطيع أن يسيطر على اوساط الوثنيين ، ويجردهم من ركيزة هامة من كبريات ركائزهم ، ولهذا بادر إلى منع

١ . الشعراء : ٢١٤ .

عمّه آزر . وبافضل الاساليب . عن عبادة الاوثان ، بيد أن بعض الأسباب أوجبت أن لا يقبل « آزر » بنصائح « ابراهيم » عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والمهم لنا في هذا المجال هو ان نتعرف على كيفية دعوة الخليل وعلى اسلوب حوار مع « آزر » .

ان الامعان في الآيات التي تنقل حوار « ابراهيم » عَلَيْهِ السَّلَامُ مع « آزر » توضح لنا أدب الانبياء ، واسلوبهم الرائع في الدعوة والارشاد ، ولتقف عند حوار ابراهيم ودعوته ، ليتضح لنا ذلك .

يقول القرآن الكريم عن ذلك : « ذَلِّمَ لِي بِهَيْمَانَ ۖ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُحْيِي ۚ عَنْكَ شَيْئًا . إِنِّي كُنْتُ لَمِنَ الْكٰفِرِيْنَ ۚ يَا اِبْرٰهِيْمُ ۙ اٰتِكِ الْوَعْدَ الَّذِي اٰتٰتِكَ فَاَتَّبِعِيْ ۚ اِهْبُدِيْ صِرٰطًا سَوِيًّا . يَا اَبَتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطٰنَ اِنَّ الشَّيْطٰنَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا . يَا اَبَتَ اِنِ اِخَافُ اَنْ يَّمْسَكَ عَذَابَ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُوْنَ لِلشَّيْطٰنِ وٰلِيًّا » .

فاجابه « آزر » قائلا : « أراغب أنت عن الهتي يهليم مئو ° تته لأجمنك مهجرني مليا » .

ولكن « ابراهيم » بسعة صدره وعظمة روحه تجاهل رد « آزر » العنيف ذلك وأجابه قائلا : « سلام عليك سأستغفر لك ربّي » (١) .
وأي جواب افضل من هذا البيان وأي لغة ألين من هذه اللغة واحب إلى القلب ، وأكثر رحمة ولطفًا .

هل كان آزر والد إبراهيم؟

ان الظاهر من الآيات المذكورة وكذا الآية (١١٥) من سورة « التوبة » والآية (١٤) من سورة الممتحنة هو : أن « آزر » كان والد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وقد كان إبراهيم يسميه أبا في حين كان « آزر » وثنيًا ، فكيف يصح ذلك وقد اتفقت كلمة علماء الشيعة عامة على كون والد النبي الكريم « محمد »

١- مريم : ٤٢ . ٤٧ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ مُوَحِّدِينَ آيَاهُ تَعَالَى .

ولقد ذكر الشيخ المفيد رضوان الله عليه في كتابه القيم « أوائل المقالات »^(١) ان هذا الامر هو موضع اتفاق علماء الشيعة الامامية كافة بل وافقهم في ذلك كثير من علماء السنة ايضا.

وفي هذه الصورة ما هو الموقف من ظواهر الآيات المذكورة التي تفيد أبو « أزر » لإبراهيم ، وما هو الحل الصحيح لهذه المشكلة؟؟
يذهب أكثر المفسرين إلى أن لفظة « الأب » وان كانت تُستعمل عادة في لغة العرب في « الوالد » ، إلا أن مورد استعمالها لا ينحصر في ذلك.

بل ربما استعملت . في لغة العرب وكذا في مصطلح القرآن الكريم . في : (العم) أيضا .
كما وقع ذلك في الآية التالية التي استعملت فيها لفظة الأب بمعنى العم إذ يقول سبحانه :
« إِذْ قَالَ لِيُنِّيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »^(٢) .

فإن مما لا ريب فيه أن « اسماعيل » كان عمّاً ليعقوب لا والداً له ، فيعقوب هو ابن اسحاق ، واسحاق هو أخو اسماعيل .

ومع ذلك سُمِّيَ أولاد يعقوب « اسماعيل » الذي كان (عمَّهم) أبا .
ومع وجود هذين الاستعمالين (استعمال الاب في الوالد تارة ، وفي العم تارة أخرى)
يصبح احتمال كون المراد بالاب في الآيات المرتبطة بمداية « أزر » هو العمّ أمراً وارداً ،
وبخاصة إذا ضَبَّمتنا إلى ذلك قرينة قوية في المقام وهي : اجماع العلماء الذي نقله المفيد رحمته الله
على طهارة آباء الانبياء واجدادهم من رجس الشرك والوثنية .

ولعل السبب في تسمية النبي « ابراهيم » عمّه بالأب هو أنه كان الكافل

١ . أوائل المقالات : ص ١٢ ، باب القول في آباء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٢ . البقرة : ١٣٣ .

لابراهيم ردحاً من الزمن ، ومن هنا كان « ابراهيم » ينظر إليه بنظر الأب ، وينزله منزلة الوالد.

القرآن ينفي أبو « آزر » لإبراهيم :

ولكي نعرف رأي القرآن الكريم في مسألة العلاقة بين « آزر » و « ابراهيم » عليه السلام نلقت نظر القارئ الكريم إلى توضيح آيتين :

١ . لقد أشرقت منطقة الحجاز بنور الايمان والإسلام بفضل جهود النبي « محمد » صلى الله عليه وسلم وتضحياته الكبرى ، وآمن أكثر الناس به عن رغبة ورضا ، وعلموا بأن عاقبة الشرك ، وعبادة الاوثان والاصنام هو الجحيم والعذاب الاليم.

إلا أنهم رغم ابتهاجهم وسرورهم بما وفقوا له من إيمان وهداية ، كانت ذكريات آبائهم وأمهاتهم الذين مضوا على الشرك والوثنية تزعج حواظرهم وتثير شفقتهم ، واسفهم.

وكان سماع الآيات التي تشرح أحوال المشركين في يوم القيامة يحزنهم ويؤلمهم ، وبغية ازالة هذا الالم الروحي المحهد طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لابائهم وأمهاتهم كما فعل « ابراهيم » في شأن « آزر » فنزلت الآية في مقام الردّ على طلبهم ذاك ، إذ قال سبحانه :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قَرَبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »^(١).

إنّ ثمة قرائن كثيرة تدل على أن محادثة النبي « ابراهيم » وحواره مع « آزر » ووعده بطلب المغفرة له من الله سبحانه قد انتهى إلى قطع العلاقات ،

١ . التوبة : ١١٣ و ١١٤ .

والتيجيّ منه في عهد فتوة « إبراهيم » ، وشبابه ، اي عندما كان « إبراهيم » لا يزال في مسقط رأسه « بابل » ولم يتوجه بعد إلى فلسطين ومصر وأرض الحجاز. إننا نستنتج من هذه الآية أن « إبراهيم » قطع علاقته مع « آزر » - في أيام شبابه - بعد ما أصر « آزر » على كفره ، ووثنيته ، ولم يعد يذكره إلى آخر حياته.

٢ . لقد دعا « إبراهيم » ﷺ في أخريات حياته . أي في عهد شيخوخته . وبعد أن فرغ من تنفيذ مهمته الكبرى (تعمير الكعبة) واسكان ذريته في أرض مكة القاحلة ، دعا وبكل اخلاص وصدق جماعة منهم والداد ، وطلب من الله إجابة دعائه ، إذ قال في حين الدعاء :

« رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ »^(١) .

إن هذه الآية تفيد بصراحة . أن الدعاء المذكور كان بعد الفراغ من بناء الكعبة المعظمة ، وتشبيدها ، يوم كان إبراهيم يمر بفترة الشيخوخة ، فاذا كان مقصوده من الوالد في الدعاء المذكور هو « آزر » وانه المراد له المغفرة الالهية كان معنى ذلك أن « ابراهيم » كان لم يزل على صلة بـ « آزر » حتى أنه كان يستغفر له في حين أن الآية التي نزلت ردا على طلب المشركين أوضحت بأن « إبراهيم » كان قد قطع علاقته بـ « آزر » في أيام شبابه ، وتبرأ منه ، ولا ينسجم الاستغفار مع قطع العلاقات.

إن ضيماً هاتين الآيتين بعضهما إلى بعض يكشف عن أن الذي تبرأ منه « ابراهيم » في أيام شبابه ، وقطع علاقته معه ، واتخذوه عدواً هو غير الشخص الذي بقي يذكره ، ويستغفر له إلى أخريات حياته^(٢) .

إبراهيم محطّم الأصنام :

لقد حلّ موسم العيد ، وخرج أهل بابل المغفلين الجهلة إلى الصحراء للاستحمام ، ولقضاء فترة العيد ، وإجراء مراسيمه ، وقد أخلوا المدينة.

١ - إبراهيم : ٤١ .

٢ - مجمع البيان : ج ٣ ، ص ٣٢١ ، والميزان : ج ٧ ، ص ١٧٠ .

ولقد كانت سوابق « إبراهيم » ، وتحامله على الأصنام ، واستهزاؤه بما قد أوحدت قلقاً وشكاً لدى أهل بابل ، ولهذا طلبوا منه . وهم الذين يساورهم القلق من موقفه تجاه اصنامهم . الخروج معهم إلى الصحراء ، والمشاركة في تلك المراسيم ، ولكن اقتراحهم هذا بل إصرارهم واجه رفض إبراهيم الذي رد على طلبهم بحجة المرض إذ قال : « إني سقيم » وهكذا لم يشترك في عيدهم ، وخروجهم وبقي في المدينة .

حقاً لقد كان ذلك اليوم يوم ابتهاج وفرح للموحد والمشارك ، وأما للمشركين فقد كان عيداً قديماً عريقاً يخرجون للاحتفال به ، واقامة مراسيمه وتجديد ما كان عليه الآباء والاسلاف إلى الصحراء حيث السفوح الخضراء والمراع الجميلة .

وكان عيداً لإبراهيم بطل التوحيد كذلك ، عيداً لم يسبق له مثيل ، عيداً طال انتظاره ، وافرح حضوره وحلوله ، فيها هو إبراهيم يجد المدينة فارغة من الاغيار ، والفرصة مناسبة للانقضاض على مظاهر الشرك والوثنية ، وحدث هذا فعلاً .

فعندما خرج آخر فريق من اهل بابل من المدينة ، اغتنم « إبراهيم » تلك الفرصة ودخل وهو ممتلئ إيماناً و يقيناً بالله في معبدهم حيث الأصنام والأوثان المنحوتة الخاوية ، وأمامها الأطعمة الكثيرة التي احضرها الوثنيون هناك بقصد التبرك بها ، وقد لفتت هذه الأطعمة نظر « الخليل » عليه السلام ، فأخذ بيده منها كسرة خبز ، وقدمها مستهزئاً إلى تلك الاصنام قائلاً : لماذا لا تأكلون من هذه الاطعمة؟

ومن المعلوم أن معبودات المشركين الجوفاء هذه لم تكن قادرة على فعل اي شيء أو حركة مطلقاً فكيف بالاكل .

لقد كان يخيم على جو ذلك المعبد الكبير سحابة من الصمت القاتل ولكنه سرعان ما اخترقته اصوات المعلول الذي اخذ « إبراهيم » يهوي به على رؤوس تلك التماثيل الجامدة الواقفة بلا حراك ، وايديها .

لقد حطم « الخليل » عليه السلام جميع الاصنام وتركها ركاما من الاعواد المهشمة ، والمعدن المتحطم ، وإذا بتلك الاصنام المنصوبة في اطراف ذلك الهيكل

قد تحولت إلى تلة في وسط المعبد.

غير ان « ابراهيم » ترك الصنم الأكبر من دون ان يمسه بسوء ، ووضع المعول على عاتقه ، وهو يريد بذلك ان يظهر للقوم بأن محطّم تلك الأصنام هو ذلك الصنم الكبير ، إلا أن هدفه الحقيقي من وراء ذلك كان امرا آخر سنبينه في ما بعد.

لقد كان « إبراهيم » ﷺ يعلم بأن المشركين بعد عودتهم من الصحراء ، ومن عيدهم سيوزرون المعبد ، وسوف يبحثون عن علة هذه الحادثة ، وأنهم بالتالي سوف يرون ان وراء هذه الظاهرة واقعاً آخر ، إذ ليس من المعقول ان يكون صاحب تلك الضربات القاضية هو هذا الصنم الكبير الذي لا يقدر اساسا على فعل شيء على الاطلاق.

وفي هذه الحالة سوف يستطيع « إبراهيم » ﷺ أن يستفيد من هذه الفرصة في عمله التبليغي ويستغل اعتراضهم بأن هذا الصنم الكبير لا يقدر على شيء أبداً ، لتوجيه السؤال التالي اليهم : اذن كيف تعبدونه!!

فمنذ أن اخذت الشمس تدنو إلى المغيّب ويقترّب موعد غروبها ، وتتقلص اشعتها وتنكمش من الرّوايي والسهول ، أخذَ الناسُ يؤوبون إلى المدينة أفواجاً أفواجاً. وعند ما آن موعد العبادة ، وتوجّهوا إلى حيث اصنامهم ، واجهوا منظراً فضياعاً وامراً عجيباً لم يكونوا ليتوقّعونه!!

لقد كان المشهد يحكي عن ذلة الآلهة وحقارتها ، وهو أمرٌ لفت نظر الجميع شيباً وشباناً ، كباراً وصغاراً.

ولقد كانت تلك اللحظة لحظة ثقيلة الوطأة على الجميع بلا استثناء.

فقد خَيّم سكوت قاتل مصحوب بحنق ومضض على فضاء ذلك المعبد المنكود الحظ.

إلا أن أحدهم حرق ذلك الصمت الرهيب وقال : من الذي ارتكب هذه الجريمة ، ومن

فعل هذا بالهتنا؟!!

ولقد كانت آراء « إبراهيم » ومواقفه السلبية السابقة ضد الاصنام وتحامله الصريح عليها تبعثهم على اليقين بأن « إبراهيم » وليس سواه هو الذي صنع ما صنع بأهتّم واصنامهم. ولأجل ذلك تشكلت فوراً محكمة يرأسها « نمرود » نفسه وأخذوا يحاكمون « إبراهيم » وأمه!!

ولم يكن لأمه من ذنب إلا أنها أخفت ابنها ، ولم تُعلم السلطات بوجوده ليقتضوا عليه ، شأنه شأن غيره من المواليد الذين قضت تلك السلطة الظالمة عليهم حفاظاً على نفسها وكيانها.

ولقد أجابت لم إبراهيم على هذا السؤال بقولها : أيها الملك فعلت هذا نظراً مني لرعيّتك ، فقد رأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل فقلت : إن كان هذا الذي يطلبه دفعته إليه ليقتله ويكف عن قتل أولاد الناس ، وإن لم يكن ذلك فبقي لنا ولدنا. ثم جاء دور مساءلة إبراهيم عليه السلام فسأله قائلاً : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِأَهْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ » فقال إبراهيم : « فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ».

وقد كان « إبراهيم » عليه السلام يهدف من هذه الاجابة اللامبالية المصحوبة بالسخرية والازدراء هدفاً آخر ، وهو ان « إبراهيم » عليه السلام كان على يقين بأنهم سيقولون في معرض الاجابة على كلامه هذا : إنك تعلم يا إبراهيم ان هذه الأصنام لا تقدر على النطق ، وفي هذه الصورة يستطيع « إبراهيم » أن يلفت نظر السلطات التي تحاكمه إلى نقطة اساسية. وقد حدث فعلاً ما كان يتوقعه « إبراهيم » عليه السلام لما قالوا له وقد نكسوا على رؤوسهم : « لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ » فقال إبراهيم رداً على كلامهم هذا الذي كان يعكس حقارة تلك الاصنام والأوثان وتفاهة شأنها : « أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ».

إلا أن تلك الزمرة المعاندة التي ران على قلوبها الجهل والتقليد الأعمى لم

يجدوا جواباً لأبراهيم الذي افحمهم بمنطقه الرصين إلا أن يحكموا باعدامه حرقاً ، فأوقدوا ناراً كبيرة وألقوا بإبراهيم عليه السلام فيها إلا أن العناية الإلهية شملت إبراهيم الخليل عليه السلام ، وحفظته من اذى تلك النار ، وحولت ذلك الجحيم الذي أوجده البشر ، إلى جُنة خضراء نضرة إذ قال : « يا نار كوني بَرًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ »^(١).

العبر القيمة في هذه القصة :

مع ان اليهود يعتبرون أنفسهم في مقدمة الموحددين ، لم ترد هذه القصة في ثورتهم الحاضرة رغم كونها معروفة بينهم ، بل تفرّد القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بذكرها لأهميتها.

من هنا فإننا نذكر بعض النقاط المفيدة ، والدروس المهمة في هذه القصة التي يهدف القرآن من ذكرها وذكر امثالها من قصص الأنبياء والرسول.

١ . وقد ذكر تفاصيل هذه القصة في الآيات ٥١ إلى ٧٠ من سورة الانبياء وها نحن ندرج كل هذه الآيات هنا : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلِ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ مِن بَاطِلٍ مُّبِينٍ . قَالُوا اجتنبوا بالحق أم أنت من اللاحقين قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيداً أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فَجَعَلْنَاهُمْ جُنَادًا إِلَّا كِبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَدْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا : كَتَبْنَا بِالْهَيْبَةِ عَلَىٰ عَيْنِي . قَالُوا : لَعَلَّهُمْ يَشْبَهُونَ قَالُوا أَنْتَ أَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ . قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . فُكِّرْكُمْ يَا عِبَادُ إِنَّهُنَّ لِلَّهِ يَوْمَ يُحْمَلُونَ إِلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ ثُمَّ يُؤَالَفُ هَؤُلَاءِ بِأَبْنَائِهِمْ وَبِأَهْلِهِمْ وَبِأَزْوَاجِهِمْ وَبِأَمْوَالِهِمْ إِنَّ أَوْلَىٰ حَقًّا يُحِبُّونَ أَن يَسْمَعُوا قَوْلَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ حَقًّا وَلَا يَكْفُرُوا بِهِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . قَالُوا يَا نَارُ كُونِي بَرًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ » .

وللوقوف على تفاصيل وخصوصيات ولادة إبراهيم عليه السلام وتخطيمه للأصنام راجع كتاب الكامل لابن الأثير : ج ١ ، ص ٥٣ . ٦٢ ، وبحار الأنوار : ج ١٢ ، ص ١٤ . ٥٥ .

١ . إن هذه القصة خير شاهد على شجاعة « إبراهيم الخليل » عليه السلام وبطولته الفائقة .
فعزم إبراهيم على تحطيم الاصنام ، ومحق وهدم كل مظاهر الشرك والوثنية المقيتة لم يكن
امرا خافيا على النمروديين لانه عليه السلام كان قد أظهر شجبه لها ، واعلن عن استنكاره لعبادتها
وتقديسها من خلال كلماته القادحة فيها ، واستهزائه بها ، فقد كان عليه السلام يقول لهم بكل
صراحة بانه سيتخذ من تلك الاصنام موقفاً ما إذا لم يتركوا عبادتها وتقديسها ، فقد قال لهم
يوم ارادوا ان يخرجوا إلى الصحراء لمراسيم العيد : « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ تَوَلُّو
مُدْبِرِينَ » ^(١) .

ولقد كان موقف الخليل عليه السلام ينم عن شجاعة كبرى فقد قال الإمام الصادق عليه السلام في
هذا الصدد :

« ومنها (اي ومما تحلى به النبي ابراهيم) الشجاعة وقد كشفت (قضية) الاصنام عنه
، ومقاومة الرجل الواحد ألوفاً من أعداء الله عز وجل تمام الشجاعة » ^(٢) .

٢ . ان ضربات « إبراهيم » القاضية وان كانت في ظاهرها حرباً مسلحة ، وعنيفة ضد
الاصنام إلا أن حقيقة هذه النهضة . كما يُستفاد من ردود « إبراهيم » على أسئلة الذين
حاكموه ، واستجوابه . كانت ذات صبغة تبليغية دعائية .

فان « إبراهيم » لم يجد وسيلة لا يقاظ عقول قومه الغافية ، وتنبيه فطهرهم الغافلة ، إلا
تحطيم جميع الاصنام ، وترك كبيرها وقد علق القدم على عاتقه ليدفع بقومه إلى التفكير في
القضية من اساسها وحيث أن العمل لم يكن أكثر من مسرحية إذ لا يمكن أن يصدق
أحدهم بأن تلك الضربات القاضية كانت من صنع ذلك الصنم الكبير وفعله حينئذ يستطيع
إبراهيم أن يستثمر فعله هذا في دعوته ، ويقول ان هذا الصنم الكبير لا يقدر . وباعتراكم .
على فعل أي شيء

١ . الأنبياء : ٥٧ .

٢ . بحار الأنوار : ج ١٢ ، ص ٦٧ .

مهما كان صغيرا وحقيرا فكيف تعبدونه اذن؟!!

ولقد استفاد « إبراهيم » من هذه العملية فعلا ، وتوصل إلى النتيجة التي كان يتوخاها ، فقد ثابوا إلى نفوسهم بعد ان سمعوا كلمات « إبراهيم » عَلَيْهِ السَّلَامُ ، واستيقظت ضمائرهم وعقولهم ووصفوا انفسهم بالظلم بعد أن تبين لهم الحق وبطل ما كانوا يعبدون إذ قال تعالى : « **فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** » ^(١) وهذا بنفسه يفيد بأن سلاح الانبياء القاطع في بدء عملهم الرسالي كان هو : سلاح المنطق والاستدلال ليس إلا ، غاية الأمر أن هذا كان يؤدي في كل دورة بما يناسبها من الوسائل ، وإلا فما قيمة تحطيم عدد من الأصنام الخشبية بالقياس إلى مخاطرة النبي « ابراهيم الخليل » بنفسه وحياته ، وبالقياس إلى الاخطار التي كانت تتوجه إليه نتيجة هذا العمل الصارخ.

إذن فلا بد ان يكون وراء هذه العملية الخطيرة هدف كبير وخدمة عظمى تستحق المخاطرة بالنفس ، ويستحق المرء امتداح العقل له إذا عرّض حياته للخطر في سبيلها.

٣ . لقد كان إبراهيم يعلم بأن هذا العمل سيؤدي بحياته ، وسيكون فيه حتفه ، فكانت القاعدة تقتضي أن يسيطر عليه قلق واضطراب شديدان ، فيتوارى عن أعين الناس ، أو يترك المزاح ، والسخرية بالأصنام على الأقل ، ولكنه كان على العكس من ذلك رابط الجأش ، مطمئن النفس ، ثابت القدم ، فهو عندما دخل في المعبد الذي كانت فيه الأصنام تقدم بقطعة من الخبز إلى الاصنام ودعاها ساخرأ بها ، إلى الاكل ، و ثم ترك الأصنام بعد اليأس منها تلا من الخشب المهشم ، واعتبر هذا الامر مسألة عادية لا تستأهل الوجل والخوف ، وكأنه لم يفعل ما يستتبع الموت المحقق ويستوجب الاعدام المحتّم.

فهو عندما يأخذ مكانه امام هيئة القضاة يقول معرضا بالاصنام : فعله كبير الأصنام فاسئلوه ولا شك أن هذا التعريض والسخرية بالاصنام إنما هو موقف من

١ . الأنبياء : ٦٤ .

لا يوجس خيفة ، ولا يشعر بوجل من عمله ، بل هو فعل من قد هباً نفسه لكل الاخطار المحتملة ، واستعد لكل النتائج مهما كانت خطيرة.

بل الأعجب من هذا كله دراسة وضع « إبراهيم » نفسه حينما كان في المنجنيق وقد تيقن أنه سيكون وسط ألسنة اللهب بعد هنيئة ، وتلتهمه النار المستعرة تلك النار التي جمع اهل « بابل » لها الحطب الكثير تقريباً إلى آلهتهم ، وكانوا يعتبرون ذلك العمل واجباً مقدساً ... تلك النار التي كان لهيبا من القوة بحيث ما كانت الطيور تستطيع من التحليق على مقربة منها.

في هذه اللحظة الخطيرة الحساسة جاءه جبرئيل واعلن عن استعدادده لانقاذه وتخليصه من تلك المهلكة الرهيبة قائلاً له : هل لك إلي من حاجة؟

فقال « إبراهيم » : أما إليك فلا ، وأما إلى ربِّ العالمين فنعم ^(١).

ان هذا الجواب يجسّد إيمان « إبراهيم » العظيم ، وروحه الكبرى.

لقد كان « نمرود » الذي جلس يراقب تلك النار من عدة فراسخ ، ينتظر بفارغ الصبر لحظة الانتقام ، وكان يجب ان يرى كيف تلتهم ألسنة النار « إبراهيم ». فما أربب تلك اللحظات!

لقد اشتغل المنجنيق ، وبهزة واحدة ألقى بإبراهيم ^(٢) في وسط النار غير أن مشيئة الله ، وارادته النافذة تدخلت فوراً لتخلص خليل الله ونبيه العظيم ، فحوّلت تلك النار المحرقة التي أوقدتّها يدُ البشر إلى روضة خضراء وجنيئة زاهرة ادهشت الجميع حتى أنّ « إبراهيم » التفت إلى « آزر » وقال . من دون ارادته . : « يا آزر ما أكرم إبراهيم على ربّه » ^(٣).

إن انقلاب تلك النار الهائلة إلى روضة خضراء لإبراهيم قد تم بأمر الله المسبب للأسباب والمعطل لها متى شاء ، المعطي لها آثارها ، والسالب عنها ذلك ، متى اراد.

١ . عيون أخبار الرضا : ص ١٣٦ ، وأمالى الصدوق : ص ٢٧٤ ، وبحار الأنوار : ج ١٢ ، ص ٣٥ .

٢ . تفسير البرهان : ج ٣ ، ص ٦٤ .

اجل إن الله الذي منح الحرارة للنار والاضاءة للقمر ، والاشعاع للشمس لقادر على سلب هذه الآثار وانتزاعها من تلك الاشياء وتجريدها ، ولهذا صحَّ وصفه بمسبب الاسباب ، ومعطلها.

غير ان جميع هذه الحوادث الخارقة والآيات الباهرة لم تستطع ان توفر لابراهيم الحرية الكاملة في الدعوة والتبليغ ، فقد قررت السلطة الحاكمة وبعد مشاورات ومداولات إبعاد « إبراهيم » ونفيه ، وقد فتح هذا الأمر صفحة جديدة في حياة ذلك النبي العظيم ، وتهيأت بذلك اسباب رحلته إلى بلاد الشام وفلسطين ومصر وارض الحجاز.

هجرة الخليل عليه السلام :

لقد حكمت محكمة « بابل » على « إبراهيم » بالنفي والإبعاد من وطنه ، ولهذا اضطرَّ عليه السلام ان يغادر مسقط رأسه ، ويتوجه صوب فلسطين ومصر ، وهناك واجه استقبال العمالقة الذين كانوا يحكمون تلك البقاع وترحيبهم الحار به ونعم بمهداياهم التي كان من جملةتها جارية تدعى « هاجر ».

وكانت زوجته « سارة » لم تُرزق بولد إلى ذلك الحين ، فحركت هذه الحادثة عواطفها ومشاعرها تجاه زوجها الكريم إبراهيم ولذلك حثته على نكاح تلك الجارية عليه السلام منها بولد ، تقرّر به عينه وتزدهر به حياته.

فكان ذلك ، وولدت « هاجر » لإبراهيم ولداً ذكراً سمي باسماعيل ، ولم يمض شيء من الزمان حتى حبلت سارة هي أيضا وولدت . بفضل الله ولطفه . ولدا سمي باسمحاق^(١) .

وبعد مدة من الزمان أمر الله تعالى « إبراهيم » بان يذهب بإسماعيل وأمه « هاجر » إلى جنوب الشام « أي ارض مكة » ويُسكنهما هناك في واد غير معروف إلى ذلك الحين ... واد لم يسكنه أحد بل كانت تنزل فيه القوافل التجارية

١ . بحار الأنوار : ج ١٢ ، ص ١١٨ و ١١٩ .

الذاهبة من الشام إلى اليمن ، والعائدة منها إلى الشام ، بعض الوقت ثم ترحل سريعاً ، وأما في بقية أوقات السنة فكانت كغيرها من أراضي الحجاز صحراء شديدة الحرارة ، خالية عن أي ساكن مقيم.

لقد كانت الإقامة في مثل تلك الصحراء الموحشة عملية لا تطاق بالنسبة لأمراة عاشت في ديار العمالقة والفت حياتهم وحضارتهم ، وترفهم وبذخهم.

فالحرارة اللاهبة والرياح الحارقة في تلك الصحراء كانت تجسّد شبح الموت الرهيب امام ابصار المقيمين.

وإبراهيم نفسه قد اتنايته كذلك حالة من التفكير والدهشة لهذا الامر ، ولهذا فإنه فيما كان عازماً على ترك زوجته « هاجر » وولده « إسماعيل » في ذلك الواد قال لزوجته « هاجر » وعيناه تدمعان : « إن الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان هو الذي يكفيكم .»

ثم قال في ضراعة خاصة : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَرَوْضًا أَهْلِيهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِمَّنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (١).

وعندما انحدر من ذلك الجانب من الجبل التفت اليهما وقال داعياً : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ كَثِيرٍ نَزَعَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَرُؤْفَهُمْ مِنْ أَثْمَارِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » (٢).

إن هذا السفارة والمهجرة وإن كانت في ظاهرها امراً صعباً ، وعملية لا تطاق ، إلا أن نتائجها الكبرى التي ظهرت في ما بعد أوضحت وبيّنت أهمية هذا العمل ، لأنّ بناء الكعبة ، وتأسيس تلك القاعدة العظيمة لأهل التوحيد ، ورفع راية التوحيد في تلك الربوع ، وخلق نواة نخضة ، عميقة ، دينية ، انبثقت على يد رسول الله ﷺ وشعّت من تلك الديار إلى أنحاء العالم ، كل ذلك كان من ثمار تلك الهجرة.

١ - البقرة : ١٢٦ .

٢ - إبراهيم : ٣٧ .

عين زمزم كيف ظهرت؟

لقد غادر « إبراهيم » ﷺ أرض مكة تاركاً زوجته وولده « إسماعيل » بعيون دامعة ، وقلب يملأوه الرضا بقضاء الله والامل بلطفه وعنايته .

فلم تمض مدة إلا ونفذ ما ترك عندهما من طعام وشراب ، وجف اللبن في ثديي « هاجر » ، وتدهورت أحوال الرضيع « إسماعيل » ، وكانت دموع الام الحزينة تنحدر على حجره ، وهي تشاهد حال وليدها الذي قد أخذ العطش والجوع منه مأخذاً .

فانطلقت من مكانها فجأة تبحث عن الماء حتى وصلت إلى جبل « الصفا » فرأت من بعيد منظر ماء عند جبل « مروة » ، فأسرعت إليه مهرولة ، غيران الذي رآته وظنته ماء لم يكن إلا السراب الخادع ، فزادها ذلك جزعاً وحزناً على وليدها مما جعلها تكرر الذهاب والاياب إلى الصفا والمروة أملاً في أن تجد الماء ولكن بعد هذا السعي المتكرر ، والذهاب والاياب المتعدد بين الصفا والمروة عادت إلى وليدها قانطة يائسة .

كانت أنفاس الرضيع الضامى ودقات قلبه الصغير قد تباطأت بل واشرفت على النهاية ، ولم يعد ذلك الرضيع الضامى قادراً على البكاء ولا حتى على الانين .

ولكن في مثل هذه اللحظة الحرجة الصعبة استجاب الله دعاء خليله وحبيبه « إبراهيم » ، إذ لاحظت هاجر الماء الزلال وهو ينبع من تحت اقدم « إسماعيل » .

فسرت تلك الام المضطربة . التي كانت تلاحظ وليدها وهو يقضي اللحظات الاخيرة من حياته ، وكانت على يقين بانه سرعان ما يموت عطشاً ، وجهداً . سروراً عظيماً بمنظر الماء ، ويرق في عينيها بريق الحياة ، بعد ان اظلمت الدنيا في عينيها قبل دقائق ، فشربت من ذلك الماء العذب ، وسقت منه رضيعها الضامى ، وتقشعت بلطف الله وعنايته وبما بعثه من نسيم الرحمة الربانية كل غيوم اليأس ، وسحب القنوط التي تلبدت وخيمت على حياتها .

ولقد ادى ظهور هذه العين التي تدعى بززم في ان تتجمع الطيور في تلك المنطقة وتخلق فوق تلك البقعة التي لم يُعهد أن حَلَّت عليها الطيور ، وارتادتها الحمام ، وهذا هو ما دفع بجرهم وهي قبيلة كانت تقطن في منطقة بعيدة عن هذه البقعة ان تتنبه إلى ظهور ماء فيها لما رأت تساقط الطيور وتحليقها ، فأرسلت واردين ليتقصيا لها الخبر ويعرفا حقيقة الأمر ، وبعد بحث طويل وكثير ، انتهيا إلى حيث حلت الرحمة الالهية ، وعندما اقتربا إلى « هاجر » وشاهدا بام عينيهما « امرأة » و « طفلا » عند عين من الماء الزلال الذي لم يعهداه من قبل عادا من فورهما من حيث أتيا ، وأخبرا كبار القبيلة بما شاهدها ، فاخذت الجماعة تلو الجماعة من تلك القبيلة الكبيرة تفد إلى البقعة المباركة ، وتخيم عند تلك العين لتطرده عن « هاجر » وولدها مرارة الغربية ، ووحشة الوحدة ، وقد سبب نمو ذلك الوليد المبارك ورشده في رحاب تلك القبيلة في ان يتزوج إسماعيل هذا من تلك القبيلة ، ويصاهرهم ، وبذلك يحظى بحمايتهم له ، وينعم بدفاعهم ورعايتهم ومحبتهم له. فانه لم يمض زمان حتى أختار « إسماعيل » زوجة من هذه القبيلة ، ولهذا ينتمي ابناء « إسماعيل » إلى هذه القبيلة من جهة الأم .

تجديد اللقاء :

كان إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجته « هاجر » وولده « إسماعيل » في ارض « مكة » بأمر الله ، يتردد على ولده بين فينة وأخرى. وفي احدى سفراته ولعلها السفرة الأولى دخل « مكة » فلم يجد ولده « إسماعيل » في بيته ، وكان ولده الذي أصبح رجلا قويا ، قد تزوج بامرأة من جرهم. فسأل « إبراهيم » زوجته قائلا : اين زوجك؟ فقالت : خرج يتصيد ، فقال لها : هل عندك ضيافة؟ قالت : ليس عندي شيء وما عندي أحد ، فقال لها إبراهيم : « إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له : فليغير عتبة بابه ».

وذهب إبراهيم عليه السلام منزعجا من معاملة زوجة ابنه « إسماعيل » له وقد قال لها ما قال .
ولما جاء إسماعيل عليه السلام وجد ربح ابيه فقال لامرأته : هل جاءك احد؟ قالت : جاءني
شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه ، قال : فماذا قال لك : قالت : قال لي أقرئي
زوجك السلام وقولي له : فليغير عتبة بابه!!

فطلقها وتزوج أخرى ، لأن مثل هذه المرأة لا تصلح ان تكون زوجة وشريكة حياة ^(١) .
وقد يتساءل أحد : لماذا لم يمكث إبراهيم عليه السلام هناك قليلا ليرى ولده إسماعيل بعد
عودته من الصيد ، وقد قطع تلك المسافة الطويلة ، وكيف سمح لنفسه بان يعود بعد تلك
الرحلة الشاقة من دون ان يحظى برؤية ابنه العزيز؟!
يجيب ارباب التاريخ على ذلك بان إبراهيم انما استعجل في العودة من حيث اتى لوعده
اعطاه لزوجته سارة بأن يعود اليها سريعا ، ففعل ذلك حتى لا يخلف. وهذا من اخلاق
الانبياء.

ثم إن « إبراهيم » سافر مرة أخرى إلى أرض مكة بأمر الله ، وليبني الكعبة التي تهدمت
في طوفان « نوح » ، ليوجه قلوب المؤمنين الموحدين إلى تلك النقطة.
إن القرآن الكريم يشهد بأن أرض « مكة » قد تحولت إلى مدينة بعد بناء الكعبة قبيل
وفاة إبراهيم عليه السلام ، لأن إبراهيم دعا بُعيد فراغه من بناء الكعبة قائلا :
« **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَجْنِبْني وَبَيْتي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ** » ^(٢) على حين دعا عند
نزوله مع زوجته ، وابنه إسماعيل في تلك الأرض قائلا :
« **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا** » ^(٣) .
وهذا يكشف عن ان مكة تحولت إلى مدينة عامرة في حياة الخليل

١ - بحار الأنوار : ج ١٢ ، ص ١١٢ نقلا عن قصص الأنبياء.

٢ - إبراهيم : ٣٥ .

٣ - البقرة : ١٢٦ .

عائشة ، بعد ان كانت صحراء قاحلة ، وواد غير ذي زرع.

* * *

ولقد كان من المستحسن استكمالاً لهذا البحث أن نشرح هنا كيفية بناء الكعبة المعظمة ، ونستعرض التاريخ الاجمالي لذلك ، بيد أننا لكي لا نقصر عن الهدف المرسوم لهذا الكتاب اعرضنا عن ذلك وعمدنا إلى ذكر بعض التفاصيل عن أبرز واشهر أجداد رسول الله ﷺ في التاريخ.

٢ . قُصَيُّ بن كلاب :

إن أسلاف الرسول العظيم ﷺ هم على التوالي : عَبْدُ اللَّهِ ، عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ، هاشم ، عَبْدُ مَنَافٍ ، قُصَيٌّ ، كِلَابٌ ، مِرَّةٌ ، كَعْبٌ ، لُؤَيٌّ ، غَالِبٌ ، فَهْرٌ ، مَالِكٌ ، النَّضْرُ ، كِنَانَةُ ، خُزَيْمَةُ ، مَذْرُكَةُ ، إِيَّاسٌ ، مُضَرٌّ ، نَزَارٌ ، مَعَدٌّ ، عَدْنَانٌ^(١).

من المسلم أن نسب النبي الاكرم ﷺ إلى عدنان هو ما ذكر ، فلا خلاف فيه ، إنما وقع الخلاف في عدد ، واسماء من هم بعد عدنان إلى إسماعيل ﷺ ، ولذلك لم يجز التجاوز عنه لحديث رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ إذ قال : « إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا »^(٢) هذا مضافاً إلى أن النبي نفسه كان إذا عدَّ أجداده فبلغ إلى عدنان أمسك ، ونهى عن ذكر من بعده إلى إسماعيل ، وقد روي عنه ﷺ أنه قال : كَبَدَ النَّسَابُونَ.

ولهذا فإننا نكتفي بذكر من أتفق عليه ، ونعمد إلى الحديث عن حياة كل واحد منهم.

ولقد كان كل من ذكرنا أسماءهم هنا معروفين ، ومشهورين في تاريخ

١ . التاريخ الكامل : ج ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١٠ .

٢ . بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ١٠٥ عن مناقب ابن شهر آشوب ، وكشف الغمّة : ج ١ ، ص ١٥ .

العرب ، بيد أن حياة طائفة منهم ترتبط بتاريخ الإسلام ، ولهذا فاننا نقف عند حياة « قصي » ومن لحقه إلى والد النبي « عبد الله » ونعرض عن ذكر حياة غيرهم من أجداده وأسلافه صلى الله عليه وآله وسلم ممن لا علاقة له بهذه الدراسة ^(١).

أباً « قُصَيِّ » وهو الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمّة « فاطمة » التي تزوجت برجل من بني كلاب ورزقت منه بولدين هما : « زهرة » و « قصي » إلا أن زوج فاطمة قد توفي ، وهذا الاخير لم يزل في المهدي ، فتزوجت بزواج آخر يدعى ربيعة ، وسافرت معه إلى الشام ، وبقي « قصي » يحظى برعاية أبوية من ربيعة حتى وقع خلاف بين قصي وقوم ربيعة ، واشتد ذلك الخلاف حتى انتهى إلى طرده من قبيلتهم ، مما أحزن ذلك أمّه ، واضطرت إلى إرجاعه إلى « مكة ».

وهكذا اتت به يد القدر إلى « مكة » ، وسببت قابلياته الكامنة التي برزت في تلك المدينة في تفوقه على أهل مكة وبخاصة قريش.

وسرعان ما احتل قصي هذه المقامات العالية ، وشغل المناصب الرفيعة ، مثل حكومة « مكة » وزعامة قريش ، وسدانة الكعبة المعظمة ، وصار رئيس تلك الديار دون منازع. ولقد ترك (قصي) من بعده آثارا كثيرة وعديدة منها تشجيع الناس على بناء المساكن والبيوت حول الكعبة المعظمة ، وتأسيس مكان للشورى ليجتمع فيه رؤساء القبائل العربية من اجل التداول في الامور وحل المشاكل يدعى بدار الندوة.

وقد توفي « قصي » في القرن الخامس الميلادي وخلف من بعده ولدين هما : « عبد الدار » و « عبد مناف ».

٣ . عبد مناف :

وهو الجد الثالث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واسمه « المغيرة » ولقبه

١ . لقد بحث ابن الأثير في الكامل حول حياتهم فراجع : ج ٢ ، ص ١٥ - ٢١ .

« قمر البطحاء » ، وكان أصغر من أخيه « عبد الدار » إلا أنه كان يحظى بمكانة خاصة عند الناس دون أخيه ، وكان شعاره التقوى ، ودعوة الناس إلى حسن السيرة وصللة الرحم ، بيد انه مع ما كان له من المكانة القوية لم ينافس اخاه « عبد الدار » في المناصب العالية التي كان يشغلها.

فقد كانت الزعامة لأخيه عبد الدار حسب وصية أبيهما « قصي » .
ولكن بعد وفاة هذين الأخوين وقع الخصام والتنازع بين أبنائهما على المناصب ، وانتهى ذلك بالصراع الطويل إلى اقتسام المناصب والمقامات ، وتقرر ان يتولى ابناء عبد الدار سدانة الكعبة ، وزعامة دار الندوة ، ويتولى ابناء عبد مناف سقاية الحجيج وضيافتهم ووفادتهم .
وقد بقي هذا التقسيم المتفق عليه ساري المفعول إلى زمن ظهور الإسلام^(١) .

٤ . هاشم :

وهو الجدُّ الثاني لني الإسلام واسمه « عَمْرُو » ولقبه « العُلاء » وهو الَّذِي وُلِدَ مع « عبد شمس » توأمين ، وأخواه الاخران هما : « المطلب » و « نوفل » .
هذا وثمة خلاف بين ارباب السير وكتاب التاريخ في أن هاشماً وعبد شمس كانا توأمين ، وأن هاشماً ولد واصبع واحدة من اصابع قدمه ملصقة بجبهة « عبد شمس » وقد نزعت بسيلان دم ، فتشاءم الناس لذلك^(٢) يقول الحلبي في سيرته : فكانوا يقولون : سيكون بينهما دم فكان بين ولديهما اي بين بني العباس

١ . لم تكن هناك مناصب للكعبة يوم أسست وُفِع قواعدها بل حدث كل ذلك تدريجاً بحكم المقتضيات والتطورات ، وكانت هذه المناصب التي استمرت إلى زمن ظهور الإسلام عبارة عن :

١ . سدانة الكعبة .

٢ . سقاية الحجيج .

٣ . وفادتهم وضيافتهم .

٤ . زعامة المكيين وقيادة جيشهم . ولم يكن هذا الأخير منصباً ذا صبغة دينية .

٢ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ١٣ .

(وهم من اولاد هاشم) وبين بني امية (وهم من اولاد عبد شمس)^(١) .

وكأن كاتب السيرة قد تجاهل الحوادث المحزنة والمؤسفة التي وقعت بين بني امية وابناء علي عليه السلام في حين أن تلك الحوادث الدامية التي تسببها بنو امية وأهريق فيها دماء ذرية رسول الله وعترته الطاهرة ، اقوى شاهد على تلك العداوة بين هاتين الطائفتين ، ولكننا لا ندرى لماذا تجاهل ذكرها مؤلف السيرة الحلبية ولم يشر اليها مطلقاً!

ثم ان من خصوصيات أبناء « عبد مناف » حسبما يُستفاد من الأدب الجاهلي ، وما جاء فيه من أشعار ، أنهم توفوا في مناطق مختلفة.

فهاشم . مثلاً . توفي في « غزة » وعبد شمس مات في مكة ، ونوفل في ارض العراق ، والمطلب في ارض اليمن^(٢) .

وكان من سجايا هاشم واخلاقه الفاضلة أنه كان كلما هَلَّ هلال شهر ذي الحجة قام صبيحته ، وأسند ظهره إلى الكعبة المشرفة ، وخطب قائلاً :

« يا معشر قريش إنكم سادة العرب وأحسنها وجوهاً ، وأعظمها احلاماً (اي عقولا) وأوسط العرب (أي أشرفها) أنساباً ، واقرب العرب بالعرب أرحاماً .

يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله تعالى اكرمكم الله تعالى بولايته ، وخصكم بجواره ، دون بني إسماعيل ، وانه ياتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من اكرم أضياف الله انتم ، فاكرموا ضيفه وزواره ، فانهم يأتون شعناً غبراً من كل بلد على ضوامر كالقдах ، فاكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذه البنية لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم يُقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يُدخل فيه حرام ، فمن شاء منكم ان يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بجرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصبا »^(٣) .

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٤ .

٢ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٥ .

٣ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٦ .

ولقد كانت زعامة « هاشم » وقيادته نافعة للمكيين من جميع النواحي ، وكان لها تأثيرٌ كبير في تحسين أوضاعهم.

ولقد سبب كرمه وما قام به من إطعام واسع في سنوات الجذب القاسية في تخفيف شدة الوطأة عن أهل مكة ، وبالتالي ادى إلى عدم احساسهم بالقحط ، وآثار الجذب. كما أن من خطواته البارزة واعماله النافعة جدا لتحسين الحالة التجارية للمكيين هو ما عقده مع أمير « غسان » من المعاهدة ، الأمر الذي دفع بأخيه « عبد شمس » إلى أن يعاهد أمير الحبشة ، وبأخويه الآخرين « المطلب » و « نوفل » إلى ان يعاهدا أمير اليمن وملك ايران تكون القوافل التجارية بموجب تلك المعاهدات للجانبين في أمان ، من العدوان والتعرض.

وقد أزلت هذه المعاهدات الكثير من المشاكل ، وكانت وراء ازدهار التجارة في « مكة المكرمة » حتى عهد بزوغ شمس الإسلام.

ثم ان من أعمال « هاشم » وخطواته النافعة تأسيسه لرحلتي قريش اللتين يتحدث عنهما القرآن الكريم إذ يقول : « رحلة الشتاء والصيف » وهما رحلة إلى الشام ، وكانت في الصيف ، ورحلة إلى اليمن ، وكانت في الشتاء ، وقد استمرت هذه السيرة حتى ما بعد ظهور الإسلام ايضا.

أمية بن عبد شمس يحسد هاشما :

ولقد حسد « أمية بن عبد شمس » ابن أخي هاشم عمّه « هاشما » على ما حظي به من المكانة والعظمة ، والنفوذ إلى قلوب الناس وجذبها نحوه بسبب خدماته وأياديه ، وما كان يقوم به من بذل وانفاق ، وحاول جاهداً ان يقلده ويتشبه بهاشم في سلوكه ولكنه رغم كل ما قام به من جهود ومحاولات لم يستطع أن يتشبه به ويتخذ سيرته ، وكما لم يستطع بايقاعه وطعنه به ان يُقلل من شأنه بل زاده رفعة وعظمة.

لقد كان لهيب الحسد في قلب « أمية » يزداد اشتعالا يوماً بعد يوم ، حتى

دفع به إلى ان يدعو عمّه « هاشما » للذهاب إلى كاهن من كهنة العرب للمنافرة عنده فتكون الرياسة والزعامة لمن يمدحه ذلك الكاهن ، وكانت عظمة « هاشم » وسمو مقامه تمنع من منافرة ابن اخيه (أمية) إلا أنه رضي بالمنافرة هذه تحت اصرار (أمية) بشرطين :

١ . أن يعطي المغلوب خمسين من النياق سود الحدق تنحر بمكة .

٢ . جلاء المغلوب عن مكة عشر سنين .

ومن حسن الحظ أن ذلك الكاهن نطق بمدح « هاشم » بمجرد أن وقعت عيناه عليه فقال : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ... لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر » إلى آخر كلامه . وهكذا قضى لهاشم بالغبلة فأخذ الابل فحرها وأطعمها واضطر أمية إلى الجلاء عن مكة والعيش بالشام عشر سنين ^(١) .

وقد استمرت آثار هذا الحسد التاريخي إلى ١٣٠ عاماً بعد ظهور الإسلام ، وتسببت في جرائم وفجائع كبرى عديمة النظير في التاريخ .

ثم ان القصة السابقة مضافاً إلى انها تبين مبدأ العداوة بين الأمويين والهاشميين تبين أيضاً علل نفوذ الأمويين في البيئة الشامية ، ويتبين أن علاقات الأمويين العريقة بأهل هذه المنطقة هي التي مهّدت لقيام الحكومة الأموية في تلك الديار .

هاشم يتزوج ...

كانت « سلمى » بنت « عمرو الخزرجي » امرأة شريفة في قومها ، قد فارقت زوجها بطلاق ، وكانت لا ترضى بالزواج من أحد ، ولدى عودة « هاشم » من بعض أسفاره نزل في يثرب أياماً فخطبها إلى والدها ، فرغبت سلمى فيه لشرفه في قريش ، ولنبله وكرمه ، ورضيت بالزواج منه بشرطين : أحدهما أن لا تلد ولدها

١ . الكامل لابن الاثير : ج ٢ ، ص ١٠ ، والسيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٤ .

إلا في أهلها ، وحسب هذا الاتفاق بقيت « سلمى » مع زوجها « هاشم » في مكة بعض الوقت حتى إذا ظهر عليها آثار الحمل رجعت إلى : « يثرب » وهناك وضعت ولداً اسمه « شيبه » . وقد اشتهر في ما بعد بـ « عبد المطلب » .

وكتب المؤرخون في علة تسميته بهذا الاسم بأن هاشماً لما أحسّ بقرب انصرام حياته قال لآخيه « المطلب » : يا أخي أدرك عبدك شيبه . ولذلك سُمِّيَ شيبه بن هاشم : « عبد المطلب » .

وقيل أن أحد المكيين مرّ على غلمان يلعبون في زقاق من أزقة يثرب ، ويتضلون بالسهام ، ولما سبق أحدهم الآخرين في الرمي قال مفتخراً : « أنا ابن سيّد البطحاء » فسأله الرجل عن نسبه وابه فقال : أنا شيبه بن هاشم بن عبد مناف ، فلما قدم الرجل مكة اخبر « المطلب » أخي « هاشم » بما سمعه وراه ، فاشتاق « المطلب » إلى ابن أخيه فذهب إلى المدينة ، ولما وقعت عيناه على ابن أخيه « شيبه » عرف شبه أخيه هاشم ، وتوسّم فيه ملامحه ، ففاضت عيناه بالدموع ، وتبادلا قُبُلات الشوق ، والمحبة ، وأراد أن يأخذه معه إلى « مكة » وكانت أمه تمنع من ذلك ، ولكن ممانعتها كانت تزيد من عزم العمّ على أخذه إلى « مكة » واخيراً تحققت أمنية العم فقد استطاع « المطلب » أن يحصل على اذن أمه ، فاردفه خلفه وتوجّه حذب « مكة » تدفّعه رغبة طافحة إلى إيصاله إلى والده هاشم .

وفعلت شمس الحجاز واشعتها الحارقة فعلتها في هذه الرحلة فقد غيّرت لون وجه شيبه وأبلت ثيابه ، ولهذا ظنّ أهل « مكة » عند دخوله مع عمه « مكة » أنه غلام اقتناه « المطلب » فكان يقول بعضهم لبعض : هذا عبد المطلب ، وكان المطلب ينفي هذا الأمر ، ويقول : إنما هو ابن أخي هاشم وما هو بعدي ، ولكن ذلك الظن هو الآخر فعل فعلته ، وعُرف « شيبه » بعبد المطلب ^(١) .

وربما يقال : أن سبب شهرته بهذا الإسم هو انه تربى وترعرع في حجر عمّه

١ . الكامل لابن الاثير : ج ٢ ، ص ٦ ، وتاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٨ و ٩ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٦ .

« المطلب » وكانت العرب تسمي من يتزعرع في حجر أحد وينشأ تحت رعايته عبداً لذلك الشخص تقديراً لجهوده وتثميناً لرعايته.

٥ . عبد المطلب :

عبد المطلب بن هاشم وهو الجد الأول للنبي ﷺ كان رئيس قريش وزعيمها المعروف ، وكانت له مواقف بارزة ، وأعمال عظيمة في حياته ، وحيث أن ما وقع من الحوادث في أيام حكمه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإسلام ولهذا يتعين علينا دراسة بعض تلك الحوادث والوقائع.

لا شك أن المرء مهما تمتع بنفسية قوية فإنه سيتأثر . في المال . ببيئته وعاداتها ، وتقاليدها ، التي تصبغ فكره ، بصبغة خاصة ، وتطبع عقله بطابع معين .
بيد أن هناك بين الرجال من يقاوم تأثير العوامل البيئية بمنتهى الشجاعة والشجاعة ، ويصون نفسه من التلوث بشيء من أدائها وأقدارها.

وبطل حديثنا هنا هو أحد النماذج الصادقة لأولئك الرجال العظماء لان في حياته صفحات مشرقة عظيمة ، وسطوراً لا معة تنبئ عن نفسيته القوية ، وشخصيته الشامخة .
فان الذي يعيش ثمانين عاماً في وسط اجتماعي تسود فيه الوثنية ، ومعاقرة الخمر ، والربا ، وقتل الأنفس البريئة ، والفحشاء حتى ان هذه الامور كانت من العادات والتقاليد الشائعة ، ولكنه مع ذلك لم يعاقر الخمر طوال حياته ، وكان ينهى عن القتل والخمر والفحشاء ، ويمنع عن الزواج بالمحارم ، والطواف بالبيت المعظم عرياناً ، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد ، واداء النذر بلغ الامر ما بلغ ، هو . حقاً . نموذج صادق من الرجال الذين يندر وجودهم ، ويقبل نظيرهم في المجتمعات .

أجل إن شخصية اودعت يد المشيئة الربانية بين حناياها نور النبي الاكرم أعظم قائد عالمي ، يجب ان يكون إنساناً طاهر السلوك ، نقيّ الجيب منزهاً عن أي نوع من أنواع الانحطاط ، والفساد .

هذا ويستفاد من بعض قصصه وكلماته القصار أنه كان أحد الرجال المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر في تلك البيئة المظلمة ، وكان يردُّ دائماً : « لَنْ يخرج من الدنيا ظلومٌ حتَّى ينتقم منه ، وتصيِّبه عقوبة ... والله ان وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسنُ بإحسانه ، ويعاقبُ فيها المسيءُ باسائه »^(١) اي ان الظلوم شأنه في الدنيا أن تصيبه عقوبة ، فاذا خرج ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة.

ولقد كان « حرب بن أمية » من أقربائه ، وكان من اعيان قريش ووجهها أيضاً ، وكان يجاور يهوديا فاتفق أن وقع بينه وبين حرب نزاع في بعض اسواق تهامة ، تبودلت بينهما فيه كلمات جارحة ، وانتهى ذلك إلى مقتل اليهودي بتحريك من « حرب » ، ولما علم « عبد المطلب » بذلك قطع علاقته بحرب ، وسعى في أستحصال دية اليهودي المقتول من « حرب » ودفعها إلى اولياء القتيل ، وهذه القصة تكشف عن حب عبد المطلب للمستضعفين والمظلومين وحبه للحق والعدل.

خَفَر زَمْرٍ :

منذ أن ظهرت عين زمزم نزلت عندها قبيلة جُرهم التي كانت بيدها رئاسة مكة طوال سنين مديدة ، وكانت تستفيد من مياه تلك العين ، ولكن مع ازدهار أمر التجارة في « مكة » ، واقبال الناس على الشهوات والمفاسد آل الأمر إلى جفاف تلك العين ، ونضوب مائها بالمرّة^(٢).

ويقال : أن قبيلة « جُرهم » لما واجهت تهديداً من جانب قبيلة خزاعة

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٤ .

٢ . لا ريب أن تفشي الذنوب والمعاصي بين الناس من عوامل نزول البلايا والكوارث ولا يبعد أن تكون الأعمال المخزية من موجبات الجذب والقحط والمجاعات ، وهذه الحقيقة مضافاً إلى انطباقها على القواعد الفلسفية ممّا صرح به القرآن الكريم والسنة الشريفة ، راجع سورة الأعراف ، الآية : ٩٦ .

واضطرت إلى مغادرة تلك الديار ، وايقن زعيمها « مضامن بن عمرو » بانه سرعان ما يفقد زعامته ، ويزول حكمه وسلطانه بفعل هجوم العدو ، امر بان يُلقى الغزالان الذهبيان ، والسيوف الغالية الثمن التي كانت قد أُهديت إلى الكعبة ، في قعر بئر زمزم ، ثم يملأ البئر بالتراب ويعفى اثره إعفاء كاملاً حتى لا يهتدي خصومه إلى مكانه ابداً ، حتى إذا عادت إليه زعامته وعاد إلى مكة استخرج ذلك الكنز الدفين ، واستفاد منه . ثم نشب القتال بين « جرهم » و « خزاعة » واضطرت « جرهم » وكثير من ابناء اسماعيل إلى مغادرة « مكة المكرمة » ، والتوجه إلى ارض اليمن ، ولم يرجع أحدٌ منهم إلى « مكة » ابداً .

ووقعت زعامة مكة منذ هذا التاريخ بيد « خزاعة » حتى بزغ نجم قريش في سماء مكة بوصول قصي بن كلاب (الجلد الرابع لنبي الإسلام) إلى سدة الزعامة والرئاسة ، ثم بعد مدة انتهى امر الزعامة إلى « عبد المطلب » فعزم على أن يحفر بئر « زمزم » من جديد ، ولكنه لم يعرف بموقع البئر معرفة كاملة حتى إذا عشر عليه بعد بحث طويل قرأ ان يهيء هو وولده « حارث » مقدمات ذلك .

وحيث أنه « يوجد في المجتمع دائماً من يتحجج ويجادل . بسبب سلبيته . ليمنع من أي عمل ايجابي مفيد ، انبرى منافسوا « عبد المطلب » إلى الاعتراض على قراره هذا وبالتالي التفرد باعادة حفر بئر زمزم ، لكيلا يذهب بفخر هذا العمل العظيم ، وقالوا له : إنما بئر أبينا اسماعيل ، وان لنا فيها حقاً فاشركنا معك » ولكن « عبد المطلب » رفض هذا الطلب لبعض الاسباب ، فقد كان « عبد المطلب » يريد ان يتفرد بحفر زمزم ، ويسبّل ماءها ليسقي منها جميع الحجيج دون مانع ولا منازع ، ويحول بذلك دون المتاجرة به ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا إذا قام بحفر زمزم بوحده دون مشاركة من قريش .

وقد آل هذا الأمر إلى النزاع الشديد فتقرر أن يتحاكموا إلى كاهن من كهنة العرب وعقلائهم والقبول بما يقضي به ، فتوجه « عبد المطلب » ومنافسوه إلى ذلك الكاهن وقطعوا الصحارى القاحلة بين الحجاز والشام ، وفي منتصف الطريق أصابهم جهدٌ وعطش شديدان ، ولما تيقنوا بالهلاك ، وقرب الوفاة اخذوا

يفكرون في كيفية الدفن إذا هلكوا وماتوا ، فاقترح « عبد المطلب » ان يبادر كل واحد إلى حفر حفرة حتى إذا أدركه الموت دفنه الآخرون فيها ، فاذا استمر بهم العطش وهلكوا يكون الجميع (ما عدا من بقي منهم على قيد الحياة) قد أقبروا ، ولم تغد ابدانهم طعمة للوحوش والطيور فأيد الجميع هذا الاقتراح ^(١) ، واحتفر كل واحد منهم حفرة لنفسه ، وجلسوا ينتظرون الموت بوجوه واجمة ، وعيون ذابلة ، وفجأة صاح عبد المطلب : « واللّه إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنا لعجز » وحثهم على البحث عن الماء في تلك الصحراء بصورة جماعية عسى ان يجدوا ما ينقذهم من الموت ، فركب عبد المطلب وركب مرافقوه ، واخذوا يبحثون عن الماء يائسين غير مصدّقين ، ولم يمض شيء حتى ظهرت لهم عين ماء عذبة انقذتهم من الموت المحتم ، وعادوا من حيث جاؤوا وهم يقولون لعبد المطلب : « قد واللّه قضى لك علينا يا عبد المطلب ، واللّه لا نخاصمك في زمزم أبداً ، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً وتنازلوا له لينفرد بحفر زمزم ويكون إليه أمره دون منازع ، ولا شريك » ^(٢) .

فعمد « عبد المطلب » وولده الوحيد الحارث إلى حفر البئر ، ونشأ من ذلك تلٌّ هائلٌ من التراب حول البئر ، وفجأة عثر « عبد المطلب » على الغزالين المصاغين من الذهب ، والسيوف المرصعة المهداة إلى الكعبة ، فشبّ نزاع آخر بين « قريش » وبين « عبد المطلب » على هذه الاشياء ، واعتبرت « قريش » نفسها شريكة في هذا الكنز ، وتقرر ان يلجأوا إلى القرعة لحل هذا المشكلة ، فخرجت القرعة باسم « عبد المطلب » ، وصار جميع ذلك الكنز إليه دون « قريش » ، ولكن عبد المطلب خصّ بتلك الاشياء الكعبة فصنع من السيوف باباً للكعبة ، وعلق الغزالين الذهبيّين فيها.

١ . ولعل احجام الآخرين من الاداء بالاقتراح وهو اليأس المطلق من تحصيل الماء .

٢ . تاريخ اليعقوبي : ج ١ ، ص ٢٠٦ ، والسيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٤٢ . ١٤٧ .

التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر :

رغم ان العرب الجاهليين كانوا غارقين في الفساد الأخلاقي فانهم كانوا يتحلون ببعض الصفات الحسنة ، والخصال المحببة .

وللمثال كان نقض العهود من أقبح الافعال في نظرهم ، فاذا عقدوا عهداً مع القبائل العربية أو ثقوها بالآيمان ، المغلظة المؤكدة ، والتزموا بها إلى الاخير ، وربما نذروا النذور الثقيلة واجتهدوا في اداءها مهما كلف ذلك من مشقة وثمن .

ولقد أحسن « عبد المطلب » عند حفر بئر زمزم بالضعف في قريش لقللة اولاده ، ولهذا نذر إذا رزقه الله تعالى عشرة بنين أن يقدم أحدهم قربانا للكعبة ولم يُطَلع احدا على نذره هذا .

ولم يمض زمان الا وبلغ عددُ ابناؤه عشرة ، وبذلك حان أوان وفائه بنذره الذي نذر ، وهو ان يذبح احدهم قربانا للكعبة .

ولا شك ان تصور مسألة كهذه فضلا عن تنفيذه كان امرا في غاية الصعوبة على عبد المطلب ، ولكنه كان في نفس الوقت يخشى ان يعجز عن تحقيق هذا الامر فيكون من الناقضين للعهد ، التاركين لاداء النذر ، ومن هنا قرآن يشاور ابناؤه في هذا الامر ، وبعد ان يكسب رضاهم وموافقتهم يختار احدهم للذبح بالقرعة^(١) .

وتمت عملية القرعة ، فاصابت « عبد الله » والد رسول الله ﷺ فاخذ عبد المطلب بيد ابنه ، وتوجّه من فوره إلى حيث يذبحه فيه .

ولما علمت قريش رجالها ونساؤها بقصة النذر المذكور وما آلت إليه عملية القرعة جنّوا الناس والشباب خاصة لذلك حزنا شديداً وبكوا وضجوا ، وقال أحدهم ليتني ذبحت مكان هذا الشاب .

١ . هذه القضية ذكرها كثير من المؤرخين وكتاب السيرة ، وهذه القصة إنما هي جديرة بالاهتمام من جهة أنها تجسّد مدى إيمان « عبد المطلب » وقوة عزمه ، وصلابة إرادته ، وتبين جيّداً كم كان مصراً على الوفاء بعهوده والتزاماته .

فاقتزحت قريش على عبد المطلب بان يفدي « عبد الله » ، واطهروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز ذلك ، فتحيّر « عبد المطلب » تجاه تلك المشاعر الساخنة ، والاعتراضات القوية ، وراح يفكّر في عدم الوفاء بنذره ، ويفكر في نفس الوقت في الحصول على مخلص معقول من هذه المشكلة ، فقال له أحدهم : لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً .

فوافق « عبد المطلب » وأكابر قريش على هذا الاقتراح ، وتوجهوا بأجمعهم نحو « يثرب » قاصدين ذلك الكاهن ، ولما قدموا عليه سألوه في ذلك فاستمهلهم يوماً واحداً ، ولما كان اليوم الثاني دخلوا عليه فقال لهم : كم دية المرء عندكم؟ قالوا : عشر من الإبل . فقال : إرجعوا إلى بلادكم ، وقربوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم « أي عبد الله » القداح فان خرجت القرعة على صاحبكم فزيدوا عشراً ، حتى يرضى رثكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي رثكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداء .
فهذا اقتراح الكاهن لهيب المشاعر الملتهبة لدى الناس ، لأن نحر مئات الإبل كان أسهل عليهم من أن يشاهدوا شابا مثل « عبد الله » يتشحط في دمه .

ولهذا فاتهم فور عودتهم إلى « مكة » بادروا إلى اجراء القرعة في مجمع كبير من الناس وزادوا عشرا عشرا حتى إذا بلغ عدد الإبل مائة خرجت القداح على الإبل ، ونجا « عبد الله » من الذبح ، فأحدث ذلك فرحة كبيرة لدى الناس ، بيد أن « عبد المطلب » طلب أن تُعاد عملية القرعة قائلًا : « لا والله حتى أضرب ثلاثا » ، وأما أراد ذلك ليستيقن ان ربه قد رضي عنه ، ولكن في كل مرة كانت القداح تخرج على الإبل المائة فنحرت الإبل ثم تركت لا يمنع عنها انسان ولا سبع ^(١) .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٥٣ ، وبحار الانوار : ج ١٦ ، ص ٧٤ ، وقد نُقلَ عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » يقصد بالأول جدّه إسماعيل عليهما السلام والثاني أباه « عبد الله » الذي كاد أن ينحر ولكنه نجا من الذبح كما نجا جدّه إسماعيل عليهما السلام .

حادثة عام الفيل :

عندما يجحدُ أمرٌ عظيم في أمة من الأمم وخاصة إذا كان ذا جذور دينية أو ذا مدلولات قومية أو سياسية فإنه سرعان ما يتحول . بفعل إعجاب الناس عامة به . إلى مبدأ للتاريخ . فقيام النبي موسى يعتبر مبدأ للتاريخ عند اليهود ، ومولد السيد المسيح يعتبر مبدأ للتاريخ عند النصارى ، والهجرة النبوية الشريفة تعتبر مبدأ للتاريخ عند المسلمين . وهذا يعني أن كل أمة من الأمم تقيس حوادثها من حيث الزمان بذلك الحدث الذي تعتبره بداية تاريخها .

وأحياناً تتخذُ الأمم والشعوب بعض الحوادث مبدأ للتاريخ مع انها تملك مبدأ سياسياً للتاريخ ، كما نلاحظ ذلك في بلاد الغرب وشعوبه ، فقد اتخذت الثورة الفرنسية ، وثورة أكتوبر الشيوعية مبدأ للتاريخ في فرنسا ، والاتحاد السوفياتي ، بحيث أصبح يقاس بهما كل ما وقع من الحوادث بعدهما .

ولكن الشعوب غير المتحضرة التي لم تمتلك مثل تلك الثورات والحركات السياسية والدينية كان من الطبيعي أن تتخذ الحوادث الخارقة للعادة مبدأ لتاريخها بدلا من الثورات والتحوّلات الاجتماعية ، وهذا ما حدث عند العرب وقبل الإسلام .

فانهم . بسبب حرمانهم من حضارة صحيحة . اتخذوا من بعض الوقائع المفجعة والمرة . كالحرب والزلازل ، والجاعة والقحط أو الحوادث غير الطبيعية ، الخارقة للعادة مبدأ لتاريخهم . ولهذا نجد مبادئ متعددة للتاريخ عند العرب ، آخرها : ضجة عام الفيل وهجوم « أبرهة » على « مكة » بهدف الكعبة المشرفة ، التي صارت في ما بعد مبدأ للتاريخ تؤرخ . بقية الحوادث والوقائع اللاحقة .

ونظرا لأهمية هذا الحدث التاريخي العظيم الذي وقع عام ٥٧٠ وأتفقت فيه

ولادة النبي الكريم ﷺ فاننا نتناول هذه القصة بالعرض والتحليل :

ما هي عوامل هذه الحادثة؟

لقد ذكرت قصة أصحاب الفيل في القرآن بصورة مختصرة ، وسوف ننقل . هنا . الآيات التي نزلت حول هذه القصة بعد حوادثها .

يكتب المؤرخون عن علة هذه الحادثة ان ملك اليمن « ثبان أسعد » والد ذي نواس بعد ان أرسى قواعد حكمه مر في احدى رحلاته على يثرب (المدينة) ، وقد كانت لـ « يثرب » في ذلك الوقت مكانة دينية مرموقة فقد قطنها جماعة من اليهود^(١) ، وبنوا فيها عدداً من المعابد والهياكل ، فأكرم اليهودُ مقدم ملك اليمن ، ودعوه إلى دينهم ليستطيعوا في ظل حكمه حماية أنفسهم من أذى المسيحيين الروميين ، والمشركين العرب .

ولقد تركت دعوتهم وما رافقها من اساليب مؤثرة اثرها في نفس ذلك الامير واختار اليهودية ، واجتهد في بثها ونشرها . ثم ملك من بعده ابنه « ذونواس » الذي جد في بث اليهودية والتحق به جماعة خوفاً .

بيد أن اهل نجران الذين كانوا قد دانوا بالمسيحية قبل ذلك امتنعوا من تغيير دينهم وترك المسيحية واعتناق اليهودية ، وقاوموا « ذي نواس » مقاومة شديدة ، فشق ذلك على ملك اليمن ، واغضبه فتوجه احد قادته إلى نجران على رأس جيش كبير لتأديب المتمردين من أهلها فعكسر هذا الجيش على مشارف نجران ، واحتفر قاعدة خندقاً كبيراً ، واوقد فيه ناراً عظيمة ، وهدد المتمردين بالاحراق بالنار .

ولكن أهل نجران الذين احبوا المسيحية واعتنقوها برغبة كبيرة اظهروا شجاعة كبرى ، واستقبلوا الموت حرقاً ، وغدوا طعمة للنيران .

يقول المؤرخ الإسلامي « ابن الاثير الجزري » بعد ذكر هذه القصة : لما قتل

١ . وفاء الوفا : ج ١ ، ص ١٥٧ ، والسيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢١ و ٢٢ .

« ذونواس » من قتل في الأخدود لاجل العود عن النصرانية أفلت منهم رجل يقال له « دوس » فقدم على « قيصر » فاستنصره على « ذي نواس » وجنوده واخبره بما فعل بهم ، فقال له قيصر : بعدت بلادك عنا ، ولكن ساكتبُ إلى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم ، فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره ، فارسل معه ملكُ الحبشة سبعين الفاً ، وأمر عليهم رجلاً يقال له « أرباط » وفي جنوده « أبرهة الأشرم » فساروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمن ، وجمع « ذونواس » جنوده فاجتمعوا وكتب إلى زعماء قومه من اهل اليمن يدعوهم إلى الاجتماع لمقاتلة عدوهم ، فلم يجيبوه ، فانهارت حكومته أمام حملة جيش الحبشة ، وسيطر الاحباش على أرض اليمن ، وجعل « أبرهة » اميراً عليها من قبل « النجاشي » بعد مقتل « ارباط » على يد « أبرهة » في صراع السلطة .^(١)

وهذه القصة هي التي تعرف في القرآن الكريم بقصة « اصحاب الأخدود » وقد جاء ذكرها في سورة البروج إذ يقول الله تعالى : « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْهُمْ عَلَيْهَا قُوعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنَّهُ يَوْمِنَا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »^(٢) . وقد ذكر المفسرون هذه القصة في شأن نزول هذه الآيات بصورة مختلفة^(٣) .

ثم ان « أبرهة » الذي اسكره الانتصار والغلبة على منافسه ، وتمادى في الشهوات بنى في صنعاء كنيسة عظيمة تقرباً إلى ملك الحبشة ، وارضاء له ثم كتب كتاباً إلى « النجاشي » ملك الحبشة يقول فيه : « إني قد بنيت لك ايها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى اصرف اليها حج العرب » .

١ . الكامل في التاريخ : ج ١ ، ص ٢٦٠ - ٢٦٣ ، والسيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣١ - ٣٧ .

٢ . البروج : ٩ - ٤ .

٣ . راجع مجمع البيان : ج ٥ ، ص ٤٦٤ - ٤٦٦ .

وقد أدى معرفة العرب بما جاء في هذا الكتاب إلى ردّة فعل شديدة لديهم ، إلى درجة أن امرأة من قبيلة « بني اقم » تسللت ذات ليلة إلى تلك الكنيسة وحدثت فيها ، فأثار هذا العمل الذي كان يدل على مدى ازدياد العرب بكنيسة « أبرهة » واحتقارهم لها ، غضب « أبرهة » ، هذا من جانب ومن جانب آخر كان « ابرهة » كلما زاد في تزيين تلك الكنيسة زاد ذلك من حقد العرب ، وحنقهم عليه ، واحتقارهم لكنيسته ، فتسبب كل ذلك في أن يحلف أبرهة على السير إلى الكعبة وهدمها ، فسير لذلك جيشاً عظيماً ، وقدم أمامه الفيّلة المقاتلة ، وخرج متوجهاً صوب مكة وهو يعتزم هدم الكعبة بيت الله الحرام!!

فلما عرف زعماء العرب بغايته ، وادركوا خطورة ذلك العمل وايقنوا بان استقلال العرب وسيادتهم تتعرض لخطر السقوط ، لم يمنعهم ما عهدوه من قوة « ابرهة » وانتصاراته بل خرج بعضهم إلى حربه فقاتلوه بكل شجاعة وبسالة مدفوعين بدافع الغيرة والحفاظ على الشرف المهتدّ بالخطر.

فقد خرج « ذونفر » وهو من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، ودعا قومَه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب « أبرهة » ولكن سرعان ما تغلّب « ابرهة » عليه بجيشه الكبير ، ثم خرج له بعد ذلك « نفيل بن حبيب » وبقي يقاتله مدة طويلة فهزمه « ابرهة » وأخذ له اسيراً ، فطلب « نفيل » العفو منه فاشتراط عليه أن يدلّه على طريق مكة ليعفو عنه ، فدلّه نفيل حتّى الطائف ، واوكل الدلالة على بقية الطريق إلى شخص آخر يدعى « ابورغال » فدله ابورغال على الطريق حتى أرض « المغمّس » وهي منطقة قريبة من « مكة » فنزل « أبرهة » وجيشه بالمغمّس ، فارسل أبرهة رجلاً من الحبشة . على عادته . إلى ضواحي « مكة » فاستولى على أموال قريش من الإبل والغنم فساق إليه في جملة ذلك مائتي بعير لعبد المطلب ، ثم امر رجلاً آخر يدعى « حنّاطة » ليدخل « مكة » ويبلغ أهلها عنه ما جاء من اجله ، وهو هدم البيت المحرم الكعبة المعظمة ، وقال له : سل عن سيد اهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : ان الملك يقول لك : « إني لم آت لحربكم ، انما جئتُ لهدم هذا البيت ، فان تعرّضوا دونه بحرب فلا حاجة لي في

دمائكم» ، فإن هو لم يرد حرّبي فاتني به.

فدخل « حنّاطة » مكة ولما سأل عن سيد قريش وشريفها ، وقد كانت قبائل قريش المختلفة قد تجمعت في اطراف البلد جماعات جماعات تتذاكر في امر « ابرهة » وما يجب اتخاذه من موقف تجاهه.

فدلّوه على بيت « عبد المطلب » ، ولما دخل على « عبد المطلب » أبلغه مقالة « أبرهة » فقال له عبد المطلب : « واللّه ما تُريدُ حرّبه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وان يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ؟»

فسر « حنّاطة » رسول ابرهة بمنطق عبد المطلب ومقالته التي كانت تحكي عن قوة ايمانه ، وعن روحه المسالمة فطلب منه أن يصحبه إلى « أبرهة » ، قائلاً : فانطلق معي إليه فانه قد امرني لآتيه بك.

عبد المطلب يذهب إلى معسكر أبرهة :

فتوجه عبد المطلب هو وجماعة من ولده إلى معسكر ابرهة ، فاعجب « أبرهة » بوقار رئيس قريش وهيبته إعجاباً شديداً ، وبهر به حتّى أنه نزل له من تحتة اجلالاً ، واخذ بيده ، واجلسه إلى جنبه ، فسأله عن طريق مترجمه متأدباً : ما الذي اتى به وماذا يريد؟ فأجابه عبد المطلب قائلاً : حاجتي أن يرّد الملك عليّ مائتي بعير أصابها لي .

فقال « أبرهة » لترجمانه : قل له : قد كنت اعجبتي حين رأيتك ، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتي ، أتكلمني في مائتي بعير اصبّتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمني فيه؟!!

فقال له عبدالمطلب : إني أنارُبُ الإبل ، وان للبيت رباً سيمنعه ، فقال « ابرهة » مغترا بنفسه : ما كان ليمنتع مني .

ثم أمر بان ترد الابل إلى أصحابها.

إنتظار قريش :

ولقد انتظرت قريش عودة « عبد المطلب » من معسكر « ابرهة » بفارغ الصبر لتعرف نتيجة ما دار بينه وبين أبرهة ، وعندما عاد « عبد المطلب » اخبرهم الخبر ، وامرهم بالخروج معه من مكة ، والتحرز في رؤوس الجبال من معزة الجيش فخرجوا إلى الشعاب ، والجبال ، ثم لما كان الليل نزل عبد المطلب مع جماعة من قريش إلى الكعبة واخذ بحلقة باهما يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال « عبد المطلب » مناجيا الله سبحانه : « اللَّهُمَّ أَنْتَ أَنْيَسُ الْمَسْتَوْحِشِينَ وَلَا وَحْشَةَ مَعَكَ فَالْبَيْتِ ، بَيْتِكَ وَالْحَرَمُ حَرَمُكَ وَالِدَارُ دَارُكَ وَنَحْنُ جِيرَانُكَ تَمْنَعُ عَنْهُ مَا تَشَاءُ وَرَبُّ الدَّارِ أَوْلَىٰ بِالدَّارِ » ثم قال :

لاهم إن^(١) العبد يمنع رَحْمَةً ————— له فامنع حلالك^(٢)
لا يغلبنَّ صلبهم ————— ومحالمهم عابدوا محالك^(٣)
وقال ايضا :

يا ربَّ لا أرجو لهم سواك يا ربَّ فامنع منهمو حماكا
إن عدوَّ البيت من عادك إيمانهم أن يخربوا فناكا
ثم انه ترك حلقة الباب ، ولجأ إلى الجبل لينظروا ما سيجري.

وفي الصباح وعندما كان « أبرهة » وجنده يستعدون للتوجه إلى « مكة » ، وإذا باسراب من الطيور تظهر من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة احجار ، حجر في منقاره ، وحجرين في رجله ، فاظلم سماء الجيش بتحليق تلك الطيور فوق رؤوس الجند ، وتركت تلك الاحجار الصغيرة الحقيرة في ظاهرها اثرها العجيب فقد رجمت تلك الطيور جنود « ابرهة » بتلك الاحجار بامر الله ، فكانت لا تصيب منهم أحداً إلا تحطم رأسه ، وتمزق لحم بدنه ، وهوى صريعاً ،

١ . لاهم أصلها : اللهم والعرب تحذف الالف واللام وتكتفي بما بقي .

٢ . الحلال جمع حلة وهي جماعة البيوت .

٣ . المحال : القوِّ والشقيِّ .

وهلك من توه ، فاصابت واحدةً من تلك الاحجار راس « ابرهة » نفسه فارتعدت فرائصه وايقن بغضب الله وسخطه عليه ، فنظر إلى جنوده وهم اشلاء ميثوثون هنا وهناك على الأرض كورق الشجر في فصل الخريف ، فصاح بمن لم يزل على قيد الحياة من جنده بامرهم بأن يتهيأوا للعودة إلى اليمن ، من حيث أتوا ، فاخذ بقية الجند طريق اليمن هارين ، غير أن هذه البقية قد هلكت شيئاً فشيئاً في اثناء الطريق حتى أن ابرهة نفسه بعد أن لم يصل إلى صنعاء إلا بعد ان تفرق لحم بدنه ، وسقطت اعضاؤه وجوارحه ومات بصورة عجيبة .

وقد دعى صوت هذه الواقعة العجيبة والرهيبية في العالم آنذاك ، وقد ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل إذ يقول تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَرُّبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . لَمْ يَجْعَلْ لِكَيْدِهِمْ فِي تَضَلُّلٍ . وَرَسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِنْ سَبْجِيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ . » .

وما ذكرناه هنا . في هذه الصفحات . ليس هو في الحقيقة إلا خلاصة ما ود في كتب التاريخ الإسلامي ، وصرح به القرآن الكريم ^(١) .

واستكمالاً لهذا البحث نعمد هنا إلى دراسة نظرية المفسر المصري الكبير الشيخ « محمد عبده » والعلامة المعروف الدكتور « هيكل » وزير الثقافة المصري السابق في هذا المجال .

كلمة حول المعجزة :

لقد أوجد التقدم العلمي الأخير في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والفضائية ، وما استلزم ذلك من تحافت طائفة كثيرة من الفرضيات ، ضجة عجيبة في الغرب ، فمع أن جميع تلك التطورات كانت مجرد تطورات علمية تجري في مجال المسائل الطبيعية أو الفلكية ، ولم يكن لها أية صلة بالمعتقدات الدينية

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٣ . ٦٢ ، والكامل في التاريخ ج ١ ، ص ٢٦٠ . ٢٦٢ ، وبحار الأنوار : ج ٥ ، ص ١٣٠ . ١٤٦ .

فإن هذا التحول والتطور وتلك الكشوف أوجدت شكاً عجبياً لدى بعض الناس انسحب على جميع المعارف والمعتقدات الدينية الموروثة على وجه الإطلاق!

والسرّ في ذلك هو أن العلماء رأوا بأن الفرضيات القديمة ، التي بقيت تسيطر على الأوساط العلمية لمدة طويلة من الزمان ، قد أصبحت اليوم عرضة للبطلان والسقوط تحت مطارق التجربة وبواسطة الاختبارات العلميّة ، والتحقيقات المختبرية ، فلم يُعد . بعد هذا . مجالاً للقول بفرضية الافلاك التسعة التي طلّع بها « بطليموس » ، ولا بفرضية مركزية الارض ، ولا غيرها من عشرات الفرضيات ، فقالوا في أنفسهم : ومن أين تَبْرَى لا تكون بقية المعلومات والمعارف الدينية من هذا القبيل؟!

وقد تفاقم هذا النوع من الشك في قلوب جماعة من العلماء بالنسبة إلى جميع المعتقدات والمعارف الدينية ونمى بشكل قويّ في فترة قصيرة ، وعمّ الاوساط العلمية كأَيّ مرض!!

هذا مضافاً إلى أن محاكم التفتيش وتشدّد الكنيسة وأربابها كان لها النصيب الأكبر في ظهور هذه الحالة بل في نموّها ، واطرادها ، لأن الكنيسة كانت تقضي على العلماء الذين نجحوا في اكتشاف القوانين العلمية تحت التعذيب والاضطهاد القاسي بحجة أنها تخالف الكتاب المقدس ، وتعارض مقرّرات الكنيسة!!

ومما لا يخفى أنّ مثل هذه الضُغُوط ، وهذا الاضطهاد والتعجرف ما كان ليمرّ من دون حدوث ردة فعل ، وقد كان من المتوقّع منذ البداية أن العلماء في الغرب لو اتاحت لهم الفرصة لانتقموا من الدين ، بسبب سوء تصرف الكنيسة ، وسوء معاملتهم لهم خاصة ، وللناس عامة .

وقد حدث هذا فعلاً فكلّما تقدم العلمُ خطوةً ، واطلّع العلماء على العلاقات السائدة بين الكائنات الطبيعية ، واكتشفوا المزيد من الحقائق الكونية ، والعلل الطبيعية لكثير من الحوادث والظواهر المادية ، وكذا علل الامراض ، قلّ اعتناؤهم بالقضايا الميتافيزيقية ، وما يدور حول المبدأ والمعاد والافعال الخارقة للعادة

كمعاجز الانبياء ، وازداد عدد المنكرين لها والشاكين فيها ، والمترددون في قبولها يوماً بعد يوم!!

لقد تسبب الغرور العلمي الذي أصيب به العلماء في الغرب في ان ينظر بعض اولئك العلماء إلى جميع القضايا الدينية بعين الازدراء والتحقير ، وأن يمتنعوا حتى عن التحدث في المعاجز التي يخبر بها التوراة والانجيل ، ويعتبروا عصا موسى عليه السلام التي كانت تشفي المرضى وتحيي الموتى من الأساطير ، وراحوا يتسائلون . في عجب واستنكار . : وهل يمكن أن تتحول قطعة من الخشب اليابس إلى أفعى ، أو ثعبان ، أو هل يمكن ان تعود الحياة إلى ميت بكلمات من الدعاء؟

لقد تصور العلماء الذين أسكرتهم فتوحاتهم العلمية ، انهم ملكوا مفاتيح جميع العلوم ، ووقفوا على جميع العلاقات بين الكائنات الطبيعية والظواهر الكونية ، ومن هنا تصوّروا أنه لا توجد اية علاقة بين قطعة الخشب والثعبان ، أو بين جملة من الدعاء والتفاته من بشر وعودة الروح إلى الموتى ، ولهذا أخذوا ينظرون إلى هذه الامور بعين الشك والترديد ، وربما بعين الانكار والرفض المطلق!!

وقد سرى هذا النوع من التفكير إلى اوساط بعض العلماء المصريين الذين تأثروا بهذا الاتجاه اكثر من غيرهم ، مع بعض التعديل في ذلك الموقف ، وشيء من الاختلاف في النظرة المذكورة ، ولهذا اتبعوا تلك السيرة في تحليل الوقائع والحوادث التاريخية والعلمية من هذا النوع ، والسير في تأثر بعض علماء مصر بهذه النظرة قبل واكثر من غيرهم هو احتكاك هذه الجماعة بالأفكار الواردة من الغرب قبل غيرهم ، ومن هذه المنطقة سرت بعض النظريات والآراء الغربية إلى البلاد الإسلامية الأخرى.

لقد اختار هؤلاء طريقاً خاصاً قصّدهوا به الحفاظ على حرمة الكتاب العزيز ، والاحاديث القطعية ومكانتها من جهة ، وكسب نظر العلماء الماديين الطبيعيين إلى انفسهم من جهة أخرى ، أو ارادوا ان لا يختاروا ما لا يمكن التوفيق بينه وبين القوانين العلمية الطبيعية وتطبيقه عليها.

لقد وجد هؤلاء من جهة أن القرآن الكريم يخبر عن سلسلة من المعجزات والحوار التي لا يمكن تفسيرها بالعلوم العادية المتعارفة ، لأن العلم لا يستطيع أن يدرك العلاقة بين العصار الخشبية اليابسة والثعبان ، ومن جهة أخرى كان القبول بالنظريات التي لا يمكن إثباتها بالحس والتجربة أمراً في غاية الصعوبة لهم .

ولهذا السبب ، وفي خضم الصراع بين هذين العاملين : العلم والعقيدة ، اختار هؤلاء الكتاب والعلماء نهجاً يستطيعون به وضع نهاية لهذا الصراع ، والتنازع ، فيحافظون على ظواهر القرآن والاحاديث من جانب ، ويتجنبون القول بما يخالف منطق العلم من جانب آخر ، ويتلخص هذا النهج في تفسير جميع المعاجز وجميع حوار العادة التي جرت على ايدي الأنبياء بالموازن العلمية الحاضرة الرائجة في هذا العصر بصورة تبدو وكأنها أمور طبيعية ، وبهذا يكونون قد حافظوا على مكانة القرآن الكريم والاحاديث القطعية المسلمة ، ولم يتفوهوا بما يخالف العلم الحديث ويتعارض مع معطياته .

ونحن هنا نذكر من باب النموذج والمثال : التفسير الذي ذكره العلامة المصري المعروف « محمد عبده » لقصة اصحاب الفيل وما جرى لهم :

فهو يقول عند تفسيره لسورة الفيل :

« فيجوز لك ان تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض ، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بارجل هذه الحيوانات ، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه فاثار فيه تلك القروح التي تنتهي بافساد الجسم وتساقط لحمه ، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدّ من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير . الذي يسمونه الآن بالميكروب . لا يخرج عنها »^(١) .

١ - راجع تفسير في ظلال القرآن : ج ٣٠ ، ص ٢٥١ .

وقال أحد الكتاب مؤيدا هذا الاتجاه بقوله : « إن الطير المستعمل في الكتاب العزيز يراد منه مطلق ما يطير ، ويشمل الذباب والبعوض ايضاً » .
ولابد . قبل دراسة هذه الأقوال . أن نستعرض مرة أخرى الآيات النازلة في اصحاب « الفيل » .

يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَرُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * لَمَّا يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ . وَرَسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرٌ أَبْيُّلٌ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُوِّلُ » .
إن ظاهر هذه الآيات يفيد أن جيش ابرهة أصيب بالغضب والسخط الالهي ، وإن هلاكه وفناءه كان بهذه الأحجار التي حملتها تلك الطيور ، والقئت بها على رؤوس الجند وأبدانهم .

إن الإمعان في مفاد هذه الآيات يعطي أن مَوْتَهُمْ كان بسبب هذه الاسلحة غير الطبيعية (الصغيرة الحقيمة في ظاهرها ، القوية الهدامة بفعلها وأثرها) .
وعلى هذا فإن أي تفسير يخالف ظاهر هذه الآيات لا يمكن الذهاب إليه وحمل الآيات عليه ما لم يقيم على صحته دليل قطعي .

نقاط تقتضي التأمل في التفسير المذكور :

١ . إنَّ التفسير المذكور لا يستطيع كذلك أن يجعل كل تفاصيل هذه الحادثة أمراً طبيعياً ، بل هناك جوانب في تلك الواقعة التاريخية العجيبة لا بد من تفسيرها بالعوامل والاسباب الغيبية ، لأنه مع فرض أن هلاك الجند وتلاشي أجسادهم تم بواسطة ميكروب : « الحصبة » و « الجدري » ، ولكن من الذي ارشد تلك الطيور إلى تلك الاحجار الصغيرة الملوثة بميكروب الحصبة والجدري ، فتوجهت بصورة مجتمعة إلى تلك الاحجار الخاصة بدل التوجه إلى الحَبِّ والطعام ، ثم كيف بعد حمل تلك الأحجار بمناقيرها وأرجلها حَلَّقَتْ فوق معسكر « أبرهة » ورجمت جنده كما لو أنّها جيشٌ منظمٌ موجهٌ؟؟
هل يمكن اعتبار كل ذلك أمراً عادياً ، وحدثاً طبيعياً؟

ترى لو أننا فسّرنا طرفاً من هذه الحادثة العظيمة والعجيبة بالعوامل الغيبية ، وبارادة الله النافذة فهل تبقى مع ذلك أية حاجة إلى أن نفسّر جانباً من هذه الحادثة بتفسير طبيعي مألوف ، ونركض وراء التوجيهات الباردة ، لنجعلها امراً مقبولاً .

٢ . إنّ الكائنات الدقيقة ، أو ما يسمى الآن بـ « الميكروب » لا شك انها عدوة لمطلق الإنسان ، وليس بصديقة لهذا أو ذاك ، ومع ذلك كيف توجهت إلى جنود « ابرهة » وقتلتهم دون غيرهم ، وكيف نسيت المكّين بالمرّة؟!

إنّ التاريخ المدوّن يثبت لنا أن جميع الضحايا في هذه الواقعة العظيمة كانوا من جند « ابرهة » ولم يلحق فيها : أيّ أذى . إطلاقاً . بقريش ، وغيرهم من سُكان الجزيرة العربية ، في حين أن الحصبة والجُدريّ من الأمراض المعدية ، التي تنقلها العوامل الطبيعية كالرياح وغيرها من منطقة إلى أخرى ، وزيماً تُهلك اهل قطر باجمعهم .

فهل مع هذا يمكن أن نعد هذه الحادثة حدثاً طبيعياً عادياً!

٣ . ان اختلاف هذا الفريق في تحديد نوعية الميكروب ، يضيف على هذا الادعاء مزيداً من الإبهام ، ويجعله اقرب الى البطلان .

فتارة يقولون : أنّه ميكروب الوباء وتارة أخرى يقولون : أنّه داء الحصبة والجُدري ، في حين اننا لم نجد مستنداً صحيحاً لهذا الخلاف ، ومبرراً وجيهاً لهذا الاختلاف ، اللهمّ إلا ما احتمله « عكرمة » من بين المفسرين ، وعكرمة هو نفسه موضع نقاش بين العلماء والألما ذهب « ابن الاثير » . من بين المؤرخين وارباب السير إلى ذكر هذا الرأي في صورة الاحتمال الضعيف ، والقبيل ، ثم عاد فردّ هذا القول فوراً^(١) .

والأعجب من الجميع ما أعطاه مؤلف كتاب « حياة محمّد » الدكتور هيكل وزير المعارف المصري السابق من تفسير ، عند ذكر قصة الفيل .

١ . الكامل : ج ١ ، ص ٢٦٣ .

فهو بعد ذكر تلك القصة سرد آيات سورة الفيل ، ومع أنه اتى بقول الله تعالى « وأرسل عليهم طيرا أبابيل » قال عن هلاك جنود أبرهة : « ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصابت العدوى أبرهة نفسه »^(١) فاذا كان الذي جاء بهذا الميكروب هو الريح ، فلماذا حلقت طيورُ الأبايل على رؤوس جيش أبرهة ، والقت بالأحجار الصغيرة على رؤوسهم ودون غيرهم ، وأي أثر كان لهذه الاحجار في هلاك أولئك الجنود وموتهم؟ فالحق هو : أن لا يُتبع هذا النمط من التفكير ، وأن لا نسعى لتفسير معجزات الأنبياء . الكبرى بمثل هذه التأويلات والتفسيرات ، بل إن طريق المعجزات والإعجاز أساساً يختلف عن طريق العلوم الطبيعية التي تتحدد دائرتها بمعرفة العلاقات العادية بين الظواهر الطبيعية ، ولهذا يجب علينا أن لا نعمد . ارضاء لهوى جماعة ممن لا يمتلكون أية معلومات دينية ، وليست لديهم أية معرفة بهذا النوع من القضايا . إلى التنازع عن أسسنا الدينية المسلّمة ، في حين لا توجد أية حاجة مُلزمة إلى مثل ذلك التنازل والاعتذار!

نقطتان هامتان :

وهنا لا بد من أن نذكر بنقطتين هنا :

الوُلى : يجب ان لا يظن أحد . خطأ . أننا بما قلناه هنا نريد تصحيح كل ما تلوكه ألسن الناس ، وتنسبه إلى الانبياء العظام ، أو إلى عباد الله الكرام ، من دون أن يكون له أي سند صحيح أو وجه معقول بل وربما اتّسم بطابع الخرافة في بعض الاحيان والموارد . بل مقصودنا هو : أن نثبت . وطبقا للمصادر الصحيحة والقطعية المتوفرة . ان الأنبياء كانوا يقومون . لا ثبات ارتباطهم بما وراء هذه الطبيعة . بأعمال خارقة للعادة ، خارجة عن الناموس الطبيعيّ المألوف ، تعجز العلوم الطبيعية الرائجة عن

١ . حياة محمّد لمحمّد حسين هيكل : ص ١٠٢ و ١٠٣ .

إدراك عللها ، وأسبابها.

فهذه الطائفة من المعاجز.

الثانية : إننا لا نقول مطلقاً : أنَّ وجود المعجزة هو تخصيص لقانون العلية العام ، بل اننا في الوقت الذي نحترم فيه هذا القانون المسلم نعتقد بنأ جميع حوادث هذا العالم عللاً خاصة وأسباباً معينة ، وانه من المستحيل أن يوجد شيء بعد عدمه من دون علة ، بيد أننا نقول ان لهذه الطائفة من الظواهر والوقائع (أي المعاجز) عللاً غير طبيعية ، وان هذه العلل ميسرة ومتاحة لأنبياء الله ورسله والرجال الإلهيين خاصة ، وليس في مقدور أحد . لم يستطع لا عن طريق الحس ولا عن طريق التجربة أن يكتشف هذه العلل . أن يتنكر لها ، وينكرها ، بل ان جميع الاعمال الخارقة التي يقوم بها أنبياء الله ناشئة عن علل لا يمكن تفسيرها بالعلل الطبيعية المألوفة ، ولو أنها خضعت للتفسير والتوجيه لخرجت عن كونها معجزة ، ولم يصدق في حقها عنوان الاعجاز.

ولكي نقف على حقيقة هذا الامر ، ونعرف مدى بطلان المذهب المذكور (مذهب تفسير الخوارق والمعاجز بالتفسير المادي والمألوف المحض) ينبغي أن نتبسط قليلاً في شرح مسألة الاعجاز ونبحث في مدى علاقتها بقانون العلية العام.

بحث علمي حول المعجزة في خمس نقاط :

إن الحديث العلمي عن المعجزة لا بد أن يتركز على عدة نقاط أساسية هي :

١ . ما هي المعجزة وما هو تعريفها؟

٢ . هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟

٣ . هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير عادية فقط؟

٤ . كيف تدل المعجزة على صدق ادعاء النبوة؟

٥ . كيف وبماذا نميز المعجزة عن الخوارق الأخرى؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة كفيلة بتوضيح حقيقة المعجزة ، وبيان مدى بطلان الاتجاه

المذكور نعي : تفسير المعاجز بالتفسير المادي الطبيعي.

على أننا . نظراً لضيق المجال . سنختصر الجواب على هذه الأسئلة ، وعلى من أراد التوسع أن يرجع إلى كتب الكلام والعقيدة .

١ . ما هي المعجزة وما هو تعريفها؟

لقد عرّف علماء العقيدة المعجزة بتعاريف مختلفة أتقنها وأكملها هو : ان المعجزة أمر خارقٌ للعادة ، مقروناً بالدعوى ، والتحدّي ، مع عدم المعارضة ، ومطابقة الدعوى ^(١) . ويعني الشرط الأول (اي كون المعجزة أمراً خارقاً للعادة) أن كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية الحادثة مرتبطة بعلة حتمياً ، فلا يمكن صدورها من دون علة ، وهذا الكون مشحون بالعلل التي يكتشفها البشر شيئاً فشيئاً وتدرّجاً عبر وسائله العادية أو العلمية ، ولكنّ المعجزة مع كونها ظاهرة واقعية ولهذا فهي كغيرها مرتبطة بعلة ، بيد أنّها تختلف عن غيرها من الظواهر في أن من غير الممكن كشف عللها من الطريق العادية أو بواسطة التجارب والتحقيقات العلمية ، ولا يمكن تفسيرها وتبريرها بالعلل العادية أو بما يكتشفه العلم من العلل لمثل هذه الحوادث ، والمقصود من خرق العادة هو أنّ تقع المعجزة على خلاف ما عهدناه وتعودنا عليه في الظواهر الأخرى وعللها ، مثل إشفاء المرضى من دون علاج ودواء كما هو المعهود ، واخراج الماء من صخرة صماء من دون حفر أو تنقيب كما هو المألوف ، وتحويل العصا إلى أفعى من دون تبييض وتفريخ وتوالد وتناسل ، بل بمسح من يد ، أو بعبارة من لسان ، أو بضرب من عصا!!

من هنا نكتشف أنّ كل ظاهرة يقف الناس العاديون بالطرق العادية أو العلماء خاصة بالطرق العلمية على عللها وأسبابها لا تكون معجزة لأنّه في هذه

١ . راجع للوقوف على هذا التعريف : كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلبي شرحا والمحقق نصير الدين الطوسي متنا : ص ٢١٨ ، وأيضاً شرح تجريد الاعتقاد للعلامة القوشجي : ص ٤٦٥ .

الصورة لم يقع أي شيء على خلاف العادة ، والمألوف ليدل على مزية في الانبياء .
فان مثل هذه الظاهرة التي يكون لها علة عادية يعرفها جميع الناس ، أو سبب علمي
خاص يعرفها علماء ومتخصصوا ذلك العلم يمكن أن يقوم بايجاد أمثالها جميع الناس ، فلا
يكون حينئذ معجزة .

ولا يعني هذا . وكما اسلفنا . أنَّ المعجزة لا تنتهي إلى أية علة ، اصلا ، بل هي تستند إلى
علة غير متعارفة وغير عادية ، ولمزيد التوضيح سنبحث في هذا المجال عند الاجابة على
السؤال الثالث .

ويُقصد من الشرط الثاني (أي كون الاعجاز مقرونا بالدعوى) أن يدعي صاحب
المعجزة النبوة والسفارة من جانب الله تعالى ، ويأتي بالمعجزة دليلا على صحة دعواه هذه ،
إذ في غير هذه الصورة لا يكون الأمر الخارق للعادة معجزة بل يُطَبَّق عليه في الاصطلاح
الديني لفظ « الكرامة » كما كان لمريم بنت عمران التي كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد
عندها رزقا فاذا سأها من أين لها ذلك؟
قالت : هو من عند الله ^(١) .

ويعني الشرط الثالث أن يكون الاعجاز مقرونا بدعوة الناس إلى الإتيان بمثله ، وعجز
الناس عن هذه المعارضة ، وعدم قدرتهم على الاتيان بمثله مطلقاً إذ في هذه الصورة يتضح
نُ أنَّ النبي يعتمد على قوة الهية غير متناهية ، قوة خارجة عن حوزة البشر العادي .
واما الشرط الرابع فيعني أن الامر الخارق للعادة إنما يكون عملا إعجازياً ، ويستحق
وصف المعجزة الدالة على ارتباط الآتي بها بالمقام الالهي ، إذا وافق الامر الواقع ما يدعي أنه
قادر على الأتيان به .

فلو قال : سأجعلُ هذا البئر الجاف الفارغ من الماء ، يفيض بالماء باشارة اعجازية ، ثم
يقع ما قاله كان هذا الأمر معجزة حقاً ، وأما إذا قال : سأجعل هذا

١ . راجع سورة آل عمران : ٣٧ .

الماء القليل الموجود في البئر يفيضُ ماءً ، بالإعجاز ، ولكن جفَّ ذلك البئرُ على عكس ما قال ، لم يكن ذلك إعجازاً ، بل كان تكذيباً مدعيها .
هذا هو خلاصة ما يمكن أن يُقال حول تعريف المعجزة والاعجاز وهو يساعد على فهم طبيعة العمل الإعجازي .

٢ . هل الاعجاز يهدم القوانين العقلية المسلّمة؟

وبهذا يتضح جواب السؤال المطروح في هذا المجال وهو أن يقال : إن قانون العليّة (اي : ارتباط كل معلول حادث بعلة) ممّا ارتكز عليه الذهنُ البشريّ وقبله العلمُ والفلسفة ، ولذلك فاننا نلاحظ : كلّما وقف الإنسان على ظاهرة مهما كانت . بجَّث عن علّتها فورا فاذا رأى حية . مثلا . عرف بان علّتها الطبيعية هي أن تبيض حيةً ، ثم خروج حية من البيض بعد سلسلة من التفاعلات فكيف يمكن القبول بالمعجز مع أنّها لا تنشأ عن مثل هذه العلل ولا تمرُّ بمثل هذه المقدمات والمراحل والتفاعلات الطبيعيّة ، مثل انقلاب العصا إلى ثعبان ، أو نبوع الماء من الصخر من دون حفر أو تنقيب .

أليس هذا هدمٌ ، أو تخصيصٌ لذلك القانون العقليّ المسلّم العام؟
فان الجواب على هذا السؤال هو ان مثل هذا السؤال لا يطرحه إلا الذين يحصرُّن العلل والعلاقات بين الاشياء في العلل والعلاقات المادية الطبيعية .

ولكن الحق هو أنّ أيّة ظاهرة مادية يمكن أن يكون لها نوعان من العلل :

١ . العلة العادية التي تخضع للتجربة .

٢ . العلة غير العادية التي لا يعرفها الناس ولم تكن متعارفة ولا تخضع للتجربة العلمية .

وهذا يعني أنه لا توجد أية ظاهرة في هذا العالم بدون علة .

وتوضيح هذا أن اصل وجود الحية ونبوع الماء من الصخرة وتكلم الطفل . مثلا . أمرٌ ممكنٌ ،

ولا يُعدّ من المحالات ، لأنّها لو كانت من المحالات لما تحقّق وجودها أبداً .

نعم أنّها بحاجة إلى علة لكي تتحقق ، والعلة . سواء في المعاجز أو غيرها . يمكن أن تكون إحدى الامور التالية :

أ . **العلة الطبيعية العادية** وهي ما فناها وأعتدنا عليها مثل ظهور شجرة من نواة بعد سلسلة من التفاعلات .

ب . **العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة** وهذا يعني أنه قد يكون لظاهرة معينة نوعان من العلل ، وطريقتان للتحقق والوجود أحدهما معروف ومعلوم ، والآخر مجهول غير معلوم ، والانباء بحكم اتصالهم بالعلم والقدرة الالهية ، يمكن أن يقفوا على هذا النوع من العلل . عن طريق الوحي . ويوجدوا الظاهرة .

ج . تأثير النفوس والارواح :

فإنّ بعض الظواهر يمكن أن تكون ناشئة من تأثير أرواح الأنبياء ونفوسهم القوية ، كما نلاحظ ذلك في مجال المتراضين الهنود الذين يبلغون درجة يستطيعون معها أن يقوموا بما يعجز عنه الأفراد العاديون ، وذلك بفضل الرياضات النفسية التي يخضعون لها . وهو ما يسمى باليوجا أحياناً ، وقد كتبت حوله كتب ودراسات ^(١) .

وقد أشار إلى هذا جملة من علماء الإسلام وفلاسفته منهم الفيلسوف الإسلامي الشهير صدر الدين الشيرازي حيث يقول :

« لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوةً الهيةً تكون بقوتها كأنها نفسُ العالم فيطيعها العنصرُ طاعةً بدنها لها ، فكلّما ازدادت النفسُ . تجرداً وتشبّهها بالمبادئ القصوى ازدادت قوةً وتأثيراً في ما دونها .

وإذا صار مجرد التصوُّم والتوهم سبباً لحدوث هذه التغيّرات في هيولي البدن لأجل علاقة طبيعّية ، وتعلّق جبلي لها إليه ، لكان ينبغي أن تؤثر في بدن الغير وفي هيولي العالم مثل هذا التأثير ، لأجل مزيد قوة شوقية ، واهتزاز علوي للنفس

١ . راجع كتاب الطاقة الإنسانية لأحمد حسين .

ومحبة الهية لها ، فيؤثر نفسه في إصلاحها ، وإهلاك ما يضرّها ويفسدها «^(١) .

د . العلل المجردة عن المادة :

فيمكن ان تكون للظواهر عللٌ مجردة عن المادة كالملائكة ، بان تقوم الملائكة بأمر من الله سبحانه بتدمير قرية ، أو تقوم بمعجزة بعد طلب النبيّ منها ذلك .
والملائكة مظاهرُ القدرة الالهية في الكون ، وهي التي تدبّر أمور الكون بأمر الله تعالى كما يقول القرآن الكريم : « **فَالْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا** »^(٢) وهي بالتالي جنودالله في السماوات والأرض « **وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ** »^(٣) .

فلا بد من ارجاع الظواهر الطبيعية الواقعة إلى أحد هذه العوامل الاربعة ، ولا يمكن أبداً حصر العلة في العلة الطبيعية العادية المعروفة كما تصور منكروا الاعجاز ، بل يمكن أن تكون كلٌ واحدة من هذه العلل سبباً لحدوث الظاهرة الطبيعية ، فاذا لم نشاهد علة ظاهرة من الظواهر لم يجوز لنا أن نُبادر . فوراً . إلى تصوّر أنّها ناشئة من غير علة .
ويجب ارجاع معاجز الأنبياء إلى إحدى الطرق الاخيرة ، والقول بأن الانبياء استخدموا . في ايقاع الخوارق والمعاجز . إما العلل المادية غير المعروفة للعرّف ، والعلم ، وأما نفوسهم القوية التي حصلت لهم بفعل الجهاد الرُّحّي العظيم والرياضات النفسية الشديدة فهي علة تلك الأفعال الخارقة للعادة .

كما ويمكن ان تكون جميع تلك الافعال العجيبة ناشئة عن جملة من العلل والعوامل الغيبية المدبّرة للكون بأمر الله ومشية .
إذن فلا تتحقق المعجزة بدون علة كما يُتصوّر ، ولا يهدم الاعجاز القوانين العقلية المسلمة .

١ . راجع المبدأ والمعاد : ص ٣٥٥ و ٣٥٦ لصدر المتألمين المشهور بصدر الدين الشيرازي ، وشرح المنظومة للحكيم السبزواري : ص ٣٢٧ قال السبزواري ناظماً :
يطيعه العنصر طاعة الجسد للنفس فالكل كجسمه يُعبد

٢ . النازعات : ٥ .

٣ . الفتح : ٤ .

٣ . هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط؟

قد يتصور البعض أن المعاجز تصدر عن علل مجردة عن المادة فقط نافين أن تكون لها إية علل مادية معروفة أو غير معروفة ، في حين لا يصحّ هذا السلب الكلي ، إذ ما أكثر الخوارق التي تنشأ عن أمور عادية وعبر سلسلة من التفاعلات الطبيعية.

فعندما يرقد مرتاض هندي ليمرّ عليه تراكثور من دون ان تحدث في جسمه أية جراحات أو اصابات فان هناك أموراً مادية كثيرة دخلت في هذا الامر الخارق مثل : وقوع هذا الحدث في اطار الزمان الخاص ، والمكان الخاص ، ومثل جسم المرتاض ، وماكنة الحرائة.

فان جميع هذه الاشياء المادية اثرت في ظهور هذا العمل الخارق.

وهكذا عندما تنقلب عصا الكليم ^(١) إلى حية على نحو الاعجاز فان العصا شيء

مادي وهكذا الحال في غيره من الموارد.

ولهذا لا يمكن ان نتجاهل تأثير العوامل والامور المادية في ظهور الأمور غير العادية ، وننكر دخالتها بمثل هذا الإنكار.

وهذه هي اكثر النظريات اعتدالا في هذا المجال.

وفي مقابل ذلك التفريط ^(١) أفرط آخرون إذ قالوا : ان جميع المعاجز والخوارق ناشئة من علل مادية غير معروفة.

وحتى ما يقوم به المرتاضون يعود إلى هذه العوامل الطبيعية التي لا يعرفها ولا يقف عليها حتى النوابع من الناس فضلا عن العاديين ، لأن العوامل الطبيعية على نوعين : المعروفة وغير المعروفة ، والناس يستفيدون في حياتهم اليومية . في الأغلب . من القسم الاول ، بينما يستخدم الانبياء والمرتاضون تلك العوامل الطبيعية غير المعروفة التي وقفوا عليها وادركوها دون غيرهم.

١ . أي حصر علل الخوارق والمعاجز في العوامل المجردة ونفي تأثير العلل المادية على نحو الاطلاق.

والسبب في وصفنا هذه النظرية بالافراط والتطرف هو عدم وجود دليل لا ثباته ، بل يمكن ان يقال ان مثل هذا الموقف ناشئ عن الانهزامية تجاه العالم المادي ، أو انه لارضاء الماديين ، والنافين لما يدخل في إطار العالم المادي فان الماديين يرفضون أي عالم آخر غير الطبيعة وآثارها وعلاقاتها وخواصها ، وحيث أن ارجاع المعجزات إلى العلل المجردة عن المادة يخالف منطق الماديين ، ويضاد اتجاههم وتصورهم لهذا عمد أصحاب هذه النظرية (نظرية إرجاع المعاجز والحوارق إلى علل طبيعية غير معروفة وغير عادية) إلى مثل هذا التفسير إقناعا للماديين ، وارضاء لهم فقالوا : ان جميع الحوارق والمعاجز ناشئة من علل طبيعية ومادية على الإطلاق ، غاية ما في الأمر أنها علل غير معروفة ، شأنها شأن كثير من العوامل الطبيعية المجهولة.

ونحن بدورنا نترك هذه النظرية في دائرة الاجمال وبقعة الإمكان ، لعدم الدليل لا على طبقها ولا على خلافها.

٤ . كيف تدل المعجزة على صحة ادعاء النبوة؟

إن صفحات التاريخ مليئة بذكر من ادعوا النبوة خداعاً وكذباً ، واستثماراً للناس ، مستغلين سذاجة الاغلبية الساحقة من جانب ، وانجذابهم الفطري إلى قضايا التوحيد والايمان من جانب آخر.

فكيف وبماذا يُمَيِّز النبي الصادق عن مدعي النبوة؟؟

إن المعجزة هي إحدى الطرق التي تدل على صحة ادعاء النبوة . وإنما تدلُّ المعجزة على صدق ادعاء النبوة ، وارتباط النبي بالمقام الربوي لأن الله الحكيم لا يمكن أن يزود الكاذب في دعوى النبوة بالمعجزة ، لأن في تزويد الكاذب تغييراً للناس الذين يعتبرون العمل الخارق دليلاً على ارتباط الآتي بها بالمقام الربوي .

وإلى هذا أشار الامام جعفر الصادق عليه السلام بقوله في جواب من سأله عن علة اعطاء الله المعجزة لانبيائه ورسله :

« لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ ، وَالْمُعْجِزَةَ عِلَامَةً لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءُهُ وَرَسُولُهُ ، وَحُجَّتْهُ ، لِيَعْرِفَ بِهِ صِدْقَ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ »^(١).

٥ . بماذا نُمَيِّزُ الْمُعْجِزَ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْخَوَارِقِ؟

لَا شَيْكَ فِي أَنَّ السِّحْرَ وَالْمُرْتَاضِينَ يَقُومُونَ بِأَفْعَالٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ مَثِيرَةٍ لِلْعَجَبِ وَالدهشةِ حَتَّى إِنْ الْبَسْطَاءُ رِمَا يَذْهَبُ بِهِنَّ الْإِنْدِهَاشَ إِلَى حُدِّ الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ الْقَائِمِينَ بِهَذِهِ الْخَوَارِقِ مَرْوَدُونَ بِقُوَى غَامِضَةٍ غَيْبِيَّةٍ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا الْبَشَرُ .

فَكَيْفَ يُمْكِنُ إِذْنُ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الْمُعْجِزِ وَتِلْكَ الْخَوَارِقِ وَالْعَجَائِبِ؟

إِنْ التَّمْيِيزُ بَيْنَ هَذِهِ وَتِلْكَ يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ إِذَا لَاحِظْنَا الْعَلَامَاتِ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْمُعْجِزِ وَغَيْرِ الْمُعْجِزِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ ، كَأَعْمَالِ السِّحْرِ وَالْمُرْتَاضِينَ (أَصْحَابِ الْيُوجَا) وَنظَائِرِهِمْ .

وهذه الفوارق هي عبارة عن الامور التالية :

١ . إِنْ الْقُوَى الْغَامِضَةُ الْحَاصِلَةُ لَدَى الْمُرْتَاضِينَ وَالسِّحْرَ نَاشِئَةٌ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ مِنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّحْصِيلِ عِنْدَ أَسَاتِذَةِ تِلْكَ الْعُلُومِ ، وَذَلِكَ طَوِيلَةٌ سِنِينَ عَدِيدَةٌ مِنَ الزَّمَانِ .

بَيْنَمَا لَا يَرْتَبِطُ الْإِعْجَازُ بِالتَّعَلُّمِ وَالتَّلَمُّدِ أَبَدًا ، وَالتَّارِيخُ خَيْرٌ شَاهِدٌ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ .

٢ . إِنْ أَعْمَالُ السِّحْرِ وَالْمُرْتَاضِينَ الْعَجِيبَةُ قَابِلَةٌ لِلْمُعَارَضَةِ وَالْمُقَابَلَةِ بِأَمْثَالِهَا ، وَرِمَا بِمَا هُوَ أَقْوَى مِنْهَا ، عَلَى عَكْسِ الْإِعْجَازِ ، فَالْمُعْجِزَاتُ غَيْرُ قَابِلَةٌ لِأَنَّ تَعَارُضَ وَتَقَابُلَ بِمِثْلِهَا أَبَدًا .

٣ . لِمَرَّطِهِمْ وَنَدْحِهِمْ حَيْثُ يَدُونُ حُدُودَ أَعْمَالِهِمْ لَا يَطْلُبُونَ مُعَارَضَةَ حُدُودِ بِيَمٍ وَإِلَّا لَأَفْتَضَحُوا وَكَبَتُوا .

بَيْنَمَا يَتَحَدَّى الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ بِمُعْجِزِهِمْ جَمِيعَ النَّاسِ وَيَدْعُوهُمْ لِمُعَارَضَتِهِمْ

١ . علل الشرائع : ج ١ ، ص ١٢٢ .

والاياتان يمثل معاجزهم لو قدروا ، واستطاعوا.

فهذا هو القرآن الكريم ينادي بأعلى صوته على مر العصور : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسِ وَالْجِنُّ عَلَىٰ لَأَ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (١).

وذلك لأن أفعال السحرة الخارقة مما كانت فانها تستند إلى الطاقة البشرية المحدودة ، ولا تتجاوزها بينما يعتمد الانبياء والرسل العنصر الغيبي ، والإرادة الآلهية.

٤ . إن أفعال السحرة والمرتاظين الخارقة للعادة أمور محدودة ومقتصرة على ما تعلموها وتمرنوا عليها ، بينما لا تكون معاجز الأنبياء والرسل مقتصرة على أمور خاصة ، فهم لا يعجزون عن الاياتان بكل ما يطلبه الناس منهم ، طبعاً حسب شرائط خاصة مذكورة في محلها في أبحاث الاعجاز (٢).

فتلك معاجز موسى المتعددة الابتدائية ، والمقترحة ، ومعاجز المسيح ﷺ المتنوعة خير مثال على هذا الأمر.

٥ . إن اصحاب المعاجز يقصدون من معاجزهم دائما دعوة الناس إلى أهداف إنسانية عالية وغايات الهية سامية وبالتالي هداية المجتمع البشري إلى المبدأ والمعاد ، والأخلاق الفاضلة فيما لا يهدف المرتاظون والسحرة إلا تحقيق مآرب دنيوية حقيرة ، ونيل مكاسب مادية رخيصة.

هذا مضافا إلى أن الأنبياء والرسل أنفسهم يختلفون عن السحرة والمرتاظين

١ . الاسراء : ٨٨ .

٢ . مثل أن لا يكون ما يطلبه الناس محالا عقليا كروية الله ، ومثل أن لا يكون ما سيأتي لهم به دليلا على ارتباطه بالمقام الربوبي ، كما لو طلبوا منه أن تكون له جنة من نخيل وأعناب وبيت من ذهب ، لأن هذه الأمور لا تكون دليلا على النبوة إذ نلاحظ أن كثيرا من الناس يملكون هذه وليسوا مع ذلك بأنبياء .
وأن لا يكون المقترحون من ذوي اللجاج والعناد الذين لا يقصدون من طلب المعاجز إلا الهزل والاستهزاء والتنزّه .
وأن لا تكون نتيجة المعجزة هلاكهم كما لو طلبوا ان يُنزل عليهم نارا من السماء تحرقهم لأن في ذلك نقضا للغرض .

في نفسيتهم العالية ، وأخلاقهم الفاضلة وتاريخهم المشرق ، وصفاتهم النبيلة على العكس من السحرة والمرتااضين.

هذه هي أهمّ العلامات الفارقة بين المعاجز التي تدل على نبوة الانبياء والخوارق التي يقوم بها المرتااضون والسحرة.

وبعد أن تبين كل هذا اتضح أنّ الخوارق الالهية التي هي من مقولة المعاجز أيضا تختلف عن الأمور العادية في أن عللها لا تنحصر في العلل المادية غير المعروفة فضلا عن الأمور المادية المعروفة ، بل ربما تكون مستندة إلى العلل المجردة ، فليس من الصحيح ان نسعى لتفسير الخوارق الالهية مثل : « قصة الفيل » التي أهلك الله تعالى فيها جيش « أبرهة » العظيم بأحجار صغيرة من سجل رمتها طيور الأبايل بالعلل المادية المعروفة كما فعل من اشرنا إلى أسمائهم في مطلع هذا البحث ^(١).

ولهذا عدل « سيد قطب » عن رؤية الذي كان قد أبداه في ما سبق في أمثال هذه الأمور ، إذ قال :

ان الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره أن ينقض الإنسان من ذهنه كل تصوّر سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقرّرات تصوّرية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبني مقرّراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود ، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن ، ولا ينفي شيئاً يثبتته القرآن ولا يؤوّلّه ، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله ، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته.

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن ... وهم مع ذلك يؤوّلون نصوصه هذه لتوائم مقرّرات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود ^(٢).

١ . أي الاستاذ الشيخ محمّد عبده والاستاذ محمّد حسين هيكل.

٢ . وهنا قال سيّد قطب في هامش هذا الكلام مانصه « وما ابرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي

فاما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها فهم مضحكون حقاً! فالعلم لا يعلم اسرار الموجودات الظاهرة بين يديه والتي يستخدمها في تجاربه ، وهذا لا ينفي وجودها طبعاً! فضلا عن العلماء الحقيقيين اخذت جماعة كبيرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون ، لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم . عن طريق العلم ذاته . أمام مجاهيل فيما بين ايديهم مما كانوا يحسبون انهم فرغوا من الاحاطة بعلمه فتواضعوا تواضعا علميا نبيلاً ليس فيه سمة الادعاء ، ولا طابع التناول على المجهول كما يتناول مُدَّعو العلم ، ومدَّعو التفكير العلمي ، ممن يُنكرون حقائق الديانات وحقائق المجهول (١) .

ثم يقول في موضع آخر من تفسيره ناقدا لموقف الاستاذ عبده من قصة الفيل التي هي احدى الخوارق حيث حفظ الله تعالى بيته المعظم على نحو خارق للعادة : ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات ، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها ، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة اقرب واولى ، وان الطير تكون هي : الذباب والبعوض تحمل الميكروبات فالطير هو كل ما يطير .

ثم ينقل كلام الاستاذ « عبده » الذي ذكرناه بنصه مع قوله : هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة ، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل ان صحت روايته ، ومما تعظم به القدرة ان يُؤخذ من استعز بالفيل . وهو اضخم حيوان من ذوات الاربع جسماً - ويُهْلِكُ بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر لا ريب عند العاقل أن هذا اكبر واعجب وأبهر .

وفي الأجزاء الأولى من هذا الضلال قد انسقت إلى شيء من هذا وارجو أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله .

١ - في ضلال القرآن : ج ٢٩ ، ص ١٥١ - ١٥٣ .

ثم يقول : ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذ الامام . صورة الجدرى أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم . أدل على قدرة ، ولا اولى بتفسير الحادث ، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع ، ومن حيث الدلالة على قدرة الله ، وتديبه ، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس ، المعهودة المكشوفة لعلمهم ، هي التي جرت ، فأهلكت قوماً أراد الله اهلاكهم ، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر ، وغير المعهود المكشوف لعلمهم فحققت قدره ذلك .

ثم يقول : لقد كان الله سبحانه يريد بهذا البيت ^(١) أمراً ، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمانا وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة ترحف منه حرة طليقة في ارض حرة طليقة لا يهيمن عليها احد من خارجها ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها ، ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الانظار في جميع الأجيال ، ليضربها مثالا لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها .

فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود بكل مقوماته وبكل اجزائه ، ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذ .

وبخاصة ان المألوف في الجدرى والحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده فإن الجدرى أو الحصبة لا يُسقطُ الجسم عُضواً عُضواً ، وأتملة أتملة ، ولا يشق الصدر عن القلب !!

ثم ان « سيد قطب » يشير إلى علل تفسير هذه الحادثة الخارقة للعادة بالتفسير المادي العادي الطبيعي ، والمدرسة العقلية التي كان الاستاذ « عبده » على رأسها ، وضغط الفتنة بالعلم التي تركت آثارها في تلك المدرسة ، ونحن نكتفي بهذا القدر بالمناسبة ، وإشعاراً بما يمكن أن يجنيه مثل هذا الاتجاه على مقولات الدين ومفاهيمه ومقرراته عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية

١ . أي الكعبة المشرفة .

والغيبية (٨) .

هذا ويجدر بنا ان ننقل هنا ما قاله صاحب تفسير مجمع البيان في هذا الصدد في شأن
حادثة الفيل استكمالاً لهذا البحث وتأكيداً لمعجزة هذا الحدث .

قال صاحب المجمع : وكان هذا من اعظم المعجزات القاهرة ، والآيات الباهرة في
ذلك الزمان ، اظهره الله تعالى ليدل على وجوب معرفته ، وفيه ارهاص لنبوة نبينا
ﷺ لأنه ولد في ذلك العام ، وفيه حجة لائحة قاصمة لظهور الفلاسفة والملحدون
المنكرين للآيات الخارقة للعادات فانه لا يمكن نسبة شيء مما ذكره الله تعالى من أمر
اصحاب الفيل إلى طبع وغيره كما نسبوا الصيحة والريح العقيم والخسف وغيرها مما أهلك
الله تعالى به الامم الخالية ، إذ لا يمكنهم أن يروا في اسرار الطبيعة ارسال جماعات من الطير
معها احجار معدة مهية لهلاك أقوام معينين قاصدات إيتاهم دون من سواهم فترميهم بها
حتى تهلكهم ، وتدمر عليهم ، لا يتعدى ذلك إلى غيرهم ولا يشك من له مسكة عن عقل
ولب ان هذا لا يكون الا من فعل الله تعالى مسبب الاسباب ومذلل الصعاب ، وليس
لأحد أن ينكر هذا لأن نبينا ﷺ لما قرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك بل
اقروا به وصدقوه مع شدة حرصهم على تكذيبه ، واعتنائهم بالرد عليه وكانوا قريبي عهد
بأصحاب الفيل ، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقة وأصل لأنكروه ، وجحدوه ، وأنهم قد
أرتخوا بذلك كما أرتخوا ببناء الكعبة ، وموت قصي بن كعب وغير ذلك .

وقد أكثر الشعراء ذكر الفيل ونظموه ونقلته الرواة عنهم فمن ذلك ما قاله (أمية) بن

ابي الصلت :

إن آيات ربنا بيّنات ما يُماري فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس جتى ظلل يجره كأنه معفور

١ . في ظلال القرآن : ج ٣٠ ، ص ٢٥١ . ٢٥٥ .

وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم :

أنت الجليل ربنا لم تُدْيس أنت حبسبت الفيل بالمغمس
من بعد ما همم بشيء مبلس حبسنته في هيئة المكركس ^(١)
وقال ابن قيس الرقيات في قصيدة :
وسبتهلت عليهم الطير با لجنادل جتى كآئه مرجوم ^(٢)

ماذا بعد هزيمة الأحباش؟

لقد استوجب مقتل أبرهة وتحطم جيشه وهلاكهم ، وبالتالي هزيمة أعداء الكعبة المشرفة ، وأعداء قريش ، أن يتعاطف شأن المكيين ، وشأن الكعبة الشريفة في نظر العرب ، فلا يجراً أحدٌ . بعد ذلك . في أن يحدث نفسه بغزو مكة ، والإغارة على قريش ، أو أن يفكر في التناول على الكعبة المعظمة صرح التوحيد الشامخ ، فقد اخذ الناس يقولون في انفسهم : إن الله أهلك أعداء بيته المعظم بمثل ذلك الاهلاك إحتراماً لبيته وتعظيماً لشأن قريش ، وقلما كان يتصور أحد أن ما وقع كان لاجل المحافظة على الكعبة فقط ، اي من دون أن يكون لمكانة قريش ومنزلتهم وشأنهم دخل في ذلك ، ويشهد بذلك أن قريشاً تعرضت مراراً لحملات متكررة من غزاة ذلك العصر دون أن يُصابوا بمثل ما أصيب به جند « ابرهة » الذي قصد الكعبة بالذات ويواجهوا ما واجهه ، من الردع والكبت .

إن هذا الفتح والظفر الذي نالته قريش من دون تعب ونصب ، ومن دون إراقة أية دماء من أبنائها ، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة ، فقد زادت من غرورهم وحميتهم ، وعنجهيتهم ، واعتزازهم بعنصرهم ، فأخذوا يفكرون في تحديد شؤون الآخرين ، والتقليل من وزنهم ، اعتقاداً منهم بانهم الطبقة الممتازة من العرب دون سواهم . كما أنها دفعتهم إلى أن يتصوروا أنهم وحدهم موضع عناية الأصنام (الثلاثمائة والستين) فهم وحدهم الذين تحببهم

١ . المنكس .

٢ . تفسير مجمع البيان للطبرسي : ج ١٠ ، ص ٥٤٣ في تفسير سورة الفيل .

تلك الاصنام ، وتحميهم وتدافع عنهم!!

ولأجل هذا تبادوا في هُومهم ، ولعبهم ، وتوسعوا في ممارسة اللذة والترف حتى أنهم أظهروا ولعاً شديداً بالخمير ، فكانوا يحتسونها في كل مناسبة ، وربما مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة ، واقاموا مجالس سمرهم وأنسهم إلى جانب أصنامهم الخشبية ، والحجرية ، التي كان لكل قبيلة من العرب بينها صنمٌ أو أكثر ، ويقضون فيها اسعدَ لحظات حياتهم . حسب تصورهم ، وهم يتناقلون فيها كل ما سمعوه من أخبار وقصص حول « مناذرة » الحيرة و « غساسنة » الشام وقبائل اليمن ، وهم يتصورون أن هذه الحياة الحلولة اللذيذة هي من بركة تلك الاصنام والاوثنان ، فهي التي جعلت عامة العرب تخضع لقريش ، وجعلت قريشاً افضل من جميع العرب!!

أوهام قريش تتفاقم!!

إنَّ أخطرَ ما يمرُّ به إنسانٌ في حياته هو أن يصفو عيشه من المشاكل ، ربحاً من الزمن ويحس لنفسه بنوع من الحصانة الوهمية ، فعندها تجده يخص الحياة بنفسه ويستأثر بكل شيء في الوجود ولا يرى لغيره من ابناء نوعه وجنسه من البشر اي حق في الحياة ، ولا اي شأن وقيمة تذكر ، وذلك هو ما يصطلح عليه بالاستكبار والاستعلاء ، والاحساس بالتفوق ، والغطرسة.

وهذا هو بعينه ما حصل لقريش بعد اندحار جيش « ابرهة » وهلاكه ، وهلاك جنده بذلك الشكل العجيب الرهيب.

فقد عزمت قريش منذ ذلك اليوم . ويهدف إثبات تفوقها وعظمتها للآخرين . ، على أن تلغي أي احترام لأهل الحلّ لانهم كانوا يقولون : ان جميع العرب محتاجون إلى معبدنا ، وقد رأى العرب عامة كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة ، خاصة ، وكيف حمتنا من الاعداء!!
ومن هنا بدأت قريش تضيّق على كل من يدخل مكة من أهل الحل للعمرة أو الحج ، وتتعامل معهم بخشونة بالغة ، وديكتاتورية شديدة ففرضت على

كل من يريد دخول مكة للحج أو العمرة أن لا يصطحب معه طعاماً من خارج الحرم ، ولا يأكل منه ، بل عليه أن يقتني من طعام أهل الحرم ، ويأكل منه ، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكة التقليدية القومية ، أو يطوف عرياناً بالكعبة إن لم يكن في مقدوره شراؤها واقتناؤها ، ومن كان يرْفُض الخضوع لهذا الأمر ، من رؤساء القبائل وزعمائها ، كان عليه أن ينزع ثيابه . بعد انتهائه من الطواف . ويلقيها جانباً ، ولا يحق لأحد ان يمسه أبداً لا صاحبها ولا غيره ^(١) .

اما النساء فكان يجب عليهن إذا أردن الطواف أن يُطفن عراة على كل حال ، وإن يضعن خرقة على رؤوسهن ويُرددن البيت التالي في اثناء الطواف :

اليوم ييبدو بعضُبه أو كُلِّبه وبعد هذا اليوم لا أحلُّه
ثم إنه لم يكن يحق لأي يهودي أو مسيحي . بعد هزيمة « ابرهة » الذي كان هو أيضا مسيحياً . أن يدخل مكة إلا أن يكون أجيراً لمكِّي ، وحتّى في هذه الصورة كان يجب عليه أن لا يتحطّ في شيء من أمر دينه ومن أمر كتابه .

لقد بلغت النخوة والعصبية بقريش حدا جعلتهم يتركون بعض مناسك الحج التي كان يجب الإتيان بها خارج الحرم!!

لقد أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفة ^(٢) كما يفعل بقية الناس فتركوا الوقوف بعرفة ، والافاضة منها مع أن آباءهم (من ولد إسماعيل) كانوا يُقرون أنها من المشاعر والحج ، وكانت هيبة قريش وعظمتها الظاهرية رهناً . برمتها . بوجود الكعبة بين ظهرانيتها ، وبوظائف الحج ومناسكه هذه ، إذ كان يجب على الناس في كل عام أن يأتوا إلى هذا الوادي الخالي عن الزرع وهذه الصحراء اليابسة لأداء المناسك ، إذ لو لم يكن في هذه النقطة من الأرض أي مطاف أو مشعر لما رغب احد حتّى في العبور بها فضلا عن المكث فيها عدة ايام وليال .

١ . وكانت تسمّى عندهم « اللقي » .

٢ . الكامل في التاريخ : ج ١ ، ص ٢٦٦ .

لقد كان ظهور مثل هذا الفساد الاخلاقي وهذا الموقف المتعصّب من الآخرين أمراً لا بدّ منه بحسب المحاسبات الاجتماعية.

فالبئسة المكّية لا بد أن تغرق في الفساد والانحراف حتى يتهيأ العالم لانقلاب أساسي ونهضة جذرية.

إن كل ذلك الانفلات الاخلاقي والترف والانحراف كان يهيء الارضية ويعدها لظهور مصلح عالمي ، أكثر فاكثراً.

ولهذا لم يكن غريباً أن يغضب « أبو سفيان » فرعون مكة وطاقيتها على « ورقة بن نوفل » حكيم العرب الذي تنصر في أحرّيات حياته واطلع على ما في الانجيل ، كلما تحدّث عن الله والانبياء ويقول له : « لا حاجة إلى مثل هذا الاله وهذا النبي ، تكفيننا عناية اصنامنا !! »

عبد الله والد النبي :

يوم فدى « عباهُ لمطلب » ولده « عبد الله » بمائة من الابل نحرها ، وأطعم الناس في سبيل الله ، لم يكن يمض من عمر « عبد الله » أكثر من اربعة عشر ربيعاً ، وقد تسبّبت هذه الواقعة في أن يكتسب « عبد الله » شهرة خاصة بين عشيرته مضافاً إلى شهرته الكبرى بين قريش ، وأن يحظى بمكانة كبيرة عند أبيه : « عبد المطلب » بنحو خاص ، لأن ما يُكلّف الإنسان غالباً ، ويتحمل في سبيله عناء أكثر لا بدّ أن يحظى لديه بمكانة أكبر ، ويجبّه محبة تفوق المتعارف.

ومن هنا كان « عبد الله » يتمتع باحترام يفوق الوصف بين أبناء عشيرته وأفراد عائلته وأقربائه.

ثم إن « عبد الله » يوم كان يتوجه برفقة والده إلى المذبح كان يعاني من مشاعر وأحاسيس متناقضة ومتضادة ، فهو من جانب كان يُكرّم لوالده احتراماً كبيراً وحباً شديداً ، ولهذا لم يكن يجْدُ بداً من طاعته ، والانصياع لمطلبه ، بينما كان من جانب آخر يعاني من قلق ، واضطراب شديدين على حياته التي كان يرى كيف تعبت بما يدُ القدر ، وتكادُ تقضي عليها كما يقضي الخريف على

أوراق الشجر.

كما أن « عبد المطلب » نفسه كان هو الآخر تتجاذبه قوتان متضادتان : قوة الإيمان والعقيدة من جانب ، وقوة العاطفة والمحبة الأبوية من جانب آخر ، وقد أوجدت هذه الواقعة في نفسي هاتين الشخصيتين آثاراً مُرّة يصعب زوالها ، بيد أن تلك المشكلة حيث عولجت بالطريقة التي ذكرناها ونجا « عبد الله » من الموت المحقق فكر « عبد المطلب » فوراً في ان يغسل عن قلب « عبد الله » تلك المرارة القاسية بزواج « عبد الله » بأمنة ، وبذلك يقوي من عرى حياته التي بلغت درجة الانصرام ، بأقوى السُّبل ، وأمتن الوسائل.

ومن هنا توجه « عبد المطلب » إلى بيت « وهب بن عبدمناف » - فور رجوعه من المذبح آخذاً بيد ولده عبد الله . وعقد لولده على « آمنة بنت وهب » التي كانت تُعبر بالعفة ، والطهر ، والنجابة ، والكمال.

كما أنه عقد لنفسه . في ذات المجلس . على « دلالة » ابنة عم آمنة ، ورزق منها « حمزة » عم رسول الله ﷺ والمشابه له في السن ^(١).

غير أن الاستاذ المؤرخ « عبد الوهاب النجار » المدرس بقسم التخصص في الازهر الذي صحح « التاريخ الكامل » لابن الاثير ، وعلق عليه بملاحظات وهوامش مفيدة شكك في صحة هذه الرواية ، واستغربها ، وقال : لا أظن أنه يصح شيء في هذه الرواية ، إذ المعقول أن يترث « عبد المطلب » بعد ذلك الجهود المضني حتى يريح نفسه ثم يذهب ليخطب لابنه ^(٢).

ولكننا نعتقد بأن المؤرخ المذكور لو نظر إلى المسألة من غير هذه الزاوية لسبَّه عليه التصديق بهذه الرواية.

ثم أن « عبد المطلب » عيّن موعداً للزفاف ، وعند حلول ذلك الموعد تمت مراسم الزفاف في بيت « آمنة » طبقاً لما كان متعارفاً عليه في قريش ، ولبت

١ - تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٧ والمذكور في هذا المصدر « هالة ».

٢ - الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٤ ، قسم الهامش.

« عبد الله » مع « آمنة » رداً من الزمن حتى سافر إلى الشام للتجارة ، وعند عودته توفي أثناء الطريق كما ستعرف .

دِر الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام :

لا شك أنَّ التاريخ سجَّل في صفحاته كل ما يتعلق بالشعوب والاقوام من نقاط مضيئة أو مظلمة ، كقصص للعبرة والعظة .

ولكن الحب والبغض تارة والتساهل والبدعة تارة أخرى وحب اظهار المقدرة وابرار القوة الأدبية تارة ثالثة وغير ذلك من العوامل والاسباب عملت عملها فتدخلت . في جميع الأدوار والعصور . في صياغة التاريخ ، وخلطت الغث بالسمين والحقيقة بالخرافة ، وتلك هي مشكلة كبرى تقع في طريق المؤرخ الذي يريد عرض حوادث التاريخ في أمانة وإستقامة ، ولذلك يجب عليه أن يميز الحق عن الباطل ، والصدق عن الكذب من خلال الأخذ بالموازن العلمية ، والممارسة الكاملة للتاريخ . ولقد كان للعوامل المذكورة تأثير ايضا في تدوين التاريخ الإسلامي ، فالأيادي المريية المشبوهة عملت على تحريف الحقائق في هذا المجال ، بل وربما عمد بعض الاصدقاء . بمهدف تعظيم شأن النبي الأكرم ﷺ إلى نسبة بعض الأمور التي يظهر عليها آثار الاختلاق والإفتعال إليه ﷺ وهو منها بُراء .

فقد جاء في التاريخ أن نور النبوة كان يسطع في جبين « عبد الله » والد النبي ﷺ دائما ^(١) ، كما نقرأ أن « عبد المطلب » كان يأخذ بيد ولده « عبد الله » في سنين الجذب والقحط ، ويصعد الجبل ويستسقي متوسلاً إلى الله بالنور الذي كان بينا في جبين « عبد الله » ^(٢) فهذا هو ما كتبه وسجَّله كثيرٌ من علماء الشيعة والسنة في مؤلفاتهم ، ونحن لا نملك اي دليل على عدم صحته .

ولكن هذه القصة وقعت أساساً لبعض الاساطير التي لا يمكن ان تقبل بها مطلقاً

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٩ .

٢ . الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٤ .

واليك فيما يأتي ما الحَقَّ بهذه القضية التاريخية الثابتة.

قِصَّةُ فَاطِمَةَ الْخَنْعَمِيَّةِ :

و « فاطمة » هذه هي أخت « ورقة بن نوفل » الذي كان من حكماء العرب وكُتَّابهم ، وكان له معرفة كبيرة بالإنجيل . وقد ضبط التاريخ حديثه مع خديجة في بدء بعثة الرسول الأكرم ﷺ وسوف نشير إليه في محله من هذا الكتاب .

وكانت « فاطمة » أخت « ورقة » قد سمعت من أخيها عن نبوة رجل من احفاد « اسماعيل » ، ولهذا ظلَّت تنتظر ، وتبحث .

وذات يوم وعندما كان « عبد المطلب » متوجها إلى بيت آمنة بنت وهب بعد قفوله ومنصرفه من المذبح وهو آخذ بيد « عبد الله » ، شاهدت « فاطمة الخنعمية » - التي كانت تقف على مقربة من منزلها . النور الساطع من جبين « عبد الله » ، والذي كانت تنتظره مدة طويلة وتبحث عنه بشوق ، فقالت : اين تذهب يا عبد الله؟ لك مثل الإبل التي نَحَرَّتْ عنك ، وقع عليَّ الآن .

فقال : أنا مع أبي ولا استطيع خلافه وفراقه!!^(١) .

ثم تزوج « عبد الله » بآمنة في نفس ذلك اليوم ، وقضى معها ليلة واحدة . ثم في الغد من ذلك اليوم أتى المرأة « الخنعمية » التي عرضت نفسها عليه ، وأبدى استعداداه لتنفيذ رغبتها ، ولكن « الخنعمية » قالت له : ليس لي بك اليوم حاجة ، فلقد فارقك النور الذي كان معك أمس!!^(٢) .

وقيل : إنه لما عرضت تلك المرأة « الخنعمية » على « عبد الله » ما عرضت أجاها « عبد الله » بالبداهة بيبتين من الشعر هما :

أَبَا الْجَرَامِ فَاَلْمَمَاتِ وَدُبُّهُ
يَكْمِي الْكُرْمِ عَرْضَبُهُ وَدَيْبُهُ

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٥ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٥٦ النص والهامش .

ولكن لم تمر ثلاثة من زواجه بأمنة ، واقامته عندها حتى دعتة نفسه إلى ان يأتي الختعمية ، وعرض نفسه عليها قائلاً : هل لك فيما كنت اردت؟ فقالت : لقد رأيت في وجهك نورا فاردت ان يكون لي فإبي الله الا أن يجعله حيث اراد فما صنعت بعدي؟
قال : زوّجني أبي « آمنة بنت وهب »!!^(١).

علام الإختلاق في هذه القصة!

لقد غفل مختليق هذه القصة عن أمور كثيرة عند صياغته لها ، ولم يستطع اخفاء آثار الإختلاق عنها.

فلو كان يكتفي بالقول . مثلاً . بان « فاطمة » صادفت « عبد الله » ذات يوم في زقاق من الأزقة ، أو سوق من الاسواق ، وشاهدت نور النبي ساطعاً من طلعتة ففكرت في الزواج به رغبة في ذلك النور لكان من الممكن التصديق بهذه القصة ، بيد أن نصّ القصة جاء بصورة لا يمكن القبول بها للأسباب التالية :

١ . ان هذه القصة تفيد أنّ المرأة « الختعمية » عند ما عرضت نفسها على « عبد الله » ، كانت يد « عبد الله » في يد والده « عبد المطلب » ، فكيف يمكن ان تعرض تلك الفتاة نفسها عليه وتبين مطلوبها له ويدور بينهما ما يدور ، ولا يحسُ عليهما عبد المطلب؟! ثم لم تستح من عظيم قریش « عبد المطلب » الذي لم يشنه عن طاعة الله تعالى شيء حتى مقتل ولده وذبحه.

ولو قلنا أن مطلبها كان حالاً مشروعاً فان ذلك لا ينسجم مع البيتين من الشعر اللذين ردّ بهما « عبد الله » طلبها.

٢ . والأصعب من ذلك قصة عبد الله نفسه . فان ولداً مثل « عبد الله » يحترم والده إلى درجة الاستعداد لأن يُذبح وفاءً لنذر والده ، كيف يمكن أن يتفوّه في

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٧ ، والكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٤ .

حضرة والده بما نُقِل عنه؟!!

ترى أمكن لشاب نجا لتوّه من السيف والذبح ، ولا يزال يعاني من آثار الصدمة الروحية أن يستجيب لرغبات امرأة ، أو يبدي استعداده ورضاه القلبيّ لذلك لولا وجود والده معه؟!!

ترى هل كانت تلك المرأة جاهلة بالظروف ، لا تقدّر الاحوال ، ولا تعرف الوقت المناسب لطرح مطلبها ، أو أنّ مختلف هذه القصة غفل عن نقاط الضعف البارزة هذه؟!!

ثم إنّ ممّا يفضح هذه القصة ويُظهر بطلانها ما جاء في الصورة الثانية لها ، فان عبد الله . كما لا حظنا جابه طلب تلك المرأة بيتين من الشعر وقال ما حاصله بأن الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الّذي يأتي على دين الرجل وشرفه ، فكيف يجوز لمثل هذا الشاب الطاهر الغيور أن يقع فريسة لتلك الأهواء ، والرغبات الرخيصة الفاسدة ، والحال انه لم ينقض من زواجه أكثر من ثلاث ليال ، وتدفعه غريزته الجنسية إلى ان يبادر إلى بيت المرأة الخثعمية.

إنّ ماجابه به « عبد الله » دعوة تلك المرأة ، وما جاء في ذينك البيتين من الشعر اللذين يطفحان بالغيرة ، والإباء ، لخير دليل على طهارة « عبد الله » وعفته ، وتقواه ، وترفعه عن الآثام والادران ، وابتعاده عن الانجاس والادناس.

وقد علّق الاستاذ العلامة « النجار » على هذه الاسطورة بقوله : « ليس من المعقول أن يذهب عبد الله يبغي الزنا في الساعة الّتي تزوج فيها ، ودخل فيها على امرأته . »

ولكن الاستاذ « النجار » أخطأ في تشكيكه في النور النبوي الساطع في جبين « عبد الله » حيث قال معقبا على كلامه السابق : « ولكنها مسألة النور في وجهه يريدون إثباتها ورسول الله غني عن هذا كله »^(١).

فان ذلك ممّا رواه جميع المؤرخين بلا استثناء ، فلا داعي ولا وجه للتشكيك فيه!

١ . هامش الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٤ .

طهارة النبي من دنس الآباء وعهر الأمهات :

وينبغي هنا . وبالمناسبة . ان نشير إلى مسألة مهمة في تاريخ النبي الكريم ﷺ ألا وهي طهارة النسب النبوي من دنس الآباء ودناءتهم وعهر الأمهات وفسادهن فلا يكون في اجداده وجدّاته سفاح ، وزنا . وهذا ممّا اتفق عليه المسلمون ، بعد ان دلّ عليه العقل إذ لو لم يكن النبيّ منزها عن دناءة الآباء وعهر الأمهات لتنفّر عنه الطباع ولم يرغب احد في متابعتة ، والانقياد لاوامره ونواهيها .

ولقد صرح رسول الإسلام ﷺ بذلك في احاديث رواها السنة والشيعة .

فقد جاء عن النبي ﷺ انه قال :

« نقلت من الاصلاب الطاهرة إلى الارحام الطاهرة نكاحا لا سفاحا » ^(١) .

وجاء ايضا انه ﷺ قال :

« لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسبية إلى الأرحام الطاهرة » ^(٢) .

وقال الإمام اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب ؑ :

« وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله وسيّد عباده كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في

خيرهما لم يسهم فيه عاهرٌ ، ولا ضرب فيه فاجرٌ » ^(٣) .

وقال الإمام الصادق ؑ في هذا الصدد عند تفسير قول الله تعالى : « **وتقبّلك في**

السّاجدين » : ^(٤)

« في أصلاب النبيّين ، نبي بعد نبي ، حتّى اخرجته من صلب ابيه عن نكاح غير سفاح

من لدن آدم » ^(٥) .

وقد صرح علماء الإسلام من الفريقين بهذا الأمر ، واشتراطوه في النبيّ .

١ . كنز الفوائد : ج ١ ، ص ١٦٤ .

٢ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٤٣ .

٣ . نهج البلاغة : الخطبة ٢١٥ ، طبعة عبده .

٤ . الشعراء : ٢١٩ .

٥ . تفسير مجمع البيان عند تفسير الآية .

قال المحقق نصير الدين الطوسي في تجريد الاعتقاد : ويجب في النبي العصمة ... وعدم السهو ، وكل ما ينقُر عنه من دناءة الآباء وعهر الأمهات ...^(١) .
وقد وافقه على هذا العلامة القوشجي الاشعري في شرح التجريد^(٢) .
وقال العلامة المتكلم المقداد السيوري في اللوامع الالهية : ويجب أن لا يكون مولودا من الزنا ولا في آبائه دني ولا عاهر^(٣) .

وفاة عَبْدَ اللَّهِ فِي « يَثْرِب » :

لقد بَهَّ « عبد الله » بالزواج فصلاً جديداً في حياته ، وأضاء ربوعها بوجود شريكة للحياة في غاية العفة والكمال هي زوجته الطاهرة « آمنة » وبعد مدة من هذا الزواج المبارك توجه في رحلة تجارية . وبصحبة قافلة . إلى الشام بهدف التجارة .
دقت أجراسُ الرحيل ، وتحركت القافلة التجارية وفيها عبد الله ، وبدأت رحلتها من « مكة » صوب الشام ، وهي مشدودة بمئات القلوب والافتدة .
وكانت « آمنة » تمر في هذه الايام بفترة الحمل ، فقد حملت من زوجها « عبد الله » .
وبعد مُضي بضعة أشهر طلعت على مشارف مكة بوادر القافلة التجارية وهي عائدة من رحلتها ، وخرج جمع كبير من أهل مكة لاستقبال ذويهم المسافرين العائدين .ها هو والد « عبد الله » ينتظر . في المنتظرين . ابنه « عبد الله » ، كما ان عيون عروسه ولده « آمنة » هي الأخرى تدور هنا وهناك تتصفح الوجوه وتبحث عن زوجها الحبيب « عبد الله » في شوق لا يوصف .

١ . كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد : ص ٣٤٩ تحقيق الشيخ حسن زاده الأملي .

٢ . راجع : شرح القوشجي لتجريد الاعتقاد : ص ٣٥٩ .

٣ . اللوامع الالهية : ص ٣١١ .

ولكن ومع الأسف لا يجدان أثرا من « عبد الله » بين رجال القافلة!!
وبعد التحقيق يتبين أن « عبد الله » قد تمرّض أثناء عودته في يثرب ، فتوقف هناك بين
أحواله لكي يستريح قليلا ، فاذا تماثل للشفاء عاد إلى أهله في « مكة » .
وكان من الطبيعي أن يغتم هذان المنتظران « عبد المطلب وآمنة » لهذا النبأ ، وتعلو
وجهيهما آثار الحزن ، والقلق وتنحدر من عيونهما دموع الأسى والاسف .
فأمر « عبد المطلب » أكبر ولده : « الحارث » إلى أن يتوجّه إلى « يثرب » ،
ويصطحب معه « عبد الله » إلى مكة .
ولكنه عند ما دخل يثرب عرف بأن أخاه : « عبد الله » قد توفي بعد مفارقة القافلة له
بشهر واحد ، فعاد الحارث إلى مكة ، فاحبر والده « عبد المطلب » ، وكذا زوجته العزيزة «
آمنة » بذلك ، ولم يخلف « عبد الله » من المال سوى خمسة من الابل ، وقطيع من الغنم ،
وجارية تدعى « لمُ أيمن » صارت فيما بعد مربية النبي الاكرم ﷺ^(١) .

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٧ و ٨ ، والسيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٥٠ .

مَوْلِدُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ

كانت سُحْبُ الجاهلية الداكنة تُغَطِّي سماء الجزيرة العربية ، وتمحي الاعمال القبيحة والممارسات الظالمة ، والحروب الدامية ، والنهب والسلب ، ووأد البنات ، وقتل الاولاد ، كل فضيلة أخلاقية. في البيئة العربية وكان المجتمع العربيّ قد اصبح في منحدر عجيب من الشقاء ، ليس بينهم وبين الموت الا غشاء رقيق ومسافة قصيرة!!

في هذا الوقت بالذات طلعت عليهم شمس السعادة والحياة فاضاءت محيط الجزيرة الغارق في الظلام الدامس ، وذلك عندما اشرفت بيئة الحجاز بمولد النبي المبارك « مُحَمَّدٌ » ﷺ وبهذا تهيأت المقدمات اللازمة لنهضة قوم متخلف طال رزوخه تحت ظلام الجهل ، والتخلف ، وطالت معاناته لمرارة الشقاء. فانه لم يمض زمن طويل الا وملاً نور هذا الوليد المبارك ارجاء العالم واسس حضارة انسانية عظمت في كل المعمورة.

فترة الطفولة في حياة العُظماء :

ان جميع الفصول في حياة العظماء جديرة بالتأمل ، وقمينة بالمطالعة ، فرمما تبلغ العظمة في شخصية احدهم من السعة ، والسمو بحيث تشمل جميع فصول حياته

بدء من الطفولة ، بل وفترة الرضاع فتكون حياته وشخصيته برمتها سلسلة متواصلة من حلقات العظمة.

إن جميع الأدوار ، والفترات في حياة العظماء ، والنوابغ وقادة المجتمعات البشرية ، ورواد الحضارات الإنسانية وبناتها تنطوي في الأغلب على نقاط مثيرة وحساسة وعلى مواطن توجب الاعجاب.

إن صفحات تاريخهم وحياتهم منذ اللحظة التي تنعقد فيها نطفهم في أرحام الأمهات ، وحتى آخر لحظة من أعمارهم مليئة بالاسرار ، زاخرة بالعجائب.

فنحن كثيراً ما نقرأ عن أولئك العظماء في أدوار طفولتهم أنهما كانت تقارن سلسلة من الامور العجيبة ، والمعجزة.

ولو سهل علينا التصديق بهذا الامر في شأن الرجال العاديين من عظماء العالم لكان تصديقنا بأمثالها في شأن الانبياء والرسل اسهل من ذلك بكثير ، وكثير.

إن القرآن الكريم ذكر فترة الطفولة في حياة النبي موسى عليه السلام في صورة مخوفة بكثير من الأسرار ، فهو يقول ما خلاصته : ان مئات من الاطفال قُتلوا ودُبحوا بامر من فرعون ذلك العصر منعا من ولادة موسى ونشوئه.

ولكن ارادة الله شاءت ان يُولد الكليم ، وظلت هذه المشيئة تحفظه من كيد الكائدين ولهذا لم يعجز اعداؤه عن القضاء عليه أو الحاق الاذى به فحسب ، بل تربى في بيت فرعون أعدى اعدائه.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد : « وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرًّا أُخْرَى إِذْ وَأَخِينَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ لَأَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ فَلَقِيْتَ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ».

ثم يقول : « إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ » ^(١).

١ . طه : ٣٧ - ٤٠ .

ثم إن القرآن الكريم يذكر قصة ولادة المسيح ، ويصور طفولته ونشأته بشكل أعجب إذ يقول : « وَذُكِرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . مَكَ أَن يَكْفُورِي غُلَامٌ وَاسْمُهُ كُنِيَ شَرَتَ لَمْ أَكْ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَحَمَّةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَهَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِغْفَرٍ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا . فَنَادَى مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهَرَبَتْ إِلَيْكَ بِجِغْفَرٍ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا . فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَيَّرْ عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشِيرِ أَحَدًا فَكُفِّي إِنْ نَبِيًّا لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلَّمُ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا . فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا . فَأَشَارَ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . لَمْ يَكُنِ يَدُ لِلَّهِ تَلْوِي الْكِتَابِ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَوَصَّيَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَاذُمْتُ حَيًّا . بِرَأْوِ اللَّيْلِ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَاسَّلَامٌ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » (١) .

فإذا كان أتباع القرآن والتوراة والانجيل يشهدون بصحة هذه المطالب حول ولادة هذين النبيين العظيمين من اولي العزم لموسى وعيسى عليه السلام ، ويقرون بصدقها ، فلا يصح في هذه الصورة أن نستغرب وقوع أمثالها في شأن رسول الإسلام ، ونتعجب من الحوادث العجيبة التي سبقت أو رافقت ميلاده المبارك ، ونعتبرها أموراً سطحية لا تدل على شيء .
فنحن نقرأ في الكتب التاريخية وفي كتب الحديث عن وقوع حوادث عجيبة

١- مريم : ١٦ - ٣٣ .

يوم ولادة النبي الكريم ﷺ مثل : ارتجاس أيوان كسرى ، وسقوط اربع عشرة شرفة منه ، وانخماد نار فارس التي كانت تُعبد ، وانخفاف بحيرة ساوة ، وتساقط الاصنام المنصوبة في الكعبة على وجوهها ، وخروج نور معه ﷺ اضاء مساحة واسعة من الجزيرة ، والرؤيا المخيفة التي رآها انوشيروان ومؤبدوه ، وولادة النبي ﷺ مختوناً مقطوع السُرّة ، وهو يقول : « أُلله أكبر ، والحمد لله كثيراً ، سُبْحان الله بكرة وأصيلا » .

وقد وردت جميع هذه الامور في المصادر التاريخية الأولى ، والجوامع الحديثية المعتمدة^(١) . ومع ملاحظة ما ورد في حق موسى وعيسى ونقلنا بعضه هنا ، لا يبقى أي مجال للشك في صحة هذه الحوادث .

نعم ينبغي أن نسأل هنا : ماذا كانت تهدف هذه الحوادث غير العادية؟

وفي الاجابة على هذا السؤال يجب ان نقول :

إن هذه الحوادث الخارقة والعجيبة كانت تهدف إلى أمرين :

الأول : أن تدفع بالجبابرة ، والوثنيين وعبدة الاصنام إلى التفكير فيما هم فيه فيسألوا أنفسهم : لماذا انطفأت نيرانهم التي طالما بقيت مشتعلة تحرسها اعيان السدنة والكهنة؟ لماذا سببت هزة خفيفة في ارتجاس ايوان كسرى العظيم المحكم البنيان ، ولم يحدث لبيت عجوز في نفس ذلك البلد شيء؟

لماذا تماوت الاصنام المنصوبة في الكعبة وحولها ، وانكبت على وجودها بينما بقيت غيرها من الاشياء على حالها لم يصبها شيء ابدئاً؟ لو كانوا يفكرون في تلك الحوادث لعرفوا أن تلك الحوادث كانت تبشّر بعصر جديد ... عصر انتهاء فترة الوثنية وزوال مظاهر السلطة الشيطانية

١ . تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ، ص ٥ ، بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ٢٤٨ . ٣٣١ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٦٧ . ٧٨ وغيرها .

واندحارها؟

الثاني : ان هذه الحوادث جاءت لتبرهن على شأن الوليد العظيم ، وانه ليس وليداً عادياً ، فهو كغيره من الانبياء العظام الذين رافقت مواليدهم أمثال تلك الحوادث العجيبة ، والوقائع الغريبة ، كما يخبر بذلك القرآن الكريم فيما يحدثه عن حياة الانبياء . كما عرفت . ونخبر بها تواريخ الشعوب والملل المسيحية واليهودية.

واساسا لا يلزم ان تكون تلك الحوادث سببا للعبرة ووسيلة للاتعاظ يوم وقوعها ، بل يكفي ان تقع حادثة في احدى السنين ، ثم يعتدُّ بها الناس بعد أعوام عديدة ، وقد كانت حوادث الميلاد النبوي من هذه المقولة ، لأن الهدف منها كان هو ايجاد هزة في ضمائر أولئك الناس الذين كانوا قد غرقوا في احوال الوثنية ، والظلم ، والانحراف الاخلاقي حتى قمة رؤوسهم ، وعشعشت الجهالة والغفلة في اعماقهم حتى النخاع.

إن الذين عاشوا في عصر الرسالة ، أو من اتى من بعدهم عندما يسمعون نداء رجل نهض . بكل قواه . ضدّ الوثنية ، والظلم ، ثم يطالعون سوابقه ، ويلاحظون إلى جانب ذلك ما وقع ليلة ميلاده من الحوادث العظيمة التي تتلاءم مع دعوته ، فانهم ولا شك سيعتبرون تقارن هذين النوعين من الحوادث دليلا على صحة دعواه ، وصدق مقاله فيصدقونه ، وينضون تحت لوائه.

إن وقوع أمثال هذه الحوادث الخوارق عند ميلاد الانبياء مثل « إبراهيم » و « موسى » و « المسيح » و « محمد » صلى الله عليه وعليهم اجمعين لا يقل اهمية عن وقوعها في عصر رسالتهم ونبوتهم ، فهي جميعاً تنبع من اللطف الالهي ، وتتحقق لهداية البشرية ، وجذبها إلى دعوة سفرائه ورسله.

في أي يوم وُلد رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟

لقد اتفق عامة كُتّاب السيرة على أن ولادة النبي الكريم كانت في عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية.

لأنه ﷺ رحل إلى ربه عام (٦٣٢) ميلادية عن (٦٢)

أو (٦٣) عاماً ، وعلى هذا الأساس تكون ولادته المباركة قد وقعت في سنة (٥٧٠) ميلادية تقريبا.

كما أن أكثر المحدثين والمؤرخين يتفقون على أنه ﷺ ولد في شهر ربيع الأول. انما وقع الخلاف في يوم ميلاده ، والمشهور بين محدثي الشيعة أنه كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر. والمشهور بين أهل السنة أنه ﷺ وُلد في يوم الاثنين الثاني عشر من ذلك الشهر^(١).

أي هذين القولين هو الصحيح؟

ان من المؤسف جدا أن يعاني التقويم الدقيق لميلاد رسول الإسلام العظيم ﷺ ووفاته بل مواليد ووفيات أكثر قادتنا وائمتنا لمثل هذا الارتباك ، وان لا تكون اوقاتها وتواريخها محددة معلومة على وجه التحقيق واليقين!

ولقد تسبب هذا الارتباك في أن لا تستند أكثر احتفالاتنا ومآتمنا إلى تاريخ قطعي ، في حين نجد أن علماء الإسلام كانوا يهتمون . عادة بتسجيل الوقائع التي حدثت على مدار القرون الإسلامية في نظم خاص وعناية كبيرة ، ولكننا لا ندرى ما الذي منع من تسجيل مواليد هذه الشخصيات العظيمة ووفياتهم على نحو دقيق ، وصورة قطعية؟!

على أن مثل هذه المشكلة يمكن حلها بدرجة كبيرة بالرجوع إلى أهل البيت ﷺ ، فان اي مؤرخ لو أراد ان يكتب عن حياة شخصية من الشخصيات واراد أن يلم بكل تفاصيلها ودقائقها لم يسمح لنفسه بان يفعل ذلك من دون ان يراجع ابناء أو اقرباء تلك الشخصية التي يزعم ترجمتها والكتابة عنها.

١ - وقد ذكر المقرئ في « الامتناع » ص ٣ جميع الاقوال المذكورة في يوم ميلاد النبي وشهره وعامه ، فراجع.

ولقد مضى رسول الله ﷺ وخلف من بعده ذرية وقربى وهم الذين يطلق عليهم اهل البيت.

واهل بيته يقولون : لو كان صحيحا وحقا ان رسول الله ﷺ أبونا وجدنا ، وقد نشأنا في بيته وترعرعنا في حجره فاننا نقول انه قد ولد يوم كذا وتوفي يوم كذا فهل يبقى بعد ذلك مجال لأن نتجاهل قولهم ورأيهم ، ونختار ما يقوله الآخرون من الأبعدين ، وقدماً قالوا : أهل البيت ادري بما في البيت؟ (١).

فَتْرِي الْحَمْل :

المعروف أن النور النبوي الشريف استقر في رحم آمنة . الطاهر في ايام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة (٢) ، ولكن هذا الامر لا ينسجم مع الرأي المشهور بين عامة المؤرخين من كون ولادة النبي الاكرم ﷺ في شهر ربيع الأول ، إذ في هذه الصورة يجب ان نعتبر مدة حمل « آمنة » به ﷺ إما ثلاثة أشهر واما سنة وثلاثة اشهر ، وكلا الامرين خارجان عن الموازين العادية في الحمل ، كما أنه لم يعدّه احد من خصائص النبي ﷺ (٣).

ولقد عالج المحقق الكبير الشهيد الثاني (٩١١ . ٩٦٦ هـ) هذا الإشكال بالنحو التالي إذ قال :

إن ذلك مبني على النسب الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وقد نهي الله تعالى عنه ، وقال : « إِنَّمَا النَّسَبُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ».

وتوضيح هذا هو أن أبناء « إسماعيل » كانوا تبعاً لاسلافهم يؤدون مناسك الحج في شهر ذي الحجة ، ولكنهم رأوا . في ما بعد . أن يحجوا في كل شهر عامين

١ . ومن هنا لا بد من الاعتراف بان ما ينقله ويكتبه الامامية من تفاصيل تتعلق بحياة رسول الله ﷺ هي اقرب من غيرها إلى الحقيقة لأنها مأخوذة عن اقربائه وابنائهم عليهم السلام .
٢ . الكافي : ج ١ ، ص ٤٣٩ أبواب التاريخ باب مولد النبي ﷺ ووفاته .
٣ . قد ذكر الطريحي فقط في مجمع البحرين في مادة شرق قولاً بهذا لم يُسَم قائله .

يعنى ان يحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم عامين وفي صفر عامين وهكذا.
وهذا يعنى أن الحج يعود كل اربعة وعشرين سنة في موضعه الطبيعي (اي شهر ذي الحجة).

وقد جرى العرب المشركون على هذه الطريقة حتى صادفت أيام الحج شهر ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة النبوية فحج النبي ﷺ في تلك السنة حجة الوداع ، فنهى في خطبة له عن هذه الفعلة (التي تسمى بالنسيء بمعنى تأخير الحج عن موضعه وموعده) فقال : « أَلَا مَنَّ الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ السَّنَةَ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ : ثَلَاثٌ مَتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ ، وَمِحْرَمٌ ، وَرَجَبٌ الَّذِي بَيْنَ جَمَادِي وَشَعْبَانَ » (١) .

وقد أراد ﷺ بذلك أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها ، وعاد الحُجج إلى ذي الحجة وبطل النسيء .

ونزل في هذه المناسبة قول الله تعالى : « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَامًا وَيُجْرِمُونَهُ عَامًا » (٢) .

من هنا تنتقل أيام التشريق كل سنتين من مواضعها ، على ما عرفت ، وحينئذ لا منافاة بين القول بأن نور النبي انتقل إلى رحم أمه « آمنة بنت وهب » في ايام التشريق ، وبين ما اجمع عليه عامة المؤرخين من أنه وُلد في شهر ربيع الأول. وانما تكون المنافاة بين هذين الامرين إذا كان المراد من ايام التشريق هو اليوم الحادي عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر من شهر ذي الحجة خاصة ، ولكن قلنا ان ايام التشريق كانت تنتقل من شهر إلى آخر باستمرار ، فيلزم أن يكون عام حمل أمه به ، وعام ولادته أيام الحج الواقعة في شهر جمادى الاولى ، وحيث أنه ﷺ وُلد في شهر ربيع الأول فتكون من حمل « آمنة » به عشرة أشهر تقريبا.

١ . مجمع البيان : ج ٥ ، ص ٢٩ .

٢ . التوبة : ٣٧ .

مُؤاخَذات وإشكالات على هذا البيان :

إن النتيجة التي توصل إليها المرحوم « الشهيد الثاني » ليست صحيحة ، كما أن المعنى الذي ذكره للنسيء لم يقل به من بين المفسرين إلا مجاهد ، وأما الآخرون فقد فسروه بنحو آخر فلا يكون التفسير الذي مرَّ قوياً ، وذلك :

أولاً : لأن « مكة » كانت مركزاً لجميع الاجتماعات كما كانت معبداً للعرب جميعاً ، ولا يخفى أنَّ تغيير الحج في كل سنتين مرة واحدة من شأنه أن يسبب الالتباس لدى الناس ويوقعهم في الخطأ والاشتباه ، وبالتالي يتعرَّض ذلك الاجتماع العظيم ، وتلك العبادة الجماعية إلى خطر الزوال .

ولهذا يُستبعد أن ترضى قريش والمكيون بأن يخضع ما هو وسيلة لعزتهم وافتخارهم للتغيير والتبدل الذي من عواقبه أن يتعرض وقته وموعده للنسيان ، فيذهب ذلك الاجتماع ، ويزول من الأساس .

ثانياً : إذا أخذنا ما قاله « الشهيد الثاني » لحاسبة دقيقة فإن كلامه يستلزم أن تكون أيام التشريق والحج في السنة التاسعة من الهجرة واقعة في شهر ذي القعدة لا جمادى الأولى في حين أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كُلف في هذه السنة بالذات بأن يقرأ سورة البراءة على المشركين في أيام الحج ، والمفسرون والمحدثون متفقون على أنه عليه السلام تلاها عليهم في العاشر من شهر ذي الحجة ثم أمهلهم أربعة أشهر ابتداءً من شهر ذي الحجة لا ذي القعدة^(١) .

ثالثاً : إن النسيء يعني أنَّ العرب حيث لم يكن لديهم مصدر صحيح للرزق بل كانوا يعيشون في الاغلب ، على النهب والغارة لهذا كان من الصعب عليهم ترك الحرب ، في الأشهر الحرم الثلاث (وهي ذوالقعدة وذوالحجة ، والمحرم) لهذا ربما طلبوا من سدنة الكعبة بأن يسمحوا لهم بالقتال في شهر المحرم ، ثم يتركون

١ . ولقد قام العلامة المجلسي في بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ٢٥٣ بهذه الحاسبة ، وإن لم يشر إلى الإشكال الذي أوردناه فليراجع .

الحرب في شهر صفر ، وهذا هو معنى النسيء فلم يكن نسيء وتأخير للشهر الحرام في غير شهر محرّم ، وفي الآية نفسها إشارة إلى هذا المطلب : « يُجْلُوْنَهُ عَامَا وَيُحْرَمُوْنَهُ عَامَا » .
والذي نراه في حل هذه المشكلة هو : أن العرب كانوا يحجّون في وقتين : أحدهما شهر ذي الحجة ، والثاني شهر رجب ، وقد كانوا يؤدّون كل مناسك الحج في هذين الوقتين على السواء ، فيمكن أن يكون المقصود من حمل « آمنة » برسول الله ﷺ في أيام التشريق هو شهر رجب فإذا اعتبرنا يوم ولادته هو السابع عشر من شهر ربيع الاول كانت مدة حمل « آمنة » به ثمانية أشهر وإياما .

الاحتفال بذكرى المولد النبوي :

وينبغي ان يحتفل المسلمون جميعا بمولد النبي الاكرم ﷺ وقيموا المهرجانات الكبرى في هذه المناسبة الشريفة التي كانت مبدأ الخير والبركة ، ومنشأ السعادة والكرامة للبشرية جمعاء ، وأية مناسبة اخرى بالاحتفال والاحتفاء من هذ المناسبة؟
على ان اقامة مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تكريم رسول الله ﷺ وهو امر مطلوب ومحبوب في الشريعة المقدسة .

فقد قال الله تعالى : « فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوْهُ وَنَصَرُوْهُ وَاتَّبَعُوا النُّوْرَ الَّذِي اُنُوْرَ مَعَهُ وَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ^(١) .

وعزّ بمعنى كرمّ وبجّل كما في اللغة ^(٢) وهو لا يختص بزمان دون زمان ، فعلى المسلمين في كل وقت وزمان ان يعظّموا شأن رسول الله ﷺ ويكرّمونه ، سواء في حياته أو بعد مماته ، لما له من فضل عظيم على الناس ، ولما

١ . الأعراف : ١٥٧ .

٢ . راجع مفردات الراغب : ماؤه عزر .

له من منزلة عند الله تعالى .

كيف لا والاحتفال بميلاده لا يعني سوى ذكر أخلاقه العظيمة ، وسجايه النبيلة ، والاشادة بشرفه وفضله وهي أمور مدحه القرآن الكريم بها إذ قال سبحانه : « **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** » ^(١) وقال تعالى أيضا : « **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** » ^(٢) وغير ذلك من الآيات المادحة لرسول الله ﷺ .

فان الاحتفال بميلاد رسول الله ﷺ الذي يتحقق بذكر صفاته وأخلاقه والاشادة به خير مصداق لرفع ذكره ، الذي فعله الله بنحوها . ولو كان رفع ذكر النبي ﷺ أمراً غير جائز ولا صحيح ، بل فعلا قبيحاً لما فعله الله ، فيكفي في حسنه وصحته بل ومشروعيته ومطلوبيته ان الله تعالى فعله بالنسبة لنبيه ﷺ . وهل يكون الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ ، واطهار السرور والشكر لله تعالى بمقدم نبيه المبارك عبادة للنبي كما يزعم البعض إذ يقول :

« **الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم** » ^(٣) .
والحال ان العبادة في مفهومها الاصطلاحي الموجب للشرك والكفر ليس إلا الخضوع لمن يُعْتَقَدُ بالوهيته وتعظيمه بهذه النية ^(٤) واين هذا من ذكر فضائل النبي في يوم مولده والابتهاج بمقدمه والشكر لله على ولادته .

ثم ان تعظيم رسول الله ﷺ ينطلق من كونه عبداً مطيعاً لله تعالى ، ادى رسالته بصدق واخلاص ، وجسّد بسلوكه وسيرته كل مكارم الاخلاق اصدق تجسيد فالاحتفال بمولده الكريم احتفال بالقيم السامية ، وشكر لله على منّه ، واطهار للحب الكامن في النفوس ليس إلا .

والزعم بانه محرّم لكونه بدعة ، أو لأنه لا يخلو عن اشتماله على منكرات

١ . القلم : ٤ .

٢ . الانشراح : ٤ .

٣ . فتح المجيد : ص ١٥٤ ، ثم نقل عن كتاب قرة العيون ما يشابه هذا المضمون .

٤ . راجع مفاهيم القرآن في معالم التوحيد : ص ٤٠٤ . ٤٤٠ .

ومحرمات كالرقص والغناء فهو مرفوض ، مردود لان الكلام انما هو حول اصل الاحتفال مجردا عن المحرمات والمنكرات.

ان الاحتفاء والاحتفال بمولد خاتم النبيين رسول الله ﷺ انما هو تكريم لمن كرمه الله تعالى ، وامر بتكريمه ، وحث على احترامه وحبه ، ومودته ، وانه بالتالي اداء شكر لله تعالى على تلك الموهبة العظيمة ، وتلك العطية المباركة حيث منّ سبحانه على البشرية عامة وعلى المسلمين خاصة بأن شرف الارض بمولد عظيم نعمت الارض ببركة شخصيته وخلقه ، واشرقت بنور رسالته ودعوته ، فاية نعمة ترى اولى بالشكر من هذه ، واي شكر اجمل وافضل من الأحتفاء بمولد هذا النبي العظيم ﷺ ، وذكر فضائله ، ومناقبه ، للتعرف عليها ، والافتداء بها ، وتشديد الحب له بسببها ، والابتهاال إلى الله في يوم ميلاده ، وطلب التوفيق الالهي لمتابعته ، والسير على نهجه ، والدفاع عن رسالته ، والذبّ دون دينه ، بعد الشكر لله تعالى على موهبته هذه؟؟

هذا ولقد درج المسلمون في العصور الإسلامية الاولى على الاحتفال بذكرى المولد النبويّ وأنشأوا القصائد الرائعة في مدحه ، وذكر خصاله ومكارم اخلاقه ، واطهروا السرور بمولده والشكر لله تعالى بلطفه ، وتفضله به ﷺ على البشرية.

قال الإمام الدياربركري في تاريخ الخميس في هذا الصدد :

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ ويعملون الولائم ، ويتصدقون في لياليه بانواع الصدقات ويظهرون السرور ، ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم (١).

اجل ينبغي على المسلمين ان يحتفلوا بمقدم نبهم الكريم ولا يعبأوا بما قاله البعض حيث قال : « الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من

١ . تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس : ج ١ ، ص ٢٢٣ نقلا عن المواهب اللدنية : ج ١ ، ص ٢٧ للقسطلاني.

العبادة لهم وتعظيمهم» (١).

فهذا القول مغالطة صريحة ، ان لم يكن نابعاً عن الغفلة والجهل بعد ان تبين حقيقة الاحتفال واقامة الذكريات احتفاء بالمولد النبوي (٢).

مَراسم تسمية النبي ﷺ :

حلَّ اليوم السابع من الميلاد المبارك ، فعقَّ عبد المطلب عن النبيّ بكبش شكراً لله تعالى ودعا جماعة ليشتركوا في الاحتفال الذي حضره عامة قريش لتسمية النبيّ ، وسمّاه « محمّداً » ، وعندما سألوه عما حمّله على أن يسمي هذا الوليد المبارك « محمّداً » وهو اسم لم يعرفه العرب الا نادرا أجاب قائلاً : أردت أن يحمد في السماء والأرض (٣).

وإلى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله :

فَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجَلِّهَ فَيَذُفَاءَ وَالْعَيْرِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ (٤)
ومن المسلم أن هذا الإختيار لم يكن ليتم من دون دخالة للإلهام الالهي ، لأن اسم « محمّد » وإن كان موجوداً عند العرب إلا أنه قلّ من كان قد تسمى بهذا الإسم ، فحسب ما استقصاه بعض المؤرخين لم يتسم به إلى ذلك اليوم من العرب الا ستة عشر شخصاً كما يقول شاعرهم :

لَـذِيقَ بَابِ بِاسْمِ مُحَمَّدٍ مِنْ قَبْلِ خَيْرِ الْخَلْقِ ضِعْفِ ثَمَانٍ (٥)
ولا يخفى أن نُدرة المصايق لأي لفظ من الالفاظ أو اسم من الأسماء من شأنها أن تقلل فرص الاشتباه فيه ، وحيث أن الكتب السماوية كانت قد أُخبرت عن إسم النبي الخاتم ﷺ وصفاته ، وعلائمه الرُوحية والجسمية ، لذلك يجب أن تكون علائمه ﷺ واضحة جدا جدا

١ . هوامش الفتح المجيد.

٢ . راجع للتوسّع : معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٣ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٧٨ و ٧٩.

٤ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ١٢٠ ، والسيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٧٨ و ٧٩.

٥ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٨٢ ثم يذكر صاحب السيرة اولئك الأشخاص في بيتين آخرين.

حتى لا يتطرق إليها التباسٌ أو اشتباهٌ ، وقد كان من علائمه ﷺ اسمه الشريف ، فيجب أن تكون مصاديقها قليلة جدا حتى يزيل ذلك أي عروض للشك والترديد في تشخيص النبي الاكرم ﷺ خاصة إذا ضُمَّت إليه بقية أوصافه وعلائمه ، وخصوصياته.

خَطَأُ الْمُسْتَشْرِقِينَ :

لقد ذكر القرآن الكريم اسمين أو عدة أسماء للنبي الاكرم ﷺ .
ففي سورة آل عمران ومحمد والأحزاب والفتح في الآيات ١٤٤ و ٢ و ٤٠ و ٢٩ (١)
سماه « محمدًا » (٢) .

وفي سورة الصف الآية ٦ (٣) دعاه « أحمد » .
والعلة في تسميته بهذين الاسمين أن امه « آمنة » سمته « أحمدًا » قبل أن يسميه جده ،
كما هو مذكور في التاريخ .

وعلى هذا فان ما ذكره بعض المستشرقين . في معرض الاعتراض . بأن الإنجيل . حسب
تصريح القرآن الكريم في سورة الصف الآية ٦ . بشّر بني اسمه « أحمد » لا « محمد » كلام
لا اساس له ولا مبرر ، لأن القرآن الكريم الذي سمى نبينا بـ « أحمد » سماه في عدة مواضع بـ
« محمد » فإذا كان المصدر في تعيين اسم النبي هو : القرآن الكريم ، فان القرآن سماه بكلا
الاسمين ، في موضع باسم

١ . يعتقد البعض أن هذا ليس اسما للنبي ﷺ بل هو من الحروف المقطعة في القرآن .

٢ . قال تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » .

وقال تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِرَأْسِهِمْ نُزِّلْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ » .

وقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا مُحَمَّدُ بَشِّرْ نَبِيَّكَ بِرَأْسِهِمْ سَوَّلَ اللَّهُ لَكَ النَّبِيِّينَ » .

وقال عز وجل : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »

٣ . إذ قال سبحانه : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ مِنْ بَيْنِهِمْ اسْمُهُ أَحْمَدُ » .

« محمد » ، وفي موضع آخر باسم « احمد » .

« أحمد » كان من أسماء النبي المشهورة :

كلُّ من كان له ادنى إلمام بتاريخ النبي الأكرم ﷺ عَلِمَ أنه ﷺ كان يُدعى بإسمين في الناس منذ صغره أحدهما : « محمد » الذي سمّاه به جدُّه « عبد المطلب » ، والآخر « أحمد » الذي سمته به أمه « آمنة » .

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الإسلامي ، وقد روى المؤرخون هذا الأمر ، ويمكن للقارئ الكريم أن يقرأه في السيرة الحلبية ^(١) .

ولقد أنشأ عمُّه « أبو طالب » ، الذي أنيطت إليه كفالته بعد وفاة عبد المطلب ، فبقي يقوم بهذه المهمة طوال اثنين وأربعين عاماً بكل حرص ورغبة ، ولم يمتنع في هذا السبيل عن بذل كل ما استطاع من غال ورخيص أنشأ في ابن أخيه أبياتا سمّاه في بعضها « محمد » وفي بعضها الآخر « أحمد » ، وهذا يكشف عن انه ﷺ كان معروفاً آنذاك بكلا الاسمين .

واليك فيما يأتي بعض هذه الأبيات التي سُمي فيها « أبو طالب » النبي باسم احمد :

- ١ . إن يكن ما أتى به أحمد اليوم سبّنا وكان في الحشر ديننا
- ٢ — وقوليه لأحمد أنت أمرء خلبوف الحديث ضعيف النسب
- ٣ . وإن كان أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب
- ٤ . أراد أقتل أحمد ظالموه وليس يقتلهم فيهم زعيم
- ٥ . ألا إن خير الناس نفسا ووالدا إذا عبّ سادات البرية أحمد
- ٦ . فلبسنا وبيت الله نسلم أحمدا لعزّء من عض الزمان ولا كرب ^(٢)

وقد سُمي « أبو طالب » النبي ﷺ في ابيات اخرى بأحمد

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٨٢ و ٨٣ .

٢ . ديوان أبي طالب عليه السلام .

أيضا قد ذكرها كبار المحققين من المؤرخين والمحدثين ونسبوها إلى أبي طالب ولكنها غير موجودة في ديوانه ^(١).

كما وأنه قد سماه غير أبي طالب في أبياته بأحمد مما يدل على أنه كان مشتهراً بهذا الاسم في ذلك الزمان ، وتلك الابيات كثيرة تفوق حدّ الحصر والاحصاء لكننا نقل نماذج منها هنا :

قال حسان بن ثابت في رثائه للنبي ﷺ :

مفجعة قد شقها فقد أحمد فظلت لآلاء الرسول تُعَدُّ
أطالت وقوفا تذرّف العين جُهدُها على طلل القبر الّذي فيه أحمد ^(٢)
وقال في رثائه أيضا :

صَلَّى الاله وَمَنْ يُحِيقُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمَبَارِكِ أَحْمَد ^(٣)
وقال في رثاء جعفر بن أبي طالب الطيّار :

فَمَنْ كَانَ أَوْ يَكُونُ كَأَحْمَدِ نِظَامِ الْحَقِّ أَوْ نِكَالِ الْمَلْحَدِ ^(٤)
وقال حسان وهو يذكر معجزة من معاجز النبي ﷺ :

فَفِي كَيْفٍ أَحْمَدٌ قَدْ سَبَّحَتْ عُيُونُ مِنَ الْمَاءِ يَوْمَ الظَّمَا ^(٥)
وقال كعب بن مالك :

فَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ أَحْمَدٌ سَبَّحَتْ صِنَاغِرَ الْحَصَى فِي كَفِّهِ بِالْتَّرْنَمِ ^(٦)
وقال « ورقة بن نوفل » يوم أخبرته خديجة بنزول الوحي على النبي ﷺ :

١ . مثل قوله :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَلِفْتُ وَجِدًا بِأَحْمَدِ وَحَبِيبُهُ جُوبَ الْحَيْبِ الْمَوَاصِلِ
زَعَمْتُ قَرِيشًا أَحْمَدٌ سَاحِرٌ كَبَّرَتْ رَوْبَ الرَاقِصَاتِ إِلَى الْحَبْرَمِ
راجع ديوان أبي طالب ، وسيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٢٧٢ ، وشرح النهج لابن أبي الحديد : ج ١٤ ، ص ٧٩ وغيرها .

٢ و ٣ . ابن هشام في سيرته : ج ٢ ، ص ٦٦٧ و ٦٦٦ ، وابن سعد في طبقاته : ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

٤ . شاعر عهد الرسالة : تحقيق محمد عزت نصر الله .

٥ و ٦ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٤١٣ و ٤١٥ .

- فإن بك حقا يا خديجة فاعلمي حديثك إيانا فاحمد مُرْسَل (١)
وقالت عاتكة بنت عبدالمطلب ترثي النبي ﷺ :
يا عين جُودي ما بقيت بعبرة سَحًا على خير البرية أحمد (٢)
وقال العباس في مناسبة تزويج النبي ﷺ بخديجة :
أحمد سَيِّد الروى خير ماش وأكرب (٣)
فتحة الرضاع في حياة النبي ﷺ :

لم يرتضع وليد قريش المبارك « محمد » من أمه سوى ثلاثة أيام ، ثم حَظِيَّت بفخر إرضاعه . بعد ذلك . امرأتان هما :

١ . « ثوية » مولاة « أبي لهب » ، وقد أرضعته أربعة أشهر فقط ، وكان النبي ﷺ وزوجته الوفية : « خديجة بنت خويلد » يقدّر أن هذا العمل لها حتى آخر لحظات حياتها (٤) .

و « ثوية » هذه كانت قد أرضعت قبل ذلك « حمزة » عم النبي ﷺ و « ابا سلمة بن عبد الله المخزومي » أيضا فكانوا إخوة من الرضاعة (٥) .

وقد بعث رسول الله ﷺ بعد مبعثه ، من يشتريها من « أبي لهب » ليعتقها فإلى (٦) . وكان النبي ﷺ يكرمها كلما دخلت عليه ، وكان يبعث إليها بالصلة إلى أن بلغه خبر وفاتها عند منصرفه من وقعة « خيبر » فسأل عن ابنها ف قيل : مات قبلها ، فسأل عن قرابتها ، ف قيل : لم يبق منهم أحد (٧) .

٢ . « حليلة السعدية » بنت ابي ذؤيب التي كانت من قبيلة سعد بن بكر بن هوازن ، وكان أولادها عبارة عن : « عبد الله » ، « أنيسة » ، « شيماء » ، وقد

-
- ١ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ١٩٥ .
 - ٢ . الطبقات الكبرى : ج ٢ ، ص ٣٢٦ .
 - ٣ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٧٢ .
 - ٤ . تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس : ج ١ ، ص ٢٢٢ .
 - ٥ . السيرة النبوية : ج ٣ ، ص ٩٦ .
 - ٦ . الكامل في التاريخ : ج ١ ، ص ٢٧١ .
 - ٧ . تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٢٢٢ . ٢٢٥ نقلا عن سيرة مغطاي وغيره .

قامت آخر أولادها وهي « الشيماء » بحضانة النبي ﷺ أيضا :

وقد كان من عادة العرب يومذاك هو أن يدفعوا أولادهم الرضعاء إلى المراضع اللائي كُنَّ يَعِشْنَ في البوادي لينشأوا في تلك البيئات المعروفة بطيب هوائها ، وقلة رطوبتها ، وعذوبة مائها ببنية قوية ، هذا مضافاً إلى صيانتهم عن خطر الوباء الذي كان يهدد الأطفال في « مكة » ، ولأن ذلك كان له مدخلٌ عظيم ، وتأثيرٌ بليغ في فصاحة المولود لسلامة لغة أهل القبائل الساكنة في البوادي آنذاك.

وكانت مراضعُ بني سعد من المشهورات بهذا الأمر بين العرب ، فقد كانت نساء هذه القبيلة التي كانت تسكن حوالي « مكة » ونواحي الحرم يأتين « مكة » في كل عام في موسم خاص يلتمسن الرضعاء ويذهبن بهم إلى بلادهن حتى تتم الرضاعة. وكان النبي ﷺ قد تجاوز شهره الرابع لما قدمت نساء من بني سعد « مكة » يلتمسن الرضعاء في سنة جدب وقحط ، ولهذا كُنَّ بحاجة شديدة إلى مساعدة أشرف « مكة » واعيانها.

ويقول بعض المؤرخين : أنه لم تقبل أية واحدة من تلك المراضع أن تأخذ « محمداً » بسبب يتمه ، وقد كان أغلبهن يُردن أن تأخذن من يكون له أبٌ حيٌّ حتى يُغدق عليهنَّ بالمساعدات والصلوات ، وحتى « حليلة » هي الأخرى أبت أخذهُ ، ولكنها ايضاً لم تحصل على طفل لهُزال جسمها ، فاضطرت إلى أن تأخذ حفيد « عبد المطلب » وقالت لزوجها : والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلاخذنَّهُ ، فقال لها زوجها : لا عليك ان تفعلني ، عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة.

ولقد اصاب الزوجان في ظنهما هذا ، فمنذ أن أبدت « حليلة » استعدادها للخدمة ذلك اليتيم شملت اللطاف الالهية كل مجالات حياتها^(١).

إن القسم الأول من هذه القصة ليس سوى اسطورة ، لأن مكانة البيت

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٦٢ و ١٦٣ .

الهاشمي الرفيعة ، وشخصية رجل عُرفَ بِكَمالِ الجود والاحسان ، وبعون المحتاجين والمحرومين كانت سببا في أن لا تعرض المرضعات عن اخذ « مُحَمَّد » فحسب ، بل يتنازعن على اخذه ولهذا لا يكون هذا القسم من التاريخ سوى اسطورة تكذبها الحقائق.

واما علة عدم اعطائه ﷺ إلى غير « حليلة » من المرضعات فهي : أن وليد قريش لم يقبل أيّ ثدي من أئداء تَلِكُم المرضعات ، ولم يزل كذلك حتى قبل ثدي « حليلة السعدية » ، فسّر بذلك « عبدُ المطلب » وأهله سرورا عظيماً ، بعد أن حزنهم امتناعه عنهم قبل ذلك ^(١).

قالت « حليلة » : استقبليني عبدُ المطلب فقال : من انت ، فقلت : أنا امرأة من بني سعد ، قال : ما أسمك؟ قلت : حليلة ، فنبسّم « عبد المطلب » وقال : بَخْ بَخْ سَعد وحلْم ، خصلتان فيهما خيرُ الدهر ، وعز الأبد ^(٢).

نظرة الإسلام في تأثير الرضاع :

وهنا ينبغي بالمناسبة أن نشير إلى نظرة الإسلام في تأثير الرضاع في شخصيّة الإنسان. فقد سبق الإسلام العلم الحديث في الكشف عن آثار اللبن في تكوين الإنسان الخُلقي والنفسي والعضوي سلبا وإيجابا.

ولهذا حثّ الإسلام على استرضاع الام ، كما حث على اختيار المرضعات الصالحات ونهى عن استرضاع اليهودية والمجوسية والنصرانية والمجنونة منعاً من انتقال طباعهنّ إلى الطفل عن طريق اللبن.

واستكمالاً لهذا البحث نورد جملة من الأحاديث التي تصرح بهذه الحقيقة العلمية الهامة :

١ . قال اميرالمؤمنين علي عليه السلام :

١ . بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ٣٤٢ و ٣٤٣ .

٢ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٨٩ .

- « تَخَيَّرُوا لِلرَّضَاعِ كَمَا تَخَيَّرُونَ لِلنِّكَاحِ فَإِنَّ الرَّضَاعَ يُعَيِّرُ الطَّبَاعَ » ^(١) .
- ٢ . وعنه عليه السلام أيضا :
- « أَنْظِرُوا مَنْ يُرْضَعُ أَوْلَادَكُمْ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَشْبُ عَلَيْهِ » ^(٢) .
- ٣ . عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام انه قال :
- « لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُعَدِي ، وَإِنَّ الْعُلَامَ يَنْزِعُ إِلَى اللَّبَنِ ... » ^(٣) .
- ٤ . وعنه عليه السلام أيضا :
- « اسْتَرْضِعْ لَوْلَدِكَ بِلَبَنِ الْحِسَانِ وَإِيَّاكَ مَلَقِيحًا فَإِنَّ اللَّبْنَ قَدْ يُعَدِي » ^(٤) .
- ٥ . وعن علي عليه السلام انه قال :
- « مَا مِنْ لَبَنٍ يَرْضَعُ بِهِ الصَّبِيُّ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَيْهِ مِنْ لَبَنِ أُمِّهِ » ^(٥) .

١ . قرب الأسناد : ص ٤٥ .

٢ . فروع الكافي ج ٢ ، ص ٩٣ .

٣ . وسائل الشيعة : ج ١٥ ، ص ١٨٨ .

٤ . التهذيب : ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

٥ . روضة المتقين : ج ٨ ، ص ٥٥٤ .

فَترَةُ الطُّفُولَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ

إن صفحات التاريخ تشهد بأن حياة رسول الإسلام ﷺ من بداية طفولته وأوان صباه وإلى يوم بعثه بالرسالة كانت مشحونة بسلسلة من الحوادث العجيبة التي تَبَدُّ بأجمعها من كراماته ﷺ وتدل على أن حياة النبي لم تكن حياة عادية. وينقسم المؤلفون في تفسير هذه الحوادث إلى طائفتين :

١ . **الماديون ، وجماعة من المستشرقين :** فان العلماء الماديين الذين يحرصون الوجود في نطاق المادة ، ويعتبرون جميع الظواهر ظواهر مادية ، وينحتون لكل واحدة منها علة طبيعية ، لا يهتمون بهذه الحوادث ولا يُعيرونها أية أهمية ، لامتناع واستحالة وقوع أمثال هذه الظواهر حسب النظرة المادية ، ولهذا فكل ما يصادفونه في ثنايا التاريخ من هذا الباب يعتبرونه من ولائد الخيال ، ومما نسحته أوهام التابعين لذلك الدين ، أو الطريقة. وقد تبعهم في هذا الموقف جماعة من المستشرقين فرغم انهم يعتبرون انفسهم . حسب الظاهر . في عداد الموحدين ، والمؤمنين بالله ، وبما بعد الطبيعة من عوالم الغيب ، إلا أنهم . لضعف إيمانهم وبسبب غرورهم العلمي ، وغلبة النزعة المادية على أفكارهم وأذاهم . اتبعوا . لدى تحليلهم لهذه الحوادث . المنهج الماديّ ، فنحن

نقرأ في كتاباتهم مراراً وتكراراً زعمهم بأن النبوة ما هي إلا نبوغٌ بشريٌّ ، وأن النبي مجرد نابغة اجتماعية استطاع تغيير مسار الحياة البشرية بافكاره النيّرة!!

ولا شك أن مثل هذا التصوّر ينبع من طريقة التفكير المادي الذي يعتبر جميع الأديان من ولاءد الفكر البشري وافرازات الذهن الانساني ، في حين ان علماء العقيدة اثبتوا في : مباحث « النبوة العامة » أنّ النبوة عطية الهية ، وموهبة ربّانية هي في الحقيقة منشأ جميع الالهامات والارتباطات المعنوية ، ومصدر لمناهج الانبياء وبرامجهم ، ليست ابدأ وليدة نبوغهم الإنساني ، ولا نسيجة فكرهم البشري ، وليس لها مصدر إلا الإلهام من الغيب ، ولكن عندما ينظر المستشرق المسيحي إلى هذه القضايا من زاوية الفكر المادي ويريد تفسير جميع هذه الظواهر بالأسس العلمية التي كشفت عنها التجربة يتتقد مثل هذه الحوادث ذات الطابع الاعجازي ، وربما انكرها من الاساس .

٢ . المؤمنون بالله : الذين يعتقدون بأن العالم المادي بجميع خصوصياته وخواصه يخضع لتدبير عالم آخر ، وأن ذلك العالم (اي عالم التجرد وما وراء الطبيعة) هو المنظم لهذه الطبيعة ، وهو المدير لهذا الكون المادي .

وبعبارة أخرى إن عالم المادة ليس عالماً مسيئاً ، مستقلاً عن غيره ، وان جميع الانظمة والقوانين الطبيعية والعلمية مسببة عن تأثيرات موجودات عليا ، وبخاصة ناشئة عن إرادة الله الخالق ، الذي اعطى للمادة وجودها ، وأوجد القوانين والعلاقات الصحيحة بين أجزائها ، وبنى بقاءها على سلسلة من النواميس الطبيعية .

إنّ هذا الفريق من الناس مع احترامهم للقوانين العلمية ، وادعائهم الصادق بما قاله العلماء في صعيد العلاقات ، والروابط القائمة بين القوانين ممّا أثبتته العلم وآكده ، يعتقدون بأن مثل هذه القوانين الطبيعية ليست أموراً لا تقبل التغيير ، والتبدل .

فهم يعتقدون بأن العالم الاعلى يمكنه . إذا أراد . أن يُغيّر تلك القوانين لغايات خاصة ، وليس في مقدوره ذلك فقط ، بل فعل ذلك في جملة من الموارد

لأهداف عليا.

وبعبارة أخرى : إنّ الافعال الخارقة للعادة ليست ظواهر عارضة عن العلل ، بل إنّ علتها غير طبيعية ، وافتقاد العلة الطبيعية (وخاصة العلة الطبيعية غير المعروفة) ليس دليلا على افتقاد مطلق العلة.

والخلاصة ؛ إن قوانين الخلقه ليست بحيث لا يمكن تبديلها ، وتغيرها بارادة بارئها وخالقها.

إنهم يقولون : إنّ جميع حوارق العادة ، وجميع أفعال الأنبياء العجيبه التي تتصف بصفه الاعجاز ، والخارجة عن اطار القوانين الطبيعية ، تتحقق من هذه الزاوية.

إنّ هذا الفريق من الناس لا يسمّحون لأنفسهم بان يرفضوا الأعمال الخارقة للعادة ، والكرامات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، والاحاديث ، أو وردت في المصادر التاريخية الصحيحة المعتمدة ، أو يكشفوا فيها بحجة أنّها لا توافق الموازين الطبيعية ، والقوانين العلمية.

وها نحن نشير إلى قضيتين عجيبتين وقعتا في فترة الطفولة من حياة رسول الله ﷺ ، ومع اخذ ما قلناه بنظر الاعتبار لا يبقى أي مجال للتريد ، أو الاستبعاد :

١ . لقد نقل المؤرخون عن « حليلة السعدية » قولها بأنّها لما تكفلت إرضاع النبي ﷺ أرادت أن ترضعه في محضر أمها ، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الأيسر ، وأخذت رسول الله ﷺ فوضعتة في حجرها ، ووضعت ثديها في فمه ، فترك النبي ﷺ ثديها ، ومال إلى ثديها الأيمن ، فأخذت « حليلة » ثديها الأيمن من يد النبي ﷺ ووضعت ثديها الأيسر في فمه وذلك أنّ ثديها الأيمن كان جهاما (أي خاليا من اللبن ولم يكن يدُرُ به) ، وخافت (حليلة) أن النبي ﷺ إذا مصّ الثدي ولم يجد فيه شيئا لا يأخذ . بعده . الأيسر . ولكن النبي ﷺ أصرّ على أخذ الثدي الأيمن ، فلمّا مصّ ﷺ الأيمن امتلأ فانفتح حتى ملاً شديقه

فادهش الجميع ذلك^(١).

٢ . وتقول « حليلة » أيضا : إن البوادي أجديت وحمنا الجُهد على دخول البلد ، فدخلت مكة مع نساء بني سعد فأخذت رسول الله ﷺ فعرفنا به البركة والزيادة في معاشنا ورياشنا حتى أثرينا ، وكثرت مواشينا ، وأموالنا^(٢) .
إنَّ مَنَ المسلم أنَّ حكم الماديين ، أو من يحذو حذوهم ويتبع منهجهم في هذه المسائل يختلف عن حكم المؤمنين بالله .

فإن أتباع المنهج المادي إذ عجزوا عن تفسير هذا النوع من القضايا من زاوية العلوم الطبيعية ، نجدهم يبادرون إلى اعتبار هذه الحوادث من نسج الخيال ، ومن ولاء الاوهام ، واما إذا كانوا أكثر تأدبا لقالوا : إن رسول الإسلام ليس بحاجة إلى امثال هذه المعاجز : ونحن نقول : لا نقاش في أن النبي ﷺ غني عن هذه المعاجز إلا أن عدم الحاجة شيء ، والحكم بصحة هذه الأمور أو بطلانها شيء آخر .

وأما المؤمن بالله الذي يردُّ النظام الطبيعي ، إلى مشيئة الله خالق الكون وارادته العليا ، ويعتقد بأن كل الحركات والظواهر في العالم الطبيعي من اصغر اجزائه (الذرة) إلى أكبر موجوداته (المجرة) يجري تحت تدبيره ، ونظارته ، فانه بعد التحقق من مصادر هذه الحوادث والتأكد من وقوعها ينظر إليها بنظر الاحترام ، وأما إذا لم يطمئن إليها لم يرفضها رفضاً قاطعاً .

ولقد ورد في القرآن الكريم نظائر عديدة لهذه القصة حول « مريم » لم عيسى فالقرآن يخبرنا عن تساقط الرطب الجني من جذع النخلة اليابسة كرامة لوالدة المسيح عندما لجأت إليه مريم عند المخاض إذ يقول : « ... أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجْتَمِعُ النَّخْلَةُ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَيْثَا »^(٣) .

١ . بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ٣٤٥ و ٣٤٦ .

٢ . المناقب لابن شهر آشوب : ج ١ ، ص ٢٤ .

٣ . مريم : ٢٤ و ٢٥ .

إنه وان كان الفرق بين « مريم » و « حليلة » شاسعا وكبيرا من حيث الملكات الفاضلة والمكانة ، والمنزلة ، إلا أن منزلة « مريم » ﷺ لو استوجبت مثل هذا اللطف الالهي ، ففي المقام استوجب نفس مقام الوليد العظيم ، ومكانته عند الله تعالى أن تشمله العناية الالهية . كما انه قد جاء في القرآن الكريم حول مريم ﷺ امور أخرى مشاهمة . ان عصمة هذه المرأة الطاهرة ، وتقاهها وطهرها البالغ كانت بحيث أن « زكريا » كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا ، فاذا سأها : من أين لك هذا قالت : هو من عند الله؟^(١) .

وعلى هذا الأساس يجب أن لا نتردد ولا نسمح لانفسنا بأن نشك في مثل هذه الكرامات ، أو نستبعداها .

خَمْسَةُ أَعْوَامٍ فِي الصَّحْرَاءِ :

أمضى وليد « عبد المطلب » في قبيلة « بني سعد » مدة خمسة أعوام ، بلغ فيها أشده . وخلال هذه المدة اخذته « حليلة » إلى أمه مرتين أو ثلاث ، وقد سلمته إلى أمه في آخر مرة .

وكانت المرّة الأولى من تلك المرات عند فطامه ، ولهذا السبب اتت به ﷺ « حليلة » إلى مكة ولكنها عادت به إلى الصحراء باصرار منها ، وكان السبب وراء هذا الاصرار على اصطحابه معها إلى البادية هو أن هذا الوليد قد اصبح مبعث خير ورخاء ، وبركة في منطقتها ، وقد دفع شيوخ مرض الوباء في « مكة » إلى أن تقبل أمه الكريمة بهذا الطلب^(٢) . وأما المرّة الثانية من تلك المرات فكانت عندما قدم جماعة من نصارى

١ . « ...سَفَّهَهَا كَرِيماً لِمَا حَلَّ لِمَهْلِ كَرِيماً بِمَحْيَا جَدِّ نَمَّهَا زَوْلاً لِي ۝ رِيَمَ أَنْ لَيْكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ » (آل عمران : ٣٧) .

٢ . بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ٤٠١ .

الحبشة إلى الحجاز ، فوقع نظرهم على مُحَمَّد ﷺ في « بني سعد » ، ووجدوا فيه جميع العلامم المذكورة في الكتب السماوية للنبي الذي سيأتي بعد عيسى المسيح ﷺ ، ولهذا عزموا على أخذه غيلة إلى بلادهم لما عرفوا ان له شأنًا عظيمًا ، لينالوا شرف احتضانه ويذهبوا بفخره ^(١) .

ولا مجال لاستبعاد هذه القضية لأن علامم النبي ﷺ ذُكرَ في الانجيل حسب تصريح القرآن الكريم ، فلا يبعد أن علماء النصارى قد تعرّفوا في ذلك الوقت على النبي من العلامم التي قرأوها ودرسوها في كتبهم .

يقول القرآن الكريم في هذا المجال : « وَذَقَالَ عِيسَى بْنُ مَرْثَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ لِيُحْيِيَكُمْ صِدْقًا مِمَّنْ لَدَيْ رَبِّي نَبَأَ تَوْرَةَ رَبِّي وَأُرِيدُ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّبِعُونِي لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ » ^(٢) .

ثم ان في هذا الصعيد آيات أخر صرّحت بجلاء بأن علامم رسول الإسلام في الكتب السماوية الماضية في وضوح ، ومن غير إبهام ، وأن الامم السابقة كانت على علم بهذا الأمر ^(٣) .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٦٧ .

٢ . الصف : ٦ .

٣ . « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل » (الأعراف : ١٥٧) .

العَوَّةُ

إلى أحضان العائلة

لقد خلقت يدُ القدرة الالهية كل فرد من أفراد النوع الانساني لأمر معين ، فهناك من خلق لاكتساب العلم والمعرفة ، وهناك من تُخلق للاختراع والاكتشاف ، وثالثٌ خلق للسعي والعمل ، وبعض للتدبير والسياسة وفريق للتدريس والتربية وهكذا.

وإن المرئيين المخلصين الذين يهتمهم تقدم الأفراد أو رقي مجتمعاتهم لا يعمدون إلى نصب أحد في عمل من الاعمال ولا يعهدون إليه مسؤولية من المسؤوليات إلا بعد اختبار سليقته ومواهبه ، بغية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، إذ في غير هذه الحالة يتعرّض المجتمع لضربين كبيرين : احدهما : أن لا يوكل إلى الفرد ما يستطيع القيام به ، والثاني : ان يبقى العمل الذي قام به ناقصاً ، مبتوراً.

وقد قيل في المثل : لكل انسان موهبة ، والسعيد هو من اكتشف تلكم المواهب ، واصابها.

وقد ذكروا أن استاذاً كان ينصح تلميذاً له كسولا ، ويعدّد له مضارّ الكسل والتواني ، ويصف له حال من ترك الاشتغال بالعلم ، وضيع ربيع حياته في البطالة والغفلة. وبينما الاستاذ ينصح تلميذه . وهو يسمع مواعظ أستاذه . رأى تلميذه يرسم

بقطعة من الجص صورة على المنضدة ، فادرك من فوره أن هذا الصبي لم يُخلق للدرس وتحصيل العلم ، بل خلقت يد القدرة للرسم ، فطلب منه أن يصطحب اباه إلى المدرسة في اليوم القادم ، ثم قال لوالد الصبي : إذا كان ولدك هذا كسولا في التعلم ، والتحصيل فانه يمتلك ذوقاً رفيعاً في الرسم ، ورغبة كبيرة في التصوير .

وقبل الوالد نصيحة المعلم هذه ولم يمض زمان طويل إلا وبرع الصبي وغدى قمة في هذا الفن ، بعد أن تابع هوايته بشغف وأكثر من ممارستها .

إن فترة الطفولة والصبا في حياة الأشخاص خير فرصة لأولياء الأطفال بأن يختبروا مواهب أبنائهم ، ويتعرفوا عليها من خلال تصرفاتهم ، وأفكارهم وردودهم ، لأن حركات الطفل وأقواله الجميلة والحلوة خير مرآة لما ينطوي عليه من مواهب وقابليات وصفات لتوفرت لها ظروف التربية الصحيحة لأمكن الاستفادة منها على أفضل صورة ، وأحسن وجه .

إن مطالعة فاحصة لحياة النبي الأكرم ﷺ وأقواله وأفعاله إلى وقت البعثة المباركة تُوقفنا على صورة كاملة لشخصيته ﷺ وتوضح لنا أهدافه العليا ، على أن مطالعة صفحات الطفولة في حياته ﷺ فقط لا تكشف لنا عن مستقبله المشرق ، بل ان دراسة الصورة الاجمالية لحياته وتاريخه إلى يوم مبعثه الشريف ، وإعلانه عن نبوته وقيادته للمجتمع ، تخبرنا عن ذلك المستقبل العظيم ، وبالتالي عن هذه الحقيقة وهي ان هذه الشخصية خُلقت لأي عمل ، وأن إدعاء الرسالة والقيادة له هل ينسجم مع سوابقه التاريخية أم لا؟؟

هل تُؤيد تفاصيل حياته خلال أربعين سنة قبل الرسالة ، وهل تُؤيد أفعاله واقواله ، وبالتالي : سلوكه مع الناس ومعاشرته الطويلة مع الآخرين رسالته أم لا؟؟

من هنا نعمد إلى عرض بعض الصفحات من حياة رسول الله ﷺ في أيامها وسنواتها الاولى .

لقد حافظت مرضعة النبي ﷺ عليه خمس سنوات ، وقامت في هذه المدة برعاية شؤونه خير قيام ، وبالغت في كفالتة والعناية به ، وفي خلال هذه المدة تعلم النبي لغة العرب على احسن ما يكون ، حتى انه ﷺ كان يفتخر بذلك في ما بعد إذ كان يقول :

أنا أعربكم (اي أفصحكم) ... وارضعت في بني سعد ^(١) .

ثم ان « حليلة » جاءت به إلى « مكة » ، وبقي عند امه الحنون رداً من الزمن ، وفي كفالة جده العظيم : « عبد المطلب » رداً آخر منه ، وكان هو السلوة الوحيدة لاقاربه والبقية الباقية من ابيه : « عبد الله » ^(٢) .

سفرة إلى يثرب :

منذ أن فقدت كنة « عبد المطلب » وعروس ابنه : « آمنة » زوجها الشاب الكريم : « عبد الله » باتت تتربص الفرص لتذهب إلى « يثرب » وتزور قبر زوجها الحبيب الفقيد عن كذب ، وتزور اقرارها في يثرب في نفس الوقت .

وذات مرة فكرت بأن تلك الفرصة قد سنحت ، وأن ولدها « محمداً » قد كبر ، ويمكنه أن يشاركها في حزنها ، فتهيأت هي وأمّ اليمن للسفر ، واتجهت نحو يثرب برفقه « محمداً » ، ولبثت هناك شهراً .

ولقد انطوت (وبالاحرى حملت) هذه السفارة على بعض الآلام الروحية لوليد قريش « محمداً » لأنه ﷺ رأى فيها ولأول مرة البيت الذي توفي فيه والده العزيز ، ودفن ^(٣) وكانت والدته قد حدثته بامور عن والده إلى ذلك الحين .

وكانت لا تزال سحابة الحزن تخيم على روحه الشريفة إذ فوجئ بحادثة مقرحة أخرى ، وغشيه موج آخر من الحزن لأنه عند عودته إلى مكة فقد أمه

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٨٩ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٦٧ .

٣ . كان البيت الذي يضم قبر « عبد الله » عليّاً لا يزال موجوداً حتى قبيل توسعة الدائرة حول المسجد النبوي الطاهر ، ولكنه أزيل بحجة إيجاد تلك التوسعة .

العزيرة في اثناء الطريق في منطقة تدعى بـ « الالبواء »^(١) .

إن هذه الحادثة قد عززت مكانة الرسول الكريم ﷺ في عشيرته أكثر فأكثر ، وجعلته يتمتع بمحبة أزيد منهم ، فهو الزهرة الوحيدة من تلك الجنية المباركة ، كما انه صار منذ ذلك الحين يتمتع بعناية أكبر من قبل جده « عبد المطلب » ولهذا كان يحبه أكثر من أبنائه ، بل ويؤثره عليهم جميعاً .

ومن ذلك أنه كان يُمدُّ في فناء الكعبة المعظمة بساط لزعيم قريش « عبد المطلب » فيجلس هو عليه ويتحلقُّ حوله وجوه قريش وسادتها وأولاده فإذا وَقعت عيناه على بقية عبد الله « محمَّد » أمر بأن يُفَرَّج له حتى يتقدم نحوه ثم يُجْلِسُه إلى جنبه على ذلك البساط المخصوص به^(٢) .

ان القرآن الكريم يُذكِّر النبي ﷺ بفترة يتمه ويقول : « أَلَمْ يَجِدْ يَتِيمًا فَآوَى » .

إن الحكمة وراء يتم ولید قريش ليست واضحة لنا تمام الوضوح ، ولكننا نعلم إجمالاً بأن سبيل هذه الحوادث المؤلمة احياناً ، والمزعجة احياناً اخرى لم يك خالياً عن حكمة معقولة ومصالحة رشيدة ، بيد أننا مع كل هذا يمكن لنا الحدس بأن الله تعالى أراد أن يذوق قائد العالم البشري ومعلمه ، وإمام الإنسانية وهاديها . وقبل ان يتسلم مهامه ، ويزاول مسؤولياته العظمى ويبدأ قيادته . حلُّو الحياة ومرَّها ، ويجرَّب سراء العيش وضراءه ، حتَّى تتهيأ لديه تلك الروح الكبرى الصبورة الصامدة ، ويدّخر من تلك الحوادث الصعبة تجارب ودروساً ، ويعدِّ نفسه لمواجهة مسلسل الشدائد والمصاعب ، والمشاق والمتاعب التي كانت تنتظره في المستقبل .

وربما أراد الله تعالى أن لا تكون في عنق نبيّه طاعة لأحد ، ولهذا انشأه حراً خلياً من كل قيد ، منذ الايام الأولى من حياته ، يصنع نفسه بنفسه ويقىض لها موجبات الرشد ، واسباب الرقي ليتضح أن نبوغه ليس نبوغاً بشرياً عادياً ومألوفاً

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٠٥ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٦٨ .

وانه لم يكن لوالديه اي دخل فيه وفي مصيره ، وبالتالي فان عظمته الباهرة نابعة من مصدر الوحي ، وليست من العوامل العادية والاسباب المألوسة المتعارفة.

وفاة عبدالمطلب :

لقد جرت عادة الحياة ان تتعرض للمرء باستمرار ، وتستهدف سفينة حياته كالأموال المتلاحقة موجهة ضرباتها القوية لروحه ، ونفسه.

أجل هذه هي طبيعة الحياة وستتها مع أفراد النوع الانساني من دون استثناء.

ولم يكن رسول الله ﷺ بمعزل عن هذه السنة المعروفة وهذه القاعدة الحياتية العامة. فلم تكن أمواج الحزن تفارق قلب رسول الله ﷺ لوفاة والديه بعد حتى فاجأته مصيبة كبرى.

إنه لم يكن يمض من عمر النبي ﷺ أكثر من ثمان سنوات إلا وفقد جدّه العظيم « عبد المطلب » ، وقد اعتصرت وفاة « عبد المطلب » قلب رسول الله أماً وحزناً ، وكان لها وقعٌ شديدٌ على نفسه المباركة ، حتى أنه بكى لفقدته بكاءً شديداً وظلّت دموعه تجري من أجله إلى أن وري في لحده ، ولم ينس ذكره أبداً!!^(١).

كفالة أبي طالب للنبي ﷺ :

سيكون لنا حديث مفصّل حول شخصيّة أبي طالب في فصل خاص^(٢) وستثبت هناك إيمانه برسول الله ﷺ بالوثائق والأدلة القاطعة ، ولكنّ من المناسب الآن أن نستعرض بعض الحوادث المرتبطة بفترة كفالته للنبي

١. كتب البيهقي في تاريخه : ج ٢ ، ص ١٠ و ١١ من تاريخه حول سيرة عبد المطلب ، وأنه كان موحداً لاوثنياً ، وذكر أن الإسلام أمضى الكثير من سننه.

٢. في حوادث السنة العاشرة.

لقد تكفّل أبو طالب . ولأسباب خاصة . رسول الله ﷺ ، وتقبل تحمّل هذه المسؤولية بفخر واعتزاز ، ولأنّ أبا طالب . مضافاً إلى العلل المشار إليها . كان أخاً لوالد النبي من أمّ واحدة أيضاً ^(١) كما أنّه كان معروفاً بجوده وكرمه ، ومن هنا أوكل « عبد المطلب » أمر كفالة النبي ﷺ حفيده ، إليه ، وسوف نقص عليك تدرجاً سطوراً ذهبية من تاريخه ، تمثل شاهد صدق على خدماته القيمة ، وأياديه الجليلة .

يقولون : إن النبي شارك وهو في العاشرة من عمره جنباً إلى جنب مع عمّه في حرب من الحروب ^(٢) وحيث أن هذه الحرب وقعت في الأشهر الحُرْم لذلك سُمّيت بحرب « الفجار » وقد وردت تفاصيل حروب « الفجار » في التاريخ بشكل مسهب .

سَفَرَةٌ إِلَى الشَّام :

لقد جرت العادة ان يسافر تجار قريش إلى الشام كل سنة مرة واحدة . فعزم « ابو طالب » على أن يشارك في رحلة قريش السنوية هذه ذات مرة ، وعالج مشكلة ابن اخيه « محمّد » الذي ما كان يقدر على مفارقتها بأنه قرر أن يتركه في مكة في حراسة جماعة من الرجال ، ولكنه ساعة الرحيل واجه من ابن اخيه العزيز ما غيّر بسببه قراره المذكور فقد شاهد « محمّداً » وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفراق كفيله الحميم « ابي طالب » ، فحدثت ملامح « محمّد » الكئيبة طوفاناً من المشاعر العاطفية في قلب « أبي طالب » بحيث اضطرته إلى أن يرضى

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٧٩ ، وامهما هي فاطمة المخزومية .

٢ . لقد كتب اليعقوبي في تاريخه : ج ١ ، ص ١٥ طبعة النجف أنّ أبا طالب لم يشترك في هذه الحرب قط ، كما لم يسمح لبني هاشم بالمشاركة فيها أيضاً ، لأنه كان ظملاً وعدواناً وقطيعة رحم واستحلالاً للشهر الحرام .

بمشقة اصطحاب « محمد » في تلك الرحلة^(١).

لقد كانت سفرة النبي ﷺ هذه التي قام بها بصحبة عمه وكافله « ابي طالب » في الثانية عشرة من عمره ، من اجمل وأطرف اسفاره ﷺ لأنه ﷺ عبر فيها على : « مدين » و « وادي القرى » و « ديار ثمود » واطّلع على مشاهد الشام الطبيعية الجميلة. ولم تكن قافلة قريش التجارية قد وصلت إلى مقصدها حتى حدثت في منطقة تدعى « بصرى » قضية غيرت برنامج « ابي طالب » وتسببت في عدوله عن المضي به في تلك الرحلة والقفول إلى مكة.

واليك فيما يلي مجمل هذه القضية :

كان يسكن في « بصرى » من نواحي الشام راهب مسيحي يدعى « بحيرا » يتعبد في صومعته ، يحترمه النصارى في تلك الديار. وكانت القوافل التجارية إذا مرت على صومعته توقفت عندها بعض الوقت وتبركت بالحضور عنده.

وقد اتفق أن التقى هذا الراهب قافلة قريش التي كان فيها رسول الله ﷺ فلقت نظره شخصية « محمد » ، وراح يحدق في ملامحه ، وكانت نظراته هذه تحمل سراً عميقاً ينطوي عليه قلبه منذ زمن بعيد وبعد دقائق من

١ . ويذكر « أبو طالب » في ابيات له قصبة هذه السفرة وما جرى فيها من البدء إلى الختام نقتطف منها بعض الأبيات :

عندي يفوق منازل الأولاد	إن ابن أمية النبي محمد
والعيس قد قصب من بالازواد	لما تعلّق بالزممام رحيمه
مثل الجمالان مفور الأفراد	فبارفض من عيني دم مع ذارف
وحفظت فيه وصية الأجداد	راعيته فيه قرابة موصولة
بيض الوجوه مصالت أنجاد	وأمرته بالسبير بزين عمومة
لاقوا على شرك من المرصاد	حتى إذا ما القوم بصرى عابوا
عنه ورد معاشر الحساد	حبراً فاخبرهم حديثاً صادقاً

(تاريخ ابن عساکر : ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ وديوان ابي طالب : ص ٣٣ - ٣٥).

النظرات الفاحصة ، والتحديد في وجه النبي ﷺ خرج عن صمته وانبرى سائلا : أنشدكم بالله أيكم وليّه؟

فاشار جماعة منهم إلى « أبي طالب » وقالوا : هذا وليّه.

فقال « ابو طالب » : إنه ابن أخي ، سلمي عمّا بدا لك.

فقال « بحيرا » : إنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ ، نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا ، هذا سيّد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه رحمة للعالمين. إحذر عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليقتصدنّ قتله ^(١).

هذا وقد اتفق أكثر المؤرخين على أنّ النبي ﷺ لم يتعدّ تلك المنطقة ، وليس من الواضح أن عمه « أبا طالب » بعثه إلى مكة مع أحد ، (ويُسْتَبْعَدُ أن يكون عمّه قد رضي بمفارقتة منذ أن سمع تلك التحذيرات من الراهب بحيرا) ، أم أنه اصطحبه بنفسه إلى مكة ، واثنى عن مواصلة سفره إلى الشام ^(٢).

وربما قيل أنه تابع . بحذر شديد . سفره إلى الشام مع ابن اخيه « محمّد » .

أكذُبةُ المُستشرقين :

لقد آلينا على أنفسنا في هذا الكتاب ان نشير إلى أخطاء المستشرقين وغلطاتهم بل وربما أكاذيبهم ، واتهاماتهم الباطلة ، وشبهههم الواهية ليتضح للقراء الكرام الى أي مدى يحاول هذا الفريق إرباك أذهان البُسطاء من الناس ، وبلبله عقولهم حول قضايا الإسلام!!
إن قضية اللقاء الذي تم . في بصرى . بين النبي ﷺ والراهب « بحيرا » لم تكن سوى قضية بسيطة ، وحادثة عابرة وقصيرة ، إلا أنها وقعت في ما بعد ذريعة بأيدي هذه الزمرة (المستشرقون) فراحوا يصرونّ أشد اصرار على أن

١ . روى تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٣٢ و ٣٣ ، والسيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٨٠ . ١٨٣ هذه القصة بتفصيل أكبر وقد اختصرناها هنا تمثيا مع حجم هذا الكتاب .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٨٢ و ١٨٣ .

ما أظهره رسول الله ﷺ من تعاليم رفيعة سامية بعد ٢٨ عاماً ، واستطاع بها أن يُجيبى بها تلك الأمة الميَّتة قد تلقاها من الراهب « بحيرا » في هذه السفرة. ويقولون : إن « محمداً » بما تمتع به من قوة ذاكرة ، وصفاء نفس ودقة فكر ، وعظمة روح وهبته اياها يد القدر ، أخذ من الراهب « بحيرا » في لقائه به ، قصص الانبياء السالفين والاقوام البائدة مثل عاد وثمود ، وكثيراً من تعاليمه الحيوية.

ولا ريب في أن هذا الكلام ليس سوى تصور خيالي لا يتلاءم ولا ينسجم مع حياته ﷺ بل وتكذبه الموازين العقلية ، واليك بعض الشواهد على هذا :

١ . لقد كان « محمداً » ﷺ وسلم باجماع المؤرخين أمياً ، لم يتعلم القراءة والكتابة ، وكان عند سفره إلى الشام ، ولقائه بـ « بحيرا » لم يتجاوز ريعه الثاني عشر بعد ، فهل يصدق العقل . والحال هذه . أن يستطيع صبي لم يدرس ولم يتعلم القراءة والكتابة ولم يتجاوز ريعه الثاني عشر ان يستوعب تلك الحقائق من « التوراة » و « الإنجيل » ، ثم يعرضها . في سن الاربعين . على الناس بعنوان الوحي الالهي والشرعية السماوية؟! إن مثل هذا الأمر خارج عن الموازين العادية ، بل ربما يكون من الأمور المستحيلة لو أخذنا بنظر الاعتبار حجم الإستعداد البشري.

٢ . إن مدة هذا اللقاء كان اقل بكثير من أن يستطيع محمداً ﷺ في مثل تلك الفترة الزمنية القصيرة أن يستوعب « التوراة » و « الإنجيل » ، لأن هذه الرحلة كانت رحلة تجارية ولم يستغرق الذهاب والاياب والاقامة اكثر من أربعة أشهر ، لأن قريشاً كانت تقوم في كل سنة برحلتين ، في الصيف إلى « الشام » ، وفي الشتاء إلى « اليمن » ، ومع هذا لا يُظن أن تكون الرحلة برمتها قد استغرقت اكثر من اربعة أشهر ، ولا يستطيع اكبر علماء العالم وادكاهم من أن يستوعب في مثل هذه المدة القصيرة جداً محتويات ذينك الكتابين ، فضلاً عن صبي لم يدرس ، ولم يتعلم القراءة والكتابة من احد.

هذا مضافا إلى أنه لم يكن يصاحب ﷺ ذلك الراهب كل تلك الاشهر الاربعة بل ان اللقاء الذي وقع إتفاقا في أحد منازل الطريق لم يستغرق سوى عدة ساعات لا أكثر.

٣ . إن النص التاريخي يشهد بأن « ابا طالب » كان ينوي اصطحاب النبي ﷺ إلى الشام ، ولم يكن مقصده الأصلي « بصرى » بل إن « بصرى » كان منزلا في أثناء الطريق تستريح عنده القوافل التجارية أحيانا ، ولفترة جدا قصيرة.

فكيف يمكن في مثل هذه الصورة ان يمكث رسول الله ﷺ في تلك المنطقة ، ويشغل بتحصيل علوم « التوراة » و « الانجيل » ومعارفهما؟ سواء قلنا بأن « ابا طالب » أخذه معه إلى الشام ، أو عاد به من تلك المنطقة إلى مكة أو أعاده بصحبة أحد إلى مكة؟! وعلى كل حال فان مقصد القافلة ومقصد « ابي طالب » لم يكن « بصرى » ليقال : ان القافلة اشتغلت فيها بتجارها ، بينما اغتنم « محمد » الفرصة واشتغل بتحصيل معارف العهدين.

٤ . إذا كان محمد ﷺ قد تلقى أمورا ومعارف من الراهب المذكور اذن لاشتهر ذلك بين قريش حتماً ، ولتناقل الجميع خبر ذلك بعد العودة إلى مكة.

هذا مضافا إلى أن النبي ﷺ نفسه ما كان يتسطيع أن يدعي امام قومه في ما بعد بأنه أمي لم يدرس كتاباً ، ولا تلمذ على أحد ، في حين أن النبي الأكرم ﷺ افتتح رسالته بهذا العنوان ، ولم يقل أحد ، يا محمد كيف تدعي بأنك لم تقرأ ولم تدرس عند احد وقد درست عند راهب « بصرى » وتلقيت منه هذه الحقائق الناصعة وانت في الثانية عشرة من عمرك؟

لقد وجّه مشركوا مكة جميع انواع الإتهام إلى رسول الله ﷺ ، وبالغوا في البحث عن أية نقطة ضعف في قرآنه يمكن أن يتذرعوا بها لتفنيد دعوته ، حتى أنهم عندما شاهدوا النبي ﷺ ذات مرة عند

« مروءة » يجالس غلاما نصرانيا استغلوا تلك الفرصة وقالوا : لقد أخذ « محمد » كلامه من هذا الغلام ، ويروي القرآن الكريم مزعمتهم هذه بقوله : « وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ بَيْنُنَا »^(١) .

ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لذكر هذه الفرية قط كما أن قريشاً المجادلين المعاندين لم يتذرعوا بها أبداً ، وهذا هو بعينه دليل قاطع وقوي على أن هذه الفرية من افتراءات المستشرقين في عصرنا هذا ، ومن نسج خيالهم!!

٥ . إن قصص الانبياء والرسل التي جاءت في القرآن الكريم على وجه التفصيل تتعارض وتتناقض مع ما جاء في التوراة والانجيل .

فقد ذكرت قصص الأنبياء واحوالهم في هذين الكتابين بصورة مشينة جداً ، وطُرحت بشكل لا يتفق مع المعايير العلمية والعقلية مطلقاً ، وان مقايسة عاجلة بين هذين الكتابين من جانب وبين القرآن الكريم من جانب آخر تثبت بأن قضايا القرآن الكريم ومعارفه لم تتخذ من ذينك الكاتبين بحال ، ولو أن النبي محمداً ﷺ قد اكتسب معارفه ومعلوماته حول الانبياء والرسل من العهدين لجاء كلامه مزيجاً بالخرافات والأوهام^(٢) .

٦ . إذا كان راهب « بصرى » يمتلك كل هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها رسول الله ﷺ ، فلماذا لم يحض هو بأي شيء من الشهرة ، ولماذا ترى لم يُربَّ غير « محمد » في حين أن معبده كان مزار الناس ومقصد القوافل؟!

٧ . يعتبر الكتاب المسيحيون « محمدًا » ﷺ رجلاً أميناً صادقاً ، والآيات القرآنية تصرح بأنه ﷺ لم يكن على علم مسبق

١ . النحل : ١٠٣ .

٢ . تتجلى هذه الحقيقة أكثر فكثر إذا ما قارنا بين مواضيع القرآن الكريم ، وبين ما جاء في نصوص العهدين (التوراة والانجيل) وقد تصدى بعض الكتاب الاسلاميين لمثل هذه المقارنة ، وقد تعرضنا لها ايضاً في بعض دراساتها .

أصلاً بقصص الأنبياء والأمم السابقين ، وأن معلوماته في هذا الصعيد لم تحصل لديه إلا عن طريق الوحي .

فقد جاء في سورة « القصص » الآية (٤٤) هكذا : « وما كُنْتُ بِجَانِبِ الْغُرِيِّ إِذْ قَضَيْتُنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرِ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

وجاء في سورة « هود » الآية (٤٩) بعد نقل قصة نوح : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » .

إن هذه الآيات توضح أن النبي ﷺ لم يكن على علم أبداً بهذه الحوادث ، والوقائع . وهكذا جاء في الآية (٤٤) من سورة « آل عمران » : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَفْلاهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » .

إن هذه الآية وغيرها من الآيات العديدة تصرح بأن هذه الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي ﷺ عن طريق الوحي فقط ، وهو لم يكن على علم بها مطلقاً .

نَظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ إِلَى التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ :

إنَّ هذا الكتاب السَّمَاوِي تَوَرَّطَ فِي تَنَاقُضَاتٍ عَجِيبَةٍ فِي بَيَانِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ لَا يُمْكِنُ نَسْبَتُهَا إِلَى الْوَحْيِ مُطْلَقًا ، وَهَذَا نَحْنُ نَأْتِي هُنَا بِنَمَاذِجٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ مِنَ التَّوْرَةِ لِيَتَّضِحَ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَوْ كَانَ قَدْ أَخَذَ قِضَايَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ ذَلِكَ الرَّاهِبِ فَلِمَاذَا لَا يَحْتَوِي هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ عَلَى تِلْكَ الْأَضَالِيلِ الَّتِي انطوى عليها « التوراة » و « الانجيل » .
واليك بعض ما جاء حول الأنبياء والمرسلين في « التوراة » و « الانجيل » ونقارن ذلك بما جاء في القرآن الكريم ليتضح مدى الفرق بين الكتابين (العهدين ، والقرآن) .

١. داود ﷺ :

جاء في التوراة : « إن داود رأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فارسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : إنها امرأة أورثا فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة ، فارسلت وأخبرت داود وقالت : إني حُبلى ، فارسل داود إلى يوثاب يقول : اجعلوا أورثا في وجه الحرب الشديدة ^(١) ، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ... فلما سمعت امرأة أورثا أنه قدم أورثا رجلها نذبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة ، وولدت له ابناً ، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب ^(٢) .

هكذا تصف التوراة النبي الكريم داود ، وترميه بالزنا ، واکراه امرأة محصنة على خيانة زوجها!!

بينما يصف القرآن الكريم النبي داود ﷺ بافضل الاوصاف إذ يقول (في الآية ١٥ و ١٦ من سورة النمل) : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ... وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ هُوَ تَيْنَا مِنْ كِبَلٍ شَبِيءٍ إِنَّ هَذَا وَهُوَ لَخَبِيرٌ لِّمَنْبُؤٍ » .

٢. النبي سليمان ﷺ :

تقول « التوراة » عن النبي العظيم سليمان ﷺ :

١ . « وداود الملك ولد سليمان من التي لورثا ^(٣) .

أي ان سليمان النبي الكريم . والعياذ بالله . هو ابن زنا!!

١ . أي في مقدمة الجيش المحارب .

٢ . العهد القديم (التوراة) : صموئيل ، الثاني الاصحاح الحادي عشر ٣ إلى ٢٧ .

٣ . إنجيل متى : الاصحاح الأول ٦ .

٢ . وَجَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانَ نِسَاءً غَرِيبَةً ... مِنَ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : لَا تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ لَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ لِأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آهْتِهِمْ ، فَالْتَصِقْ سُلَيْمَانُ بِهَؤُلَاءِ بِالْحَبِيبَةِ ، وَكَانَتْ لَهُ سَبْعٌ مِئَةٌ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ ، وَثَلَاثٌ مِئَةٌ مِنَ السَّرَّارِيِّ فَأَمَلَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ وَكَانَ فِي زَمَانٍ شَيْخُوخَةً سُلَيْمَانُ إِنْ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةِ أُخْرَى ، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ الْهَيْهَكَ قَلْبَ دَاوُدَ أَبِيهِ ، فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَتِ إِلهَةِ الصَّيْدِ وَنِيزِ ، وَمَلِكُومَ رَجَسِ الْعَمُونِيِّينَ ، وَعَمَلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ ، وَلَمْ يَتَّبِعِ الرَّبَّ تَمَاماً كَدَاوُدَ أَبِيهِ ، فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لِأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ «!!!»^(١) .

إن سليمان . حسب هذه التعابير التوراتية . يعيش النساء الاجنبيات ، ويتقرب اليهن بصنع أصنام هُنَّ . ويعبدها معهن ، ويرتكب الشرور التي أغضبت الرب!!

بينما يقول القرآن الكريم عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً »^(٢) .
ويقول : « سَمَّ الْمَلِكُ لِيَبْعَ طَهْفَةً بَرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ »^(٣) .

إنه نبي عظيم اختاره الله تعالى لوحيه ، وأصطفاه لأداء رسالاته .

٣ . يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

إنَّ « التَّوْرَةَ » تَصِفُ النَّبِيَّ الْعَظِيمَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ رَجُلٌ كَذَّابٌ مُخَادِعٌ ، أَخَذَ النَّبُوءَةَ مِنْ أَبِيهِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدَاعِ ، « فَعِنْدَ مَا شَاخَ إِسْحَاقُ وَكَلَّتْ عَيْنَاهُ عَنِ النَّظَرِ دَعَا عَيْسُوَ ابْنَهُ الْكَبِيرَ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَصْطَادَ لَهُ صَيْدًا ، وَيَصْنَعُ لَهُ طَعَامًا جَيِّدًا حَتَّى يَبَارِكَهُ ، وَيُعْطِيَهُ النَّبُوءَةَ ، وَلَكِنْ يَعْقُوبُ (ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ رَفْقَةٍ

١ . التوراة : الملوك الأول الاصحاح : ١١ ، العبارات ١ : ١١ .

بسببها ، وصار له غنم ، وبقر ، وحمير ، وعبيد ، وإماء ، وأتن ، وجمال ، ولما عرف فرعون .
في ما بعد - ان سارة زوجة ابراهيم ، وليس أخته عاتبه قائلاً : لماذا لم تخبرني إنها إمرأتك ،
لماذا قلت : هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي والآن هو ذا إمرأتك ، خذها واذهب »
(١)

إن ابراهيم الخليل عليه السلام في وصف التوراة رجلٌ كذابٌ ، يكذب ويحتال.
أما القرآن الكريم فيصف هذا النبي الخليل بأعظم الأوصاف ، ويعتبره أعظم الأنبياء إذ
يقول عنه انه :

- ١ . حنيف موحّد لله : « وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا » (آل عمران : ٦٧) .
- ٢ . إمام الناس : « إني جاعلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » (البقرة : ١٣٤) .
- ٣ . مُسَلِّمٌ : « وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسَلِّمًا » (آل عمران : ٦٧) .
- ٤ . خليم : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأُمّوَةٌ حَلِيمٌ » (التوبة : ٨٤) .
- ٥ . امة كاملة بمفرده : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » (النحل : ١٢٠) .
- ٦ . أواه يَخْشَى اللَّهَ : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ » (التوبة : ٨٤) .
- ٧ . مصطفى : « لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ » (ص : ٤٨) .
- ٨ . ذو قلب سليم : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (الصافات : ٤٨) .

٥ . المسيح عليه السلام :

إن عيسى . حسب رواية الإنجيل . يحتقر أمه ، ويزدري بها ، فذات يوم جاء إخوته وأمه
ووقفوا خارجاً وارسلوا يدعونه ، وكان الجمع جالساً حوله ، فقالوا له « هو ذا أمك وإخوتك
خارجاً يطلبونك ، فأجابهم قائلاً : من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال : ها
أمي وإخوتي ، لأنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللَّهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي »!! (٢)

١ . سفر التكوين : الاصحاح الثاني عشر ١ - ٢٠ .

٢ . إنجيل مرقس : الاصحاح الثالث : ٣١ - ٣٥ .

إنه يقول هذا الكلام عن أمه التي وصفها القرآن الكريم بأن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين^(١).

إنه يفضّل تلاميذه الذين لم يؤمنوا به في قلوبهم ذرة من خردل ، والذين خذلوه ليلة الهجوم عليه من جانب اليهود^(٢). كما يقول الانجيل . على أمه الصديقة .

كما إن الانجيل يقول : إن المسيح حوَّ الماء إلى الخمر في عرس^(٣) بل يقول إنه **عاشق الخمر^(٤)** ، والحال أن الإنجيل يصرح بجرمة الخمر في مواضع عديدة .

هذا هو « عيسى » النبي الطاهر وحواريوه حسب رواية الانجيل!!^(٥).
أما القرآن الكريم فيقول عنه غير ما يقوله : « الانجيل » وإليك بعض ما جاء في الكتاب العزيز حول « المسيح » **عاشق الخمر** .

قال الله تعالى : « **وَ تَبَا عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** » (البقرة : ٧٨) .
وقال تعالى أيضا : « **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ** » (النساء : ١٧١) .
ويكفي في عظمة المسيح **عاشق الخمر** وعلو شأنه أنه **عاشق الخمر** كَلَّمَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا وَقَالَ : «
**إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ بِرُوحَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
مَا دُمْتُ حَيًّا . وَآوَيْتَنِي لِمَنْ يَجْعَلُنِي**

١ . آل عمران : ٤٢ .

٢ . انجيل متى : الاصحاح السابع والشعرون ١ . ٦ انظر كيف وافق يهوذا الاسخريوطي وهو أحد الحواريين مع المتأمرين ضد المسيح ، وأيضاً راجع نفس السفر : الاصحاح السادس والعشرين : وراجع انجيل متى : الاصحاح العاشر أيضا .

٣ . انجيل يوحنا : الاصحاح الثاني : ١١ . ١ .

٤ . انجيل لوقا : الاصحاح الأول ١٥ وغيره .

٥ . على أنّ خرافات التوراة والانجيل لا تنحصر في ما ذكرناه هنا ، وللتوسع راجع : أنيس الأعلام تأليف فخر الإسلام ، والهدى إلى دين المصطفى للعلامة البلاغي .

جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَبُولَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَخْتَرُونَ» (مریم : ۳۰ - ۳۴).

هذه هي مواقف القرآن الكريم من الأنبياء الكرام ، والرسل العظام ، وتلك هي مواقف « التوراة » و « الانجيل » المشينة ، المسيئة إلى شخصية سفراء الله مبلغى رسالاته ، فكيف يُعقل ان يكون القرآن الكريم مقتبسا من تلك الكتب وبينهما بُعد المشرقين؟!

ثم لو أنّ النبي ﷺ كان قد اطّلع على هذه القضايا والقصاص قبل إخباره بنبوته فلماذا لم يرشح منها شيء في أحاديثه قبل الرسالة وقد عاش بين قومه طويلا.

قال الله سبحانه في معرض الرد والجواب على اقتراح المشركين على النبي ﷺ بأن يأتي لهم بقرآن غير الذي جاء به : « قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ وَلَا أُرِيكُمْ بِهِ فَكَيْفَ لَبِئْتُمْ فِيكُمْ عُثْمًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »^(١).

فألاية تؤكد على أن النبي ﷺ كان لايشأ في قومه ، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن ، أو آياً من آياته ، فكل ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد ان بعثه بالرسالة^(٢).

١ - يونس : ١٦ .

٢ - للتوسع راجع مفاهيم القرآن : ج ٣ ص ٣٢١ - ٣٢٣ .

فَترَة الشَّبَاب

في حياة النبي الأكرم

يجب ان يكون قادة المجتمع أقوياء شجعان ، لا يرهبون أحداً ، ولا يخافون شيئاً ، يمتلكون قوة روحية كبرى ، ويتمتعون بصبر عظيم. وإرادة قوية ، صلبة. فكيف يستطيع الضعفاء والجنباء والمترددون ، وضعاف النفوس قيادة المجتمع ، والخروج به من المآزق والمشاكل ، وكيف يستطيعون أن يقاوموا اعداءهم ويحفظوا كيانهم وشخصيتهم من عدوان هذا أو ذاك؟!!

إن لعظمة القائد الروحية ، ولقواه البدنية والنفسية تأثيراً عظيماً وعجيباً في أتباعه وأنصاره ، فعند ما اختار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أحد اصحابه المخلصين لولاية « مصر » كتب إلى أهل « مصر » المظلومين الذين ذاقوا الأمرين على ايدي ولائهم السابقين كتاباً ذكر فيه شجاعة هذا الوالي الجديد ، الروحية وقدرته النفسية الفائقة ، وإليك فيما يلي بعض الفقرات من ذلك الكتاب الذي يعكس الشروط والمواصفات الواقعية في القائد :

« أما بعدُ فقد بعثت اليكم عبداً من عباد الله لا ينام أتيام الخوف ، ولا ينكئ عن الأعداء ساعات الروع ، أشد على الفجار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق ، فإنه سيف من

سُيوف الله ، لا كليلِ الطَّبَّة ، ولا نابيِ الضريبة » (١) .

رسول الله وقدرته الروحية :

لقد كانت آثار الشجاعة ، والقوة باديةً في جبين عزيز قريش منذ طفولته وصباه ، ففي الخامسة عشرة من عمره الشريف شارك في حرب هاجت بين قريش من جهة ، وقبيلة هوازن من جهة اخرى ، وتدعى « حرب الفجار » ، وقد كان في هذه الحرب يناول أعمامه النبل .
فها هو « ابن هشام » ينقل عن النبي ﷺ قال : « كُنْتُ أَنْبَلُ عَلَى أَعْمَامِي » (٢) .
إن مشاركته ﷺ في العمليات الحربية في مثل هذه السن تكشف عن شجاعته ﷺ وقدرته الروحية الكبرى وتساعدنا على أن ندرك مغزى ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ في حق النبي الكريم ﷺ : « كُنَّا إِذَا أَحْمَرُ الْبَيْلُ إِتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ » (٣) .

وسوف نشير . ويعون الله عند ذكر جهاد المسلمين للكفار والمشركين . إلى نظام العسكرية الإسلامية وكيفية جهاد المسلمين وقاتلهم لأعدائهم التي تمت بأجمعها بتوجيه من النبي ﷺ ، وهو في نفسه من الابحاث الشيقة في تاريخ الإسلام .

حُروب الفجار :

إنَّ الحديث بتفصيل هذه الوقائع وعن تكتيكات هذه الحوادث التاريخية

١ . نهج البلاغة : قسم الرسائل ، الرقم ٣٨ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٨٦ ، وقد قال ابن الأثير في النهاية بعد نقل هذا الحديث وضبط الكلمة « انبل » مشددة « أنبل » : « إذا ناولته النبل يرمي » راجع ما هو نبل .

٣ . نهج البلاغة : فصل في غريب كلامه الرقم ٩ .

خارج عن إطار هذه الدراسة ، بيد أننا . مع ذلك . نعمد إلى بيان أسباب هذه الحروب التي شارك في إحداها رسول الله ﷺ بناء على رواية بعض المؤرخين وحوادثها على نحو الاجمال بغية اطلاع القارئ الكريم.

كانت العرب تقضي عامها كله بالقتال والاغارة ، وقد تسبب هذا الوضع في اختلال حياتهم ، واضطراب أمورهم ، ولأجل هذا كانوا يحرمون القتال ويتوقفون عنه في أربعة أشهر من كل عام (هي شهر رجب ، ذوالقعدة ، ذوالحجة ، محرم) ليتسنى لهم . في هذه المدة . أن يقيموا أسواقهم ، ويستغلّوها بالكسب والتجارة والبيع والشراء^(١) .

ولهذا كانت أسواق « عكاظ » و « مجنّة » و « ذو المجاز » تشهد طوال هذه الأشهر الحرام اجتماعات كبرى وتجمعات حافلة وحاشدة ، كان يلتقي فيها العدو والصديق جنباً إلى جنب ، يتبايعون ، ويتفاحرون .

فقد كان شعراء العرب المشهورون يلقون قصائدهم في هذه الاجتماعات الكبرى ، كما يلقي كباؤ خطاب العرب وفصحائهم خطباً قوية ، وأحاديث في غاية الفصاحة والبلاغة ، وكان اليهود والنصارى والوثنيون يعرضون معتقداتهم في هذه المناسبات من دون خوف أو وجل .

ولكن هذه الحرمة قد هُتكت أربع مرات في تاريخ العرب ، وتقاتلت القبائل العربية فيما بينها في هذه الأشهر الحرم ، ولهذا سُمّيت تلك الحروب بحروب « الفجار » ، وفي ما يلي نشير إليها على نحو الاجمال :

الفجار الأول :

ووقعت الحرب فيها بين قبيلتي « كنانة » و « هوازن » وجاء في سبب نشوب

١ . يُستفاد من قوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة التوبة : « إِنَّ عِدَّةَ الشَّهْرِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَجْرٌ » أن تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة كان ذا جذور دينية ، وكانت العرب الجاهلية تحترم هذه الأشهر اتباعاً لسنة « إبراهيم الخليل » عليه السلام .

هذه الحرب أن رجلاً يدعى « بدر بن معشر » كان قد أعدّ لنفسه مكاناً في سوق « عكاظ » يحضر فيه ، ويذكر للناس مفاخره فوق ذات مرة شاهراً سيفه يقول : أنا والله أعزُّ العرب فمن زعم أنه أعزُّ منِّي فليضربها بالسيف .

فقام رجلٌ من قبيلة أخرى فضرب بالسيف ساقه فقطعها ، فاختصم الناس وتنازعت القبيلتان ، ولكنهما اصطلحتا من دون أن يُقتل أحدٌ^(١) .

الفجار الثاني :

وكان سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من « بني عامر » وهي جميلة ، عليها برقع ، فقالوا لها : إسفري لننظر إلى وجهك ، فلم تفعل ، فقام غلامٌ منهم ، فجمع ذيل ثوبها إلى ما فوقه بشوكة فلما قامت انكشف جسُّها ، فضحكوا ، فصاحت المرأة قومها ، فأتاها الناسُ ، واشتجروا حتَّى كاد ان يكون قتالٌ ، ثم اصطلحوا ، وانفضُّوا بسلام .

الفجار الثالث :

وسببه أن رجلاً من « كنانة » كان عليه دَينٌ لرجل من « بني عامر » ، وكان الكنابي يماطل ، فوقع شجاراً بين الرجل ، واستعدى كل واحد منهما قبيلته ، فاجتمع الناسُ ، وتجاوزوا حتَّى كاد يكون بينهم القتالُ ، ثم اصطلحوا .

الفجار الرابع :

وهي الحرب التي . قيل أنه . شارك فيها النبي الكريم ﷺ .
ولقد ادَّعى البعض انه ﷺ كان يومذاك في الخامسة عشرة ، أو الرابعة عشرة من عمره .

١ . ولقد كان ممَّا أزاله الإسلام ومجاه هذا التفاخر الجاهلي المقيت ، وستعرف هذا في الابحاث القادمة .

وقال بعض : انه كان في العشرين من عمره وحيث أن هذه الحرب قد استمرت أربع سنوات. لهذا يمكن أن تكون جميع هذه الأقوال صحيحة^(١).

وقيل في سببه : أن « النعمان بن المنذر » ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق « عكاظ » في كل عام بضاعة في جوار رجل شريف من أشرف العرب ، يُجيرها له حتى تباع هناك ويشترى بئمنها من أقمشة « الطائف » الجميلة المزركشة مما يحتاج إليه ، فأجارها « عروة الرجال الهوازي » في تلك السنة ، ولكن « البراض بن قيس الكناني » انزعج لمبادرة « عروة » إلى ذلك ، فشكاه عند « النعمان بن المنذر » ولم يجد اعتراضه وشكواه ، فحسد على « عروة » حسداً شديداً ، فترَبَّص به حتى غدر به في اثناء الطريق ، وبذلك لَطَّخ يده بدم هوازي.

وكانت قريش يومذاك حليف كنانه ، وقد اتفق وقوع هذا الأمر يوم كانت العرب مشغولة بالكسب والتجارة في سوق عكاظ ، فأخبر رجل قريشاً بمقتل الهوازي على يد الكناني ، ولهذا عرفت قريش وحليفتها بنو كنانة بالأمر قبل هوازن ، وأسرعوا في الخروج من « عكاظ » وتوجهوا نحو الحرم (والحرم هو اربعة فراسخ من كل جانب من مكة ، وكانت العرب تحرم القتال في هذه المنطقة) ولكن هوازن علمت بذلك فلاحقت قريشاً وحليفتها فوراً ، وادركتهم قبل الدخول في الحرم فوقع بينهم قتال ، ولما جنَّ الليل كفّوا عن الحرب فاغتنمت « قريش » وحليفتها فرصة الليل ، وواصلت حركتها باتجاه الحرم المكي وبذلك نجت من خطر العدو.

ومنذ ذلك اليوم كانت تخرج قريش وحليفتها من الحرم بين الفينة والاخرى وتقاتل هوازن ، وقد شارك النبي ﷺ في بعض تلك الأيام مع أعمامه على النحو الذي مر بيانه. وقد استمر الامر على هذه الحال مدة أربع سنوات ، حتى ان وُضعت نهاية

١ . التاريخ الكامل : ج ١ ، ص ٣٥٨ و ٣٥٩ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٨٤ الهامش ، تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٢٥٩ .

لهذه الحرب الطويلة بدفع قريش لهوازن دية القتلى الذين كانوا يزيدون على قتلى قريش على يد هوازن^(١).

وقد أسلفنا أن تحريم القتال في الأشهر الحرم كانت له جذورٌ دينية ، وحيث أن حرب « الفجار » استمرت أربع سنوات فيمكن أن يكون لمشاركة النبي ﷺ فيها وجهها وحيها وهو الدفاع ، خاصة انه لما سئل ﷺ عن مشهده يومئذ فقال : « ما سرّني أنّي أشهده ، إنهم تَعَدَّوْا عَلَى قَوْمِي عَرَضُوا (اي قريش) عَلَيَّهِمْ (اي على هوازن) أن يَدْفَعُوا إِلَيْهِم البرّضَ صَاحِبَهُمْ (اي الذي قتل عروة) فَأَبَوْا »^(٢).

ويحتمل أن تكون مشاركته ﷺ في غير الأشهر الحرم بناء على استمرار هذه الحروب مدة اربعة اعوام ، وإنما سميت مع ذلك بالفجار لأن بدايتها وافقت الأشهر الحرم لا أنّها وقعت بتمامها في الأشهر الحرم.

وبذلك لا يبقى مجال لأن تُسْتَبَعَد مشاركة النبي ﷺ في بعض أيام تلك الحرب.

حَلْفُ الْفُضُول :

لقد كان في ما مضى ميثاق وحلف بين الجرهيين يدعى بحلف « الفُضُول » ، وكان هذا الحلف يهدف الى الدفاع عن حقوق المظلومين ، وكان المؤسسون لهذا الحلف هم جماعة كانت اسماؤهم برمتها مشتقة من لفظة الفضل ، واسماؤهم . كما نقلها المؤرخ المعروف « عماد الدين ابن كثير » . هي عبارة عن : « فضل بن فضالة » ، و « فضل بن الحارث » ، و « فضل بن وداعة »^(٣) ، وحيث أن الحلف الذي عقده جماعة من قريش فيما بينها كان متحدا في الهدف (وهو الدفاع عن حقوق المظلومين) مع حلف « الفضول » لذلك سُمِّي هذا الاتفاق

١ . سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٨٤ . ١٨٧ ، الأغاني : ج ٢٢ ، ص ٥٦ . ٧٥ .

٢ . الأغاني : ج ٢٢ ، ص ٧٣ .

٣ . البداية والنهاية : ج ١ ، ص ٢٩٠ .

وهذا الحلف بجلف « الفضول » أيضا.

فقبل البعثة النبوية الشريفة بعشرين عاما دخل رجل من « زبيد في مكة في شهر ذي القعدة ، وعرض بضاعة له للبيع فاشتراها منه « العاص بن وائل » ، وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي قريشاً ، وطلب منهم أن ينصروه على العاص ، وقريش آنذاك في انديتهم حول الكعبة ، فنادى بأعلى صوته :

يا آل فهـر لمظلوم بضاعته يبطن مكة نائي الدار والنفير
ومجرم أشعث لم يقض عُمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لبين تمت كرامته ولا جرام لثوب الفاجر القذر
فأثارت هذه الأبيات العاطفية مشاعر رجال من قريش ، وهيجت غيرهم ، فقام « الزبير بن عبد المطلب » وعزم على نصرته ، وأيده في ذلك آخرون ، فاجتمعوا في دار « عبد الله بن جدعان » وتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكون يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّ إليه حقه ما أمكنهم ذلك ثم مشوا إلى « العاص بن وائل » فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه .

وقد أنشد الزبير بن عبد المطلب في ذلك شعرا فقال :

إن الفضُولُ تعاقبوا وتجاأفوا ألا يقمim يبطن مَكَّة ظالم
أمر عليهِ تعاقبوا وتواثبوا فالجار والمعتر فيهم سالم
وقال أيضا :

خلفيت لنعقيدن حلفا عليهم وإن كُنبا جميعا أهل دار
نسميه « الفضُول » إذا عبقدنا يعزبه العريب لئذي الجوار
ويعلم من جوالي البيت أنبا أباة الضيمم مَبَع كُلال عار^(١)

وقد شارك رسول الله ﷺ ، في هذا الحلف الذي ضمن حقوق المظلومين وحياتهم ، وقد نُقلت عنه ﷺ عبارات كثيرة يشيد فيها بذلك الحلف ويعتزُّ فيها بمشاركته فيه وها نحن ننقل حديثين منها في

١ . البداية والنهاية : ج ١ ، ص ٢٩٠ .

هذا المقام.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« لقد شهد^١ في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دُعيت به في الإسلام لأجبت ». كما أن ابن هشام نقل في سيرته أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في ما بعد عن هذا الحلف : « ما أحبُّ أن لي به حُمْرُ النِّعَمِ ».

ولقد بقي هذا الحلف يحظى بمكانة واحترام قويين في المجتمع العربي والإسلامي حتى أن الأجيال القادمة كانت ترى من واجبها الحفاظ عليه والعمل بموجبه ، وبدل على هذا قضية وقعت في عهد إمارة « الوليد بن عتبة » الأموي^(١) على المدينة.

فقد وقعت بين الإمام الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وبين أمير المدينة هذا منازعة في مال متعلق بالحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، ويبدو أن « الوليد » تحامل على الحسين في حقه لسلطانه ، فقال له الإمام السبط الذي لم يرضخ لحيف قط ، ولم يسكت على ظلم أبداً : « أَحْلِفُ بِاللَّهِ لَتَنْصِفَنِي مِنْ حَقِّي ، أَوْ لَأَخْذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ لَأُعَوِّذَنَّ بِحَلْفِ الْمُضُنُولِ »^(٢).

فاستجاب للحسين فريق من الناس منهم « عبد الله بن الزبير » ، وكرّر هذه العبارة وأضاف قائلا : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لأخذنَّ سيفي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ تَمُوتَ جَمِيعًا.

وبلغت كلمة الحسين السبط عَلَيْهِمَا السَّلَامُ هذه إلى رجال آخرين ك « المسورة بن مخزومة بن نوفل الزهري » و « عبد الرحمان بن عثمان » فقالا مثل ما قال « ابن الزبير » ، فلما بلغ ذلك « الوليد بن عتبة » أنصف الحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من حقه حتى رضي^(٣).

١ . من قبل عمّه معاوية.

٢ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣٢ .

٣ . البداية والنهاية : ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

من فترة الشباب

إلى مزاولة التجارة

يحمل القادة الالهيون العظماء وأصحاب الرسالات السماوية على كواهلهم مسؤوليات كبرى ، ومهام عظمى تلازم . في الأغلب . التعرض للمتاعب والمصاعب ، والعذاب ، وتحمل الأذى ، بل وربما التعرض للقتل والاعتقال ، وكلما كبرت الاهداف ، عظمت المشاكل ، والمتاعب .

وعلى هذا الاساس ، فان نجاح القادة الرساليين يتوقف على مدى صبرهم واستقامتهم في وجه الاتهامات والمضايقات ، وفي وجه الأذى والعذاب ، لأن الصبر والتحمل في جميع مراحل الجهاد والعمل هو الشرط الاساسي للوصول إلى المقصود ، وإلى تحقيق الهدف المنشود والغاية المطلوبة .

من هنا ليس لقائد حقيقي أن يخشى كثرة العدو ، وليس له ان ينسحب ، أو يضعف لقلبة الاتباع والمؤيدين وبالتالي ليس له أن يقلق للنوائب فتحور عزيمته ، أو ترخو إرادته ، مهما عظمت حلق البلاء واشتدت ، ومهما تزايدت ، أو تواترت .
إننا نقرأ في تاريخ الأنبياء وقصصهم أموراً يعسر على الإنسان العادي هضمها ، ويصعب تصوُّرها .

فعن نوح النبي ﷺ نقرأ أنه دعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً ، ولم تنتج هذه الدعوة الطويلة المضنية سوى قلة من المؤمنين والمؤيدين الذين لم

يتجاوز عددهم الواحد والثمانين ، وهذا يعني أنه لم يوفق في كل اثني عشر عاماً الا لهداية شخص واحد.

إنَّ إرادة الصبر ، وقوَّة التحمُّل ، والتصبر تظهر لدى الإنسان شيئاً فشيئاً ، فلا بدَّ أن تتلاحق حوادثٌ صعبةٌ ، ولا بد أن يمرَّ المرء بنوائب مزعجة حتى تأنس روحه بالامور الثقيلة ، والقضايا الصعبة.

لقد قضى رسول ﷺ شطراً من حياته قبل البعثة في رعي الغنم في الصحاري والقفار ، ليكون بذلك صبوراً في تربية الناس الذين سيكلف بقيادتهم وهدايتهم ، وليستسهل كل صعب في هذا المجال.

إن ادارة المجتمع البشريّ من أصعب الأمور التي تواجه القادة ، ورجال الاصلاح. والمقدرة على الإدارة هذه لا تسنح ولا تنهياً لأحد إلا بعد مزاولة الأمور الصعبة ، وممارسة الأعمال الشاقة ، وربما يكون قيام النبي ﷺ برعي الغنم من هذا الباب ، ولهذا جاء في الحديث .
« ما بعث الله نبياً قطُّ حتى يَشْتَرِعْهُ الغنم لِيُعَلِّمَهُ بذلك رعيَةَ النَّاسِ »^(١).

لقد قضى النبي ﷺ شطراً من عمره الشريف في هذا المجال ، وينقل كثيرٌ من ارباب السير والمؤرخين هذه العبارة عنه ﷺ :

« ما من نبي إلا وقد رعى الغنم » قيل : مَنْت يا رسول الله؟

فقال : « أنا رعيْتُها لأهل مَكَّة بِالقراريط »^(٢).

إن شخصية عظيمة تُفتر فيها أن تواجه . في المستقبل . أشخاصا عنودين كأبي جهل وابي لهب ، وأن تصنع ممن انحطت أفكارهم حتى أنهم سجدوا لكل حجر ومدّر ، أفراداً لا يخضعون لأي شيء سوى ارادة الحق ومشيتته ، لا بدَّ أن تتسلح قبل ذلك بسلاح الصبر ، وتتجهز بأداة التحمل ، وتتزود مسبقاً بقدرة الاستقامة على طريق الهدف ، وهذا لا يكون إلا بتعويد النفس على هذه

١ . سفينة البحار : ما و نأ .

٢ . السيرة النبوية لابن هشام : ج ١ ، ص ١٦٦ .

الصفات ، وحملها على مشاق الاعمال :

سبب آخر لرعي الغنم :

ويمكن أن نذكر هنا سببا آخر أيضا وهو ان رجلا حر النفس والعقل كرسول الله ﷺ تجرّي في شرايينه وعروقه دماء الغيرة والشجاعة كان يشق عليه ان يشاهد كل ذلك الظلم والحيف الذي كان يمارسه طغاة مكة ، وعتاة قريش وزعماؤها الظالمون القساة بحق الضعفاء ، والمحرومين ، وكذا كان يشق عليه ان يرى تظاهريهم بالعصيان والفسوق في حرم الله ، وعند بيته المعظم.

إن اعراض سُكّان مكة عن عبادة الله الواحد الحق ، وطوافهم حول تلك الأصنام الخاوية هي . بلا ريب . أسوأ واقبح ما يكون في نظر الرجل الفاهم ، والعافل العالم ، واثقل ما يكون عليه .

من هنا رأى النبي ﷺ أن يقضي ردحا من الزمن في الصحاري والقفار وعند سفوح الجبال التي كانت يومئذ بعيدة بطبيعة الحال عن تلك المجتمعات الفاسدة وأحوالها وأوضاعها ، ليستريح (أو يتخلص) بعض الشيء من آلامه الروحية الناشئة من رؤية تلك الأوضاع المزرية ، والأحوال المشينة .

على ذلك هذا الأمر لا يعني أن للرجل المتقي أن يسكت على الفساد والظلم ، ويقترّ عليهما .

ويغير بين حياته وحياة الآخرين ويعتزل عنهم ويتخذ موقف اللامبالاة تجاه الأوضاع المنحرفة ، والاحوال الشاذة ، بل ان النبي ﷺ لما كان مأمورا من جانب الله سبحانه بالسكوت والانتظار ، لانه لم تكن ظروف « البعثة » والهداية قد توفرت وتهيأت بعد لذلك اتخذ ﷺ مثل هذا الموقف .

سبب ثالث :

ولقد كان هذا العمل (أي الاشتغال برعي الاغنام في البراري والقفار وعند السهول وسفوح الجبال) فرصة جيدة لأن يتمكن النبي ﷺ من النظر في خلق السماوات والتطلع في النجوم والكواكب وأحوالها وأوضاعها ، وبالتالي الامعان في الآيات الأنفسية والآفاقية التي هي جميعاً من آيات وجود الله تعالى ، ومن مظاهر قدرته وحكمته وعلمه وإرادته .

ان قلوب الأنبياء والمرسلين مع أنها منوّرة بمصاييح المعرفة المشرقة ومضاءة بأنوار الايمان والتوحيد منذ بدء فطرتها ، وخلقتها ، ولكنهم مع ذلك لا يرون انفسهم في غنى عن النظر في عالم الخلق ، والتفكر في الآيات الالهية ، إذ من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الايمان ، ويبلغون اسمى درجات اليقين ، وبالتالي يتمكنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين .

إقتراح أبي طالب :

لقد دفع وضع (محمّد) المعيشي الصعب « أبا طالب » سيد قريش وزعيمها الذي كان معروفاً بالسخاء وموصوفاً بالشهامة ، وعلو الطبع ، وإباء النفس إلى ان يفكر في عمل لابن أخيه ، كيما يخفف عنه وطأة ذلك الوضع .

ومن هنا اقترح على ابنه أخيه « محمّد » العمل والتجارة بأموال « خديجة بنت خويلد » التي كانت امرأة تاجرة ، ذات شرف عظيم ، ومال كثير ، تستأجر الرجال في مالها أو تضاربهم اياه بشيء تجعله لهم منه .

فقد قال أبو طالب للنبي ﷺ : يا ابن أخي هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بما لها أكثر الناس وهي تبحث عن رجل أمين ، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت اليك ، وفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك .

ولكن إباء رسول الله ﷺ وعلوّ طبعه ، منعه من الإقدام

بنفسه على هذه الأمر من دون سابق عهد ، ولهذا قال ﷺ لعمة : فلعلها أن ترسل إلي في ذلك ، لأنها تعرف بأنه المعروف بالأمين بين الناس .

فبلغ « خديجة » بنت خويلد ، ما دار بين النبي وعمه « أبي طالب » ، فبعثت إليه فوراً تقول له : إني دعاني إلى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا اعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك وابعث معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر .

فاخبر رسول الله ﷺ عمه بذلك فقال له ابو طالب : « إن هذا زرق ساقه الله إليك »^(١) .

هل عمل النبي أجيرا لخديجة؟

وهنا لابد من التذكير بنقطة في هذا المجال وهي :

هل عمل النبي ﷺ أجيراً في أموال خديجة ، أم أنه قد عمل في تجارتها بصورة أخرى كالمضاربة ، وذلك بأن تعاقد النبي مع خديجة على أن يتاجر بأموالها على أن يشاركها في ارباح تلك التجارة؟

إن مكانة البيت الهاشمي ، وإباء النبي الأكرم ﷺ ومناعة طبعه ، كل تلك الأمور والخصال توجب أن يكون عمل النبي في أموال خديجة قد تم بالصورة الثانية (أي العمل في تجارتها على نحو المضاربة لا الإجارة) ، وتؤيد هذا المطلب امور هي :

أولاً : انه لا يوجد في اقتراح أبي طالب أية اشارة ولا أي كلام عن الإجارة ، بل قد تحاور أبو طالب مع إخوته (أعمام النبي) في هذه المسألة من قبل وقال : « امضوا بنا إلى دار خديجة بنت خويلد حتى نسألها ان تعطي محمدا ما لا يتجره »^(٢) .

١- بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٢٢ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣٢ و ١٣٣ ، الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٢٤ .

٢- بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٢٢ .

ثانياً : ان المؤرخ الأقدم المعروف باليعقوبي كتب في تاريخه : ان النبي ما كان أجيرو لأحد قط (١).

ثالثاً : ان الجنابذي صحَّ في كتابه « معالم العترة » بأن « خديجة » كانت تضارب الرجال في مالها ، بشيء تجعله لهم منه (اي من ذلك المال أو من ربحه) (٢).

تهيأت قافلة قريش التجارية للسفر إلى الشام ، وفيها أموال « خديجة » أيضاً ، في هذه الاثناء جعلت « خديجة » بعيراً قويا وشيئا من البضاعة الثمينة تحت تصرّف وكيلها (أي النبي ﷺ) وامرت غلاميها (ميسرة وناصح) اللذين قررت ان يرافقاها ﷺ بان يمثلا أوامره ، ويطيعاه ، ويتعاملا معه بأدب طوال تلك الرحلة ، ولا يخالفاه في شيء (٣).

وأخيرا وصلت القافلة إلى مقصدها واستفاد الجميع في هذه الرحلة التجارية أرباحاً ، إلا أن النبي ﷺ ربح أكثر من الجميع ، كما أنه ابتاع أشياء من الشام لبيعها في سوق « تامة ».

ثم عادت تلك القافلة التجارية إلى « مكة » بعد ذلك المكسب الكبير ، والحصول على الريح الوفير.

ولقد تسنى لفتى قريش « محمّد » أن يمر . للمرة الثانية في هذه السفرة . على ديار عاد وشمود.

وقد حملة الصمت الكبير الذي كان يخيم على ديار واطلال تلك الجماعة العاصية المتمردة في نقلة روحانية إلى العوالم الأخرى أكثر فاكتر ، هذا مضافاً إلى أن هذه الرحلة جدّدت خواطره وذكرياته في السفرة الأولى ، فقد تذكّر يوم طوى مع عمه « ابي طالب » هذه الصحاري نفسها وهذه القفار ذاتها ، وما كان يحظى

١- تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ، ص ٢١ .

٢- بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٩ نقلا عن معالم العترة .

٣- قالت خديجة لهما : إعلما أنني قد أرسلت اليكما أميناً على أموالي وأتّه أمير قريش وسيدّها ، فلا يدّ على يده ، فإن باع لا يمتنع وإن ترك لا يؤمر وليكن كلامكما له بلطف وأدب ولا يعلو كلامكما على كلامه . (بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٢٩) .

فيها من عمه من الحذب والعناية.

وعند ما اقتربت قافلة قريش إلى « مكة » ، وصارت عند مشارفها ، التفت « ميسرة » غلامٌ خديجة ، إلى النبي ﷺ وقال : « يا محمد لقد ربخنا في هذه السفرة ببركتك ما لم نربح في أربعين سنة ، فاستقبل بخديجة وابشرها بربخنا » فأخذ النبي باقتراح ميسرة ، وسبق القافلة العائدة في الدخول إلى مكة ، وتوجه نحو بيت « خديجة » بينما كانت خديجة جالسة في غرفتها ، فلما رأت النبي مقبلاً عليها ، نزلت من منظرها وركضت نحوه واستقبلته ، وأدخلته في غرفتها ، فخبّرها رسول الله ﷺ بما ربخوا ، ببيان جميل ، وكلام بليغ ، فسرت « خديجة » بذلك سروراً عظيماً ، ثم قدم « ميسرة » في الأثر ، ودخل عليها ، وأخبرها بكل ما رآه وشاهده من النبي ﷺ في تلك السفرة من الكرامة والخير ، والحُلق العظيم ، والخصال الكريمة ، ومن الأمور التي كانت برمتها تدل على عظمة شخصيته ﷺ ، وسمو خصاله ^(١) ، ومن جملة ما حدثها به ميسرة هو أنه لما وقع بين النبي ﷺ وبين رجل تلاح وجدال في بيع قال له ذلك الرجل : إحلف باللات والعزى ، فقال رسول الله ﷺ : ما حلفتُ بهما قط ، وإني لأمرُّ فاعرضُ عنهما ^(٢) .

وحدثها أيضاً بأنه لما مر ببصرى نزلا في ظل شجرة ليستريحها فقال راهب كان يعيش هناك لما رأى النبي يستريح في ظل تلك الشجرة : « ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي » سأل عن اسمه ، فأخبره ميسرة باسمه فقال : « هو نبي وهو آخر الأنبياء ، إنه هو هو ومُنزّل الإنجيل ، وقد قرأت عنه بشائر كثيرة » ^(٣) .

١. الخرايج : ص ١٨٦ ، بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٥ .

٢ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٣٠ وفي بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ١٨ : انه ﷺ قال : إليك عني ثكلتك أمك فما تكلمت العرب بكلمة أثقل عليّ من هذه الكلمة .

٣ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ١٨ ، الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٣٠ ، الكامل لابن الأثير : ج ٢ ، ص ٢٤ و ٢٥ .

خديجة زوجة الرسول الأولى :

حتى قبل ذلك اليوم لم تكن حالة النبي ﷺ الاقتصادية ووضعه المالي يُحسد عليه ، فقد كان بحاجة إلى مساعدة عمه « أبي طالب » المالية ، ولم يكن شغله على النحو الذي يكفي لضمان نفقاته ، من جانب ، وتمكينه من اختيار زوجة وشريكة حياة وتكوين عائلة ، من جانب آخر.

ولكن هذه السفارة إلى الشام وبخاصة على نحو الوكالة والمضاربة في أموال امرأة جليلة ، معروفة في قريش (أعني خديجة) ساعدت وإلى حد كبير على تثبيت وضعه الاقتصادي وتقوية بنيته المالية.

ولقد اعجبت « خديجة » بعظمة فتى قريش وسمو أخلاقه ، ومقدرته التجارية حتى أنها أرادت أن تعطيه زيادة على ما تعاقدت عليه ، وتقديراً له ، واعجاباً به ، ولكنه اكتفى بأخذ ما تقرّر في البداية ثم توجه إلى بيت عمه « أبي طالب » وقلم كل ما أخذه من « خديجة » إلى عمه « أبي طالب » ليوثّق به على أهله.

ففرح « أبو طالب » بما عاين من ابن أخيه ، وبقية أبيه « عبد المطلب » ، وأخيه « عبد الله » وأغرورقت عيناه بالدموع ، وسرّ بما حقق من نجاح وما حصل عليه من ربح من تلك التجارة سروراً كبيراً ، واستعدّ أن يعطيه بعيرين يسافر عليهما ويتاجر ، وراحتين يُصلح بهما شأنه ، ليتسنى له بأن يحصل على ثروة ومال يعطيه لعمه ليختار له زوجة.

في مثل هذه الظروف بالذات عزم رسول الله ﷺ عزمًا قاطعاً على أن يتخذ لنفسه شريكة حياة ويكون أسرة ، ولكن كيف وقع الاختيار على « خديجة » التي سبق لها أن رفضت كل طلبات الزواج التي تقدم بها كبار الاثرياء والشخصيات القرشية مثل « عقبة بن أبي معيط » ، و « أبو جهل » و « أبو سفيان » للزواج بها؟! ، وماذا كانت العلة التي جمعت هذين الشخصين غير المتشابهين ، من حيث مستوى الحياة ، والثراء؟ وكيف ظهرت تلك الرابطة القوية ، وتلك العلاقة المعنوية العميقة ، والألفة والمحبة بينهما إلى درجة أن

« خديجة » سلام الله عليها وهبت كل ثروتها للنبي ﷺ لينفقها في نشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الحق ، وإرساء قواعد التوحيد ، وبث الدين الجديد ، واصبحت تلك الدار المفخمة التي كانت تزينا الكراسي المرصعة ، والستر المطرزة ، المصنوعة من أعلى الأقمشة الهندية ، والإيرانية ، ملجأ للمسلمين ، وملتقى لانصار الرسالة!!

لابد من البحث عن جذور هذه الحوادث في تاريخ حياة « خديجة » نفسها ، فان من المسلم والبديهي أن هذا النوع من الفداء ، والتفاني والإيثار لم يكن ثابتاً ليتحقق ما لم يكن لها جذور معنوية وطاهرة.

إن صفحات التاريخ لتشهد بأن هذا الزواج كان ناشئاً من إيمان « خديجة » بتقوى عزيز قريش وفتاها الامين « محمد » وطهره ، وحبها الشديد لعفته وكرم أخلاقه ، ولهذا قال النبي الأكرم ﷺ في حقها :

« أفضل نساء الجنة أربع : خديجة ... »^(١).

إنها أول امرأة آمنت برسول الله ﷺ .

فقد قال علي أمير المؤمنين عليه السلام : في خطبته التي يشير فيها إلى غربة الإسلام في مبدأ البعثة النبوية الشريفة :

« َيَجْمَعُ بَيْتَ وَاحِدٍ يُؤْمِنُ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا »^(٢).

ويكتب « ابن الأثير » قائلاً : إن عفيف الكندي كان إمرأ تاجراً قدم مكة أيام الحج فرأى رجلاً قام تجاه الكعبة يصلّي ثم خرجت امرأة تصلّي معه ، ثم خرج غلاماً فقام يصلّي معه ، فمضى يسأل العباس عم النبي عن هؤلاء ، وعن هذا الدين ، فقال العباس :

١ . خصال الصدوق : ج ١ ، ص ٩٦ وغيره.

٢ . الكامل : ج ٢ ، ص ٣٧ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي : ج ١٣ ، ص ١٩٧ .

هذا محمد بن عبد الله ابن أخي زعم أن الله ارسله ، وهذه امرأته خديجة آمنت به ، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به ، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة^(١) .

وينبغي هنا أن نعطي لمحة عن مكانة خديجة في الإسلام تكميلاً لهذه الدراسة.

خديجة في أحاديث الرسول ﷺ :

لقد اكتسبت « خديجة » بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمدية ، وتفانيها في سبيل الإسلام وبسبب حرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة وسلامته ، وعملها المخلص على النجاح مهمته ، ومشاركتها الفعالة ، في دفع عجلة الدعوة إلى الامام ، ومشاطرتها للنبي في أكثر ما تحمله من محن واذى بصبر واستقامة وحب ورغبة.

لقد اكتسبت خديجة بفضل كل هذا وغيره مكانة سامية في الإسلام ، حتى ان النبي ذكرها في أحاديث كثيرة وأشاد بفضلها ، ومكانتها وشرفها على غيرها من النساء المسلمات المؤمنات ، وذلك ولا شك ينطوي على أكثر من هدف.

فمن جملة الأهداف التي ربما توخاها النبي ﷺ من الاشادة بخديجة ﷺ الفات نظر المرأة المسلمة إلى القدوة التي ينبغي أن تقتدي بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والأبعاد ، والظروف ، والحالات.

هذا مضافاً إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة وهي نصف المجتمع (إن لم تكن أكثره أحياناً) من دعم جدّي للرسالة ، مادياً كان أو معنوياً.

وفيما يلي نأتي ببعض الأحاديث الشريفة التي تعكس مكانة خديجة ، ومقامها ، ومدى إسهامها في نصرته الإسلام ودعم دعوته ، وإرساء قواعده.

١ - عن أبي زرعة عن أبي هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] :

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٣ ، ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

أتاني جبرئيل عليه السلام فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها آنية فيها ادم أو طعام أو شراب ، فاذا هي أتتك فاقراً عليه السلام من ربها ومي ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » ^(١) .

٢ . عن عائشة قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين ، لما كنت اسمعه يذكرها ، ولقد أمره ربه عز وجل ان يبشرها ببيت من قصب في الجنة ، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها (اي خلياتها و صديقاتها) ^(٢) .

٣ . وعن عائشة أيضا قالت ما غرت على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا على خديجة ، واني لم أدركها ، (قالت) : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها إلى اصدقاء خديجة قالت : « أي عائشة » فاغضبته يوماً فقلت : خديجة!! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اني قد رزقت حبها » ^(٣) .

٤ . ومن هذا القبيل ما كان يقوم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع صاحبات خديجة من الاحترام لهن والاحتفاء بهن :

فقد وقف صلى الله عليه وآله وسلم على عجز ف جعل يسألها ، ويتحفاها ، وقال :
« ان حسن العهد من الايمان ، انها كانت تأتينا ايام خديجة » ^(٤) .

٥ . وروي عن انس قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتى بهدية قال : « إذهبوا بها إلى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة » ^(٥) .

١ . صحيح مسلم : ج ٧ ، ص ١٣٣ ، مستدرک الحاكم : ج ٣ ، ص ١٨٤ و ١٨٥ بطرق متعددة صحيحة على شرط الشيخين .

٢ و ٣ . صحيح مسلم : ج ٧ ، ص ١٣٤ ، ومثلها في صحيح البخاري : ج ٥ ، ص ٣٨ و ٣٩ .

٤ . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ١٨ ، ص ١٠٨ .

٥ . سفينة البحار : ج ١ ، ص ٣٨٠ (خدج) .

٦ . روى مجاهد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الشاء عليها ، فذكرها يوماً من الايام فادركتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجزواً فقد أبدلك الله خيراً منها ، فغضب حتى أهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : « لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبتني الناس وواستني في مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء » قالت عائشة فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة ابداً (١) .

٧ . عن يعلى بن المغيرة عن ابن ابي رواد قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة في مرضها الذي ماتت فيه ، فقال لها :

« يا خديجة أتكرهين ما أرى منك ، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً ، أما علمت أن الله تعالى زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران ، وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون ... » (٢) .

٨ . عن عكرمة عن ابن عباس قال خط رسول الله ﷺ أربع خطط في الأرض وقال : أتدرون ما هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء الجنة أربع : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » (٣) .

٩ . عن أنس جاء جبرئيل إلى النبي ﷺ وعنده خديجة فقال : إن الله يقري خديجة السلام فقالت : إن الله هو السلام ، وعليك السلام ، ورحمة الله وبركاته (٤) .

١٠ . عن أبي الحسن الأول (الكاظم) عليه السلام قال قال رسول الله صلى

١ . اسد الغابة : ج ٥ ، ص ٤٣٨ ، ورواها مسلم أيضاً : ج ٧ ، ص ١٣٤ ، وكذا البخاري : ج ٥ ، ص ٣٩ وقد حذف آخرها من : فغضب حتى ... إلى آخر الرواية .

٢ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٤٧ ، وأسد الغابة : ج ٥ ، ص ٤٣٩ .

٣ . الخصال للصدوق : ج ١ ، ص ٩٦ ، كما في بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٢ .

٤ . المستدرک علی الصحیحین : ج ٣ ، ص ١٨١٦ .

الله عليه وآله : « إن الله اختار من النساء اربعا : مريم واسية وخديجة وفاطمة » ^(١) .

١١ . عن ابي اليقظان عمران بن عبد الله عن ربيعة السعدي قال أتيت خديفة بن اليمان وهو في مسجد رسول الله ﷺ فسمعتُه يقول : قال رسول الله ﷺ يقول : « خديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الايمان بالله ومحمد ﷺ » ^(٢) .

١٢ . عن عروة قال قالت عائشة لفاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ : ألا ابشرك أي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيدات نساء أهل الجنة أربع : مريم بنت عمران ، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وخديجة بنت خويلد واسية » ^(٣) .

١٣ . عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال : دخل رسول الله ﷺ منزله ، فاذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول : والله يا بنت خديجة ، ما ترين إلا أن لأُمك علينا فضلا ، وأئى فضل كان لها علينا؟! ما هي إلا كبعضنا ، فسمع ﷺ مقالها لفاطمة ، فلما رأت فاطمة رسول الله ﷺ بكت ، فقال : ما يبكيك يا بنت محمد؟! قالت : ذكرتُ أُمي فتتقصتها فبكيث ، فغضب رسول الله ﷺ . ثم قال :

« مة يا حميراء ، فان الله تبارك وتعالى بارك في الودود الولود ، وأن خديجة رحمها الله ولدت مَيّ طاهراً ، وهو عبْدُ الله وهو المطهر وولدت مَيّ القاسم ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم ، وزينب ، وأنت ممن أعقم اللهُ رحمه فلم تلدي

١ . الخصال : ج ١ ، ص ٩٦ ، كما في البحار : ج ١٦ ، ص ٢ .
 ٢ و ٣ . المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ، ص ١٨٤ . ١٨٦ ووردت روايات بمضمون ذيل الحديث في صحيح مسلم : ج ٧ ، ص ١٣٣ .

شيئا « (١) .

أجل هذه هي « خديجة بنت خويلد » شرفٌ وعقلٌ ، وحبٌ عميق لرسول الله ﷺ ، ووفاء وإخلاص ، وتضحية بالغالبي والرخيص في سبيل الإسلام الحنيف .
هذه هي « خديجة » أول من آمنت بالله ورسوله ، وصدقت محمداً فيما جاء به عن ربه ، من النساء ، وأزره ، فكان ﷺ لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من ردّ عليه ، وتكذيب له إلا فرج الله عنه بخديجة التي كانت تخفف عنه (٢) ، وتهوّن عليه ما يلقي من قومه ، بما تمنحه من لطفها ، وعطفها ، وعنايتها به ﷺ ، في غاية الاخلاص والودّ والتفاني .
ولهذا كان رسول الله ﷺ يحبها حباً شديداً ويحلمها ويقدرها حق قدرها (٣) ، ولم يفتأ يذكرها ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى رحلت وفاء لها ، واحتراماً لشخصها ومشاعرها ، وكان يغضب إذا ذكرها احدٌ بسوء ، كيف وهي التي آمنت به إذ كفر به الناس ، وصدّفته إذ كذّبه الناس ، وواسته في مالها إذ حرّمه الناس .

ولهذا أيضاً كانت وفاتها مصيبة عظيمة أحرزت رسول الله ﷺ ودفعته إلى أن يسمّي ذلك العام الذي توفي فيه ناصراه وحاميه ، ورفيقاً آلامه (زوجته هذه : خديجة بنت خويلد ، وعمه المؤمن الصامد الصابر ابو طالب عليه السلام) بعام الحداد ، أو عام الحزن (٤) وان يلزم بيته ويقل الخروج (٥) ،

١ . الخصال : ج ٢ ، ص ٣٧ و ٣٨ ، كما في بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٣ .

٢ . اعلام النساء لعمر رضا كحالة : ج ١ ، ص ٣٢٨ .

٣ . اعلام النساء : ج ١ ، ص ٣٣٠ .

٤ . تاريخ يعقوبي : ج ٢ ، ص ٣٥ ، وقد روي عنه ﷺ أنه قال بهذه المناسبة : « اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد جزعا » المصدر نفسه ، وراجع تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٠١ نقلا عن سيرة مغلطاي .

٥ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٤٧ ، المواهب اللدنية حسب نقل تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٠٢ وفيه إضافة : ونالت قريش منه ما لم تكن تنال .

وأن ينزل ﷺ عند دفنها في حفرتها ، ويدخلها القبر بيده ، في الحجون ^(١) .

عن ابن عباس في حديث طويل في زواج فاطمة الزهراء عليها السلام بعلي عليه السلام اجتمعت نساء رسول الله ﷺ ، وكان يومئذ في بيت عائشة ليسألته أن يدخل الزهراء علي (علي) عليها السلام فاحدقن به وقلت : فدينك بأبائنا وأمهاتنا يا رسول الله قد اجتمعنا لأمر لو أن « خديجة » في الأحياء لتغير ^(٢) بذلك عينها .

قالت ام سلمة : فلما ذكرنا « خديجة » بكى رسول الله ﷺ ثم قال : « خديجة واين مثل خديجة ، صدقتني حين كذبني الناس ووازرني على دين الله وأعانتني عليه بما لها ، إن الله عز وجل أمرني أن ابشر خديجة ببيت في الجنة من قصب (الزمر) لا صحب فيه ولا نصب ^(٣) .

لقد كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً ، وأكثرهن مالا ، واحسنهن جمالا وأقواهن عقلا وفهما وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفافها وصيانتها ^(٤) ويقال لها : سيدة قريش ^(٥) ، وكان لها من المكانة والمنزلة بحيث كان كل قومها وسراة أبناء جلدتها حريصين على الاقتران بها ^(٦) ، وقد خطبها . كما يحدثنا التاريخ . عظماء قريش وبذلوا لها الأموال ، ومن خطبها « عقبه بن ابي معيط » و « الصلت بن ابي يهاب » و « ابو جهل » و « ابوسفیان » فرفضتهم جميعاً ، وأختارت رسول الله . وهي في سن الأربعين وهو ﷺ في الخامسة والعشرين . وهي تمتلك تلکم الثروة الطائلة ، وهو ﷺ لا يمتلك من حطام الدنيا إلا الشيء اليسير اليسير ، رغبة في الاقتران به ولما عرفت فيه من كرم الاخلاق ، وشرف النفس ، والسجايا الكريمة والصفات العالية ، وهي ما كانت تبحث عنه في حياتها وتتعشقه وإذا بتلك المرأة الغنية الثرية العائشة في

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٤٦ .

٢ . بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٣١ نقلا عن كشف اليقين .

٣ و ٤ و ٥ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣٧ .

أفضل عيش تصبح في بيت زوجها الرسول ﷺ تلك الزوجة المطيعة الخاضعة ، الوفية المخلصة ، وتسارع إلى قبول دعوته ، واعتناق دينه بوعي وبصيرة واردة منها واختيار ، وهي تعلم ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر ومتاعب ، وتجعل كل ثروتها في خدمة العقيدة والمبدأ ، وتشاطر زوجها آلامه ، ومتاعبه ، وترضى بأن تذوق مرارة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات وفي سن الرابعة أو الخامسة والستين. وهي مع ذلك تواجه كل ذلك بصبر وثبات^(١) ، ودون أن يذكر عنها تبرُّم أو توجع.

هذا مضافاً إلى أنها كانت تعامل رسول الله ﷺ بأدب تامّ يليق بمقام الرسالة والنبوة ، على العكس من غيرها من بعض نساء النبي اللائي كنّ ربما يثرن سخطه وغضبه ، ويؤذينه في نفسه وأهله.

واليك فيما يأتي بعض ما قاله عنها كبار الشخصيات ، والمؤرخين ممّا يكشف عن عظيم مكانتها عند المسلمين أيضاً ، قال اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب ؑ :

« كنتُ أولَ من أسلم ، فمكثنا بذلك ثلاث حجج وما على الأرض خلقٌ يُصَلِّي ويشهد لرسول الله ﷺ بما أتاهُ غيْرِي ، وغير ابنة خويلد رحمها الله وقد فعل »^(٢).

وقال محمد بن اسحاق : كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدّقت بما جاء من الله ، ووازرته على أمره فخفف الله بذلك عن رسول الله ، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرح الله ذلك عن رسول الله ﷺ بها إذا رجع إليها تتبّته ، وتخفّف عنه ، وهوّن

١ . شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ١٤ ، ص ٥٩ قال : خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله ﷺ محاصرة في الشعب.

٢ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٢ ومثله في روايات متعددة في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ٤ ، ص ١١٩ و ١٢٠.

عليه امر الناس حتى ماتت رحمها الله ^(١) .

وعنه أيضا : أن « خديجة بنت خويلد » و « ابا طالب » ماتا في عام واحد ، فتتابع على رسول الله ﷺ هلاك خديجة وابي طالب وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام ، وكان رسول الله يسكن اليها ^(٢) .

وقال أبو امامة ابن النقاش : ان سبق خديجة وتأثيرها في اول الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها لله بما لها ونفسها لم يشركها فيه احد لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين ^(٣) .

وقد جاء في المنتقى : ان رسول الله ﷺ عند ما أمر بأن يصدع بالرسالة صعد على الصفا ، وأخبر الناس بما أمره الله به فرماه أبو جهل قبحه الله بحجر فشج بين عينيه ، وتبعه المشركون بالحجارة فهرب حتى أتى الجبل ، فسمع عليّ وخديجةً بذلك فراحا يلتمسانه ﷺ وهو جائع عطشان مرهق ، ومضت خديجة تبحث عنه في كل مكان في الوادي وهي تناديه بحرقه وألم ، وتبكي وتنحب ، فنظر جبرئيل إلى خديجة تجول في الوادي فقال : يا رسول الله الا ترى إلى خديجة فقد أبكت لبكائها ملائكة السماء؟ لُعها اليك فاقراها مني السلام وقل لها : إن الله يقرئك السلام ، ويبشّرها أن لها في الجنة بيتاً من قصب لا نصب فيه ولا صخب فدعاها النبي ﷺ والدماء تسيل من وجهه على الارض وهو يمسحها ويردّها ، وبقي رسول الله ﷺ ، وعلي وخديجة هناك حتى جئ الليل فأنصرفوا جميعاً ودخلت به خديجة منزلها ، فأقعدهته على الموضع الذي فيه الصخرة واطلته بصخرة من فوق رأسه ، وقامت في وجهه تستره ببردتها وأقبل المشركون يرمونه بالحجارة ، فاذا جاءت من فوق رأسه صخرة وقته الصخرة ، وإذا رموه من تحته وقتة الجدران الحيط ، وإذا رمي من بين يديه وقتة خديجة رضي الله عنها بنفسها ، وجعلت تنادي يا معشر قريش ترمي الحرة

١- بحار الانوار : ج ١٦ ، ص ١٠-١٢ .

٢- نفس المصدر .

٣- تاريخ الخمس في أحوال أنفس نفيس : ج ١ ، ص ٢٦٦ .

في منزلها؟ فلَمَّا سَمِعُوا ذلك انصرفوا عنه ، وأصبح رسول الله ﷺ ، وغدا إلى المسجد يُصَلِّي (١) .

ولقد بَلَغ من خضوعها لرسول الله ﷺ وحبِّها له أنها بعد أن تمَّ عقد زواجها برسول الله ﷺ قالت له ﷺ : « إلى بيتك ، فبيتي بيتك ، وأنا جاريتك » (٢) .

وجاء في السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ولسبقها إلى الإسلام وحسن المعروف جزاها الله سبحانه فبعث جبرئيل إلى النبي ﷺ وهو بغار حراء وقال له : اقرأ ﷺ من ربها ومني ، وبشرها بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ؛ فقالت : هو السلام ومنه السلام وعلى جبرئيل السلام ، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته ، وهذا من وفور فقهها رضي الله عنها حيث جعلت مكان رد السلام على الله التناء عليه ثم غايرت بين ما يليق به وما يليق بغيره ، قال ابن هشام والقصب هنا الوُلؤُ المحوف ، وابدى السهيلي لنفي النصب لطيفة هي انه ﷺ لما دعاها إلى الايمان أجابت طوعا ولم تحوجه لرفع صوت ولا منازعة ولا نصب بل ازالته عنه كل تعب ، وأنسته من كل وحشة ، وهوّنت عليه كل عسير فناسب ان تكون منزلتها التي بشرها بها ربها بالصفة المقابلة لفعلها وصورة حالها رضي الله عنها واقراء السلام من ربها خصوصية لم تكن لسواها ، وتميزت أيضاً بأنها لم تسؤه ﷺ ولم تغاضبه قط ، وقد جازاها فلم يتزوج عليها مدة حياتها وبلغت منه ما لم تبلغه امرأة قط من زوجاته (٣) .

افتخار اهل البيت بخديجة ﷺ :

وما يدل على سمو مقامها وعلو منزلتها أن اهل البيت ﷺ طالما

١- بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٤٣ .

٢- بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٤ نقلا عن الخرائج والجريح : ص ١٨٦ و ١٨٧ .

٣- السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٦٩ الهامش .

افتخروا بأن خديجة منهم ، وأنهم من خديجة وقد كانوا يعتزون بها ، ويشيدون بمكانتها :
فقد خطب معاوية بالكوفة حين دخلها والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر
فذكر عليا عليه السلام فقال منه ثم نال من الحسن فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه فأخذه الحسن بيده
وأجلسه ثم قام فقال :

« أيُّها الذّاكرُ عليّ أنا الحُسن وأبي علي وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأُمّك
هند وحدي رسول الله وحُدك عُتبة بن زبيعة وحدي خديجة وجدّك قتيلة فلعن الله أحمّلنا
ذكرا والأُمنا حسبا وشَرّنا قديما وحديثا. فقال طوائف من أهل المسجد : آمين ^(١) .

وقيل : ان « الحسين » عليه السلام ساير « أنس بن مالك » فاتى قبر خديجة فبكى ثم قال :
إذْهَبْ عَنِّي قال « أنس » ؛ فاستخفيت عنه فلما طال وقوفه في الصلاة سمعته يقول :
يا رَبِّ يا رَبِّ أَنْتَ بِوَلَاهِ فَبِراَحِمِ عُيُودِنا إِلَيْكَ مَلْجِاهِ
يا ذا المَعالي عَلَيَّكَ مُعْتَمِدِي طُوبَى لِمَنْ كَبِتَ أَنْتَ بِوَلَاهِ
طُوبَى لِمَنْ كان خادِمًا أرقا يَثْبُكو إلى حِجْرِ الجَبالِ بَلْواهِ
إلى آخر الايات ^(٢) .

هكذا كان اهل البيت النبوي . اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحترمون خديجة ويكرمونها لما
كان لها من شخصية عظيمة ولما اسدته إلى الإسلام وإلى رسول الإسلام من خدمات لا
تنسى على مر الدهور .

ان بيان ونقل الاحاديث والروايات ، وكذا الاقوال التي وردت في شأن خديجة والحديث
عن شخصيتها ومكانتها ومدى إسهامها في النجاح ونصرة الدعوة المحمدية خارج عن امكانية
هذه الدراسة ، ونطاقها ، لذلك نكتفي بهذه الاماعة

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي : ج ١٦ ، ص ٤٦ و ٤٧ .

٢ - بحار الأنوار : ج ٤٤ ، ص ١٩٣ نقلا عن عيون المحاسن .

العابرة تاركين الكلام باسهاب حولها إلى مجال آخر.

ولتعد إلى تبين الأسباب الظاهرية والباطنية لزواجها من رسول الله (ﷺ).

العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي ﷺ :

إن الإنسان الماديّ الذي ينظر إلى كل ما يحيط به من خلال المنظار المادي ، ويفسره تفسيراً مادياً قد يتصور (وبالاحرى يظن) أن « خديجة » كانت امرأة تاجرة تمهها تجارتها ، وتنمية ثروتها ، ولأنها كانت بحاجة ماسة إلى رجل أمين قبل اي شيء ، لذلك وجدت ضالتها في محمد الصادق الامين ﷺ فتزوجت منه ، بعد أن عرضت نفسها عليه ومحمد ﷺ هو الآخر حيث انه كان يعلم بغناها وثروتها ، قبل بهذا العرض رغم ما كان بينه وبينها من فارق في السن كبير .

ولكن التاريخ يثبت أن ثمة أسباباً وعللاً معنوية لا مادية هي التي دفعت بخديجة للزواج بأمين قريش وفتاها الصادق الطاهر .

واليك في ما يأتي شواهدنا على هذا الامر :

١ . عند ما سألت « خديجة » ميسرة عما رآه في رحلته من فتى قريش « محمد » فخبّرها ميسرة بما شاهد ورأى من « محمد » في تلك السفرة ، وبما سمعه من راهب الشام حوله أحسّت « خديجة » في نفسها بشوق عظيم ورغبة شديدة نحوه كانت نابعة من اعجابها بمعنوية محمد ﷺ وكرام خصاله ، وعظيم أخلاقه ، فقالت من دون إرادتها : « حسبك يا ميسرة ؛ لقد زدني شوقاً إلى محمد ﷺ ، إذهب فانك حرّ لوجه الله ، وزوجتك وأولادك ولك عندي مائتا درهم وراحتان » ثم خلعت عليه خلعة سنينة (١) .
ثم إنهما ذكرت ما سمعته من « ميسرة » لورقة بن نوفل وكان من حكماء

١ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٥٢ .

العرب : فقال ورقة : « لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبىُّ هذه الأمة »^(١) .

٢ . مرَّ النبي ﷺ يوماً بمنزل « خديجة بنت خويلد » وهي جالسة في مأمن نسائها وجواربها وخدمها وكان عندها حبرٌ من أحبار اليهود ، فلما مرَّ النبي ﷺ نظر إليه ذلك الحبر وقال : يا خديجة مري مَنْ يأتي بهذا الشاب ، فارسلت إليه من أتى به ، ودخل منزلٌ « خديجة » ، فقال له الحبر : إكشف عَن ظهرك فلما كشف له قال الحبر : هذا واللَّهِ خاتم النبوة فقالت له خديجة : لو رآك عمه وأنت تفتشهُ لَحَلَّت عليك منه نازلة البلاء وان أعمامه ليحذرون عليه من أحبار اليهود.

فقال الحبر : ومن يقدر على « محمَّد » هذا بسوء ، هذا وحق الكليم رسولُ الملك العظيم في آخر الزمان ، فطوبى لمن يكون له بعلا ، وتكون له زوجة وأهلاً فقد حازت شرف الدنيا والآخرة.

فتعجَّبت « خديجة » ، وانصرف « محمَّد » وقد اشتغل قلب « خديجة » بنت خويلد بحبه فقالت : أيها الحبر بمِ عرفت محمداً انه نبي؟

قال : وجدتُ صفاته في التوراة انه المبعوثُ آخر الزمان يموت أبوه وأُمُّه ، ويكفله جدُّه وعمه ، وسوف يتزوج بامرأة من قريش سيدة قومها وأميرة عشيرتها ، وأشار بيده إلى خديجة فلما سمعت « خديجة » ما نطق به الحبر تعلق قلبها بالنبي ﷺ فلما خرج من عندها قال : إجتهدى ان لا يفوتك « محمَّد » فهو الشرف في الدنيا والآخرة^(٢) .

٣ . لقد كان ورقة بن نوفل (وهو عم خديجة وكان من كُهَّان قريش وقد قرأ صحف « شيث » ﷻ وصحف « إبراهيم » ﷻ وقرأ التوراة والانجيل وزبور « داود » ﷻ) يقول دائماً : سيُبعث رجل من قريش في آخر

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٩١ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣٦ .
٢ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٢٠ و ٢١ نقلاً عن كتاب الأنوار لأبي الحسن البكري.

الزمان يتزوج بامرأة من قريش تسود قومها (أو تكون سيده قومها ، وأميرة عشيرتها) ، ولهذا كان يقول لها : « يا خديجة سوف تتصلين برجل يكون أشرف أهل الأرض والسماء »^(١) .
 هذه قضايا ذكرها بعض المؤرخين ، وهي منقولة ومثبتة في طائفة كبيرة من الكتب التاريخية ، وهي مجموعها تدل على العلل الحقيقية والباطنية لرغبة خديجة في الزواج برسول الله ﷺ ، وإن هذه الرغبة كانت ناشئة من اعجاب « خديجة » بأخلاق فتى قريش الأمين ، ونبله ، وطهارته ، وعظيم سجاياه وخصاله وحبها لهذه الأمور ، وليس هناك أي اثر في علل هذا الزواج لامانة « محمد » وكونه أصلح من غيره لهذا السبب للقيام بتجارة « خديجة » .

كيف تمّت خطبة خديجة؟

من المسلم به أن اقتراح الزواج جاء من جانب « خديجة » نفسها أولاً ، حتّى أن ابن هشام^(٢) نقل في سيرته : ان « خديجة » لما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له : « يا ابن عم إبي قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك [اي شرفك ومكانتك] في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك » ثم اقترحت عليه أن تتزوج به .

ويعتقد أكثر المؤرخين أن « نفيسة بنت عليّة » بلّغت رسالة « خديجة » إلى النبي ﷺ على النحو التالي :

قالت لرسول الله ﷺ : « يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ... ولو دُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة الا تجيب؟

فقال رسول الله ﷺ : فمن هي؟

فقالت : خديجة ، فقال رسول الله ﷺ : وكيف لي بذلك ، فقالت : عليّ فذهبت إلى خديجة فأخبرتها ، فأرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ

١- بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٢١ .

٢- السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٨٩ و ١٩٠ .

الله عليه وآله بوكيلها « عمرو بن اسد »^(١) لتحديد ساعة من اجل مراسم الخطبة في محضر من الاقارب^(٢).

فشاور النبي ﷺ أعمامه وفي مقدمتهم « أبو طالب » ، ثم عقدوا مجلساً فخماً حضره كبار وجوه قريش ، ورؤساؤها فخطب « أبو طالب » ، وبعد ان حمد الله واثنى عليه وصف ابن أخيه محمداً بقوله :

« ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونَيْلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال فإن المال ظلٌّ زائلٌ ، وأمراً حائلاً وعاريةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ ، ولَهُ في خديجة رغبةٌ ولها فيه رغبةٌ ، والصَّدَاق ما سألتُم عاجله وآجله من مالي ، ومحمدٌ من قد عرفتم قرابته .»

وحيث أن « ابا طالب » تعرّض في خطبته لذكر قريش ، وبني هاشم وفضيلتهم ، ومنزلتهم بين العرب ، لذلك تكلم « ورقة بن نوفل بن اسد » الذي كان من اقارب خديجة^(٣) وقال في خطبة له : « لا تنكروا العشيرة فضلكم ، ولا يتردُّ أحدٌ من الناس فحركم وشرفكم وقد رغبتنا في الإتصال بجلكم وشرفكم »^(٤).

ثم أجري عقد النكاح ومهرها النبي ﷺ أربعمئة دينار وقيل أصدقها عشرين بكرة^(٥).

١ . المعروف ان والد خديجة توفي في حرب الفجار ولهذا قام بالايجاب من قبلها عمها عمرو بن اسد ولهذا لا يصح ما ذكره بعض المؤرخين من أن خويلد (والد خديجة) امتنع من تزويجها لرسول الله ﷺ في بداية الأمر ، ثم رضي بذلك نزولاً عند رغبة خديجة.

٢ . تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٢٦٤ .

٣ . المعروف أن ورقة كان عمّاً لخديجة ولكن هذا موضع نقاش لأن « خديجة بنت خويلد بن اسد » وورقة بن نوفل بن اسد فيكونان اولاد عمومة أي أنه ابن عم خديجة وهي بنت عمّه . ولذلك جاء في بعض المصادر وصفه بـ « ابن عمّها » (تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٢٨٢) وراجع قبله السيرة النبوية لابن هشام : ج ١ ، ص ٢٠٣ .

٤ . بحار الانوار : ج ١٦ ، ص ١٦ ، مناقب آل أبي طالب : ج ١ ، ص ٣٠ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣٩ ، تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٢٦٤ .

٥ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣٩ .

عمر خديجة عند زواجها بالنبي ﷺ :

المعروف المشهور أن خديجة عليها السلام تزوجت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي في سن الأربعين وأنها وُلِدَتْ قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً. وذكر البعض أقلّ من ذلك أيضاً. وذكر أنها تزوجت قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم برجلين أولهما « عتيق بن عائذ » ثم من بعده ابو هالة التميمي اللذين توفي كل منهما بُعيد زواجه بخديجة ^(١).

١. ربما يُشكك في أن تكون خديجة عليها السلام قد تزوجت قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأحد وهي التي امتنعت عن كل من خطبها ورام تزويجها من سادات قريش واشرافها. راجع الاستغاثة : ج ١ ، ص ٧٠.

من الزواج

إلى البعثة

تُعتبر فترة الشباب من أهم وأخطر الفترات في حياة الإنسان ففي هذه الفترة تبلغ الغريزة الجنسية نضجها وكما لها ، وتصبح النفس البشرية لعبة في أيدي الأهواء ويغلب طوفان الشهوة على فضاء العقل ، ويغطي الظلام سماء التفكير ، وتشتد حاكمية الغرائز المادية ، وتتضاءل شعلة العقل ، وتترأى أمام عيون الشباب بين الحين والآخر ، وصباح مساء صروح عظيمة من الآمال الخيالية.

ولو ملك الإنسان . في مثل هذه الفترة . شيئاً من الثروة ، لتحولت حياته إلى مسألة في غاية الخطورة فالغرائز الحيوانية ، وصحة المزاج من جهة والامكانات المادية والمالية من جهة أخرى تتعاضدان وتغرقان المرء في بحر من الشهوات ، والنزوات ، وتهيئان له عالماً بعيداً عن التفكير في المستقبل.

ومن هنا يصف المرتبون العلماء تلك الفترة الحساسة بأنها الحدّ الفاصل بين الشقاء والسعادة ، والفترة التي قلما يستطيع شاب أن يرسم لنفسه فيها مساراً معقولاً ، ويختار لنفسه طريقاً واضحاً على أمل الحصول على الملكات الفاضلة ، والنفسية الرفيعة الطاهرة التي تحفظه عن أي خطر متوقع^(١) . حقا إن كبح جماح

١ . وإلى هذه الحقيقة اشار الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله :

إن الفــــراغ والشــــباب والجــــدة مفســــدة للمــــرء اي مفســــدة

النفس ، وزمَّها وحفظها من الإنزلاق في مهاوي الشهوات ، والنزوات في مثل هذه الفترة لهو أمر جدَّ عسير ، ولو أن الانسان حُرِّم من تربية عائلية صحيحة مستقيمة كان عليه أن ينتظر مصيراً سيئاً ، ومستقبلاً في غاية البؤس والشقاء.

فَتْرَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

ليس من شك في ان فتى قريش « مُحَمَّد » ﷺ كان يتمتع في أيام شبابه بصحة جيدة ، وقوة بدنية عالية ، وكان شجاعاً قوياً ، لأنه ﷺ قد تروى في بيئة حرة بعيدة عن ضوضاء الحياة ، وفتح عينيه في عائلة اتصف جميع أفرادها واعضاءها بالشجاعة والفروسية ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر كان يمتلك ثروة « خديجة » الطائلة فكانت ظروف الترف ، والعيش الشهواني متوفرة له بشكل كامل ، ولكن كيف ترى استفاد من هذه الامكانيات المادية هل مدَّ موائد العيش واللذة وشارك في مجالس السهر والسمر واللهو واللعب. واطلق العنان لشهوته ، وفكر في إشباع غرائزه الجنسية كغيره من شباب ذلك العصر ، وتلك البيئة الفاسدة.

أم أنَّه اختار لنفسه منهجاً آخر في حياته ، واستفاد من كل تلك الإمكانيات في سبيل تحقيق حياة زاخرة بالمعنوية ، الأمر الذي تبدو ملامحه بجلاء لمن تتبع تلك الفترة الحساسة من تاريخه.

ان التاريخ ليشهد بأنه ﷺ كان يعيش كما يعيش أي رجل ، رجل عاقل لبيب وفاضل رشيد ، وأنه طوى تلك السنوات الحساسة من حياته كأحسن ما يكون ، بعيداً عن العبث والترف والضياع والانزلاق إلى الشهوات والانسياق وراء التوافه.

بل ان التاريخ ليشهد بأنه كان اشد ما يكون نفوراً من اللهو ، والعبث ، والترف والمجون فقد كانت تلوح على محيَّاه دائماً آثار التفكُّر والتأمل ، وكثيراً ما كان يلجأ إلى سفوح الجبال أو الكهوف والمغارات للابتعاد عن الجوّ الإجتماعي الموبوء في مكة ، يلبث هناك أياماً يتأمل فيها في آثار القدرة الآلهية ،

وفي عظمة الصنع الالهي ، الرائع البديع.

أحاسيسه ومشاعره الإنسانية في فترة الشباب :

ولقد وقعت في احدى أسواق مكة ذات يوم حادثة هيّجت مشاعره الإنسانية وحركت عواطفه واحاسيسه ، فقد رأى مقامراً قد خسر بعيهه وبيته ، بل بلغ الأمر به أن استرقه منافسه عشرة أعوام.

وقد آلمت هذه القصة المأساوية فتى قريش « محمد » بشدة ، إلى درجة أنه لم يُعدّ يهتمل البقاء في « مكة » ذلك اليوم فغادرها من فورهِ وذهب إلى الجبال المحيطة بمكة ثم عاد بعد هزيع من الليل.

لقد كان رسول الله ﷺ ينزعج بشدة لهذه المشاهد المحزنة والاضاع المأساوية ، وكان يتعجب من ضعف عقول قومه ، وانحطاط مداركهم.

ولقد كان بيت « خديجة » قبل زواج النبي ﷺ بها ملاذاً للفقراء وكعبة لآمال المساكين والمحرومين ، وبعد أن تزوج النبي ﷺ بها لم يطرأ على وضع ذلك البيت أيّ تغيير من جهة الانفاق والبدل.

ففي سنين الجذب والقحط التي كانت تضرب مكة وضواحيها بين الحين والآخر ربما قدمت « حليلة السعدية » مكة لتزور ولدها الرضاعي « محمد » فكان النبي ﷺ يكرمها ويحترمها ، ويفرش رداءه تحت أقدامها ، ويصغي لكلامها بعناية ولطف ، وفاء لجميلها ، وعرفاناً لعواطفها وأمومتها.

فقد روي أن « حليلة » قدمت على رسول الله ﷺ مكة بعد تزوجه خديجة ، فشكت إليه جذب البلاد وهلاك المواشي فكلم رسول الله ﷺ « خديجة » فأعطتها بغيراً واربعين شاة ، وانصرفت إلى أهلها موفورة ، مسرورة.

وروي أيضا انه استأذنت « حليلة » عليه ذات مرة فلما دخلت عليه قال : « أمي أمي » « وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه (١) .

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٠٣ .

أولاد خديجة :

لا ريب في أنّ وجود الأولاد في الحياة العائليّة ممّا يقوّي أواصر الوشيجة الزوجية ، ويعمّق جُذورها ، ويمنح الجوّ العائليّ بهاء ، ورؤنقاً ، وجمالاً خاصاً .
ولقد أنجبت « خديجة » لرسول الله ﷺ ستة من الأولاد اثنين من الذكور ، أكبرهما « القاسم » ثم « عبد الله » اللذان كانا يُدعيان بـ : « الطاهر » و « الطيّب » واربعة من الإناث .

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد : أكبر بناته زُبيّة ثم زَيْنَب ثم أمّ كلثوم ، ثم فاطمة .
فأما الذكور من أولاده ﷺ فماتوا قبل البعثة ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ^(١) .
ورغم أن النبي ﷺ قد عُرف بصبره وجلده في الحوادث والنوائب فربما انعكست احزانه القلبية في قطرات دموعه الساخنة المنحدرة على خَدَّيه الشريفين في موت أولاده .
ولقد بلغ به الحزن والغم لموت ولده « إبراهيم » من زوجته ماريّة القبطية حدا لم يحدث لغيره من أولاده ، إلاّ أنّه رغم ذلك الحزن الآخذ من قلبه مأخذاً لم يفتر لسانه عن حمد الله وشكره حتى أن اعرابيا اعترض عليه ﷺ لما وجدته يبكي على ولده قائلاً : أولم تكن نُهيت عن البكاء اجابه بقوله :
« انما هذا رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم ^(٢) » .

جَدُّ لا أساس له من الواقع !!

لقد كتب الدكتور هيكل في كتابه : « حياة محمّد » يقول : « لا ريب أن

١ . مناقب ابن شهر آشوب : ج ١ ، ص ١٤٠ ، قرب الأسناد : ٦ و ٧ ، الخصال : ج ٢ ، ص ٣٧ ، بحار الأنوار : ج ٢٢ ، ص ١٥٠-١٥٢ . وقد ذكر البعض للنبي ﷺ أكثر من ولدين ، يراجع تاريخ الطبري ج ٢ ، ص ٣٥ ، بحار الأنوار : ج ٢٢ ، ص ١٦٦ .
٢ . بحار الأنوار : ج ٢٢ ، ص ١٥١ .

خديجة عند موت كل واحد منهما (اي ولدي النبي : القاسم وعبد الله) في الجاهلية
توجَّهت إلى آلهتها الاصنام تسألها ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها «^(١) .
إنَّ هذا الكلام لا يستند إلى أي دليل تاريخي ، وليس هو بالتالي إلا حَدْسٌ باطل ،
وإدعاء فارغ ليس له من منشأ إلا أن أغلبية أهل ذلك العصر كانوا عبدة أوثان ، فلا بُدَّ ان
خديجة كانت على منوالهم!!

في حين ان رسول الله ﷺ كان يبغض الأصنام والأوثان من بداية شبابه ، وقد اتضح
موقفه منها أكثر في سفرته إلى الشام في أموال خديجة يوم قال لمن استحلّفه باللات والعزى :
« اليك عني ، فما تكلمت العرب بكلمة أثقل عليّ من هذه » .

مع ذلك كيف يمكن القول بأن امرأة لبيبة عاقلة لم يكن شدة حبها وشغفها بزوجها
موضع شك ، أن تتوجَّه عند موت ولديها إلى الاصنام التي كانت ابغض الأشياء عند زوجها
، وخاصة أن حبها لزوجها « محمّد » وبل إقدامها على الزواج منه انما كان بسبب ما كان
يتحلّى به من إيمان ومعنوية ، وصفات فاضلة ، وملكات اخلاقية عالية ، فهي قد سمعت
عنه بأنه آخر نبيّ ، وأنه خاتم المرسلين ، فكيف والحال هذه يمكن ان يحتمل احد انها . مع
هذا الاعتقاد . بثت شكواها وحزنها إلى الاوثان والاصنام!؟؟

دَعِيَ رسول الله : زيد بن حارثة :

عند الحَجْر الاسود أعلن رسول الله ﷺ عن تبنيه له ... ذلك هو زيد بن حارثة.
وكان « زيد » ممّن سباه العرب من حدود الشام ، وباعوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد
أقرباء « خديجة » يدعى « حكيم بن حزام » ، ولكن لا يُعرف كيف انتقل إلى « خديجة
« في ما بعد؟

١ . حياة محمّد : ص ١٢٨ .

يقول هيكل في كتابه « حياة محمد » في هذا الصدد « لقد ترك موت وليد رسول الله ﷺ في نفس النبي اثرا عميقا حتى إذا جيء يزيد بن حارثة يُباع طلب إلى « خديجة » أن تبناعه ففعلت ثم اعتقه وتبناه »^(١).

ولكن أكثر المؤرخين يقولون : ان « حكيم بن حزام » قد اشتراه لعمته « خديجة بنت خويلد » ، وقد أحبه رسول الله ﷺ لذكائه وطهره ، فوهبته « خديجة » له عند زواجه ﷺ منها.

ففتش عنه والدّه « حارثة » حتّى عرف بمكانه في مكة ، فقدمها ، ودخل على النبي ﷺ أن يأذن لزيد ليرحل معه إلى موطنه ، فدعاه رسول الله ﷺ وخيّره بين المقام معه والرحيل إلى موطنه مع أبيه ، فاختر المقام مع رسول الله ﷺ لما وجد من خلقه ، وحنانه ، ولطفه العظيم فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك اخرجته إلى الحجر واعتقه ثم تبناه على مرأى من الناس ومسمع قائلا : « يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني »^(٢).

بداية الخلاف بين الوثنيين :

لقد أوجدت البعثة النبويّة خلافاً واختلافاً كبيراً في أوساط قريش وفرقت صفوفهم ، غير أنّ هذا الاختلاف قد وُجدت أسبابه وعوامله ، وظهرت بوادره وعلائمه قبل البعثة المباركة . فقد أبدى جماعة من الناس في الجزيرة العربية استياءهم من دين العرب وانكروا عقائدهم الباطلة ، وطالما كانوا يتحدثون عن قرب ظهور النبي العربيّ الذي يتمّ على يديه إحياء التوحيد.

وكان اليهود يتوعدون أهل الاصنام بالنبي ﷺ ويقولون :

١ . حياة محمد : ص ١٢٨ .

٢ . الاصابة : ج ١ ، ص ٥٤٥ و ٤٥٦ ، أسد الغابة : ج ٢ ، ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

ليخرجنَّ نبيُّ فليكسرن أصنامكم ^(١) .

وكتب ابن هشام يقول : كان اليهود يقولون للعرب : إنه قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم.

وكتب يقول أيضا : وكانت الاحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى والكهّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه .

هذه الكلمات تُصوّر انقضاء عهد الوثنية في نظرهم إلى درجة أن بعض القبائل أجابت النبي ﷺ لما بُعث ، ودعاهم الله ، بينما احجمت اليهود عن الايمان به وبرسالته وبقيت على كفرها وجحودها لنبوته التي طالما بشرت بها .

وقد نزل فيهم قوله تعالى : « **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** » ^{(٢) (٣)} .

أعمدة الوثنية تهتز :

ولقد شهد أحد أعياد قريش حادثا غريبا كان في نظر العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب منهم بمثابة جرس إنذار إذ باقتراب سقوط دولة الوثنيين ، وإخميار صروح الوثنية وعبادة الأصنام ، وانقراضها .

فقد اجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ، فتنحى أربعة ممن عُرفوا بالعلم ناحية ، وأخذوا يتحدّثون سرا ، وأخذوا ينتقدون عبادة الأوثان والأصنام ، وما عليه قومهم من فساد العقيدة .

فقال بعضهم لبعض : والله ما قومكم على شيء ، لقد اخطأوا دين أبيهم

١ . بحار الأنوار : ج ١٥ ، ص ٢٣١ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٢١ .

٣ . البقرة : ٨٩ .

إبراهيم!! ما حَجَرَ نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضُر ولا ينفَع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا ...

وكان هؤلاء الأربعة هم :

- ١ . « ورقة بن نوفل » الذي اختار النصرانية بعد أن طالع كُتُبها ، واتصل بأهلها .
- ٢ . « عبیدالله بن جحش » الذي أسلم عند ظهور الإسلام ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة .

٣ . « عثمان بن الحويرث » الذي قدم على قيصر ملك الروم ، فتنصّر .

- ٤ . « زيد بن عمرو بن نفيل » الذي اعتزل الأوثان ، وقال : اعبد رب إبراهيم (١) .
- إن ظهور مثل هذا الاستنكار والجدد للأوثان والثنية لا يعني أبداً أنّ دعوة رسول الله ﷺ كانت تعقياً لدعوة هذه الجماعة ، واستمراراً لها!!
- كيف يمكن أن نعتبر دعوة رسول الله العالمية مع ما انطوت عليه من أهداف كبرى ، واستندت إليه من معارف وأحكام لا تُحصى ، ردّة فعل لمثل هذا الحادث الصغير وتعبيراً عن مثل هذا الاستنكار المحدود؟

إن الحنيفية وهي سُنّة إبراهيم ودينه لم تكن قد مُحيت كلياً في الحجاز بعد ايام بعثة رسول الله ﷺ بل كان هناك لا يزال بعض الأحناف (وهم الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السلام) منتشرين في أنحاء الجزيرة العربية ، إلا أن ذلك لا يعني أنّهم كانوا قادرين على التظاهر بعقيدتهم بين الناس ، أو قيادة حركة ، أو تربية أفراد على نهجهم ، أو أن توجّهاتهم التوحيدية كانت من القوة بحيث تستطيع أن تكون مصدر إلهام لقيم ومعارف وتعاليم وأحكام لشخصية مثل رسول الإسلام « محمّد » ﷺ .

فلم يُنقل عن هؤلاء سوى بعض الإعتقادات المحدودة المحدودة مثل الاعتقاد

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٢٥ .

بالمعاد واليوم الآخر ، وشيء بسيط من البرامج الأخلاقية ، وحتى ما نقل عنهم من آيات توحيدية لا يمكن تأكيد انتسابها إليهم ، وأن لم يمكن نفي ذلك أيضاً^(١) .
فهل يمكن والحال هذه أن نعتبر الثقافة الإسلامية العظيمة ، والمعارف العقلية العالية ، والقوانين والتشريعات المفصلة ، والانظمة الأخلاقية والسياسية والإقتصادية الإسلامية ، الشاملة الكاملة ، كنتيجة لمتابعة أولئك نفر المعداد من « الأحناف » الموحدين المنتشرين في أنحاء مختلفة من بلاد الحجاز الذين كانت حل عقائدهم تتألف من مجرد الاعتقاد بوجود الله ، واليوم الآخر وقضية أو قضيتين من قضايا الأخلاق؟!!

نموذج آخر عن ضَعْف قريش :

لم يكن يمض على عُمر فتى قريش أكثر من خمس وثلاثين عاما يوم واجه اختلافا كبيرا بين قريش ، فأزال بحكمته ذلك التخاصم ، ولقد كشفت هذه الحادثة عن مدى الإحترام البذي كان فتى قريش « محمد » يحظى به لدى قريش ، كما وتكشف عن قوة اعتقادهم بصدقه وأمانته .

واليك تفصيل هذه الحادثة :

إنحدر سيل رهيب من جبال مكة المرتفعة نحو بيت الله المعظم « الكعبة المقدسة » فلم يسلم من هذا السيل بيت في مكة حتى الكعبة المعظمة ، التي تصدعت جدرانها تصدعا كبيرا بفعل ذلك السيل .

فعمزت قريش على تجديد تلك البنية المعظمة ، ولكنها تهيبت ذلك ، وترددت في هدم الكعبة ، فأقدم « الوليد بن المغيرة » وهدم ركنين منها على شيء من الخوف ، فانتظر أهل مكة أن يحل به أمر ، ولكنهم لما رأوا « الوليد » لم يصبه

١ . ولقد نقل ابن هشام في كتابه : السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٢٢ . ٢٣٢ طائفة من الأبيات والقصائد التوحيدية هذه ؛ والتي جاء في مطلع إحداها ما أنشده زيد بن عمرو بن نفيل :
أرَبِّبَا وإخِرَا أم أَلْفِ رَبِّ أَدِينِ إِذَا تُفْسِمَتِ الأُمُومُ
عزَلت السَّلات والعِجَزَ جَمِيعَا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ (البصير)

غضب من الآلهة ، اطمأنوا إلى أنه لم يرتكب قبيحاً ، وأنه عمل ما فيه رضى آلهتهم ، فاقدّموا جميعاً على هدم ما تبقى من الكعبة ، واتفق أن تحطمت سفينة قادمة من « مصر » في تجارة لرومي عند ميناء « جدة » بفعل الرياح والعواصف ، فعلمت بذلك قريش ، وأرسلت رجالا يتعاون أحشابها ليستخدموها في بناء الكعبة المعظمة ، وأوكلوا أمر نجارتها إلى نجّار قبطي محترف كان يقطن « مكة » .

ولما ارتفعت جدران الكعبة إلى قامة الرجل ، وآن الأوان لوضع الحجر الأسود في محله من الركن وقع الاختلاف بين زعماء قريش ، وتنازعو في من يتولّى وضع الحجر الاسود في مكانه .

وتخالفت قبيلة « بني عبد الدار » مع « بني عدي » على أن يمنعوا من أن ينال هذا الفخار غيرهم ، وعمدوا إلى اناء مملوء بالدم فوضعوا أيديهم فيه تأكيداً لذلك الميثاق . من هنا تأخرت عملية البناء وتوقفت خمسة أيام بلياليها ، وكاد أن تنشب بينهم حرب دامية ، وربما طويلة ، فقد اجتمعت طوائف مختلف من قريش في المسجد الحرام وهي تنتظر حادثة خطيرة ، فعمد . في الأخير . شيخ من شيوخ قريش يدعى « أبو أمية بن مغيرة المخزومي » من زعماء قريش وقال : يا معشر قريش ، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ^(١) يقضي بينكم فيه « فقبلوا براهه اجمع ، فكان أول داخل عليه فتى قريش « محمّد » ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمّد .

فقال ﷺ : هلم اليّ ثوباً ، فأخذ الحجر ووضعه فيه ثم قال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً »

ففعّلوا حتى إذا بغوا به موضعه من الركن وضعه ﷺ هو بيده مكانه ، وبهذا حال دون وقوع حوادث دامية كادت أن تقع بسبب تنازع قريش ، واختلافها ، وحلّ الوفاق محل الشقاق بعد أن رضى الكل بحكمه .

١ - وفي رواية : أول من يدخل باب الصفا .

وإلى قضية التحكيم هذه يشير « هبيرة بن أبي وهب » في أبيات صوّرت هذه الحادثة التاريخية الكبرى ، إذ قال :

تشاجرَ الأحياءَ في فُصْلِ خِطَّةِ جرت بينهم بالنَّحسِ مِن بعدِ أسعدِ
تلاقوا بها بالبُغْضِ بعدِ مَوَدَّةِ وأوقد ناراً بينهم شرّ موقدِ
فلما رأينا الأمر قد جدَّ جدُّه ولم يبق شيء غير سل المهندِ
رضينا وقلنا العدل أول طالع يجيء من البطحاء من غير موعدِ
فما جأنا هذا الامين محمَّد فقلنا رضينا بالأمين محمَّدِ
بخير قریش كلِّها أمس شيمه وفي اليوم مع ما يُحدث الله في غدِ
فجاء بأمر لم ير الناس مثله أعمَّ وارضى في العواقب والبَدِ
وتلك يد منه علينا عظيمة يروب لها هذا الزمان ويعتدي^(١)

أمين قریش يكفل علياً :

أجذبت مكة وضواحيها سنة من السنين ، وقل فيها الماء ، وأصابت الناس أزمة شديدة ، وكان أبو طالب عليه السلام كثير العيال ، فعزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يساعد عمه أبا طالب ، ويخفف عنه عبء العيال ، فانطلق إلى عمه العباس وقال له : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً ».

فكفل العباس جعفرًا ، وكفل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام .
يقول أبو الفرج الاصفهاني المؤرخ المعروف في هذا الصدد :

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٩٢ . ١٩٩ وفروع الكافي : ج ٤ ، ص ٢١٧ و ٢١٨ ، والجدير بالذكر أنهم قالوا عند تجديد بناء الكعبة : « يا معشر قریش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد للناس » (البداية والنهاية : ج ٢ ، ص ٣٠١) ولا شك أن هذه من بقايا تعاليم الأنبياء التي بقيت بينهم ولم تمح بالمره .

وكان رسول الله ﷺ أخذ « عليا » من أبيه وهو صغير في سنة اصابته قريشا وقحط ناهم ، وأخذ حمزة جعفرأ وأخذ العباس طالباً ليكفوا اباهم مؤونتهم ويخففوا عنهم ثقلهم ، وأخذ هو (أي ابو طالب) عقيلاً لميله كان إليه فقال رسول الله ﷺ : « اخترت من اختار الله لي عليكم : عليا »^(١) .

إن هذه الحادثة وإن كانت في ظاهرها تعني ان رسول الله ﷺ اقدم على هذا الأمر ليساعد عمه أبا طالب في تلك الازمة ، لكن الهدف الأعلى والأخير كان أمراً آخر وهو أن : يتربى علي عليه السلام في حجر النبي ، ويغتذي من مكارم اخلاقه ويتبعه في كريم افعاله . ولقد اشار الإمام علي عليه السلام نفسه إلى هذا الموضوع بقوله :

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَمِنْزِلَةَ الْحَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ مِنَّا وَلِدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صِدْرِهِ وَيَكْنِفُنِي فِي فِرَاشِهِ ... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَضِيلِ أَثَرِ أُمَّهُ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ »^(٢) .

ايمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام :

تدلُّ الدلائل التاريخية ، القوية ، فضلاً عن الأدلة العقلية والمنطقية على أن النبي الاكرم ﷺ لم يعبد غير الله تعالى منذ وُلِدَ من أمة ، والى أن رحل إلى ربه ، بل وكان كفلاؤه مثل عبد المطلب وأبي طالب مؤمنون موحدون هم أيضا

ايمان جده عبد المطلب :

وأما عبد المطلب كنفيل النبي الأول فلا ننسى أنه عند ما قصد « أبرهة » هدم

١ . مقاتل الطالبيين : ص ٢٦ ، الكامل في التاريخ : ج ١ ، ص ٣٧ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٤٥ .

٢٤٧ باب (ذكر أن علي بن ابي طالب رضي الله عنه اول ذكر أسلم) .

٢ . نصح البلاغة : الخطبة ١٩٢ .

الكعبة في جيش الفيل ، نزل في جوف الليل إلى الكعبة وأخذ بملقة بابها يدعوا الله ويقول
مناجيا الله سبحانه.

« اللهم أنيس المستوحشين ، ولا وحشة معك فاليئت بيئتك ، والحرم حرمك والدار دارك
، ونحن جيرانك ، أنك تمنع عنه ما تشاء ، ورب الدار أولى بالدار .»
ثم أنشأ يقول :

باب رجو بيم سواكا يارب فامنع منهمو حماكا
إن عبد البيت من عاداكا إمنعهمو إن يُخربوا فناكا (١)
وهذا يكشف بوضوح عن إيمان عبد المطلب بالله تعالى ، وتوكله عليه سبحانه ، وانه كان
الرجل الموحد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير كهف الله ، ولا يعرف إلا باب
الله على عكس ما كانت الوثنية عليه فان قومه كانوا يستغيثون بالاصنام المنصوبة حول
الكعبة.

ومما يدل على إيمانه ايضا توسله لكشف غمته بالله سبحانه فقد تابعت على قريش
سنون جذب ذهبت بالأموال ، واشرفت الانفس واجتمعت قريش لعبد المطلب ، وعلوا جبل
ابي قبيس ومعهم النبي ﷺ محمد وهو غلام فتقدم عبد المطلب وقال : لا هم (اي اللهم
) هؤلاء عبيدك واماؤك وبنو امائك ، وقد نزل بنا ما ترى ، وتتابعت علينا هذه السنون
فذهبت بالظلف والخف والحافر ، فاشرفت على الانفس فأذهب عنا الجذب ، واثنا بالحياء
والخصب ، فما برحوا حتى سالت الأودية ، وفي هذه الحالة تقول رقيقة :

بشيبة الحمدا سقى الله بلدتنا وقد عدمنا الحيا وا جليو المطر
إلى أن تقول :

مبارك الم يستسقى الغمام به ما في الانام له عدل ولا خطر

١- راجع القصة ومصادرها في ص ١٦١ من هذا الكتاب ، ولعبدالمطلب مواقف أخرى مشابحة ، وعديدة ، راجع
بصدها مفاهيم القرآن : ج ٥ ، ص ١٣٦ - ١٤٠ .

وإلى هذه الواقعة يشير ابو طالب في قصيدة أولها :

ابونا شفيح الناس حين سقوا به من الغيث رجاس العشير بكور
ونحن . سنين المحل . قام شفيحنا بمكة يدعو والمياه تغور^(١)
وقد نقل الشهرستاني هذه الواقعة في كتابه « الملل والنحل » قال : ومما يدل على معرفته
(أي عبد المطلب) بحال الرسالة وشرف النبوة ان اهل مكة لما أصابهم ذلك الجذب العظيم
، وامسك السحاب عنهم سنتين أمر ابا طالب ابنه ، ان يُحضر المصطفى محمد ﷺ
فاحضره ابو طالب ، وهو رضيع في قماط ، فوضعه على يديه واستقبل الكعبة ، ورماه إلى
السماء ، وقال : يا رب بحق هذا الغلام ، ورماه ثانياً وثالثاً وكان يقول : بحق هذا الغلام
اسقنا غيثا مغيثا دائما هطلا ، فلم يلبث ساعة أن السحاب وجه السماء وأمطر ، حتى
خافوا على المسجد ، وقال ايضاً : وبركة ذلك النور كان عبد المطلب يأمر أولاده بترك
الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الاخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور .
وكان يقول في وصاياه : « انه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة
» ، إلى ان هلك رجل ظلوم حتف انفه لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب في ذلك ،
ففكر وقال : ان وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن باحسانه ويعاقب فيها المسيء
باساءته^(٢) .

ان توسل عبد المطلب بالله سبحانه وتوليه عن الاصنام والاثان ، والتجاءه إلى رب
الارباب آية توحيده الخالص ، وإيمانه بالله وعرفانه بالرسالة الخاتمة ، وقداسة صاحبها ، فلو
لم يكن له الا هذه الوقائع لكفت في البرهنة على إيمانه بالله ، وتوحيده له .
وقد اعترف المؤرخون لعبد المطلب بهذا فقد قال اليعقوبي : « ورفض عبد المطلب عبادة
الاثان والاصنام ، ووحّد الله عزّ وجلّ ووفى بالنذر ، وسنّ سنناً نزل القرآن باكثرها ،
وجاءت السنة الشريفة من رسول الله ﷺ

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣١ - ١٣٣ .

٢ . الملل والنحل : ج ٢ ، ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

بها ، وهي الوفاء بالنذر ، ومائة من الابل في الدية ، وان لا تنكح ذات محرم ، ولا تؤتى البيوت من ظهورها وقطع يد السارق ، والنهي عن قتل المؤودة ، وتحريم الخمر ، وتحريم الزنا ، والحدّ عليه ، والقرعة ، وان لا يطوف احد بالبيت عرياناً ، واطافة الضيف وان لا ينفقوا إذا حجوا الاّ من طيب اموالهم ، وتعظيم الاشهر الحُرّم ، ونفي ذوات الربيات ^(١) .

هذا وعن لمُ أيمن « رضي الله عنها » قالت : كنت أحضن النبي ﷺ (اي اقوم بتربيته وحفظه) ، فغفلت عنه يوماً فلم ادر الاّ بعبد المطلب قائماً على رأسي يقول « يا بركة » .

قلت : لبيك .

قال : أتدرين اين وجدت إبني؟

قلت : لا ادري .

قال : وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، لا تغفلي عن ابني ، فان أهل الكتاب يزعمون انه نبيّ هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم ^(٢) .

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاما الا يقول علي بابني (اي احضروه) ويجلسه بجانبه ، وربما اقعده على فخذه ، ويؤثره بأطيب طعامه .

ثم انه لما بلغ أجله اوصى إلى ابي طالب برسول الله وقال له : قد خلّفت في ايديكم الشرف العظيم الذي تطؤون ، به رقاب الناس وقال له أيضاً :

إُصِيكَ يَا عَبْدَ مَنْفَاعِ بَعْدِي بِمَفْرَدِ بَعْدِ أَبِيهِ فَرْدُ
فَارِقُهُ وَهُوَ ضَجِيعُ الْمَهْدِ فَكُنْتَ كَالْمُ لَه فِي الْوَجْدِ
تَدْنِيهِ مِنْ أَحْشَائِهَا وَالْكَبِدِ فَانْتَ مِنْ أَرْجَى بَنِي بَعْدِي

لدفن ضميم أو لشد عقد ^(٣)

هذا هو عبد المطلب ، وتعوذه بيت الله الحرام ، ومواقفه بين قومه ، وكلماته في

١ . تاريخ يعقوبي : ج ٢ ، ص ٩ في بعض ما عدّه المؤرخ المذكور نظراً .

٢ . سيرة زيني دحلان بمامش السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٦٤ .

٣ . تاريخ يعقوبي : ج ٢ ، ص ١٠ .

المبدأ والمعاد وعطفه وحنانه على رسول الإسلام ، واهتمامه برسالة خاتم النبيين ، وهي مجموعها من اقوى الشواهد على توحيده ، وإيمانه بالله ، واعترافه برسالة الرسول الكريم .

إيمان كفيله وعمه أبي طالب :

وهكذا كان حال كفيل النبي ﷺ الثاني ابو طالب عليه السلام ، فان له مواقف بارزة وكثيرة قبل البعثة النبوية ، وبعدها تكشف عن عمق إيمان شيخ الاباطح ، وتوحيده .

ومن تلك المواقف استسقاؤه برسول الله ﷺ في صباه :

فقد اصاب مكة قحط شديد في سنة من السنين فطلبت قريش من « أبي طالب » أن يستسقي لها فخرج ومعه غلام . وهو رسول الله ﷺ . كأنه شمس دجن تجلّت عنها سحابة قتماء وحوله أغيلمة ، فأخذه « أبو طالب » فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام باصبغه (أي أشار بها إلى السماء) وما في السماء قرعة ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا ، وأعدق ، واغدودق وانفجر له الوادي ، واخصب البادي والنادي .

ففي ذلك يقول ابو طالب . في مدح رسول الله . :

وابيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمّال يتامى عِصْمة لِالأرامل
يَلُوذُ بِهِ المُبْلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نَعْمَةٍ وَقَوَاضِي
وميزان عَدْلٍ لا يَخْيسُ شَعيرة ووَأَنَّ صِنْدُقَ وَزْنِهِ غَيْرُ هَائِلٍ ^(١)
وكل هذا يعرب عن توحيد كفيلي رسول الله ﷺ الخالص ، وإيمانها بالله تعالى ، ولو لم يكن لهما إلا هذين الموقفين لكفياهما دليلا وبرهاناً على كونهما مؤمنين موحدين .

١ . شرح البخاري للقسطاني : ج ٢ ، ص ٢٢٧ ، المواهب اللدنية : ج ١ ، ص ٤٨ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٢٥ ، وللتوسع راجع الغدير : ج ٧ ، ص ٣٤٥ و ٣٤٦ ، وقد ذكرنا مواقف ابي طالب اليمانية عند البحث عن شخصيته فراجع .

كما ان ذلك يدل ايضا على أن رسول الله ﷺ نشأ وترعرع ونما في بيت كانت الديانة السائدة فيه هي توحيد الله ، وعبادته وحده ورفض الاصنام والاوثان.

إيمان واليِّ النبي الأكرم :

لقد نقلت عن عبد الله والد رسول الله ﷺ كلمات وآيات تدل على إيمانه ومن ذلك ما نقله اهل السير عندما عرضت فاطمة الخنعمية نفسها عليه فقال ردا عليها :

أما الحرام فالممات دونَه والخيل لاخيل فاستبينه
يحمي الكريم عرضَه ودينَه فكيف بالأمر الذي تبغينه (١)

وقد روي عن النبي الأكرم ﷺ انه قال : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أحرام الطاهرات » ولعل فيه ايعازا إلى طهارة آباءه وامهاته من كل دنس وشرك (٢)

واما الوالدة فيكفي في اثبات إيمانها ما رواه الحفاظ عنها عند وفاتها فانها (رضي الله عنها) خرجت مع النبي ﷺ وهو ابن خمس أوست سنين ونزلت بالمدينة تزور أحوال جده وهم بنو عدي بن النجار ومعها ام ايمن « بركة » الحيشية ، فاقامت عندهم ، وكان الرسول بعد الهجرة يذكر امورا حدثت في مقامه ويقول : « ان أمي نزلت في تلك الدار ، وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إلي فنظر إلي رجل من اليهود فقال : يا غلام ما اسمك؟ فقلت : أحمد ، فنظر إلى ظهري ، وسمعتة يقول : هذا نبي هذه الأمة ، ثم راح إلى اخوانه فاخبرهم فخافت أمي علي فخرجنا من المدينة ، فلما كانت بالابواء توفيت ودُفنت فيها.

وروى ابو نعيم في دلائل النبوة عن اسماء بنت رهم قالت : شهدت آمنة لمُ النبي ﷺ في علتها التي ماتت بها ، ومحمد ﷺ غلام يقع

١ - السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٤٦ .

٢ - سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٥٨ .

(اي يافع) له خمس سنين عند رأسها فنظرت إلى وجهه وخاطبته بقولها :
إن صحَّ ما أبصرت في المنام فانست مبعوث إلى الانام
فاللَّه انهاك عن الاصنام ان لا تواليها مع الاقوام
ثم قالت : كل حي ميت وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى ، وانا ميتة وذكرى باق
وولدت طهرا.

وقال الزرقاني في شرح المواهب نقلا عن جلال الدين السيوطي تعليقا على قولها : وهذا
القول منها صريح في انها كانت موحدّة إذ ذكرت دين ابراهيم عليه السلام ، وبشرت ابنها
بالاسلام من عند الله ، وهل التوحيد شيء غير هذا ، فان التوحيد هو الاعتراف بالله وانه
لا شريك له ، والبراءة من عبادة الاصنام ^(١).

ونلفت نظر القارئ الكريم هنا إلى ما قاله المرحوم الشيخ المفيد في كتابه « اوائل المقالات
» في هذا الصدد :

اتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب
مؤمنون بالله عزّ وجلّ موحدون له ، واحتجوا في ذلك بالقرآن والاحبار قال الله عز وجل :
« الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين » ^(٢).

ثمّ إن هنا سؤالين هما :

١ . هل كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة مُوحِّدًا

٢ . بماذا وبأي دين كان يتعبّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة؟

واليك الحديث في هاتين الجهتين :

إيمان النبي بالله وتوحيده قبل البعثة :

إن الدلائل التاريخية . بالاضافة إلى البراهين العقلية والكلامية . تدل على انه
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قبل ان يبعثه الله بالإسلام ، مؤمناً بالله ، موحداً إياه ، لم يعبد وثناً قط ، ولم
يسجد لصنم أبداً ، وان ذلك من المسلمات .

١ . الاتحاف للشبراوي : ص ١٤٤ ؛ سيرة زيني دحلان بمأش السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٥٧ .

٢ . اوائل المقالات : ص ١٢ و ١٣ .

وهذا الامر وان كان أمرا مسلما وواضحا كوضوح الشمس إلا اننا نذكر بعض ما جاء في التاريخ الثابت الصحيح ليقترن ذلك الاتفاق بأصح الدلائل التاريخية :
اما بغضه للأصنام وتجنبه للاوثان وما يكون من هذا القبيل فأليك بعض ما ذكره التاريخ الصحيح في هذا المجال :

١ - جاء في حديث طويل : ان النبي ﷺ لما تم له ثلاث سنين قال يوما لوالدته (لمرضعته) حليلة السعدية : ما لي لا أرى أخويَّ بالنها ، قالت له : يا بُنيَّ أهما يرعيان عُثَمَات .

قال : فما لي لا أخرج معهما ، قالت له : أتحب ذلك؟ قال : نعم ، فلما اصبحَ محمدٌ دهنته (تقول حليلة) وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزعٌ يمانيّ ، فنزعه ثم قال لأُمّه :
« مَهْلًا يَا أُمَّاهِ فَمَا مَعِيَ مَنْ يَحْفَظُنِي » ^(١) .

٢ . روي ان « بحيرا » الراهب قال للنبي ﷺ في سفرته الاولى مع عمه أبي طالب إلى الشام : يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما اسألك ، فقال رسول الله ﷺ :

« لا تسألني باللات والعزى فوالله ما ابغضت شيئا بغضَهُما » قال الراهب : بالله الا أخبرتني عما أسالك عنه ، قال ﷺ : سألني عما بدالك ^(٢) .

٣ . روي أنه قد وقع بين النبي ﷺ وبين رجل تلاح في سفرته الثانية إلى الشام للتجارة بأموال خديجة مع غلامها « ميسرة » بعد أن باع ﷺ سلعته ، فقال له الرجل : إحتف باللات والعزى ، فقال رسول الله ﷺ :

١ . المنتقى ، الباب الثاني من القسم الثاني . للكارزوني كما في البحار : ج ١٥ ، ص ٣٩٢ .

٢ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٥٤ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ١٨٢ .

« ما حلفتُ بهما قطُّ ، وإني لأُمُرُ فَنُحَى عنهما » .

وفي رواية أخرى :

« إليك عني ثكلتك أمك فما تكلمت العرب بكلمة اثقل عليّ من هذه الكلمة » .

فقال الرجل : القول قولك . ثم قال لميسرة : هذا والله نبيُّ^(١) .

وأما عبادته لله تعالى فقد أجمع المؤرخون على أنه ﷺ كان يخلو بحراء كل عام شهرا

يعبد فيه الله تعالى .

وقد قال الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في هذا المجال :

« وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِزُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءَ ، فَارَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي »^(٢) .

حتى أن جبرئيل وافاه بالرسالة في ذلك المكان ، وفي تلك الحال .

وقد صرّح بهذا أصحاب الصحاح الستة أيضاً إذ قالوا :

« وَكَانَ يَخْلُو بِحَرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ ، وَهُوَ التَّعَبُدُ فِي اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ »^(٣) .

كما ان الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام وصف هذا المقطع من حياة النبي ﷺ بقوله :

« ولقد قرأ الله به ﷺ لهُدً أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق

المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره »^(٤) .

وجاء في الأخبار أن رسول الله ﷺ حج قبل البعثة حجاً عديدة وكان يأتي

بمناسكها على وجه صحيح بعيداً عن أعين قريش .

قال الإمام الصادق عليه السلام : في حديث ابن أبي يعفور :

« حج رسول الله ﷺ عشر حجّات مُستترا في كُلهَا »^(٥) .

وفي رواية : عشرين حجة^(٦) .

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٥٦ ، بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ١٨ .

٢ . نهج البلاغة : قسم الخطب ، الخطبة ١٩٢ .

٣ . صحيح البخاري : ج ١ ، ص ٢ ، صحيح مسلم باب الايمان ، مسند أحمد : ج ٦ ، الحديث ٢٣٣ .

٤ . نهج البلاغة : قسم الخطب ، الخطبة رقم ١٩٢ .

٥ و ٦ . وسائل الشيعة : ج ٨ ، ص ٨٨ أبواب وجوب الحج .

والسبب في هذا الاستتار هو أن قريش كانت قد اسقطت بعض مناسك الحج ، والعمرة ، فكانت تؤدّي الحج بصورة غير صحيحة وربما غيرت أشهر الحج احياناً لبعض الاعتبارات السياسية والمادية ، وهو ما سمي بالنسيء وقد مرّ بيانه (١).

ان هذه الوقائع وغيرها . وهي ليست بقليلة اصدق دليل على إيمانه ﷺ ، وتوحيده ، إذ كيف يمكن أن يتنكّب مثل هذه الشخصية التي نشأت وترعرعت في ذلك البيت الطاهر ، وقرن الله به ملكاً يتولاه بالتربية والهداية عن جادة التوحيد.

ثم أن ممّا لا ريب فيه أن الرسول الخاتم ﷺ هو افضل من جميع الأنبياء والمرسلين بنص القرآن الكريم.

وقد صرح القرآن بان بعض الانبياء بلغوا درجة النبوة في الصغر ، أو الصبا ، ونزلت عليهم الكتب في تلك الفترات.

فمثلا يقول القرآن الكريم عن يحيى بن زكريا : « يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » (٢).

ثم يقول عن « عيسى بن مريم » عندما كان في المهد وكان وجوه القوم من بني اسرائيل قد استنكروا ولادته من غير اب ، وطلبوا من « مريم البتول » ان توضح لهم الامر ، وتبين لهم كيف حملت بعيسى؟! فاشارت إلى المسيح ﷺ أن كلموه وهو آنذاك في المهد لم يمض على ولادته سوى ايام معدودات ؛ فنطق المسيح بفصاحة كبيرة وقال : « إني عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ فِيهِ وَصَبَّأَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » (٣).

لقد بيّن وليد « مريم » للناس أصول دينه وفروعه في فترة الطفولة والرضاعة ، وأعلن لهم عن توحيده وإيمانه بالله سبحانه.

١ . راجع الصفحة ٨٣ و ٨٤ من هذا الكتاب.

٢ . مريم : ١٢ .

٣ . مريم : ٣٠ و ٣١ .

فهل يرضى ضميرك أيها القارئ الكريم أن يكون « يحيى » و « المسيح » عليهما مؤمنين معلنين عن توحيدهما ، وإيمانهما منذ طفولتهما ، وصباهما ، ويكون أفضل الأنبياء والمرسلين ، وأشرف الخلق أجمعين إلى سائر الأربعين على غير إيمان ، وتوحيد ، مع أنه ﷺ كان مشغولاً بالتعبّد في جبل « حراء » عند نزول ملاك الوحي عليه لأول مرة؟

واليك بعض ما قاله المؤرخون ، والعلماء في هذا المجال استكمالاً لهذا المبحث : قال ابن هشام : كان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره ، الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوفُ به سبعمائة أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله ﷺ إلى « حراء » كما كان يخرج لجواره ومعه اهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبرئيل عليه السلام بأمر الله تعالى (١) .

وقال العلامة المجلسي : قد ورد أخبار كثيرة انه ﷺ كان يطوف ، وانه كان يعبد الله في حراء وانه كان يراعي الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الأكل وغيره ، وكيف يجوّذ مسكّة من العقل على الله تعالى ان يهمل افضل انبيائه اربعين سنة بغير عبادة؟ والمكابرة في ذلك سفسطة (٢) .

فإيمان النبي ﷺ ، وتوحيده قبل البعثة ، اذن ، أمرٌ مسلمٌ لا شبهة فيه ، ولا غبار عليه .

ولكن بعض الكتاب من المسيحيين ومن تبعهم ، من المستشرقين وغيرهم ، أبوا إلا أن ينتقصوا النبي الاكرم ﷺ فادّعوا ضلالةً قبل البعثة ،

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٣٦ .

٢ - بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٨٠ .

وإنه كان على غير إيمان ، أو توحيد ، واستدلوا لزعمهم الباطل هذا بما توهموا أنه يدل على دعواهم من الآيات القرآنية ، وأبرزها الآيات التالية :

- ١ . « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » ^(١) .
- ٢ . « وَثِيَابَكَ فَطَهَّرَ . وَالرُّجُزَ فَأَهْجُرَ » ^(٢) .
- ٣ . « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ^(٣) .
- ٤ . « قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ^(٤) .
- ٥ . « وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » ^(٥) .

لقد استدل المستشرقون ومن لف لفهم ومن سبقهم أو لحقهم من المخطئة بهذه الآيات على ضلال النبي ﷺ قبل البعثة ، وسلب الايمان عنه ، ولكنها لا تدل على ما يريدون ، ولاجل تسليط الضوء على مقاصدهم نبحت عنها واحدة واحدة.

الاية الأولى : الهداية بعد الضلالة :

ذكرالمفسرون لقوله تعالى : « وَوَجَدَ ضَالًّا فَهَدَى » الذي يشعر بهداية النبي ﷺ بعد الضلالة احتمالات عديدة ، في معرض الاجابة على استدلال من استدل به لاثبات ضلال النبي ﷺ قبل البعثة ولكن الحق ان يقال : أن الضال يُستعمل في عرف اللغة في موارد :

- ١ . الضال : من الضلالة ضد الهداية والرشاد .
- ٢ . الضال : من ضل البعير إذا لم يعرف مكانه .

١ . الضحى : ٦ و ٧ .

٢ . المدثر : ٤ و ٥ .

٣ . الشورى : ٥٢ .

٤ . يونس : ١٦ .

٥ . القصص : ٨٦ .

٣. الضال : من ضل الشيء إذا ضؤل وخفى ذكره.

وتفسير الآية بأيّ واحدة من هذه المعاني لا يثبت ما يدعيه الذين يتمسكون بها لأثبات ضلال النبي ﷺ قبل البعثة.

أما المعنى الأول فهو المقصود في كثير من الآيات قال سبحانه : « **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** »^(١).

لكن الضلالة على نوعين :

النوع الأول ما تكون الضلالة فيه أمراً وجودياً في النفس يوجب ظلمة النفس ومنقصتها ، مثل الكفر والشرك والنفاق ، والضلالة بهذا المعنى قابلة للزيادة والنقصان قال سبحانه : « **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ** »^(٢).

النوع الثاني ما تكون الضلالة فيه أمراً عدمياً ، وذلك عندما تكون النفس فاقدة للرشاد ، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنه غيرٌ واجد للهداية من عند نفسه ، وذلك كالطفل الذي اشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخير والشر ، ويميز بين الصلاح والفساد فهو آنذاك ضالٌ بمعنى أنه غير واجد للنور الذي يهتدي به في سبل الحياة لا بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسق في نفسه وروحه.

والمراد من الضال في قوله تعالى « **وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى** » لو كان ما يضاد الهداية فهو يهدف إلى النوع الثاني ، فيكون المعنى انك في ابان عمرك كنت غير واجد للهداية من عند نفسك فهداك الله إلى اسباب السعادة وعرفك عوامل الشقاء ، وهو اشارة إلى قانون الهي عام في حياة البشر انبياء واناساً ماديين ، وهو ان هداية كل إنسان بل كل ممكن مكتسبة من الله قال سبحانه : « **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** »^(٣).

وعلى هذا الاساس فالآية تهدف إلى ذكر النعم التي انعم الله بها على نبيه الحبيب منذ ان استعد لها فأواه بعد ما صار يتيماً ، وافاض عليه الهداية بعد ما كان

١. الفاتحة : ٧.

٢. التوبة : ٣٧.

٣. طه : ٥٠ ، وراجع الآيات : ٢ و ٣ من سورة الأعلى و ٤٣ من سورة الأعراف و ٧٨ من سورة الشعراء وغيرها.

فاقداً لها بحسب ذاته ، وبحكم طبيعته ، ويعود زمن هذه العناية الربانية بنبيه إلى مطلع حياته ، واوليات عمره وايام صباه بقرينة ذكر ذلك بعد الايواء الذي تحقق باليتم ، وتم يجده عبد المطلب فوقع في كفالته إلى ثمانية سنين ، ويؤيد ذلك قولُ امام المتقين علي بن ابي طالب عليه السلام : « ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لادن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريقَ المكارم ، ومحاسنَ أخلاق العالم ليله ونهاره » ^(١).

وصفوة القول أن المراد بكونه ضالاً هو أن لازم كون النبي ممكناً بالذات هو كونه فاقداً في ذاته لكل كمال وجمال ، مفاضاً عليه كل جميل من جانب الله تعالى وهذا هو اشارة إلى مقتضى التوحيد الافرادي واين هذا من الضلالة المساوقة للكفر أو الشرك أو الفسق والعصيان؟!

ثم ان من المحتمل ان تكون الضلالة في الآية مأخوذة من « ضل الشيء إذا لم يُعرف مكانه » وفي الحديث « الحكمة ضالة المؤمن » اي مفقودته ، لا ضد الهداية والرشاد ، فيكون الضالّ بهذا المعنى منطبقاً على ما نقله أهل السير والتواريخ عن ما جرى للنبي صلى الله عليه وآله في ايام صباه يوم ضلّ في شعاب مكة ، وهو صغير فمنّ الله عليه إذ رده إلى جدّه ، وقصته معروفة في كتب السير والتاريخ ^(٢) ولو لا رحمة الله سبحانه لادركه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً فشملته العناية الالهية.

أو أن تكون الضلالة في الآية مأخوذة من « ضل الشيء إذا خفي وغاب عن الأعين » فالانسان الضال هو الإنسان المخفي ذكره ، المسيء اسمه لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ولا يهتدي كثير منهم إليه.

ولو كان هذا هو المقصود ، كان معناه حينئذ انه سبحانه رفع ذكره ، وعرفه

١ . نصح البلاغة : من الخطبة ١٧٨ والمسماة بالقاصعة : ص ١٨٢ .

٢ . لاحظ السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٣١ وغيره ، وفي هذه القصة يروي عن حيدة بن معاوية العامري سمعت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول :

يارب رد رآكـبي محمداً أردده ربي واصطـطع عنـدي يـدا

للناس بعد ما كان حاملا ذكره منسيا اسمه.

ويؤيد هذا الاحتمال قوله سبحانه في سورة الانشراح التي نزلت لتحليل ما ورد في سورة الضحى قائلا: « **الم نَشَرَ لَكَ صَبْرًا . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرًا . الَّذِي أَنْقَبَضَ ظَهْرًا . وَفَعَلْنَا لَكَ ذِكْرًا** »^(١).

فرفع ذكوره في العالم عبارة عن هداية الناس إليه ورفع الحواجز بينه ، وبينهم وعلى هذا فالمقصود من « الهداية » هو هداية الناس إليه لا هدايته بعد ضلال ، فكأنه قال : فوجدك ضالا ، اي حاملا ذكرك ، باهتا اسمك ، فهدى الناس اليك ، وسير ذكرك في البلاد . وإلى ذلك يشير الإمام الرضا عليه السلام على ما في خبر ابن الجهم بقوله : « قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « **ألم يجدك يتيما فأوى** » يقول « **ألم يجدك** » وحيدا فأوى إليك الناس « **ووجدك ضالا** » يعني عند قومك « **فهدى** » أي هداهم إلى معرفتك »^(٢). قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في هذا المجال :

لقد بُعِثت إليه (أي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) الوثنية من مبدأ عمره فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليفة ، وما جاء في الكتاب من قوله : « **ووجدك ضالا فهدى** » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم حاش لله ، إن ذلك هو الإفك المبين^(٣).

الآية الثانية : الامر بهجر الرجز

استدلوا بقول الله تعالى « **والرجز فاهجر** » على وجود ارضية لعبادة الصنم

١ . الإنشراح : ٤ . ١ .

٢ . بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ١٤٢ .

٣ . رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده : ص ١٣٥ و ١٣٦ .

والوثن في شخصية رسول الله ﷺ وذلك بتفسير الرجز بالصنم ، والوثن ، ويتضح بطلان هذا الادعاء والاستنباط إذا أمعنا في معاني واستعمالات هذه اللفظة في الكتاب العزيز.

ان الرجز استعمل في القرآن الكريم في معان ثلاثة : العذاب ، القذارة ، الصنم .

وقد استعمل الرجز (بكسر الراء) في تسع موارد في القرآن الكريم ، وقد أريد منه في جميعها العذاب إلا في مورد واحد : وهي : البقرة . ٥٩ ، والاعراف . ١٣٤ (وجاءت اللفظة فيها مرتين) و ١٣٥ و ١٦٢ والانفال . ١١ وسبأ . ٥ والجاثية . ١١ والعنكبوت . ٣٤ .

وجاء الرجز . بضم الراء . مرّ واحدة وهي الآية التي نحن بصدددها هنا ^(١) .

وهذه الآية لا تدل على ما ذهب إليه الذين يزعمون بان رسول الله ﷺ كان على غير التوحيد قبل البعثة .

واليك بيان هذا الموضوع مفصلاً :

١ . ان الرجز لو كان بمعنى « العذاب » دلت الآية على هجر ما يستلزم العذاب ، فيكون الخطاب حينئذ مسوقاً من باب التعليم ، ومن باب « اياك أعني واسمعي يا جاره » ، فيكون ظاهر الأمر هو مخاطبة النبي ﷺ ونهيه عما يستلزم العذاب ، وارادة تعليم الأمة مثل قول الله تعالى في خطابه للنبي « **فلا تكونن ظهيرا للكافرين** » ^(٢) . وقوله تعالى : « **لئن أشركت ليحبطن عملك** » ^(٣) فكما لا تدل الآية على وجود أرضية الشرك في شخصية النبي ﷺ كذلك لا تدل الآية على وجود أرضية التعرض للعذاب في شخصية رسول الله ﷺ .

٢ . إن الرجز لو كان بمعنى (القذارة) وهي تنقسم إلى مادية ومعنوية فيحتمل ان يكون المراد بناء على المعنى الأول اشارة إلى ما ورد في الروايات من

١ . المدثر : ٥ .

٢ . القصص : ٨٦ .

٣ . الزمر : ٦٥ .

أنّ ابا جهل جاء بشيءٍ قدر ، وأمر رجلا من قريش بالقائه على النبيّ ، ففعل ، فأمر الله نبيه بتطهير ثوبه من الدنس .

ويحتمل ان تكون الآية دعوة إلى اجتناب الصفات الذميمة بناء على ارادة المعنى الثاني الفظة الرجز فتكون الآية تعليماً للناس على النمط السابق ، فلا تدل على اتصاف النبي الأكرم ﷺ بها .

٣ . الرجز بمعنى الصنم ، لنفترض أن المقصود منه في الآية هو الصنم ، لكن لا بمعنى أنه وضع لذلك المعنى ، وإنما وضع اللفظ معنى جامع يعمُّ الصنم والخمر والازلام لاشتراك الجميع في كونها رجزاً ، ولأجل ذلك وصّف الجميع في مورد آخر بالرجس فقال تعالى : « **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ مَلَأُتْصَابٌ مِّنَ الْأَلَامِ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ** » ^(١) .

ولكن يجب عن هذا أيضا بأن النبي يوم نزلت الآية لم يكن عابدا للوثن بل كان مشمرا عن ساعد الجدد لتحطيم الاصنام ومكافحة عبدها ، فلا يصح أن يخاطب من هذا شأنه بهجر الاصنام إلا على السبيل الذي أشرنا إليه وهو توجيه الخطاب إلى النبي وإرادة الأمة به لكون هذا النوع من الخطاب أبلغ في التأثير ، لأنه سبحانه إذا خاطب أعزّ الناس إليه بهذا الخطاب فغيره أولى به .

الآية الثالثة : عدم علمه بالكتاب والايمان

قوله سبحانه : « **وَكَذَلِكَ وَأَحِينَا إِلَيْكَ وَرُحَا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَأَنْتَ لَتَهْتَكُنَّ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** » ^(٢) .

زعم جماعة دلالة هذه الآية . والعياذ بالله . على أن النبي ﷺ كان فاقدا للإيمان قبل الایحاء إليه .

لكن حياته الشريفة المشرقة بالإيمان ، والتوحيد ، تفنّد تلك المقالة ، فالتاريخ

١ . المائة : ٩٠ .

٢ . الشورى : ٥٢ .

يشهد على انه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منذ بداية عمره إلى أن لاقى ربه مؤمناً موحداً وذلك امر لا شك فيه ، ولا شبهة تعتريه ، وقد اجمع على ذلك أهل السير والتاريخ ، وحتى أن الاحبار والرهبان كانوا معترفين بانه نبيُّ هذه الامة ، وخاتم النبيين ، وكان يسمع تلك الشهادات منهم في فترات خاصة في « مكة » و « يثرب » و « بصرى » و « الشام » ^(١) وغيرها ، فكيف والحال هذه يمكن ان يكون غافلاً عن الكتاب الذي ينزل إليه أو يكون مجانبا للإيمان بوجوده سبحانه ، وتوحيده ، والتاريخ المسلم الصحيح يؤكد على عدم صدق ذلك الاستظهار من الآية الحاضرة.

فلا بد إذن من الإمعان في مفاد الآية كما لا بد . في تفسيرها . من الاستعانة بالآيات الواردة في ذلك المساق.

بعث النبي الاكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لهداية قومه أولاً ، وهداية جميع الناس ثانياً ، بالآيات والبيّنات ، ونخصُّ بالذكر منها : القرآن الكريم (معجزته الكبرى الخالدة) الذي بفصاحته أخرس فرسان الفصاحة ، وقادة الخطابة ، وببلاغته قهر ارباب البلاغة وملوك البيان ، وخبلى عقولهم ، وقد دعاهم إلى التحدي والمقابلة ، فلم يكن الجواب منهم إلا اثاره الشكوك والتهم حوله ، وحول ما جاء به ، وعدم المعارضة بمثل القرآن قط.

فتارة قالوا : بانه يعلمه بشر ، وأخرى بأنه إفك افتراه ، واعانه عليه قوم آخرون وثالثة : بأنه أساطير الاولين ، قد اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة واصيلاً ، قال سبحانه رداً على هذه التهم التي أشرنا إليها : « قِيلَ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى بَشِيرًا لِّقَوْمٍ يُتَّقُونَ * وَلَقَدْ نَعْلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشِيرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلَخِّدُكُمْ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » ^(٢).

وقال سبحانه « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَعَنْهُ عَلَيْهِ

١ . راجع السيرة النبوية والسيرة الحلبية وبحار الأنوار.

٢ . النحل : ١٠٢ و ١٠٣ .

قِيمَ آخِرُونَ فَتَبَدَّ جَاؤُوا ظُلْمًا وِزْرًا. وَقَالُوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة
وصيلا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا « (١).

والآية المبحوثة بصدد بيان هذا الأمر ، وانه وحي سماوي لا افك إفتراه ، ولهذا بدأ كلامه
بلفظة : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أي كما أنه سبحانه أوحى إلى سائر الانبياء باحدى
الطرق الثلاثة التي بينها في الآية المتقدمة ، أوحى إليك أيضاً روحاً من امره ، وليس هذا
كلامك وصنيعك ، بل كلام ربك وصنيعه.

هذا يحمل الكلام في الآية ولاجل رفع النقاب عن مرماها نقلتم امورا تسلط الضوء على
الآية :

الأول : ان المراد من الروح في الآية هو القرآن وسمي روحاً لانه قوام الحياة الأخروية ، كما
ان الروح في الإنسان قوام الحياة الدنيوية ، ويؤيد ذلك اموز :

أ . ان محور البحث الأصلي في سورة الشورى هو : الوحي والآيات الواردة فيها البالغ
عددها (٥٣) آية تبحث عن ذلك المعنى بالمباشرة أو بغيرها.

ب . الآية التي تقدمت على تلك ، تبحث عن الطرق التي يكلم بها سبحانه انبياءه
ويقول : « وَمَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا
فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٢).

ج . انه سبحانه بدأ كلامه في هذه الآية بلفظة : « وكذلك » أي كما أوحينا إلى من
تقدم من الانبياء كذلك أوحينا إليك باحدى تلك الطرق « روحاً من أمرنا » ووجه الاشتراك
بينه وبين النبيين هو الوحي المتجلي في نبينا بالقرآن وفي غيره بوجه آخر.

كل ذلك يؤيد ان المراد من الروح في الآية المبحوثة هو القرآن الملقى إليه.
نعم وردت في بعض الروايات ان المراد منه هو روح القدس ، ولكنه لا ينطبق على ظاهر
الآية ، لان الروح بحكم كونه مفعولاً ل « أوحينا » يجب ان

١ . الفرقان : ٦ - ٤ .

٢ . الشورى : ٥١ .

يكون شيئاً قابلاً للوحي حتى يكون موحى ، وروح القدس ليس موحى بل هو الموحى (بالكسر) فكيف يمكن أن يكون مفعولاً لـ « أوحينا » ، ولأجله يجب تأويل الروايات إن صحّت اسنادها.

الثاني : إن هيئة « ما كنت » أو « ما كان » تُستعمل في نفي الإمكان والشأن قال سبحانه : « **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** »^(١) وقال عزّ اسمه : « **مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً** »^(٢).

وعلى ضوء هذا الاصل يكون مفاد قوله « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » أنه لولا الوحي ما كان من شأنك أن تدري الكتاب ولا الإيمان ، فان وقفتَ عليهما فأنما هو بفضل الوحي وكرامته.

الثالث : أن ظاهر الآية هو أن النبي الاكرم ﷺ كان فاقداً للعلم بالكتاب ، والدراية بالكتاب ، وانما حصلت الدراية بهما في ظل الوحي وفضله فيجب إمعان النظر في الدراية التي كان النبي فاقداً لها قبل الوحي وصار واحداً لها بعده ، فما تلك الدراية وذاك العلم؟ فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب إليه اجمالاً والايمان بوجوده وتوحيده سبحانه ، أو المراد العلم بتفاصيل ما في الكتاب ، والاذعان بها كذلك؟

لا شك انه لا سبيل إلى الأول لأنّ علمه . اجمالاً . بانه ينزل إليه الكتاب ، أو ايمانه بوجود الله سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحي إليه ولم يكن العلم بهما ممّا يتوقف على الوحي ، فان الأحبار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب إليه في المستقبل إجمالاً ، وقد سمع منهم النبي ﷺ في فترات مختلفة : أنه النبي الموعود في الكتب السماوية ، وانه خاتم الرسالات والشرائع ، فهل يصحّ أن يقال أن علمه ﷺ ينزول كتاب عليه إجمالاً كان بعد بعثته وبعد نزول الوحي ، أو انه كان متقدماً عليه وعلى بعثته ، ومثله الإيمان بالله سبحانه ، وتوحيده ، إذ لم يكن الإيمان بالله امراً

١. آل عمران : ١٤٥ .

٢. التوبة : ١٢٢ .

واما الثاني فقولهُ سبحانهُ : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَلَمْؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »^(١) فقوله : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ » صريح في أن متعلق الإيمان الحاصل بعد الوحي ، هو الإيمان « بما أنزل إليه » أعني تفاصيل الكتاب في المجالات المختلفة ، لا الإيمان بالله وتوحيده وعندئذ يرتفع الابهام في الآية التي تمسكت بها المخطئة ومن ينسبون عدم الإيمان بالله وتوحيده إلى النبي قبل البعثة ، ويتبين أن متعلق الإيمان المنفي في قوله : « ولا الإيمان » هو « ما أنزل » لا الإيمان بالمبدأ وتوحيده.

والحاصل إن هنا شيئاً واحداً هو : « الإيمان بما أنزل من المعارف والاحكام والانباء » فقد نفى عنه في الآية المبحوث عنها لكونها ناظرة إلى فترة ما قبل البعثة ، واثبت له في الآية الأخرى لكونها ناظرة إلى ما بعد البعثة.

قال الطبرسي : « ما كنت تدري ما الكتاب » ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان^(٢) .
وقال الفخر الرازي : المراد من الإيمان هو الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به ، وانه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفاً بالله ... ثم قال : صفات الله تعالى على قسمين : منها ما تمكن معرفته بمحض دلائل العقل ، ومنها ما لا تمكن معرفته الا بالدلائل السمعية ، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة^(٣) .
وقال العلامة الطباطبائي في الميزان : ان الآية مسوقة لبيان ان ما عنده صلى الله عليه وآله وسلم الذي يدعو إليه انما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه ، وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة ، فالمراد بعدم درايتة بالكتاب هو عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية ، فان ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي ، والمراد من عدم درايتة الإيمان عدم تلبسه

١ - البقرة : ٢٨٥ .

٢ - مجمع البيان : ج ٣ ، ص ٨٨ و ٨٩ .

٣ - مفاتيح الغيب : ج ٧ ، ص ٤١٠ .

بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة ، وقد سمي العمل ايماناً في قوله تعالى : « **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ** » ^(١) والمراد الصلوات التي اتي بها المؤمنون إلى بيت المقدس قبل النسخ وتحويل القبلة ، والمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح علم الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً به ما انت متلبس به بعد الوحي من الالتزام التفصيلي والاعتقادي وهذا لا ينافي كونه مؤمناً بالله ، موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله ، فان الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً ، لا نفي العلم والالتزام الاجماليين بالايمان بالله ، والخضوع للحق ^(٢).

الآية الرابعة : عدم رجائه إلقاء الكتاب اليه

قال تعالى : « **مَلَأْتُمْ خَزَائِنَ آلِ فِرْعَوْنَ مَلِكًا لَكُنْتُمْ أَهْلًا لَهَا قَبْلَ مَا جَاءَكُمْ فَلَا تَكُونُوا** **ظَهيرا لِّلْكَافِرِينَ** » ^(٣).

استدلوا بأن ظاهر الآية نفي علمه بإلقاء الكتاب إليه ، فلم يكن النبي راجياً لذلك واقفاً عليه.

أقول : ان توضيح مفاد هذه الآية يتوقف على إمعان النظر في الجملة الاستثنائية اعني قوله : « **الارحمة من ربك** » حتى يتضح المقصود ، وقد ذكر المفسرون في توضيحها وجوهاً ثلاثة تأتي بها :

١ . إن « **إلا** » استدراكية ، وليست استثنائية فهي بمعنى « **لكن** » لاستدراك ما بقي من المقصود ، وحاصل معنى الآية : « **ما كنت يا محمد ترجو فيما مضى أن يوحى اليك وإشرفك بإنزال القرآن عليك ، إلا أن ربك رحمك ، وانعم به عليك واراد بك الخير** » نظير قوله سبحانه : « **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك** » ^(٤) اي ولكن رحمة من ربك خصصك به وهذا هو المنقول

١ . البقرة : ١٤٣ .

٢ . الميزان : ج ١٨ ص ٨٠ .

٣ . القصص : ٨٦ .

٤ . القصص : ٤٦ .

عن الفراء ^(١) .

وعلى هذا لم يكن للنبي ﷺ اي رجاء لالقاء الكتاب إليه ، وانما فاجأه الالقاء لأجل رحمة ربه .

ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلا إذا امتنع كون الاستثناء متصلاً لكون الانقطاع على خلاف الظاهر .

٢ . ان يكون « إلا » للاستثناء لا للاستدراك وهو متصل لا منقطع ، ولكن المستثنى منه جملة محذوفة معلومة من سياق الكلام ، وهو كما في الكشف : « وما القى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك » ^(٢) اي لم يكن لالقائه عليك وجهاً إلا رحمة ربك ، وعلى هذا الوجه ايضاً لا يُعلم انه كان للنبي ﷺ رجاء لالقاء الكتاب عليه وان كان الاستثناء متصلاً . وهذا الوجه بعيد أيضاً لكون المستثنى منه ، محذوفاً مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر وانما يصار إليه إذا لم يصح ارجاعه إلى نفس الجملة الواردة في نفس الآية كما سيبيّن في الوجه الثالث .

٣ . أن يكون « إلا » استثناء من الجملة السابقة عليه اعني قوله : « وما كنت ترجو » ويكون معناه : ما كنت ترجو القاء الكتاب عليك إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك ، فتكون النتيجة : ما كنت ترجو إلا على هذا ^(٣) .

فيكون هنا رجاء منفيّاً ، ورجاء مثبتاً ، أما الأول فهو رجاءه بحادثة نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية ، فلم يكن ذاك الرجاء موجوداً .
واما رجاءه به عن طريق الرحمة الالهية فكان موجوداً فنفي أحد الرجائين لا يستلزم نفي الآخر ، بل المنفي هو الأول ، والثابت هو الثاني وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية .
وقد سبق منّا أن جملة « ما كنت » وما اشبهه تستعمل في نفي الامكان ،

١ . مجمع البيان : ج ٤ ، ص ٢٩٦ ، مفاتيح الغيب : ج ٦ ، ص ٤٠٨ .

٢ . الكشف : ج ٢ ، ص ٤٨٧ و ٤٨٨ .

٣ . مفاتيح الغيب : ج ٦ ، ص ٤٩٨ .

والشأن ، وعلى ذلك يكون معنى الجملة : لم تكن راجياً لأن يلقي اليك الكتاب ، وتكون طرفاً للوحي ، والخطاب الآ من جهة خاصة ، وهي أن تقع في مظلة رحمته وموضع عنايته ، فيختارك طرفاً لوحيه ، ومخاطباً لكلامه ، فالنبي بما هو انسان عادي لم يكن راجياً لأن ينزل إليه الوحي ، ويلقى إليه الكتاب ، وبما انه صار مشمولاً لرحمته وعنايته ، وصار انساناً مثالياً ، قابلاً لتحمل المسؤولية ، وتربية الأمة ، كان راجياً به ، وعلى ذلك فالنفي والاثبات غير واردين على موضع واحد.

وبهذا خرجنا بفضل هذا البحث الضافي أنه ﷺ كان إنساناً مؤمناً موحّداً عابداً لله ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية مجتنباً عن المحرمات عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً وراجياً لنزوله إليه إلى أن بعث لانقاذ البشرية عن الجهل ، وسوقها إلى الكمال.

الآية الخامسة : لو لم يشأ ما تلوته

قال سبحانه : « قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَيْسَتْ فِيكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ^(١) ، والآية تؤكد أن النبي ﷺ كان لا يشأ في قومه ، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن ، أو آية من آياته وليس هذا شيء ينكره القائلون بالعصمة ، فقد اتفقت كلمتهم على أن النبي ﷺ وقف على ما وقف عليه من أي الذكر الحكيم من جانب الوحي ، ولم يكن قبله عالماً به واين هذا من قول المخطئة من نفي الايمان منه قبلها. وان اردت الاسهاب في تفسيرها فلاحظ الآية المتقدمة ، فترى فيها اقتراحين للمشركين وقد اجاب القرآن عن أحدهما في الآية المتقدمة وعن الآخر في نفس هذه الآية واليك نصّها : « قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ » ^(٢).

١. يونس : ١٦ .

٢. يونس : ١٥ .

اقترح المشركون على النبي أحد الأمرين :

١ . الإتيان بقرآن غير هذا مع التحفظ على فصاحته وبلاغته.

٢ . تبديل بعض آياته مما فيه سبب لآلهتهم وتنديدٌ بعبادتهم للاوثان والاصنام.

فأجاب عن الثاني في نفس الآية بان التبديل عصيان لله ، وانه يخاف من مخالفة ربه ، ولا محيص له إلا إتباع الوحي من دون أن يزيد فيه أو ينقص عنه.

واجاب عن الأول في الآية المبحوث عنها بان ذلك أمر غير ممكن لأن القرآن ليس من صني وكلامي حتى أذهب به وآتي بآخر ، بل هو كلام الله سبحانه وقد تعلقت مشيئته بتلاوتي ، ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا ادراككم به ، والدليل على ذلك أني كنت لابثاً فيكم عُمرًا من قبل فما تكلمت بسورة أو بآية من آياته ، ولو كان القرآن كلامي لبادرت إلى التكلم به ، ايام معاشرتي السابقة معكم في المدة الطويلة ، المديدة.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية : إن الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيئتي ، فانما أنا رسول ولو شاء الله ان ينزل قرآنًا غير هذا لأنزل ، أو لم يشأ تلاوة هذا القرآن تلوته عليكم ، ولا أدراككم به فاني مكثت عُمرًا من قبل نزوله ، ولو كان ذلك ليّ ويدي لبادرت إليه قبل ذلك وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه ^(١).

فكيف يمكن والحال هذه أن يكون مجانبا للإيمان بالله وتوحيده ، لاهياً عن عبادته وتقديسه.

هذا وفي هذا المجال حديث واسع اكتفينا منه بهذا القدر ، ومن أراد التوسع أن يراجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن ص ١٣٥ . ١٩١ .

وأما الكلام في الجهة الثانية وهي : أنه بماذا وبأي دين كان يتعبد رسول الله ﷺ قبل البعثة ، فقد وقع ذلك محطاً للبحث بين العلماء ، وحيث انه لا ينطوي على فائدة كبرى ، بعد أن تبين أنه كان قبل البعثة

١ . الميزان : ج ١٠ ، ص ٢٦ ، ولاحظ المنار : ج ١١ ، ص ٣٢٠ .

مؤمناً ، موحداً ، يعبد الله ، فإنه يكفي أن نعرف أنه كان ﷺ يلتزم بما ثبت له أنه شرع الله تعالى ... وبما يؤدّي إليه عقله الفطري السليم ، وأنه بالتالي كان مؤيداً مسدداً ، وأنه كان أفضل الخلق واكمّلهم خلقاً ، وخلقاً ، وعقلاً ، وانه كان يعمل حسب ما يُلهم سواء اكان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً وأن هاديه وقائده منذ صباه إلى ان بعث هو نفس هاديه بعد البعثة^(١) .

١ . وللتوسّع والوقوف على الآراء المختلفة في هذا المجال راجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن : ص ١٣٥ .
١٩١ .

بدء الوحي

انَّ التاريخ الإسلامي يبدأ في الحقيقة من يوم بعثة الرسول ﷺ بالرسالة ، والتي وقعت على أثره حوادث خاصة.

ويوم بُعث النبي الاكرم ﷺ لهداية الناس ، ودَوَى في سمعه الشريف نداء « إنك لرسول الله » الصادر عن ملاك الوحي ألقيت على كاهله مسؤولية كبرى وثقيلة جداً ، على نمط الوظيفة الهامة التي ألقيت على كاهل من سبقه من الانبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

منذ ذلك اليوم اتضح هدف أمين قريش ، أكثر فأكثر ، وتجلت خطته أكثر فأكثر. ونحن نرى من اللازم قبل شرح الحوادث الأولى الواقعة عند البعثة ان نعطي بعض الايضاحات حول مسألتين :

١ . وجوب بعث الانبياء.

٢ . دور الانبياء في اصلاح المجتمع.

لقد أودع الله تعالى في كيان كلِّ كائن من الكائنات أدوات تكامله ، وجهّزه . لسلوك هذا الطريق . بالوسائل المتنوعة ، والأجهزة المختلفة اللازمة.

ولنأخذ مثلاً : نبتة صغيرة ، فان ثمة عوامل كثيرة تتفاعل في ما بينها وتعمل

لتحقيق التكامل فيها.

ان جذور كل نبتة تعمل اكبر قدر ممكن لامتصاص العناصر الغذائية ، وتلبية احتياجات النبتة ، وتوصل العروق والقنوات المختلفة ، عصارة ما تأخذه من الارض إلى جميع الاغصان والاوراق.

إننا لو درسنا جهاز (وردة) لرأيناه أكثر مدعاة للاعجاب وأشد اثاره للتعجب من تركيب بقية النباتات.

فللكأس وظيفة توفير الغطاء اللازم للاوراق الناعمة اللطيفة في الوردة.

وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية الأجهزة في (الوردة) مما أنيط إليها مسؤولية الحفاظ على كائن حي ، وضمان رشدته ونموه ، فإنها جميعاً تقوم بوظائفها المخلوقة لها بأحسن شكل ، وأفضل صورة.

ولو أننا خطونا خطوات أكثر وتقدمنا بعض الشيء لدراسة الأجهزة العجيبة في عالم الأحياء ، لرأينا أنها جميعاً وبدون استثناء مُزودة بما يضمن بلوغها إلى مرحلة الكمال المطلوب لها.

وإذا أردنا أن نصب هذا الموضوع في قالب علمي لوجب أن نقول : ان الهداية التكوينية ، التي هي النعمة المتجلية في عالم الطبيعة ، تشمل كل موجودات هذا العالم من نبات ، وحيوان وانسان.

ويبين القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية الشاملة بقوله : « رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى »^(١).

فإنه يصريح بأن كل شيء في هذا الكون من الذرة إلى المجرة ينعم بهذا الفيض العام ، وإنَّ الله تعالى بعد أن قَدَّرَ كل موجود وكائن ، بيّن له طريق تكامله ، وُرُقِيَه ، وهياً لكل كائن من تلك الكائنات ما يحتاج إليه في تربيته ونموه ، وهذه هي (الهداية التكوينية العامة) السائدة على كل ارجاء الخليقة دوغما استثناء.

١ . طه : ٥٠ .

ولكن هل تكفي هذه الهداية الفطرية ، التكوينية لكائن مثل الإنسان ، اشرف الموجودات ، وفضل ما في هذه الخليقة؟! ،
بكل تأكيد : لا .

لأن للإنسان حياة اخرى غير الحياة المادية ، تشكل اساس حياته الواقعية ، ولو كان للإنسان حياة مادية جافة فقط مثلما لعالم النباتات ، والحيوانات ، لكفت العوامل والعناصر المادية في تكامله ، والحال أن للإنسان نوعين من الحياة ، يكمن في تكاملهما معاً رمز سعادة الإنسان ورفقته .

ان الإنسان الأول ، ونعني به انسان الكهوف والحياة البسيطة والفطرة السليمة التي لم يطرأ على جبلته اي إعوجاج لم يكن بحاجة إلى ما يحتاج إليه الإنسان الإجتماعي من التربية والهداية .

ولكن عندما خطى الإنسان خطوات أبعد من ذلك ، وبدأ الحياة الاجتماعية ، وسادت على حياته فكرة التعاون والعمل الجماعي برزت في روحه ونفسيته سلسلة من الانحرافات نتيجة للاحتكاك الاجتماعي ، وغيّرت الخصال القبيحة والافكار الخاطئة صفاته الفطرية ، وبالتالي اخرج المجتمع من حالة التوازن!

إن هذه الانحرافات حملت خالق الكون على أن يرسل إلى البشرية رجالاً أفاضاً صالحين يتولّون تربية البشر ، وليقوموا بتنظيم برنامج المجتمع ، والتخفيف من المفسد الناشئة . بصورة مباشرة . عن النزعة الاجتماعية لدى الإنسان ، وليضيئوا . بمشاعل الوحي المشعة المنيرة . طريق السعادة والخير للانسانية في جميع المجالات والابعاد .

إذ لا نقاش في أنّ الحياة الاجتماعية والعيش بصورة جماعية مع كونه مفيداً ، ينطوي على مفسد لا تُنكر ، ويجرّ إلى انحرافات كثيرة لا تقبل التردد .

ولهذا بعث الله سبحانه رجالاً مصلحين ، وهداة مرشدين يعملون . قدر الامكان . على الحد من الانحرافات والمفسد ، ويضعون عجلة المجتمع . بتنظيم القوانين الواضحة والانظمة الحكيمة . على الطريق الصحيح ، ويضمنون دوراتها

وحركتها في المسار المستقيم.

وقد يُستفاد هذا الامر . بوضوح . من قوله تعالى : « كان النَّبَأُ أُمَّةً وَاخِيَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّبَأِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ »^(١).

دور الانبياء في اصلاح المجتمع :

ان الذي يتصوره الناس عادة هو أن الانبياء مجرد معلّمين إلهيين بُعثوا لتعليم البشرية . فكما يتعلم الطفل خلال حركته التعليمية ابتداء من الابتدائية ومرورا بالمتوسطة وانتهاء بالجامعة دروساً معينة ومواضيع خاصة على ايدي الاساتذة والمعلمين ، كذلك يتعلم الناس في مدرسة الانبياء أموراً خاصة ، ويكتسبون معارف معينة ، وتتكامل أخلاقهم وصفاتهم وخصالهم الاجتماعية جنباً إلى جنب مع اكتسابهم المعرفة والعلم على أيدي الأنبياء والمرسلين .

ولكننا نتصور ان مهمة الانبياء ووظيفتهم الاسياسية هي (تربية) المجتمعات البشرية لا تعليمها ، وان اساس شريعتهم لا ينطوي على كلام جديد ، وانه ما لم تنحرف الفطرة البشرية عن مسارها الصحيح ، وما لم تلفها غشاوات الجهل والغفلة لعرفت وادركت خلاصة الدين الالهي ، وعصارتها ، في غير اجمام ، ولا خفاء .

على أن هذه الحقيقة قد أشار اليها قادة الإسلام العظماء .

فقد قال اميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة عن هدف الانبياء :

« أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ... لِيَسْتَأْذُوهُمْ ميثاق فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمُ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثْبِرُوا لَهُمْ دِفَائِنَ الْعُقُولِ »^(٢).

١ . البقرة : ٢١٣ .

٢ . نهج البلاغة : قسم الخطب ، الخطبة رقم ١ .

مثال واضح في المقام :

إذا قلنا : ان وظيفة الانبياء في تربية الناس واصلاح نفوسهم هي وظيفة البستاني في تربية شجيرة من الشجرات ، أو قلنا : أن مَثَلُ الأنبياء في قيادة التوجّهات الفطرية البشرية وهدايتها ، مثل المهندس الذي يستخرج المعادن الثمينة من بطون الاودية والجبال ، لم نكن في هذا القول مبالغين.

وتوضيح ذلك ان النبتة ، أو الشجيرة الصغيرة تحمل من بداية انعقاد حبتها الأولى كل قابليات النمو ، والرشد ، فاذا توفّر لها الجو المناسب للنمو ، دبّت الحياة والحركة في كل أجزائها ، واستطاعت بفعل جذورها القوية واجهزتها المتنوعة وفي الهواء الطلق ، والضوء اللازم ، من أن تقطع أشواطاً كبيرة من التكامل ، والنمو.

فمسؤولية البستاني في هذه الحالة تتركز في امرين :

١ . توفير الظروف اللازمة لتقوية جذور تلك النبتة لكي تظهر القوى المدعومة في تلك النبتة أو الشجيرة ، وتخرج من حيرّ القوة إلى مرحلة الفعلية ، والتحقق.

٢ . الحيلولة دون تعرض تلك الشجرة أو النبتة للانحرافات والآفات ، وذلك عندما تتجه القوى الباطنية صوب الوجهة المخالفة لسعادتها ، وتسلك طريقاً ينافي تكاملها.

ومن هنا فان مسؤولية البستاني ووظيفته ليست هي (الإنماء) بل هي (المراقبة) وتوفير الظروف اللازمة ليتهياً لتلك الشجرة والنبتة أن تبرز كما لها الباطني.

لقد خلق الله سبحانه البشر وأودع في كيانه طاقات متنوعة ، وغرائز كثيرة ، وعجن فطرته وجبلته بالتوحيد ، وحبّ معرفة الله ، وحبّ الحق والخير ، والعدل والانصاف ، كما وأودع فيه غريزة السعي والعمل.

وعندما تبدأ خمائر هذه الامور وبذورها الصالحة المدعومة بالعمل والتفاعل في كيان الإنسان تتعرض في الجو الاجتماعي لبعض الانحرافات بصورة قهرية ،

فغريزة العمل والسعي تتخذ شيئاً فشيئاً صفة الحرص والطمع ، وغريزة حب السعادة والبقاء تتخذ صورة الانانية ، وحب الجاه والمنصب ، ويتجلى نور التوحيد والإيمان في لباس الوثنية وعبادة الأصنام.

في هذه الحالة يعمل سفراء الله إلى البشرية : (الانبياء والرسل) على توفير ظروف الرشد والنمو الصحيح لتلك الغرائز وتلك القوى والطاقات في ضوء الوحي ، والبرامج الصحيحة المستلهمة من ذلك المنبع الالهي الهادي ، ويقومون بالتالي بتعديل انحرافات الغرائز ، والوقوف دون تجاوزها حدودها المعقولة المطلوبة.

ولقد قال اميرالمؤمنين في ما مر من كلامه : إن الله أخذ . في مبدأ الخلق . ميثاقا يدعى « ميثاق الفطرة ».

فما هو ترى المقصود من ميثاق الفطرة هذا؟

إن المقصود من هذا الميثاق هو : أن الله تعالى بخلقه وايداعه الغرائز المفيدة في الكيان الإنساني ، وبمزج الفطرة البشرية بعشرات الأخلاق الطيبة والسجايا الصالحة يكون قد أخذ من الإنسان ميثاقاً فطرياً بأن يتبع خصال الخير ، ويأخذ بالغرائز الطيبة الصالحة.

فاذا كان منح جهاز البصر (العين) للإنسان هو نوع من اخذ الميثاق من الإنسان بان يتجنب المزالق ، ولا يقع في البئر ، فكذلك ايداع حسّ التدين ، وغريزة الانجذاب إلى الله ، وحبّ العدل ، في كيانه هو الآخر نوع من اخذ الميثاق منه بأن يظل مؤمناً بالله ، موخداً إياه ، عادلاً ، منصفاً محباً للخير والحق.

وإن وظيفة الأنبياء هي أن يحملوا الناس على العمل بمقتضي ميثاق الفطرة ، وبالتالي فإنّ مهمّتهم الأساسية الحقيقية هو تمزيق اغشية الجهل وتبديد سحب الغفلة التي قدترين على جوهره الفطرة المطعمة بنور الايمان ، فتمنعها من الاشرار على وجود الإنسان ، وتحرم الإنسان من هدايتها.

ومن هنا قالوا : إن اساس الشرائع الالهية يتالف من الامور الفطرية ، التي فطر الإنسان عليها.

وكان صرح الكيان الإنساني (جِبَل) اختفت بين ثنايا صحوره وفي بطونه احجار كريمة كثيرة ومعادن ذهبية ثمينة ، فالوجود الإنساني هو الآخر قد أودعت فيه فضائل وعلوم ، ومعارف وخصال ، واخلاق متنوعة.

فعندما يغور الانبياء والمهندسون الروحانيون في أعماق نفوسنا وذواتنا وهم يعلمون جيدا أن نفوسنا معجونة بطائفة من الصفات والسجايا النبيلة والمشاعر والاحاسيس الطيبة ، ويعملون على اعادة نفوسنا . بتعاليم الدين وبرامجه . إلى جادة الفطرة المستقيمة السليمة فانهم في الحقيقة يدكرونا بأحكام فطرتنا ، ويُسمعوننا نداء ضمائرنا ، ويلفتونها إلى الصفات ، وإلى الشخصية المودوعة فيها.

تلك هي رسالة الانبياء ، وذلك هو عملهم الاساسي ، وهذا هو دورهم في اصلاح النوع الإنساني ، أفراداً وجماعات.

أمين قريش في غار حراء :

يقع جبل « حراء » في شمال « مكة » ويستغرق الصعود إلى غار حراء مدة نصف ساعة من الزمان.

ويتألف ظاهر هذا الجبل. من قطع صخرية سوداء ، لا يُرى فيها أي أثر للحياة أبداً. ويوجد في النقطة الشمالية من هذا الجبل غار يمكن للمرء أن يصل إليه ولكن عبر تلك الصخور ، ويرتفع سقف هذا الغار قامة رجل ، وبمنا تضيء الشمس قسماً منه ، تغرق نواح أخرى منه في ظلمة دائمة.

ولكن هذا الغار يحمل في رحابه ذكريات كثيرة عن صاحب له طالما تردّد عليه ، وقضى ساعات بل وأياماً وأشهرها في رحابه ... ذكريات يتشوق الناس . وحتى هذه الساعة . إلى سماعها من ذلك الغار ، ولذلك تجدهم يسارعون إلى لقائه كلما زاروا تلك الديار ، متحملين في هذا السبيل كل عناء ، للوصول إلى رحابه ، لكي يستفسرونه عما جرى فيه عند وقوع حادثة : « الوحي » العظيمة وليسألونه عن ما تحتفظ به ذاكرته من تاريخ رسول الإنسانية الاكبر ممّا جرت

حوادثه في ذلك المكان التاريخي ، العجيب .
ويتحدث ذلك الغار هو الآخر اليهم بلسان الحال ويقول : هاهنا المكان الذي كان
يتعبد فيه عزيز قريش وفتاها الصادق الامين .
وهاهنا قضى ليالي وأياماً عديدة وطويلة قبل ان يبلغ مرتبة الرسالة ، في عبادة الله ،
والتأمل في الكون ، وفي آثار قدرة الله وعظمته .

أجل ، لقد اختار محمد ﷺ ذلك المكان البعيد عن ضجيج الحياة ، للعبادة والتحنث
، فكان يمضي جميع الايام من شهر رمضان فيه ، وربما لجأ إليه في غير هذا الشهر أحياناً
اخرى ، إلى درجة أن زوجته الوفية كانت إذا لم يرجع إلى منزلها ، تعرف أنه قد ذهب إلى «
غار حراء » وأنه هناك مشغول بالعبادة والتحنث والاعتكاف ، وكانت كلما أرسلت إليه
أحداً وجده في ذلك المكان مستغرقاً في التأمل والتفكير ، أو مشغولاً بالعبادة والتحنث .

لقد كان ﷺ قبل أن يبلغ مقام النبوة ، ويُبْعَث بالرسالة يفكر . أكثر شيء في أمرين :
١ . كان يفكر في ملكوت السماوات والارض ، ويرى في ملامح كل واحد من الكائنات
التي يشاهدها نور الخالق العظيم ، وقدرته ، وعظمته وعلمه ، وقد كانت تفتح عليه من هذا
السيبل نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الالهي المقدس .
٢ . كان يفكر في المسؤولية الثقيلة التي ستوضع على كاهله .

إن اصلاح المجتمع في ذلك اليوم على ما كان عليه من فساد عريق وانحطاط عريض ، لم
يكن في نظره وتقديره بالامر المحال الممتنع . ولكن تطبيق مثل هذا البرنامج الاصلاحى لم
يكن في نفس الوقت أمراً خالياً من العناء والمشاكل ، من هنا كان يفكر طويلاً في الفساد في
حياة المجتمع المكّي وما يراه من ترف قريش ، وكيفيّة رفع كل ذلك واصلاحه .

لقد كان ﷺ حزينا لما يرى من قومه من فساد العقيدة المتمثل في الخضوع للأوثان
الميتة ، والعبادة للأصنام الخاوية الباطلة ، ولطالما

شوهدت آثار ذلك الحزن على محيّا ، وملامح وجه الشريف ، ولكن لما لم يكن مأذوناً
بالافصاح بالحقائق ، لذلك كان يتجنب ردع الناس عن تلك المفاصد ، ومنعهم عن تلك
الانحرافات .

بدء الوحي :

لقد امر الله ملكا من ملائكته بأن ينزل على امين قريش وهو في غار حراء ويتلو على
مسمعه بضع آيات كبداية لكتاب الهداية والسعادة ، معلناً بذلك تتويجه بالنبوة ، ونصبه
لمقام الرسالة .

كان ذلك المليك « جبرئيل » ، وكان ذلك اليوم هو يوم المبعث النبوي الشريف الذي
سنتحدث عن تاريخه في المستقبل .

ولا ريب أن ملاقاته الملك ومواجهته أمرٌ كان يحتاج إلى تهيؤ خاصّ ، وما لم يكن محمد
ﷺ يمتلك روحاً عظيمة ، ونفسية قوية لم يكن قادراً قط على تحمّل ثقل النبوة ، وملاقاته
ذلك الملك العظيم .

أجل لقد كان « أمين قريش » يمتلك تلك الروح الكبرى ، وتلك النفس العظيمة وقد
اكتسبها عن طريق العبادات الطويلة ، والتأمل العميق الدائم ، إلى جانب العناية الالهية .
ولقد روى أصحاب السير والتاريخ انه رأى رؤى عديدة قبل البعثة كانت تكشف عن
واقع بين واضح وضوح النهار ^(١) .

ولقد كانت الذّ الساعات وأحبها عنده بعد كل فترة ، تلك الساعات التي يخلو فيها
بنفسه ، ويتعبّد فيها بعيدا عن الناس .

ولقد قضى على هذا الحال مدة طويلة حتى أتاه . في يوم معين . ملك عظيم بلوح نصبه
أمامه وقال له : « اقرأ » ، وحيث أنه ﷺ كان أميا لم يدرس أحاب المليك بقوله : « ما
أنا بقارئ » .

١ . صحيح البخاري : ج ١ كتاب العلم ص ٢٢ ، بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ١٩٤ .

فاحتضنه ذلك الملك ، وعصره عصرة شديدة ، ثم طلب منه أن يقرأ فأجابه بالجواب الأول.

فعصره الملك ثانية عصرة شديدة وتكرر هذا العمل مرات ثلاث احس بعدها رسول الله ﷺ في نفسه أنه قادر على قراءة ما في ذلك اللوح ، فقرأ ساعتها تلك الآيات التي تشكل . في الحقيقة . دياجحة كتاب السعادة البشرية ، واساس رقيها.

لقد قرأ ﷺ قوله تعالى : « **إِقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. يَمُّ لِلْإِنْسَانِ لَمَّا عَلَّمَ * يَغْلَمُ** »^(١).

وبعد أن انتهى جبرئيل من أداء مهمته التي كُلف بها من جانب الله تعالى ، وبلغ إلى النبي تلكم الآيات الخمس ، انحدر رسول الله ﷺ من جبل حراء ، وتوجه نحو منزل خديجة^(٢).

ولقد أوضحت الآيات المذكورة برنامج النبي ﷺ اجمالا ، وبيّنت وبشكل واضح ان اساس الدين يقوم على القراءة والكتابة ، والعلم والمعرفة ، واستخدام القلم.

ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين :

لقد تسبب التقدم العظيم والمتزايد الذي تحقق في ميدان العلوم الطبيعية في سلب الكثير من العلماء القدرة على فهم وادراك القضايا المعنوية والخارجة عن اطار العلوم الطبيعية والتالي أدى إلى تحديد وتضييق آفاق الفكر عندهم.

فاذا بهم اصبحوا يتصورون أن الوجود يتلخص في هذا الكون المادي ، وانه ليس في الوجود من شيء سوى المادة وان كل ما لا يمكن تفسيره وتبريره بالقوانين والقواعد المادية فهو أمر باطل ، ومن نسج الخيال!!

١ . العلق : ٥ . ١ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

إن هذا الفريق . لتسرع في اصدار الحكم في الأمور المتعلقة . بالغيب وقضايا ما وراء الطبيعة ، وحصراً أدوات المعرفة بالحس والتجربة . انكروا عالم الوحي ، بحجة أنّ الحس والتجربة لا يقودانهم إلى ذلك العالم ، ولا يجربانهم عن مثل تلك الموجودات ، فلكونها بالتالي لا تخضع لمبضع التشريح ، ومجهر الإختبار أنكروها بالمرّة ، وكانت النتيجة أن أدوات المعرفة المعروفة (الحس والتجربة) حيث انما لا تهدي إلى عالم ما وراء المادة فاذن لا وجود خارجي لذلك العالم ولحقائقه أبداً!

إنّ هذا النمط من التفكير نمط جدّ ضيق ومحدود ، مضافاً إلى انه يتسم بالغرور والغطرسة ، فهو من باب « استنتاج عدم الوجود من عدم الوجدان » في خطوة متعجلة فجّة!!
فمادامت هذه الحقائق التي يعتقد بها الالهيين المؤمنون بالله لا يمكن التوصل إليها عن طريق الادوات الفعلية المتعارفة بينهم للادراك والمعرفة فهي اذن لا اساس لها من الواقع!!
ان الذي لا شك فيه هو : ان الماديين لم يدركوا مقالة العلماء الالهيين حتى في مسألة اثبات الصانع الخالق فكيف بالعالم الأخرى لما فوق الطبيعة ، ولو أنّ الفريقين تحاورا في جوّ علمي مناسب ، بعيداً عن الأغراض والعصبية ، لكان من المتوقع ان تزول الفواصل بين الماديين والالهيين في اقرب وقت ، وأين يرتفع هذا الاختلاف الذي قسّم العلماء إلى فريقين على طرفي نقيض.

لقد اقام المؤمنون الموحّدون عشرات الأدلة والبراهين القاطعة على وجود الله تعالى ، واثبتوا بأنّ هذه العلوم الطبيعية هي نفسها تقودنا إلى الخالق العالم القادر ، وان هذا النظام العجيب السائد في ظواهر الكائنات الطبيعيّة وبواطنها لدليل قاطع ، وبرهان ساطع على وجود مبدع هذا النظام ، وأن جميع أجزاء هذا الكون الماديّ ، من ذراته إلى مجراته ، يسير وفق قوانين دقيقة متقنة ، ولا تستطيع الطبيعة الصماء العمياء ابداً أن تكون مبتكرة لهذا النظام البديع ، ومبدعة لهذا الترتيب الدقيق.

وهذا هو بنفسه برهان « نظام الوجود » أو (برهان النظم) الذي ألف العلماء الالهيون الموحدون حوله عشرات الكتب والدراسات .

وحيث ان (برهان النظم) هذا ممّا يفهمه جميع الناس على مختلف مراتبهم ومداركهم ، لذلك ركزت عليها الكتب الاعتقادية دون سواها ، وسلك كل واحد من العلماء طريقاً معيناً وخصاصاً لتقريره ، وبيانه ، كما ودرست الأدلة والبراهين الأخرى التي لا تتسم بمثل هذه الشمولية ، في الكتب ، والمؤلفات الفلسفية والكلامية بصورة مفصلة ومبسوطة .

إن للعلماء الالهيين بيانات وأدلة في مجال (الروح المجردة) ، وعوالم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) نشير إلى بعضها هنا :

الروح المجردة :

إن الاعتقاد بالروح من القضايا الشائكة الطبيعة التي استقطبت اهتمام العلماء وشغلت بالهم بشدة .

فهناك فريق . مّين اعتاد أن يُخضع كل شيء لمبضع التشريح . ينكر وجود (الروح) ، ويكتفي بالاعتقاد بالنفس ذات الطابع المادي ، والعاملة ضمن نطاق القوانين الطبيعية فقط . ووجود « الروح » والنفس غير المادية (اي المجردة المستقلة عن المادة) من القضايا التي عُولجت ودُرست من قِبَل المؤمنين بالله ، والمعتقدين بالعام الروحاني ، بصورة دقيقة ، وعميقة .

فهم أقاموا شواهد عديدة على وجود هذا الكائن (غير المادي) وهي أدلة وبراهين لو تمّ التعرّف عليها والنقاش حولها في جو علمي هادئ مع الأخذ بنظر الاعتبار ما يقوم عليه منطق الالهيين . في هذا المجال . من قواعد وأسس ، لأدّى ذلك إلى التصديق الكامل بها .

على أن ما يقوله الالهيون في مجالات أخرى مشابهة مثل (الملائكة) و (الوحي) و (الإلهام) يقوم هو الآخر على الأساس الذي شيده ومهدوه وبرهنوا

عليه قبل ذلك بالأدلة المحكمة ، المتقنة ^(١) .

ظاهرة الوحي عند الماديين :

يُعتبر الاعتقاد بالوحي أساساً لجميع الرسالات ، والأديان السماوية ، وتقوم هذه الظاهرة (ظاهرة الوحي) على أن الذي يوحى إليه يمتلك روحاً قوية تقدر على تلقي المعارف الالهية من دون واسطة ، أو بواسطة ملك من الملائكة .

ويلخص العلماء المختصون تعريفهم للوحي على النحو التالي : « الوحي تعليمه تعالى من اصطفاه من عباده كجبل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة خفية غير مُعتاد للبشر » .

ولكن الماديين . كما قلنا . لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقة ، وادراك هذه الظاهرة على حالها ، وصورتها الغيبية بسبب ما ذكرناه من منهجهم ونظرتهم إلى الأمور والكائنات فذهبوا في تفسير ظاهرة الوحي . التي هي كما اسلفنا من قضايا الغيب ومن عوالم ما فوق الطبيعة . مذاهب مختلفة ترجع برمتها إلى الرؤية المادية للوجود .

واليك أبرز هذه التفاسير المادية لظاهرة الوحي الغيبية :

أبرز النظريات المادية لظاهرة الوحي :

١ . قالوا : الوحي هي القدرة الفكرية ، والنفسية والعقلية التي تحصل للإنسان بسبب التمرينات والرياضات الروحية التي على اثرها تنفتح عليه أبواب من الغيب ، فيخبر عن امور طالما تتفق مع الواقع على نحو ما يحصل للمرتاضين الهنود ^(٢) .
فالانبياء بسبب اعتزالهم للمجتمع . على غرار ما يفعل المرتاضون . وإقبالهم

١ . ولقد جاء تفصيل هذه البراهين والأدلة في الكتب الفلسفية مثل : « الإشارات » و « الأسفار » . ولقد اشترنا إلى بعض هذه الأدلة في كتاب (الله خالق الكون) فراجع .

٢ . وهم الذي يمارسون علمية اليوجا .

على الرياضة الروحية تحصل لهم المقدرة على الإخبار بالغائبات ، والكائنات الخفية على غيرهم.

والجواب على هذه النظرية هو : أن دراسة حالات المرتاضين تكشف لنا عن أنهم طالما يخطأون في إخباراتهم أخطاء فاضحة ، بينما لم يُعهد من نبي أنه أخطأ في إخباراته ، وإنبيائه.

هذا اولا

وثانيا : ان ما يفعله المرتاضون لا ينطوي على أية أهداف اصلاحية عليا للمجتمع البشري ، بل غاية همهم هو : عرض الافعال العجيبة على الناس وربما تسلية المتفرجين ، بينما يهدف الأنبياء إلى إصلاح المجتمعات البشرية وقيادتها إلى ذرى الكمال والتقدم.

وثالثا : ان المرتاضين لا يثقون بما يخبرون به ، كما لم يُعرف إلى الآن أن أحداً منهم طلع على المجتمع البشريّ ببرنامج كامل وشامل للحياة البشرية الفردية والاجتماعية ، بينما نجد الأنبياء يخبرون الناس بما أمروا به وهم على إيمان كامل ، ويقين ثابت منه ، هذا إلى جانب أنهم يحملون إلى البشرية برامج اجتماعية وحيوية جامعة الاطراف ، كاملة الأبعاد ، رفيعة الأهداف ، عميقة الغايات ، ترجع اليها كل فضيلة وكل خير تعرفه المجتمعات إلى الآن.

ورابعا : ان أعمال المرتاضيين وما تحصل لهم من قوى وينفتح عليهم من آفاق ، محدودة ، بينما لا تقف طاقات الانبياء وآفاق علومهم ، وأبعاد أعمالهم عند حدّ.

فلا يمكن ابدا تفسير وتعليل ظاهرة (الوحي) وما يحصل للرسل والانبياء على اثره من أموره تتخطى حدود العالم المادي المحدود ، بالرياضة الروحية التي يمارسها المرتاضون وما يحصل لهم على أثرها من امور.

٢ . قالوا : انّ (الوحي) نوعٌ من النبوغ ، أو أنه ناشئ من النبوغ ، وأن الانبياء هم نوابغ اجتماعيون لا اكثر.

وقد شرحوا نظريتهم هذه قائلين : بأن نظام الخليقة قد ربى في أحضانه نوابغ

صالحين ، اهتموا بفعل نبوغهم الفكري الرفيع إلى أفكار وقيم رفيعة ودعوا مجتمعاتهم إلى الأخذ بها ، والسير على هديها ، لتحقيق الخير والعدالة ، فكان لهم بذلك أكبر نصيب في إرشاد البشرية إلى سعادتها ، فكل ما طرحوه من أفكار ، وكل ما عرضه على تلك المجتمعات باسم الدين أو القانون ليست . في الحقيقة . سوى نتيجة ما تمتعوا به من نبوغ ، وفكر خارق ، ولا علاقة له بعالم آخر غير هذا العالم المادي المؤلف .

وقالوا : وان مما يساعد على تقوية هذا النبوغ أمور أبرزها :

الحبُّ ، التعرُّضُ للظلم الطويل ، الطفولة وما يكتنفها من ضعف وعجز ، الوحدة ، السكوت ، التربية الأولى ، والعيش في صورة الأقلية وما يرافقها من ظروف إجتماعية غير مؤاتية .

فان جميع هذه الأمور أو بعضها تدفع بالشخص إلى الأنطوائية ، والتفكير والتأمل ، للاهتمام إلى مخرج من المشاكل والصعوبات ، ومخلص من الظروف الصعبة ، والأحوال الشاقة .

ويُجاب على هذه النظرية بأن أصحاب هذه النظرية حكموا على هذه القضية على أساس موقف اتخذوه سلفاً فهم حَصَبُوا الأشياء في المادة والامور المادية ثم فسَّروا ما يرتبط بعالم الغيب بذلك ، فجاء تفسيرهم لهذه الظاهرة الغيبية تفسيراً مادياً ، غفلة منهم عن ان مثل هذا التفسير والتعليل لا يليق بظاهرة (الوحي) التي تجسد أعلى قضية في سلم الحقائق العلمية والفلسفية ، ويرجع اليها أعظم القوانين والبرامج للسعادة البشرية .

نحن لا ننكر أن لما ذكره من العوامل تأثيراً في تقوية عملية « التفكير » لدى الإنسان إلى درجة ايجاد ما يسمى بظاهرة التوابع لديه ، إلا أنه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الامر نبياً خضعت جميع النبوغ البشرية لعظمة تعاليمه التي أتى بها طوال أربعة عشر قرناً .

نبياً لم يزل ما جاء به من معارف عقلية وفلسفية ، وقوانين ترتبط بعالم الطبيعة وبالنظام الاجتماعي وآداب السلوك تحافظ على قوتها ، وعمقها وأصالتها ولمعناها

كل المحافظة رغم كل ما احرزه البشر في ضوء نشاطه الفكري والعقلي من تقدم ، في المعارف والعلوم.

هذا مضافاً إلى أن نسبة هؤلاء الأنبياء جميع ما عرضه على المجتمعات البشرية إلى العالم الآخر واصرارهم على أنها من جانب الله تعالى وليست من نسيج افكارهم يناقض نظرية هذه الطائفة ، التي تفسر النبوة بالنبوغ.

لنقرأ معاً الآية التي يقول الله تعالى فيها حاكياً عن رسول الإسلام محمد ﷺ : « **إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** »^(١).

أو يقول سبحانه : « **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** »^(٢).

٣ . يقولون : إن الوحي هو ظهور الشخصية الكامنة في النبي وإجاءها لما ينفعه وينفع قومه المعاصرين له ، إليه .

وربما قالوا : إن معلومات « محمد » وافكاره وآماله ولدت لديه إلهاما فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية على مخيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له وهو يتلو على سمعه ما جحدَّ به بعد ذلك .

وتوضيح هذه النظرية هو : ان لكل إنسان شخصيتين :

١ . الشخصية الظاهرة العادية وهي التي تخضع للحواس الخمس وتعمل بها .

٢ . الشخصية الباطنية وهي التي تعمل عندما تتعطل الحواس ، ويتعطل الشعور الظاهري :

وهذه الشخصية هي التي تحرك جميع أعضاء الجسم الانساني التي لا تخضع لارادته كالكبد والقلب ، والمعدة وغيرها ، كما انها هي مصدر الكثير من الإلهامات الطيبة في الظروف الحرجة .

ثم قالوا : وهذه الشخصية الباطنية قد اصبحت مدركة بالحس ، فان المنوم

١ . الأنعام : ٥٠ .

٢ . النجم : ٤ .

مغناطيسياً يظهر بمظهر العقل الراجح ، والفكر الثاقب والنظر البعيد ، ويقوم بما لا يقوم به في حالته العادية.

وقد انتهى هؤلاء الماديّون من خلال تحقيقاتهم وتجاربهم إلى : ان شخصية الإنسان الباطنية ارقى من شخصيته العادية ، وإن ما يتوصّل إليه الإنسان من أفكار عالية رفيعة جدا ، وما قد يتمتع به من روح قوية هو من مظاهر هذه الشخصية وفعاليتها.

فقالوا : وان هذه الشخصية هي التي تنفث في روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله ، وقد تظهر لهم متحسّدة فيحسبونّها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء!!!

فالوحي عند هؤلاء الباحثين في الروح على الاسلوب التحريبي لا يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاماً عن الله بل يكون في تجلي روح الإنسان عليه بواسطة شخصيته الباطنة فتعلمه ما لم يكن يعلم ، وتهديه إلى خير الطرق لهداية نفسه وترقية أمتة (١).

ولكن هذه النظرية هي الأخرى تتبع من العبور العلمي الذي اصاب هذا النمط من العلماء الذين يحاولون تفسير كل ظواهر هذا العالم بالتفسير المادي ، وهو لا شك ينشأ من علمهم المحدود القاصر عن إدراك حقائق الوجود.

إننا لا نشك في وجود ما يسمى بالشخصية الباطنية لدى الإنسان فهو ممّا سبق إلى كشفه والتنويه به الفلاسفة الإسلاميون من قبل ولكن كيف وعلى أي اساس حقّ لهؤلاء ان يفسروا ظاهرة (الوحي الالهي) والنبوة بهذا الامر؟

هذا أولاً

وثانياً : انّ تجلي الشخصية قلّمًا يحدث في الاشخاص الأصحاء ، بل هو يحدث في الاغلب عند المتعبين القلقين ، والسكران ، والمصابين بالهزيمة والنكسة ، لأن نافذة (اللاوعي) عند غيرهم من الاصحاء تنسد بسبب اشتغالهم الشديد بقضايا الحياة اليومية وهمومها ، ولا يبقى للشخصية الباطنية مجال للنشاط والفعالية ، كما

١ . دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي : ج ١٠ ، مادة وحي .

هو العكس عند المتعبين والسكارى والمرضى الذين يقل اهتمامهم بالحياة اليومية فيترك (الوعي) مكانه للاوعي ، وتترك الشخصية الظاهرية المعطّلة مكانها للشخصية الباطنية. ولذلك نجد بين آلاف العلماء والمفكرين مفكرا أو عالما واحد اتفق له في بداية عمره أن اهتدى بصورة لا شعورية إلى فكرة خاصة أونظرية معينة من دون سابق تفكير أو استدلال قائم على الشعور.

وخلاصة القول أن تجلّي الشخصية الباطنية في الحياة الإنسانية قضية نادرة جداً ، وهي لا تحدث إلا في ظروف خاصة مثل : المنامات والاحلام وغيرها من التحولات الحياتية التي تقلل من توجّه الإنسان إلى العالم الخارجي وتصرف التفاته وتوجّهه إلى الشخصية الباطنية. ولكن هذه الحالة وهذه الشرائط (أي الغفلة عن هموم الحياة اليومية الخارجية) لم تحصل للانبياء قط.

فالنبي الأكرم محمد ﷺ كان طوال (٢٣ سنة) وهي أعوام الرسالة ، مشغولاً كل الاشتغال بقضايا الحياة اليومية ، فالنشاطات السياسية ، والتبليغية وقضايا الدعوة والقيادة كانت تهيمن على كل توجهه واهتمامه وتملاً ، عقله وروحه ونفسه. فالكثير من آيات الجهاد ترتبط بساحات القتال والجهاد ، وهذا يعني انه كان مشغولاً بروحه وعقله كله إلى تلك الأمور.

وثالثاً : ان هذه النظرية يمكن أن تصدق على نبوة الانبياء لو كان هؤلاء الأنبياء أفراداً متعبين ، منهزمين ، منتكسين ، مرضى ، معتزلين عن الحياة ليقال حينئذ ان هذه الحالات والظروف مهّدت لانقطاعهم ﷺ عن هموم الحياة ، وقضاياها ، وبالتالي مهّدت لفعالية الشخصية الباطنية وعملها.

ولكن تاريخ الأنبياء يشهد بوضوح لا إبهام فيه ، بانهم كانوا . طيلة حياتهم الرسالية . رجالاً مجاهدين ، لا يهمهم إلا اصلاح المجتمعات وقيادة الجماعات وحل المشكلات الاجتماعية ، ورفع مستويات الناس معنويًا وفكريًا وكانوا

يعملون لتحقيق هذه الأهداف ليل نهار ، بلا سأم ولا ملل ، ولا تعب ولا نصب .
فكيف يمكن القول والحال هذه بان الشخصية الباطنية تجلّت لديهم واوحت اليهم
بحقائق وقيم وافكار؟

إن تفسير (الوحي الالهي) الذي يُلقى إلى الانبياء ويكشف لهم عن أدق الحقائق
وارفعها ، وأعظم المناهج وأكملها ، بتجلّي الشخصية الباطنية ، ناشئ من اعتقاد هذا الفريق
من العلماء بأصالة المادة ، أو بعبارة اخرى : حصر الوجود في المادة ، ومن هنا حاولوا إلباس
كل شيء حتى الامور المعنوية والغيبية : اللباس المادي ، واغلقوا على أنفسهم باب عوالم
الغيب ، وعمدوا إلى التفتيش عن علة مادية حتى لظاهرة (الوحي) التي لا تُقاس بمقاييس
العالم المادي .

هذا مضافا إلى أن تفسير (الوحي الالهي) عن طريق نظرية تجلّي الشخصية الباطنية ،
وخاصة في شأن رسول الإسلام « محمد ﷺ » يواجه اشكالات ومؤاخذات اخرى تجعل
هذه النظرية في عداد الاساطير !!

وإن ابرز هذه الاشكالات الواردة على هذه النظرية في مجال رسول الإسلام ﷺ هي
: أنّ هذه النظرية ليست رأياً جديداً وتهمّة جديدة توجه إلى نبوة رسول الإسلام .
فان نظرية « الشخصية الباطنية ، والوحي النفسي الذاتي » هي نظرية متبلورة ومتقدمة
لتهمّة (الجنون والصرع) التي كان يرمي بها العرب الجاهليّون رسولَ الله ﷺ !!
فقد كان المشركون في بدء الدعوة يقولون : ان ما يقوله « محمد » وما يتكلم به ليس إلا
افكاره القلقة المضطربة الناشئة عن خياله ، وأنّ القرآن هي تلك الأفكار المضطربة التي
تسربت إلى فضاء عقله من دون ارادة منه ولا اختيار!!
لنستمع إلى القرآن الكريم وهو ينقل عنهم هذا الاتهام :
« بَلْ قَالُوا اضْغَاثَ أَحْلَامٍ » (١) .

١ . الأنبياء : ٥ .

ولكن القرآن الكريم يرد على هذه المزعمة الواهية بقوله :
« وَمَنْ لَكُمْ إِذَا هَوَىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ. مَا يُلْقِيَنَّ لَهٗ بَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَجْهِي يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ » (١).

ان القرآن الكريم يشجب في هذه الآيات المنتظمة انتظاما رائعا وبديعا هذه المزعمة (أي مقولة أن القرآن وليد الخيال لدى محمد) ، ويردُّ الأمر إلى الوحي الالهي ، والتوجيه الربانيّ العلوي.

إن نظرية الوحي النفسيّ وتجليّ الشخصية الباطنية التي طلع بها الماديون في عصرنا ما هي في الحقيقة إلا غطاء لمزعمة المشركين وتهمة الجنون والخيال ، التي سبق أن رمى بها أعداء الرسالة الإسلامية ومعارضوها النبي ﷺ تلك التهمة التي يذكرها القرآن الكريم بقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » (٢).

وهي تهمة كان يوجهها المعارضون دائماً إلى المصلحين وأصحاب الرسالات (٣) وقد اتخذت هذه التهمة صبغة علمية جديدة ، وتبلورت في نظرية : « الوحي النفسيّ ، وتجليّ الشخصية الباطنية ». ان القرآن الكريم يرد على هذه المزاعم والتصورات الباطلة حول عملية الوحي ومسألة النبوّ ويرد على نسبة الكهانة وماشابه ذلك كالخبر المنقول عن اهل السير بمحاولة القاء النبي نفسه من شاهق في بداية الوحي البذي يشبه نسبة الجنون إليه ﷺ إذ يقول تعالى : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَىٰ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمِيمِينِ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ

١ - النجم : ١ - ٥ .

٢ - الحجر : ٦ ، وايضاً راجع الآيات التالية : سبأ : ٨ ، الصافات : ٣٦ ، الدخان : ١٤ ، الطور : ٢٩ ، القلم : ٢ ، التكوير : ٢٢ .

٣ - إذ يقول القرآن في هذا الصدد : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ. أَتَوَصَّوْ بِهٖ بَلْ لَمْ يَكُنْ طَآغُوتٌ » (الذاريات : ٥٢ و ٥٣) .

تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ»^(١).

بهذا البيان تبيّن بطلان هذا التفسير وجميع التفاسير الأخرى التي تحاول إعطاء (الوحي) طابعاً مادياً مألوفاً ، شأنه شأن غيره من الظواهر الغيبية ، ونحن استكمالا لهذا البحث نشير إلى ما هو الحق في هذا المجال ، مما يؤيد الواقع والعقل والدين :

ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين :

لا شك أن حياة كل فرد من افراد الإنسان تبدأ من « الجهل » ثم يأخذ الإنسان بالدخول في مجال العلم شيئاً فشيئاً ، إلى ان تفتح عليه بالتدرج نوافذ على الواقع الخارج عن ذهنه.

فيبدأ الإنسان بالتعرف على الحقائق عن طريق الحواسّ الظاهرية ، ثم على أثر التكامل في جهازه العقليّ والفكري يهتدي إلى الحقائق الخارجة عن مجال الحس واللمس ، فيغدو عقلاً مستدلّياً ، ويقف على طائفة من الحقائق الكليّة والقوانين العلمية.

وربما يظهر بين أفراد النوع الإنساني أصحاب نفوس عالية يقفون عن طريق الإلهام ومن خلال بصيرة خاصة على حقائق وأمر لا يهتدى إليها حتى عن طريق الاستدلال والبرهنة! ومن هنا قسّم العلماء ادراك البشر إلى ثلاثة أنواع : « إدراك العامّة » « إدراك المفكرين وأرباب الاستدلال » « إدراك العرفاء واصحاب البصائر والنفوس الكبرى ».

وكأنّ أصحاب الظاهر يستعينون على اكتشاف الحقيقة بالحس ، والمفكرين يستعينون بالاستدلال والبرهنة ، وأصحاب البصائر والمعرفة بالإلهام والاشراق وبالفيض عليهم من العالم الأعلى.

١ . التكوير : ٢٠ - ٢٨ .

ان النوابع في مجال الأخلاق ، وان عقول العلماء الخلافة ، وأفكار الفلاسفة العظيمة كلها تؤيد وتشهد بأن ما يحصلون عليه ، وما يطلعون به على المجتمع البشري مما لم يعرفوه من قبل ما هي الا شرارات مضيئة وملهمة تخطر لهم ، ثم يعمدون إلى تنميتها وبلورتها بالتجربة ، أو بالاستدلال والبرهنة والتأمل.

قنوات المعرفة الثالث :

من هذا الكلام نستنتج أن أمام بني البشر ثلاث طرق للوصول إلى مقاصدهم ؛ فالطريق الأول يستفيد منه جماهير الناس غالباً ، بينما يستفيد طائفة خاصة منهم من الطريق الثاني ، ولا يستفيد من الطريق الثالث إلا أفراد معدودون قلة تكاملت عقولهم ، وتسامت أرواحهم. وهي كالتالي :

١ . الطريق التجريبي والحسي ، والمقصود منه ذلك القسم من الإدراكات والمعلومات الواردة إلى محيط الذهن البشري عن طريق الحواس الظاهرية كالمريئيات ، والمشمومات والمطعمومات وغيرها مما يستقر في محيط إدراكنا بواسطة الأجهزة المختصة بها. وقد استطاع البشر اليوم ، وبفضل اختراع التلسكوبات والميكروسكوبات واجهزة التلفاز والراديو ان يقدم خدمة كبرى للبشرية في مجال الإدراكات الحسية ويمهّد لمزيد من سيطرتها على البعيد والقريب.

٢ . الطريق التعقلي الإستدلالي : فان المفكرين يتوصّلون إلى كشف طائفة من القوانين الكلية الخارجة عن الحس عن طريق عملية التفكير والتأمل وتشغيل جهاز العقل ، وإقامة سلسلة من المقدمات البديهية الواضحة ، وبذلك يمكن الوصول إلى قمم المعرفة والكمال العلمي.

إنّ انكشاف القوانين العلميّة الكلية ، والمسائل الفلسفية ، والمعارف المرتبطة بصفات الله وأفعاله سبحانه والقضايا المطروحة في علم العقيدة والأديان ناشئ برمته من جهاز العقل ، وحركته ، وناتج من عملية التفكير ، والإستدلال المذكورة.

٣ . طريق الإلهام : وهذا هو الطريق الثالث لمعرفة الحقائق ، وهو فوق نطاق

الحس والتعقل.

إنه نوعٌ جديدٌ من المعرفة ونمطٌ متميِّز من إدراك الحقائق ، ليس محالاً من وجهة نظر العلم وان كان يصعبُ على أصحاب الاتجاه الماديّ القبول به لكونه طريقاً غير حسي ولا تعقلي .
وأما من جهة الأصول العلمية فلا مجال لإنكاره ، ولا مبرر لعدّه من المحالات .
ان طريق التعرّف على حقائق الكون الخارج عن الذهن . في منهج الماديين ، وأصحاب النزعة المادية . ينحصر في قناتين لا أكثر ، وهما اللذان سبق ذكرهما ، في حين أنّ هناك . حسب نظرة الأديان والشرائع الكبرى وحسب نظرة الفلاسفة والعرفاء الالهيّين . قناة ثالثة أيضاً .

بل إنّ هذا الطريق الثالث . كما أسلفنا في مسألة الوحي . أكثر واقعية ، وأقوى أسساً ، وأوسع آفاقاً عند من يدعون الرسالة ، والنبوة من جانب الله سبحانه ، وإن نفوس أولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاء وطراوة بفضل هذا الطريق ، وفي ضوء هذه القناة .
وكلمًا حصل إرتباط بين الله ، وبين فرد من أفراد النوع الإنساني على نحو خاص ألقيت الحقائق في وجوده من دون توسط الحواس الظاهرية ، وإعمال الفكر ، واستخدام جهاز العقل .

وهذا النوع من الإلقاء يسمى حيناً بالالهام ، وبالاشراق حيناً آخر .
ولكن كلما نتج من إرتباط الإنسان بما وراء الطبيعة سلسلة من التعاليم العامّة والأنظمة والبرامج الشاملة أُطلق على هذا النوع من الإلقاء عنوان (الوحي) ، وسمّي الآتي بها (ملك الوحي) والآخذ لها (نبياً) .
هذا وقد يوجب الإلهام الثقة والاطمئنان للملهم إليه ، ولكنته لا يمكن أن يكون مبعث الإطمئنان والثقة عند الآخرين ^(١) .

١ . وإنما قلنا « قد » أي يمكن أن يوجب الاطمئنان ولم نقطع بذلك لأن مصدر هذه الالهامات

من هنا اعتبر العلماء « الوحي » الطريق المطمئنة الوحيدة إلى المعرفة العامة ... الوحي الذي ينزل على الانبياء الذين ثبتت نبوتهم بالدلائل القاطعة ، من المعجزة وغيرها.

أنواع الوحي واصنافه :

إن في مقدور الروح الإنسانية بسبب ما تملك من كمالات أن تتصل بالعوالم الروحانية من الطرق المختلفة ، ونحن هنا نشير إلى هذه الطرق التي جاء ذكرها في أحاديث قادة الإسلام وائمه ، باختصار :

١ . تارة يتلقى الحقائق السماوية العليا على نحو الالهام ، فيتخذ ما يتم إلقاؤه في النفس عبر هذا الطريق حكم (العلوم البديهية) التي لا يتطرق إليها أي ريب وشك.

٢ . وقد يسمع عبارات وكلمات من جسم معين (كالجبل والشجرة) كسماع موسى عليه السلام كلام الله من الشجرة.

٣ . وربما تنكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشاف النهار.

٤ . وقد ينزل عليه ملك من جانب الله بكلام خاص.

وقد نزل القرآن الكريم على النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الطريق ، وقد صرح القرآن الكريم نفسه بهذا عند قوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »^(١).

أساطير مختلفة :

لقد كتب المؤرخون والكتاب عن حياة كثير من الشخصيات العالمية ، وضبطوا كل

ليست معلومة وواضحة ، ولا يمكن الاعتماد على مطلق الواردات القلبية والفجائية التي لا تستند إلى أصول معلومة.

وبعبارة أخرى : يجب الفصل والتمييز بين الإلهامات الرحمانية والالقاءات الشيطانية بواسطة الموازين العقلية والشرعية.

١ . الشعراء : ١٩٣ . ١٩٥ ، وقد أشير في سورة الشورى الآية ٥١ إلى هذه الطرق الأربع جميعها.

ما جلّ اودقّ في هذا المجال ، وربما تحمّلوا عناء الرحلات الطويلة والأسفار الشاقة لتكميل دراساتهم ، وكتاباتهم .

غير أن التاريخ لا يعرف شخصية مثل رسول الله ﷺ ضبطت تفاصيل سيرته الدقيقة ، واهتم أتباعه وأصحابه ومحّبوه بكل شاردة وواردة في حياته الشريفة .

إنّ هذا الوله الشديد بتسجيل كل شيء . مهما صغر . من حياة النبي الاعظم ﷺ وسيرته العطرة كما ساعد على ضبط جميع الجزئيات والتفاصيل في هذا المجال ، تسبب في بعض الموارد في إصاق بعض الزوائد بحياة النبي الاكرم وشخصيته العظيمة ، الطاهرة . ومثل هذا لا يبعد عن المحبّين الجهلاء فكيف بالأعداء الألداء العارفين .

من هنا يتعين على كل مؤلف يكتب عن سيرة شخصية من الشخصيات أن لا يغفل عن مبدأ (الحذر والإحتياط) في تحليله لحوادثها ، وقضاياها ، فلا يغفل عن تقييم كل ما جاء حولها من روايات وقصص في ضوء الموازين التاريخية الدقيقة . واليك بقية ما جرى في واقعة نزول (الوحي) في حراء :

بقية حادثة نزول الوحي :

استنارت نفس رسول الله ﷺ وروحه الكبرى بنور « الوحي » المبارك ، وتعلّم كل ما ألقى عليه ملك الوحي في ذلك اللقاء العظيم ، وانتقشت تلك الآيات الشريفة في صدره حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة .

وقد خاطبه نفس ذلك الملك بعد تلاوه تلكم الآيات بقوله :

يا محمد ... أنت رسول الله ... وأنا جبرئيل .

وقيل : انه ﷺ سمع هذا النداء عند نزوله من غار حراء وقد اضطرب رسول الله ﷺ لهذين الحديثين ، اضطرب لعظمة المسؤولية الكبرى التي ألقيت على كاهله .

وكان هذا الاضطراب طبيعياً بعض الشيء ، وهو لا ينافي بالمرّة يقينه ﷺ وإيمانه بصدق ما أنزلَ عليه لأن الروح مهما بلغت من العظمة والسّمو والقوة والصلابة ، ومهما كانت قوة ارتباطها بعالم الغيب ، وبالعواالم الرّوحانية العُليا فإنّها عندما تواجه لأول مرّة ملكاً لم تره من قبل ، وذلك في مثل المكان الذي التقى النبيّ (فوق الجبل) لأبَد أن يحصل لها مثل هذا الاضطراب ، ولهذا زال ذلك الاضطراب عن رسول الله ﷺ في ما بعد.

ثم إن الاضطراب والتعب الشديد قد تسبّب في أن يتوجه النبيّ ﷺ إلى بيت « خديجة » ﷺ ، وعندما دخل بيتها ووجدت على ملامحه آثار الاضطراب والتفكير سألته عن ما جرى له ، فحدّثها بكل ما سمع وراى وقصّ عليها ما كان من أمر جبرئيل معها ، فعظّمت « خديجة » ﷺ أمره ، ودعت له ، وقالت : إبشر فوالله لا يجزيك الله أبداً.

ثم إن النبيّ ﷺ الذي كان يشعر بالجهد والتعب قال لزوجه الوفيّة « خديجة » : دثّرني ... دثّرني.

فدثّره ، فنام بعض الشيء.

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل :

لقد تحدّثنا في الصفحات الماضية عن « ورقة » وقلنا أنّه كان ممن تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل وكان ابن عم خديجة.

فعند ما سمعت « خديجة » زوجة النبيّ ﷺ ما سمعته منه انطلقت إلى « ورقة » لتخبّره بما سمعته من زوجها الكريم ، وشرحت له كلّ شيء مما جرى له مع جبرئيل.

فقال « ورقة » في جواب ابنة عمه : إن ابن عمك لصادق ... وإن هذا لبدء النبوة ، وانه ليأتيه ناموس الاكبر (أي الرسالة والنبوة)^(١).

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٩٥ .

إن ما ذكرناه إلى هنا هو في الحقيقة ملخص الروايات التاريخية المتواترة التي وصلت إليها ،
والتي دُنت في جميع الكتب .

بيد أننا نلاحظ بين ثنايا هذه الحادثة أموراً لا تتفق مع ما نعرفه من أنبياء الله ورُسُلِهِ
العظام ، كما أنها لا تتفق مع ما قرأناه إلى الآن عن حياة هذا النبي العظيم ﷺ .
وما سنذكره الآن من هذه الزوائد إما يجب اعتباره من قبيل الاساطير التاريخية ، أو أن
علينا تأويله بنوع من التأويل .

وإنا لنعجب قبل كل شيء من المفكر المصري الدكتور « هيكل » كيف سمح لنفسه وهو
الذي تحدث في مقدمة كتابه عن مشكلة تسرب الاساطير إلى التاريخ النبوي ، وقال : بأن
هناك من دسَّ في السيرة النبوية ، عن عداوة أو جهل ، بعض الاكاذيب .

ولكنه مع ذلك ينقل هنا أموراً لا أساس لها من الصحة أبداً ، في حين اعطى فريقتي من
علماء الشيعة . كالمرحوم الطبرسي . ملاحظات مفيدة في هذا الصعيد .

وإليك في ما يلي بعض هذه الاساطير والقضايا المختلفة ، على أنها لم تكن جديدة
بالإشارة ابدأً لولا أن بعض المحبين الجهلاء ، والأعداء الأذكياء ذكروها في كتبهم ، وكرروها
في دراساتهم .

١ . قالوا : إنَّ النبي ﷺ عند ما دخل منزل خديجة ، كان يفكر في نفسه : لعل بصره
خدعته ، أو انه كاهن ، أوفيه جنون!!

ولكن لما قالت له خديجة : « انَّ الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ، إنك تصدق
الحديث ، وتؤدِّي الأمانة ، وتصلُّ « الرحم » اطمأنَّ ، وزال عنه الشكُّ والتردد ، والقى
على « خديجة » نظرَ شكر ومودة ، ثم طلب أن يُرْمَل ، فرمِلَ فنام!!^(١) .

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٩٥ ، حياة محمد : ص ١٣٤ .

٢ . يقول الطبري وغيره من مؤرخي السيرة : ان النبي ﷺ لما سمع نداء يقول : « يا محمد أنت رسول الله » أصابته خوفٌ شديدٌ حتى أنه همَّ بان يطرح نفسه من أعلى الجبل ، فتبدى له (ملك الوحي) ومنعه عن ذلك!!!

٣ . ثم إنَّ النبي ﷺ ذهب ليطوف بالكعبة بعد ذلك اليوم ، فرأى « ورقة بن نوفل » وشرح لورقة ما جرى له مع جبرئيل ، فقال له ورقة :

« والذي نفسي بيده ، إنَّك لنبيٌّ هذه الأمة ، وقد جاءك الناموسُ الأكبرُ الذي جاء موسى ولشكذبته ، ولتؤذنبه ولتخرجنه ولتقاتلنه » فأحس « محمد » بأن ورقة يصدقه ، فاطمأن^(١) .

بُطلان هذه المزاعم :

إن الذي نتصوره هو أن جميع هذه القصص مختلفة من الاساس ، وقد دُست في التاريخ والتفسير عن قصد وهدف ، أو دخلت فيهما عن غير ذلك .

وذلك :

أولا : لأننا لتقييم هذه المزاعم يجب ان نلقي نظرة فاحصة إلى تاريخ الأنبياء الماضين وسيرهم .

إن القرآن الكريم قصَّ علينا قضاياهم ، وسيرهم ، وقد وردت في هذا المجال روايات وأخبار كثيرة .

وإننا لا نجد أي أثر لمثل هذه القصص المشينة في حياة أي واحد منهم .

إن القرآن الكريم يقص علينا قصة بدء نزول (الوحي) على « موسى » بشكل كامل ويبين جميع التفاصيل في قصته ﷺ ولا يذكر أي شيء من الخوف ، والارتعاش ، والوحشة والفرع ، بحيث يحدت نفسه بالإنتحار على أثر سماع الوحي!! مع أن أرضية الخوف والفرع في مجال « موسى » كانت متوفرة

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٣٨ .

أكثر ، لأنه سمع في ليلة ظلماء وهو في صحراء خالية نداء من الشجرة يخبره بأنه نبي مرسل .
ولكن موسى . كما يصرح القرآن الكريم ، بهذه الحقيقة . حافظ على هدوئه ، وسكونه ،
وعندما خاطبه الله تعالى بقوله : « أن ألق عصاك » القاها من فوره ، وكان خوفه من ناحية
العصى التي تبدلت إلى ثعبان مخيف ، لا من جهة الايحاء إليه .

فهل يمكن ، أو يجوز لنا أن نقول : كان « موسى » لحظة الوحي إليه مطمئنا هادئا
ساكناً ، ولكن أفضل الانبياء والمرسلين اضطرب عند سماع كلام الملك ، وفتح إلى درجة فكر
في طرح نفسه من أعلى الجبل؟! هل هذا كلام معقول؟!

لا ريب أن روح محمد ﷺ ما لم تكن مهياًة من جميع الجهات وبصورة كاملة لتلقي
السر الالهي (النبوة) لا يمكن أن يمن عليه الرب الحكيم بمنصب النبوة ، ويختاره لمقام الرسالة
، لأن الهدف الجوهرى من ابتعاث الرسل ، وارسال الانبياء هو هداية الناس وارشادهم .
ومن كان كذلك من حيث ضعف الروح ووهن النفس بهذه المرتبة بحيث يحدث نفسه
بالإنتحار خوفاً (١) وفتحاً كيف يمكن ان ينفذ إلى نفوس الناس ويؤثر فيهم؟!

ثانياً : كيف يمكن أن يطمئن موسى بمجرد سماعه للنداء الالهي إلى أنه صادر من جانب
الله ، فطلب من ربه من فوره أن يجعل أخاه هارون وزيراً له لأنه أفصح منه قولاً (٢) بينما لا
يطمئن سيد المرسلين وخاتمهم؟!

ثالثاً : لقد كان « ورقة » مسيحياً حتماً ، ولكنه عند ما أراد أن يزيل عن « محمد »
الشك والاضطراب ذكر نبوة « موسى » ﷺ وقال : قد جاءك الناموس الذي جاء موسى
(٣) .

١ . كما نقل هيكلم في كتابه : « حياة محمد » .

٢ . طه : ٢٩ .

٣ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٣٨ وقد نقل المرحوم المجلسي هذه العبارة عن المنتقى ولكنه بلفظة

ألا يدلُّ هذا على أن ثمة يدا اسرَائِليَّة وراء هذه الحبكة هي التي صاغت هذه القصة واختلقتها في غفلة عما كان يدين به « ورقة » بطل القصة؟!

كل هذا بغص النظر عن أن مثل هذه الأمور تتنافى والعظمة التي نعهد لها من النبي ﷺ ، ولا تنسجم معها أبداً ، ويبدو أن كاتب « حياة محمد » أدرك إلى درجة ما خرافية هذه القصة ولذلك نجده ينقل بعض مواضيعها بعد جملة : « كما يقولون » .

وقد حارب ائمة الشيعة هذه الاساطير بكل قوة ، وأبطلوها برمتها .
فعندما يسأل زارة الإمام الصادق عليه السلام مثلاً : كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله ان يكون مما ينزغ به الشيطان :
قال الإمام عليه السلام : « إنّ الله إذا اتخذ عبداً ورسولاً ، أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله عز وجل مثل الذي يراه بعينه » ^(١) .

ويقول العلامة الشيعي الكبير المرحوم الطبرسي في تفسيره ، في هذا الصدد :
« إن الله لا يوحى الى رسوله إلا بالبراهين النهر والآيات البينة الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى ، فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع ، ولا يفترق » ^(٢) .

« عيسى » أيضاً ولكن لا وجود لذلك في صحيح البخاري وسيرة ابن هشام اللذين هما الأساس لهذه الامور .
١ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٦٢ وفي الكافي : ج ١ ، ص ٢٧١ نظيره .
٢ . مجمع البيان : ج ١٠ ، ص ٣٨٤ .

متى نزل الوحي أولاً؟

لقد تعرّف يوم مبعث رسول الإسلام ﷺ للاختلاف من حيث التعيين والتحديد فهو مثل يوم ولادته ويوم وفاته ﷺ غير مقطوع به ، من وجهة نظر المؤرخين وكتاب السيرة النبوية .

فلقد اتفق علماء الشيعة على القول بان رسول الله ﷺ بُعث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب ، وأن نزول الوحي عليه قد بدأ من ذلك اليوم نفسه . بينما اشتهر عند علماء السنة أن رسول الإسلام قد وُلِّيَ هذا المقام العظيم في شهر رمضان المبارك .

ففي ذلك الشهر الفضيل كُفِّ « محمد » ﷺ من جانب الله تعالى بمداية الناس ، وُبُعث بالرسالة .

ولما كانت الشيعة تشايح عترة النبي ﷺ وأهل بيته الصادقين ، وتعتقد بصحة ما يروونه ويقولون به اتباعاً لقول رسول الله ﷺ فيهم ، في حديث الثقلين : « إنهما لن يفترقا » فأنهم اتبعوا . في تحديد يوم المبعث النبوي الشريف . القول المأثور . بنقل صحيح . عن عترة النبي المطهرين في

هذا المجال .

فقد روي عن أبناء الرسول وعترته الطاهرة أن عظيم هذا البيت وسيده (أي النبي) قد بُعثَ في السابع والعشرين من شهر رجب ، وهم في ذلك حجة .
ولهذا لا يمكن الشك والتردد في صحة هذا القول وثبوته ^(١) .

نعم غاية ما يمكن الاستدلال به على القول الآخر هو تصريح القرآن الكريم نفسه بأن آيات القرآن نزلت في شهر رمضان ، وحيث أن يومَ بعثة النبي ﷺ كان هو بنفسه يوم بدء نزول الوحي ، والقرآن عليه ، لهذا يجب القول بان يوم البعثة الشريفة انما كان في نفس الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم : اي شهر رمضان المبارك .

واليك فيما يأتي الآيات التي تدل على أن القرآن الكريم نزل في شهر رمضان :

١ . « شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » ^(٢) .

٢ . « حَمِّمَ . مَلَكَتَابِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ » ^(٣) وتلك الليلة هي ليلة القدر

التي قال عنها سبحانه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » ^(٤) .

ما أجاب به علماء الشيعة :

ولقد أجاب محدثو الشيعة ومفسروهم عن هذا الاستدلال بطرق مختلفة نذكر طائفة منها

هنا :

الجواب الأول :

إن الآيات المذكورة إنما تدل على أن القرآن نزل في شهر رمضان وبالذات في ليلة مباركة منه هي « ليلة القدر » ، ولكنها لا تتعرض لذكر محلّ نزول هذه

١ - راجع بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ١٨٩ .

٢ - البقرة : ١٨٥ .

٣ - الدخان : ٣ - ١ .

٤ - القدر : ١ و ٣ .

الآيات ، وأنها أين نزلت؟ وهي بالتالي لا تدل أبداً ومطلقاً على أنها نزلت في تلك الليلة على قلب رسول الله؟

فيحتمل أن يكون القرآن نزولات متعددة إحداها نزول القرآن على رسول الله تدريجاً. والآخر نزوله الدفعي من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور^(١).

وعلى هذا فما المانع من ان تكون بعض آيات القرآن (من سورة العلق) قد نزلت على النبي ﷺ في السابع والعشرين من شهر رجب. ثم نزل القرآن بصورته الجمعية الكاملة في شهر رمضان من مكان معين أسماه القرآن باللوحة المحفوظ ، إلى موضع آخر عبّر عنه في بعض الروايات بالبيت المعمور.

ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى في سورة الدخان : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ » فإنّ هذه الآية . بحكم رجوع الضمير فيها إلى الكتاب . تصرح بأن الكتاب العزيز بأجمعه نزل في ليلة مباركة (في شهر رمضان) ، ولا بدّ أنّ يكون هذا النزول غير ذلك النزول الذي تحقق في يوم المبعث الشريف ، لأن في يوم المبعث لم تنزل سوى آيات معدودة لا أكثر.

وخلاصة الكلام هي ان الآيات التي تصرح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليلة مباركة (ليلة القدر) لا يمكن أن تدل على أن يوم المبعث الذي نزلت فيه بضع آيات أيضاً كان في ذلك الشهر نفسه ، لأنّ الآيات المذكورة تدل على أن مجموع القرآن لا بعضه قد نزل في ذلك الشهر ، في حين لم تنزل في يوم المبعث سوى آيات معدودة كما نعلم.

وفي هذه الصورة يحتمل أن يكون المراد من النزول الجمعي للقرآن هو نزول مجموع الكتاب العزيز في ذلك الشهر من « اللوح المحفوظ » إلى « البيت المعمور ».

وقد روى علماء الشيعة والسنة روايات وأخباراً بهذا المضمون ، وبخاصة

١ . للتعرف على معنى اللوح المحفوظ راجع كتب التفسير .

الاستاذ الأزهري محمد عبدالعظيم الزرقاني الذي أورد روايات عديدة في هذا الصدد في كتابه (١).

الجواب الثاني :

وهو أمتن الاجوبة والردود على هذا القول. فقد بذل الاستاذ الطباطبائي جهدا كبيرا لتوضيحه وبيانه في كتابه القيم ؛ واليك خلاصته :

يقول العلامة الطباطبائي : إن قول الله تعالى إنا أنزلناه في شهر رمضان ، المقصود منه هو نزول حقيقة القرآن على قلب النبي ﷺ ، لأن للقرآن مضافاً إلى وجوده التدريجي ، واقعية اطلع الله تعالى نبيه العظيم عليها في ليلة معينة من ليالي شهر رمضان المبارك (٢).
وحيث أن النبي الاكرم ﷺ كان قد عرف من قبل بجميع القرآن الكريم لذلك نزلت الآية تأمره بان لا يعجل بقراءته حتى يصدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً إذ يقول تعالى : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » (٣).

وخلاصة هذا الجواب هي : أن للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً وهو الذي نزل على الرسول الكريم ﷺ مرة واحدة في شهر رمضان ، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبي ﷺ في يوم المبعث ، واستمرّ تنزله إلى آخر حياته الشريفة على نحو التدرج.

الجواب الثالث : التفكيك بين نزول القرآن والبعثة

إن للوحي . كما أوضحنا ذلك في مبحث أنواع الوحي اجمالاً . مراتب

١ . مناهل العرفان في علوم القرآن : ج ١ ، ص ٣٧ .

٢ . الميزان : ج ٢ ، ص ١٤ - ١٦ .

٣ . طه : ١١٤ .

ومراحل ، يتمثل أول مراتبه في الرؤيا الصادقة التي رآها رسول الله ﷺ .
والمرتبة الأخرى تمثلت في سماع النداء الغيبي الالهي من دون وساطة ملك .
وآخر تلك المراتب هو أن يسمع النبي كلام الله من ملك يبصره ويراه ، ويتعرف عن طريقه على حقائق العوالم الأخرى .

وحيث أن النفس الإنسانية لا تستطيع في الوهلة الأولى تحمُّل مراتب (الوحي) جميعها دفعة واحدة بل لا بدّ أن يتحملها تدريجاً ، لهذا يجب القول بأنّ النبي ﷺ قد سمع يوم المبعث (اليوم السابع والعشرون من شهر رجب) النداء السماوي الذي يخبره بأنه رسول الله ، فقط ولم تنزل في مثل هذا اليوم آية آية قط ، وقد استمر الأمر على هذا المنوال مدة من الزمان . ثم بعد مدة بدأ نزول القرآن الكريم على نحو التدرج ابتداء من شهر رمضان .
وخلاصة هذا الجواب هي أن ابتعث الرسول ﷺ بالرسالة في شهر رجب لا يلزم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً .

وعلى هذا الأساس ما المانع من ان يُبعث رسول الله ﷺ في شهر رجب ، وينزل القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس ذلك العام؟

ان هذه الاجابة وإن كانت لا توافق كثيراً من النصوص التاريخية (لأن كثيراً من المؤرخين صرّحوا بأن الآيات الخمس من سورة العلق نزلت في يوم المبعث نفسه) إلا أن هناك . مع ذلك . روايات ذكرت قصة البعثة بسماع النبي ﷺ للنداء الغيبي ، ولم تذكر شيئاً عن نزول قرآن أو آيات ، بل هي تشرح الواقعة على النحو التالي إذ تقول :

في ذلك اليوم سمع رسول الله ﷺ ملكاً يقول له : يا محمد إنّك لرسول الله ، وجاء في بعض الأخبار أنه سمع هذا النداء ، فقط ، ولم تذكر شيئاً عن مشاهدة الملك .
وللمزيد من التوضيح ، والتوسع يُراجع « البحار » في هذا المجال ^(١) .

١ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ١٨٤ و ١٩٠ و ١٩٣ و ٢٥٣ ، الكافي : ج ٢ ، ص ٤٦٠ ، تفسير العياشي : ج ١ ،

على أن هذه الاجابة تختلف عن الإجابة الرابعة التي تقول بأن مبعث النبي ﷺ كان في شهر رجب ، وكان نزول القرآن الكريم بعد انقضاء الدعوة السرية التي استغرقت ثلاثة أعوام.

الانبياء والبطارة برسول الله :

وينبغي . استكمالا لهذا الفصل من التاريخ النبوي . ان نلفت نظر القارئ الكريم إلى ان الرسالة المحمدية المباركة ، مما بشر به جميع الانبياء المتقدمين زمنياً على خاتم الانبياء والمرسلين محمد ﷺ .

ولقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك إذ قال الله تعالى : « وَذَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُبْشِرٌ لِمَا مَعَكُمْ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَكَلْتَنُصْرَتَهُ قَالَ أَوْفِرْتُمْ وَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرْنَا قَالَ فاشْهَدُوا وَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (١) . وهذه الآية وإن كانت تكشف عن أصل عام وكلبي وهو : وجوب تصديق إتباع النبي السابق للنبي اللاحق ، إلا أن المصداق الأتم لها هو رسول الإسلام الكريم.

فيظهر من هذه الآية أن الله تعالى أخذ الميثاق المؤكد من جميع الانبياء أو من أصحاب الشرائع منهم أن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ، ويدعوا أتباعهم إلى تصديقه واتباعه ونصرته. روى الفخر الرازي عن اميرالمؤمنين علي عليه السلام :

« إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومؤمن بعده من الانبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه » (٢) . ومما يؤيد هذا ان القرآن دعا اهل الكتاب إلى بيان ما قرأوه ووجدوه في

ص ٨٠ وهذا الجواب لا ينسجم مع ما رواه البخاري من أن بعثة النبي رافقت نزول آيات من سورة العلق عليه.

١- آل عمران : ٨١.

٢- مفاتيح الغيب : ج ٢ ، ص ٥٠٧.

بِالْبَيِّنَات قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» (١).

كما يتحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين تنكروا لرسالة النبي محمد ﷺ عندما بُعث وقد كانوا من قبل يخبرون عنه ويطلبون النصر به على أعدائهم إذ قال سبحانه : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٢).

بل ويخبرنا القرآن الكريم بأنَّ إبراهيم عليهما السلام يوم أحل زوجته وولده اسماعيل بارض مكة دعا قائلاً : « رَبَّنَا وَبَعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٣).

وقد انطبقت هذه الأوصاف على رسول الله ﷺ إذ يصفه القرآن الكريم بقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » (٤).

محمد خاتم الانبياء :

واستكمالاً لهذا البحث ينبغي أيضاً أن نشير إلى أبرز ناحية في رسالة النبي محمد ﷺ ونبوته وهي مسألة الخاتمية.

فان القرآن الكريم صرح في آيات عديدة بكون رسول الله محمد ﷺ خاتم النبيين ، وشريعته خاتمة الشرائع ، فلا نبي بعده ، ولا رسالة بعد رسالته.

١ . الصف : ٦ .

٢ . البقرة : ٨٩ .

٣ . البقرة : ١٢٩ .

٤ . آل عمران : ١٦٤ .

وها نحن ندرج ابرز الآيات الواردة في هذا المجال :

١ . قال تعالى : « لَمْ يَلِكْ مِنْ يَدٍ بِأَحَدٍ مِنْ جَلِيلِكُمْ ° كُنْ سِرُّهُ لَكَ اللَّهُ خَلَّمَ النَّبِيِّينَ ° وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » (١) .

٢ . قال سبحانه : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » (٢) .

٣ . وقال سبحانه : « هُوَ حَيُّ إِلَهِي هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنَّكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » (٣) .

٤ . وقال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (٤) .

والآيات الثلاث الأخيرة تفيد بأن رسالة النبي محمد ﷺ عامة وعالمية وأبدية لأنه في غير هذه الحالة وفي غير هذه الصورة لن يكون نبياً للناس كافة ، وللعالمين جميعاً. ولن يكون نذيراً لقومه ولن بلغه نداؤه.

هذا وقد صحَّ النبي ﷺ نفسه في أحاديث كثيرة بهذا الموضوع وهو الصادق المصدَّق .

فعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ :

«رَأْسُ سُلْتِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَبِي خُتْمِ النَّبِيِّينَ» (٥) .

١ . الأحزاب : ٤٠ .

٢ . الفرقان : ١ .

٣ . الانعام : ١٩ .

٤ . سبأ : ٢٨ .

٥ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٢٨ .

ما سَبَقني أحد

أول من آمن بالنبي من الرجال والنساء :

لقد انتشر الإسلام في العالم بصورة تدريجية ، ويوصف الذين بادروا إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية والمساعدة على نشرها قبل غيرهم بـ « السابقين » .

وقد كان السبق إلى الإيمان برسول الله ﷺ في صدر الإسلام معيارا للفضل ولهذا يجب أن ندرس هذا الموضوع في ضوء المصادر الصحيحة ، ونتعرف على من سبق إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية من الرجال ، ومن النساء .

من النساء : « خديجة »

إن من المسلم به تاريخيا أن « خديجة » كانت أول امرأة آمنت برسول الله ﷺ ، ولم يخالف في هذا أحد ،^(١) ونحن هنا ننقل مستندا تاريخيا مهما واحدا ذكره المؤرخون نقلا عن إحدى زوجات النبي ﷺ ، مكتفين به رعاية للاختصار .

تقول عائشة : ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على « خديجة » وإني لم أدركها ، وقد كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٤٠ .

من البيت حتى يذكر « خديجة » فيحسن الشئاء عليها ، فذكرها يوماً من الايام فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلاّ عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها ، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال :

« لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها اولاداً إذ حرمني اولاد الناس »^(١).

ومما يدل أيضا على سبق خديجة في الإيمان برسول الله كل نساء العالم جمعاء ما جرى في قضية بدء الوحي ، ونزول القرآن ، لأن النبي ﷺ عندما انحدر من غار « حراء » واخبر زوجته « خديجة » بما جرى له واجهه . رأساً . إيمان زوجته به وقبولها لكلامه ، وتصديقها برسالته ، تصريحاً وتلويحاً.

هذا مضافاً إلى أنها كانت قد سمعت من قبل أخباراً تتعلق بنبوته ومستقبل رسالته من كهنة العرب وأهل الكتاب ، وهذه الأخبار وامانة فتى قريش وصدقه الذي اشتهر به هي التي دفعت بها إلى أن تتزوج بالفتى الهاشمي (محمد) .

أقدم الرجال اسلاما : « علي »

إن المشهور المقارب للمتفق عليه بين المؤرخين ، سنة وشيعة ، هو أن « عليا » كان اول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال .

ونرى في مقابل هذا القول المشهور أقوالا اخر نادرة قد نقلناقلوها ما يخالفها أيضا : فمثلا يقال : إن زيد بن حارثة ربيب رسول الله وابنه بالتبني ، أو أبو بكر كان أول من أسلم ، ولكن دلائل عديدة (نذكر بعضها هنا على سبيل الاختصار) تشهد على خلاف هذين القولين .

١ . صحيح مسلم : ج ٧ ، ص ١٣٤ ، صحيح البخاري : ج ٥ ، ص ٣٩ ، اسد الغابة لابن الأثير الجزري : ج ٥ ، ص ٤٢٨ ، بحار الأنوار : ج ١٦ ، ص ٨ .

واليك بعض هذه الدلائل :

١ . علي تربي في حجر النبي

لقد تلقى علي عليه السلام تربيته في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونشأ وترعرع في بيته منذ طفولته ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في تربيته والعناية به كالوالد الرحيم .

قال عامة المؤرخين وكتاب السيرة بالاتفاق : إن قريشا أصابتهم أزمة شديدة (قبل بعثة النبي) وكان أبو طالب ذاعيل كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله ، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكفهما عنه ، فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه (إلى أن قال :) فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرأ فضمه إليه فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا فاتبعه علي رضي الله عنه وآمن به وصدقته ^(١) .

في هذا الصورة يجب أن نقول بأن عليا عليه السلام انتقل إلى بيت النبي وهو دون الثامنة ، لأن الغرض من أخذ النبي إياه من أبيه « أبي طالب » هو التخفيف عن كاهل زعيم مكة (أبي طالب) ، ومن الواضح أن صبيأ في مثل هذا السن (دون الثامنة) مضافا إلى أن فصله عن والديه أمر في غاية الصعوبة ، لن يكون لأخذه وتكفله أي أثر هام في وضع أبيه (أبي طالب) المعيشي .

وعلى هذا يجب أن نفترض له عليه السلام عمرا يكون لأخذه فيه من قبل النبي تأثيرا معتدا به في وضع أبيه الإقتصادي والمعيشي .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٤٦ ، البداية والنهاية : ج ٢ ، ص ٢٥ .

فكيف يمكن القول . والحال هذه . أن اباعد عن البيت النبوي مثل « زيد بن حارثة » وغيره اطلعوا على أسرار الوحي ، بينما جهل ابن عم النبي ﷺ واقرب الناس إليه والذي كان معه في اكثر الأوقات بما أتى به ﷺ وما نزل عليه .

إن غرض النبي ﷺ من تربية الإمام علي وتكفله إياه كان إلى حد كبير هو أداء ما أسدى إليه أبو طالب من خدمات ، ولم يكن ثمة شيء أحب إلى رسول الله من أن يهدي أحدا إلى الصراط المستقيم ، فكيف يمكن أن يقال . والحال هذه . أن رسول الله ﷺ حرم ابن عمه الذي كان يتمتع بذكاء باهر وضمير يقظ ، من هذه النعمة الكبرى .

إن من الأفضل أن نسمع هذا الأمر من لسان « علي » نفسه ، فقد بين علي في الخطبة القاصعة منزلته من رسول الله ﷺ وقربه إليه هكذا :

« ولقد علمتم موضعي من رسول الله بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعتني في حجره وأنا وليد ، يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويمسني جسده ، ويضمني عرقه (عرقه) ... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به ، ولقد كان يجاورني في كل سنة بجراة فاراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيتاً واحداً يومئذ في الإسلام غير رسول الله ، وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسل وأشم ريح النبوة » (١) .

وجاء في تاريخ الطبري عن ابن اسحاق قال : كان اول ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصعد بما جاءه من عند الله « علي بن ابي طالب » وهو يومئذ ابن عشر سنين ، وكان مما انعم الله به على علي بن ابي طالب ﷺ انه كان في حجر رسول الله ﷺ

١ . نهج البلاغة : ج ٢ ، ص ١٨٢ ، وفي هذه الخطبة نفسها يقول : اللهم سي ولي بن فل سريع وجاب لم يسبقني إلا رسول الله بالصلاة .

قبل الإسلام^(١).

٢ . عليٌ وخديجة يقيمان الصلاة مع النبي :

ينقل ابن الاثير في « أسد الغابة » ، وابن حجر في « الإصابة » عند ترجمة « عفيف الكندي » وكثير من علماء التاريخ القصة التالية عنه ، بأنه قال :

كنت إمراً تاجراً فقدمت « منى » أيام الحج ، وكان العباس بن عبد المطلب امراً تاجراً فأتيته أبتاع منه وابعه ، قال : فبينما نحن إذ خرج رجل من خباء يصلي فقام تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلي ، وخرج غلام يصلي معه ، فقلت : يا عباس ما هذا الدين ، إن هذا الدين ما ندري به؟ فقال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته « خديجة بنت خويلد » آمنت به وهذا الغلام ابن عمه « علي بن ابي طالب » آمن به قال عفيف : فليتني كنت رابعهم^(٢).

وهذه الواقعة ينقلها ويرويها حتى الذين يقصرون في رواية فضائل الإمام عليٍّ وكتابتها ، وفي امكان القارئ الكريم ان يقف على هذه القصة في المصادر التالية على وجه التفصيل.

٣ . أنا الصديق الأكبر :

تلاحظ هذه العبارة ونظائرها كثيراً ، في خطب الإمام عليٍّ عليه السلام وكلماته فهو يكرر العبارات التالية بكثرة :

« أنا عبْدُ الله ، وأخو رسول الله ، وأنا الصديقُّ الأكبر ، لا يقولها بعدي الا كاذب مفتر ، ولقد صليتُ معَ رسول الله قبل الناس بسبع سنين ، وأنا أول من

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٥٧ .

٢ . الإصابة : ج ٢ ، ص ٤٨٠ ، تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٥٧ . الكامل : ج ٢ ، ص ٣٧ و ٣٨ . اعلام الوری : ص ٢٥ ، اسد الغابة : ج ٣ ، ص ٤١٤ .

صَلَّى مَعَهُ» (١).

٤ . أَوْلَكُمْ إِسْلَامًا : عَلِي

ولقد وردت أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ وبتعابير متنوعة قال فيها :
« أَوْلَكُمْ وَاوَدًا عَلِيَّ الْحَوْضَ ، أَوْلَكُمْ إِسْلَامًا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ » (٢).

وعند ما يدرس المنصف المحاييد هذه الاحاديث ، يقطع بأسبقية الإمام عليّ إلى الإسلام ، وتقدمه على غيره في الإيمان بالدعوة المحمّدية ، ولا يختار القولين الآخرين اللذين لا يذهب إليهما إلا الأقلية .

فإنّ ما يناهز الستين شخصا من الصحابة والتابعين يؤيدون القول الأوّل (أي أن عليّا أول القوم إسلاما وأقدمهم أيمانا) وحتى الطبريّ نفسه الذي شكك في هذا القول ، واكتفى بنقله دون اختياره وتأكيده ، روى في ج ٢ ، ص ٦٠ بأن « ابن سعد » سال اباہ قائلا :
أكان أبو بكر أولكم إسلاماً ، فقال : لا ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين .

ومن غريب الأمر ان مؤرخا كبيرا كابن كثير يتنكر لهذه الحقيقة الساطعة فقد ذكر في ج ٧ ، ص ٣٣٤ من كتابه « البداية والنهاية » حديثا صحيحا بإسناد الإمام أحمد الترمذي في إسلام أمير المؤمنين وأنه أوّل من أسلم وصلّى ثمّ أردفه بقوله : وهذا لا يصح من اي وجه كان روي عنه ، وقد ورد في أنه أوّل من أسلم من هذه الأئمة أحاديث كثيرة لا يصحّ منها شيء ... إلخ .

وقد تصدى العلامة المحقق الاميني رحمته الله للرد على هذا المقال بالتفصيل ونظرا لأهمية ما كتبه العلامة الاميني وما احتوى عليه من نصوص تاريخية نسرده هنا مع ما فيه من تكرار بسيط لبعض ما ذكرناه .

١ . خصائص النسائي : ص ٣ وسنن ابن ماجه : ج ١ ، ص ٥٧ ، مستدرک الحاكم : ج ١ ، ص ١١٢ ، تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٥٦ وغيرها .

٢ . يراجع مصادر هذا الحديث في الغدير : ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

يقول العلامة الاميني :

سُئِلَ لِمَ ذَا لِحُلِّ ۝ لا يصح شيء منها من أي وجه كان؟! والطرق صحيحة ، والرّجال نقاتٌ ، والحفاظ حكموا بصحّته ، وأرياب السير أطبقوا عليه ، وكان من المتسالم عليه بين الصّحابة الأوّلين والتابعين لهم بإحسان.

ونحن لو نقتصر على كلمتنا هذه يحسبها القارئ دعوى مجرّبة لدّة دعوى ابن كثير (أعاذنا الله عن مثلها) وتخفى عليه جليّة الحال فيهما ذكر نزر ممّا يدلُّ على المدّعى وإن لم يسعنا ايراد كثير منه روما للاختصار.

النصوص النبوية :

- ١ . قال ﷺ : أوّلكم واردا . ورودا . على الحوض أوّلكم إسلاما عليّ بن أبي طالب . أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١٣٦ وصحّحه م . والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ ويوجد في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٧ . شرح ابن أبي الحديد ٣ ، ص ٢٥٨ . وفي لفظ : أوّل هذه الأئمة وروداً على الحوض أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه . السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٥ . سيرة زيني دحلان ١ ص ١٨٨ هامش الحلبية . وفي لفظ : أوّل الناس ورودا على الحوض أوّلهم إسلاما عليّ بن أبي طالب مناقب الفقيه ابن المغازلي . مناقب الخوارزمي .
- ٢ . قال ﷺ لفاطمة : زوّجتك خير أمّتي أعلمهم علماً ، وأفضلهم حلماً وأوّلهم سلماً . راجع ما مرّ ص ٩٥ .
- ٣ . قال ﷺ لفاطمة : إنّه لأوّل أصحابي : إسلاما . أو : أقدم أمّتي سلماً . حديث صحيح راجع ص ٩٥ .
- ٤ . أخذ ﷺ بيد عليّ ، فقال : إنّ هذا أوّل من آمن بي ، وهذا أوّل من يُصافحني يوم القيامة ، وهذا الصديق الأكبر . راجع الجزء الثاني

ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

٥ . عن أبي ايوب قال قال رسول الله ﷺ : لقد صلّت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين لأننا كنّا نصلّي وليس معنا أحد يُصلّي غيرنا .
مناقب الفقيه ابن المغازلي باسنادين م . أسد الغابة ٤ : ١٨ ومناقب الخوارزمي وفيه : لم ذلك يا رسول الله؟ قال : لم يكن معي من الرجال غيره .
كتاب الفردوس للديلمى . شرح ابن أبي الحديد عن رسالة الاسكافي ٣ ص ٢٥٨ . فرائد السمطين الباب ٤٧ .

٦ . ابن عباس قال قال النبي ﷺ : إنّ أوّل من صلّى معي عليّ . فرائد السمطين الباب ٤٧ بأربع طرق .

٧ . معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ : يا عليّ ! اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي ، وتخصم الناس بسبع ولا يُجأحدك فيه أحدٌ من قريش ، أنت أوّلهم إيماناً بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله . الحديث . (حلية الأولياء ١ ص ٦٦) .

٨ . أبوسعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ لعليّ . وضرب بين كتفيه . : يا عليّ لك سبع خصال لا يُجأحك فيهنّ أحدٌ يوم القيامة ؛ أنت أوّل المؤمنين بالله إيماناً ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله . الحديث . (حلية الأولياء ١ ص ٦٦) .

٩ . من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند الشعبي عن رسول الله ﷺ أنّه قال لعليّ عليه السلام : هذا أوّل من آمن بي وصدّقني وصلّى معي . شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦ .
١٠ . إنّ ابابكر وعمر خطبا فاطمة فردّهما رسول الله ﷺ وقال : لم أوّل مر بذلك . فخطبها عليّ فزوّجه إياها وقال لها : زوّجتك أقدم الأُمّة إسلاما . روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم : أسماء بنت عميس ولم يُؤمن وإبن عباس وجابر بن عبد الله . شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٧ .

كلمات اميرالمؤمنين عليه السلام :

١. قال عليه السلام : أنا عبد الله ، وأخو رسول الله ، وأنا الصديق الأكبر ، لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ مفترى ، ولقد صلّيت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين ، وأنا أوّل من صلّى معه .

إسناده من طريق ابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجة والحاكم والطبري (١) صحيح رجاله ثقات ، راجع الجزء الثاني من كتابنا ٣١٤ .

٢. قال عليه السلام : أنا أوّل رجل أسلم مع رسول الله ﷺ .

أخرجه أبو داود بإسناده الصحيح كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ، ص ٢٥٨ .

٣. قال عليه السلام : أنا أوّل من أسلم مع النبي ﷺ .

أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٤ ، ص ٢٣٣ .

٤. قال عليه السلام : أنا أوّل من صلّى مع رسول الله ﷺ .

أخرجه أحمد ، والحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » وقال : رجاله رجال الصحيح غير حبة العربي وقد وثق . وأخرجه أبو عمرو في الإستيعاب ٢ ، ص ٤٥٨ .

وابن قتيبة في « المعارف » ص ٧٤ من طريق أبي داود عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن حبة عنه عليه السلام . والإسناد صحيح رجاله ثقات .

٥. قال عليه السلام : أسلمت قبل أن يسلم الناس بسبع سنين . الرياض النضرة ٢ ص ١٥٨ .

٦. قال عليه السلام : عبدت الله مع رسول الله ﷺ سبع سنين قبل أن يعبده أحد من

هذه الأمة . مستدرک الحاكم ٣ ص ١١٢ .

٧. قال عليه السلام : عن حكيم مولى زاذان قال : سمعت عليًا يقول : صلّيت قبل الناس سبع

سنين ، وكنا نسجد ولا نركع ، وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاة العصر ، شرح ابن أبي الحديد ٣ ، ص ٢٥٨ .

١- في تاريخه ٢ ، ص ٢١٣ .

- ٨ . قال عليه السلام : عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين . الإستيعاب
- ٢ ، ص ٤٤٨ . الرياض النضرة ٢ ، ص ١٥٨ . السيرة الحلبية ١ ، ص ٢٨٨ .
- ٩ . قال عليه السلام : آمنت قبل الناس سبع سنين . خصائص النسائي ص ٣ .
- ١٠ . قال عليه السلام : ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبدَ الله بعد نبينا غيري ، عبدتُ الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين . خصائص النسائي ص ٣ .
- ١١ . من خطبة له عليه السلام يوم صفين : وابن عمّ نبيكم معكم بين أظهركم يدعوكم إلى طاعة ربكم ، ويعمل بسنة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم فلا سواء من صلى قبل كلِّ ذكّر لم يسبقني بصلاحي مع رسول الله . كتاب نصر ص ٣٥٥ . شرح ابن أبي الحديد ١ ، ص ٥٠٣ .
- ١٢ . قال عليه السلام : اللهم لا أعرف عبداً من هذا الأمة عبيدَ قبلي غير نبيك [قاله ثلاث مرّات] ثمّ قال : لقد صلّيت قبل أن يُصلّي الناس . وفي لفظ : قبل أن يُصلّي أحد . أخرجه أحمد ، أبويعلی ، البرّاز ، الطبراني ، الهيثمي في الجمع ٩ ، ص ١٠٢ . وقال : إسناده حسن . شيخ الإسلام الجويني في الفرائد الباب ٤٨ .
- ١٣ . من كتاب له عليه السلام كتبه إلى معاوية : إنّ أولى النّاس بأمر هذه الأمة قديما وحديثا أقربها من رسول الله ، وأعلمها بالكتاب ، وأفقهها في الدين ، وأولها إسلاماً ، وأفضلها جهادا . كتاب صفين لابن مزاحم ص ١٦٨ ط مصر .
- ١٤ . في حديث عنه عليه السلام : لا والله إن كنت أوّل من صدّق به فلا أكون أوّل من كذب عليه . المحاسن والمساوي ١ ، ص ٣٦ . تاريخ القرماني هامش الكامل لابن الأثير ١ ، ص ٢١٨ .
- ١٥ . قال عليه السلام : بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء .

- مجمع الزوائد ٩ ، ص ١٠٢ . تاريخ القرماني ١ ، ص ٢١٥ . الصواعق ٧٢ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ١١٢ . إسعاف الراغبين ١٤٨ .
- ١٦ . من كتاب كتبه عليه السلام إلى معاوية : أن محمدا صلى الله عليه وسلم لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كتب أهل البيت أول من آمن به؟ وصدق بما جاء به ، فلبثنا أحوالا مجرمة (أي كاملة) وما يعبد الله في ربع ساكن من العرب غيرنا . كتاب صفين لابن مزاحم ص ١٠٠ .
- ١٧ . قال عليه السلام : يوم صفين مخاطبا أصحاب معاوية : ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه . كتاب نصر ٥٦١ .
- ١٨ . قالت معاذة بنت عبد الله العدوية : سمعت علي بن أبي طالب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر . راجع الجزء الثاني ص ٣١٤ .
- ١٩ . قال عليه السلام : في خطبة خطبها في معسكر صفين : أتعلمون أن الله فضل في كتابه السابق على المسبوق ، وأنه لم يسبقني الله ورسوله أحد من الأمة؟! قالوا : نعم . راجع الجزء الأول ص ١٩٥ .
- ٢٠ . قال عليه السلام : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين قبل أن يصلي معه أحد من الناس . أخرجه أحمد بإسنادين .
- ٢١ . قال عليه السلام : يوم الشورى في حديث أسلفناه : أمنكم أحد وخذ الله قبلي؟ قالوا : لا . أمنكم أحد صلى القبلتين غيري؟ قالوا : لا . راجع ج ١ ص ١٩٥ . ١٦٣ ، وهذه الفقرة من الحديث عدّها ابن أبي الحديد ممّا استفاضت به الروايات .
- ٢٢ . مرّ في الجزء الثاني ص ٢٥ في أبيات له عليه السلام كتبها إلى معاوية :
سبقتكم إلى الإسلام طرّ غلاما ما بلغت أوان حلمي
- ٢٣ . ذكر ابن طلحة الشافعي في مطالب السؤول ص ١١ له عليه السلام :
أنا أحو المصطفى لا شك في نسبي به زيت وسبطاه هما ولدي
صدقته وجميع الناس في فهم من الضلالة والإشراك والنكد

قال : قال جابر : سمعت علياً يُنشد بهذا ورسول الله يسمع : فبتسم رسول الله وقال : صدقت يا علي؟

كلمة الإمام السبط الحسن عليه السلام :

٢٤ . من خطبة للإمام الحسن عليه السلام في مجلس معاوية قوله : أنشدكم الله أيها الرهط؟ أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما؟ وأنت يا معاوية بهما كافرٌ ، تراها ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية ؛ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما : بيعة الفتح وبيعة الرضوان؟ وأنت يا معاوية بإحداهما كافرٌ ، وبأخرى ناكثٌ . وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ! وإنك يا معاوية وأباك من المؤلّفة قلوبهم . شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ١٠١ .

٢٥ . وفي خطبة له عليه السلام مرّت في ج ١ ، ص ١٩٨ : فلما بعث الله محمّداً للنبوّة ، واختاره للرّسالة ، وأنزل عليه كتابه ثمّ أمره بالدعاء إلى الله ، فكان أيّ أول من استجاب لله ولرسوله ، وأول من آمن وصدّق الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيّه المرسل : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » فجدي الذي على بينة من ربه ، وأبي الذي يتلوه وهو شاهد منه .

رأي الصحابة والتابعين في أوّ من أسلم

١ . أنس بن مالك قال : نُبئ (بُعث) النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء . وفي لفظ له : بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين وصلى علي يوم الثلاثاء . أخرجه الترمذي في جامعه ٢ ، ص ٢١٤ . الطبراني . الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٢ . ابن عبد البر في الإستيعاب ٣ ص ٣٢ . ابن الأثير في جامع الاصول كما في تلخيصه تيسير الوصول ٣ ص ٢٧١ . الجويني في فرائد السمطين الباب

٤٧. وأوعز إليه العراقي في التقريب ١ ، ص ٨٥. ويوجد في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨. تذكرة السبط ٦٣. السراج المنير شرح الجامع الصغير ٢ ص ٤٢٤. شرح المواهب ١ ص ٢٤١.

٢. بُريدة الأسلمي قال: وأُحي إلى رسول الله ﷺ يوم الإثنين وصلّى علي يوم الثلاثاء. أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ ص ١١٢ وصحّحه هو وأقرّه الذهبي.
٣. زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب. تاريخ الطبري بإسنادين صحيحين رجالهما ثقات. مسند أحمد ٤ ، ص ٣٦٨.
مستدرك الحاكم ٤ ، ص ٣٣٦ وصحّحه هو وأقرّه الذهبي. الكامل لابن الأثير ٢ ، ص ٢٢.

٤. زيد بن أرقم قال: أوّل من صلّى مع رسول الله ﷺ عليّ.
أخرجه أحمد والطبراني كما في مجمع المهيتمي ٩ ص ١٠٣ وقال: رجال أحمد رجال الصحيحين. أبو عمرو في الإستيعاب ٢ ، ص ٤٥٩.
٥. زيد بن أرقم قال: أوّل من آمن بالله بعد رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب. الإستيعاب ٢ ، ص ٤٥٩.

٦. عبد الله بن عباس قال: أوّل من صلّى عليّ.
جامع الترمذي ٢ ، ص ٢١٥. تاريخ الطبري ٢ ، ص ٢٤١ بإسناد صحيح. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.
٧. عبد الله بن عباس قال: لعليّ أربع خصال ليست لأحد: هو أوّل عربي وأعجميّ صلّى مع رسول الله ﷺ. مستدرك الحاكم ٣ ، ص ١١١ ، الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧.
٨. عبد الله بن عباس قال مجاهد: إنّه قال: أوّل من ركع مع النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب فنزلت فيه هذه الآية: وأقيموا الصلّاة وآتوا الزكّاة واركعوا مع الراكعين. تذكرة السبط ٨.

٩ . عبد الله بن عباس قال في خطبة له : إنّ ابن آكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعوانا على عليّ بن أبي طالب ابن عم رسول الله وصهره وأوّل ذكر صلّي معه .
كتاب صفّين لابن مزاحم ٣٦٠ . شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٥٠٤ . جمهرة الخطب ١ ص ١٧٥ .

١٠ . عبد الله بن عباس قال : فرض الله تعالى الإستغفار لعليّ في القرآن على كل مسلم بقوله تعالى : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » . فكلُّ من أسلم بعد عليّ فهو يستغفر لعليّ . شرح ابن أبي الحديد ٣ ، ص ٢٥٦ .

١١ . عبد الله بن عباس قال : أوّ من أسلم عليّ بن أبي طالب .

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨ . مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢ .

١٢ . عبد الله بن عباس قال : كان عليّ أوّل من آمن من الناس بعد خديجة رضي الله عنهما .

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧ وقال : قال أبو عمرو رضي الله عنه : هذا إسناد لامطعن فيه لأحد لصحّته وثقة نقلته . وصحّحه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ .

١٣ . كان ابن عباس بمكة يُحدّث على شفير زمزم ونحن عنده فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال : يا ابن عباس؟ إيّ امرؤ من أهل الشام من أهل حمص إنهم يتبرّون من عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ويلعنونه . فقال : بل لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابا مهينا . ألّبعد قرابته من رسول الله ﷺ؟ وإنه لم يكن أوّ ذكران العالمين إيماننا بالله ورسوله؟ وأوّل من صلّي وركع وعمل بأعمال البهوّ قال الشامي : إنهم والله ما يُنكرون قرابته وسابقته غير أنّهم يزعمون أنّه قتل الناس . الحديث . المحاسن والمسائى للبيهقي ١ ، ص ٣٠ .

١٤ . عفيف قال : جئت في الجاهليّة إلى مكة وأنا أريد أن ابتاع لأهلي من ثيابها

وعطرها فأتيّت العباس بن عبد المطلب وكان رجلا تاجرا فأنا عنده جالس

حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شاب فرمى بصره إلى السماء ثم قام مستقبل الكعبة ثم لم البث إلا يسيرا حتى جاء غلام فقام على يمينه ، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فرجع الشاب فرجع الغلام والمرأة ، فرجع الشاب فرجع الغلام والمرأة ، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة فقلت : ، يا عباس؟ أمر عظيم. قال العباس : أمرٌ عظيمٌ ، أتدري من هذا الشاب؟ قلت : لا. قال : هذا محمد بن عبد الله ابن أخي. أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي ابن أخي. أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته ، أنّ ابن أخي هذا أخبرني أنّ ربّته رب السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه ، ولا والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

خصايش النسائي ٣. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١. الرياض النضرة ٢ ص ١٥٨. الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩. عيون الأثر ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٨.

١٥ . سلمان الفارسي قال : أول هذه الأمة ورودا على نبيها الحوض أولها إسلاما علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢ وقال : رجاله ثقات. وعدّ الإسكافي في رسالته على العثمانيّة. وأبو عمرو في الإستيعاب. والعراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥. والقسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥ ممن روى أنّ علياً أول من أسلم.

١٦ . أبو رافع قال : صلّى النبي ﷺ أول يوم الاثنين وصلّت خديجة آخره وصلّى علي يوم الثلاثاء من الغد.

أخرجه الطبراني كما في شرح المواهب ١ ص ٢٤٠. عيون الأثر ١ ص ٩٢. وتجده وسابقه في الرياض النضرة ٢ ص ١٥٨. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨. ١٧ . أبو رافع قال : مكث علي يصلّي مستخفياً سبع سنين وأشهرها قبل أن يصلّي أحد. أخرجه الطبراني. الهيثمي في المجمع ٩ ص ١٠٣. الجويني في

الفرائد ب ٤٧ .

- ١٨ . أبوذر الغفاري ، عدَّ مَنْ روى أنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من أسلم .
الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦ . التقريب وشرحه ١ ص ٨٥ . المواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥ .
١٩ . خباب بن الأرت قال : رأيت عليًّا يُصَلِّي قبل الناس مع النبي وهو يومئذ بالغ
مستحكم البلوغ . رسالة الإسكافي . وعدَّ مَنْ روى أنَّ عليًّا أوَّل من أسلم في الاستيعاب ٢
ص ٤٥٦ . والمواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥ .
٢٠ . المقداد بن عمرو الكندي ، ممَّن روى أنَّ عليًّا أوَّل من أسلم كما في الإستيعاب ٢
ص ٤٥٦ . والتقريب وشرحه ١ ص ٨٥ . والمواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥ .
٢١ . جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : بُعث النبي ﷺ يوم الإثنين وصلَّى علي
يوم الثلاثاء . الطبري ٢ ص ٢١١ . الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢ . شرح ابن أبي الحديد ٣
ص ٢٥٨ ، وعدَّ أبو عمرو والعراقي والقسطلاني ممَّن روى أنَّ عليًّا أوَّل من أسلم .
٢٢ . أبو سعيد الخدري روى إنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من أسلم .
الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦ . شرح التقريب ١ ص ٨٥ . المواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥ .
٢٣ . حذيفة بن اليمان قال : كنَّا نعبد الحجاره ونشرب الخمر وعليُّ من أبناء أربع عشر
سنة قائمٌ يصَلِّي مع النبي ليلاً ونهاراً ، وقريش يومئذ تسافه رسول الله ﷺ ما يذبُّ عنه
إلا علي . شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠ .
٢٤ . عمر بن الخطاب قال عبد الله بن عباس : سمعت عمرو عنده جماعة فتذكروا
السابقين إلى الإسلام فقال عمر : أمَّا علي فسمعت رسول الله : يقول فيه ثلاث خصال ،
لوددت أن تكون لي واحدة منهم ، كانت أحبَّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشمس ، كنت أنا
وأبو عبيدة وأبوبكر وجماعة من أصحابه إذ ضرب النبي ﷺ على منكب علي رضي الله
عنه فقال له : يا علي؟ أنت أوَّل

المؤمنين إيماناً ، وأوّل المسلمين إسلاماً ، وأنت ممّي بمنزلة هارون من موسى .
رسالة الإسكافي . مناقب الخوارزمي . شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨ .
٢٥ . عبد الله بن مسعود قال : أوّل حديث علمته من أمر رسول الله ﷺ أني
قدمت مكة مع عمومة لي (وذكر مثل حديث عفيف المذكور ص ٢٢٦) رسالة
الإسكافي .

٢٦ . أبو أيوب الأنصاري ، أخرج الطبراني عنه أنه قال : أوّل الناس إسلاماً عليّ بن أبي
طالب . شرح التقريب ١ ص ٨٥ . شرح الزرقاني ١ ص ٢٤٢ .
٢٧ . أبو مرزوم يعلى بن مرّة ، عدّه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال : إنّ
عليّاً أوّل الناس إسلاماً .

٢٨ . هاشم بن عتبة المرقال قال : أنت يا أمير المؤمنين ! أقرب الناس من رسول الله رحماً
، وأفضل الناس سابقةً وقدماً . كتاب نصر ١٢٥ . جمهرة الخطب ١ ص ١٥١ .
٢٩ . في كلام لهاشم بن عتبة يوم صفّين : إنّ صاحبنا هو أوّل من صلّى مع رسول الله ،
وأفقهه في دين الله ، وأولاه برسول الله .

كتاب نصر ٤٠٣ . تاريخ الطبري ٦ ص ٢٤ . الكامل لابن الأثير ٣ ص ١٣٥ . وقال
هاشم يوم صفّين :

مع ابن عم أحمد المعلّى فيه الرّسول بالهدى استهلا
أوّ من صدّقه وصلّى فجاهد الكفّار حتى أبلى^(١)

٣٠ . مالك بن الحارث الأشتر قال في خطبة له : معنا ابن عم نبيّنا وسيف من سيوف
الله عليّ بن أبي طالب ، صلّى مع رسول الله لم يسبقه إلى الصلاة ذكر ، حتّى كان شيخاً
لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ، فقيّة في دين الله ، عالمٌ بحدود الله .

كتاب نصر ٢٦٨ . شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٨٤ . جمهرة الخطب ١

١ . كتاب صفين لابن مزاحم : ٣٧١ ط مصر .

ص ١٨٣ .

٣١ . عديّ بن حاتم قال في خطبة له مخاطبا معاوية : ندعوك إلى أفضل الأُمَّة سابقة ، وأحسنها في الإسلام آثارا .

كتاب نصر ٢٢١ . تاريخ الطبري ٦ ص ٢ . شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٣٤٤ . وفي لفظ ابن الأثير في الكامل ٣ ص ١٢٤ : أنّ ابن عمّك سيد المسلمين أفضلها سابقة .

٣٢ . عدي بن حاتم قال في خطبة أخرى له : إن كان له « لعليّ » عليكم فضل فليس لكم مثله فسلموا وإلاّ فنازعوا عليه ، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة؟ أنّه لأعلم الناس بهما . ولئن كان إلى الإسلام؟ إنّهُ لأخو نبي الله والرأس في الإسلام . الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣ .

٣٣ . محمّد بن الحنفية قال سالم بن ابي الجعد قلت له : أبو بكر كان أوّهم إسلاماً ! قال : لا . الاستيعاب ٢ ص ٤٥٨ . إذا ثبت أنّ أبا بكر لم يكن أوّل الناس إسلاماً فعليّ عليه السلام هو المتعيّن سبق إسلامه .

٣٤ . طارق بن شهاب الأحمسي في كلام له : ثمّ قلت : ادع عليّاً وهو أوّل المؤمنين إيماناً بالله وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّيه ، هذا أعظم ، الحديث . شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٧٦ .

٣٥ . عبد الله بن هاشم المرقال قال في خطبة له : يا أيّها الناس ! إنّ هاشماً جاهد في طاعة ابن عم رسول الله ، وأوّل من آمن به ؛ وأفقههم في دين الله . كتاب نصر ٤٠٥ .

٣٦ . عبد الله بن حجل قال : يا أمير المؤمنين ! أنت أوّلنا إيماناً ، وآخرنا بنبيّ الله عهداً . الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣ ، كتاب نصر .

٣٧ . أبو عمرة بشير بن محصن قال في جمع من أصحاب علي ومعاوية : إنّ صاحبي أحق البرية كلّها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقراية من رسول الله . كتاب نصر ٢١٠ .

٣٨ . عبد الله بن خباب بن الأرت قال ابن قتيبة : إن الخارجة التي خرجت

على عليّ بينما هم يسيرون فإذا هم برجل يسوق امرأته على حمار له فعبروا إليه الفرات فقالوا له : من أنت؟ قال : أنا رجلٌ مؤمنٌ ، قالوا : فما تقول في عليّ بن أبي طالب؟ قال : أقول : إنه أمير المؤمنين وأوّل المسلمين إيماناً باللّهِ ورسوله . قالوا : فما اسمك؟ قال : وأنا عبد الله بن حباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ . الإمامة والسياسة ١ ص ١٢٢ .

٣٩ . عبد الله بن بُريدة قال : أوّل الرجال إسلاماً عليّ بن أبي طالب ثم الرهط الثلاث : أبوذر وبُريدة وابن عم لأبي ذر . أخرجه محمّد بن إسحق المدني في الجزء الأوّل من المغازي .
٤٠ . محمّد بن أبي بكر كتب إلى معاوية كتاباً منه : فكان أوّل من أجاب وأناب ، وصدّق ووافق ، وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه عليّ بن أبي طالب . إلى أن قال . : أوّل الناس إسلاماً ، وصدق الناس نيّة . إلى قوله . يا لك الويل ! تعدل نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله ووصيّيه وابو ولده ، وأوّل الناس له أتباعاً ، وآخرهم ، به عهداً ، يُخبره بسرّه ، ويشركه في أمره . نصر في كتاب صفّين ١٣٣ .

٤١ . عمرو بن الحمق قال لعلي : أحببتك لخصال خمس : أنّك ابن عمّ رسول الله ، وأوّل من آمن به . وفي لفظ : وأسبق الناس إلى الإسلام ، أبوذر الذي بقيت فينا من رسول الله ، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد .
كتاب صفّين ١١٥ . جمهرة الخطب ١ ص ١٤٩ .

٤٢ . سعيد بن قيس الهمداني يرتجز في صفّين بقوله (١) :
هذا عليّ وابن عمّ المصطفى أوّل من أجابه بمّين دعا
هذا الإمام لا يُبالي من غوى

٤٣ . عبد الله بن أبي سفيان قال مجيباً الوليد (٢)
وإنّ ولي الأمر بعد محمّد عليّ وفي كلّ المواطن صاحبه

١ . شرح النهج لابن أبي الحديد : ج ١٣ ص ٢٣٢ وفيه « أوّل من أجابه فيما روى » .

٢ . رسالة الاسكافي ، وذكرهما الحافظ الكنجي في الكفاية ص ٤٨ للفضل بن العباس .

وصيُّ رسول اللّٰه حقّاً وصنوه وأوّل من صلّى ومن لان جانبه
٤٤ . خزيمّة بن ثابت الأنصاري عدّه العراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥ ، والزرقاني في
شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال بأنّ عليّاً أوّل الناس إسلاماً .

وقالا : أنشد المرزبان له في عليّ :

أليس أوّل من صلّى لقبلكم وأعلم النّاس بالقران والسنن؟
وذكر له الإسكافي في رسالته كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩ :

وصيُّ رسول اللّٰه من دون أهله وفارسه مذكان في سالف الزمن
وأوّل من صلّى من النّاس كلّهم سوى خيرة النّسوان واللّٰه ذوالمنن
وذكرهما له الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٤ ، وذكر قبلهما :

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا أبو حسن ممّا نخاف من الفتن
وجدناه أولى النّاس بالنّاس أنّه أظب قریش بالكتاب وبالسنن^(١)

٤٥ . كعب بن زهير ، ذكر الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ . من قصيدة يمدح بها
أمير المؤمنين عليه السلام :

إنّ عليّاً لميمون نقيته بالصّالحات من الأفعال مشهور
صهر النبيّ وخير النّاس كلّهم فكل من رامه بالفخر مفخور
صلّى الصلاة مع الأُمّي أوّلهم قبل العباد وربُّ النّاس مكفور^(٢)

٤٦ . ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ذكر جمع من الأعلام له أبيات وذكرها آخرون
لغيره وهي :

ما كنت أحسب ان الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أوّل من صلّى لقبلتهم؟! وأعلم النّاس بالآيات والسنن؟!
وأخّر النّاس عهداً بالنبيّ؟ ومِن جبريل عون له في الغسل والكفن؟

١ . ولهذه الابيات بقية توجد في الفصول المختارة ٢ ص ٦٧ .

٢ . في النسخة تصحيف ذكرناها صحيحة .

مَنْ فِيهِ مَا فِيهِمْ مَا تَمْتَرُونَ بِهِ؟! وليس في القوم ما فيه من الحسن
ماذا الَّذِي رَدَّ كَم عَنْهُ؟! فَعَلِمَهُ هَا إِنَّ يَبْعَتِكُمْ مِنْ أَوَّلِ الْفِتَنِ
وَذَكَرَ الْإِسْكَافِي فِي رِسَالَتِهِ الْبَيْتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنْهَا وَنَسَبَهُمَا إِلَى أَبِي سَفِيَانَ بْنِ حَرْبِ بْنِ
أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ حِينَ بُويعَ أَبُو بَكْرٍ. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩.

٤٧ . الفضل بن أبي لهب قال رمَّ على قصيدة الوليد بن عقبة :

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّبَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ مَهِيْمُنُهُ التَّالِيَهُ فِي الْعَرْفِ وَالنَّكَرِ
وَخَيْرَتُهُ فِي خَيْبِرٍ وَرَسُولُهُ بَنِيذَ عَهْدِ الشَّرْكِ فَوْقَ أَبِي بَكْرٍ
وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى صَنُو نَبِيِّهِ وَأَوَّلُ مَنْ أَرْدَى الْغَوَاةَ لَدَى بَدْرِ
فَإِنَّكَ عَلَيَّ الْخَيْرُ مِنْ ذَا يَفُوقَهُ؟! أَبُو حَسَنِ حَلَفَ الْقِرَابَةَ وَالصَّهْرَ

٤٨ . مالك بن عبادة الغاني حليف حمزة بن عبد المطلب قال :

رَأَيْتَ عَلِيًّا لَا يَلْبِثُ قَرْنَهُ إِذَا مَا دَعَاهُ حَاسِرًا أَوْ مَسْرِيًّا
فَهَذَا وَفِي الْإِسْلَامِ أَوَّلُ مُسْلِمٍ وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَهَلَّلَا
٤٩ . أبو الأسود الدؤلي يهدد طلحة والزبير بقوله :

وَإِنَّ عَلِيًّا لَكُمْ مَصْحَرٌ يَمِثُّهُ الْأَسَدُ الْأَسْوَدُ
أَمَّا أَنْتَ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ بِمَكَّةَ وَاللَّهِ لَا يُعْبَدُ (١)

٥٠ . جندب بن زهير كان يرتجز يوم صفين بقوله :

هَذَا عَلِيٌّ وَالْهَدَى حَبِّبًا مَعَهُ يَا رَبِّ فَاحْفَظْهُ وَلَا تَضَيِّعْهُ
فَإِنَّهُ يَخْشَاكَ رَبِّي فَارْفَعْهُ نَحْنُ نَصْرُنَاهُ عَلِيٌّ مِمَّنْ نَازَعَهُ
صَهْرَ النَّبِيِّ الْمَصْطَفَى قَدْ طَاوَعَهُ أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ وَتَابَعَهُ (٢)

٥١ . زفر بن يزيد (٣) بن حذيفة الأسدي قال :

فَحَوِّطُوا عَلَيَّ فَنَصْرُوهُ فَإِنَّهُ وَصِيٌّ وَفِي الْإِسْلَامِ أَوَّلُ أَوَّلٍ

١ . رسالة الاسكافي كما شرح ابن أبي الحديد : ٢ ص ٢٥٩ .

٢ . كتاب نصر بن مزاحم : ٤٥٣ .

٣ . في بعض المصادر : زفير بن زيد .

وإن تحذروه والحوادث جمّة

٥٢ . النجاشي بن الحارث بن كعب قال :

ومن جعل الغنّ يوماً سميّنا

نظير عليّ أما تستحونا؟!

أجاب النبي من العالمينا

إذا كان يوم يشيب القرونا؟! ^(١)

فقل للمضلل من وائل

جعلت ابن هند وأشياعه

إلى أوّل النَّبّاس بعد الرسول

وصهر الرّسول ومن مثله

٥٣ . جرير بن عبد الله البجلي قال :

رسول المليك تمام النعم

خليفتنا القوائم المدّعم

يجالد عنه غواة الأمم

ت وبيت النبوة لا المهتمضم

فصلى الإله على أحمد

وصلى على الطهر من بعده

عليّا عنيت وصيّ النبيّ

له الفضل والسبق والمكرما

٥٤ . عبد الله بن حكيم التميمي قال :

وظلحة من بعد أن أثقلا

فإن شئتما فخذنا الأثملا

وإسلامه فـيكم أوّلا

دعانا الزبير إلى بيعة

فقلنا : صفقنا بإيماننا

نكنتم عليّا على بيعة

٥٥ . عبدالرحمن بن حنبل [جعل] الجمحي حليف بني الجمح قال :

على الدين معروف العفاف موقّعا

صدوقا وللجبار قدما مصدّقا

فليس كمن فيه يرى العيب منطلقا

وأوّل من صلّى لذي العرش وأتقى ^(٢)

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة

عفيفا عن الفحشاء أبيض ماجدا

أبا حسن فارضوا به وتبايعوا

عليّ وصىّ المصطفى ووزيره

٥٦ . أبو عمرو الشعبي الكوفي قال : أوّل من أسلم من الرّجال عليّ بن أبي طالب

وهو ابن تسع سنين . رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي

١ . رسالة الاسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد : ٣ ص ٢٥٩ .

٢ . كتاب صفين لنصر بن مزاحم : ٦٦ .

٣ . كفاية الطالب الحافظ الكنجي : ٤٨ .

الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٥٧. أبو سعيد الحسن البصري قال : عليُّ أوَّل من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عنه. ورواه الإسكافي في رسالته عن عبد الرزاق كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

وقال الحجاج للحسن وعنده جماعة من التابعين وذكر علي بن أبي طالب : ما تقول أنت يا حسن؟ فقال : ما أقول؟ هو : أوَّل من صلَّى إلى القبلة ، وأجاب دعوة رسول الله. وإنَّ لعليَّ منزلة من ربِّه وقربة من رسوله ، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردُّها أحدٌ. فغضب الحجاج غضبا شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت.

وقال رجل للحسن : ما لنا لا نراك تني على عليٍّ وتقرِّظه؟ قال كيف؟! وسيف الحجاج يقطر دماً ، إنَّه أوَّل من أسلم ، وحسبكم بذلك. رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

٥٨. الإمام محمَّد بن عليِّ الباقر قال : أوَّل من آمن بالله عليُّ بن أبي طالب وهو ابن إحدى عشرة سنة. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٥٩. قتادة بن دعامة الأكمة البصري قال : عليُّ أوَّل من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد كما سمعت ، والقسطلاني عدَّة ممَّن قال به في المواهب ١ ص ٤٥ ، وأقرَّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢.

٦٠. محمَّد بن مسلم المعروف بابن شهاب^(١) عدَّه القسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥ ، وأقرَّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢ من القائلين بأنَّ عليًّا أوَّل من أسلم.

٦١. أبو عبد الله محمَّد بن المكندر المدني قال : علي أوَّل من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٢. أبو حازم سلمة بن دينار المدني قال : عليُّ أوَّل من أسلم. تاريخ الطبري ١ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

١. نسبة إلى جد جده.

٦٣ . أبو عثمان ربيعة بن ابي عبد الرحمن المدني قال : عليُّ أوَّل من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣ . الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢ .

٦٤ . أبو النضر محمَّد بن السائب الكلبي قال : عليُّ أوَّل من أسلم ، أسلم وهو ابن تسع سنين. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣ . الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢ .

٦٥ . محمَّد بن اسحاق قال : كان أوَّ ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدقته بما جاءه من عند الله عليُّ بن ابي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين ^(١) وكان ممَّا أنعم الله به على عليِّ بن ابي طالب أنَّه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

وقال : وذكر بعض أهل العلم أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصَّلَاة خرج إلى شعاب مكَّة وخرج معه عليُّ بن ابي طالب ، مستخفياً من عمِّه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصلِّيان الصَّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا فمكنا كذلك ماشاء الله أن يمكنا ، ثمَّ إنَّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلِّيان فقال لرسول الله ﷺ : يا بن أخي ما هذا الدين؟ الحديث.

تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣ . سيرة ابن هشام ١ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ . سيرة ابن سيّد الناس ١ ص ٩٣ . الكامل لابن الأثير ٤ ص ٢٢ . شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠ . السيرة الحليَّة ١ ص ٢٨٧ .

٦٦ . جُنيد بن عبد الرحمن قال : أتيت من حوران إلى دمشق لآخذ عطائي فصلَّيت الجمعة ثمَّ خرجت من باب الدرج فإذا عليه شيخ يقال له : ابو شيبه القاص يقصُّ على الناس ، فرغبت فرغبنا ، وخوِّف فبكينا ، فلمَّا انقضى حديثه قال : احتموا مجلسنا بلعن أبي تراب . فلعنوا أبا تراب عاتلاً فالتفت إلي من على يميني فقلت له : فمن أبو تراب؟ فقال : عليُّ بن ابي طالب ابن عمِّ رسول الله ، وزوج إبتنه ، وأوَّل النَّاس إسلاماً ، وأبوالحسن والحسين . فقلت : ما أصاب هذا القاص؟! فقمتم إليه وكان ذا وفرة فأخذت وفرته بيدي وجعلت أطمم وجهه

١ . في الكامل لابن الاثير : ٢ ص ٣٢ . احدى عشرة سنة . نقلا عن ابن اسحاق .

وأبطح براسه الحائط ، فصاح فاجتمع أعوان المسجد فوضعوا رداي في رقبتي وساقوني حتى دخلوني على هشام بن عبد الملك وابو شيبة يقدمني فصاح يا أمير المؤمنين؟ قاصبك وقاص آبائك وأجدادك أتى إليه اليوم أمر عظيم. قال : من فعل لك؟ فقال : هذا. فالتفت إلي هشام وعنده أشرف الناس فقال : يا أبا يحيى؟ متى قدمت؟ فقلت : أمس وأنا على المصير إلى أمير المؤمنين فادركتني صلاة الجمعة فصليت وخرجت إلى باب الدرج فإذا هذا الشيخ قائم يقصُّ فجلست إليه فقرأ فسمعنا ، فرغَّب مَنْ رَغَّبَ ، وخوَّف مَنْ خوَّفَ ؛ ودعا فأمننا ، وقال في آخر كلامه : اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب ، فسالت مَنْ أبو تراب؟

ف قيل : عليُّ بن ابي طالب ، أوَّل الناس إسلاماً ، وإبن عم رسول الله ، وأبو الحسن والحسين ، وزوج بنت رسول الله. فوالله يا أمير المؤمنين؟ لو ذكر هذا قرابة لك بمثل هذا الذكر ولعنه بمثل هذا اللعن لأحللت به الذي أحللت ، فكيف لا أغضب لصهر رسول الله وزوج إبنته؟! فقال هشام : بئس ما صنع. تاريخ ابن عساكر ٣ ص ٤٠٧.

هذه جملة من النصوص النبوية ، والكلم المأثورة عن أمير المؤمنين والصحابة والتابعين في أن علياً أوَّل مَنْ أسلم : وهي تربو على مائة كلمة ، أضف إليها ما مرَّ ج ٢ ص ٢٧٦ من أن أمير المؤمنين سباق هذه الأمة. واشفع الجميع بما أسلفناه ج ٢ ص ٣٠٦ من أنه صلوات الله عليه صدِّيق هذه الأمة ، وهو الصِّديق الاكبر.

فهل تجد عندئذ مساعداً لمكابرة ابن كثير تجاه هذه الحقيقة الراهنة وقوله : وقد ورد في أنه أوَّل من أسلم. إلخ؟!؟! فإذا لا يصحُّ مثل هذه فما الذي يصحُّ وإن كان لا يصح شيء منها فما قيمة تلك الكتب المشحونة بها؟! كلا ، إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون.

وأنت ترى الرجل يزيف هذه الكلم والنصوص الكثيرة الصحيحة بحكم الحفظ الأثبات بكلمة واحدة قارصة ، ويعتمد في إثبات أي أمر يروقه في تاريخه على المراسيل والمقاطع والآحاد ، ونقل المجاهيل وأفناء الناس ^(١).

١. الغدير : ج ٣ ص ٢١٩ . ٢٣٩.

مناظرة بين المأمون وإسحاق :

ولقد دار بين المأمون العباسي وإسحاق وهو من العلماء المشهورين حوار طريف في هذا المجال ينقله ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » نذكر هنا خلاصته :

قال المأمون : يا إسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

ابن إسحاق : الإخلاص بالشهادة.

المأمون : أليس سبق إلى الإسلام؟

ابن إسحاق : نعم.

المأمون : اقرأ ذلك في كتاب الله يقول : « والسابقون السابقون وأنتك المقربون » إنما

عُني من سبق إلى الأسلام ، فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟

ابن إسحاق : إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم وأبو بكر أسلم وهو

مستكمل يجوز عليه الحكم.

وهنا أمسك المأمون بزمام الكلام وقال :

أخبرني عن إسلام علي حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله ﷺ دعاه إلى

الإسلام ، أو يكون إلهاماً من الله؟

قال إسحاق : بل دعاه رسول الله إلى الإسلام.

قال المأمون : يا إسحاق هل يخلو رسول الله حين دعاه إلى الإسلام من ان يكون دعاه

بأمر من الله أو تكلف ذلك من نفسه؟

ثم قال : يا إسحاق لا تنسب رسول الله إلى تكلف فإن الله يقول : « وما أنا من

المتكلفين » .

فإذا دعاه بأمر الله وليس من صفة الجبار . جلّ ذكره . أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز

عليه حكم ، أفتراه في قياس قولك يا إسحاق؟ أن علياً أسلم صبيهاً لا يجوز عليه الحكم قد

تكلف رسول الله ﷺ من دعاء

الصبيان ما لا يطيقون^(١).

وعلى هذا الاساس يجب اعتبار ايمان علي عليه السلام ايمانا صحيحا ثابتا لم يقل عن ايمان الآخرين أهمية وقيمة بل هو افضل مصداق لقوله تعالى : « والسابقون السابقون وأنتك المقربون » ، هو الإمام علي بن أبي طالب.

قضية « انقطاع الوحي » :

لقد أضاءت روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونفسه الشريفة واستنارت بنور الوحي ، ودفعه ذلك إلى التأمل والتفكير في الوظيفة الكبرى والثقيلة التي جعلها الله على كاهله ، وخاصة عندما خاطبه الله تعالى بقوله : « يا أيها المدثر . فم فأند . وبك فكبر »^(٢).

وهنا طرح المؤرخون وبخاصة الطبري الذي لا يخلو تاريخه من الاساطير الاسرائيلية قضية باسم « انقطاع الوحي » فقالوا : إن رسول الله بعد أن رأى ذلك الملبك وسمع منه الآيات الأولى من القرآن الكريم بقي ينتظر نزول خطاب آخر من جانب الله تعالى ، ولكن دون جدوى ، فهو لم ير ذلك الملك الجميل بعد ذلك ، ولا أنه سمع النداء الغيبي مرة أخرى على غرار ما رأى وسمع في بدء نزول الوحي.

ولو كان لأنقطاع الوحي في بداية عهد الرسالة (الذي ادعاه هؤلاء) حقيقة فما هو سوى النزول التدريجي للقرآن ليس إلا.

وقد تعلقت المشيئة الالهية اساساً بأن ينزل الوحي على رسول الله تدريجاً ، لا دفعة واحدة وذلك لمصالح معينة ، وحيث أن الأمر في بدء الوحي كان على أوله وفي بدايته ، لذلك لم ينزل الوحي الالهي بعد المرة الأولى فوراً ، ولكن جمل هذا على « انقطاع الوحي » ولم يكن لا انقطاع الوحي ولا أية مسألة أخرى من

١ . العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٥٢ طبعة بيروت دار الكتب العلمية وج ٥ ص ٩٤ طبعة لجنة التأليف القاهرة.

٢ . المدثر ١ - ٣.

هذا القبيل.

وحيث أن هذه المسألة قد تذرَّع بها الكتَّابُ المغرضون لذلك ينبغي أن نعطيها بعض الاهتمام ليتضح أن ما ادَّعي من انقطاع الوحي ، قضية فارغة عن الحقيقة ولذلك لا صحَّة لتطبيق الآيات القرآنية عليها.

ولتوضيح هذا الأمر ننقل هنا نصَّ ما كتبه الطبري ونقله في تاريخه ، ثم نعمد بعد ذلك إلى نقده.

يكتب الطبري في هذا الصدد قائلاً لما أبطأ جبرئيل على رسول الله ﷺ وجزع جزعا شديدا قالت له خديجة : ما أرى ربك إلا قد قلاك ، فانزل الله عزَّ وجلَّ قوله : « وَالضُّحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى . مَا وَعَّكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَمَا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »^(١).

ولقد أوجد نزول هذه الآيات سرورا عظيما لدى خديجة ؓ ، وعلمت بأن ما قالتها حول رسول الله لا أساس له من الصحة^(٢).

أسطورة وليس تاريخا!

إنَّ ذاكرة التاريخ تحفظ وتذكر جيِّدا تاريخ حياة السيدة خديجة.

إن خديجة التي كانت أخلاق محمد الفاضلة وخصاله المجيدة ، وفعاله الحميدة ماثلة امام عينها والتي كانت تؤمن بعدل ربها كيف يجوز ان تسيء الظن بالله تعالى وبنبيه الكريم ، العظيم الشأن؟

إنَّ مقام النبوة ومنصب الرسالة ، والسفارة الالهية لا يُعطى إلا لمن يملك طائفة من الصفات النبيلة والخصال الرفيعة ، وما لم يتصف شخصُ النبي ﷺ هذه الصفات العليا ، وما لم تتوفر فيه مثل هذه الشرائط الخاصة

١- الضحى : ١ - ١١ .

٢- تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٤٨ .

والمواصفات المعينة لم يمنح له ذلك المنصب قط. وتقع العصمة والسكينة القلبية ، والاعتماد والتوكل في طبيعة هذه الخصال والمواصفات ، ومع هذه الأوصاف والخصال يستحيل أن يدور في خلدته مثل تلك التصورات الخاطئة.

ولقد قال العلماء : إن المسيرة التكاملية عند الانبياء تبدأ من فترة الطفولة والصبا ، فان الغشاوات والحجب تبدأ تتساقط وتنقشع الواحدة تلو الأخرى منذ ذلك الوقت ، ويستمر ذلك حتى تصل الاحاطة العلمية لديهم حدَّ الكمال فلا يشكَّون في شيء يروونه أو يسمعونه أبداً ، ومن حاز هذه المراتب لا يمكن أن يتطرق الشك والحيرة والتردد إلى قلبه وعقله مطلقاً. إن آيات سورة « الضحى » وخاصة عبارة « ما وَرَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » تفيد فقط بأن هناك من قال مثل هذه العبارة للنبي الاكرم ﷺ وأما مَنْ هو قائلها؟ وكم تركت هذه العبارة من تأثير في نفسية النبي ﷺ وروحيته فهي ساكنة عن كل ذلك؟

وذهب بعضُ المفسرين إلى أن قائلها هم بعضُ المشركين ، ولهذا الاحتمال لا تكون جميع الآيات مرتبطة ببدء الوحي ، لأنه لا أحد غير « علي » و « خديجة » كان يعرف في بدء البعثة بنزول الوحي ، ليتسنى له أن يعترض على رسول الله ، ويعيره بانقطاعه عنه بعد ذلك ، فإن أمر المبعث والرسالة . كما سنقول ذلك فيما بعد . بقي خافياً على أكثر المشركين لمدة ثلاثة اعوام تماماً ، فهو لم يكن مكلفاً بابلاغ رسالته إلى عامة الناس ، إلى أن نزل قوله تعالى : « فاصلح بما تؤمر » الذي أمره الله فيه بالجهر بأمر رسالته لعامة الناس بلا استثناء.

إختلاف المؤرخين في مسألة « انقطاع الوحي » :

لم يرد في القرآن الكريم أي ذكر مطلقاً لمسألة (انقطاع الوحي) بل لم ترد به إشارة أيضاً ، إنما نلاحظها في كتب السيرة والتفسير فقط ، ويختلف كُتَّاب السيرة والمؤرِّحون في علة (انقطاع الوحي) هذا ، ومدته اختلافاً كبيراً يجعلنا لا نعتمد على أي واحد منها ، وها نحن نشير إليها بشكل ما :

١ . ان اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن اصحاب الكهف ، وعن الروح ، وعن قصة ذي القرنين فقال عليه الصلاة والسلام : سأخبركم غداً ، ولم يستثن ، فاحتبس عنه الوحي (١) .

بناء على هذا لا يمكن ان تربط هذه المسألة ببداية الوحي ومطلع عهد الرسالة لان اتصال علماء اليهود واحبارهم مع النبي ﷺ عن طريق قريش وسؤالهم اياه حول هذه الأمور الثلاثة ، وقع في حدود السنة السابعة من البعثة يوم توجه وفد من قريش إلى المدينة ليسألوا علماء اليهود عن صحة ما جاء به رسول الله ﷺ ، فاقترح اليهود عليهم ان يسألوا النبي عن تلك الأمور الثلاثة (٢) .

٢ . قالت خولة وهي امرأة كانت تخدم رسول الله ﷺ أن جروا دخل البيت فدخل تحت السرير فمات ، فمكث نبي الله ﷺ أياما لا ينزل عليه الوحي ، فلما خرج رسول الله ﷺ من البيت كنست خولة تحت السرير فاذا جرو ميت فأخذته والقتته خلف الجدار فأنزل الله تعالى هذه السورة ولما نزل جبرئيل سأله النبي ﷺ عن التأخر فقال : « أما علمت أننا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة » (٣) .

٣ . إن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال : « وكيف يلنو علي وأنتم لا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم »؟ (٤) .
فنزل جبرئيل بهذه السورة .

٤ . اهدى عثمان إلى النبي ﷺ عنقود عنب وقيل عذق تمر فجاء سائل فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه إليه ﷺ ثانيا ثم عاد السائل فأعطاه وهكذا ثلاث مرات فقال ﷺ : ملاطفا لا غضبان : أسائل أنت يا فلان أم تاجر؟ فتأخر الوحي أياما فاستوحش فنزلت

١ . روح المعاني : ج ٣٠ ، ص ١٥٧ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣١٠ و ٣١١ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٠٠ و ٣٠١ .

٣ . تفسير القرطبي : ج ١٠ ، ص ٨٣ و ٧١ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٤٩ .

٤ . نفس المصدر .

السورة (١) .

٥ . إن جروا لأحد نساء النبي ﷺ أو أحد أقربائه حال دون نزول الوحي عليه (٢) .
٦ . إن رسول الله ﷺ سأل جبرئيلَ عن تأخر الوحي قال جبرئيل ، لا أمليكَ من نفسي شيئاً إنما أنا عبد مأمور (٣) .

ثم ان هناك أقوالاً أخرى يمكن الحصول عليها من مراجعة التفاسير (٤) .
ولكن الطبري نقبل وجهها آخر تمسك به المعرضون والمرضى من الكُتّاب واعتبروه دليلاً على طروء الشك على قلب رسول الله ﷺ وهو أن الوحي انقطع عن رسول الله ﷺ بعد حادثة (حراء) فقالت خديجة للنبي ﷺ : ما أرى ربك إلا قد قلاك!!
فنزل الوحي يقول : « ما وَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » (٥) .

ومما يدلُّ على أهداف هذا النوع من الكُتّاب ، المريضة ، أو عدم تتبعهم واستقصائهم ، أنهم تمسكوا من بين جميع الأقوال بهذا الاحتمال ، واستندوا إليه للحكم على شخصية كرسول الله ﷺ الذي لم ير في حياته أي أثر للشك والحيرة مطلقاً .

وإننا مع ملاحظة النقاط التالية يمكننا أن نقف على بطلان هذا الاحتمال وتفاهته :
١ . لقد كانت السيدة خديجة من النساء اللواتي أحبين رسول الله ﷺ حبا صادقا وعميقاً ، فهي التي وفّت لزوجها حتى النفس الأخير ،

١ . تفسير روح المعاني : ج ٣٠ ، ص ١٥٧ .

٢ . غرائب القرآن في هامش تفسير الطبري : ج ٣٠ ، ص ١٠٨ .

٣ . تفسير ابو الفتوح الرازي : ج ١٢ ، ص ١٠٨ .

٤ . مجمع البيان : ج ١٠ ، تفسير سورة الضحى .

٥ . تفسير الطبري : ج ٣٠ ، ص ١٤٨ .

ووقفت ثروتها الطائلة لتحقيق أهدافه ، وكانت في عام البعثة قد قضيت خمسة عشر عاماً من حياتها الزوجية ، ولم تر خديجة طوال هذه الفترة من زوجها الا التقوى والطهر ولم تلمس منه إلا كِبَمَ الصفات ونبل الاخلاق فقد كانت من المصدقين له ﷺ من أول يوم وكانت تراعي نهاية الأدب في تكليمها معه وعشرتها اياه ﷺ فكيف تتكلم مثل هذه المرأة المؤمنة الوفية ، مع زوجها بغليظ القول ، وتوجه له مثل هذه الكلمة غير المهذبة ، بل والجارحة؟!!

٢ . إن آية : « ما وَ عَمَّ رُبُّكَ وَمَا قَلَى » لا تدل على أن « خديجة » قالت مثل هذا الكلام لرسول الله ﷺ ، بل غاية ما تفيد هذه الآية هي أن مثل هذا الكلام قد وُجِّه إلى رسول الله ﷺ ، وأما مَنْ هو القائل ، ولماذا قال هذا الكلام؟ فليس ذلك معلوماً.

٣ . إن ناقل هذه الرواية يصف « خديجة » تارة بأنها طمأننت النبي ، وسكَّنت من روعه إلى درجة أنها منعتة عن الإنتحار ، ولكنه يصفها تارة أخرى بانها قالت له : بأن الله عاداه وقلاؤه ، ألا ينبغي هنا أن نقول : « كن ذكورا ثم أكذب »؟!!

٤ . إذا كان الوحي قد انقطع بعد حادثة جبل (حراء) ونزول بضع آيات من سورة « العلق » إلى أن نزلت سورة « الضحى » ، يتوجب . في هذه الصورة . ان تكون سورة « الضحى » ثاني سورة من حيث الترتيب التاريخي لنزول السور في حين أن تاريخ نزول الآيات والسور القرآنية يفيد أنها السورة الحادية عشرة من سور القرآن الكريم. لأن فهرس السور القرآنية حسب نزولها هو كالتالي :

١ . العلق .

٢ . القلم .

٣ . المزمل .

٤ . المدثر .

٥ . تبت (المسد) .

٦ . التكوير .

٧ . الاعلى .

٨ . الانشراح .

٩ . والعصر .

١٠ . والفجر .

١١ . والضحي ^(١) .

نعم إنفرد اليعقوبي من بين المؤلفين باعتبار سورة الضحي . في تاريخه ^(٢) . السورة الثالثة من حيث تاريخ النزول ، وحتى هذا الرأي لا ينسجم مع القصة المذكورة (انقطاع الوحي) .

الإختلاف في مدة انقطاع الوحي :

لقد تعرّض تحديد مدة انقطاع الوحي بشكله المزعوم لإبهام كبير ، فقد ذكر ذلك بصور مختلفة في التفاسير والأقوال التالية هي :

٤ . أيام .

١٢ . يوماً .

١٥ . يوماً .

١٩ . يوماً .

٢٥ . يوماً .

٤٠ . يوماً .

ولكن بعد دراسة فلسفة النزول التدريجي للقرآن الكريم سنرى أن انقطاع الوحي وتوقفه لم يكن حدثاً إستثنائياً ، لأنّ القرآن الكريم أعلن منذ أول يوم أن المشيئة الالهية تعلقت بأن ينزل القرآن بصورة تدريجية ، منجّمة إذ يقول تعالى : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ مَكَثٍ » ^(٣) .

١ . تاريخ القرآن للزنجاني : ص ٥٨ .

٢ . تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ، ص ٣٣ .

٣ . الاسراء : ١٠٦ .

ويكشف القرآن النقاب . في موضع آخر . عن سرّ نزول القرآن تدريجاً إذ قال : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً »^(١) .
ومع ملاحظة طريقة نزول الآيات والسور القرآنية هذه يجب أن لا يُتوقع نزول الآيات كل يوم وكلّ ساعة ، وأن ينزل جبرئيل على النبيّ على الدوام ، ويأتي إليه بالآيات دون انقطاع ، بل إن الآيات القرآنية كانت تنزل على رسول الله ﷺ في فواصل زمنية مختلفة وفقاً للاحتياجات ، وبحسب الأسئلة المطروحة على النبي ، ولأسرار أخرى في النزول التدريجي شرحها علماء الإسلام^(٢) .
وفي الحقيقة لم يكن هناك ما يُسمى بانقطاع الوحي ، بل كل ما كان في الأمر هو أنه لم يكن ثمة ما يوجب النزول الفوري ، والمتلاحق للوحي .

١ . الفرقان : ٣٢ .

٢ . راجع للوقوف على هذه المسألة معالم الحكومة الإسلامية : ص ١٢٢ . ١٢٤ .

الدَّعْوَى السِّرِّيَّةُ وَدَعْوَى الْأَقْرَبِينَ

إستمر النبي ﷺ يدعو إلى دينه سرّاً مدة ثلاثة أعوام. فهو في هذه السنوات عمداً إلى بناء الكوادر واعدادها بدل توجيه الدعوة إلى عامة الناس ، فإنّ اعتبارات معيّنة في ذلك الوقت كانت توجب أن لا يجهّر بدعوته ولا يُعلن عن رسالته ، ويكتفي بالاتصالات الفردية السّرية ويدعو اشخاصا معينين إلى دينه.

وقد كانت هذه الدعوة السّرية هي السبب في أن ينجذب إلى الدّين الإسلامي جماعة من الناس ، وتواجه دعوته ﷺ منهم بالقبول ، وقد سجّل التاريخ أسماء هؤلاء السابقين الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في هذه الفترة من عهد الرسالة ، وتاريخ الإسلام ، واليك بعضهم :

- ١ . السيدة خديجة بنت خويلد (زوجة النبي ﷺ) .
- ٢ . علي بن أبي طالب ؑ .
- ٣ . زيد بن حارثة .
- ٤ . الزبير بن العوام .
- ٥ . عبد الرحمان بن عوف .
- ٦ . سعد بن أبي وقاص .

- ٧ . طلحة بن عبيدالله .
- ٨ . أبو عبيدة الجراح .
- ٩ . أبو سلمة .
- ١٠ . الأرقم بن أبي الأرقم .
- ١١ . عثمان بن مظعون .
- ١٢ . قدامة بن مظعون .
- ١٣ . عبد الله بن مظعون .
- ١٤ . عبيدة بن الحارث .
- ١٥ . سعيد بن زيد .
- ١٦ . خباب بن الأرت .
- ١٧ . أبو بكر بن أبي قحافة .
- ١٨ . عثمان بن عفان .

وغيرهم من الذين قبلوا دعوة النبي ، وآمنوا بنبوته في هذه الفترة ^(١) .
ولقد كان أقطاب قريش واسيادها منهمكين . طيلة هذه الاعوام الثلاثة . في لهُوهم ومجُوهم ،
ومع أنهم كانوا قد عرفوا بعض الشيء عن دعوة النبي السرية إلا أنهم لم يظهروا أية ردة فعل
تجاهها ، ولم يقوموا بشيء ضدها .
ولقد كان رسول الله ﷺ في هذه السنوات التي تعتبر فترة صياغة الفرد يخرج مع بعض
أتباعه إلى شعاب مكة للصلاة فيها بعيدا عن أنظار قريش .
واتفق أن رآهم بعض المشركين في ما كانوا يُصلّون في شعب من شعاب مكة ، واستنكروا
عملهم هذا ، وأدّى ذلك إلى منازعة عابرة بينهم وبين المشركين جرح على أثرها أحد
المشركين على يدي « سعد بن أبي وقاص » أحد المسلمين ، ومن هنا قرّر رسول الله
ﷺ اتخاذ بيت « الأرقم بن أبي الأرقم » محلا

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٤٥ و ٢٦٢ .

للعبادة بدل شعاب مكة ، ليستطيع القيام فيه بالتبليغ والعبادة بحريّة وأمان ، بعيداً عن أعين المشركين ^(١) .

ولقد كان « عمّار بن ياسر » و « صهيب بن سنان » الروميّ مميّن آمنوا برسول الله ﷺ في ذلك البيت ^(٢) .

دعوة الأقربين :

يشرع العقلاء من الناس من اصحاب البرامج الواسعة والمشاريع الكبرى اعمالهم الكبرى . عادة . من بدايات صغيرة ونقاط محددة ، فإذا حقّقوا نجاحاً في هذه البدايات بادروا إلى توسيع نطاق نشاطهم فوراً ، وهكذا جنباً إلى جنب مع النجاحات التي يحقّقونها في كل خطوة يوسّعون دائرة العمل ، ويجتهدون في تحقيق المزيد من النجاح ، والتكامل لما هم بصدده .

ولقد سأل أحد الشخصيات زعيما في دولة كبيرة من الدول الكبرى المعاصرة : ما هو سر نجاحكم في الاعمال الإجتماعية وما هو الأمر الذي يساعدكم على النجاح في مشاريعكم؟

فأجاب ذلك الزعيم قائلاً : ان طريقة عملنا نحن الغربيين تختلف عن طريقتكم انتم أهل الشرق ، فنحن دائماً نخطّط لمشاريع كبرى ونبدأ من مكان صغير ، وبعد إحراز النجاح نعدم إلى توسيع نطاق العمل ، وإذا اكتشفنا في منتصف الطريق خطأ برنامجنا غيرنا أسلوب عملنا ، وعدلنا إلى طريقة أخرى ، وبدأنا بعمل آخر .

أما أنتم الشرقيون فتدخلون ساحة العمل في برامجكم الكبرى من مكان كبير ، وتبدأون من نقطة واسعة ، وتحاولون تطبيق مشروعكم جملة واحدة ، فاذا واجهتم في خلال العمل طريقاً مسدوداً لم يكن في إمكانكم ان ترجعوا من

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٦١ .

٢ . هذا البيت كان عند جبل الصفا ، وكان معروفاً إلى مدة ب « دار الخيزران » أسد الغابة : ج ٤ ، ص ٤٤ ، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٩٢ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٢٨٣ .

منتصف الطريق إلا بتحمل خسائر كبرى فادحة.

هذا مضافاً إلى ان أنفسكم كأنها قد عُجنت بالعجلة ولذلك توذون قطفَ ثمار جهودكم ونتيجة عملكم في الحال دونما صبر وترقّب وانتظار ، وهذه هي بنفسها طريقة تفكير إجتماعية خاطئة ، من شأنها أن تجعل الإنسان أمام طرق مسدودة كثيرة وغريبة. هذا ما قاله ذلك الغربي.

ولكن الذي نتصوره ونعتقده نحن هو : أن هذه الطريقة من التفكير لا ترتبط لا بالشرق ولا بالغرب ، بل هي ميزة العقلاء الاذكياء من الناس ، فانهم يعتمدون هذا الأسلوب لا بنجاح مهاتهم ، وتحقيق مقاصدهم.

ولقد اتبع قائد الإسلام الاكبر الرسول الاعظم ﷺ هذه الطريقة في عمله الرسالي فركّز جهده على الدعوة السرية إلى دينه مدة ثلاثة أعوام من دون تعجّل ، وكان يعرض دينه على كل من وجده أهلاً للدعوة ، ومستعداً من الناحية الفكرية للتبليغ.

فرغم أنه كان يهدف إلى تشكيل دولة عالمية كبرى ينضوي تحت لوائها (لواء التوحيد) جميع أفراد البشرية ، إلا أنه لم يعمد إلى الدعوة العامة طيلة هذه الأعوام الثلاثة ، بل لم يوجّه الدعوة الخاصة حتى إلى أقاربه ، إنما اكتفى بالاتصال الشخصي بمن وجده مؤهلاً وصالحاً للدعوة ، ومستعداً لقبول الدين ، حتى أنه استطاع في هذه الأعوام الثلاثة أن يكسب فريقاً من الأتباع من الذين اهتموا إلى دينه وقبلوا دعوته.

وقد كان زعماء قريش . كما اسلفنا . منهمكين طوال هذه الأعوام الثلاثة في اللقّ والهوى وكان فرعون « مكة » وطاغيتها : « أبو سفيان » وجماعته كلما سمعوا بالدعوة اطلقوا ضحكة استهزاء وقالوا لانفسهم : إنّها أيتام وتنطفئ بعدها شعلة الدعوة هذه فوراً تماماً كما انطفأت من قبل دعوة « ورقة » و « امية » (اللذين أخذوا يجبّدان إلى العرب التوجه نحو المسيحية ونبد الوثنية بعد أن قرء الانجيل والتوراة) وبالتالي لن يمر زمان حتى ينسى هذا الأمر ، ويغدو خبراً بعد أثر ، بل

لا شيء يُذكر.

بهذا التصوّر ، وبهذه العقليّة واجهت زعامة « مكة » دعوة النبي في البداية ، ولهذا لم يقيم زعماء قريش خلال هذه السنوات الثلاث بأي عمّل عدائي ضد رسول الله ﷺ ، بل ظلّوا ينظرون إليه بنظر الإحترام ، ويُرَاعون معه قواعد الأدب والسلوك ، وكان النبيّ هو أيضاً لا يتعرض لأصنامهم وأهنتهم في هذه الأعوام الثلاثة بسوء ولا يتناولها بالنقد والاعتراض بصورة علنية ، بل كان مركزاً جهده على الاتصال الشخصي بذوي البصائر من الأشخاص وهدايتهم إلى دينه الخفيف.

ولكن منذ أن بدأ النبيّ دعوة الأقربين وأخذ ينتقد وثنيتهم ، ويذكر أوثانهم بسوء ويعترض على تصرفاتهم اللإنسانية أصبح حديث الألسن. ومنذ ذلك اليوم ايضاً بدأت يقظة قريش ، وعرفوا أمر محمّد يختلف عن أمر « ورقة » و « أمية » اختلافاً بينا وانه لبين الدعوتين فرقا كبيراً ، ولهذا بدأت المعارضة والمخالفة السريّة والعلنية ، لدعوة النبيّ.

وقد بدأ النبيّ ﷺ بكسر جدار الصمت بدعوة أقبائه إلى دينه ثم شرع بعد ذلك بدعوة الناس أجمعين.

على أنه ما من شك في أن الاصلاحات العميقة التي يراد لها ان تترك أثراً في جميع شؤون الناس وكل مناحي حياتهم ، وتغيّر مسير المجتمع تحتاج قبل أيّ شيء إلى قوتين :

١ . قوة البيان ، بأن يستطيع الداعية والمصلح بيان الحقائق التي جاء بها من أفكاره الخاصة ، أو ما تلقّاه عن طريق آخر إلى الناس بأسلوب جذاب ، يأسر القلوب ، ويسحر العقول.

٢ . القوة الدفاعية التي يستطيع تشكيل خط دفاعي منها عند التعرض لهجوم الأعداء والخصوم ، وفي غير هذه الصورة ستنتفضى شعلة الدعوة ويفشل المصلح في خطاه الأولى.

ولقد كان البيان لدى رسول الله ﷺ في أعلى مرتبة من

الكمال فكان قادراً كأقوى خطيب على بيان تعاليم دينه للناس في غاية الفصاحة والبلاغة. ولكنه كان يفتقر في الأيام الأولى من دعوته إلى عنصر (القوة الثانية) ، أي (القوة الدفاعية) ، الرادعة الحامية ، لأنه استطاع في السنوات الثلاث الأولى من رسالته أن يضم إلى دعوته قرابة أربعين شخصاً ، وذلك في الظروف السرية الشديدة ، ولا ريب ان تلك القلة القليلة من الاتباع لم تكن قادرة على أن تتولى مسؤولية الدفاع عن النبي ﷺ ، وحماية رسالته.

من هنا عمّد رسول الله ﷺ وبهدف تحصيل القوة الدفاعية المطلوبة وتشكيل النواة المركزية إلى دعوة أقربائه إلى دينه قبل التوجه بالدعوة إلى عامة الناس ، ليتمكن من هذا الطريق ، أن يزيل النقص من جهة عدم وجود القوة الثانية ، ويكون منهم سياًجاً قوياً يحفظه ، ويحفظ رسالته من الأخطار المحتملة.

على أن فائدة هذه الدعوة كانت على الأقل دفع أبناء عشيرته إلى الدفاع عنه بدافع القربى والرحم على فرض أنهم لم يؤمنوا برسالته ، ولم يقبلوا دعوته.

هذا مضافاً إلى انه ﷺ كان يعتقد ان أي إصلاح وتغيير لابد أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره ، فما لم يستطع الإنسان من إصلاح أبنائه وأقربائه وردعهم عن قبائح الأفعال لا يمكن لدعوته أبداً أن تؤثر في الأجنب والأبعدين ، لأن المناوئين سيعترضون عليه لدعوته في هذه الحالة ، ويشيرون إلى أفعال أبنائه وعشيرته.

من هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين إذ خاطبه قائلاً : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي جِئْتُكُم بِالْبَيِّنَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** » (١).

كما أنه خاطبه بصدد دعوة الناس عامة بقوله : « **فَأَصْبَحَ بِمَا نُبِّئُ مُرَضِعًا وَّعَرَضًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** » (٢).

١ . الشعراء : ٢١٤ .

٢ . الحجر : ٩٤ و ٩٥ .

كيفية دعوة الأقرين :

كانت طريقة رسول الله ﷺ في دعوة عشيرته الأقرين طريقة جميلة وذكية جداً ، فقد تجلّت في ذلك حقيقة أوضحت اسرار هذه الدعوة في ما بعد أكثر فأكثر.

فان المفسرين كتبوا عند قوله تعالى : « وانذر عشيرتك الاقرين » وكذا الأغلبية القريبة للاجماع من المؤرخين أن الله أمر نبيه ﷺ بأن ينذر عشيرته الأقرين ويدعوهم إلى دينه ورسالته فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب الذي كان آنذاك في ربيع الثامن عشر أو الخامس عشر بأن يُعدّ طعاماً ولبناً ، ثم دعا ﷺ خمسا وأربعين رجلا من سراة بني هاشم ووجههم ، وعزم على أن ييؤح لضيوفه ويكشف لهم من امر رسالته في خلال تلك الضيافة إلا أنه . وللأسف . ما أن أنتهوا من الطعام حتى بادر أبو لهب فتكلم بكلمات سخيفة قبل أن يتحدّ النبي ﷺ مما جعل الجو غير مناسب لأن يطرح النبي ﷺ موضوع رسالته عليهم ، فانفض المجلس دون تحقيق هذا الغرض.

ولما كان من غد أمر النبي عليا عليه السلام باعداد الطعام واللبن ثانية ، وكرّر دعوة تلك الجماعة ، إلى ضيافة أخرى ، وبعد أن فرغوا من الطعام تكلم رسول الله ﷺ فقال :

« إنّ الرائد لا يكذب أهله ولله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصّة وإلى الناس عامّة والله لتموتنّ كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون ولتحاسبنّ بما تعملون وإنها الجنة أبداً ولنار أبداً .»

ثم قال :

« يا بني عبد المطلب اني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومَه بأفضل مما جئتكم به ، اتي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عزوجل أن ادعوكم إليه فأيتكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و

وَصِيِّي وَخَلِيْفَتِي فِيْكُمْ؟»

ولما بلغ النبي ﷺ إلى هذه النقطة . وبينما أمسك القوم وسكّثوا عن آخرهم إذ كان كل واحد منهم يفكر في ما يؤول إليه هذا الامر العظيم ، وما يكتنفه من أخطار . قام « علي » عليه السلام فجأة ، وهو آنذاك في الثالثة أو الخامسة عشرة من عمره ، وقال وهو يكسر بكلماته الشجاعة . جدار الصمت والذهول . :

أنا يا رسول الله أكون و يرك على ما بعثك الله .»

فقال له رسول الله ﷺ : إجلس ، ثم كرر دعوته ثانية وثالثة وفي كل مرة يحجم القوم عن تلبية مطلبه ، ويقوم « علي » ويعلن عن استعداده لمؤازرة النبي ، ويأمره رسول الله بالجلوس حتى إذا كان في المرة الثالثة أخذ رسول الله بيده والتفت إلى الحاضرين من عشيرته الاقربين وقال :

« إن هذا أخي و صيِّي وَخَلِيْفَتِي فِيْكُمْ (أو عَلَيْكُمْ) فاسمِعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا .»

فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبي طالب « قد أمرك أن تسمع لا بنك وتطيع وجعله عليك أميرا » (١) .

إن ما كتبه هو . في الحقيقة . خلاصة لحديث مفصّل رواه أكثر المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة ، ولم يشكك في صحته أحد ، بل اعتبروه من مسلّمات التاريخ ، الا « ابن تيمية » الذي اتخذ موقفا خاص من أهل بيت النبي صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

خيانة تاريخية وجناية أدبية!!

إن تحريف الحقائق وقلبها ، أو إخفاء الوقائع هو حقاً من أوضح مصاديق

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٦٢ و ٦٣ ، تاريخ الكامل : ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، مسند أحمد : ج ١ ، ص

١١١ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٣ ص ٢١٠ و ٢١١ .

الخيانة والجنائية.

ولقد سلكَ فريقٌ من الكُتّاب المتعصبين عبر التاريخ للأسف مثل هذا الطريق المقبوح ، وأسقطوا مؤلفاتهم العلميّة والتاريخيّة بارتكابهم خطيئة التحريف في جملة من الحقائق ، من الاعتبار ، وهم يخالون ان عملهم قادر على ان يبقي الحقائق في هالة الإهمال والغموض . إلا أنّ أمر هؤلاء قد انكشف مع انقضاء الزّمن ، وتكامل العِلْم ، ودفع بفريق من أهل التحقيق والإنصاف إلى أن يمزقوا بأطراف اقلامهم حجب الزيف والتحريف ويُظهروا الوقائع والحقائق على حقيقتها.

وإليك في ما يأتي بعض هذا الخيانات :

١ . لقد ذكر محمّد بن جرير الطبري (المتوفى عام ٣١٠ هـ) في تاريخه حادثة دعوة الأفرين بشكل مفصّل وعلى النحو الذي مر على القارئ الكريم . بيد أنه جرّ في تفسيره^(١) وكتّم ، فهو عند تفسير قوله تعالى : « وَأَنْلِ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » يذكر كل ما ذكره في تاريخه ، ولكنه يغيّر ويبدّل في قول رسول الله ﷺ حيث يقول : « على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي » ، فهو يكتب في تفسيره هكذا : « على أن يكون كذا وكذا » .

ولا ريب أنّ في تغيير عبارة « أخي ووصيي وخليفتي عليكم (أو فيكم) إلى : « كذا وكذا » غرضاً مريضاً ، وهو بالتالي خيانة تاريخية فاضحة .

على أن الطبري لم يكتف بهذا القدر من التغيير في الكلام رسول الله ﷺ بل غير حتى في الجملة التي تعقبها وهي قوله ﷺ بعد أن قام عليّ ؑ للمرة الثالثة وأعلن عن استعداده لمؤازرة النبي بعد إحجام القوم وسكوتهم : « إن هذا أخي ووصيي وخليفتي » حيث أبدلها بعبارة : « إنّ هذا أخي وكذا وكذا !!! »

إن على المؤرخ أن يكون حراً وشهماً في كتابة الحقائق وروايتها ، فيثبتها

١ . تفسير الطبري : ج ١٩ ، ص ٧٤ .

ويرويها كما هي ، بكل شجاعة ، وصلابة.

ولا ريب ان الذي دفع بالطبري إلى أن يرتكب مثل ذلك التبديل والتغيير هو تعصبه المذهبي ، فهو لا يعتبر الإمام علياً خليفة رسول الله بلا فصل ، وحيث أن تينك الكلمتين : « خَلِيفَتِي وَوَصِيِّي » تصرّحان بخلافة « علي » للنبي ووصايته بلا فصل لذلك يغير ويبدل حتى ينتصر لمذهبه بالتحريف في شأن نزول هذه الآية أيضا.

٢ . ولقد فعل ابن كثير (المتوفى عام ٧٣٢ هـ) نظير هذا في تاريخه ^(١) وكذا في تفسيره (ج ٣ ص ٣٥١) وسلك نفس الطريق الذي سلكه . من قبل . سلفه الطبري ضاربا عرض الجدار مبدأ أمانة النقل!!!

ونحن لا نعذر ابن كثير في عمله هذا أبداً ، لأنه قد اعتمد . في رواياته التاريخية ، في تاريخه وتفسيره معاً . تاريخ الطبري ، لا تفسيره ولا شك أنه قد مرّ على هذه القصة في تاريخ الطبري ، ولكنّه مع ذلك حاد عن الطريق السويّ فأعرض عن نقل رواية التاريخ . في هذه الحادثة . وعمد . بصورة غير متوقعة . إلى نقل رواية التفسير!!!

٣ . والأغرب من تينك الخيانتين ما ارتكبه . في عصرنا الحاضر . وزير المعارف المصرية الأسبق الدكتور « هيكل » في كتابه « حياة محمد » ، وفتح بعمله باب التحريف في وجه الجيل الحاضر .

والعجب ان « هيكل » هاجم . في مقدمته . جماعة المستشرقين بشدة وانتقدهم بعنف لتحريفهم الحقائق التاريخية ، واختلاقهم لبعض الوقائع في حين لم يقصر عنهم في هذا السبيل فهو :

أولاً : نقل الواقعة المذكورة (دعوة الاقربين المعروفة بحادثة يوم الدار أو حديث بدء الدعوة) في الطبعة الأولى من كتابه المذكور بصورة مبتورة ومقتضبة جدا واكتفى من الحملتين الحساستين بذكر واحدة منهما فقط وهي : قول النبي مخاطبا

١ . البداية والنهاية : ج ٢ ، ص ٤٠ .

الحضور في ذلك اليوم : « مَنْ يُؤَازِرُنِي يَكُونُ أَخِي وَصَيِّي وَخَلِيفَتِي » بينما حذف بالمرّة الجملة التي قالها رسول الله ﷺ لِعَلِيٍّ بعد أن قام للمرة الثانية وأعلن موازرتة للنبي وهي قوله ﷺ : « إِنَّ هَذَا أَخِي وَصَيِّي وَخَلِيفَتِي »!!!

ثانياً : أنّه خطى في الطبقات الثانية والثالثة والرابعة ، خطوة أبعد حيث حذف كلتا الجملتين معاً وبهذا قد وجّه ضربة كبرى إلى قيمته ككاتب . وقيمة كتابه ، كدراسة تاريخية!!

النبوة والإمامة توأمان :

إن الاعلان عن وصاية عليّ عليه السلام وخلافته في مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوة يفيد بقوة ووضوح . أنّ هذين المنصبين ليسا بأمرين منفصلين ، ففي اليوم الذي يعلن فيه رسول الله عن رسالته ونبوته ، يعين خليفته ووصيه من بعده ، وهذا يشهد . بجلاء . بأن النبوة والإمامة يشكّان قاعدة واحدة ، وأن هذين المنصبين إن هما الاكحلقتين متصلتين لا يفصل بينهما شيء .

كما أن هذه الحادثة تكشف . من جانب آخر عن مدى الشجاعة الروحية التي كان يتحلّى بها الإمام امير المؤمنين « عليّ بن أبي طالب » عليه السلام ، حيث قام . في مجلس أحجم فيه الشيوخ الدهاة والسادة المحرّبون عن قبول دعوة النبي ﷺ خوفاً وتهيّأ . وأعلن بكل شجاعة مؤازرتة للنبي ، واستعداده للتضحية في سبيل دينه ورسالته وهو آنذاك غلام في ريعه الثالث أو الخامس عشر ، وما حابى أعداء الرسالة ولا ماشاهم كما فعل المصلحون من الساسة والزعماء المتخوّفون على مصالحهم ومراكزهم آنذاك!!!

صحيح ان « عليّ » عليه السلام كان في ذلك اليوم أصغر الحاضرين سنّاً إلا أن معاشرته الطويلة للنبي قد هيأت قلبه لتقبّل الحقائق التي تردّد شيوخ القوم في قبولها ، بل عجزوا عن دركها وفهمها!!

ولقد اعطى ابو جعفر الإسكافي حق الكلام في هذا المجال إذ قال :

فهل يُكَلِّفُ عملُ الطعامِ ، ودعاء القومِ صغيرٌ غير مميّز ، و غير غير عاقل ، وهل يؤثّر على سر النبوة طفل ... وهل يُدعى في جملة الشيوخ والكهول إلاّ عاقل لبيب ، وهل يضع رسول الله ﷺ يده في يده ، ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصيّة ، والخلافة ، الا وهو أهل لذلك ، بالغ حدّ التكليف ، محتمل لولاية الله ، وعداوة أعدائه ، وما بال هذا الطفل لم يأنس باقرانه ولم يلصق بأشكاله ، ولم يُرمع الصبيان في ملاعبهم بعد اسلامه ، وهو كأحدهم في طبقتهم كبعضهم في معرفته ، وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته بل ما رأيناه الا ماضياً على اسلامه ، مصمماً في أمره ، محققاً لقوله بفعله ، قد صدّق اسلامه بعفاهه وزهده ، ولصق برسول الله ﷺ من بين جميع من حضرته فهو أمينه واليفه في دنياه واخرته ^(١) .

١ - شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ١٣ ، ص ٢١٥ و ٢٩٥ .

الدعوة العامة

كان قد انقضى ثلاث سنوات على بدء البعثة يوم عمد رسول الله ﷺ إلى دعوة الناس عامة بعد دعوة عشيرته الاقربين.

فقد استطاع خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوة أن يهدي . من خلال الاتصالات السرية . مجموعة من الاشخاص إلى الإسلام ولكنبه دعا هذه المرّة وبصوت عال عامة الناس إلى دين التوحيد.

فقد وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا ونادى بصوت عال : يا صباحاه (وهي كلمة كانت العرب تطلقها كلما أحسّت بخطر ، أو بلغها نبأ مُرعب فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الخطر) (١) فلقت نداء النبي ﷺ هذا نظر الناس فاجتمع حوله جماعة من أبناء القبائل المختلفة وقالوا : له ما لكِ

فقال ﷺ : أرايتكم إن أخبرتكم أنّ العدو مُصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدّقونني؟

١ . قال الجزري في النهاية : ج ٢ ، ص ٢٧١ : سعد النبي ﷺ على الصفا وقال : يا صباحاه ؛ هذه كلمة يقونها المستغيث ، وأصلها إذا صاحوا للغارة لانهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمّون يوم الغارة يوم الصباح ، فكان القائل : يا صباحاه يقول : قد غشنا العدو .

قالوا : بلى .

قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

ثم قال : إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى اهله فجعل يهتف : واصباحاه (١) .

ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء ، قبل هذا ولكنها تملكها الخوفُ هذه المرة ، وهي تسمعُ ذلك الانذار القويّ فبادر أحد قادة الكفر إلى تبديد تلك المخاوف فوراً إذ قال لرسول الله ﷺ : تَبَّأ لك ، ألهذا دعوتنا؟ ، وتفرّق على أثرها الناس .

الثبات والإستقامة على طريق الهدف :

إن نجاح أي شخص مرهون بأمرين :

الأول : الإيمان بالهدف .

والثاني : الاستقامة والثبات والسعي الدائب لتحقيق ذلك .

إنّ الإيمان هو المحرّك الباطني والقوة الخفية التي تجر الإنسان شاء أم لم يشأ نحو الغاية التي يتوخاها ، وتسهّل عليه الصعاب ، وتدعوه إلى العمل الدائب لتحقيق مقصوده ، لأن شخصاً كهذا يعتقد إعتقاداً قوياً بأنّ سعادته ، ومجده يتوقّفان على ذلك .
وبعبارة أخرى : إذا آمن انسان بأن سعادته ومجده يتوقّفان على تحقيق هدف معين فانه سيندفع بقوة الإيمان نحو تحقيق ذلك الهدف ، متجاوزاً كل الصعاب ، ومتحدياً كل المشكلات في ذلك السبيل .

فالمرضى الذي يرى شفاءه في شرب دواء مر مثلاً سيستسهل شربه .

والغوّص الذي يعتقد إعتقاداً جازماً بأن ثمّة درر غالية الثمن تحت أمواج البحر سيلقي بنفسه في قلب تلك الأمواج دونما خوف أو وجل ، ليخرج منها بعد

١ . السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١٩٤ .

الجماعة ، وعناصر هذه النهضة لم يكونوا من قبيلة واحدة ، ليتمكن مواجهتها وضربها بكلّ قوة ، بل إنتمى من كل قبيلة إلى الإسلام ، عددٌ من الأفراد ، ومن هنا لم يكن إتخاذ أيّ قرار حاسم بحقّهم أمراً سهلاً وبسيطاً .

من هنا قرّر سادة قريش وكبيراؤها . بعد تداول الأمر في ما بينهم . أن يبدأوا بالقضاء على أساس هذه الجماعة ، ومحرك هذا الحزب ، والداعي إلى هذه العقيدة بمختلف الوسائل فيحاولوا ثنيه عن دعوته بالاغراء والتطميع تارة ويمنعوا من انتشار دينه بالتهديد والايذاء تارة أخرى .

وقد كان هذا هو برنامج قريش وموقفها من الدعوة طيلة عشر سنوات وهي المدة المتبقية من سنوات البعثة من الفترة المكية ، إلى ان قررت بالتالي قتله ، ولكنه استطاع ان يبطل مؤامرتهم بالهجرة إلى المدينة قبل أن يتمكنوا من القضاء عليه .

ولقد كان « أبو طالب » آنذاك زعيم بني هاشم ورئيسها المطلق ، وكان رجلاً طاهر القلب عالي الهمة ، شجاعاً ، كريماً ، وكان بيته ملجأً دافعاً للمحرومين والمستضعفين ، وملاذاً أميناً للفقراء والأيتام ، وكان يتمتع في المجتمع العربي . علاوة على رئاسة مكة وبعض مناصب الكعبة . بمكانة كبرى ومنزلة عظيمة ، وحيث أنّه كان كفيلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاة جدّه « عبد المطلب » ، لذلك حضر سادة قريش بصورة جماعية ^(١) عنده وقالوا له :

« يا أبا طالب إن ابن أخيك قدسب آهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا وضللّ آباءنا ، فأمّا أن تكفّه عتاً ، وإما أن تخلّي بيننا وبينه . » .
ولكن « أبا طالب » قال لهم قولاً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً حكيماً ، فانصرفوا عنه .
بيد أنّ نفوذ الإسلام وانتشاره كان يتزايد باستمرار ، وكانت جاذبيّة الدّين المحمّدي ، وبيان القرآن البليغ يساعدان على ذلك ، فيترك اثره في الناس ،

١ . ادراج ابن هشام في سيرته : ج ١ ، ص ٢٦٤ و ٢٦٥ اسماءهم بالتفصيل .

وخاصة في الأشهر الحرم حيث تفد الحجيج على مكة من مختلف أنحاء الجزيرة ، وكان النبي ﷺ يعرض دينه عليهم ، فكانت أحاديثه الجذابة ، وكلماته البليغة ، ودينه المحبب تؤثر في قلوب كثير منهم ، فيميلون إلى الإسلام ويقبلون دعوة الرسول .

وهنا أدرك طغاة مكة وفراعنتها أن « محمدًا » قد بدأ يفتح له مكانا في قلوب جميع القبائل ، واصبح له انصارٌ واتباعٌ في كثير منها ، مما دفعهم مرةً أخرى إلى الحضور عند « أبي طالب » حاميه الوحيد ، وتذكيره بالإشارة والتصريح بالاحطار المحدقة باستقلال المكّيين وعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وانتشاره فقالوا له أجمع :

يا أبا طالب ، إن لك سنًا ، وشرفًا ، ومنزلةً فينا ، وإنّا قد استنهييناك من ابن اخيك فلم تنهه عنّا ، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وعيب أهتنا ، حتّى تكفه عنّا ، أو ننازله وإيّاك في ذلك حتّى يهلك أحد الفريقين .

فأدرك حامى الرسول الوحيد . بذكائه وفطنته . أن عليه أن يصبر أمام جماعة ترى وجودها ، ومصالحها في خطر ، من هنا عمّد إلى مسالمتهم وملاطفتهم ، ووعد بأن يبلغ ابن اخيه « محمد » كلامهم . وقد كان هذا محاولة من « أبي طالب » لتسكين غضب تلك الجماعة الغاضبة وإطفاء نائرهم ، وتهذئة حواظرهم ، ليتّم معالجة هذه المشكلة . بعد ذلك . بطريقة أصح وأفضل .

ولهذا أقبل . بعد خروج تلك الجماعة من عنده . على ابن اخيه ، وذكر له ما قال له القوم ، وهو يريد . بذلك ضمناً . إختبار إيمان « محمد » بهدفة ، فكان الردّ العظيم ، والجواب الخالد الذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الاكبر « محمد » رسول الله ﷺ ، حيث قال لعّمه بعد أن سمع مقالة قريش :

« يا عمّ ، والله لو وضعوا الشّمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله ، أو اهلك فيه ، ما تركته » .

ثم اغرورقت عيناه الشريفتان بدموع الشوق والحب للهدف ، وقام وذهب

من عند عمه.

وكان لتلك الكلمات الصادقة النافذة أثر عجيب في نفس زعيم مكة وسيدها الوقور بحيث نادى ابن اخيه ، وأظهر له استعدادده الكامل للوقوف إلى جانبه ، والحذب عليه رغم كل المخاطر ، والمتاعب التي كانت تكمن له إذ قال :

« إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فَوَ اللَّهُ لا أسلمك لِشَيْءٍ أبداً ».

قريش تمشي إلى أبي طالب للمير الثالثة :

لقد أقلق انتشار الإسلام المتزايد قريشاً ، ودفعها إلى التفكير في حيلة ، فاجتمع أشرافها وسادتها للتشاور مرة أخرى وقالوا :

لعل كفالة أبي طالب لمحمد هي التي تدفعه إلى الدفاع عنه وحمايته والوقوف إلى جانبه في دعوته ، فكيف لو مشوا إليه بأجمل فتیان مكة ، وطلبوا منه أن يأخذه بدل « محمد » ويسلمه اليهم ليروا فيه رأيهم ، ولهذا مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أمهد فتى في قريش وأجمله ، فنخذهُ فلك عقلهُ ونصرهُ ، واتخذهُ ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا ، الذي فرق جماعة قومك ، وسقهُ أحلامهُم فنقتله ، فانما هو رجل برجل!!

فأجابهم أبو طالب وهو مستاء من هذه المساومة الظالمة :

« هذا والله لبئس ما تسومونني! أتعطوني إبنكم أغدوه لكم ، واعطيكم ابني تقتلونهُ ، هذا والله ما لا يكون أبداً ».

فقال « المطعم بن عدي بن نوقل » : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فأجابه أبو طالب قائلاً : والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك ^(١).

١ - تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٦٧ و ٦٨ ، السيرة النبوية لابن هشام : ج ١ ، ص ٢٦٦ و ٢٦٧ .

قريش تحاول تطميع رسول الله!

ولما علمت قريش بأنه لا يمكن ارضاء « أبي طالب » بخذلان ابن أخيه « محمد » ، فهو وإن كان لا يتظاهر بالإسلام ، إلا أنهم يكرُّون لابن أخيه ، وُذناً عميقاً ، ومحبة كبرى من هنا قرروا بأن يتركوا مفاضوة ، إلا أنهم فكَّروا في خطة أخرى وهي أن يُحاولوا إثناء النبي عن المضى في دعوته بتطميعة بالمناصب ، والهدايا ، والأموال والفتيات الجميلات ، ولهذا مشوا إلى بيت « أبي طالب » ودخلوا عليه ومحمد جالس إلى جنبه فتكلَّم متكلمهم وقال : يا محمد انا بعثنا اليك لِنُكَلِّمَكَ ، فانا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومك ما ادخلت على قومه لقد شتمت الآباء ، وعيبت الدين ، وسببت الآلهة ، وسفهت الاحلام ، وفرقت الجماعة ولم يبق امر قبيح الا أتيته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثر مالا ، وان كنت انما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا ، وان كان هذا الذي ياتيك تابعاً من الجن قد غلب عليك بدلنا أموالنا في طبك.

فقال ابو طالب لرسول الله ﷺ أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ، يزعمون انك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟

فتكلم رسول الله ﷺ وقال : يا عم أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤذي اليهم بها العجم الجزية.

ففزعوا لكلمته ، ولقوله فقال القوم كلمة واحدة : نعم وأبيك عشرا.

قالوا : فما هي ، فقال أبو طالب : وأي كلمة هي يا ابن أخي؟

قال : « لا اله الا الله » .

فكان هذا الرد مفاجئة قوية لذلك الفريق الذي يأمل في صرف النبي ﷺ عن هدفه ، ولهذا قاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : « أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب » (١) .

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٠٣ ، تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٦٥ و ٦٦ .

نماذج من إيذاء قريش وتعذيبها للمسلمين :

يوم صلح رسول الله ﷺ بما أمر ، وجهر بدعوته للناس وأيس سادة قريش من قبوله لأي اقتراح من إقتراحاتهم بعد ما سمعوه يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » بدأ في الحقيقة واحداً من أشد فصول حياته ، وأكثرها متاعب ومصاعب ، لأن قريشاً كانت لا تزال إلى ذلك الوقت تراعي حرمة وتحترمه ، وتسيطر على أعصابها ، ولكنها عند ما فشلت في خططها لجره إلى مساومتها اضطرت إلى تغيير نهجها وأسلوبها معه لتقف دون إنتشار دينه مهما كلف من الثمن مستفيدة في هذا السبيل من كل الوسائل الممكنة.

من هنا قرّر سادة قريش بالاجماع أن يتوسّلوا بسلاح الاستهزاء والسخرية ، والإيذاء والتهديد ، بهدف صرفه عن المضى في دعوته^(١).

ولا يخفى أن المصلح الذي يفكر في هداية العالم البشري كله يجب ان يتزود بقدر كبير من الصبر والتحمل ، أمام جميع المشكلات والمتاعب ، والمكاره والشدائد ليتغلب عليها شيئاً فشيئاً ، كما كان دأب كل المصلحين الآخرين.

ونحن هنا نورد طرفاً من أذى قريش لرسول الله وأتباعه ليتضح مدى صبر النبي ﷺ وثباته ، واستقامته على طريق الدعوة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يتمتع . مضافاً إلى العامل الروحي والمعنوي الباطني الذي كان يساعده من الداخل أعني الإيمان والصبر والإستقامة والثبات . بعامل خارجي تولى حراسته وحمايته وذلك حماية بني هاشم ، وعلى رأسهم أبو طالب له ﷺ لأنه عند ما عرف « ابو طالب » بعزم قريش القاطع على إيذاء ابن أخيه (محمد) دعا بني هاشم عامة ، وطلب منهم جميعاً حماية النبي ﷺ والقيام دونه ، فلبّوا نداء سيدهم ، وأجابوه

١ . راجع لمعرفة ابرز من كان يؤذي النبي والمسلمين المخبر : ص ١٥٧ و ١٦١ .

إلى ما دعاهم من حماية رسول الله وحراسته بعضُ بدافع الايمان وآخر بدافع الرّحم ، الآ « أبو لهب » ورجلان آخران انضموا إلى اعداء النبي ﷺ ولكن هذا السياج الدفاعي لم يقدر . مع ذلك . على صيانته ﷺ من بعض الحوادث المرّة ، لأنّ قريشاً ألحقت به الأذى ، وأنزلت به مكروهاً ، كلما وجدته وحيداً بعيداً عن أعين حُماته .
وإليك فيما يأتي بعض النماذج من ذلك الأذى :

١ . مرَّ « أبو جهل » برسول الله ﷺ عند الصفا ، فأذاه وشتمه ونال منه ببعض ما يُكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، فلم يلبث « حمزة بن عبد المطلب » رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلّا وقف وسلّم وتحدّث معهم ، وكان أعز فتى في قريش ، وأشدّ شكيمة .

فلما مرّ بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له : يا أبا عمارة (وتلك هي كنيته) لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمّد أنفا من أبي الحكم بن هشام (وتعنى أبا جهل) : وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبّه ، وبلّغ منه ما يُكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمّد ﷺ .

فغضب « حمزة » لذلك ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتّى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكّرة ، ثم قال : « أتشمته وأنا على دينه أقول ما يقول . فردّ ذلك عليّ أن استطعت » .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى « حمزة » لينصروا « أبا جهل » فقال أبو جهل :

دعوا أبا عمارة فإني قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً^(١). وبهذا منع « أبو جهل » الذي كان ممن يدرك خطورة مثل هذه المواقف من وقوع شجار وقتال.

إنَّ التاريخ الثابت والمسلم يشهد بأن وجود رجال ذوي بأس وقوة بين صفوف المسلمين مثل « حمزة » الذي أصبح في ما بعد من كبار قادة الإسلام ، قد كان له أثر كبير في حفظ الإسلام ، والحفاظ على حياة الرسول ﷺ ودعم جماعة المسلمين ، وتقوية جناحهم ، فهذا ابن الاثير^(٢) يقول عن حمزة : لما اسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع فكفوا عما كانوا يتناولون منه.

من هنا أخذت قريش تفكّر في إعداد خطط أخرى لمواجهة قضية الإسلام والمسلمين ، سنذكرها في المستقبل.

هذا ويرى بعض المؤرخين مثل ابن كثير الشامي^(٣) على أن برود فعل إسلام « أبي بكر » و « عمر » واثرتها لم تكن بأقل من تأثير إسلام « حمزة » ، وأن الدين قوي جانبه بإسلام هذين الرجلين ، وكسب المسلمون بذلك القوة والحرية في العمل والتحرك ، والحقيقة انه لا شك في انه لكل فرد تأثيره في تقوية ودعم الإسلام ، إلا أنه لا يمكن القول بحال بأن تأثير إسلام الشيخين كان يعدل تأثير إسلام « حمزة » ، فإن « حمزة » ما ان سمع بأن قريشا أساءت إلى رسول الله ﷺ إلا وتوجه ، من دون أن يُعرج على أحد ، إلى المسيء وانتقم منه في الحال أشد انتقام ، ولم يجزؤ أحد على الوقوف في وجهه ومنع المسيء منه ، ومن غضبه وانتقامه ، بينما يكتب ابن هشام في سيرته عن « أبي بكر » امرا يكشف عن أن « أبابكر » يوم دخل في صفوف المسلمين لم يكن قادراً على حماية نفسه ، ولا على الدفاع عن النبي ﷺ . واليك نصُّ الواقعة :

مرَّ رسول الله ﷺ ذات يوم على جماعة من قريش وهم جلوس عند الحجر ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول :

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٩١ و ٢٩٢ ، تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٧٢ .

٢ . الكامل لابن الاثير : ج ٢ ، ص ٥٦ .

٣ . البداية والنهاية : ج ٢ ، ص ٢٦ و ٣٢ .

كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول الله ﷺ : نعم أنا الذي أقول ذلك ، فأخذ رجلٌ منهم بمجمع رداءه (وهم يقصدون قتله) فقام « أبو بكر » دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا يقول ربي الله؟ فانصرفوا عنه (ولم يقتلوه لأمر رأوه) ، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله ، ورجع « أبو بكر » يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه^(١) .

إن هذه الرواية التاريخية إذا دلّت على مشاعر الخليفة تجاه النبي ﷺ إلا أنها تدل قبل أي شيء على عجزه وضعفه .

إنه يدلُّ على أنه لم يملك ذلك اليوم لا أية مقدرة بدنية وروحية ، ولا أية مكانة اجتماعية تُرهّب ، وحيث أن إلحاق الأذى بشخص رسول الله ﷺ كان ينطوي . في نظر قريش ذلك على عواقب لا تحمد . لذلك تركوا رسول الله ، ووجّهوا ضربتهم إلى رفيقه وصدعوا فرق رأسه .

ولو أنك قارنت بين هاتين الحادثتين وقايست بين موقف « حمزة » الشجاع وموقف الخليفة الأول هذا لاستطعت أن تقضي بسهولة بأن عزة الإسلام وقوة المسلمين ، وتعزيز موقفهم ، وخوف الكفار كان يعود إلى الإسلام أي واحد من ذينك الرجلين؟

هذا وستقرأ في القريب العاجل كيفية إسلام « عمر » . وسترى بأن إسلامه . كإسلام صديقه . لم يزد هو الآخر من قدرة المسلمين الدفاعية ، وأنهم بالتالي لم يعتزوا بإسلامه .

فيوم أسلم « عمر » كاد أن يُقتل لولا « العاص بن وائل السهمي » لأنه هو الذي خاطب الذين قصدوا قتل « عمر » قائلا : رَجُلٌ اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون منه؟ أترون بني عديّ بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ، خلوا عن الرجل^(٢) .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٨٩ و ٢٩٠ ، وقد ذكر الطبري في تاريخه : ج ٢ ، ص ٧٢ قصة صدع رأس أبي بكر بالتفصيل فراجع .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٤٩ .

إن هذه العبارة التي قالها « العاص » لانقاذ الخليفة الثاني من أيدي الذين اجتمعوا على قتله تفيد . بوضوح . أن الخوف من قبيلة « عمر » هو الذي كان وراء تركهم إياه وعدم قتله ، وقد كان دفاع القبائل عن أبنائها سنة فطرية وعادة متعارفة يومذاك وكان يتساوى فيها الكبير والصغير ، والشريف والوضيع .

أجل إن بني هاشم هم كانوا . في الواقع . الحصن الحقيقي للمسلمين ، وقد كان القسط الأكبر من هذا الأمر يتحمله « أبو طالب » وذووه ، وإلا فإن الأشخاص الآخرين الذين كانوا ينضمون إلى صفوف المسلمين لم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، فكيف بالدفاع عن الإسلام وجماعة المسلمين ليقال بأن المسلمين اعتزوا بهم؟

أبوجهل يكمن لرسول الله :

لقد أغضب تقدم الإسلام المطرد قريشا بشدة فلم يمرُّ يوم دون أن يبلغهم نبأ عن انضمام واحد من أفراد قريش إلى صفوف المسلمين ولأجل هذا راح مرّجّل الغضب والحنق على النبي ﷺ يغلي في نفوسهم ، فهذا فرعون مكة « أبو جهل ... لقريش في مجلس من مجالسهم : يا معشر قريش إن محمداً قد أبي إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتّم آبائنا ، وتسفيه أعلامنا ، وشتّم أهلتنا ، واني أعاهدُ الله لأجلسنَّ له غداً بحجر ما أُطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه .

فلما كان من غد أخذ « أبو جهل » حجراً كما وصّف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ على عادته ووقف للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسود ، وغدت تلك الجماعة من قريش فجلست في انديتها تنتظر ما ابو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ أحتمل « أبو جهل » الحجر ، ثم اقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه ، مرعوباً وقذف الحجر من يده ، فقامت إليه رجالاً من قريش وقالوا له : مالك يا أبا الحكم؟ فقال بصوت ضعيف يطفح بالخوف والرعب : قمت إليه

لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه ما لا رأيتُ مثله حياتي ، فتركته!!^(١) .

إنه ليس من شك في أن قوة غيبية أدركت رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى في تلك اللحظة ، وصوّرت ذلك المنظر الرهيب وحفظت رسول الله ﷺ كما وعده تعالى وعدا لا خلف فيه إذ قال : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »^(٢) .

وهناك نماذج كثيرة من أذى قريش لشخص رسول الله ﷺ سجّلها التاريخ في صفحاته ، وقد عقد « ابن الأثير »^(٣) فصلا خاصا لهذا الموضوع ذكر فيه أسماء أعداء رسول الله ﷺ الألداء ، في مكة ، وبين أنواع ما كانوا يؤذون به النبي ﷺ وما قد مر ذكره في الصفحات السابقة ما هو إلا أمثلة على ذلك ، فقد كان ﷺ يواجه في كل يوم نوعاً خاصاً من الأذى ، والمضايقة .

فقد رُي أن النبي ﷺ كان يطوف ذات يوم فشمته « عقبه بن أبي معيط » وألقى عمامة في عنقه ، وجرّه من المسجد ، فأخذه من يده ، خوفاً من بني هاشم^(٤) .

أبو لهب يؤذي رسول الله :

ولقد تعرّس رسول الله ﷺ لأذى لا مثيل له من جانب عمه « أبي لهب » وزوجته « لم جميل » وقد كان رسول الله ﷺ يجاورهم ، فلم يألوا جهداً في إزعاجه وإيذائه فكم من مرّة ألقيا الرماد

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٩٨ و ٢٩٩ .

٢ . الحجر : ٩٥ .

٣ . الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٤٧ كما وعقد المجلسي رحمه الله في البحار : ج ١٨ بابا خاصا بعنوان : « باب

المبعث واطهار الدعوة وما لقي ﷺ من القوم » راجع من صفحة ١٤٨ إلى صفحة ٢٤٣ .

٤ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٢٩٣ نظيره .

والتراب على رأسه الشريف وثيابه. وكم من مرّة نشرت أم جميل الشوك على طريقه ، أو جمعته باب بيته لتؤذيه عند الخروج.

ولا شك ان معارضة انساب النبي واقربائه لدعوته المباركة ، وايداؤهم اياه كان اكثر ايلاماً لنفسه الشريفة ، واشد وقعاً عليها ، حتّى اننا نجد القرآن يخص أبا لهب باللعن ويسميه بصورة خاصة مما يكشف عن هذه الحقيقة إذ يقول : «يَبِّئْ لَدَايِي ۖ يَبِّ وَتَبِّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. يَهَيِّئْ لِي لِمَ أَتَّ ۖ يَبِّ. مِمَّنَّاهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ»^(١).

صبر النبي ﷺ واستقامته :

ولكن رسول الله ﷺ كان يواجه كل ذلك الأذى وماشابهه من التحججات التي سنشير اليها بصبر عظيم ، وثبات تتعجب منه الجبال السماء ، وذلك اولاً إيماناً منه برسالته.

إيذاء المسلمين وتعذيبهم!

يرجع تقدم الإسلام في مطلع عهد الرسالة إلى عوامل منها : ثبات رسول الله ﷺ نفسه ، وثبات أتباعه وأنصاره.

ولقد تعرفنا . في ما سبق . على أمثلة ونماذج من ثبات قائد الإسلام الاكبر وصبره ، واستقامته في ما لقي من أذى ومضايقة.

على أن ثبات أنصاره واتباعه الذين آمنوا في مكة (مركز الحكومة الوثنية آنذاك) هو الآخر ممّا يدعو إلى الإعجاب ويستحق الاحترام. وسنذكر صمودهم وثباتهم في حوادث ما بعد الهجرة في محله.

وأما هنا فنسلط الضوء على حياة عدد من أتباع رسول الله ﷺ القدامى الذين تحملوا أشد أنواع العذاب وكانوا يعيشون في المحيط المكّي

١. المسد : ٥٠١.

حيث لم يكن ملجأ لهم يلجؤون إليه وهاجروا منه لأغراض الدعوة والتبليغ بعد أن تحملوا شيئاً كثيراً من الإيذاء والتعذيب على أيدي المشركين والوثنيين القساة.

١. بلال الحبشي :

كان أبواه ممن أسروا في الجاهلية وجيء بهم من الحبشة إلى جزيرة العرب ثم إلى مكة. وأما بلال الذي أصبح في ما بعد مؤذن النبي ﷺ فقد كان غلاماً ل « أمية بن خلف » الذي كان من أشد أعداء النبي ﷺ .

وحيث أن عشيرة النبي ﷺ تولت الدفاع عنه ﷺ وحمایته ولم يمكن لأمية إلحاق الأذى برسول الله ﷺ عمد إلى تعذيب غلامه بلال الذي أسلم ، أمام الناس ، بأشد أنواع الأذى والتعذيب إنتقاماً ، وتشفيماً.

فقد كان يطرح بلالاً عارياً على الأحجار والصخور الملتهبة في الهاجرة ، ويضع صخرة على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء والحنة الشديدة : أخذ أخذ (١) .

ولقد أثار ثبات هذا الغلام الأسود وجلده وصبره على أذى سيده ، إعجاب الآخرين ، حتى أن « ورقة بن نوفل » مر عليه وهو يعبد بذلك وهو يقول : أخذ أخذ ، اقبل على « أمية » ومن يصنع به ذلك من « بني جمح » فيقول : احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً (أي لأجعلن قبره متبركاً ومزاراً) (٢) .

وربما زاد « أمية » من تعذيبه لبلال فربط حبلاً بعنقه وترك الصبيان يديرون به في الازقة والسكك (٣) .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣١٧ و ٣١٨ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣١٨ .

٣ . الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

وقد أُسِرَ « أمية » وابنه في معركة « بدر » وكانا أول من أُسِرَا من المشركين ، ولم يوافق بعض المسلمين على قتلها ولكن بلالا قال : « رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ». « وأصرار بلال على قتلها إلى قتل أمية وابنه جزاء أعمالهما الظالمة .

٢ . آل ياسر رمز الصمود والمقاومة!

كان « عمار » ووالده من السابقين إلى الإسلام فهم أسلموا يوم كان رسول الله ﷺ يلتقي باصحابه ويدعو إلى الإسلام في بيت « الأرقم بن أبي الأرقم » ، وعند ما عرف المشركون بانضمامهم إلى صفوف المسلمين عمدوا إلى إيذائهم وتعذيبهم ولم يألوا جهدا في ذلك أبدا .

فقد كان المشركون يخرجون « عمارا » واباه « ياسر » وأمه « سمية » في وقت الظهيرة إلى رمضاء مكة ليقضوا ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة ، وفوق الرمال الملتهبة والصخور المتقدة كأنها الجمرات .

وقد تكرر هذا العذاب مرّات عديدة حتى أودى بحياة « ياسر » فقضى نحبّه على تلك الحال .

وقد خاشنت زوجته « سمية » أبا جهل وكلمته في زوجها بغليظ القول ، فطعنها اللعين برمح في قلبها فقضت . هي الأخرى . نحبّها ، وكانا أول شهيدين في الإسلام ^(١) .

وقد آلم رسول الله ﷺ ما شاهده من حالهما وهما يعدّبان بأشد أنواع العذاب فقال لهُما ولولدهما « عمار » وهو يصبرهم ، والدموع تنحدر على خديّه :
« صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة » ^(٢) .

١ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٤١ والسيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٠٠ ، السيرة الدحلانية بهامش السيرة .

٢ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٠٠ ، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٢٣٨ و ٢٣٩ .

وبعد أن قضى والده « عمّار » نخبهما تحت التعذيب بالغ المشركون القساة في تعذيب « عمّار » وإيدائه والتنكيل به ، وأخذوا يعدّون به بالالا ، وهم يقصدون قتله ، وإلحاقه بأبويه!! أو يتبرأ من دين النبي ﷺ فاضطر إلى أن يعطيهم ما يريدون ويظهر الرجوع عن الإسلام ، إبقاء على نفسه ، وتقيّة منهم فتركوه ، وانصرفوا عن قتله ، ولكنه سرعان ما ندم على فعله من التظاهر بتك الإسلام وتألم من ذلك فجاء إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فقال له النبيّ : كيف تجد قلبك؟ قال : مطمئن بالإيمان قال : ان عادوا فعد ، فنزلت الآية التالية في إيمان عمّار : « إِنَّمَا يَفِيخِرُ الْكَفَّارُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ هُوَ لَكُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مَن بَعَدَ إِيمَانَهُ إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » (١) (٢) .

هذا وروي أن أباجهل حينما قصد تعذيب « آل ياسر » وكانوا أضعف من بمكة أمر بسوط ونار ثم سحبوا عماراً وأبويه على الأرض ، فكان يكوى بطرف السيف والخنجر المحمى بالنار المشتعلة ابدانهم ، ويضربهم بالسوط ضرباً شديداً . وقد تكررّ هذا العمل القاسي كثيرا حتى استشهد « ياسر » وزوجته « سُمَيّة » على أثر ذلك التعذيب المرير ، ولكن دون أن يفتتا حتى النفس الأخير عن مدح رسول الله ﷺ والاشادة بدينه .

ولقد أثار هذا المنظر المؤلم مشاعر فتيان من قريش فأقدموا . رغم عدائهم للإسلام ومشاركتهم لغيرهم من المشركين في بغض الرسول . على تخليص « عمار » الجريح المنهك عذابا من براثن « أبي جهل » ليتمكن من مواراة أبويه الشهيدين .

٣ . عبءُ الله بن مسعود :

تشاور المسلمون في ما بينهم في مقرّمهم السريّ في من يجهر بالقرآن على مسامع قريش ، في المسجد الحرام لأنها لم تسمع منه شيئاً إذ قالوا : واللّه ما سمعت قريش

١ . النحل : ١٠٥ و ١٠٦ .

٢ . الرّاء المنثور : ج ٤ ، ص ١٣٢ عند تفسير الآيتين المذكورتين .

هذا القرآن يجهر لها قط فمن رَجُل يُسْمِعُهُمْوه؟

فأبدى « ابن مسعود » استعدادَه للقيام بهذه العملية الجريئة ، وتلاوة القرآن على مسامع قريش في المسجد الحرام بصوت عال.

فقالوا : إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ ، إِنَّمَا نَزِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ .
قال : دَعَوْنِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي .

ثم غدا « ابن مسعود » حتى أتى المقام في وقت الضحى وقريش في انديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » رافعاً بها صوته ، « الرَّحْمَانُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » وهكذا استمر يقرأ بقية آيات تلك السورة المباركة .

فارعبت عبارات القرآن الفصيحة القوية قلوب سراة قريش ، ولكي يمنعوا من تأثير هذا النداء الإلهي العظيم قاموا إليه جميعاً وجعلوا يضربونه في وجهه ، وجعل هو يقرأ حتى بلَغَ منها ماشاء الله أن يبلغ ثم عاد إلى اصحابه وقد أذْمِي وجهه وجسمه ، وهو مسرورٌ لإسْمَاعِ قريش كتاب الله تعالى وآياته المباركة ^(١) .

إِنَّ الَّذِينَ صَبَدُوا فِي أَشَدِّ الْأَيَّامِ وَأَصْعَبِهَا فِي مَطْلَعِ عَهْدِ الْبَعْثَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ لَا شَيْءَ أَكْثَرَ مِمَّنْ ذَكَرْنَا أَسْمَاءَهُمْ إِلَّا أَنَّا اِكْتَفَيْنَا بِهَذَا الْقَدْرِ رِعَايَةً لِلِاِكْتِصَارِ .

٤ . أبوذر : أول المجاهرين بالإسلام

كان « أبوذر » رابع أو خامس من أسلم ^(٢) ، وعلى هذا فهو من الذين أسلموا في الأيام الأولى من بزوغ شمس الإسلام وطلوع فجره ، فإذَنْ هو من السابقين إلى الإسلام .
وقد صرح القرآن الكريم بأن للذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله في بدء

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣١٤ .

٢ . أسد الغابة : ج ١ ، ص ٣٠١ ، الإصابة : ج ٤ ، ص ٦٤ ، الإستيعاب : ج ٤ ، ص ٦٢ .

بعثته وبالتالي فإنَّ للسابقين عند الله تعالى مكانة عظيمة ، ومقاماً لا يضاهى إذ قال تعالى :
« السابقون السابقون . وأولئك المقربون » ^(١) .

وقال تعالى فيهم أيضاً .

« والسابقون الأولون من المهاجرين ولأنصار وللذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » ^(٢) .

وقال تعالى كذلك في من آمن قبل فتح مكة وفضلهم ، ومكانتهم المعنوية المتفوقة على من أسلم بعد إعتزاز الإسلام ، واشتداد أمره ، وقيام دؤلته يعني أنهم ليسوا سواء .
« لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل وأولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ... » ^(٣) .

أجل هذه هي مكانة السابقين في الإسلام وكان « ابوذر » منهم .

هذا مضافاً إلى أنه يُعدُّ أول من نادى بالإسلام على رؤوس الأشهاد وفي الملاء من قريش .
فيوم اسلم « أبوذر » كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام سراً ، ولم تهيأ بعد ظروف الجهر بالدعوة إلى هذا الدين ، فإنَّ أتباع الإسلام والمؤمنين به لم يتجاوز عددهم في ذلك اليوم عدد الأصابع هم : النبي ﷺ وخمسة ممن آمنوا به ، وقبلوا دعوته ، ومع ملاحظة هذه الإعتبارات والظروف لم يكن بد حسب الظاهر . من أن يُخفي « أبوذر » إسلامه ، ويعودَ إلى قبيلته من دون أن يعرف به أحدٌ في مكة .

ولكنَّ روح « أبي ذر » الطافحة بالإيمان والحماس أبت ذلك ، وكأنه قد خُلِقَ لينهض في كل زمان ومكان ضدَّ الظلم والطغيان ، ويرفع عقيدته في وجه

١ . الواقعة : ١٠ - ١١ .

٢ . التوبة : ١٠٠ .

٣ . الحديد : ١٠ .

الباطل وأهله ، ويكافح الانحراف والاعوجاج أياً كان مصدره ، وصاحبه . وأيُّ باطل أكبر من أن يظأطئ الناس أمام أصنام مصنوعة من الحجر ، ويخضعوا أمام أوثان منحوتة من الخشب لا تضُرُّ ولا تنفع ، ولا تعطي ولا تمنع ، ويسجدوا لها ويتخذوها آلهة دون الله الخالق الكبير المتعال؟؟

إنَّه ليس في وسع « أبي ذر » أن يتحمَّل هذا المشهد البغيض المقرَّف!!
من هنا قال لرسول الله ﷺ بعد أن مكث في مكة قليلاً وقرأ شيئاً من القرآن : يا نبي الله ما تأمرني؟

قال : ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري .

فقال له : والذي نفسي بيده لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد .

قال : اياي اخاف عليك أن تقتل .

قال : لا بد منه وإن قُتلت .

ثم دخل المسجد فنأدى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله

(١)

إن التاريخ الإسلامي يشهد بأن هذا النداء كان أول نداء تحدَّى جيروت قريش وشركها ، وقد اطلقت حنجره رجل غريب لا حامى له في مكة ولا نصير ، ولا قوم ولا قريب .
وقد وقع ما توقعه رسول الله ﷺ فما أن دوى صوت ابي ذر في المسجد حتى قام إليه رجال قريش ، وهجموا عليه من كل جانب وضربوه بشدة حتى صرع فأتاه العباس بن عبد المطلب فأكب عليه في محاولة لانقاذه من الموت . بطريفة لطيفة . وقال : قتلت الرجل يا معشر قريش! انتم تجار وطريقكم على غفار ، فتريدون ان يقطع الطريق ، فامسكوا عنه .
ونجحت محاولة « العباس » الانقاذية ، وكفَّت قريش عن ابي ذر .

١ . حلية الأولياء : ج ١ ، ص ١٥٨ و ١٥٩ ، الطبقات الكبرى : ج ٤ ، ص ٢٢٥ ، الاستيعاب : ج ٤ ، ص ٦٣ ، الاصابة : ج ٤ ، ص ٦٤ ، الدرجات الرفيعة : ص ٢٢٨ .

ولكن أباذر الشباب الشجاع ، والطافح بالحيوية والحماس عاد اليوم الثاني فصنع مثل ما صنعه في اليوم الاول فضربوه حتى صرع ، فأكب عليه العباس ، وقال لهم مثل ما قال في أول مرة فأمسكوا عنه .

ولا شك في انه لو لم يكن العباس لما نجى أبوذر من مخالف المشركين في اغلب الظن ، ولكن أباذر لم يكن بذلك الرجل الذي يتراجع عن هدفه بسرعة ، ولهذا بدأ جهاده من جديد .

ففي يوم رأى امرأة تطوف بالبيت ، وتدعو ساف ونائلة (وهما صنمان لقريش) وتسألهما ان يقضيا لها حاجاتها ، فانزعج أبوذر من جهل تلك المرأة ، ولكي يفهمها بانها تدعو صنمين لا يضران ولا ينفعان بل ولا يشعران قال : أنكحي أحدهما الاخر . فغضبت المرأة لقول أبي ذر في الصنمين ، وتعلقت به وقالت : انت صابئ ، فجاء فتية من قريش فضربوه وجاء ناس من بني بكر فانقذوه منهم ^(١) .

قبيلة غفار تعتنق الإسلام :

لقد أدرك رسول الإسلام ﷺ قابليات تلميذه وناصره الجديد ، وصلابته الخارقة في مكافحة الباطل ، ولكن حيث ان الوقت لم يكن يحسن بعد للدخول في مواجهة ساخنة مع المشركين لهذا أمره رسول الله ﷺ بان يلحق بقومه ، ويدعوهم إلى الإسلام ، قائلاً له : « إلحق بقومك فاذا بلغك ظهوري فأتني » .

فعاد أبوذر إلى قومه ، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام ويكلمهم عن النبي ﷺ ويدعوهم إلى نبذ الاصنام وعبادة الله الواحد ، والتخلق بالاخلاق الرغبية . فاسلم أبواه ، أولاً ، ثم اسلم نصف رجال قبيلته « غفار » ثم اختار البقية الإسلام بعد هجرة النبي إلى المدينة ، ثم تبعها قبيلة « أسلم » حيث وفدوا على

١ . الطبقات الكبرى : ج ٤ ، ص ٢٢٣ .

رسول الله ﷺ واعتنقوا الإسلام.

ثم التحق ابوذر بعد معركة بدر وأحد برسول الله ﷺ في المدينة وأقام فيها^(١).
وربما كان إيذاء المشركين للمسلمين المؤمنين برسول الله ﷺ يتخذ طابع التهديد
والترهيب وممارسة الضغط النفسي والاقتصادي والاجتماعي.
فقد كان ابو جهل إذا سمع بالرجل قد اسلم له شرف ومنعة أئبه وأخزاه ، وقال له :
تركت دين أبيك وهو خير منك ، لئسْفَهَنَّ حَلَمَكَ ، ولنفيلنَّ رأيك ، ولنضعنَّ شرفك.
وإن كان تاجرا قال له : لنكسدنَّ تجارتك ، ولنهلكنَّ مالك.
وإن كان ضعيفاً ضربته ، وأغرى به^(٢).

وروي أيضا أن « خبّاب بن الارت » صاحب رسول الله ﷺ كان قينا بمكة يعمل
السيوف وكان قد باع من « العاص بن وائل » سيوفاً صنعها له حتى كان له عليه مال ،
فجاءه يتقاضاه ، فقال يا خبّاب : أليس يزعم « محمّد » صاحبكم هذا الذي أنت على
دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة أو ثياب أو خدم ، قال خبّاب : بلى ، قال :
فأنظرنني إلى يوم القيامة يا خبّاب حتى أرجع إلى تلك الدار ، فأقضيك هنالك حقك فوالله
لا تكون وصاحبك يا خبّاب اشتر عند الله مني!!^(٣).

أعداء النبي الألهاء :

إن للتعرف على أعداء رسول الله ﷺ وخصومه الالذاء ، ومواقفهم دوراً هاماً في
تحليل جملة من حوادث التاريخ الإسلامي التي وقعت

١ . الطبقات الكبرى : ج ٤ ، ص ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٦ ، الدرجات الرفيعة : ص ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٩
و ٢٣٠.

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٢٠.

٣ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٥٧.

بعد الهجرة النبوية.

- ونحن نكتفي هنا بادراج اسماء طائفة منهم ونذكر شيئاً من خصوصياتهم.
- ١ . « أبو لهب » : عم النبي ﷺ ، وقد كان جاراً له ﷺ وهو الذي لم يفتأ لحظة واحدة عن تكذيب رسول الله ﷺ وايداء المسلمين.
- ٢ . « الاسود بن عبد يغوث » وكان أحد المستهزئين وكان إذا وجد مسلماً فقيراً لا يحميه أحد قال مستهزئاً : هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى!!^(١).
- ولم يمهله أجله ليرى بأمر عينيه كيف ورث المسلمون أرض كسرى وقيصر ، ووطأوا عرشهما.
- ٣ . « الوليد بن المغيرة » شيخ قريش وحكيمها الذي كان يملك ثروة هائلة ، وسوف نتحدث عنه وعن موقفه من رسول الله ﷺ في الفصل القادم.
- ٤ . « أمية » و « أبي » ابنا خلف ، وقد مشى « أبي » هذا بعظم رميم إلى رسول الله ﷺ ذات يوم ففتته في يده ثم نفخه نحو النبي وقال : أتزعم أن ربك يُحيي هذا بعد ما ترى (أو بعد ما رم)؟ فنزل قول الله تعالى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »^(٢).
- وقد قتل ابنا خلف هذان في بَدء .
- ٥ . « أبو الحكم بن هشام » الذي سماه المسلمون لعناده وتعصُّبه الجاهل ضد الإسلام بأبي جهل ، وقد قُتل هو الآخر في بدر أيضاً.
- ٦ . « العاص بن وائل » وهو والد « عمرو بن العاص » ، وهو الذي وصف رسول الله ﷺ بالأبتر.

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣١٨ .

٢ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٠٢ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٦١ و ٣٦٢ .

٧ . « عقبه بن أبي معيط » الذي كان من ألد اعداء النبي ﷺ ، وأشدّ خصومه بغضاً له ﷺ ، وكان لا يألو جهداً في مضايقة المسلمين ولا يترك فرصة تمر دون إيدائهم!^(١)

هؤلاء هم بعض أعداء رسول الله ﷺ المبالغين في معاداته ، وهناك غيرهم كأبي سفيان ممن ذكر المؤرخون خصوصياتهم كاملة في مؤلفاتهم ، وقد عرضنا عن إدراجهم بأجمعهم هنا رعاية للاختصار.

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام :

لقد كان إسلام كل واحد من الذين أحابوا دعوة الرسول ﷺ نابعا من سبب معيّن . فرمّا أدّت حادثة صغيرة إلى أن يعتنق فردٌ أو فريق الإسلام ، وينضمّوا إلى صفوف المسلمين .

وقد اتّسم السبب الذي آل إلى إسلام عمر . من بين جميع تلكم الاسباب والعلل . بطرفة تقتضي التوقف عنده في هذه الدراسة التاريخية التحليلية .

على أن التسلسل التاريخي ، والتنظيم الوقائي لاحداث الإسلام وان كان يقتضي منا ان نأتي على ذكر هذه الحادثة بعد هجرة صحابة النبي ﷺ إلى الحبشة ، إلا أن الحديث حيث دار هنا حول صحابة النبي وكيفية اسلامهم ومواقفهم ناسب أن نشير هنا إلى كيفية إسلام الخليفة الثاني .

يقول ابن هشام : كان اسلام عمر . في ما بلغني . أن أخته بنت الخطاب وكانت عند « سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل » وكانت قد أسلمت وأسلم بعلمها « سعيد بن زيد » ، وهما مستخفيان باسلامهما من عمر (وهؤلاء هم كل من أسلم من آل الخطاب) وكان خبّاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن .

١ . الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٤٧ و ٥١ ، وراجع أيضاً أسد الغابة ، والاصابة والاستيعاب وغيرها .

وكان « عمر » الذي كانت بينه وبين المسلمين علاقات جدا سيئة^(١) قد أزعجه ما أصاب المجتمع المكّي من تشتت وفرقة ، وما لحق بقريش من المتاعب أثر ظهور الإسلام ، من هنا عزم على أن يقضي على علة هذا الأمر باغتيال رسول الله ﷺ والفتك به . فخرج يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه وقد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه « حمزة » بن عبد المطلب و « ابوبكر » و « علي بن ابي طالب » في رجال من المسلمين يفظونه ويحرسونه .

يقول « نعيم بن عبد الله » وقد كان صديقا حميما لعمر : لقيت عمرا وهو متوشح سيفا ويريد مكانا فقلت له : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق في أمر قريش ، وسفه أحلامها وعاب دينها ، وسب أهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً أفلا ترجع إلى اهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال : وأي أهل بيتي؟

قال : خنتك وابن عمك « سعيد بن زيد » واختك « فاطمة بنت الخطاب » فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما .

فأغضب هذا النبأ عمر بشدة فانصرف عن الهدف الذي كان يرمي إليه وعاد من توه إلى بيت أخته ، فدخل على أخته وختنه وعندهما « خباب بن الأرت » معه صحيفة فيها سورة « طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس « عمر » تغيب « خباب » في مخدع لهم ، أو في بعض البيت ، واخفت « فاطمة بنت

١ - راجع السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٦ .

الخطاب « الصحيفة ، وكان « عمر » قد سمع حين دنا إلى البيت قراءة « خبّاب » عليهما ، فلما دخل قال : « ما هذه الهينمة ^(١) التي سمعت؟
قالا له : ما سمعت شيئا.

قال : بلى والله ، لقد أُخبرْتُ أنكما تابعتما محمّداً على دينه.
وبطش بختنه « سعيد بن زيد » فقامت إليه اخته « فاطمة بنت الخطاب » لتكفّه عن
زوجها فضرّبا فشجّها.

فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنه : نعم قد اسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا
لك.

فلما رأى « عمر » ما بأخته من الدّم ندم على ما صنع ، فارعوى ورجع ، وقال لأخته
: اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون أنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمّد؟
فلما قال ذلك قالت له أخته : إنّنا نخشاك عليها. قال : لا تخافي وحلف لها بألمته ليُرَدّها
إذا قرأها ، إليها.

فلما قال ذلك طمعت في اسلامه ، فقالت : يا أُخيّ ، إنك نجسٌ على شركك وإنّه لا
يمسّها إلّا الطاهر ، فقام « عمر » فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها آيات من سورة « طه
» هي : طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكّر لمن يخشى . تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ
مَلَكًا مِّنَ السَّمَاءِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ^(٢) .

ولقد تركت هذه الآيات المحكّمة الفصيحة البليغة تأثيراً شديداً في نفس عمر فقال : ما
احسن هذا الكلام؟

وقرر الرجل ، الذي كان قبل ثوان عدوّ الإسلام الأول ، أن يغيّر موقفه ،

١ . الهينمة صوت كلام لا يُفهم .

٢ . طه : ٨٠ - ١ .

فتوجه من تَوَّه إلى البيت الذي ذكر له أنَّ فيه رسول ﷺ وجماعة من أصحابه وهو متوشح سيفه ، فضربَ عليهم الباب ، فلَمَّا سَمِعُوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع وأخبر النبي ﷺ بما رأى ، فقال حمزة : فائذن له ، فان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله ﷺ : إئذن له ، فأذنَ له الرجل ، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته (وهو موضع شد الإزار) أو بمجمع رداءه ثم جَبَذَهُ جبذَةً شديدةً ، وقال : ما جاء بك يابن الخطاب فولله ما أرى تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة؟! فقال عمر : يا رسول الله جئتك لاؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . وهكذا اسلم « عمر » عند رسول الله ﷺ وأصحابه وانضوى إلى صفوف المسلمين . ثم ان ابن هشام روى رواية أخرى في كيفية اسلام عمر من أراد الوقوف عليها راجعها في السيرة النبوية ^(١) .

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٦ .

رأي قريش في القرآن

ان البحث حول حقيقة الاعجاز القرآني أمر خارج عن اطار هدفنا في هذا الكتاب
فذلك متروك إلى الكتب الإعتقادية والكلامية.

ولكن الأبحاث التاريخية تهدينا إلى أن القرآن الكريم كان من أكبر وأقوى اسلحة الرسول
الاکرم ﷺ بحيث خضع أمام فصاحته البالغة وحلاوة كلماته وقوة آياته ، وعباراته ،
اساتذة الفصاحة والبلاغة وأمراء البيان والكلام ، وعمالقة الكتابة والخطابة ، واعترفوا برمتهم
، وقضهم وقضيتهم بأنّ القرآن الذي جاء به محمّد يحتل أعلى مكان في الفصاحة والبلاغة
، وأنّ مثل هذا الحديث لم يعرفه البشر ولم يعهد له التاريخ الانساني نظيرا.
فلقد كانت جاذبيّة « القرآن الكريم » وتأثير حديثه بحيث ترتعد عند استماع آياته
فرائص أعدى اعدائه ، وربما انهارت قواه ، فبقي مدة طويلة ، لا يقوى على جراك ، ولا
يملك فعل شيء.

وفيما يلي نذكر بعض النماذج في هذا المجال :

حكم الوليد في القرآن :

كان « الوليد بن المغيرة » ممن يرجع إليه العرب لحل الكثير من مشاكلها ،

وكان ذاسنٌ ، وثروة كبيرة فيهم.

وعندما واجهت قريش مشكلة ظهور الإسلام وانتشاره في القبائل مشى فريق منهم إلى الوليد يلتمسون منه حلاً لهذا الأمر الذي بات يهدّد كيان الزعامة المكيّة الجاهلية ، وطلبوا منه أن يبين رأيه في القرآن الكريم وقالوا : هل هو سحر ام كهانة ام حديث قد حاكه بنفسه.

فاستنظرهم « الوليد » ليعطي رأيه فيه بعد أن يسمع شيئاً من القرآن ، فأتى إلى الحجر حيث كان يجلس النبيّ ، وابتلو القرآن ، فقال : يا محمّد أنشدني شعرك . فقال النبيّ ﷺ : ما هو بشعر ، ولكنّه كلام الله الذي به بعث انبياءه ورسله . فقال : أتألّ عليّ منه ، فقرأ عليه رسول الله : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

فلما سمع : الرحمان ، استهزأ فقال : تدعو إلى رجل باليمامة يسمى بالرحمان؟ قال . لا ، ولكني أدعو إلى الله وهو الرحمان الرحيم ثم افتتح سورة « حم السجدة » فلما بلغ إلى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . وسمعه الوليد ، فاقشعر جلده ، وقامت كل شعرة في راسه ولحيته ، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش .

فقال قريش : يا ابا الحكم صبا ابو عبد شمس إلى دين محمّد ، أما تراه لم يرجع إلينا وقد قبل قوله ، ومضى إلى منزله . فاغتمت قريش من ذلك غما شديدا وغدا عليه ابو جهل فقال : يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا .

قال : وما ذاك يا ابن أخي؟

قال : صبوت إلى دين محمّد .

قال : ما صبوت واني على دين قومي وآبائي ، ولكني سمعت كلاماً صعباً

تقشعر منه الجلود فقال أبو جهل : أشعر هو؟

قال : ما هو بشعر.

قال : فخطب هي؟

قال : لا وان الخطب كلام متصل ، وهذا كلام منثور ، لا يشبه بعضه بعضاً ، له طلاوة.

قال : فكأنه هي؟

قال : لا.

قال : فما هو؟

قال : دعني افكر فيه.

فلما كان من الغد ، قالوا : يا ابا عبد شمس ما تقول؟ قال : قولوا : هو سحر فانه أخذ بقلوب الناس فأنزل الله سبحانه فيه : « زُيِّنِي وَمِنْ خَلْقْتِ وَحِيداً * جَعَلْتُ لَهُ لَآئِدًا * وَبَيْنَ شُهُودَا » إلى قوله : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » (١) (٢).

نموذج آخر :

كان « عتبة بن ربيعة » من كبراء قريش واشرافها ، ويوم أسلم « حمزة » وأصبح أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون اغتمت قريش كلها ، وخشي زعماء المشركين ان ينتشر الإسلام أكثر من هذا فقال عتبة وهو جالس في نادي قريش يوماً ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى « محمد » فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

١. المدثر : ٣٠-١١.

٢. بحار الأنوار : ج ١٧ ، ص ٢١١ و ٢١٢ ، إعلام الوري بأعلام الوري : ص ٤١ و ٤٢.

فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه.

فقام إليه « عتبة » حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي إنك منّا حيث ما قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسقّمت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد اسمع.

قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتّى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رتيماً (وهو ما يتراءى للناس من الجن) تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتّى نُبرئك منه فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتّى يداوي منه ، حتّى إذا فرغ « عتبة » ، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم قال : فاسمع مني ؛ قال : إفعال ، قال : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم * تَنْزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْبَابٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » (١) .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلمّا سمعها منه « عتبة » أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه وبقي على هذه مدة من الزمن صامتا وكأنه قد سلّب قدرة النطق ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » .

١ . فصلت : ٥٠١ .

فقام « عتبة » إلى أصحابه وقد تغيّرت ملامحُه فقال بعضهم لبعض : نلحف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال : ورائي ابي قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لقوله هذا الذي سمعتُ منه نبأ عظيم ، فان تصبّه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

فانزعجت قريش من مقالة « عتبة » هذا وسخرت به وقالت : سحرَ والله يا ابا الوليد بلسانه!!

قال : هذا رأيي ، فاصنعوا ما بدا لكم^(١) .
هذان نموذجان من رأي كبار فصحاء العرب في العهد الجاهليّ ، في القرآن الكريم .
على أن هناك أمثلة ونماذج أخرى كثيرة في هذا المجال .

تحججات قريش العجيبة :

اجتمع « عتبة بن ربيعة » ، و « شيبه بن ربيعة » و « أبو سفيان بن حرب » و « النضر بن الحارث » ، و « أبو البخترى » ، و « الوليد بن المغيرة » ، و « ابو جهل » و « العاص بن وائل » وغيرهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : إبعثوا إلى « محمّد » فكلموه ، وخاصموه حتّى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه ؛ فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وانهم قد غيّروا مواقفهم ، وكان يجب رشدهم وهدايتهم حتى جلس إليهم .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٩٣ و ٢٩٤ .

فقالوا له : يا مُحَمَّد إِنَّا قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ لِنَكَلِّمَكَ ، وَأَنَا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مِثْلَ مَا أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ لَقَدْ شَتَمْتَ الْآبَاءَ ، وَعَبَيْتَ الدِّينَ ، وَشَتَمْتَ الْآلِهَةَ ... ومضوا يعددون أمورا من هذا القبيل ثم اقترحوا عليه أمورا ذكرها الله تعالى بتمامها في الآية ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء حيث يقول حاكياً عن لسانهم :

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

١ . تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا .

٢ . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا .

٣ . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا .

٤ . أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ مَلَائِكَةٌ قَبِيلًا .

٥ . أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ نُجُومٍ .

٦ . أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِوَعْدِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ !!

* * *

وحيث أنَّ مضمون هذه الآيات هو عدم تلبية النبي لمطالب قريش حيث قال : « قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّيَ هَبْلَ كُنَيْتٍ إِلَّا بَشْرًا رَسُولًا » قد تدرع به المستشرقون للايقاع بالرسالة المحمدية لذلك نعمد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات والعلل المنطقية لعدم تلبية النبي مطالب قريش ومقترحاتهم.

الجواب : إنَّ الأنبياء لا يأتون بالمعاجز في كل ظرف وزمان ، فإن للاعجاز شروطاً خاصة لم تتوفر في هذه الاقتراحات ، وهذه الشروط هي :
أولاً : أن لا تكون المعجزة من الأمور المستحيلة التي لا يمكن تحققها ، فإنَّ مثل هذه الأمور خارجة عن إطار القدرة ، ولا تتعلق بها مشيئة الله تعالى ولا مشيئة أيِّ صاحب إرادة مطلقاً .

وعلى هذا الأساس إذا طلب الناس من النبيّ أمراً محالاً ، فقبول طلبهم بعدم الاهتمام من قبل النبي لم يكن ذلك دليلاً على إنكار صدور المعجزة على أيدي الأنبياء قط .

وهذا الشرط لم يكن متوفرا في بعض مقترحات المشركين المذكورة (المقترح الرابع) فانهم طلبوا من النبي ﷺ ان يأتي لهم بالله سبحانه وتعالى ليقابلوه وجهاً لوجه ، ويروه جهرة ومن قريب ، ورؤية الله تعالى امر محال ، لأن رؤيته تستلزم أن يكون سبحانه محدوداً بالزمان والمكان ، وأن يكون جسماً وذا لون وصورة وهو تعالى منزّه عن المادّة ولوازم المادية.

بل حتى مقترحهم الثالث لو كان المقصود منه أن تسقط السماء عليهم (لا أن تسقط قطعة من الصخر على رؤوسهم وتقتلهم) فان ذلك هو أيضا من المحالات إذ أن المشيئة الالهية تعلقت بان يفعل الله هذا في نهاية العالم ، والنبي ﷺ كان قد أخبر المشركين بهذا الأمر أيضا كما يدل عليه قولهم : « كما زعمت ».

إنّ إنهدام المنظومة الشمسيّة وتبعثر النجوم وتساقطها وإن لم يكن في حد ذاته بالأمر المحال ، ولكنّه . حسب المشيئة الإلهية الحكيمة وإرادته النافذة القاضية بأن يستمر النوع البشري ، ويصل إلى مرحلة الكمال . يعدّ محالا ، ولا يمكن أن يفعل حكيمّ خلاف ما يقتضيه هدفه وغايته.

ثانيا : حيث أن الغاية المنشودة من اقتراح وطلب الإعجاز هو أن يستلزم به على صدق دعوى النبيّ ، وصحة انتسابه إلى الله ، وبالتالي يكون بدافع تحصيل سند على ارتباطه بعالم ما فوق الطبيعة ، لذلك فان أيّ اقتراح ومطالبة بالمعجزة لا تتوفر فيها هذه الصفة يعني على فرض أن يليّ النبيّ طلبهم ويأتي لهم بالمعجزة لا يكون ذلك دليلا على ارتباطه بعالم الغيب ، فحينئذ لا معنى ولا موجب لأن يقوم النبيّ بما لا يرتبط بشؤونه ولا يخدم هدفه.

وقد كانت بعض مقترحات المشركين المذكورة من هذا النوع ، وذلك مثل تفجير ينبوع من الأرض ، أو أن تكون له جنة من نخيل وعنب ، أو أن يكون له بيت من زخرف وذهب ، فإن مثل هذه الأمور لا تدل على نبوّه من يمتلكها إذ ما أكثر الذين يمتلكون واحدة من هذه الأشياء وليسوا مع ذلك بأنبياء ، بل ربما يملكون أكثر من ذلك ، ومع ذلك لا يشتم فيهم رائحة الايمان فضلا عن النبوة.

فاذا لم ترتبط هذه الأشياء بمقام النبوة ، ولا تكون دليلاً على صدق من يدعيها كان الإتيان بها أمراً لغواً وعبثاً تعالى عنه مقام النبوة ، وجلت عنه منزلة الأنبياء .
وقد يقال : إن هذه الأشياء ^(١) لا تدل على صدق دعوى النبي إذا حصلت عن طريق الأسباب العادية ، ولكنها لو حصلت بصورة غير عادية ولا متعارفة كانت ولا شك من المعاجز الالهية ، ودلت على صدق النبي وصحة دعواه .

ولكن الظاهر أن هذه فكرة باطلة لان المشركين كانوا يهدفون من اقتراحاتهم هذه أن يكون النبي صاحب مال وثروة ، فقد كانوا يستبعدون أن يكون نبي الله ورسوله فقيراً لا يملك شيئاً من الثروة والمال ، وكانوا يعتقدون أن الوحي الالهي يجب أن ينزل على رجل غني ذي طول وحول ، ولذلك قالوا مستغربين ومستنكرين : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » ^(٢) !!

أي لماذا لم ينزل هذا القرآن على رجل ثري من مكة أو الطائف .
ومما يدل على أن الهدف كان هو أن يملك النبي مثل هذه الأمور بأي طريق كان ، ولو بالطريق العادي أنهم كانوا يريدون هذه الأشياء للنبي نفسه إذ قالوا : « أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ نُجُفٍ » ^(٣) .

وبعبارة أخرى : كانوا يقولون إذا أنت لا تمتلك بستاناً أو بيتاً من ذهب فاننا لن نؤمن لك!!

ولو كان الهدف هو أن يحصل هذان الأمران بواسطة القدرة الغيبية لم يكن وجه حينئذ لقولهم : ما لم يكن « لَكَ » بيتٌ من زخرف ، فاننا نؤمن بك بل كان يكفي أن يقولوا : إذا لم تتحد وتوجد بيتاً وجنة فاننا لن نؤمن لك .

١ . أي الامور الثلاثة المقترحة الينبوع والجنة والبيت من ذهب .

٢ . الزخرف : ٣١ .

٣ . الاسراء : ٩٣ .

أما قولهم في مطلع اقتراحاتهم : « تُفَجِّرْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُنبِئُهَا » فان مقصودهم لم يكن هو أن يستخرج لهم بالاعجاز ينبوعاً لينتفعوا به ، بل يفعل ذلك لكي يؤمنوا به .

ثالثاً : ان المقصود من المعجزة هو الاهتداء في ضوئها إلى صحّة دعوى النبي وصدق مقاله ، والإيمان بمنصبه ، والإعتقاد بمقامه ، وعلى هذا إذا كان بين المقترحين للمعجزة من يكونُ الاتيان له بالإعجاز سبباً لإيمانه بالنبيّ ، فحينئذ كان الاتيان بالمعجزة وتلبية اقتراحه أمراً مستحسنًا ، وغير مقبوح عقلاً .

أما إذا كان المقترحون ، يفترون عناداً ولجاجاً ، أو يطلبون ما يطلبونه لهواً وتسليّةً كما يفعل الناس مع السحرة والمرتابين فان منزلة الأنبياء أجل . حينئذ . من أن يليّ مثل هذه المقترحات ، ويستجيب لمثل هذه المطالب ، وقد كانت بعض إقتراحات المشركين من هذا النمط .

فان مطالبتهم بأن يصعدَ النبيُّ إلى السماء ، أو أن يُنزل من السماء كتاباً يقرأونه لم يكن بهدف إكتشاف الحقيقة لأنهم لو كانوا ممن يهدف الوصول إلى الحقيقة فلماذا لم يكتبوا بمجرد صعوده إلى السماء بل كانوا يصوِّرون على أن يضمّ أمراً آخر إلى عروجه وصعوده (وهو أن ينزّ معه كتاباً) !!

ثم أنه يُستفاد من آيات أخرى ، غير هاتين الآيتين ايضاً ، أنهم كانوا سيعاندون ، ويصرون على كفرهم حتى بعد نزول الكتاب عليهم من السماء كما يصرح بذلك قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ بَيْنُنَا » (١) .

فمن غير المستبعد أن يكون الكتاب المنزّل في قرطاس إشارة إلى إقتراح المشركين الذي جاء ضمن آيات سورة الاسراء أي قولهم : « أَوْ تَرَقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُوه » (٢) فقال الله سبحانه : حَتَّى لَوْ

١ . الانعام : ٧ .

٢ . الاسراء : ٩٣ .

فعلنا لهم ذلك لكفروا ، واحجموا عن الإيمان .
رابعا : إنّ طلب المعجزة إنّما هو لأجل أن يستتبع الايمانُ بها الإيمانَ بالرسالة والانضمام
إلى صفوف المؤمنين ، فاذا كانت نتيجة المعجزة هي إباء المقترحين استلزم ذلك نقض الغرض
المنشود من المعجزة ، وانتفاء فائدتها .

فاذا كان المقصود من سقوط السماء عليهم ، هو نزول الصخور السماوية لبادتهم فان
هذا الطلب لا يتفق أبدا مع هدف الإعجاز وهو من أوضح مصاديق نقض الغرض .
وبالتالي ينبغي أن نذكر بنقطة وهي : أن النبي ﷺ على خلاف ما تصوّر المستدلون
بهذه الآية على نفي أية معجزة لرسول الإسلام . لم يصف نفسه بالعجز وعدم القدرة على
الايمان بالمعجزة بل أفاد بقوله : « سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » (١) أمرين :

١ . تنزيه الله ، فهو بقوله : « سبحان ربي » نزه الله تعالى عن كل عجز ونقص كما
نزهه عن الرؤية ووصفه بالقدرة على كل شيء ممكن .

٢ . محدودية قدرة النبي ، إذ بقوله ﷺ : « هل كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » أفاد بأنه امرئ
مأمور لا أكثر وأنه مطيع لأمر الله وإرادته فهو يأتي بما يريد ربه ، والأمر إلى الله كله ، وليس
للنبي أن يُلبي أي طلب واقتراح بارادته .

وبعبارة أخرى : ان الآية ركزت في مقام الجواب على طلبهم بعد تنزيه الله عن العجز
والرؤية على كلمتي : « البشر والرسول » والهدف هو انه : إذا أنتم قد طلبتم هذه الأمور
معي من جهة إنني بشر ، كان طلبكم هذا طلباً غير صحيح ، لأن هذه الأمور تحتاج إلى
قدرة الهية .

وإن طلبتموها مني من جهة اني نبي رسول فان النبي والرسول ما هو إلا إمريء مأمور يفعل
ما ياذن به الله ، وليس له ان يفعل ما يشاء هو دون إرادة الله تعالى .

١ . الأسراء : ٩٣ .

وبهذا اتضح أن هذه الآيات لا تدلُّ على ما استدل به النافون لمعاجز النبي الاكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان مما تحججت به قريش على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم قالوا :
لو كان مُحَمَّدًا نبيًا لشغلته النبوة عن النساء ولأمكنه جمع الآيات (اي لأتته الآيات دفعة واحدة) ولأمكنه منع الموت عن اقاربه ولما مات أبو طالب وخديجة فنزل قوله تعالى : «
وَلَقَدْ رَمَدْنَا لَنَا سَلًا مِنْ لَيْلٍ جَعَلْنَا لِمَنْ نَشَاءُ كِتَابًا وَمَا كَانَ لِمَنْ كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ لِمُ الْكِتَابِ . وَمَنْ مَّا نَزِينَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نَتُوفِينَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .»
وبذلك رد عليهم (١) (٢).

الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم :

هذا القسم هو احدى النقاط الجديرة بالدراسة في تاريخ الإسلام ، لأن المرء قد يسائل نفسه ، لماذا ترى كانت قريش تعارض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد المعارضة رغم أنها كانت تعتبره الصادق الأمين ولم تعهد منه انحرافا أو خطأ قط وكانت تسمع كلامه الفصيح البليغ الذي يأسر القلوب ، وربما شاهدوا حدوث بعض الخوارق للعادة ، الخارجة عن حدود القوانين الطبيعية على يديه.

إن لهذا التمرد والمعارضة إلى علة أو علل عديدة هي :

١ . حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

لقد عارض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخالفه فريق ممن عارضه بسبب

١ . الرعد : ٣٨ - ٤٠ .

٢ . بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ١٧ عن المناقب .

حسداهم له ، فقد كانوا يتمنون أن يكونوا هم صاحب هذا المنصب ، وصاحب هذه المنزلة .
فقد قال المفسرون عند قوله تعالى : « **وَالْوَأُولَىٰ لِيُذَاقُوا وَبَأْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** »^(١) أن « الوليد بن المغيرة » قال : أُيُزَلُّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَنَا كَبِيرُ قَرِيشٍ وَسَيِّدُهَا وَيَتْرَكَ « ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي » سيد ثقيف ونحن عظيمي القريتين فأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى فيه الآية ^(٢) .

وروى انه قال : واللّه لو كانت النبوة حقاً لكنك أولى بها منك لأنني أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالا ^(٣) .

وكان « أمية بن أبي الصلت » من الذين كانوا يقولون هذا الكلام حول رسول الله ﷺ وكان يتمنى كثيراً أن ينال هو هذا المقام ويحظى بهذا المنصب العظيم ، ولم يتبع رسول الله ﷺ إلى آخر حياته ، وكان يؤلب الناس عليه .
وقد سأل « الاخنس بن شريق » . وهو من أعداء رسول الله . أبا جهل يوماً يا ابا الحكم ما رأيك فيما سمعت من « محمد » ؟

فقال : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاذبنا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : مينا نبئ يأتيه الوحي من السماء ، فمتى تدرك مثل هذه ، واللّه لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه ^(٤) .

هذه النماذج تُظهرُ الحسد الذي كان يحول بين زعماء قريش وساداتها وبين إتباع رسول الله ﷺ وتصديقه ، فعنوا على الله وتركوا أمره عياناً ، وبلّوا فيما هم عليه من الكفر ، وهناك نماذج وأمثلة أخرى سجّلتها صفحات التاريخ أعرضنا عن إدراجها هنا .

١ . الزخرف : ٣١ .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٦١ .

٣ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٣٥ .

٤ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣١٥ و ٣١٦ .

٢ . معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم :

وكان لهذا العامل الأثر الأكبر في عتو قريش ومعارضتها لدعوة النبي ﷺ لأنهم كانوا أصحاب لهُو ولعب ، وفسق ومجون ، ومثل هؤلاء الذين أمضوا سنوات عديدة على هذا النحو ، دون ان يقيدهم شيء من الحدود والقيود ، وجدوا دعوة النبي ﷺ تخالف عاداتهم القديمة ، وكان ترك مثل تلك العادة التي تتفق معه أهوائهم ورغباتهم النفسية أمراً يلازم النصب والعناء والجهد.

٣ . الخوف من عُقوبات اليوم الآخر :

إن سماع آيات العذاب التي تنذر الفسقة والظالمين وتوعدهم بالعقوبات الثقيلة اربح قلوبهم ، وأقلق نفوسهم بشدة . فعند ما كان رسول الله ﷺ يتلو الآيات المتعلقة بيوم القيامة وأوضاعه ، وقضاياه في الاجتماعات والاماكن العامة ، كان يحدث بذلك ضجةً كبرى في أوساطهم ، فيهدم مجالس لهُوهم ، وأنسهم .

إن العربي الذي كان يسلح نفسه بكل ما استطاع من سلاح ليدفع عن نفسه أي خطر محتمل ، ويعمد إلى ممارسة القرعة ويتعاطى الانصاب والازلام ليحصل على لقمة عيشه ، ويتفأل بالاحجار ، ويتطيّر ويتشاءم بالطيور ويستدلُّ بحالاتها على حوادث وقّعت أو تقع ، لم يكن على استعداد لأن يهدأ من دون ان يحصل على ضمان بعدم التعرض لما يخبر عنه « محمّد » من عذاب وعقاب !!

من هنا كانوا يجارون النبي ﷺ ويخالفونه حتى لا يسمعوا وعده ووعيد.

واليك بعض الآيات التي كانت تقلق بشدة نفوس المترفين من قريش : « فَيَأْتِ جِئَاتِ الصَّبَاحَةِ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَمَنْهَ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَبْلًا يُعْطِيهِ » (١) .

١ . عبس : ٣٣ . ٣٧ .

وبينما كانوا يمدّون موائد اللّهُو والشراب في ظلال الكعبة ويحتسون كؤوس الخمر كانوا فجأة يسمعون هذه الآية : « كَلِّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَا هُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » (١).

فتلقني في نفوسهم رعباً عجيباً ، ويتناهم الاضطراب الشديد حتّى أنهم كانوا يلقون بكؤوس الخمر جانبا ويتملكهم خوف شديد لم يعرفوا له مثيلا.

٤ . الحَوف من القَبائل العَرَبية المشركّة :

قال « الحارث بن نوفل بن عبد مناف » لرسول اللّهُ ﷺ : انا لنعلم أنّ قولك حق ولكن يمتنعنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (إن تركنا الوثنية التي تدين بها ويعتبرونها سدنة لأوثانها) ولا طاقة لنا بها . فنزل قوله تعالى يرد عليهم : « وَقَالُوا نَبِيٌّ لَّهُمْ يَكْذِبُ بِكَ لَخَطَفَتْ مِنَّا وَرَضْنَا وَوَلَمْ نَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتِ كَبَلٍ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَدُنَّا » (٢) (٣).

وهكذا كان تخوُّ قريش من العرب إن هي تركت ما كان عليه العرب من الوثنية والشرك أحد الاسباب لعتوهم وعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية.

طائفة من اعتراضات المشركين :

وربما اعترض المشركون على النبي ﷺ قائلين : إن هذه الارض ليست بأرض الانبياء ، وإنما أرض الأنبياء الشام فأت الشام (٤).

وكان اكثر المشركين يقولون . وذلك بوحي من اليهود . لماذا لا ينزل القرآن على « محمّد » دفعة واحدة كالتوراة والانجيل فحكى القرآن الكريم إعتراضهم

١ . النساء : ٥٦ .

٢ . القصص : ٥٧ .

٣ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٣٦ .

٤ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ١٩٨ .

هذا بنصه إذ قال :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » .

ثم قال تعالى رمّ على إعتراضهم هذا : « كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ » ^(١) .

إن القرآن يهتم بهذا الإعتراض ، ويوضح مسألة « النزول التدريجي » للقرآن الكريم ويقطع الطريق على المستشرقين المغرضين ومن حذى حذوهم ، بمنطقه المحكم ، وبيانه القوي .

وها نحن نعمد هنا إلى إعطاء شيء من التوضيح لهذه المسألة ايضا :

القرآن والنزول التدريجي :

إن التاريخ القطعي لنزول القرآن وكذا مضامين آيات سوره تشهد بأن آيات القرآن الكريم وسوره نزلت تدريجيا .

فمراجعة فاحصة لأوضاع مكة ، والمدينة يمكن تمييز المكّي من هذه الآيات عن مدنيّتها . فالآيات التي تتحدث عن مكافحة الشرك والوثنية ودعوة الناس إلى الله الواحد ، والإيمان باليوم الآخر مكّيّة ، بينما تكون الآيات التي تدور حول الأحكام وتحتّ على الجهاد والقتال مدنيّة ، ذلك لأنّ الخطاب في البيئة المكّيّة كان موجّهاً إلى المشركين عبدة الاوثان الذين كانوا ينكرون توحيد الله ، واليوم الآخر ، فهنا تكون الآيات التي تتحدث حول هذا الموضوع قد نزلت في هذه البيئة .

في حين كان الخطاب في المدينة المنورة موجّهاً إلى المؤمنين بالله ، وإلى جماعة اليهود والنصارى ، وكان الجهاد والقتال في سبيل إعلاء كلمة الله هو الأعمال المهمّة التي بدأها رسول الله ﷺ وواصلها في هذه البيئة ، من هنا تكون الآيات التي تتضمن الحديث حول الاحكام والفروع والقوانين ، ويدور

١ . الفرقان : ٣٢ .

الحديث فيها أيضا حول عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم وتتضمن الحث . كذلك . على الجهاد والقتال والتضحية في سبيل اعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، آيات مدنيّة .

إن كثيرا من الآيات ترتبط إرتباطا وثيقا بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ ، وهذه الحوادث هي التي تشكّل ما يسمّى بشأن أو أسباب النزول التي يكون الوقوف عليها موجبا لفهم مفاد الآية ، وإيضاح مفادها ، فان وقوع هذه الحوادث كان سببا لنزول آيات فيها بالمناسبة .

على أن بعض الآيات الأخرى نزلت جواباً على أسئلة الناس ، ولرفع حاجاتهم في المجالات المختلفة .

والبعض الآخر منها نزلت لبيان المعارف والأحكام الالهية .

ولهذه الاسباب يمكن القول بان القرآن الكريم نزل على رسول الله ﷺ تدريجاً لتدرج موجبات النزول .

وقد صرّح القرآن الكريم بهذا الامر أيضاً في بعض المواضع إذ قال : « وَفَرْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْجِرَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ »^(١) .

وهنا يطرح هذا السؤال وهو : لماذا لم تنزل آيات القرآن كلها على رسول الله ﷺ جملة واحدة ، ودفعة واحدة كما حدث ذلك للتوراة والإنجيل من قبل؟!

إن هذا السؤال لم يكن جديدا بل طرحه أعداء النبي ﷺ ومعارضوه في عصر الرسالة في صورة الاعتراض أيضا حيث كانوا يقولون : « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً »^(٢) .

ويمكن تقرير وشرح هذا الاعتراض على نحوين :

١ . إذا كان الإسلام ديناً إلهياً ، وكان القرآن كتاباً سماوياً منزلاً من جانب الله على رسوله ، فلا بد أن يكون ديناً كاملاً ، ومثل هذا الدين الكامل

١ . الاسراء : ١٠٦ .

٢ . الفرقان : ٣٢ .

يجب أن ينزل بواسطة ملائكة الوحي على رسول الله ﷺ جملة واحدة من دون تدريج ولا توقف في نزول الآيات ، إذا لا مبرر ولا داعي لأن ينزل ديناً كاملاً من جميع الجهات ، مكتمل من حيث الأصول والفروع والتشريعات والواجبات والسنن ، على نحو التدريج في ٢٣ عاماً ، ولمناسبات مختلفة.

وحيث أن القرآن نزل منجماً ، وبصورة متفرقة متناثرة ، وعقيب طائفة من الأسئلة ، أو وقوع حوادث وطروء حاجات في أزمنة مختلفة يمكن الحدس بان هذا الدين لم يكن كاملاً من حيث الأصول والفروع ، وهو يتدرج في التكامل ومثل هذا الدين الناقص الذي يسير نحو كماله خطوة خطوة وبالتدريج لا يصح أن يوصف بالدين الالهي .

٢ . إن آيات القرآن والتاريخ القطعي والمسلم للتوراة والإنجيل والزبور تحكي جميعها عن أن هذه الكتب السماوية أعطيت إلى المرسلين بها في ألواح مكتوبة مدونة ، فلما لم ينزل القرآن الكريم على هذا الغرار ، كأن ينزل القرآن على « محمد » في لوح مكتوب كما نزل التوراة في الواح مكتوبة؟!!

وحيث أن المشركين لم يكونوا يعتقدون بهذه الكتب السماوية قط ، ولم يكن لهم على علم مسبق بكيفية نزولها ، لذا يمكن القول بان مقصودهم من هذا الاعتراض كان هو الشكل الأول من هذا التوضيح ، والذي يتلخص في أنه لماذا لم ينزل ملائكة الوحي آيات القرآن على رسول الله ﷺ جملة واحدة ، بل نزلت هذه الآيات عليه ﷺ في فواصل زمنية متفاوتة ، وبمناسبات وحسب وقائع مختلفة متدرجة؟!!

الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن :

ولقد كشف القرآن القناع . في معرض الرد على إعتراض المشركين هذا . عن حكيم وأسرار النزول التدريجي للقرآن الكريم .

واليك توضيح هذا القسم الذي اشار إليه الكتاب العزيز بعبارة مقتضبة قصيرة :

١ . إن الرسول الاكرم ﷺ يتحمّل مسؤوليات كبرى ، وان شخصية كهذه من الطبيعي ان يواجه مشاكل ومتاعب باهضة وصعبة ، ولا ريب أن تلك المشاكل والمتاعب توجب الكلال ، وانخفاض مستوى النشاط مهما كانت الروح التي يتمتع بها الشخص عظمة ، وقويّة ، في مثل هذه الحالة يكون تجديّد الارتباط بالعالم الأعلى ، وتكرّر نزول الملك من جانب الله تعالى باعثاً على تجدد النشاط ، وعاملاً قويا في بث القوة والحماس والمعنوية الفاعلة في نفس النبي وروحه ، وبالتالي فان العناية والمحبة الالهية الممتدة لنبيه ورسوله إنما تتجدد بتكرّر نزول الوحي عليه ﷺ من جانبه تعالى .

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة النفسية الكبرى إذ قال : « **كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ** »^(١) .

٢ . ويمكن ان تكون الجملة المذكورة ناظرة إلى جهة أخرى وهي : ان المصالح التربوية والتعليمية تقتضي أن ينزل القرآن الكريم على نحو التدرّج ويُلقى إلى الناس على هذا الشكل ايضا وذلك لان النبي الاكرم ﷺ معلّم الأمة ، وطبيها الروحي الذي بُعث إلى الناس بالصفات الالهية لتعليمهم ، وهدايتهم ومعالجة أمراضهم وأدوائهم الاجتماعية والخلقية ، والفكرية ، وكُلّفَ بأن يُطبّق هذه الصفات في حياتهم العملية ، ومثل هذا يتطلب التدرّج لينفَع الدواء . حينئذ . وتنجع المعالجة .

إن أفضل وأبجح أساليب التربية هو أن يمتزج الجانب العملي بالجانب النظري في أيّة محاولة تربوية ، وأن يطبق كل ما يدرسه الاستاذ بصورة عملية تطبيقية ، ويعطي لما يليق من معلومات ، صبغة تحقيقية ، ويتجنّب بشدة إتصاف أفكاره وآراءه بالطابع النظري البحت . فلو أن الاستاذ المتخصّص في الطب اكتفى بالقاء جملة من المعلومات الكلية والأسس العامة من الطب على طلابه في الصف حُرِمَ النتائج المتوخّاة والغايات

١ . الفرقان : ٣٢ .

المطلوبة من تعليم الطبّ ، بشكل كامل.

أما إذا قُبرن الاستاذ درسبه النظري بالإرشاد العملي وطبّق ما ألقاه ويّنه من أفكار ومعلومات في هذا المجال على جسم مريض راقد أمام الطلبة فإنه سيحصل على نتائج أحسن ، ويساعد الطلبة على فهم افضل للمواد التي درسوها في هذا المجال.

فلو أنّ الآيات القرآنية الكريمة قد نزلت جملة واحدة (والحال أن المجتمع الإسلامي لم يكن يحتاج إلى كثير منها) كان القرآن . حينئذ . فاقدا لهذه المزية التربوية الهامة التي أشرنا إليها قريبا في مثال تدريس الطب.

ان بيان الآيات التي يشعر الناس في انفسهم بعدم الحاجة إلى اخذها وتعلّمها ، لا يترك التأثيرَ الباهرَ في القلوب ، بينما إذا نزل ملائكة الوحي بآيات القرآن حسب حاجات الناس التي يشعرون فيها بضرورة تعلّمها لتضمّنهما الأحكام والأصول والفروع التي يحتاجون إليها فإنه لا شكّ يكون لها في هذه الحالة تأثير أحسن وأقوى في قلوب الناس . كما سيكون لها ترسيخ أكبر في نفوسهم ، وسيظهروا الناس من انفسهم إستعداداً أكبر لاخذ ألفاظها ومعانيها ، وفوق كل ذلك سيشعرون بنتائج هذه التعاليم عند تعليم النبيّ إياها لهم ، وعندئذ تتحقق المقولة التربوية التي اشرنا إليها في ما سبق وهي اقتران كلام المربي بالنتيجة لأن النظريات إتخذت طابعاً عملياً ، ولم تكن مجرد نظريات لا ترتبط بالواقع.

ولكن يبقى هنا سؤال آخر وهو : إذا كان نزول القرآن قد تحقّق على نحو التدريج وتبعاً للاحتياجات والحوادث المختلفة ، فان ذلك يستلزم انفصام العلاقات والروابط بين الآيات والسور ، وهذا ينتج أن لا يهتم الفكر البشري بتعلّم وحفظ معارفها لتبعثرها ، وتبعد أزمنتها وغياب علاقاتها ، ولكن لو نزل القرآن جملة واحدة وتلاه ملائكة الوحي على رسول الله دفعة واحدة لرُعيت الروابط والعلاقات بين قضايا الوحي ولتضاعفت رغبة الناس واستعدادهم لأخذها وحفظها؟

ولقد أحاب القرآن الكريم ايضا على هذا السؤال إذ قال : صحيح أن آيات القرآن الكريم نزلت على نحو التدرّيج تبعاً لطائفة من المقتضيات والموجبات إلا أن هذا النزول التدرّيجي لا يمنع ابداً من ترابط مطالبه ، وارتباط مواضعه بعضها ببعض ، فإن الله تعالى أفاض على هذه الآيات إنسجاماً وترابطاً خاصاً يمكن الإنسان من تعلمها وضبطها وحفظها إذا أعطى الموضوع قليلاً من الإهتمام إذ قال تعالى : « وَتَلَّاهُ تَرْتِيلاً »^(١) .
أي إنّنا أعطينا آيات القرآن نظاماً معيناً وترتيباً خاصاً .

أسرار أخرى لنزول القرآن تدرّجاً :

٣ . لقد واجه رسول الله ﷺ في فترة رسالته ونبوته فئات مختلفة من الناس : كالوثنيين ، واليهود والمسيحيين الذين كان لكل فئة منهم ديناً خاصاً ، وعقائد وتصورات خاصة حول المبدأ والمعاد ، وغيرهما من المعارف العقلية .
وقد كانت اللقاءات المختلفة هذه توجب أن يعمد الوحي الالهي إلى توضيح وبيان عقائد هذه الفئات (وإن لم يكن مطلوباً ومقترحاً من قبلهم) ويقوم الأدلة والبراهين على بطلانها ، وزيفها ، هذا من جانب .
ومن جانب آخر كانت هذه اللقاءات في أزمنة متفاوتة ، وأوقات مختلفة ، لهذا لم يكن بد من أن ينزل الوحي الالهي تدرّجاً ، وفي الأوقات المختلفة ، ويتصدى لبيان بطلان تلك العقائد والتصورات ويجيب على شبهات المخالفين ، اعتراضاتهم .
وربما كانت توجب هذه المواجهات العقائدية إلى أن يطرحوا على النبي ﷺ بعض الاسئلة إمتحاناً واختباراً له وكان على النبي أن

١ . الفرقان : ٣٢ .

يجيب عليها ، وحيث أن هذه الاسئلة كانت تطرح في أوقات مختلفة ، لهذا لم يكن مناص من أن ينزل الوحي الالهي في الأوقات والأزمنة المختلفة ، وعلى نحو التدرج . هذا مضافا إلى أن حياة النبي نفسه كان حياة ثورة ، ووقائع ، وكان النبي يواجه باستمرار أحداثاً وقضايا يجب توضيح حكمها ، وبيان المنهج فيها من جانب الوحي الالهي . وربما كان الناس أنفسهم يواجهون في حياتهم اليومية حوادثاً وأموراً يرجعون فيها إلى النبي ﷺ يطلبون منه الحكم الالهي فيها ويسألونه عما يجب إتخاذه من الموقف الشرعي في تلك الحوادث وما يشابهها .

وحيث أن هذه الحوادث ، وما يترتب عليها من تساؤلات كانت تقع في اوقات متلفة ، وبمرور الزمن ، لذلك لم يكن بد ايضاً من ان ينزل الوحي الالهي بالتدرج ليحجب على هذه الأسئلة أولاً بأول .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقاط ، وإلى نقاط أخرى غيرها في قوله تعالى : « **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَحَسَن تَفْسِيرًا** » (١) .

٤ . إن للنزول التدريجي للقرآن الكريم وراء كل ذلك سرّاً آخر ، وعلّة أخرى غفلوا عنها ، ألا وهي : هداية الناس وتوجيه أنظارهم إلى منشأ هذا الكتاب ، وأن القرآن ليس الآ كتاباً سماوياً ، ووحياً الهياً لا غير ، ولا يمكن أن يكون من نسج العقل البشري ، لأن القرآن نزل خلال (٢٣ عاماً) عبر طريق طويل من أنواع الحوادث والوقائع المسرة والمخزنة ، المقرونة بالنصر والهزيمة ، والنجاح والإخفاق ، ولا شك أن هذه الحالات المختلفة ، والاحاسيس والمشاعر المتنوعة المتباينة ، تترك أثراً عميقاً في نفس الإنسان ، وروحه وعقله ، ولا يمكن لإنسان واحد أن يتكلم بكلام من نوع واحد ، وبنبرة واحدة ، في حالتين

١ . الفرقان : ٣٣ .

نفسيتين متضادتين ، فالكلام الصادر في حال الفرح والابتهاج والمسرة من اللسان أو القلم ،
يختلف من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال اللفظ وعمق المعنى اختلافا بارزا عن الكلام
الصادر في حال الحزن والتعب ، والاختفاق ، والهزيمة .

بينما لا يوجد أي شيء من الاختلاف من حيث الألفاظ والمعاني بين آيات القرآن
الكريم مع أنّها نزلت على رسول الله ﷺ وهو يمر بمجالات مختلفة من الحزن والسرور
والاختفاق والانتصار والسرّاء والضراء ، والعسر والرخاء والجهد والنشاط ، بل نجد تلك
الآيات على نمط ونسق واحد من القوة والفصاحة والبلاغة ، وجمال اللفظ وعمق المعنى
بحيث يستحيل على أيّ بشر بلّغ ما بلغ أن يعارض آية من آياته أو سورة من سورته ، وكأنّ
القرآن الكريم كمية من الفضّة المائعة خرجت من الأتون جملة واحدة لا يوجد بين آياتها أيّ
شيء من التفاوت والاختلاف ، أو كأنّه جوهرة واحدة أولها كآخرها وآخرها كأولها .

ولعل الآية التالية التي تنفي أي نوع من أنواع الاختلاف في القرآن إذ تقول : « **وَلَوْ كَانَ
مِن عِنْد غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا** »^(١) إشارة إلى هذا السر .

إنّ المفسرين اعتبروا هذه الآية ناظرة إلى نفي الاختلاف والتناقض بين مفاهيم الآيات
ومفاداتها ، ومقاصدها ، في حين لا تنفي هذه الآية مجرّد هذا النوع من الاختلاف بل تقدّس
القرآن المجيد وتنزهه من جميع انواع الاختلاف والتناقض الذي هو من لوازم العمل والانتاج
البشري .

١ . النساء : ٨٢ .

إلى الحبشة

الهجرة الاولى

تُعتبر هجرة فريق من المسلمين إلى أرض الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم وإخلاصهم العميق لدينهم ، ولربهم وذلك لأن فريقاً من الرجال والنساء يقررون . وبهدف الحفاظ على عقيدتهم والتخلص من أذى قريش ومضايقتها والحصول على مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحرية ويعبدون الله الواحد . مغادرة (مكة) ، العربية التي ترزح تحت ظلام الوثنية ، فلا يمكن أن يرفعوا نداء التوحيد عالياً في أية نقطة من نقاطها ، ولا يمكنهم إقامة احكام الدين الخنيف فيها من دون خوف أو وجل ، وبعيداً عن الارهاب ، ويفكرون ، ويفكرون ، وأخيراً يقودهم التفكير إلى أن يفتحوا رسول الله ﷺ بهذه المسألة ، ويطلبوا في ذلك رأي النبي الذي يقوم دينه على مبدأ : « إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونُ »^(١) .

لقد كان رسول الله ﷺ وسلم يعرف أوضاع المسلمين المؤهلة جيداً ، فقد كان هو يحظى بحماية بني هاشم ، وكان الفتيان الهاشميون يحمونه ويحفظونه

١ . العنكبوت : ٥٦ .

من كل اذى ، ولكن الذين آمنوا به من الإماء والعبيد ، ومن ليست لهم حماية من الأحرار المستضعفين الذين كانوا يشكلون عددا كبيرا من المسلمين السابقين كان يتعرضون لشتى صنوف العذاب والايذاء والمضايقة من قريش التي لم تأل جهداً ، ولم تدخر وسعاً ، ولم تقيِّ فرصة ولا وسيلة للاحاق العنت والأذى بالمؤمنين برسول الله ﷺ ، ولا يستطيع ﷺ منعهم من ذلك.

وقد كان زعماء كل قبيلة يعمدون . للمنع من نشوب أي صدام بين القبائل . إلى تعذيب من اسلم من ابناء قبيلتهم ، وايدائه والتنكيل به ، وقد مرت عليك نماذج وامثلة من أذى قريش وتعذيبها القاسي للمسلمين .
لهذه الأسباب عند ما طلب أصحاب النبي ﷺ رأيه في الهجرة من مكة قال في جوابهم :

« لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٌ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ » (١) .

أجل ان مجتمعاً صالحاً يتسلم زمام الأمر فيه رجل صالح عادل نموذج مصغر من جنبة عدن بالنسبة إلى المسلمين المضطهدين في بلدهم بسبب عقيدتهم ، وهو ما كان يريده ويتمناه أصحاب رسول الله ﷺ ليتمكنوا من القيام بشعائر دينهم فيه في جو من الطمأنينة والامن .

ولقد كان لكلام رسول الله ﷺ أثر قوى في نفوسهم تلك الثلة المؤمنة الباحثة عن ارض تعبد فيها الله في امان ، بحيث لم يمض زمان إلا وقد شدت رحالها وغادرت مكة ليلا في غفلة من الاجانب (المشركين) مشاة وركباناً ، متجهة نحو جدّة ، للسفر عبر مينائها إلى ارض الحبشة .

وكان هذا الفريق يتألف من عشر أو خمسة عشر شخصا بينهم أربعة من

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٢١ ، تاريخ الطبري ج ٢ ، ص ٧٠ ، وجمار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٤١٢ نقلا عن مجمع البيان للطبرسي .

النسوة المسلمات (١) .

والآن يجب أن نرى لماذا لم يذكر رسول الله ﷺ للمسلمين مناطق أخرى للهجرة إليها ، وإنما ذكر الحبشة فقط .

ان سر هذا الاختيار هذا يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك .

ان الهجرة إلى المناطق العربية التي كان سكانها من المشركين والوثنيين قاطبة كان أمراً محفوفاً بالخطر ، فان المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاء لقريش أو وفاء وتعصبا لدين الآباء (الوثنية) .

وكذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيون أو اليهود ، من الجزيرة العربية لم تكن تصلح لهجرة المسلمين إليها هي الأخرى لان تينك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراع مذهبي وطائفي ، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرف ثالث في حلبة الصراع ، هذا مضافاً إلى أن ذينك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربي أساساً ، فكيف يمكن الهجرة إلى مناطقهم والتعايش معهم؟!

أما « اليمن » فقد كان تحت سيطرة الحكم الإيراني الملكي ، ولم تكن السلطات الإيرانية آنذاك لتسمح باقامة المسلمين في ربوع « اليمن » ، لما عُرف من نقيمتها فيما بعد على الدعوة الإسلامية إلى درجة انه لما وصلت رسالة النبي ﷺ إلى « خسرو برويز » كتب إلى عامله على اليمن فوراً « احمل إليّ هذا الذي يذكر أنه نبيّ ، وبدأ اسمه قبل اسمي ، ودعاني إلى غير ديني » !!(٢) .

وكذلك كانت « الحيرة » تحت الاستعمار والنفوذ الإيراني كاليمن .

وأما « الشام » فقد كانت بعيدة عن « مكة المكرمة » ، هذا مضافاً إلى ان « اليمن » و « الشام » كانتا سوقين لقريش ، وكانت ترط قريش بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقة ، فاذا كان المسلمون يلجأون إليها أخرجوا منهما

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٧٠ .

٢ . بحار الأنوار : ج ٢٠ ، ص ٣٨٢ .

بطلب من قريش ، تماماً كما طلبت من ملك الحبشة مثل هذا الطلب ، ولكنه رفض طلبهم . وقد كانت الرحلة البحرية . في تلك الآونة . وبخاصة برفقة النساء والاطفال رحلة شاقة جداً ، من هنا كانت هذه الهجرة ، وترك الحياة والمعيشة في الوطن دليلاً قوياً على إخلاص أولئك المهاجرين لدينهم وعمق إيمانهم به ، وصدقهم .

ولقد كان ميناء « جدة » آنذاك ميناءً تجارياً عامراً كما هو عليه الآن ، ومن حسن التوفيق أن هذه التلة المهاجرة قد وصلت إلى هذا الميناء في الوقت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أهبة الاقلاع ، والتوجه نحو الحبشة ، فبادر المسلمون إلى ركوبها والسفر عليها دون تلكؤٍ خشية لحاق قريش بهم والقبض عليهم ، لقاء نصف دينار عن كل راكب . وكان ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله ^(١) .

ولما عرف المشركون بهجرة بعض المسلمين أمروا جماعةً من رجالهم بملاحقة أولئك المهاجرين واعادتهم إلى مكة فوراً ، ولكن المسلمين المهاجرين كانوا قد غادروا شواطئ « جدة » قبل أن يدركهم الطلب ^(٢) .

ومن الواضح أن ملاحقة مثل هذه التلة التي لم تلجأ إلى أرض الغير إلا لأجل الحفاظ على عقيدتها والفرار من الفتنة لنموذج بارز من عتوّ قريش وعنادها . فاولئك المهاجرون مؤمنون تركوا الأهل والوطن ، واغمضوا الطرف عن المال ، والتجارة ، وخرجوا يطلبون أرضاً نائية يمارسون فيها شعائهم بحرية ، ومع ذلك لا يكف عنهم زعماء مكة وجبايرتها وطغاتها!!

اجل ان رؤساء « دارالندوة » بمكة واقطابها كانوا يعلمون جيداً أسرار هذه

١ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٤١٢ نقلا عن مجمع البيان للطبرسي .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٢١ . ٣٢٣ .

المجرة وآثارها من خلال بعض القرائن ، والمؤشرات ولذلك كانوا يرددون فيما بينهم أموراً
سندكرها في ما بعد.

هذا والجدير بالذكر أن اعضاء هذا الفريق المهاجر لم يكونوا من قبيلة واحدة بل كان كل
واحد من هؤلاء العشرة ينتمي إلى قبيلة خاصة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

ثم انه وقعت بعد هذه الهجرة هجرة أخرى ، وكان في مقدمة المهاجرين هذه المرة « جعفر
بن أبي طالب ». ابن عم رسول الله ﷺ .

ولقد تمت الهجرة الثانية في منتهى الحرّية ، لأن المسلمين المهاجرين استطاعوا في هذه
المجرة ان يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم ، بحيث بلغ عدد المسلمين في أرض الحبشة
هذه المرة (٨٣) .

هذا إذا لم نخص من وُلد في أرض الحبشة لهم ، والأكان العدد أكثر من هذا الرقم.
ولقد وجد المسلمون المهاجرون ارض الحبشة كما وصفها رسول الله ﷺ لهم : منطقة
عامرة ، وبيئة آمنة حرّة ، تصلح لأن يُعبد فيها الله تعالى بحرية وأمان.

تقول « لم سلمة » التي تشرفت بالزواج من رسول الله ﷺ في ما بعد ، عن تلك
الارض : لما نزلنا أرضَ الحبشة جاؤرنا بما خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله
تعالى ، لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه .

كما أنه يُستفاد ممّا قاله بعض اولئك المهاجرين من الشعر في الحبشة ، أنهم أمنوا بأرض
الحبشة ، وحمدوا حوار النجاشي ، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً.

ونحن نكتفي هنا بادراج بعض الأبيات من قصيدة مطوّلة أنشأها « عبد الله بن الحارث

« في هذا الصدد :

يا راكبا بَلَّغْنِ عَبي مُغْلَعَلَةَ (١) مَن كان يَرجُو بلاغَ اللّهِ والديّن
 كلَّ امرئٍ مِن عِبادِ اللّهِ مضطَّهد
 أَنبأ وَجَدنا بِإِبلادِ اللّهِ واسِعة
 تُنَجِّي مِنَ اللِّذِّ والمِحْزاةِ والهون
 فِلا تُقيموا عَلَيَّ إِذَّ الحِياةِ وَحِز
 ي في المِماتِ وَعَيبِ غيرِ مَأْمون (٢)

ويقول ابن الاثير : وكان مسيرهم (إلى الحبشة) في رجب سنة خمس من النبوة وهي
 السنة الثانية من اظهار الدعوة فاقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس من
 النبوة ، وكان سبب قدومهم إلى النبي ﷺ انه بلغهم ان قريشا اسلمت فعاد منهم قوم
 وتخلّف قوم (٣) .

هذا ويمكن للقارئ الكريم أن يقف على تفاصيل هذا القسم في السيرة النبوية لابن هشام
 . (٤)

قريش توفد رجالا لاسترداد المسلمين :

عندما بلغ قريشا وزعماء « مكة » ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرية ،
 وما حصلوا عليه من حسن الجوار والطمأنينة والراحة في أرض الحبشة ثارت ثائرة الحسد
 والغیظ في قلوبهم ، وتوجسوا خيفة من نفوذ المسلمين في الحبشة لأن أرض الحبشة قد
 أصبحت قاعدة قوية للمسلمين ، وكانت الزعامة المكية تتخوف من أن يجد أنصار الإسلام
 واتباعه منفذاً إلى بلاط النجاشي زعيم الاحباش وملِكهم ، ويُميلوا قلبه نحو الإسلام ،
 ويكسبوا تاييده للمسلمين ، فيؤول الامر إلى أن يعبئ جيشاً كبيراً للقضاء على حكومة
 المشركين الوثنيين في شبه الجزيرة العربية ، وعندها تكون الكارثة .

فاجتمع أقطاب « دار الندوة » مرة أخرى للتشاور في الأمر ، فأستقر رأيهم على أن
 يبعثوا إلى البلاط الحبشي من يقدم إلى النجاشي ووزرائه وقواده هدايا

١ . المغلعة : الرسالة ترسل من بلد إلى بلد .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٥١ - ٣٥٣ .

٣ . الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٥٢ و ٥٣ .

٤ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٥٤ - ٣٦٢ .

مناسبة يستميلونهم بها ليستطيعوا من هذا الطريق التأثير على النجاشي ثم يتسنى لهم بعد ذلك ان يقنعوه بضرورة إخراج المسلمين المهاجرين من أرضه أن يتهمونهم عنده بالسفاهة والجهل ، وابتداع دين جديد منكر ، والإرتداد عن دين الآباء والاجداد!!
ولكي تتحقق خطتهم هذه على أحسن وجه ويصلوا عن طريقها إلى افضل النتائج اختاروا من بينهم رجلين مكرين اصبح احدهما في ما بعد من دهاقنة السياسة وهما : « عمرو بن العاص » ، و « عبد الله بن ابي ربيعة » وقال لهما كبير المؤتمرين في ذلك الدار : إدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

فخرج موفدا قريش حتى قدما على النجاشي بعد أن تلقيا هذه التعليمات .
وهناك في الحبشة دفعا إلى كل بطريق من بطارقة النجاشي وقادة جيشه ووزرائه هديته ، وقال لكل بطريق منهم :

إنه قد ضوى ^(١) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم ، وقد بعثنا إلى الملك لنكلمه في أمرهم أشراف قومهم ليردّهم اليهم فاذا كلّمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فان قومهم أبصر بهم ، واعلم بما عابوا عليهم .
فابدى وألئك البطارقة والقادة والوزراء الطامعون الجهلة استعدادهم لمساعدة الرجلين في إنجاح مهمتهم .

ولما كان من غد دخلا على النجاشي وقدما هداياهما إليه فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم

١ . ضوى أي لجأ وأتى ليلا .

يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم
أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردّهم إليهم ، فهم أبصر بهم واعلم بما
عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

وما أن انتهى موفدا قريش من الكلام إلا وقالت بطارقتة حوله : صدقا أيها الملك ،
قومهم أبصرُ بهم ، وأعلمُ بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .
فغضب النجاشي وكان رجلا حكيما عادلا وقال : لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ،
ولا يُكادُ قوم جاؤروني ، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما
يقول هذان في أمرهم فان كانوا كما يقولان أسلمتُهم إليهما ، ورددُتهم إلى قومهم ، وان
كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاوروني .

ثم ارسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين إلى الحبشة فدعاهم من غير أن
يعلمهم بما يريد منهم ، فحضروا عنده ، وكانوا قد قرروا أن يكون متكلّمهم وخطيبهم : «
جعفر بن أبي طالب » وقد قلق بعض المسلمين لما قد سيقوله « جعفر » عند الملك ، وبماذا
سيكلّمه ويحييه ، فسألوه عن ذلك فقال لهم جعفر : أقول والله ما علّمنا ، وما امرنا به نبينا
ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن .

فالتفت النجاشي إلى « جعفر » وسأله قائلا :

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا (به) في ديني ولا في دين أحد من
هذه الملل؟

فقال جعفر بن أبي طالب :

« أيها الملك ، كنّا قوماً أهل جاهلية نعبدُ الأصنام ، ونأكلُ الميتة ، ونأتي الفواحش ،
ونقطعُ الأرحام ، ونسيءُ الجوار ، ويأكلُ القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث
الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّدَه ونعبُدَه ،
ونخلع ما كنّا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه من

الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، وصلوة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدّقناه وآمنا به ، واتّبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا إلى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى ، وان نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك ايها الملك .»

فأثرت كلمات جعفر البليغة ، وحديثه العذب تأثيراً عجيباً في نفس النجاشي بحيث اغرورقت عيناه بالدموع ، وقال : لجعفر هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟ فقال جعفر : نعم فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ ، فقرأ عليه جعفر آيات من مطلع سورة مريم ، واستمرّ في قراءته ، وبذلك بيّن نظرة الإسلام إلى « مريم » عَلَيْهَا وطهارة جيبها ، وإلى مكانة المسيح عَلَيْهِ ، وعظمة شأنه ، وجليل مقامه ، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته بالدموع وبكت اسقافته ^(١) حتى بلّوا مصاحفهم بها حين ما سمعوا ما تلاه جعفر عليهم حول مريم والمسيح عَلَيْهِمَا .

وبعد صمت قصير ساد ذلك المجلس قال النجاشي :

« إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » وهو يقصد أن القرآن والإنجيل كلام الله وأتّهما شيء واحد .
ثم التفت إلى موفدي قريش وقال لهما بنبرة قوية : انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون ، فخرجنا من عنده .

١ . الاساقفة ؛ جمع اسقف : علماء النصارى .

وعند المساء تكلم « عمرو بن العاص » . وكان إمراً خلوفاً ما كرا . مع رفيقه « عبد الله بن ربيعة » في الامر ، وقال له : والله لآتيَنَّ غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم (وهو يعني أنه سيأتي بجيلة تقضي على جذور المهاجرين بالمرّة) ولأخبرنّه أنّهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . (أي على خلاف ما يعتقد النصارى في المسيح) .
فنهاه « عبد الله » عن ذلك وقال : لا تفعل ، فإنّ لهم أرحاماً ، وإن كانوا خالفونا ، ولم ينفع نهي عبد الله له .

ولما كان من الغد دخلا على النجاشي مرة أخرى فقال له « عمرو » متظاهراً هذه المرة بالدفاع عن عقيدة النصارى وهي دين الملك واهله ، ومنتقداً رأي المسلمين .
أيها الملك ، إنهم يقولون في « عيسى بن مريم » قولاً عظيماً . فارسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه .

فارسل النجاشي إليهم ليسألهم عنه ، وهو الملك المحتك الذي لا يأخذ الأمور على ظواهرها ، ومن غير تحقيق ودراسة ، فأدرك المسلمون بظننتهم أنه سيسألهم هذه المرة عن موقفهم من المسيح ﷺ فاتفقوا أن يكون « جعفر » متكلمهم وخطيبهم وعندما سألوه عما سيجيب به الملك قال : أقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا .

فلما دخلوا على النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب : ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول .

فسر النجاشي لكلام جعفر ورضي به وقال : هذا والله هو الحق ، والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت .

ولكنّ حاشيته لم ترض بهذا الكلام ولم تقبل بما قاله الملك ، ولكنه لم يعبأ بهم ، وأيد مقالة المسلمين ، ومنحهم الحرية الكاملة ، والأمان الكامل قائلاً لهم :

اذهبوا فانتم آمنون في أرضي من سبكم غُرم ، من سبكم غُرم ، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وإني آذيت رجلاً منكم.

ورد على موقدي قريش هداياها فائلاً لهما : « ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ مُلكي فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه . »

فخرج مبعوثاً قريش مقبوحين مردودا عليهما ما جاء به يجرّن اذيال الخيبة ^(١).

وينبغي ان نسجّل هنا موقفاً آخر من مواقف ابي طالب في تأييد المسلمين ، ونصرة الدين الحنيف .

فقد أرسل « ابو طالب » أبياتا للنجاشي يحثّه على الدفع عن المهاجرين وحسن حوارهم وتلك الايات هي :

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر
وهل نالت افعال ^(٢) النجاشي جعفرا
تعلّم ، ابيت اللعن ، انك ماجدٌ
تعلم بان الله زادك بسطة
وأنتك فييض ذو سجال غزيرة
ينال الأعادي نفعها والاقارب ^(٣)
وعمرو واعداء العدو : الأقارب
وأصحابه أو عاق ذلك شاغيب
كرّم فلا يشقى لَدَيْكَ المجانب
وأسباب خير كلّها بك لازب

العودة من الحبشة :

قلنا في ما مضى أنّ المجموعة الأولى من المهاجرين رجعت من الحبشة إلى مكة لأنباء بلغتها عن إسلام قريش عامة وانضوائها تحت راية الإسلام. حتى إذا دنوا من « مكة » بلغهم أنّما كانوا تحدّثوا به من إسلام اهل مكة كان باطلا ،

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٣٨ ، إمتاع الاسماع : ص ٢١ ، بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٤١٤ و ٤١٥ .

٢ . إحسان .

٣ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٣٣ و ٣٣٤ .

فلم يدخل منهم إلى « مكة » إلا قليل دخلوها مستخفين أو في جوار بعض الشخصيات القرشية بينما عاد الأكثرون من حيث جاؤوا.

وكان ممن دخل « مكة » بجوار ، « عثمان بن مظعون » الذي دخلها بجوار « الوليد بن المغيرة »^(١) ولكنه كان يشاهد ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء ، والعذاب وهو يغدو ويروح في امان فتألم لذلك ولم تطق نفسه تحمّل هذا الفرق وقال : والله إن غديّ ورواحي آمنأ بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي فمشى إلى « الوليد بن المغيرة » وردّ عليه جواره ليواسي المسلمين ويشاركهم في آلامهم ومتاعبهم وقال : يا أبا عبد شمس وفّت ذمّتك ، قد يرتّ إليك جوارٍ .

قال : يا بن أخي؟ لعلّه آذاك أحد من قومي؟

قال : لا ولكني أرضى بجوار الله ولا رأيد أن أستجير بغيره.

فقال الوليد له : إذن فارّ علي جوارى علانية كما أجرّتك علانية.

فانطلقا فخرجا حتّى أتيا المسجد ، فقال « الوليد » مخاطبا من حضر من قريش : هذا عثمان قد جاء يرّد علي جوارى.

قال : صدق ، قد وجدته وقيّاً كريم الجوار ولكيّ قد احببّ أن لا استجير بغير الله ، فقد رردت عليه جواره^(٢).

ثم لم يمض شيء من الوقت حتى دخل المسجد « لبيد » وكان شاعرا متكلماً بارزاً من شعراء العرب ومتكلمياً ووقف في مجلس من قريش ينشدهم و « عثمان بن مظعون » جالس معهم فقال من جملة ما قال شعرا :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون : صدقت فقال : لبيد :

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٦٩ .

٢ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٧٠ .

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول فاستثقل « لبيد » تكذيب عثمان وتحديده له في ذلك الجمع فقال : يا معشر قريش واللّه ما كان يؤذى جليئكم ، فمتى حدث هذا فيكم؟؟

فقال رجل من القوم : إنّ هذا سفية في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله.

فرد عليه « عثمان » حتى تفاقم الأمر بينهما فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فحضرها (واصابها) ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان فقال : أما واللّه يا ابن أخي إن كانت عينك عمّا أصابها لغنيّة لقد كنت في ذمة منيعة (وهو يريد أنك لو بقيت في ذمتي وجواري لما أصابك ما أصابك).

فقال عثمان رامّ عليه : بل واللّه إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، واني لفي حوار من هو أعزّ منك ، واقدّر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد : هلمّ يا ابن أخي إن شئت فعدّ إلى حوارك ، فقال ابن مضعون : لا (١) . وكانت هذه صورة رائعة من صور كثيرة لصمود المسلمين ، وتفانيهم في سبيل العقيدة ، وإصرارهم على النهج الذي اختاروه ، ومواساة بعضهم لبعض في أشدّ فترة من فترات التاريخ الإسلامي.

وفد مسيحي لتقصّي الحقائق يدخل مكة :

قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، مبعوثين من قبل أساقفتها لتقصّي الحقائق بمكة ، والتعرف على الإسلام. فوجدوا رسول الله في المسجد ، فجلسوا إليه ، وكلموه وسألوه عن مسائل ، ورجال من قريش فيهم « أبو جهل » في أنديتهم حول الكعبة.

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٧٠ و ٣٧١ .

فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم ، فكان لها من التأثير البالغ في نفوسهم بحيث عندما سمعوها فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وامنوا به وصدقوه ، بعد ما عرفوا منه ما كان يوصف في كتابهم (الانجيل) من أمره .

فلما قاموا عنه ، ورأت قريش ما نتج عنه ذلك اللقاء استتقله « ابو جهل » فقال للنصارى الذين اسلموا معترضا وموبخا : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتهم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا أحق منكم . فأجابه اولئك بقولهم : سلام عليكم لا بُجَاهِلِكُمْ ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا^(١) .

وبذلك الكلام الرفيق الجميل رداً على فرعون مكة الذي كان يبغى . كسحابة داكنة . حجب أشعة الشمس المشرقة ، وحالوا دون وقوع صدام .

قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق :

لقد ايقظ وفد نصارى الحبشة إلى مكة وما نجم عن لقاءهم برسول الله ﷺ قريشا ودفعهم إلى تكوين وفد يتألف من « النضر بن الحارث » و « عُقبة بن ابي معيط » وغيرهما وإرسالهم إلى أحبار يهود المدينة ليسألونهم عن رسول الله ﷺ ودينه . فقال أحبار اليهود لمبعوثي قريش : سلوا محمداً عن ثلاث نأمركم بهنّ ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم ، سلوه :

١ . عن فتية ذهبوا في الدهر الأول (يعنون بهم أصحاب الكهف) ما كان

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٩٠ و ٣٩٣ وقد نزلت في هذا الشأن الآيات ٥٢ إلى ٥٥ من سورة القصص .

من امرهم ، فانه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ .
٢ . وعن رجل طمّف (يعنون به ذا القرنين) قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان
نبؤه وخبره؟

٢ . وعن الروح ما هي؟
فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه ، فانه نبيّ ، وان لم يفعل ، فهو رجلٌ متقولٌ فاصنعوا في أمره
ما بدا لكم .

فعاد وفد قريش إلى « مكة » ولما قدموها قالوا لقريش ما سمعوه من أحبار اليهود .
فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطرحوا عليه الاسئلة الثلاثة السالفة . فقال رسول الله
ﷺ : انتظر في ذلك وحيًا . (١)

ثم نزل الوحي يحمل إلى رسول الله ﷺ الأجوبة المطلوبة على تلك الاسئلة .
وقد وردَ الجواب عن السؤال عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء .
وأجيب على السؤالين الآخرين عن أصحاب « الكهف » وذي القرنين بتفصيل في سورة
« الكهف » ضمن الآيات ٩ . ٢٨ والآيات ٧٣ . ٩٣ .

وقدوردت تفصيلاتُ هذه الإجابات التي أجاب بها رسول الله ﷺ على أسئلتهم في
كتب التفسير .

ولابدَّ هنا من أن تُذكر القارئ الكريم بنقطة مفيدة وهي أن المراد من « الروح » في سؤال
القوم ليس هو الرُّوح الإنسانية بل كان المراد هو جبرئيل الأمين ، (بقرينة أن المقترحين
الاصليين لهذه الأسئلة : هم اليهود وكانوا يكرهون الروح الامين ، ويعادونه) ، وهو أمرٌ
مبحوث في محلّه من كتب التفسير .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٠٠ . ٣٠٢ .

الأسلحة الصديئة

والاساليب الفاشلة

نظّم أسياذ قريش صفوفهم لمكافحة عقيدة التوحيد ، بعد أن أدركوا عقم المواقف المبعثرة من هذا الدين وأهله .

فقد حاولوا في بداية الأمر أن يُثبِتوا رسول الله ﷺ عن المضي في مواصلة دعوته ، وذلك بتطميعة بالمال والجاه وماشابه ذلك ، ولكن لم يحصلوا من ذلك على شيء ، فقد خيب ذلك الرجل المجاهدُ ظنّوهم فيه ، وبدد آمالهم في اثنائه عن هدفه بكلمته الخالدة المدوّية : « والله لو وُضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر لما فعلت » وهو يعني ان تملكه العالم كله لا يثنيه عن هدفه ولا يصرفه عن تحقيق ما تُبتدئ إليه وارسل به .

فعمدوا إلى سلاح آخر هو التهديد والأذى ، والتنكيل به وباصحابه وانصاره ، ولكنهم واجهوا صموده وصمود أنصاره واصحابه ، وثباتهم الذي ادى إلى انتصار المؤمنين في هذا الميدان ، وخيبة المشركين وهزيمتهم .

وقد بلغ من ثبات المسلمين على الطريق أنهم أقدموا على مغادرة الوطن ، وترك الأهل والعيال ، والهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم إلى الله ، وسعيّاً وراء نشره وبثه في غير الجزيرة من الآفاق .

ولكن رغم إخفاق أسياذ قريش المشركين في جميع هذه الجهات والميادين

وعجزهم عن استئصال شجرة التوحيد الفتية ، وفشل جميع الأسلحة التي استخدموها للقضاء على الدين الجديد وأهله ، لم تنته محاولاتهم الإجهاضية بل عمدوا هذه المرة إلى استخدام سلاح جديد حسبوه أمضى من سوابقه .

وهذا السلاح هو سلاح الدعاية ضد رسول الله ﷺ ، لأنه صحيح أن إيذاء وتعذيب جماعة المؤمنين في « مكة » تمنع غيرهم من سُبُكُان « مكة » من الإنضواء إلى الإسلام إلا ان الحجيج الذين كانوا يسافرون إلى مكة في الأشهر الحرم وكانوا يلتقون رسول الله ﷺ في جو من الأمن والطمأنينة خلال تلك المواسم كانوا يتأثرون بدعوة النبي ﷺ ويتزعمُ اعتقادهم بالأوثان على الأقل ، ان لم يؤمنوا بدينه ، ولم يستجيبوا لدعوته ، ثم إنهم كانوا ينقلون رسالة الإسلام وانباء النبي ﷺ إلى مواطنهم ، ومناطقهم وكان ينتشر بذلك اسم رسول الله ، وانباء دينه في شتى مناطق الجزيرة العربية ، وكان هذا هو بنفسه ضربة قوية توجّه إلى صرح الوثنية في مكة ، وعاملاً قوياً في انتشار عقيدة التوحيد ، وسطوع أمره .

من هنا اتخذ سادة قريش أسلوباً آخر ، قاصدين بذلك الحيلولة دون انتشار الإسلام ، واتساع رقعته ، وقطع علاقة المجتمع العربي به .
واليك فيما يأتي بيان تفاصيل هذا الاسلوب ، وهذه الخطة :

١ . الاتهاماتُ الباطلة :

يمكن التعرف على شخصية أي واحد وتقييمها من خلال ما يرميه به اعداؤه من شتائم وسباب ، وما يكيلون له من اتهامات ونسب ، فإن العدو يسعى دائماً إلى أن يتهم خصمه بنوع من أنواع التهم لِيُضِلَّ الناس ، ويصرفهم عنه ، وليتمكن بما يحوِّكه حوله من أراجيف وأباطيل الحط من شأنه في المجتمع واسقاطه من الانظار والأعين .
ان العدو الذكي يسعى دائماً إلى أن ينسب إلى منافسه ما يُصدِّقه ولو ففة خاصة من الناس على الاقل ، ويوجبُ شكَّهم في صدقه ، ويتجنب تلك النسب

التي لا تصدق في شأنه ، ولا تناسب اخلاقه وافعاله المعروفة عنه ، ولا تمسه بشكل من الأشكال ، لأنه سوف لا يجني في هذه الحالة إلا عكس ما يقصد ، وخلاف ما يريد.

ومن هنا يستطيع المؤرخ المحقق أن يتعرف على الشخصية الواقعية لمن يدرسه ، وعلى مكانته الاجتماعية ، وأخلاقه وسجاياه ولو من خلال ما ينسبهُ الأعداء إليه ، وما يكيلون له من أكاذيب وإفتراءات ، ونسب باطلة واتهامات ، لأنّ العدو الذي لا يخاف أحداً لا يقصّر في كيل كلّ تهمة تنفعه وتخدم غرضه إلى الطرف الآخر ، ويستخدم هذا السلاح (أي سلاح الدعاية) ما استطاع ، وما ساعدته معرفته بالظروف ، ودرابته بالقرص.

فاذا لم ينسب إليه أيُّ شيء من تلك النسب الباطلة فان ذلك إنما هو لأجل طهارة جيبه ، ونقاء صفحته ، وتنزّه شخصيته عن تلك النسب ، ولأنّ المجتمع لم يكن ليعبأ بها ولم يصدّقها في شأنه.

ولو أننا تصفّحنا اوراق التاريخ الإسلامي لرأينا أن قريشا مع ما كانت تكفّر من عداء ، وتحمل من حقد على رسول الله ﷺ ، وكانت تسعى بكل جهدها أن تخدم صرح الإسلام الجديد الظهور ، وأن تحطّ من شأن مؤسسه وبانيه لم تستطع مع ذلك أن تستفيد من هذا السلاح ، وتستخدمه كاملا.

فقد كانت تفكّر في نفسها : ماذا تقول في حق رسول الله؟ وماذا ترى تنسب إليه؟؟ هل تتهمه بالخيانة المالية وها هم جماعة منهم قد ائتمنوه على أموالهم؟! (١) كما أن حياته الشريفة طوال الاربعين سنة الماضية جسدت امانته امام الجميع ، فهو الامين بلا منازع؟ هل تتهمه بالجرى والانسحاق وراء الشهوة واللذّة؟ وكيف تقول في حقه مثل هذا الكلام مع أنه بدأ حياته الشبابية بالتزويج بزوجة كبيرة السن إلى درجة

١. بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٦٢.

ما ، وبقي معها حتى لحظة انعقاد هذه الشورى في « دار الندوة » بهدف الدعاية ضده ، ولم يُعهد منه زلة قدم في هذا السبيل قط؟!!

وبالتالي بماذا تتهم محمداً الصادق الأمين ، الطاهر العفيف ، وأية تحمة ترى يمكن أن تُصدّق في حقه ، أو يحتمل الناس صدقها في شأنه ولو بنسبة واحد في المائة؟
لقد تحيّر سادة « دار الندوة » وأقطابها في كيفية استخدام هذا السلاح ، سلاح الدعاية ضد رسول الله ﷺ ، فقرّروا في نهاية الأمر أن يطرحوا هذا الأمر على صناديد من صناديد قريش ويطلبوا رأيه فيه ، وهو « الوليد بن المغيرة » وكان ذا سنّ فيهم ، ومكانة ، فقال لهم :

يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به .

قال : بل أنتم قولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن .

قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهّان فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه .

قالوا : فنقول : مجنون .

قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بجنقه ، ولا تخالجه ، ولا

وسوسته .

قالوا : فنقول : ساحر .

فقال : ما هو بساحر لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

وهكذا تحيّرُوا في ما ينسبون إلى رسول الله ﷺ .

وأخيراً اتفقوا على أن يقولوا : أنه ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وبيته وبين

المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته .

ويدلُّ عليه ما أوجده من الخلاف والإنشقاق والتفرُّق بين أهل مكة الذين

كان يضرب بهم المثل في الوحدة والاتفاق ^(١).

وقد ذكر المفسرون في تفسير سورة « المدثر » هذه القصة بنحو آخر فقالوا : لما أنزل على رسول الله « حم تنزيل الكتاب ... » قام إلى المسجد و « الوليد بن المغيرة » قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته ، أعاد قراءة الآية ، فتركت الآية في نفس الوليد تأثيراً شديداً فانطلق إلى منزله ، ولم يخرج منه أياماً ، فسخرت منه قريش وقالت : صبا . والله . الوليد ثم مشى رجال من قريش إليه وسألوه رأيه في قرآن محمد ، واقترح كل واحد منهم أمراً ، ولكنه رد عليها بالنفي جميعاً فقالت قريش إذن ما هو؟ فتفكر « الوليد » في نفسه ثم قال : ما هو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفترق بين الرجل وأهله ، وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر ^(٢).

ويرى المفسرون أن الآيات التالية في شأنه إذ يقول الله تعالى : « ذُنُوبِي وَمِمَّنْ خَلَقْتِ وَحِيدًا. وَجَعَلْتِ لَهُ مَا لَا مَمْدُ دَا. وَتَبَيَّنْ شُهُودًا. وَمَهَّدِ لَهُ تَمَهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَبَلَا ابْنَهُ كَانَ لَا يَاتِنَا عَنِيدًا. سَارَهُفُهُ صَبْعُودًا. ابْنَهُ فَكَّرَ وَقَدِرَ . فُقُتِلَ كَيْفَ قَبِرَ . ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَيَسَّرَ. ثُمَّ لَأَبَّرَ مَسْتَكْبِرًا. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ... (إلى قوله :) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّبَدُّكِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَةٍ » ^(٣).

الإصرار في نسبة الجنون إليه ﷺ :

يعتبر إتصاف النبي الأكرم ﷺ واشتهاره بين الناس بالصدق والامانة وغيرها من مكارم الأخلاق منذ شبابه من مسلمات التاريخ. وهو بالتالي أمرٌ اعترف به حتى أعداؤه اللدء ، فقد دانوا بفضله ، وأقروا

١. السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٧٠.

٢. مجمع البيان : ج ١٠ ، ص ٣٨٦ و ٣٨٧.

٣. المدثر : من ١١ - ٥١.

بأخلاقه الكريمة وسجاياه النبيلة ، دون تلكؤ ، ولا إبطاء .

وقد كان من أوصافه الحسنة البارزة ان جميع الناس كانوا يدعونه « الصادق » « الامين » وكانوا يثقون بأمانته ثقة كبرى (١) حتى أن المشركين كانوا يودعون ما غلبى من أموالهم عنده ، واستمر هذا الأمر حتى عشرة أعوام بعد دعوته العلنية .

وحيث أن دعوته ﷺ قد ثقلت على المعاندين فاجتهدوا في أن يصرفوا عنه الناس بما ينسبون إليه من بعض النسب التي توجب سوء الظنّ به ، ومن ثم إفشال دعوته ، وحيث أنهم كانوا يعلمون أن النسب الأخرى مما لا يقيم لها المشركون وزناً ، لأنها امور بسيطة في نظرهم ، من هنا رأوا بأن يتهمونه بالجنون ، والزعم بان ما يقوله ويقرؤه ما هو إلا من نسج الخيال ، ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهد ، والأمانة ، وذلك تكديباً لدعوته .

ثم عملت قريش على إشاعة هذه النسبة ، واتخذت وسائل عديدة وماكرة لترويجها وبثها بين الناس .

ومن شدة مكرهم ومرءاتهم أنهم كانوا يتخذون موقف المتسائل المخايد فيطرحون هذه التهمة في قالب الشك ، والترديد إذ يقولون : « أفترى على الله كذباً لم به جنة » (٢) .

وهذه هي بعينها الحيلة الشيطانية التي يتوسل بها ويتستر وراءها أعداء الحقيقة دائماً عند ما يريدون تكذيب المصلحين العظام ، واسقاط خطواتهم وافكارهم من الاعتبار ، والخط من شأنها وأهميتها .

ويشير القرآن أيضا إلى ان هذا الاسلوب الماكر الذميمة لم يكن مختصا بالمعارضين في عهد الرسالة المحمدية ، بل كان المعارضون في الأعصر الغابرة أيضاً يتوسلون بهذا السلاح لتكذيب الرسل ، والانبياء إذ يقول عنهم :

١ . بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٦٢ عن عبيدالله بن ابي رافع : كانت قريش تدعو محمد ﷺ في الجاهلية الامين وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها ، وكذلك كل من كان يقدم مكة من العرب في الموسم ، وجاءته النبوة والرسالة والامر كذلك .

٢ . سبأ : ٨ .

« كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ أَتَوَصَّوْا بِهِ بِبَلِّهِمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ »^(١).

وتحيط الاناجيل الحاضرة هي الأخرى عن ان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما وعظ اليهود قالوا : إن فيه شيطاناً ، فهو يهذي فلماذا تسمعون إليه؟!^(٢).

ومن المسلم والبيدهي أن قريشا لو كان في مقدورها أن تتهم رسول الله الصادق الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير هذا الاتهام وتنسب إليه غير هذه النسبة لما تأحرت عن ذلك ، ولكن حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشرقة خلال الاربعين سنة الماضية ، وسوابقه اللامعة في المجتمع المكّي وغير المكّي كانت تحول دون أن ينسبوا إليه شيئا من تلك النسب القبيحة ، الذميمة .
لقد كانت « قريش » مستعدة لأن تستخدم أي شيء . مهما صغر . ضد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فمثلا عند ما وجده أعداء الرسالة يجلس إلى غلام مسيحي يدعى « جبر » عند المروة ، انطلقوا يستخدمون هذا الأمر ضده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فورا فقالوا : والله ما يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا كثيرا ممّا يأتي به الا « جبر » النصراني .

فرد عليهم القرآن الكريم بقوله : « وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشِيرٌ لِسَانِ الَّذِي يُحَدِّثُونَ لَهُمْ عَجْمِي هَذَا اسْمُ رَبِّي سِينٌ »^(٣) .
« وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مُجْنُونٌ »^(٤) .

القرآن يرد على جميع الاتهامات :

وربما نسبوا إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكهانة ، والكاهن هو من يتصل بعناصر من الجن^(٥) أو الشياطين ويتلقى منهم اخباراً حول الماضي والمستقبل ،

١ . الذاريات : ٥٢ و ٥٣ .

٢ . انجيل يوحنا : الفصل ١٠ ، الفقرة : ٢٠ ، والفصل ٧ ، الفقرة ٤٨ و ٥٢ .

٣ . النحل : ١٠٣ .

٤ . الدخان : ١٣ و ١٤ .

٥ . الجن كائن من الكائنات ومخلوق من مخلوقات الله تعالى وقد اخبر به القرآن الكريم في مواضع عديدة كما سميت احدي السور باسم الجن .

وكان هذا موجودا قبل الإسلام كما ترويهِ كتب السير والتواريخ ^(١).

وقد رد القرآن الكريم على هذه المقالة وهذا الزعم إذ قال تعالى : « وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ » ^(٢) كما ردّ أيضاً تهمّة السحر ، والكذب والافتراء والشعر إذ قال تعالى وهو يصف المتهمين تارة بالكفر وأخرى بالظلم : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُبَشِّرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ » ^(٣).

وقال تعالى : « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » ^(٤).

وقال سبحانه متعجبا منهم : « قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ » ^(٥).

وقال تعالى : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » ^(٦).

وقال سبحانه : « وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » ^(٧).

وقال عز وجل : « فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ » ^(٨).

وقال تعالى : « قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ^(٩).

وقال تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوِّ مِثْلِهِ » ^(١٠).

وقال سبحانه : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَعَايَنَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا زُورًا » ^(١١).

وقال سبحانه : « أَلْفِتْرَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » ^(١٢).

وقال تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ » ^(١٣).

وقال تعالى : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكَرٌ وَقِرَانٌ مُبِينٌ » ^(١٤).

وربما وصفوا القرآن بأنه اضغاث احلام فردهم سبحانه بقوله.

« بَلْ قَالُوا اضْغَاثٌ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » ^(١٥).

-
- ١ - راجع : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٣ ، ص ١٠١ . النحل : ١٠١ .
٢٦٩ باب علم الكهانة والعرافة .
٢ . الحاقة : ٤٢ .
٣ . ص : ٤ .
٤ . الفرقان : ٨ .
٥ . الشعراء : ١٥٣ .
٦ . الحجر : ٦ .
٧ . التكوير : ٢٢ .
٨ . الطور : ٢٩ .

وهكذا نجدهم ذهبوا في استخدام سلاح الاتهام والتشويش على الشخصية المحمّدية والرسالة الإسلامية كل مذهب ، فمرة وصفوه بأنه كاهن وأخرى بأنه ساحر وثالثة بأنه مسحور ، ورابعة بأنه مجنون وخامسة بأنه معلّم وسادسة بأنه كذاب وسابعة بأنه مفتري وثامنة بأنه مفتري أو مجنون على سبيل التزديد وتاسعة بأنه شاعر وعاشرة بان ما يقوله ما هو الا اضغاث احلام.

٢ . فكرة معارضة القرآن :

لم يُجد استخدام سلاح الإتهام ضد رسول الله ﷺ نفعاً ، ولم يأت بالثمار التي كان يتوخاها المشركون منه ، لأن الناس كانوا يُدركون بفظنتهم وفراستهم أن للقرآن جاذبيّة غريبة ، وأنهم لم يسمعوا كلاماً حلوّاً ، وحديثاً عذّباً مثله .

ان لكلماته من العمق والعذوبة بحيث يتقبّلها كلُّ قلب ، وتسكن اليها كل نفس .

من هنا لم ينفع اتهام قريش لرسول الله ﷺ بالجنون وبأنّ ما يقوله إن هو الا من نسج الخيال ، ونتائج الجنون ، شيئاً ، فقررت أن تخطّط لتدبير آخر ظناً منهم بأنّ تنفيذه سيصرف الناس عنه ، وعن الاستماع إلى كتابه ، ألا وهو : معارضة القرآن الكريم .

فعمدت إلى « النضر بن الحارث » وكان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة ، وكان قد قضى شطراً من حياته في الحيرة بالعراق وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس واحاديث « رُستم » و « إسفنديار » وقصصهم ، وحكاياتهم ، وأساطيرهم ، وطلبوا منه أن يجمع الناس ويقص عليهم من تلكم الأساطير والحكايات يلهمي بها الناس عن رسول الله ﷺ ، ويصرفهم عن الإصغاء إلى القرآن الكريم!!

فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكّر الناس فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه « النضر » في مجلسه

إذا قام ﷺ ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلتم إليّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه.

ثم يحدثهم عن ملوك الفرس و « رستم » و « اسفنديار » ثم يقول :
بماذا محمد أحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتبتها كما اكتبتها؟^(١).
وقد كانت هذه الخطة حمقاء جدا إلى درجة أنها لم تدم إلا عدة ايام لا أكثر حتى أن قريشا سأمت من أحاديث « النضر » وسرعان ما تفرقت عنه.

وقد نزل في هذا الشأن آيات هي : « وَمَلَأُوهُمُ ظُلُمًا لَئِيمًا ۖ يَكْتُمُونَ فِيهَا الَّذِي كَفَرُوا بِهِمْ وَمَا كُنُوا يَحْكُمُونَ »
﴿ صِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٢).

تحججات صيبانية وجاهلية :

وربما جسّدوا معارضتهم للدعوة المحمدية في صورة تحججات ومجادلات جاهلية ومآخذ سخيفة اخذوها على رسول الله ورسالته ، تنم عن تكبر وجهل ، وعناد ولجاج طبعوا عليه.
وها نحن نذكر ابرزها :

أ . لماذا لم ينزل القرآن على ثري من اثرياء مكة أو الطائف؟!
قال تعالى حاكيا قولهم : « وَلَا يُبَيِّنُ لَنَا الْآيَاتِ الْكُرْبَىٰ ۚ عَلَىٰ جَلٍّ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ كَذِبِينَ »^(٣).
ب . لماذا لم يرسل اليهم ملائكة ولماذا هو بشر؟!
قال تعالى عنهم : « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

بَشَرًا

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٠٠ و ٣٥٨ .

٢ . الفرقان : ٥ و ٦ .

٣ . الزخرف : ٣١ .

رَسُولًا « (١) .

وقال تعالى حاكيا عنهم أيضا : « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » (٢) .

ج . أنه يدعو إلى خلاف ما كان عليه الآباء ، من الدين والعقيدة والسلوك؟
يقول عنهم سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّخَذَ آبَاؤُنَا وَمَا لَنَا لِمَا آمَنَّا بِهِ لَوْلَا أَنْزَلَ اللَّهُ مَوْجِبًا فَمَا كَانَ لَنَا حُكْمٌ وَلَا إِحْزَانٌ وَلَا حُجُومٌ لِمَا آمَنَّا بِهِ إِنَّا لَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَئِنَّا لَخَائِفُونَ إِيَّاهُ مِنْ قَبْلُ وَآخِرُ مَا نَدْعُوهُ حَقٌّ بِرَحْمَتِنَا بَلْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » (٣) .

د . تبديل الآلهة بإله واحد .

قال الله عنهم : « وَعَجِبُوا إِذَا جَاءَهُمْ مُبَشِّرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِيَّاهُ وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » (٤) .

هـ . القول بحشر الاجساد وتحدد الحياة في يوم القيامة .

قال تعالى عنهم : « وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » (٥) .

و . لماذا ليس عنده مثل ما كان لدى موسى من المعجزات كالثعبان المنقلب من العصا ، وقد توصل المشركون إلى هذا النمط من الاعتراض بسبب اتصالهم بأحبار اليهود .

يقول الله عنهم : « لَمَّا لَمْ يَنْصُرُوا لِحَقِّهِمْ لِحَقِّ نَبِيِّ اللَّهِ إِذْ كَانُوا أَكْفَارًا يَكْفُرُونَ * وَيَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ الْآيَاتُ مِنْ سَمَوَاتِنَا لَعُدْنَا حِجَابًا مُوقِفًا * وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَئِنَّا لَخَائِفُونَ إِيَّاهُ مِنْ قَبْلُ وَآخِرُ مَا نَدْعُوهُ حَقٌّ بِرَحْمَتِنَا بَلْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » (٦) .

ز . لماذا ليس معه ملك يُرى ويشاهد ويحضر معه في كل مقام ومشهد .

قال تعالى : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » (٧) .

١ . الاسراء : ٩٤ .

٢ . الفرقان : ٧ .

٣ . المائدة : ١٠٤ .

٤ . ص : ٤ و ٥ .

٥ . السجدة : ١٠ .

٦ . القصص : ٤٨ .

٧ . الانعام : ٨ .

مقترحات عجيبة ومطالب غريبة :

وكان المشركون إذا نفذت تحججاتهم واعتراضاتهم الواهية ، وقبولوا بردود قوية وقاطعة عليها عمدوا إلى طرح مقترحات سخيفة على رسول الله ﷺ في سياق معارضتهم لدعوته ونورد هنا ابرز تلك الاقتراحات ليعرف القارئ الكريم مدى معاناة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من قومه :

لقد اقترحوا عليه :

- ١ . ان يعبد اصنامهم سنة ويعبدوا إله سنة أخرى وجعلوا ذلك شرطا لايمانهم بدعوته!!
فأنزل الله تعالى في ردهم بسورة « الكافرون » : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَا نَا لِمِ اللَّهِ لِمَا يَتَمَنَّوْنَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُكُمْ. بِحُكْمِ رَبِّي دِينٌ ».
 - ٢ . تبديل القرآن ، فقد دفع نقد القرآن الكريم للوثنية ، والازاء على الاصنام ، دفعهم إلى ان يطلبوا من النبي ﷺ ان يأتي لهم بقرآن آخر لا يحتوي على شجب عبادة الاوثان والازدراء بالاصنام ، وابطالها.
قال الله تعالى عن فعلهم هذا : « وَذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ »^(١) .
فرد الله عليهم بقوله : « لَوْ مَا كَانُوا إِلَّا أَنْتُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُ أَنْ رَبَّنَا لَا نُؤْتِيهِمْ إِلَّا مَا يُؤْتِيهِمْ إِنْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِذْ سَمِعُوا الرَّسُولَ يُذْكَرُ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ يُتْلَى عَلَيْهِمْ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ». ^(٢)
- ٣ . مطالب مادية عجيبة!!

١ و ٢ . يونس : ١٥ .

وقد عمدوا . بسبب عنادهم وعتوهم . إلى المطالبة بأمر لا ترتبط بهداية الناس ، مثل مطالبته بان يفجر لهم ينابيع ، أو يُسقط السماء على رؤوسهم قطعاً ، أو يصعد إلى السماء ، أو يأتي بالله سبحانه وتعالى ، أو غير ذلك من الاقتراحات والمطالب التي كانت إما مستحيلة في نفسها أو تناقض غرض الدعوة!!

قال الله حاكياً عنهم ذلك : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفُجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُثْبَعَا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . وَبِئْسَ بِاللَّهِ لَمَلَأَكَّةً قَبِيلًا . وَأَ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ نُجُورٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ »^(١) .

صبر النبي واستقامته وثباته :

ولقد قابل رسول الله ﷺ كل هذه التحججات الايدائية وما طرح من الاقتراحات المستحيلة بصبر عظيم وثبات هائل ، ايماناً منه بدعوته ، وحرصاً على ابلاغ رسالته ، وبفعل التأييد الالهي من جانب .

يقول الله تعالى في هذا الصدد :

- ١ . « صَبِرْ كَمَا صَبَرُوا لَوْ الْعَزْمُ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ »^(٢) .
- ٢ . « تَبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ صَبِرًا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ »^(٣) .
- ٣ . « صَبِرْ وَمَا صَبِرُ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ »^(٤) .
- ٤ . « صَبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاوَةِ وَالْعَشِيِّ »^(٥) .
- ٥ . « صَبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْجُودِ »^(٦) .
- ٦ . « صَبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَهَاجِرُهُمْ هَاجِرًا جَمِيلًا »^(٧) .

١ . الاسراء : ٩٠ - ٩٣ .

٢ . الاحقاف : ٣٥ .

٣ . يونس : ١٠٩ .

٤ . النحل : ١٢٧ .

٥ . الكهف : ٢٨ .

٦ . القلم : ٤٨ .

٧ . المزمل : ١٠ .

معاجز النبي لم تنحصر في القرآن :

وبالمناسبة لا بد أن نذكر أن المشركين ومن حذى حذوهم من الكفار والمعارضين للرسالة الإسلامية كانوا يطالبون رسول الله ﷺ بمعاجز ودييات لا بدافع الرغبة في الايمان بدعوته بل بدافع اللجاج والعناد ، وإلا فان معاجز النبي لم تنحصر في الكتاب العزيز ، فقد اتى رسول الله بآيات ومعاجز كثيرة أخرى غير القرآن ، كان كل واحد منها يكفي للاقتناع برسالته ، والايمان بصحة دعواه.

فالقرآن نفسه يشير إلى أبرز هذه المعاجز وهي :

١ . شق القمر

فقد طلب المشركون من النبي ﷺ ان يشق لهم القمر نصفين حتى يؤمنوا به ، فلمّا على ذلك لهم باذن الله كفروا به وقالوا انه سحر!!
يقول الله تعالى : « إقترَبَتِ السَّاعَةُ وَنَشَقُّ الْقَمَرَ . مَن يَرِهِ آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ »^(١).

٢ . المعراج

ان العروج برسول الله ﷺ والذي سيأتي مفصلا هو الآخر معجزة من معاجزه القوية ، وقد نطق بها القرآن بقوله : « حُجِّبَ لَكَ اللَّيْلِ سَمِيٌّ عِجْدُهُ بِرَبِّكَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »^(٢).

١ . القمر : ١ و ٢ .

٢ . الاسراء : ١ .

٣ . مباهلة أهل الباطل

ان تقدم رسول الله ﷺ مع من خرج بهم إلى المباهلة ، واحجام النصارى عن مباهلته ، معجزة أخرى من معاجزه ﷺ وقد تحجّ القُرآن الكريم عن هذه القضية إذ قال : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقَبِلْ تَعَالَوْا نَبُذْ أُنْبَاءَنَا وَنَبَأَكُمْ وَنُؤَسِّأُنَا وَنُؤَسِّأُكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (١) .

وستأتي قصّة المباهلة على نحو التفصيل في حوادث السنة العاشرة من الهجرة.

٤ . الاخبار بالمغيبات

فقد كان رسول الله ﷺ يخبر عن أمور غائبة كما يقول الله سبحانه حاكيا عنه : « أُنَبِّئُكُمْ مَا تَدْرُونَ مَا يَخْفَى مِنْكُمْ » (٢) .

هذا وقد أخبرت الاخبار والاحاديث عن معاجز كثيرة لرسول الله غير القرآن الكريم.

١ . آل عمران : ٦١ .

٢ . آل عمران : ٤٩ ، وقد اشار القرآن الكريم إلى موارد أخرى من هذه القبيل .

فقد اخبر عن غلبة الروم بعد سنين : قال تعالى :

« الْمَغْلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ * وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ يَوْمٍ . فِي بَضْعِ سِنِينَ * لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَحِينَ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ » (الروم : ٤٠١) .

واخبر عن هلاك ابي لهب قال تعالى :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... الخ » .

وأخبر عن هزيمة المشركين في بدر قال سبحانه :

« سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدِّبْرَ » (القمر : ٤٥) .

ومن هذه المعاجز ما ذكره الامام اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب . كما في نهج البلاغة .
حول سؤال المشركين من النبي ﷺ قلع شجرة بعروقتها وجذورها ولما فعل ذلك وقال : «
يا أيُّها الشجرة ان كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر ، وتعلمين اني رسول الله فانقلعي بعروقتك
حتى تقفي بين يدي باذن الله » .

فانقلعت بعروقتها ولها دويّ عجيب ووقفت بين يدي رسول الله ﷺ ولكنهم كذبوا
وقالوا ساحر كذاب ، علواً واستكباراً .

وقد صرح الامام في كلامه هذا أن النبي ﷺ أخبرهم بانهم لا يؤمنون وان ظهرت لهم
المعجزة التي طلبوها ، وان فيهم من يطرح في القليب (في معركة بدر) وان منهم من يخجّ
الأحزاب (معركة الخندق)^(١) .

اصرار النبي على هداية قريش :

بل كان النبي ﷺ يحرص على هدايتهم وارشادهم وابقاظهم . فقد كان زعيم المسلمين
وقائدهم يعلم جيداً بأن اعتقاد أغلبية الناس بالأوثان ما هو الا أمر نابع من تقليد الآباء ،
والجدود ، أو اتباع أسياد القبيلة وكبرائها ، وهو بالتالي لا يستند إلى جذور في أعماق الناس
وأسس في عقولهم ونفوسهم .

من هنا فإنّ أيّ انقلاب يحصل ويحدث في اوساط السادة والكبراء بان يؤمن أحدهم
مثلاً كان كفيلاً بأن يحل الكثير من المشاكل .

من هنا كان ثمة إصرار كبير على جر « الوليد بن المغيرة » الذي أصبح ابنه « خالد » في
ما بعد من قادة الجيش الاسلامي والمشاركين في الفتوح الإسلامية إلى صف المؤمنين بالرسالة
المحمدية ، لأنّه كان أسنّ من في قريش وأكثرهم نفوذاً ، وأعلاهم مكانة ، وأقواهم شخصية ،
وكان يُدعى حكيم العرب ، وكانت العرب تحترم رأيه إذا اختلفت في أمر .

١ . نهج البلاغة : قسم الخطب الرقم ١٩٢ .

وقد كلّمه رسول الله ﷺ ذات يوم في ذلك وقد طمع في اسلامه ، فَبينا هو في ذلك إذ مرّ به « ابن لم مكتوم » ، فكلّم رسول الله ﷺ وجعل يستقرئه القرآن فشقّ ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عمّا كان فيه من أمر « الوليد » . وما طمع فيه من اسلامه ، فلمّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه ، فنزل قوله تعالى : « عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُ الذُّكْرَى . أَمَّا مِن ابْتِغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى . وَمِمَّا مِن جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرٌ » (١) (٢) .

وقد فنّد علماء الشيعة ومحققوهم هذه الرواية التاريخية ، واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن رسول الله ﷺ الذي امتدّجه ربُّ العالمين بالخلق العظيم ، ووصفه بالرافة بالمؤمنين ، وقالوا : ليس في الآيات ما يدل على أن الذي عبس وتولى هو رسول الله ﷺ .

وقد روي عن الامام الصادق عليه السلام أن المراد رجل من بني أمية ، فإنه عبس وتولى عند ما حضر « ابن ام مكتوم » الأعمى عند رسول الله فنزلت هذه الآيات توبيخاً له (٣) .

* * *

٣ . تحريم استماع القرآن

كانت البرامج الواسعة التي دبرها الوثنيون في « مكة » لمكافحة الإسلام والحيلولة دون انتشاره بين القبائل والجماعات ، تُنفذ الواحدة تلو الأخرى ، ولكن دون جدوى ، ودون ان يكسب اصحابها من ورائها أي نجاح ، واية نتائج على

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

٢ . عبس : ١١ - ١ .

٣ . مجمع البيان : ج ١٠ ، ص ٤٣٧ ، وقد شرح العلامة الطباطبائي في المجلد ٢٠ من تفسير الميزان عند تفسير سورة عبس شأن نزول هذه الآيات بصورة رائعة ، وشكل بديع ، وثبت بان فاعل عبس ليس رسول الله ﷺ ، ولا ينافي ذلك توجه الخطاب في « وما يدريك » إليه ﷺ .

المستوى المطلوب ، فقد كانت تلك المؤامرات تفشل في كل مرة ، ولا يجني المشركون منها سوى الخيبة والفشل ، وسوى النتائج المعكوسة في أغلب الأحيان.

فقد مارسوا الدعاية ضد رسول الله فترة من الزمن ولكن لم يحالفهم التوفيق الكامل في ذلك ، فقد وجدوا رسول الله ﷺ أكثر ثباتا واستقامة في طريقه وأشد إصرارا على هدفه ، وكانوا يرون بأعينهم بأن عقيدة التوحيد في انتشار مستمر ومتزايد ، يوماً بعد يوم.

ولهذا قرّر سادة قريش وزعماء « مكة » المشركون أن يمنعوا الناس عن سماع القرآن. ولكي تتحقق خطتهم هذه وتلبس ثوب الوجود ببشوا جواسيسهم في كل أنحاء مكة ومدخلها ليمنعوا من يفتد إليها للحج أو التجارة من الاتصال بمحمد ، ومنعه بكل صورة ممكنة ، عن الاستماع إلى القرآن ، وأعلن مناديتهم ما ذكره القرآن عند قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ »^(١).

لقد كان القرآن اقوى أسلحة النبي ﷺ ، فقد القى رعباً عجبياً في نفوس الاعداء واقض مضاجعهم.

وكان اشرف قريش وأسيادها يرون بلم أعينهم كيف أن أعدى أعداء النبي ﷺ (وهو أبو جهل) عندما مشى إليه ليستهزئ به ، ويسخر منه ، ما ان سمع آيات من القرآن ، إلا وفقد السيطرة على نفسه ، ولان قلبه ، وأصبح من أصحابه ومؤيديه الأقوياء ، ولهذا لم يكن أمام أولئك الاسياد إلا أن يمنعوا من سماع القرآن منعاً باتاً ، ويحرموا التحدث إلى النبي ﷺ تحريماً قاطعاً^(٢).

ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلوه من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم ، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع^(٣).

١ . فصلت : ٢٦ .

٢ و ٣ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣١٣ و ٣١٤ .

واضعوا القرار ينقضون قرارهم!!

ولكن من الطريف العجيب أن نفس الذين كانوا يمنعون الناس بشدة عن الاستماع إلى القرآن ، وكانوا يعدون كل من يتجاهل قرار (تحريم الاستماع إلى القرآن) مخالفا يتعرض للملاحقة والعقاب ، نقضوا بعد أيام من إصدار هذا القرار قرارهم وانضموا إلى صفوف المخالفين له في الخفاء.

فإذا بالذين يمنعون من سماع القرآن في العلن ، يستمعون إليه في الخفاء!

واليك بعض ما جرى في هذا الصعيد :

خرج « أبو سفيان » و « أبو جهل » و « الاخنس » ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فاخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلأوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة اخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك. ثم تفرقوا^(١).

٤ . منع الاشخاص من الايمان برسول الله

بعد خطة (تحريم الاستماع إلى القرآن) بدأوا بتنفيذ خطة أخرى وهي منع كل قريب وبعيد ممن رغبوا في الإسلام وقدموا إلى مكة ليتعرفوا على النبي ، وعلى ما أتى به من كتاب ودين ، من الاتصال بالنبي ﷺ .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣١٥ .

فبثت قريش جواسيسها في الطرق المؤدية إلى مكة ليتصلوا بمن يلقونه من هؤلاء ويبادروا إلى منعه من الاتصال برسول الله ﷺ والايمن برسالته ، بشتى الحيل والاساليب .
واليك نموذجين حيين من هذا الامر .

١ . « الاعشى » :

وكان من شعراء العهد الجاهلي البارزين ، وكانت قصائده تتناقلها مجالس السمر القرشية ، وتتغنى بها محافل انسهم .

وقد بلغ « الاعشى » في كبره نبأ ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد ومن تعاليم الإسلام العظيمة ، وكان يعيش في منطقة نائية عن مكة ، حيث لم تصل اليها أشعة الرسالة الإسلامية على وجه التفصيل بعد ، ولكن ما قد سمع به من تعاليم الإسلام على نحو الاجمال قد اوجد في نفسه هياجا خاصا وحريراً مشاعره فأنشأ قصيدة مطولة يمدح فيها رسول الله ﷺ ثم خرج إلى مكة ليهديها إليه ﷺ وهو في نفس الوقت يريد الإسلام .

ورغم ان تلكم القصيدة لا تتجاوز أبياتها ٢٤ بيتاً ، ولكنها تُعدّ من أفضل وافصح ما قيل من الشعر في الإسلام ، وفي رسول الله ﷺ في العهد النبوي ويوجد نصّها الكامل في ديوان « الأعشى » وقد قال فيها وهو يذكر بعض تعاليم الإسلام :

نبيّا يرى ما لا يرون وذكره	أغار لعمري في البلاد وأنجدا
فاياك والميتات لا تقربتها	ولا تاخذن سبهما حديدا لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تُنسكته	ولا تعبد الأوثان واللّه فاعبدا
ولا تقربن جرّة كان سرّها	عليك حراما فانكحن اوتأبدا
وذا الرحم القرى فلا تقطعنه	لعاقبة ، ولا الاسير المقيّدا
وسبّح على حين العشيات والضحي	ولا تحمد الشيطان واللّه فاحمدا

فلما كان بمكة أو قريبا منها اعترضه جواسيس قريش ورجالها فسألوه عن أمره وقصده فآخبرهم بأنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم ، وحيث أنهم كانوا يعرفون بأن « الاعشى » رجل يحب النساء والخمر حبا كبيرا لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفروه من الإسلام فقالوا له : يا أبا بصير (وهي كنية الاعشى) إنه يحرم الزنا .

فقال الاعشى : والله ذلك لأمر ما لي فيه من ارب .

فقالوا له : يا أبا بصير فإنه يحرم الخمر .

فقال الأعشى . وقد صدم بهذا الخبر . أما هذه فوالله في النفس منها لعلالات ، ولكني منصرف فأتوى منها عامي هذا ، ثم آتية فأسلم!! فانصرف فمات في عامه ذلك ، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ .^(١)

٢ . الطفيل بن عمرو الدوسي :

وهو الشاعر العربي الحكيم العذب اللسان ، صاحب النفوذ والكلمة المسموعة في قبيلته . يروى انه قدم « مكة » ورسول الله ﷺ بها ، وكانت قريش تخشى ان يتصل بالنبي ﷺ فيسلم .

ومن البديهي أن اسلام رجل مثله كان مما يشق على قريش جده ولهذا مشى إليه رجال منهم وقالوا له . محذرين آياه من رسول الله ﷺ :

يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد اعضل بنا ، وقد فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين ابيه ، وبين الرجل وبين اخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمته ، ولا تسمعن منه شيئا .

ففعلت تحذيرات قريش فعلتها في نفس الطفيل وهم يكررونها عليه بقوة

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٨٦ . ٣٨٨ .

وإصرار ، حتى انه قرر ان لا يسمع من النبي ﷺ شيئاً ، ولا يكلمه ، وحشّى أذنه . حين غدى إلى المسجد للطواف . قطناً ، خوفاً من أن يبلغه شيء من قول رسول الله ﷺ وهو لا يريد ان يسمعه!!!

يقول الطفيل : فغدوت إلى المسجد فاذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة ، ففقت منه قريباً فسمعت كلاماً حسناً من غير اختيار مني فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسين من القبيح ، فما يعني أن اسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وان كان قبيحاً تركته؟

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سردت لِي بي بكسرف لئلا اسمع قولك ثم أبى الله إلا أن يُسمعي قولك فسمعتة قولاً حسناً ، فاعرض علي أمرك ، فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام وتلا علي القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق . ثم قلت : يا الله نبيّ إني امرؤ مطاعٌ في قومي وأنا راجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام .

ثم يكتب ابن هشام قائلًا : إن الطفيل لم يزل بارض « دوس » يدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى « بدر » و « أحد » و « الخندق » فقدم على رسول الله ﷺ بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون أو ثمانون بيتاً ورسول الله ﷺ بخيبر فلحقوا جميعاً برسول الله ﷺ بخيبر ، وبقي مع النبي حتى قبض ﷺ ثم سار مع المسلمين . في زمن الخلفاء إلى « اليمامة » وشارك في معركتها وقُتل فيها ^(١) .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٨٢ . ٣٨٥ .

اسطورة الغرائق

قد يكون بين القرء من يودُ التعرف على اسطورة « الغرائق » التي رواها بعض مؤرّحي السنّة ومعرفة جذورها كما يود التعرف على الأبيادي الخفية التي كانت وراء اختلاق هذه الاسطورة ، وأمثالها من الأكاذيب ، والمفتريات .

كان اليهود وبخاصّة أحبارهم ولا يزالون العدو رقم واحد للإسلام . وقد عمّد فريق منهم . مثل « كعب الاحبار » وغيره . ممّن تظاهروا باعتناق الإسلام إلى تحريف الحقائق باختلاق الأكاذيب وجعل الأخبار المفتراة على لسان الانبياء ^(١) .

ولقد أدرج بعضُ المؤلفين المسلمين بعض هذه المفتريات في مؤلفاتهم وجعلوها في عداد الحديث والتاريخ الصحيح من دون تمحيصها والتحقيق فيها ، ثقة بكل من أظهر الإسلام وتظاهر بالإيمان ، وانضم إلى صفوف المسلمين!!

ولكنّ اليوم حيث يجد العلماء فرصة أكبر للتحقيق في هذا النوع من الأحاديث والاخبار ، والمنقولات والنصوص وبخاصة بعد أن توقّرت لديهم ، بفضل جهود طائفة من المحققين المسلمين القواعد والضوابط الكفيلة بتمييز

١ . وهي التي يُطلَق عليها الاسرائيليات وقد أُلقت في هذا المجال بعض الكتب .

الحسن عن القبيح ، والصحيح عن السقيم ، وفرز الحقائق التاريخية عن القصص الخيالية ،
والروايات الاسطورية .

من هنا لا ينبغي لكاتب مسلم ملتزم أن يعتبر كل ما يراه في مصنف تاريخي أو غير
تاريخي متقدّم أمراً صحيحاً مقطوعاً بسلامته ، ويرويه في كتابه من دون دراسة وتحقيق ،
وتمحيص وتقييم .

ما هي أسطورة الغرائق؟!

يقولون : إن « الأسود بن المطلب » و « الوليد بن المغيرة » و « أمية بن خلف » و «
العاص بن وائل » وهم من زعماء قريش واسيادها قالو لرسول الله ﷺ :
يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وانت في الأمر!!
وقالوا ذلك رفعا للاختلاف ، وتضييقاً لشقّة الخلاف فأنزل الله سبحانه سورة الكافرين
التي امر فيها نبيه أن يقول في جوابهم : « لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد » .
ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يرغب في أن يساوم قريشاً ويجارهم وكان يقول في
نفسه : ليت نزل في ذلك أمر يقرّينا من قريش .

وذاث يوم وبينما كان ﷺ يتلو القرآن عند الكعبة ويقرأ سورة « النجم » فلما بلغ
قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىَّ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » ^(١) .

أجرى الشيطان على لسانه الجُمْلَتَيْنِ التاليتين :

« تِلْكَ الْغُرَائِقُ الْعُلَى مِنْهَا الشَّفَاعَةُ تُرْجَى » .

فقرأهما من دون إختيار ، وقرأ ما بعدها من الآيات ، ولما بلغ آية السجدة سجد هو
ومن حضر في المسجد من المسلمين والمشركين أمام الاصنام ، إلاّ

١ . النجم : ١٩ و ٢٠ .

« الوليد » الذي عاقه كبر سنه عن السجود!!

وفرح المشركون ، وارتفعت نداءاتهم يقولون : لقد ذكر « محمد » آلهتنا بخير .
وانتشر نأ هذه المصاحلة والتقارب بين رسول الله ﷺ والمشركين ، المهاجرين إلى
الحبشة ، فعاد على أثرها جماعة منهم إلى مكة ، ولكنهم ما أن كانوا على مشارف « مكة
» إلا وعرفوا بأن الأمر تغير ثانية ، وأن ملك الوحي نزل على النبي وأمره مرة أخرى بمخالفة
الاصنام ومجاهدة الكفار والمشركين ، وأخبره بأن الشيطان هو الذي أجرى تينك الحملتين
على لسانه ، وانه لم يقله وأنه ليس من « الوحي » في شيء أبدا .

وعندئذ نزلت الآيات (٥٢ . ٥٤) من سورة « الحج » التي يقول الله تعالى فيها :
« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا
يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . »
« لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ اتُّوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ
اللَّهَ لَهَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . »

هذه هي خلاصة أسطورة « الغرائيق » التي أوردها « الطبري » في تاريخه (١) ويذكرها
ويرويها المستشرقون المغرضون بشيء كبير من التطويل والتفصيل!!

محاسبة بسيطة لهذه الاسطورة

لنفترض أن « محمدا » لم يكن نبيا مرسلا ولكن هل يمكن لأحد أن ينكر ذكاءه
وحنكته ، وفطنته وعقله .

فهل لعاقل فطن ، فحنك لبيب مثله أن يفعل مثل هذا؟

ان الذكي اللبيب الذي يجد انصاره يتكاثرون ويتزايدون يوما بعد يوم

١ . تاريخ الطبري ج ٢ ، ص ٨٥ و ٧٦ .

وتقوى صفوفهم أكثر فكثر بينما تتفرق صفوف أعدائه ومناوئيه ويتناقض معارضوه وخصومه ، هل يقدم في مثل هذه الحالة على عمل يوجب ان يسيء الجميع ظَنَّهُم به ، ويشك الصديق والعدو في أمره؟!!

هل تصدق. أنت أيها القارئ الكريم أن رجلا ترك جميع الأموال والمناصب التي عرضتها قريش عليه ، في سبيل دينه الخفيف ، وعقيدة التوحيد أن يصبح مرة أخرى من دعاة الشرك ، ومرّوجي الوثنية؟؟؟!!

إننا لن نصتق. بمثل هذا الاحتمال في حق مصلح أو سياسي عادي من الساسة والمصلحين فكيف برسول الله ونبه العظيم.

رأي العقل في هذه القصة :

١. إن العقل يحكم بان المرشدين الذين يبعثهم الله تعالى إلى البشرية لهدايتها وارشادها ، وتركيتها وتعليمها مصونون عن أي خطأ وزلل بقوة (العصمة) التي أوتوها ، إذ لو تعرض مثل هؤلاء إلى الخطأ والزلل في أمور الدين لزلت ثقة الناس بهم وبكلامهم.

يجب علينا ان نقارن بين أمثال هذه القصص ، وبين هذا الأصل العقائدي المنطقي ونعالج بواسطة معتقداتنا القوية المبرهنة متشابهات التاريخ ومعضلاته.

إن من المسلم أن عصمة رسول الله ﷺ كانت تمنعه وتحفظه من أي نوع من هذه الحوادث في تبليغ رسالته السماوية.

٢. ان هذه الاسطورة تقوم أساسا على أن النبي قد تعب من أداء مهمته التي ألقاها الله سبحانه عليه ، وقد شقَّ عليه ابتعاد الوثنيين عنه ، فكان يبحث عن مخلص من هذا الوضع المتعب ، يكون طريقاً. حسب تصوره. إلى إصلاح وضعهم!!

ولكن العقل يقضي بأن على الانبياء أن يكونوا صابرين حلماء أكثر مما يتصور ، وأن يكونوا مضرب المثل عند الجميع في ذلك ، فلا يُجِدُّوا أنفسهم بالتهرب من المسؤولية وترك الساحة مطلقاً ، مهما اشتدت الظروف ، وتأزمت

الأحوال.

بينما لو صحّت هذه الرواية . الاسطورة . لكانت دليلاً على أنّ بطل حديثنا قد فقّد عنان الصبر وأفلت منه زمام الثبات والاستقامة وانه بالتالي تعب وملّ ، وضني وكلّ ، وهو أمرٌ لا ينسجم مع ما يحكم به العقل السليم في حق الأنبياء ، كما لا يتفق كذلك مع ما عهدناه من سوابق رسول الله ﷺ ومن مستقبله أبداً .

إنّ مختلق هذه الاسطورة لم يجرّ بخاطره وباله أنّ القرآن الكريم شهد ببطان هذه القصة ، إذ يعدّ الله تعالى نبيه الكريم ، بأن لا يتسرّب إلى القرآن أي شيء من الباطل إذ قال : « لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »^(١) .

كما وعده أيضاً بأن يصونه عبر جميع أدوار البشرية من أي حادث سيّ إذ قال سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ مَرَّتًا لَهُ لِحَافِظُونَ »^(٢) .

ومع ذلك كيف يستطيع الشيطان الرجيم عدو الله أن ينتصر على رسول الله ﷺ ويسرّب إلى القرآن شيئاً باطلاً ، ويصبح القرآن الذي تقوم معارفه وتعاليمه على أساس معاداة الوثنية ومحاربتها داعياً إلى الوثنية؟؟!!

إنه لأمر عجيب جداً أن يفترى مختلق هذه الاسطورة أمراً ضدّ التوحيد في موضع قد كذّبه القرآن قبل هذا المكان بقليل إذ قال الله تعالى : « مَلَأَ جَنَّاتٍ مِنْ دُونِهَا مِنْ لَدُنْ رَبِّهِمْ وَأَمْشَى الْمَاءَ جُرَيْدًا فَسَوَّىٰهَا وَنَبَتُ فِيهَا الْبُسبُودُ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ »^(٣) .

فكيف يترك الله نبيه . وقد وعده بهذا الوعد . من دون حفيظ ، ويسمح للشيطان بأن يتصرف في قلبه وعقله ولسانه؟؟

إن هذه الأدلة العقلية إنما تفيد من يكون مؤمناً بنبوّة محمّد ﷺ ورسالته .

١ . فصلت : ٤٢ .

٢ . الحجر : ٩ .

٣ . النجم : ٣ و ٤ .

واما المستشرقون الذين لا يعتقدون بنبوته ، ويعمدون إلى شرح ونقل وترديد أمثال هذه الأساطير للحط من شأن دينه ورسالته فلا تكفيهم هذه الدلائل ، فلا بد أن ندخل معهم في البحث من باب آخر.

تكذيب القصة من طريق آخر

إن النص التاريخي يقول : إن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة ، وكبار قريش وأكثرهم من عمالقة الكلام ، وأبطال الفصاحة والبلاغة العربية حضور في المسجد ومنهم « الوليد بن المغيرة » ، متكلم العرب ومنطيقها المفوه المعروف بينهم بالذكاء وحصافة العقل والنباهة ، وقد سمعوا جميعا هذه السورة إلى ختامها حيث سجد الجميع بسجدها.

فكيف اكتفى هذا الجمع المؤسس للفصاحة والبلاغة الذين كانوا ينقدون كل ما يعرض عليهم نقدا دقيقاً

كيف اكتفوا بتينك الجملتين اللتين امتدحتا آهتهم ، وقد تضمنت الآيات السابقة عليهما ، واللاحقة لهما على شتم آهتكم وتفنيدها ، والازدراء بها بصورة صارخة وصریحة؟! كيف تصور مختلف هذه الاكذوبة الفاضحة ، تلك الجماعة أصحاب اللغة العربية وآباءها ونقاد الكلام المعدودين عند العرب كلها من عمالقة الفصاحة والبلاغة بلا منازع ، والذين كانوا أعرف من غيرهم بإشارات تلك اللغة ، وكناياتها (فضلا عن تصريحاتها). كيف اكتفى هؤلاء بتينك العبارتين في امتداح آهتهم ، وغفلوا عما سبقها ولحقها من الذم لها والظعن الصارخ فيها؟

إنه لا يمكن قط أن نخدع العاديين من الناس بهاتين الجملتين المحفوفتين بكلام مطوّل يذم عقائدهم وسلوكهم فكيف بمن عُرف باللب ، والحصافة ، والحكمة والذكاء؟
وها نحن ندرج هنا الآيات المتعلقة بالمقام ونترك أصفاراً (و فراغاً) في مكان

الجملتين اللتين أُدعي أضافتهما ، ثم نترك للقارئ نفسه أن يقيم بنفسه هل لتيتك الجملتين مكان بين هذه الآيات (التي وردت في ذم الاصنام والقدح فيها) : وإليك هذه الآيات : « أَفَبَرَّيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىَّ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ... (١) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى. إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » (٢).

ثم هل يسمح إنسان عادي لنفسه أن يكف عن معاداة نبيِّ هاجم عقائده طيلة عشرة اعوام ، وهدر إستقلاله وكيانه ، وحرَّ عليه الشقاء بتسفيه أحلامه ، وشتم أهته ، لعبارات متناقضة وكلام خليط من الفمَّ الكبير والمدح العابر.

دليل لغويّ على تفنيد هذه الاسطورة

يقول العلامة الجليل الشيخ محمّد عبده : لم يُستعمل لفظ الغرائق في الآلهة أبدا لا في اللغة ولا في الشعر العربي (٣).

و « غرنوق » و « غزنيق » اللذان جاءا في اللغة استعمالا في نوع من طيور الماء أو الشابّ الجميل ، ولا ينطبق أيُّ واحد من هذه المعاني على الآلهة.

وقد اعتبر احد المستشرقين يدعى « السيروليم مويير » قصة « الغرائق » هذه من مسلمات التاريخ واستدل لها بقوله : لم يكن يمض على هجرة المهاجرين الاول إلى الحبشة اكثر من ثلاثة أشهر يوم صالح محمّد قريشا فعادوا إلى مكة.

إن المسلمين الذين هاجروا إلى تلك الأرض وكانوا يعيشون في أمن وطمأنينة في جوار النجاشي إذا لم يكونوا يبلغهم نبأ مصالحة النبي لقريش لما عادوا إلى مكة للقاء بذويهم. فاذن لا بدّاً « محمّدا » قد تذرّع بشيء لمصالحة قريش ، والتقرّب إليها ،

١. مكان الجملتين المزعومتين : تلك الغرائق ... إلى آخرها.

٢. النجم : ١٩ - ٢٣.

٣. نقله عنه القاسمي في تفسيره : ج ١٢ ، ص ٥٦ - ٥٥.

وهذا الشيء هو قصة الغرائق!!^(١).

ولكن يجب أن نسأل هذا المستشرق المحترم :

أولاً : لماذا يجب أن تكون عودة المهاجرين ناشئة عن نبأ صحيح حتماً.

إن النفعيين وذوي الأهواء والأغراض يسعون دائماً إلى بث عشرات بل مئات الأخبار الكاذبة بين جماعتهم لتحقيق مآرب خاصة لهم ، فما الذي يمنع من أن نحتمل أن هناك من افتعل خبر مصالحة النبي لقريش بهدف إرجاع المهاجرين من الحبشة إلى « مكة ». وقد صدق بعض أولئك المهاجرين هذا الخبر الكاذب فعادوا إلى أرض الوطن ، بينما لم ينخدع الآخرون بها وبقوا في الحبشة ولم يعودوا إلى مكة؟؟

ثانياً : لنفترض أن النبي ﷺ كان يريد أن يصلح قريشاً ، فهل يكون الطريق إلى السلام والمصالحة منحصرًا في افتعال هاتين الجملتين.

ألم يكن إعطاء مجرّد وعد مناسب أو مجرّد السكوت عن عقائدهم كافياً لتهدئة خواطرهم ، واجتذاب قلوبهم نحوه؟

وعلى كل حال فإن عودة المهاجرين لا يكون دليلاً على صحّة هذه الأسطورة كما أن المصالحة ، والتقارب غير متوقّفين على النطق بهاتين الجملتين. والأعجب من هذا أن البعض تصوّر الآيات (٥٢ . ٥٤ من سورة الحج) قد نزلت في قصة الغرائق.

وحيث أن هذه الآيات قد وقعت ذريعة بأيدي المستشرقين ومرتكبي جريمة التحريف في التاريخ ، فاننا نعمدُها إلى توضيح مفاد هذه الآيات ، ونبين للقارئ بأنها تنظر إلى امر آخر ، ولا ترتبط بهذه القصة بتاتاً.

وها هو نصُّ الآيات المشار إليها : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ * إِلَّا إِذَا تَمَنَّى الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

١- راجع حياة محمّد : ص ١٦٥ و ١٦٦.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنِ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَيُخَلِّمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ يُلْقُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» .

والآن يجب أن نبين مفاد الآيات ولنبدأ بالآية الأولى :

ان الآية الأولى تذكر بثلاثة أمور هي :

١ . أن الأنبياء والرسل يتمنون .

٢ . أن الشيطان يتدخل في تمنياتهم .

٣ . ان الله يمحي آثار ذلك التدخل .

وبتوضيح هذه النقاط الثلاث يتضح مفاد الآية والمراد منها .

واليك توضيح تلكم النقاط الثلاث :

١ . ما هو المقصود من تمني الانبياء والرسل

لقد كان الأنبياء والرسل يحبون هداية أممهم ، ونشر دينهم وتعاليمهم فيها ، وكانوا يدبرون أموراً ويخططون خططاً لتحقيق أهدافهم هذه ، كما كانوا يتحملون في هذا السبيل كل المتاعب والمصاعب ، ويثبتون في جميع المشكلات والمحن .

ولم يكن رسول الإسلام ﷺ مستثنى عن هذه القاعدة ، فقد كان ﷺ يخطط لتحقيق أهدافه كثيراً ، ويهيئ مقدمات ويبين القرآن هذه الحقيقة بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى » .

فاتضح إلى هنا المراد من لفظ تمنى ولنشرح الآن النقطة الثانية .

٢ . ما هو المقصود من تدخل الشيطان؟

إن تدخل الشيطان يمكن أن يتم على نحوين :

١ . أن يوجد الشك والترديد في عزم الانبياء ، ويوحى إليهم بأن هناك

عوائق كثيرة تحول بينهم وبين أهدافهم ، ولذلك لن يجرزوا نجاحاً في تحقيق تلك الأهداف .
٢ . بأن الأنبياء كلما مهّدوا لأمر وهَيّأوا له مقدّماته ، وَظَهَرَتْ مِنْهُمْ أَمَارَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مُقَدِّمُونَ عَلَى تَنْفِيذِهِ فَعَلَا أَقَامَ الشَّيْطَانُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ الْعِرَاقِيلَ وَالْمَوَانِعَ فِي طَرِيقِهِمْ ، لِيَمْنَعُوهُمْ مِنَ الْوَصُولِ إِلَى غَايَاتِهِمْ .

أما الاحتمال الأول فلا ينسجم لا مع الآيات القرآنية الأخرى ولا مع الآية اللاحقة .
أما من جهة الآيات الأخرى فلأن القرآن ينفي بصراحة لا صراحة فوقها أنه لا سلطان للشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين (ولو بأن يصوّروا لهم بأنهم لن يقدرُوا عَلَى تَحْقِيقِ أَمَلِهِمْ ، وَأَهْدَافِهِمْ) إذ يقول : « **إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** »^(١) . ويقول أيضا : « **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** »^(٢) .

إن هذه الآيات ، والآيات الأخرى التي تنفي سلطان الشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين ، وتأثيره في قلوبهم ونفوسهم لخير شاهد وأفضل دليل على أن المقصود من تدخّل الشيطان في تمنيات الأنبياء ليس بمعنى إضعاف عزيمتهم ، وإرادتهم وتكبير الموانع والعراقيل في نظرهم .

أما من جهة الآيات المبحوثة فإن الآية الثانية والثالثة تفسّر وتشرح علّة التدخّل على النحو الآتي :

إننا نختبر بهذا العمل فريقين من الناس : الفريق الأول : الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْفَرِيقُ الثَّانِي : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

يعني أنّ تدخّل الشيطان في أعمال الأنبياء عن طريق تحريك الناس ضدهم وضدّ أهدافهم يوجب مخالفة الفريق الأوّل ومعارضتهم للأنبياء في حين يكون الأمر على العكس من ذلك في الفريق الثاني فإنه يزيد من ثباتهم وصمودهم .

١ . الحجر : ٤٢ ، الاسراء : ٦٥ .

٢ . النحل : ٩٩ .

وان بيان أن لتدخل الشيطان في تمنيات الانبياء ، مثل هذين الاثرين المختلفين (أي يحمل فريقا على المخالفة وفريقا آخر على الثبات والصمود) يفيد أن المراد بالتدخل هنا هو المعنى الثاني ، يعني ان التدخل يحصل عن طريق تحريك الناس ضدّهم ، وإلقاء الوسوس في قلوب أعدائهم ، وخلق الموانع والعراقيل في طريقهم لا أنهم يتصرفون في نفوس الأنبياء وقلوبهم ويضعفون ارادتهم وعزمهم.

إلى هنا اتضح معنى تدخل الشيطان في تمنيات الانبياء والرسل.
والآن حان الحين لتوضيح المطلب الآخر يعني محو آثار هذا التدخل.

٣. ما هو المقصود من محو آثار التدخل؟

إذا كان معنى تدخل الشيطان هو تحريك الناس وتأليبهم ضد الانبياء ليمنعوا الأنبياء والرسل من التقدم في أهدافهم ، فان محو آثار التدخل الشيطاني من قبل الله . حينئذ . يكون بمعنى ان الله يدفع عن أنبيائه ورسله كيد الشيطان ليتضح الحق للمؤمنين ، ويكون إختباراً لمرضى القلوب كما يقول تعالى في آية أخرى.

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا مَلَكِّدِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »^(١).

وخلاصة القول : أن القرآن يخبر . في هذه الآيات . عن سنة لله قديمة في مجال الأنبياء وهي :

إن تمني التقدم في الأهداف وتمني التوفيق في هداية الناس هو فعل الانبياء دائما .
ثم يأتي الدور لتدخل الشيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجنّ ، وذلك بإيجاد الموانع والعقبات في طريق الأنبياء والرسل .

ثم يأتي من بعد ذلك حلول المدد الالهي الغيبي بمحو وفسخ كل التدابير الشيطانية المضادّة لأهداف الانبياء المعرّقة لتحقيق أمانتهم .

وهذه هي إحدى السنن الالهية الثابتة التي جرت في جميع الأمم السالفة .

١. غافر : ٥١ .

إن تاريخ الأنبياء والرسل وقصصهم من نوح وإبراهيم وأنبياء بني إسرائيل وبخاصة موسى وعيسى عليهما السلام ، وتاريخ حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم خير شاهد على هذا المطلب.

وينبغي إستكمالاً لهذا البحث أن نقول : ولأجل ما ورد على هذه القصة الأسطوية من مؤاخذات رفضها وفنّدها بعض المحققين من أهل السنة إذ قال بعد ذكرها على النحو الذي ادرجها الطبري في تاريخه وأرسله ارسال المسلمات :

وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة.

ومن صحّحه قال فيه أقوالاً :

منها : ان الشيطان قال ذلك وأذاعه والرسول عليه الصلاة والسّلام لم ينطق به.

(وذكر وجوهاً أخرى ثم قال :) والحديث على ما خيّل غير مقطوع بصحته ^(١).

١- راجع هوامش السيرة النبويّة : ج ١ ، ص ٣٦٤.

الحصار الاقتصادي والاجتماعي

إن أبسط وسيلة وأسهلها لضرب الأقليات في أي مجتمع ، والقضاء عليها هو ما يسمى بالمكافحة السلبية التي تقوم أساسا على اتحاد الأكثرية وانفاقها على مقاطعة الأقلية المتمرّدة. إن عكس هذا يحتاج إلى أدوات متعددة مختلفة ، لأنه يتطلب مثلا ان يحمل جماعة من المقاتلين السلاح ، وتتوجه نحو الاهداف المطلوبة عبر التضحية بقدر كبير من الأنفس والأموال ، وازالة العشرات من الموانع والسواتر ، وهو أمر لا يُقدم عليه القادة المحتكون إلاّ بعد توفّر كل مستلزمات المواجهة واتخاذ جميع التدابير اللازمة ، والاستعداد الكامل ، وبالتالي لا يقدمون على هذه الخطوة ما لم تدعو الضرورة اليها ، وتنحصُر الحيلة في القتال. ولكنّ المكافحة السلبية لا تتوقف على مثل هذه الأمور ، بل تحتاج إلى أمر واحد وهو اتفاق الأكثرية.

يعني أن يتفق من يعينهم الأمر ولهم عقيدة واحدة ويتحالفوا في ما بينهم بصدق على أن يقطعوا كل صلاتهم وعلاقاتهم بالأقلية المعارضة ، فيحرّموا التعامل التجاريّ معهم ويوقفوا الاتصال العائليّ بهم ، ولا يشركوهم في اعمالهم الاجتماعية ولا يتعاونوا معهم في أمورهم الشخصية أيضا.

في مثل هذه الحالة تضيق الأض على الأقلية بما رحبت وتغدو الدنيا لهم على سعتها كسجن ضيق وصغير ، ويصيرون عُرضة للانقياد والسقوط بأقل قدر ممكن من الضغط عليها.

إن الاقلية المخالفة المتمردة ربما تستسلم . في هذه الحالة . وتؤوب من منتصف الطريق ، وتطيع إرادة الأكثرية .

ولكن أقلية كهذه لا بد أن تكون ممن لا تعود مخالفتها للأكثرية إلى أمر عقائدي ولا يكون لانفصالها عن الاكثرية طابعاً أصولياً مبدئياً ، كما لو كان خلافها مع الاكثرية مثلاً على تحصيل ثروة أو منصب مهم أو ما شاكل ذلك .

فان مثل هذه الاقلية إذا أحسّت بخطر جدّي ، أو واجهت العذاب والسجن والحصار ستراجع عن مخالفتها وتعود إلى طاعة الاكثرية مؤثرة اللذة العابرة المؤقتة على اللذة الإحتمالية ، لأنها لم تنطلق من دوافع إيمانية اصيلة ، ولم يكن المحرك لها محركاً روحياً معنوياً .

ولكن الجماعة التي يقوم خلافها للأكثرية على أساس الإيمان بهدف مقدس ، لن تنصاع أبداً لمثل هذه الضغوط ، ولن تنتهي أمام هذه الرياح والعواصف ، ولا يزيد لها ضغط الحصار إلا صلابة وقوة ، وإصراراً وعناداً ، وتردُّ جميع ضربات العدو بالصبر والإستقامة . إن صفحات التاريخ البشريّ تشهد بأن أقوى العوامل لثبات كل أقلية وصمودها في وجه الأكثرية هو : قوة الإيمان ، وعامل الإعتقاد ، الذي ربما يؤدي رسالة الثبات والمقاومة ببذل آخر قطرة دم في ساحة المواجهة .

ولنا على هذا عشرات بل ومئات الأمثلة من التاريخ الغابر والحاضر .

قريش تحاصر النبي والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً

لقد شقَّ على قريش انتشار الإسلام المتزايد وأزعجها نفوذه العجيب في القبائل العربية في مدة غير طويلة بالنسبة إلى عمر الدعوة ولهذا كانت تفكر باستمرار في حل لهذه المشكلة .

فان اسلام شخصيات ذات أهمية ومكانة كبرى مثل حمزة ، وكذا رغبة فتية قريش المتفتحين في الإسلام ، وحرية العمل والتحرك التي اكتسبها المسلمون على اثر الهجرة إلى أرض الحبشة ، كل ذلك زاد من حيرة ، واضطراب الزعامة الجاهلية في مكة ، التي زادها حيرة ، وانزعاجاً ، فشل جميع مخططاتها الاجهاضية ضد الإسلام والمسلمين ، وعدم حصولها على أية نتائج تذكر!!

من هنا فكرت في خطة جديدة ، وهي ان تفرض حصارا اقتصاديا قويا على النبي والمسلمين تقطع به كل الشرايين الحيوية للمسلمين ، وبذلك تحدّ من سرعة انتشار الإسلام وتقف دون نفوذه ، وبالتالي تخنق بين كَمَاشة هذا الحصار مؤسس هذه العقيدة التوحيدية ، وأنصاره.

ولهذا اجتمع زعماء قريش في « دار الندوة » ووقعوا ميثاقا كتبه « منصور بن عكرمة » وعلّقوه في جوف الكعبة ، وتحالفوا بان تلتزم قريش ببنوده حتى الموت.

ونص هذا العقد على الأمور التالية :

١ . أن لا يبتاعوا من أنصار النبي ﷺ ولا يبيعوهم شيئا.

٢ . ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم.

٣ . أن لا يؤاكلوهم ولا يكلموهم.

٤ . ان يكونوا يدا واحدة على « محمّد » وانصاره.

وقد وقّعت على هذه الصحيفة الظالمة القاطعة كل الشخصيات البارزة في قريش إلا « مطعم بن عدي » وأعلنت عن سريان مفعوله بكل قوة وإصرار.

فلما علم حامي النبي الاكبر أبو طالب ﷺ بذلك جمع بني هاشم وبني المطلب وحملهم مسؤولية الدفاع عن رسول الله ﷺ والحفاظ على حياته وسلامته ، وأمرهم بالخروج من مكة وبدخول شعب كائن بين جبال مكة كان يعرف بشعب أبي طالب فيه بعض البيوت العادية ، والسقائف البسيطة جداً ، والسكنى في ذلك الشعب بعيداً عن المجتمع المكّي المشرك.

وعمد إلى بث رجال منهم في نقاط مرتفعة للمراقبة والحراسة تحسبا لأي

هجوم مباغت تقوم به قريش^(١).

وقد استمر هذا الحصار ثلاثة أعوام كاملة ، وبلغ الجهدُ بالمحاصرين في الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضر ، وبلغت هذه الصرخات مسامع قساة مكة إلا أنها لم تؤثر فيهم قط.

كان الشباب والرجال منهم يعيشون على ثمرة واحدة طوال اليوم ، وربما تناصف اثنان ثمرة واحدة ، ولم يمكنهم الخروج من الشعب طوال هذه السنوات الثلاث إلا في الأشهر الحرم حيث يسود الأمن كل أنحاء الجزيرة العربية .
فاذا حل الموسم كانت بُنو هاشم تخرج من الشعب فيشترون ويبيعون ثم يعودون إلى الشعب إلى الموسم الثاني .

وكان النبي ﷺ يستغلّ هو أيضاً تلك المواسم في نشر دينه ، والدعوة إلى ما أتى به .
وكانت عناصر قريش تحاول مضايقة النبي وأنصاره وتمارس الحصار الاقتصادي عليهم بشكل من الأشكال حتى في هذه المواسم ، فكانوا يحضرون عند مواقع البيع والشراء فاذا وجدوا مسلماً يريد أن يتتاع شيئاً اشتروه بثمن أعلى ليمنعوا المسلم منه!!

وكان « أبو لهب » أكثر الناس اصراراً على هذا العمل ، فقد كان ينادي في الأسواق :
يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فانا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع الرجل المسلم إلى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء يطعمهم به ،
ويغدو التجار على أبي لهب فيرتجهم فيما

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٥٠ ، وتاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٧٨ ، وقد كتبت هذه الصحيفة الظالمة في الليلة الأولى من السنة السابعة للبعثة وعندما عرف ابو طالب بأمرها أنشد قصيدة في ذمهم مطلعها :
ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً نبياً كموسى جُطَّ في أول الكُتُب

اشتروا من الطعام واللباس!!^(١).

وكان « الوليد بن المغيرة » ينادي : أيما رجل منهم وجدتموه عند طعام يشتره فزيدوا عليه فكانت قريش تباكرهم إلى الأسواق فيشترونها فيغلوها عليهم.

وضع بني هاشم المأساوي في الشعب

لقد بلغ الجهد والجوع بالخاصين في الشعب حدا جعلهم يأكلون كل ما تقع عليه أيديهم من الخبط وورق السمر حتى أن « سعد بن أبي وقاص » يقول : لقد جعت حتى أني وطفئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعت في فمي وبلعته ، وما أدري ما هو إلى الآن^(٢).

هذا وقد بثت قريش جواسيسها على الطرق المؤدية إلى الشعب ليمنعوا من إيصال الطعام إلى من فيه فلا يصل إليهم شيء إلا سرا ومستخفى به ممن أراد صلتهم من قريش.

فقد روي أن « حكيم بن حزام » (ابن اخ خديجة) و « أبو العاص بن الربيع » و « هشام بن عمرو » كانوا يسربون إلى « بني هاشم » في الشعب سرّ وفي أواسط الليل تحت جناح الظلام ، فكان الواحد منهم يحمل قمحاً وتمرّاً على بعير ويأتي به إلى باب الشعب ثم يصيحُ بما فتدخلُ الشعب ويأكله بنو هاشم.

وربما صادفهم بعض جواسيس قريش ، فهتّموا بقتله ، أو سبّوا له بعض المتاعب.

فقد روي أن « حكيم بن حزام » خرج يوماً ومعه انسان يحمل طعاما إلى عمته خديجة بنت خويلد (زوجة رسول الله ﷺ) وكانت معه في الشعب طيلة أعوام الحصار) إذ لقيه « أبو جهل » فقال له : تذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت ولا طعامك حتى أفضحك عند قريش بمكة.

١ و ٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٣٧ الهوامش.

فقال له أبو البخخري . وكان من أعداء الإسلام هو أيضا . : تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده؟

فأبي « ابو جهل » أن يدعه إلا أن يأخذه إلى قريش ، فقام إليه « ابوالبخخري » بساق بعير فضربه ووطأه ووطأه شديدا « (١) .

وخلاصة القول ؛ أن قريشا بالغت في تضيق الحصار على رسول الله ﷺ ومن تبعه حتى أن من كان يدخل « مكة » من العرب . كان لا يجسر على أن يبيع من بني هاشم شيئا ومن باع منهم شيئا انتهبوا ماله ، وكان « أبو جهل » ، و « العاص بن وائل » و « النضر بن الحارث بن كلدة » ، و « عقبة بن أبي معيط » يخرجون إلى الطرقات التي تدخل « مكة » فمن رأوه معه ميرة وطعام نحوه ان يبيع من بني هاشم شيئا ، ويجذرون إن باع شيئا منهم تهبوا ماله .

كما وعدوا على من أسلم فآوثقوهم وآذوهم واشتدّ البلاء عليهم ، وأبدت قريش لبني عبد المطلب الجفاء .

ولكن لم يستطع كل ذلك أن يفتت في عضد النبي ﷺ ويقلل من إصراره وثباته على الطريق ، ولا من اصرار أتباعه وثباتهم وإيمانهم .

وأخيراً تركت صرخات أطفال بني هاشم في الشعب من الجوع والعري والجهد والضر ، وأوضاعهم المأساوية أثرها في نفوس بعض المشركين الموقعين على تلك الصحيفة الظالمة ، وذلك الميثاق المشؤوم ، فندموا على إمضائهم لتلك المقاطعة بشدة وصاروا يفكرون في نفضها بشكل من الأشكال .

فمشى « هشام بن عمرو » إلى « زهير بن أبي أمية » (وكان من أحفاد عبد المطلب من جانب بناته) وقال له وهو يحثه على نقض الصحيفة : يا زهير أقدر رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأحوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ، ولا يُنكحون ولا يُنكح إليهم؟

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٥٤ ، هذا ويشكك أحد المحققين في نوايا حكيم بن حزام في هذا العمل ، وفي أن يكون قد حصل بدافع الوفاء لوشيجة القرى ، بل كان بدافع الريح الاكثر لما ثبت . حسب قوله . من انه كان يحنكر الطعام على عهد رسول الله ﷺ .

أباً إني أحلف بالله أن لو كانوا أحوال أبي الحكم (أي أبي جهل) ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدياً

فقال زهير : ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها حتى أنقضها. قال : قد وجدت رجلاً.
قال فمن هو؟ قال : أنا.

قال له زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى «المطعم بن عدي» فقال له يا مطعم أقدرت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً!
قال : ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد.

قال : قد وجدت ثانياً.

قال : من هو؟ قال : أنا.

قال : أبغنا ثالثاً.

قال : قد فعلت.

قال : من هو؟

قال : زهير بن أبي أمية.

قال : ابغنا رابعاً.

فذهب إلى «البحثري بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا؟

قال : نعم.

قال : من هو؟

قال : «زهير بن أبي أمية» و «المطعم بن عدي» وأنا معك.

فقال : ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمعة بن الأسود بن المطلب» فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال : نعم ... ثم سمى له القوم الذين وعدوه بالمساعدة على نقض تلك الصحيفة القاطعة الظالمة.

فاتفقوا على أن يحضروا في أندية قريش في المسجد ويُعلنوا مخالفتهم لتلك الصحيفة. فلما أصبحوا غَدُوا إلى مجلس قريش في المسجد الحرام فأقبل « زهير بن أبي أمية » على الناس وقال :

يا أهل مكة أنأكل الطعام ولبسُ الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يُبتاعُ منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا تُشق. فانتصر زمعة لزهير وردَّ على أبي جهل قائلاً : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت.

وقال أبوالبختري من ناحية مؤيداً موقف زميله : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نقر به.

وقال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحو من ذلك.

فأحس أبو جهل بأنَّ ذلك كان أمراً مبيّناً مدبّراً من قبل فقال : هذا أمرٌ قُضِيَ بليل ، تُشوور فيه بغير هذا المكان.

وكان أبو طالب . حسب بعض الروايات التاريخية . جالساً ذلك اليوم في ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد (الإرضة)^(١) قد أكلتها ، إلاّ « باسمك اللهم » التي صُدّرت بها تلك الصحيفة وهي جملة كانت قريش تبدأ بها عهودها ورسائلها. فلما رأى « أبو طالب » ذلك رجع إلى الشعب وأخبر رسول الله (صلى الله عليه

١ . وهي دودة بيضاء شبه النملة وهي آفة كل شيء من خشب أو نبات راجع لسان العرب مادة : ارض .

وآله) بما جرى ، وعاد المحاصرون في الشعب إلى منازلهم مرة أخرى بعد المشورة مع « أبي طالب » .

ويروي طائفة من المؤرخين أن « خديجة » و « أبو طالب » أنفقا أموالهما برمتها خلال سنوات المحاصرة .

وفجأة نزل ملك الوحي « جبرئيل » على رسول الله ﷺ في الشعب ، وأخبره بان الله قد بعث على صحيفة المشركين القاطعة دابة الأرض فلحست (أو أكلت) جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت جملة « باسمك اللهم » فأخبر رسول الله أبو طالب بذلك قائلاً يا عم إن ربي الله قد سلط « الإرضة » على صحيفة قريش فلم تدع فيها إسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .
فقال أبو طالب : إذن لا يدخل عليك أحد^(١) .

ثم قام وليس ثيابه ، ومشى هو ورسول الله وشخص آخر حتى دخلوا المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه ، فلما ذنا أبو طالب منهم قاموا إليه وعظموه ، وتباشروا وظنوا أن الحصر والبلاء حمل أبو طالب على التخلي عن موقفه ، فقالوا له : قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم (أو قد آن لك أن تسلّم إلينا ابن أخيك) .
فقال أبو طالب : والله ما جئت لهذا ، ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم الله ، فهلم صحيفتكم فان كان حقاً فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم .
وإن كان باطلا دفعته إليكم فان شئتم قتلتموه ، وإن شئتم استحيتتموه .
فقالوا : رضينا ، وتعاهدوا على ذلك .

١ . وإنما اتخذ مثل هذا الاجراء حتى لا يفشوا ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالوا للصحيفة ويكذبوا بذلك خبر النبي ﷺ .

ثم بعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة ، وعليها أربعون خاتماً .
فلما أتواها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه ، ثم فكوها فإذا ليس فيها حرفٌ واحدٌ إلا «
باسمك اللهم» ، كما أخبرهم بذلك رسول الله ﷺ .
غير أن هذا لم يوجب هدايتهم بل زادهم شراً وعناداً ورجع بنو هاشم من أخرى إلى
الشعب وبقوا محاصرين فيه من الزمان ولم يمكنهم الرجوع إلى منازلهم بمكة إلا بعد أن
نقضها هشام .

وقد قال « أبو طالب » في مدح هذا (أي نقض الصحيفة القاطعة والتفر الذين قاموا
بنقضها) قصيدة مطوّلة جاء في مطلعها .
ألا هل أتى بحرئنا^(١) صنع ربنا على نأيهم واليه بالناس أرواد^(٢)
فيخبرهم أن الصحيفة مُزّقت وان كل ما لم يرّضه إليه مُفسد^(٣)
هذه أمثلة ونماذج من ورود الفعل الظالمة والمواقف المناوئة التي اتخذتها قريش تجاه الدعوة
المحمدية .

على أنه لا يمكن الادّعاء القطعي بأن جميع هذه الردود قد وقعت على الترتيب الذي
ذكرناه تماماً ، ولكن يمكن بمراجعة النصوص التاريخية تحصيل مثل هذا الترتيب وخاصة أن
مسألة انتهاء المحاصرة الاقتصادية قد وقعت في منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة
الشريفة .

كما أن أذى قريش وردود فعلها ضد الإسلام والمسلمين ضد رسول الله ﷺ خاصة
لم تنحصر في ما ذكرناه في هذه الفصول بل كانت هناك أساليب أخرى سلكتها قريش
لتحطيم شخصية النبي ﷺ وأضعاف عزيمته مثل وصفهم للنبي ﷺ بالأبتر .
فقد كان « العاص بن وائل السهمي » إذا ذكر رسول الله قال : دعوهُ ، فأنما هو رجلٌ
أبترٌ لا عقب له ، لومات لا تقطع ذكره واسترحتم منه .

١ . يقصد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة في البحر .

٢ . أي أرفق .

٣ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٧٧ . ٣٨٠ وقد أدرج ابن هشام القصيدة بتمامها ، فراجع .

فانزل الله تعالى في ذلك سورة الكوثر التي يقول فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا
أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ * وَنَحْرُ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .
وقد أخبر بها الله نبيّه بأنه سيهبه ذرية كثيرة ^(١) .

ولقد كتب العلامة الفخر الرازي في تفسيره لهذه السورة ^(٢) : المعنى أنه يعطيه نسلا يبقون
على مرّ الزمان ، فانظر كم قُتِلَ من أهل البيت؟ ثم العالم ممتلئ منهم ، ولم يبق من بني أمية
في الدنيا أحد يُعبأ به .

ووجه المناسبة أن الكافر شتمت بالنبي حين مات أحد أولاده وقال : ان محمّدا ابتر فان
مات مات ذكره ، فانزل الله هذه السورة على نبيّه تسليّة له كأنه تعالى يقول : ان كان ابنك
قد مات فانا اعطيناك فاطمة ، وهي وإن كانت واحدة وقليلة ، ولكن الله سيجعل هذا
الواحد كثيرا .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٩٣ وجميع التفاسير .

٢ . مفاتيح الغيب : الجزء الثلاثون ، سورة الكوثر .

وفاة أبي طالب

وخديجة الكبرى

في الوقت الذي كتبنا نسطر فيه مواضيع هذا الفصل كان سجن « القطيف » يضم بين جدرانها شابا حر الضمير شجاعا مقداما له يكن له من ذنب إلا أنه ألف كتابا باسم « أبو طالب مؤمن قريش » يتناول إسلام « أبي طالب » وإيمانه وإخلاصه مثبتا كل ذلك من مصادر أهل السنة^(١).

فطلبت منه السلطات القضائية في الحجاز . وفي عصر يتسم بحرية التفكير والبيان والإعتقاد . بأن يتراجع عن كلامه ، وحيث إنه لم يكن ليبريد أن ينكر حقيقة اعتقد بها عن قناعة ويقين ، حكمت عليه تلك السلطات بالاعدام.

وقد نجا هذا الفتى الشجاع والكاتب الحر من الاعدام اثر جهود اسلامية واسعة وحُفِضت عقوبته إلى الحبس المؤبد ، الذي حَقَّض اثر جهود اسلامية مرّة أخرى إلى عقوبة الجلد ثمانين جلدة!!.

وهو الآن يلبث في أحد السجون بانتظار المصير ، المجهول إذ على المسلمين إما أن يهتموا بالأمر ويطلبوا من السلطات القضائية السعودية صرف النظر عن

١ . والكتاب يقع في ٣٤٠ صفحة طبع بحجم الوزيري وطبع في بيروت مرارا وقلم عليه الأديب اللبناني المعروف « بولس سلامة » صاحب ملحمة الغدير وملاحم أخرى.

عقوبته ، بل والافراج عنه نهائياً.

وإما أن يفقد هذا الشاب المجاهد الشجاع البريء حياته تحت سياط تلك السلطات الجائرة الحاكمة زورا وقهرا على أرض الحجاز (١) (٢).

لقد سقطت مؤامرة الحصار الاقتصادي ضد النبي ﷺ بفعل إقدام ثلة من ذوي المروءة وأيضا بفضل صمود النبي ﷺ وثباتهم العظيم. وخرج النبي وأنصاره من « شعب أبي طالب » بعد ثلاث سنوات من النفي والعذاب وعادوا إلى منازلهم ظافرين مرفوعي الرؤوس. وعاد التعامل الاقتصادي مع المسلمين إلى ما كان عليه قبل الحصار ، وكانت أوضاع المسلمين تسير نحو الانتعاش والانفراج شيئا فشيئا ، وإذا برسول الله ﷺ يُفاجأ بحادث مؤلم مرّ ذلك هو وفاة شخصية كبرى أحدث فقداها أثرا سيئا في نفوس المسلمين وبخاصة المستضعفين منهم.

ولقد كان هذا الأثر عظيما جدا بحيث لا يمكن قياسه بشيء بالنظر إلى تلك الظروف الحساسة ، وذلك لأن نمو أية عقيدة وفكرة إنما يكون في ظل عاملين أساسيين : أحدهما : حرية التعبير ، والآخر : القوة الدفاعية التي تحمي أصحاب تلك العقيدة والفكرة ضد حملات الخصوم التي لا ترحم.

ولقد كان المسلمون . آنذاك . يتمتعون بحرية البيان والتعبير ، ولكنهم افتقدوا بسبب الحادث المفاجئ المذكور العامل الجوهرى والمصيرى الثانى يعنى : حامى الإسلام والمدافع الوحيد عنه الذى وافته المنية فى تلك الايام الحساسة

١ . لقد سميت أراضي « الحجاز » و « نجد » و « تهامة » باسم عائلة واحدة هي آل سعود ، واخيراً حملت هذه المنطقة التي كانت تُعرف وحتى إلى ما يقرب من قرنين بارض الحجاز اسم المملكة العربية السعودية ، ياله من استئثار وجرأة على المقدسات!!

٢ . واخيراً نجد هذا الشاب المؤمن والمجاهد الحرّ بفضل جهود علماء الشيعة ومفكرّهم المتضافرة والواسعة النطاق وأخلي سبيله وقد زار . للاعراب عن شكره . مدينة قم المقدّسة وقد التقينا به أيضا كما زار اماكن أخرى لنفس الغرض.

وَحُرْمَ الْمُسْلِمُونَ بِوَفَاتِهِ مِنْ حِمَايَتِهِ وَدِفَاعِهِ ، وَوَقَايَتِهِ .

* * *

أَجَلَ لَقَدْ فَقَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَامِيَهُ الْعَظِيمَ الَّذِي تَوَلَّى مَهْمَةَ كِفَالَتِهِ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ ، وَالْحِفَاظَةَ عَلَى حَيَاتِهِ بِصِدْقٍ وَإِحْلَاصٍ وَجِدٍ وَرَغْبَةٍ وَكَانَ يَقِيهِ بِنَفْسِهِ وَذَوِيهِ وَيُؤَثِّرُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ وَيُنْفِقُ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ حَتَّى كَبُرُ وَصَارَ لَهُ مَالٌ وَطَوَّلَ مِنْذُ أَنْ كَانَ ﷺ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ عَمْرِهِ وَحَتَّى يَوْمَ وَفَاةِ ذَلِكَ الْحَامِي الْعَظِيمِ ، وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَمْسِينَ مِنْ عَمْرِهِ .

لَقَدْ فَقَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَخْصِيَّةً خَاطَبَهَا عَبْدُهُ الْمَطْلَبُ عِنْدَ وَفَاتِهِ بِالشَّعْرِ قَائِلًا :
إِضْنِيكَ يَا عَبْدَ مَنْأَفِ بَعْدِي بِمَوْحِدٍ بَعْدَ أَيُّهُ فَـ

فَأَجَابَهُ أَبُو طَالِبٍ قَائِلًا : يَا أَبَتَهُ لَا تُوصِيَنِّي بِمُحَمَّدٍ فَأَنَّهُ ابْنِي وَابْنُ أَخِي ^(١) .

وَلَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَذَكَّرَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا عَلَى جَبِينِ أَبِي طَالِبٍ عِرْقُ الْمَوْتِ جَمِيعَ الْحَوَادِثِ الْحَلُوءَةِ وَالْمَرَّةَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

١ . إِنْ هَذَا الشَّخْصَ الْمَسْجِيَّ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ هُوَ عَمَّةُ الرَّؤُوفِ الَّذِي ظَلَّ يَحْرُسُهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ طَيِّلَةَ سِنَوَاتِ الْحِصَارِ فِي الشَّعْبِ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قَامَ عِنْدَ رَأْسِهِ بِالسَّيْفِ يَحْرُسُهُ . وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَضْطَجِعٌ ثُمَّ يَقِيمُهُ مِنْ فِرَاشِهِ إِذَا مَضَى شَطْرَ مَنْ اللَّيْلِ وَيَضْجَعُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَضْجَعُ مَكَانَهُ وَلَدَهُ « عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ » حَتَّى لَا تَغْتَالَهُ قَرِيْشٌ بَعْدَ أَنْ رَصَدُوا مَكَانَهُ ، وَكَمَنُوا لَهُ ، وَكَانَ يَفْعَلُ أَبُو طَالِبٍ ذَلِكَ طَوَالَ اللَّيْلِ كُلَّهُ فَيَفْغِدُنِي بِوَلَدِهِ « عَلِيُّ » وَيَقِينِي بِهِ حَتَّى إِذَا قَالَ لَهُ « عَلِيُّ » لَيْلَةً :

« يَا أَبَتَاهُ إِنِّي مَقْتُولٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ » .

فَأَجَابَهُ أَبُو طَالِبٍ بِنَهْرَةِ الْمُتَحَمِّسِ الصَّبُورِ :

١ . عمدة الطالب : ص ٦ وفيه : بواحد ، المناقب : ج ١ ، ص ٢١ .

. بِنِ اِخِيَّ هَلْهَ بَرِّ اِحْجَى كُبُلُ جَبِيَّ مَصْنِيْرُهُ لَشِبْعُوْب
قَبْد بَلُوْنَاكَ مَلْبَلَاءُ شَبْدِيْد لِغِدَاءِ النَّحِيْب مَبْنِ النَّحِيْب

فأجابه « علي » بكلام أكثر حلاوة وعمقا قائلا :

أَبَاْمُرِّي بِالصَّبْرِ فِي نَصْرِ أَحْمَدٍ؟ وَمَوْلَاهُ مَا قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ جَاذَعَا
وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ تَبْرَ نُصْرَتِي وَتَعَلَّمْتُ أَنِي لَمْ تَلَّ لَبَّكَ طَائِعَا (١)

٢. إن هذا الجثمان الذي فارقته الروح هو جثمان عمي العطوف الذي شردَّ هو وذووه ،
وعرَّض نفسه وأهله للبلاء والمحنة بسبب الحصار لأجلي ، وأمر بأن يجرسوني ليل نهار ، تاركاً
زعامته وسيادته ، وكلَّ شؤونه للحفاظ عليَّ والإبقاء على رسالتي وأرسل إلى قريش رسالة
قوية أعلن فيها عن وفوفه إلى جانبي وانه لن يسلمني ويخذلني مادام حيّاً إذ قال :

فَلَا تَحْسَبُونَا خَاذِلِينَ مُحَمَّداً لَّذِي غُرِبَ مِنِّيَا وَلَا مُتَّقِرٍ
سَبَّاتْمَنَعُهُ مِنِّيَا يَدَ هَاثِمِيَّةٍ وَمَرَكَّبُهَا فِي النَّاسِ أَحْشَنَ مَرَكَبٍ (٢)

بعد أن تحقق موت « ابي طالب » ارتفع الصراخ والنحيب من منازل وبيوته ، واجتمع
حول بيته العدوُّ والصديقُ ، والقريبُ والبعيدُ ، واشترك الجميعُ في مراسيم دفنه بقلوب آمتها
الفجيعة به ، وقَرَحها الحزنُ عليه.

وهل ترى تنتهي آثار وردود فعل وفاة شخصية عظيمة الشأن مثل « ابي طالب » الذي
كان زعيم قريش ، وسيد عشيرته يمثل هذه السرعة ، والبساطة؟

كلا بل سيكون لفقدانه أكبر الأثر على مسيرة الدعوة كما ستعرف ذلك مستقبلا.

نماذج من مشاعر أبي طالب

ان التاريخ البشري يحتفظ في صفحاته بأمثلة كثيرة عن مشاعر تباد لها

١. مناقب ابن شهر آشوب : ج ١ ، ص ٦٤ ، الحجة : ص ٧٠ ، بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ١٩٠١.

٢. بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٤.

الأشخاص وعواطف ودبّية قويّة أبقاها البعض تجاه بعض تدور أكثرها حول محور الدوافع المادية كالتّي تدور حول معيار الجمال أو المال ، ولهذا سرعان ما يذهب الحماس وتنطفئ شعله الحبّ ، ويتضاءل لهيب العاطفة في كيانهم حتّى تزول بالمرّة ولا يبقى منها شيء أبداً لعدم ثبات هذه الدوافع.

ولكنّ المشاعر والعواطف التي تتبع من أواصر الايمان بفضائل شخص ما وكمالاته الروحية والمعنوية لا تنمحي ولا تتلاشى بسرعة.

وقد كانت مودة « أبي طالب » لمحمّد ﷺ وحبّه الشديد له تتبع من كلا هذين الدافعين.

فقد كان « أبو طالب » يؤمن بمحمّد ﷺ ويرى فيه من جانب الإنسان الكامل ، بل يعتبره في قمة الكمال الانساني ، ومن جانب آخر كان « محمّد » ابن أخيه ، وقد أحله ذلك من قلبه محل الابن والأخ.

لقد كانت لصفات « محمّد » وخصاله المعنوية والأخلاقية ، وطهره مكانة كبرى في قلب عمّه « أبي طالب » إلى درجة أنه كان يصطحبه معه إلى المصلّى ، ويستسقي به اي انه يقسم على الله بمقامه أن يدفع عن الناس القحط والجذب وينزل عليهم الغيث ، فكانت دعوته تستجاب من دون تأخير.

فقد نقل كثير من المؤرخين الحادثة التالية :

قحط الناس في « مكة » وحواليها سنة من السنين ، ومنعت السماء والأرض بركاتها عنهم بشكل عجيب ، فمشت قريش بعيون باكية إلى « أبي طالب » تطلب منه بالحاح أن يستسقي لهم ، وان يذهب إلى المصلّى ويدعو ربّه لينزل عليهم المطر وينقذهم من تلك المحنة الصعبة.

فخرج « أبو طالب » وقد أخذ بيد غلام كأنه شمس دجن تجلّت عنها غمامة فاسند ظهره إلى الكعبة ورفع وجهه نحو السماء وقال : يا رب هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً ، دائماً هاطلاً.

ويكتب المؤرخون ان السماء كانت صافية لا غيم فيها أبدا ساعة استسقى « أبو طالب » برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن ما ان فرغ « أبو طالب » من دعائه

إلا وأقبلت السحاب في الحال ، وغطت سماء « مكة » وما حولها من المناطق القريبة إليها ،
وارعدت السماء وأبرقت ثم جرى غيث عظيم سالت به الأودية ، ورؤت القريب والبعيد ،
وسُر به الجميع ورضوا ^(١) .

وقد اشار « أبو طالب » في لاميته المعروفة إلى هذه الحادثة.
وقد أنشأ « أبو طالب » تلك القصيدة في أحلك الظروف واشدها ، يوم زادت قريش
من ضغوطها على حامي الرسول ﷺ ليسلم رسول الله ﷺ إليها.
وقد ذكّر فيها « أبو طالب » قريشا بحادثة الاستسقاء برسول الله ﷺ قبل الإسلام
وكيف أنها أمطرت ببركته ، بعد قحط طويل ، وجذب مهلك ، كاد يبيد الحرث والضرع ،
وذلك عندما يقول :

وابيض يُستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل
تلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
وقد نقل « ابن هشام » في سيرته ^(٢) أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيدة ، فيما أورد «
ابن كثير » الشامي في تاريخه ^(٣) إثنين وتسعين بيتاً فقط.

وهي قصيدة في منتهى الروعة والعدوية ، وفي غاية القوة والجمال ، وتفوق في هذه
الجهات كل المعلقات السبع التي كان عرب الجاهلية يفتخرون بها ، ويُعدونها من أرقى ما قيل
في مجال الشعر والنظم.

وقد أورد « ابو هفان العبدي » الجامع لديوان « أبي طالب » مائة وواحد وعشرين بيتاً
من هذه القصيدة في ذلك الديوان ، ويمكن أن تكون كل تلك القصيدة وتماهما.
ونحن نورد هنا أبياتاً متفرقة من هذه القصيدة مما يتصل منها برسول الله ﷺ بصورة
صريحة.

١ . بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢ و ٣ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ١١١ . ١١٦ ، الملل والنحل المطبوع
بهامش الفصل في الأهواء والملل : ج ٣ ، ص ٢٢٥ .
٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٧٢ . ٢٨٠ .
٣ . البداية والنهاية : ج ٣ ، ص ٥٢ . ٥٧ .

كَبَذْتُمْ وَبَيْتَ اللَّيْلِ نَبَزَى مُحَمَّدًا
وَتُسَلِّمُهُ حَتَّى تُصَرِّحَ دُونَهُ
لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدِ
فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا
فَمَنْ مَثَلُهُ فِي النَّاسِ أَيْ مُؤَمَّلِ
حَلِيمٍ رَشِيدٍ عَادِلٍ غَيْرِ طَائِشِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مَكْذَبَ
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدُ فِي رَأُومَةٍ
جَدِيتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتِهِ
فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ

ولما نطاعن دونه ونناضل (١)
ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وإخوته دأب المحبِّ المواصل
وزينا لمن والاه ربُّ المشاكل (٢)
إذا قاسبه الحُكَّام عند التفاضل
يُوالي إلهًا ليس عنه بغافل
لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
تقصِّبر عنه سبورة المنظاول (٣)
ودافعت عنه بالذُّرِّ والكلاكل (٤)
وأظهر دينًا حقه غير باطل (٥)

التغيير في برنامج السفر

لم يكن يمض أكثر من إثني عشر ربيعاً من عُمر « محمد » بعد ، عندما أراد « أبو طالب » التوجّه إلى الشام مع قافلة قريش التجارية.
وعندما استعدت القافلة لمغادرة مكة ودق جرس الرحيل ، أخذ « محمد » فجأة بزمام الناقة التي كان يركبها عمه وكافله « أبو طالب » بينما اغرورقت عيناه ﷺ بالدموع وقال :

« يا عمّ إلى من تكلمي ، لا أب لي ولا أم ؟ ».

هذا المشهد المؤثر وبخاصة عند ما رأى « أبو طالب » عيني محمد وقد اغرورقت بالدموع ، فعل فعلته في نفس العم الكافل الحنون ، فأنحدت عبرات العطف من عينيه وقرر من فوره ، ومن دون سابق تفكير في الموضوع أن يصطحب ابن أخيه « محمدًا » معه في هذا الرحلة ، ومع أنه لم يحسب لهذا الامر . من قبل .

١ . اي نُغَلِّب عليه .

٢ . المشاكل : العظيّمات من الامور .

٣ . السورة : الشدة والبطش .

٤ . الذرّ : جمع ذرّة وهي اعلى ظهر البعير .

٥ . راجع السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٧٢ . ٢٨٠ .

أي حساب فان «أبا طالب» قبل بان يتحمّل كل ما يترتب على قراره هذا ، فحمله معه على ناقته ، وبقي يفكر في أمره ، ويدبّر شأنه ، ويحافظ عليه طوال تلك الرحلة ، وشهد منه أثناء الطريق كرامات وخوارق ، وقد أنشأ في ذلك قصيدةً موجودةً في ديوان أبي طالب ، ومطلع هذه القصيدة هو :

إنّ ابن آمنّة النبي محمّداً عندي يفوق منازل الأولاد^(١)

الدِّفاع عن حوزة العقيدة والايمان

ليست هناك قوّة تساعد على الثبات والمقاومة ، والصمود والاستقامة ، مثل قوّة الايمان ، فالايمان بالهدف هو العامل القوي وراء تقدّم الإنسان في ميدان الحياة ، فهو الذي يهضم في نفسه كل الالام والمتاعب ، ويدفع بالمرء إلى الماضي قدماً في طريق الوصول إلى أهدافه المقدسة ، حتّى ولو كلفه ذلك التعرض للموت .

إنّ الجندي المسلّح بقوة الإيمان منتصر لا محاله .

إن الجندي الذي يعتقد بأن الموت في طريق العقيدة هو عين السعادة لا بد أن يحرز النصر .

إن على الجندي . قبل أن يسلّح نفسه بسلاح العصر . أن يتزود في قلبه من طاقة الإيمان بالهدف ، ويضيء قلبه بمصباح الاعتقاد بالحقيقة ، وحبّها ، ويجب أن يكون جهادّه وصلحّه من أجل العقيدة والدفاع عن حوزتها ، وكيانها .

إنّ أفكارنا وعقائدنا نابعة من روحنا ، وفي الحقيقة أنّ فكر الإنسان وليد عقله ، فكما أنّ الإنسان يحب ولده الجسماني حبّاً شديداً كذلك يجب أفكاره التي هي ولائد عقله وروحه ، بل إن حبّ الإنسان لعقيدته أكثر من حبّه

١ . ديوان أبي طالب : ص ٣٣ - ٣٥ ، تاريخ ابن عساکر : ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ ، الروض الأنف : ج ١ ، ص ١٢٠ .

لأولاده الجسمائين ، ولهذا فهو يدافع عن عقائده حتى الموت ، ويغضي . في سبيل الدفاع عن حوزة العقيدة والحفاظ عليها . عن كل شيء بينما هو غير مستعد لأن يضحي بنفسه في سبيل الحفاظ على اولاده.

إنَّ حب المرء للمال والمنصب حبُّ محدود ، فهو ينساق مع هذا الحب مادام لم يهدد حياته خطر الموت الحقيقي ، ولكنّه مستعد لأن يمضي . في سبيل الدفاع عن حياض العقيدة - إلى حدّ الموت ، ويؤثر الموت الشريف في سبيل العقيدة على الحياة ، ويرى الحياة الحقيقية والواقعية في وجود الرجال المجاهدين ، وهو يردد :

« إنما الحياة عقيدة وجهاد »^(١).

ولنلق نظرة فاحصة على حياة بطل حديثنا (ونعني به المدافع الوحيد عن الإسلام وحامي الرسول الاوحد في بدايات عهد الرسالة) فماذا كان دافعه إلى هذا الامر ، وما الذي كان يحركه في هذا السبيل؟ واي شيء كان وراء مضيه في هذا الطريق إلى حافة العدم ، والغض عن النفس والنفيس ، والمقام ، والقبيلة وغير ذلك والتضحية بكل ذلك في سبيل « محمد » ﷺ .

إن من المتين أن دافعه إلى ذلك لم يكن المحرك المادي ، وبالتالي لم يقصد من وراء الدفاع عن ابن اخيه ، وحمائته ، والحذب عليه ، كسب أمر مادي كتحصيل مال وثروة ، لأن النبي ﷺ لم يكن له يومئذ مال ، ولا ثروة.

وكما أن مقصود « أبي طالب » لم يكن أيضاً تحصيل مقام ، وأحراز مكانة اجتماعية لأنه كان يملك في ذلك المجتمع أعلى المناصب واهمها ، فقد كانت له رئاسه « مكة » والبطحاء ، بل هو فقد منصبه وشخصيته الممتازة ومكانته المنقولة بسبب دفاعه عن « محمد » ، وعدم الاستجابة لقومه في تسليمه اليهم ، والتخلي عنه لأن دفاعه عن رسول الله ﷺ قد استوجب سخط زعماء قريش عليه واستيائهم من موقفه ، وخروجهم عن طاعته ، ودفعهم إلى التمادي

١ . المراد من العقيدة المقدسة هو طبيعة الحال ما تنوب « الأنا » فيها في التوحيد والايان بالله إذ هنا يصعد قوله :

قِفْ عنْدَ رَأْيِكَ واجتهد ————— إن الحِياةَ عقيدةً وجهاد

في معاداة « بني هاشم » و « أبي طالب » والثورة عليهم!!

تصوّ باطل

ربما يتصور بعض ضعفاء البصيرة أن علة حذب « أبي طالب » على رسول الله ﷺ والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس كانت هي : علاقة القرى ، ووشيجة الرّحم ، أو بتعبير آخر : إن التعصب القبليّ ، والعصبيّة القوميّة هو الذي دفع بأبي طالب إلى ان يحرض نفسه لكل ذلك المكروه في سبيل ابن أخيه .

ولكنّ هذا ليس سوى مجرّد تصور باطل لا غير ، ويتضح بطلانه بدراسة مختصرة لأنه لا تستطيع أية وشيجة قرى على أن تدفع أحدا إلى أن يضحي بنفسه في احد أقربائه إلى هذه الدرجة من التضحية والمفاداة ، بحيث يقي مثلا ابن أخيه عليه ، ويكون مستعداً لأن يتقطّع ولده بالسيوف إربا إربا دون ابن أخيه .

إن العصبية القبائلية والعائلية وان كانت تدفع بالانسان حتّى إلى حافة الموت ، ولكن لا معنى لان تختص ، هذه الحماية الناشئة عن العصبية العائلية والقبلية الشديدة بفرد واحد ، وشخص خاص معيّن من أفراد العائلة والقبيلة ، في حين نجد « أبا طالب » قد قام بكل هذه التضحية في سبيل شخص واحد ، وفرد معين (أي النبي) ، ولا يفعل مثل هذه في سبيل غيره من أبناء « عبد المطلب » و « هاشم » وأحفادهما ومن ينتمي إليهم بوشيجة القرى ورابطة الرحم .

الدافع الحقيقي لأبي طالب

وعلى هذا الأساس فان المحرّ والدافع الحقيقي لأبي طالب لم يكن أمرا ماديا ولا الجاه والمنصب ، أو التعصب القومي ، والعائلي ، بل كان أمراً معنوياً وأن ضغوط العدو وقوّته كانت تدفعه إلى الاستعداد للقيام بأي نوع من أنواع التضحية وذلك الأمر المعنوي هو اعتقاده الراسخ برسول الله ﷺ يعتبر « محمّداً » مظهراً كاملاً للفضيلة والإنسانية ويعتبر دينه أفضل برنامج

للسعادة ، وحيث أنه كان يحبُّ الحقيقة ، ويعشق الكمالَ والحقَّ ، لذلك كان من الطبيعيّ أن يدافع عن الحق والحقيقة ، وينصرهما بكل وجوده ، وبكل قواه.

وهذا المعنى هو المستفاد من قصائد « أبي طالب » وأشعاره ، فهو يصرح بأن « محمّداً » رسول كموسى وعيسى إذ يقول :

لَيَعْلَمَ خِيَارَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا بِيَا مُوسَى لِمَا سَجَرَ نَحْرَهُ
أَنَا يَهْدِي مِثْلَ مَا أَتَى بِهِ فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَيَعْصِمُ (١)

ويقول في قصيدة أخرى :

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَمُوسَى خَطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ (٢)

هذا وتعتبر آياته التي سبق أن أشرنا إليها والمئات من أمثالها مما جاء ذكره في ديوان أبي طالب ، وفي ثنايا التاريخ والتفسير والحديث شواهد حيّة وقوية على أن محرك « أبي طالب » الواقعي ودافعه الحقيقي إلى الدفاع عن رسول الله ﷺ كان هو اعتقاده الخالص ، واسلامه الواقعي ولم يكن له أي دافع آخر سوى الايمان والعقيدة.

ونحن هنا نكشف النقاب عن بعض مواقفه في الدفاع عن رسول الله ﷺ وحمانيته بعد اضطراره بعبء الرسالة ، ونترك لك أيها القارئ بأن تدقّق في مثل هذه المواقف الفدائية ثم تقضي بنفسك : هل تتبع مثل هذه التضحية ، ومثل هذا التفاني ، والفداء إلاّ من الايمان والاعتقاد؟؟؟

لمحات من تضحيات أبي طالب

إجتمع أسياذ قريش واشرافها في بيت أبي طالب والنبي ﷺ حاضر ، وتبودلت بين الجانبين أحاديث حول رسول الله ﷺ

١ - مجمع البيان : ج ٧ ، ص ٣٧ ، الحجة : ص ٥٦ . ٥٧ ، مستدرک الحاكم : ج ٢ ، ص ٦٢٣ و ٦٢٤ .
٢ - مجمع البيان : ج ٧ ، ص ٣٦ ، وقد نقل ابن هشام في السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٥٢ و ٣٥٣ خمسة عشر بيتا من هذه القصيدة.

ودينه وما خلق من مشكلات في مكة ، وحاول القرشيون اثناء النبي عن دعوته وعمله ولكن دون جدوى فلما يئسوا من الحصول على النتيجة التي كانوا يريدونها نهضوا من مكانهم ليتركوا بيت « أبي طالب » قال « عقبه ابن أبي معيط » غاضبا مهددا : لا نعود إليه أبداً ، وما خير من أن نغتال محمداً!!

فغضب « أبو طالب » من هذه الكلمة ، ولكنه ماذا عساه أن يفعل فهم ضيوفه ، وفي بيته. واتفق أن خرج النبي ﷺ من البيت في ذلك اليوم ولم يعد ، وجاء « أبو طالب » وعمومته إلى منزله فلم يجدوه ، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب ، ثم قال . وهو يظن ان قريشا كادت برسول الله ﷺ ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد ، فلينظر كل فتى منكم ، فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية . يعني أبا جهل . فانه لم يرغب عن شر ان كان محمداً قد قتل ، فقال الفتيان : نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال فقال : يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال : نعم كنت معه آنفا.

فقال أبو طالب : لا ادخل بيتي أبدا حتى أراه.

فخرج زيد سريعا حتى اتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون فاحبره الخبر ، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب فقال : يا ابن أخي : اين كنت؟ اكنت في خير؟ قال : نعم ، قال : ادخل بيتك ، فدخل رسول الله ﷺ ، فلما اصبح أبو طالب غدى على رسول الله ﷺ فاخذ بيده فوقف على اندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال : يا معشر قريش هل تدرين ما هممت به؟ قالوا : لا ، فاحبرهم الخبر ، وقال للفتيان اكشفوا عما في ايديكم ، فكشفوا ، فاذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال : والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحدا حتى نتفاني نحن وانتم ، فانكسر القوم وكان اشدهم انكساراً أبو جهل (١).

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٦٨ ، الطرائف : ص ٨٥ .

لو لاحظت أيها القارئ الكريم هذه الصفحات وغيرها من تاريخ « أبي طالب » ،
ودرست حياته لرأيت كيف ان « أبا طالب » ظل طوال اثنين وأربعين سنة بأيامها ولياليها
يحب علي رسول الله ﷺ ويدافع عنه ، ويحاميهِ ، وبخاصة في السنوات العشر الاخيرة
من حياته التي صادفت بعنة رسول الله ﷺ ودعوته ، فقد أظهر من الدفاع عن رسول
الله ﷺ والحرص على حياته ، وحماية هدفه أكثر مما يُتصور.

ولقد كان العامل الوحيد الذي دفعه إلى مثل هذا الموقف الراسخ العظيم في هذا السبيل
هو : عمق الايمان برسول الله ﷺ ، وقوة الاعتقاد الخالص برسالته.

ولو أننا ضممننا إلى تضحياته الشخصية تضحيات ولده العزيز « علي » لأدركنا مغزى
البيتين الذين انشدهما « ابن ابي الحديد » المعتزلي الشافعي إذ قال :

ولو لا أبو طالب وابنه لما مثَّل الدِّينُ شخصاً وقاماً
فذاك بمكَّة آوى وحامى وهذا يثير جَسَّ الحماما (١)

قضية ذات بواعث سياسية :

ليس من ريب في أنه لو ثبت عُشر هذا القدر من الشواهد الدالَّة على اسلام « أبي
طالب » وإيمانه بالرسالة المحمَّدية ، لغيره ممَّن هو بعيدٌ عن قضايا السياسة ، وخارج عن دائرة
الحقد والبغض لا تفق الجميع سنَّةً وشيعَةً على إسلامه وإيمانه ، ولكن كيف ذهب فريقٌ إلى
تكفير « أبي طالب » مع كل هذه الشواهد القويَّة القاطعة على إيمانه؟ حتى أن فريقاً من
الكتاب ذهب إلى أن بعض الآيات المشعرة بالعذاب نزلت في شأنه.

١ . شرح نهج البلاغة : ج ١٤ ص ٨٤ يقول ابن ابي الحديد : صنف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في
اسلام أبي طالب ، وبعثه إليّ ، وسألني ان اكتب عليه بخطي نظماً أو نثرأ أشهد فيه بصحة ذلك ، وبوثاقة الأدلة
عليه (إلى ان قال) فكتبت على ظاهر المجلد هذه الايات .

بينما توقّف في هذا الأمر ، وذهب أفراد معدودون من علماء السنة إلى الحكم باسلامه وإيمانه ، ومنهم « زيني دحلان » مفتي مكة المتوفى سنة ١٣٠٤ من الهجرة .
ولكن الانصاف هو ان يقال : أن الهدف من طرح هذه المسألة والتوقف في إيمان « أبي طالب » أو تكفيره لم يكن إلاّ الطعن في أبنائه ، وبخاصة أمير المؤمنين الامام عليّ عليه السلام .
ولقد جر بعض كتّاب السنّة . لتبرير تكفير أبي طالب . هذه المسألة إلى غير أبي طالب ووسع دائرة التكفير هذه حتى شملت آباء النبي ﷺ أيضا حيث ذهب إلى أن أبوي النبي ﷺ ماتا كافرين أيضا .

ونحن لا يهمنا هنا أن نعلم بأن تكفير والدي النبي ﷺ مخالف لاجماع الامامية والزيدية ، وكذا جماعة من علماء السنة ، ومحقّقيهم ، إنما الكلام هو حول من اتهموا ببساطة متناهية حامي النبي ﷺ الوحيد والمدافع عنه بلا منازع .

الأدلة على إيمان أبي طالب

إن التعرّف على عقيدة أحد ، ومعرفة نمط تفكيره ، يمكن عن ثلاث طرق هي :

- ١ . دراسة ما ترك من آثار علمية وأدبية .
- ٢ . أسلوب عمله ، وتصرفاته في المجتمع .
- ٣ . رأي أقربائه ، وأصدقائه غير المغرضين فيه .

ونحن نستطيع أن نتعرّف على إيمان « أبي طالب » وعقيدته من خلال هذه الطرق .
فإن أشعار « أبي طالب » تدل بجلاء لألبس فيه على إيمانه وإخلاصه ، وكذا تكون خدماته القيمة في السنوات العشر الاخيرة من عمره شاهدا قويا على إيمانه العميق .

كما وأن رأي أقرائه المنصفين متفق على أن «أبا طالب» كان مسلماً مؤمناً ولم يقل أحد من أقرائه، في حقه بغير هذا أبداً.

وإليك إثبات هذا الموضوع عن هذه الطرق الثلاث على وجه التفصيل:

آثار أبي طالب العلمية والأدبية

نحن نختار هنا من بين قصائد «أبي طالب» المطولة، بعض الأبيات التي تثبت إيمانه برسول الله ﷺ، واعتقاده بالاسلام، في غير إجمام.

- ١ . لَتَعْلَمَ خِيَارَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيَّ كَمُوسَى وَمَلْسِيحَ بْنِ مَرْيَمَ .
أَنَا بَهْدِي مِثْلَ مَا أَتْيَابُهُ فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْجُو وَيَعْضَمُ (١)
- ٢ . تَمَنَيْتُمُو أَنْ تَقْتُلُوهُ وَإِنَّمَا نَبِيٌّ أَتَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ .
أَمَّا تَعْلَمُوا أَنبَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا رُسُلًا كَمُوسَى خَطَّ فِي أَوِّ الْكُتَيْبِ وَلَا حَيْفَ فِي مَنْ حَصَّه اللَّهُ بِالْحُبِّ (٢)
- ٣ . أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنبَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً .
مَلَلَهُ لَنْ يَصْنَلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ جَئُوا سُدَّ فِي التَّرَبِّ دَفِينًا .
فَاصْلِحْ بِالْمُكْرِ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَمَبْشُرٌ بِذَلِكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونُنَا .
وَلَقَبَدَ دَعَبَاتٍ وَكُنْتَ تَمَّ أَمِينًا .
مَنْ خَجِرَ أَدْيَانَ الْبَرِّيَّةِ دِينَنَا (٣)
- ٤ . أَوْتُومَنُوا بِكِتَابِ مَنْزِلِ عَجَبٍ عَلَى نَبِيِّ كَمُوسَى أَوْ كَعِيسَى النُّونِ (٤)
- ٥ . لَقَبَدَ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبَ فَيَأْتِيهِ الْعِبَادُ بِنَصْرِهِ .
بَدِينَا وَلَا يَعْنِي بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ وَظَهَرَ دِينَنَا حَقُّهُ غَيْرَ بَاطِلٍ (٥)

١ . مجمع البيان : ج ٧ ، ص ٣٧ ، الحجة : ص ٥٧ ، مستدرک الحاكم : ج ٢ ، ص ٦٢٣ .

٢ و ٣ . ديوان أبي طالب : ص ٣٢ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٥٣ .

٤ . تاريخ ابن كثير : ج ٣ ، ص ٤٢ .

٥ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٤ ، ص ٧٤ ، ديوان أبي طالب : ص ١٧٣ .

٦ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٨٠ .

إن كل واحدة من هذه المقطوعات الشعرية التي تشكل قسماً صغيراً من قصائد مفصلة لأبي طالب ، تشهد بإيمانه بدين ابن أخيه « محمد » ﷺ .
وخلاصة القول : أن بيتاً واحداً من هذه الأبيات كاف في إثبات إيمان صاحبها وقائلها ، ولو أن أحداً قالها وهو خارج عن فلك الصراعات السياسية ، وبعيد عن دوائر التعصب والأغراض لحكم الجميع . بالاتفاق . بإسلام قائله وإيمانه الخالص العميق .
ولكن لما كان « أبو طالب » هو قائلها ، وكانت الأجهزة الدعائية في الحكومات الاموية والعباسية تعمل بكل جهدها ضد آل « أبي طالب » من هنا أبي فريق من الناس أن يثبتوا مثل هذه الفضيلة الكبرى لأبي طالب عليه السلام .
هذا من جانب .

ومن جانب آخر فإن أبا طالب والد « علي » الذي كانت سلطات الخلفاء تعمل ضده على الدوام ، وتستغل كل الوسائل للحط من شأنه ، كان إسلام أبيه وإيمانه بالرسالة المحمدية يُعدُّ فضيلة بارزة من فضائله عليه السلام في حين أن كفر آباء الخلفاء وشركهم يعدُّ مثلية توجب الحط من شأنهم ، وقيمتهم .

وعلى كل حال قام جماعة بتكفير أبي طالب رغم كل هذه الأشعار والأقوال ، والمواقف الصادقة ، بل لم يكتفوا بذلك ، فادعوا نزول آيات من القرآن تدل على كفره ، وشركه!!!

الطريق الثاني لا ثبات إيمان أبي طالب

إن الطريق الثاني للبرهنة والتدليل على إيمان « أبي طالب » هو مواقفه من رسول الله ﷺ وكيفية دفاعه وذبه عنه وحمایته له ، وحده عليه ﷺ وما قام به من خدمات جليلة في هذا الطريق .

ان كل واحدة من هذه الخدمات تستطيع بمفردها ان تكون المرأة الصادقة

التي تعكس فكر « أبي طالب » وعقيدته وما كان يحمله بين جوانحه من إيمان بالرسالة والرسول ، واخلاص لله تعالى .

لقد كان « أبو طالب » هو ذلكم الشخصية التي لم يرض لنفسه بان ينكسر قلب ابن أخيه لتركه في مكة ، واصطحبه معه إلى الشام في الرحلة التجارية التي سبق ذكرها ، رغم الموانع الكثيرة ، وفقدان الوسائل اللازمة ، ورغم ما ترتب على اصطحابه معه من متاعب . إن إيمانه بابن أخيه كان عميقاً إلى درجة أنه أخذه إلى المصلّى واستسقى به ، مقسماً به على الله تعالى أن يكشف العذاب عن قومه ، ويرسل رحمته عليهم ، فيستجيب الله دعاءه ، وينزل عليهم غيثاً وافراً ممرعاً ، بقيت قصته في ذاكرة التاريخ .

إنه ذلك الرجل الذي لم يفتأ عن الحفاظ على حياة رسول الله ﷺ لحظة واحدة ، فهو الذي تحمل في سبيله ثلاثة أعوام عجاف من الحصار الاقتصادي والاجتماعي الصعب ، مؤثراً العيش في الشعب وفي شغاف الجبال والوديان القاحلة على زعامة قريش ، ورئاسة مكة إلى ان أعيته تلك المحن والمتاعب ففقد بذلك صحته ، وانحرف بذلك مزاجه ، وتوفي متأثراً بتلك المتاعب والمصاعب ، والمشاق والمحن بعد نقض الصحيفة ، وانتهاء الحصار ، والعودة إلى المنازل بأيام معدودة!!

لقد كان إيمان « أبي طالب » برسول الله ﷺ قويا وراسخا إلى درجة أنه رضى بأن يتعرّس كل ابنائه لخطر القتل والاعتقال ليقى « محمّد » ولا يمسه من أعدائه أي سوء ، فكان يُضجع ولده علياً في موضعه ، حتى إذا أرادوا إغتياله لا يصيبه شيء وهذا يعني أنه كان يقيه بنفسه وبأولاده .

وفوق هذا كله استعدّ في يوم من الايام لأن يقتل كل زعماء قريش وأسيادها انتقاماً لمحمّد ، وكان من الطبيعي أن يقتل في هذا العملية بنو هاشم كلّهم أيضاً^(١) .

١ . راجع الصفحة ٥٢٢ من هذا الكتاب .

وصية أبي طالب عند وفاته

وعند وفاته قال لأولاده :

« أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وانكره اللسان مخافة الشنئان ، وأيم الله لكأني انظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البر في الاطراف ، والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدّقوا كلمته ، وعظّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناً ، ودورها خراباً ، وضّعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ... ».

ثم ختم وصيته هذه بقوله :

يا معشر قريش كونوا له ولاةً ، ولحزبه حماةً ، والله لا يسلك أحدٌ منكم سبيله الارشد ، ولا يأخذ أحدٌ بهديه الاّ سعد ^(١).

نحن لا نشك في أن « أبا طالب » كان صادقاً في أمنيته هذه لأن خدماته الكبرى وتضحياته المتواصلة خلال عشر سنوات من بداية عهد الرسالة شاهدة على صدق مقاله ، كما كان صادقاً في الوعد الذي قطعه على نفسه لابن أخيه (محمد) في مبدأ البعثة عندما جمع رسول الله ﷺ أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم إلى الإسلام فقال له ابو طالب :

« أخرج يا ابن أخي فأنك الرفيع كعباً ، والمنيع حزباً ، والأعلى أباً .
والله لا يسلفك لساناً الاسلقته ألسن حداد ، واجتدبته سيوف حداد .

والله لتذكن لك العرب ذلّ البهيم لحاضنها » ^(٢).

١ . السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٥١ و ٣٥٢ .

٢ . الطرائف تأليف السيد ابن طاووس : ص ٨٥ ، نقلا عن كتاب غاية السؤل في مناقب آل الرسول تأليف ابراهيم بن علي الدينوري .

آخر الطُرق لا ثبات إيمان أبي طالب

ويحسن بنا أخيراً أن نسأل عن أبي طالب وعن إيمانه واخلاصه ، أقرّبه غير المغرضين لأن « أهل البيت ادري بما في البيت ».

١ . لما مات أبو طالب جاء علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأذنه بموته ، فتوجع توجعاً عظيماً ، وحزن حزناً شديداً ، ثم قال له امض فتولّ غسله فاذا رفعته على سريره فاعلمني ، ففعل فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو محمول على رؤوس الرجال : قال : « وصلتك رحم يا عم ، وجزيت خيراً فلقد ربّيت وكفلت صغيراً ، ونصرت وأزرت كبيراً » .
ثم تبعه إلى حضرته ، فوقف عليه فقال :

« أما والله لاستغفرنّ لك ، ولا شفعنّ فيك شفاعَةً يعجبُ لها الثقلان » ^(١) .

٢ . روي ان علي بن الحسين عليه السلام سئل عن إيمان أبي طالب . فقال :
« واعجبا! ان الله تعالى نهى رسوله ان يقرّ مسلمة على نكاح كافر ، وقد كانت فاطمة بنت اسد من السابقات إلى الإسلام ، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات » ^(٢) .
٣ . روي عن علي بن محمد الباقر عليه السلام أنه قال :

« لو وُضِعَ إيمان أبي طالب في كفة ميزان ، وإيمانُ هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه » .

ثم قال :

« ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان يأمر أن يُحجَّ عن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم » ^(٣) .

٤ . قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام :

١ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٤ ، ص ٧٦ .

٢ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٤ ، ص ٦٩ .

٣ . المصدر السابق : ص ٦٨ .

« إِنَّ مَثَلُ أَبِي طَالِبٍ مَثَلُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أَسْرُوا الْإِيمَانَ ، وَأَظْهَرُوا الشَّرْكَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ، وَأَنْ أَبَا طَالِبٍ أَسْرَ الْإِيمَانَ ، وَأَظْهَرَ الشَّرْكَ ، فَآتَاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ »^(١) .

رأي علماء الشيعة في أبي طالب

ولقد اتفق علماء الامامية والزيدية تبعاً لأهل بيت النبي ﷺ على : أن « أبا طالب » كان من أبرز المؤمنين برسول الله ﷺ ولم يخرج من الدنيا إلا بقلب يفيض إيماناً بالاسلام ، وإخلاصاً لله تعالى ، وحباً للمسلمين ، وقد ألفت في هذا المجال كتب ورسائل ، ودراسات عديدة ، يمكن الوقوف عليها لمن اراد ، ولزيد التوسع في هذا المجال يراجع المجلد ٧ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٤ من موسوعة الغدير للعلامة الأميني طبعة النجف ، أو ج ٧ ، ص ٣٣٠ . ٤٠٩ طبعة لبنان.

نظرة إلى حديث « الضحاح »

واستكمالاً لهذا الحديث ينبغي أن نلقي نظرة إلى رواية تشكك في إيمان أبي طالب فقد روى بعض الكتاب مثل البخاري^(٢) ، ومسلم عن رواة نظير سفيان بن سعيد الثوري ، عبد الملك بن عمير ، عبدالعزيز بن محمد الدراوردي حديثاً نسبوه إلى رسول الله ﷺ انه قال عن أبي طالب رضي الله عنه :

« وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحاح » .

« لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحاح من النار يبلغ كعبه ، يغلي منه دماغه »^(٣) .

إن هذه الرواية وان كانت تكذبها عشرات الأحاديث والروايات الإسلامية ،

١ - اصول الكافي : ج ١ ، ص ٤٤٨ .

٢ - صحيح البخاري : ج ١ ، ص ٣٣ و ٣٤ من أبواب المناقب .

٣ - صحيح مسلم : كتاب الايمان .

والدلائل القاطعة الساطعة ، وتثبت بطلانها وتفاهتها ، ولكننا بهدف الوصول إلى مزيد من التوضيح نعلم إلى دراسة أمرين مرتبطين بهذا الحديث .

١ . ضعف أسناد هذه الرواية

إن رواية هذه الرواية . كما أسلفنا . هم عبارة عن سفيان بن سعيد الثوري وعبد الملك بن عمير وعبد العزيز بن محمد الدراوردي الذين سندرس أحوالهم واحدا واحدا . في ضوء أقوال علماء الرجال المعترف بهم عند أهل السنة . عنهم :

الف : سفيان بن سعيد الثوري

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . وهو من علماء الرجال عند أهل السنة . في سفيان الثوري : كان يدلّس عن الضعفاء ^(١) .

إن هذا الكلام شاهد قوي على وجود التدليس عند الثوري ، وعلى روايته عن الضعفاء أو المجهولين ، وهو وصف يُسقطه عن درجة الاعتبار .

باء : عبد الملك بن عمير

قال عنه الذهبي المذكور : طال عُمره وساء حفظه قال أبو حاتم : ليس بحافظ ، تغيّر حفظه ، وقال أحمد : ضعيف يغلط ، وقال ابن معين : مخلط وقال ابن خراش : كان شعبة لا يرضاه ، وذكر الكوسج عن أحمد بن حنبل : انه ضعيف جدا ^(٢)

فمن مجموع هذه العبارات نعرف ان عبد الملك كان يتصف بصفات عديدة هي أنه :

١ . سيء الحفظ .

٢ . ضَعِيف .

٣ . كثير الغلط .

١ . ميزان الاعتدال : ج ٢ ، ص ١٦٩ .

٢ . المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٦٠ .

٤ . مخلط.

ومن الواضح ان كل واحدة من الصفات والحالات المذكورة كافية لأن تبطل الاحاديث التي يرويها عبد الملك بن عمير ، والحال انه قد اجتمعت جميع نقاط الضعف هذه في هذا الرجل.

جيم : عبدالعزيز بن محمد الدراوردي

ولقد وصفه علماء الرجال عند اهل السنة بالنسيان ، وقلة الحفظ فلا يمكن الاستناد إلى مروياته.

فقد قال أحمد بن حنبل عنه : إذا جدد من حفظه جاء بأباطيل^(١).

وقال أبو حاتم عنه : لا يُجْتَنَّبُ به^(٢).

وقال أبو زرعة أيضا : سئ الحفظ^(٣). ومن مجموعة هذه العبارات يتضح بجلاء ان الرواة الاصيلين لحديث الضحضاح ضعفاء في غاية الضعف ، إلى درجة لا يمكن الاعتماد على مروياتهم.

٢ . نص حديث الضحضاح يخالف الكتاب والسنة

لقد نُسِبَ إلى النبي ﷺ في هذه الرواية أنه أخرج أبا طالب من نار جهنم إلى ضحضاح وبهذا خَفَّفَ عنه العذاب ، أو أنه ﷺ تمنى أن يشفع له ، فيخففَ اللهُ عنه العذاب ، على حين نفى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تخفيف العذاب عن الكفار كما ونفيا شفاعة احد في حقهم.

وعلى هذا الاساس فلو كان ابو طالب كافراً ، لم يجز للنبي ﷺ ان يخفف عنه العذاب أو يتمنى له الشفاعة في يوم الجزاء.

وبهذا يظهر بطلان محتوى حديث الضحضاح.

واليك فيما يأتي ادلة ما قلناه من الكتاب والسنة :

١ . المصدر السابق ، ص ٦٣٤ .

٢ و ٣ . المصدر السابق .

الف : القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد : « لَذُنُقٍ نَفَرُوا بِمُ نَارِ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ »^(١).

ب : السنة النبوية

ان السنة النبوية الطاهرة تنفي أيضاً الشفاعة للكفار ، ونذكر من باب النموذج بعض تلك الأحاديث :

١ . روى أبوذر الغفاري عن رسول الله ﷺ انه قال :

« أعطيت الشفاعة وهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئاً »^(٢).

٢ . روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ انه قال :

« وشفاعتي لمن شهد أن لا اله الا الله مخلصاً ، وأنَّ محمداً رسول الله يصدّق لسانه قلبه ، وقلبه لسانه »^(٣).

إن الآيات والروايات المذكورة تثبت بوضوح بطلان نص حديث الضحضاح عند من يقول بأن أبا طالب مات كافراً.

ونتيجة البحث أنه تبين مما ذكر ان حديث الضحضاح لا أساس له من الصحة لا من جهة السند والطريق ، ولا من جهة المتن والنص ، ولا يمكن الاستدلال به .
وبهذا ينهار أقوى حصن يتمسك به البعض للخدشة في إيمان أبي طالب الثابت المسلم .

١ . فاطر : ٣٦ .

٢ . الترغيب والترهيب : ج ٤ ، ص ٤٣٣ .

٣ . المصدر السابق : ص ٤٣٧ .

المعراج

المعراج في نظر القرآن والسنة والتاريخ

كان الليل يخيم على الافق ، ويسودُ الظلام على كل مكان .
 فقد حان الأوانُ لان ترقدَ جميع الاحياء في مساكنها ، وتستريح في جحورها وأعشاشها ،
 وتغمض الأجنان لبعض الساعات عن مظاهر الطبيعة ، لتستعيد نشاطها من أجل العمل
 في يوم جديد حافل بالنشاط والحركة والسعي .
 فذلك قانون الطبيعة في كلِّ ليل ونهار .
 ولم يكن رسول الله ﷺ بمسثنى عن هذا الناموس الطبيعي .
 فهو ﷺ مضى ليستريح بعد أن صَلَّى صلاة العتمة أيضا .
 ولكنه فجأةً سمع صوتاً مألوفاً مأنوساً له ، وكان ذلك هو صوت أمين الوحي « جبرئيل
 » وهو يخبره بأن أمامه الليلة سفراً بعيداً ورحلة طويلة ، وانه سيرافقه في هذا الرحلة إلى
 مختلف نقاط الكون ، وسيسافر على متن دابة فضائية تدعى « البراق » .
 لقد بدأ رسول الله ﷺ رحلته الفضائية العظيمة من بيت اخت علي بن أبي طالب ^(١)
 « لم هاني » ، وتوجه على متن تلك الدابة إلى « بيت

١ . مجمع البيان : ج ٦ ، ص ٣٩٥ و ٣٩٦ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٩٦ . ٤٠٢ .

المقدس « في الأردن وفلسطين والذي يسمى « المسجد الأقصى » أيضاً ، وهبط في تلك النقطة بعد مدة قصيرة جداً ، وزار مواضع عديدة من ذلك المسجد ، وتفقد « بيت لحم » مسقط رأس « السيد المسيح » ومنازل الأنبياء وآثارهم ومحاريبهم ، وصلى عند كل محراب من بعض تلك المحاريب ركعتين .

ثم بدأ بعد ذلك القسم الثاني من رحلته ، حيث عرج من ذلك إلى السماوات العلى ، وشاهد النجوم والكواكب ، واطّلع على نظام العالم العلوي ، وتحدث مع ارواح الأنبياء ، والملائكة السماويين ، واطّلع على مراكز الرحمة والعذاب (الجنة والنار)^(١) ورأى درجات أهل الجنة ، وأشباح أهل النار عن كثب ، وبالتالي تعرف على أسرار الوجود ، ورموز الطبيعة ، ووقف على سعة الكون ، وآثار القدرة الإلهية المطلقة ، ثم واصل رحلته حتى بلغ إلى سدرة المنتهى^(٢) ، فوجدتها مسرلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم وعندها انتهى برنامج رحلته ﷺ ، فامر بأن يعود من حيث أتى فعاد ، بعد ﷺ ومر في عودته على بيت المقدس ثانية ، ثم توجه منه إلى « مكة » ، ومرّ خلال الطريق على قافلة تجارية لقريش وقد ضلّ بعير لهم في البداء وكانوا يبحثون عنه ، ثم وجد في رحلهم قعباً مملوء من الماء فشرب منه وصبّ بقيته على الأرض أو غطاه كما كان بناء على رواية . وترجّل عن مركبته الفضائية العجيبة في بيت « لم هاني » قبيل طلوع الفجر ، وأخبرها بالخبر قبل اي أحد ، ثم كشف عن هذا الحادث في أندية قريش صباح نفس تلك الليلة .

فاستبعد السامعون قصة المعراج والحركة السريعة هذه ، واعتبروه أمراً محالاً وانكروه ، وفسّوا هذا الخبر في جميع الأوساط وغضب بسببه أشرف قريش وساداتهم أكثر من غيرهم .
وكعادتها بادرت قريش إلى تكذيب هذه القصة وقالوا : هذا والله الامر البين

١ . مجمع البيان : سورة الاسراء ، ج ٦ ، ص ٣٩٥ .

٢ . لتوضيح معنى سدرة المنتهى راجع كتب التفسير .

(العجيب المنكر) والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ،
أفيذهب ذلك « محمد » في ليلة واحدة؟

وقالوا : إن صدقت فصف لنا بيت المقدس ، فإن فينا من شاهدهُ.

فلم يصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس فحسب بل أخبرهم بكل ما مر به وفعله
ورآه في طريق عودته من بيت المقدس إلى « مكة » وقال : وآية ذلك أني مررت على بعير
بني فلان بوادي كذا وكذا ، وقد ضلّ لهم بعير وقد همّوا في طلبه ، وشربت من ماء في آنية
لهم مغطاة بغطاء و ثم غطيت عليها كما كان ، ثم مررت على بعير فلان وقد نقرت لهم ناقة
وانكسرت يدها.

فقال قريش : أخبرنا عن عير قريش.

فقال ﷺ : إنّها الآن في التنعيم (وهو مبدأ الحرم) يتقدمها جمل أورك (أبيض مائل
إلى السواد) عليه غرارتان وستدخل الآن مكة.

فغضب قريش من هذه الأخبار القاطعة وقالت : سنعلمن الآن صدقه أو كذبه.

ثم لم تمض لحظات إلا وطلعت العير عليهم ، وحدّثهم أبو سفيان بكل ما أخبرهم به
رسول الله ﷺ من ضياع بعير لهم في الطريق وهمّهم في طلبه ، وأنهم وضعوا ماء مملوء
فغطوه ولما رجعوا وجدوه مغطى كما غطوه ولكن لم يجدوا فيه ماء.

هذه هي خلاصة ما جاء في كتب التفسير ، والتاريخ ، والحديث حول المعراج.

وإذا أراد القارئ الكريم أن يقف على تفاصيل أكثر في هذا المجال فما عليه إلا أن يراجع

بحار الأنوار باب « المعراج » ^(١).

هل للمعراج جذور قرآنية؟

لقد جاء ذكر « المعراج » النبوي وسيره العجيب ﷺ في

١ - بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٢٨٣ - ٤١٠ .

العالم العلوي ، والفضاء غير المتناهي في سورتين من القرآن الكريم بشكل واضح وصريح كما
واشير اليها في سور أخرى أيضا.

ونحن نكتفي هنا باستعراض الآيات التي ذكرت هذه القضية بصورة واضحة ، ونقف عند
بعض النقاط الجديدة بالدراسة فيها :

يقول الله تعالى في سورة الأسراء : « **يُجَلِّدُكَ لَمَّا سَرَى عَيْدَهُ يَوْمَ نَزَلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » ^(١).

ويستفاد من ظاهر هذه الآية أمور :

١ . لكي نعلم بأن النبي ﷺ لم يطو تلك المسافات ، ولم يتم برحلته إلى تلك العوالم
بقوة بشرية ، بل تسنى له كل ذلك بقوة غيبية ، فبها استطاع أن يطوي تلك المسافات
البعيدة في زمن قصير جدا بدأ الله تعالى حديثه عن الاسراء بقوله : « **سُبْحَانَ الَّذِي** » وهو
اشارة إلى تنزيه الله عن كل نقص وعيب.

ولم يكتف بذلك بل وصف نفسه بوضوح بأنه هو تعالى سبب هذه الرحلة والمسير فيها
إذ قال : « **أسرى** » أي إنَّ الله تعالى هو الذي سرى برسوله ﷺ ، وأخذه إلى تلك
الرحلة.

وهذه العناية لأجل أن لا يتصور الناس بأنَّ هذه الرحلة تحققت بالوسائل العادية ،
وحسب القوانين الطبيعية ليتسنى لهم إنكارها ، إنما تحققت بقدرة الله وعنايته الربوبية
الخاصة.

٢ . إن هذه الرحلة تحققت برمتها خلال الليل ، ويستفاد هذا المطلب . علاوة على كلمة
ليلا . من كلمة « **أسرى** » أيضا لأن العرب كانت تستعمل اللفظة المذكورة في السير ليلا .

٣ . مع أن هذه الرحلة بدأت من بيت « **لم هاني** » ابنة أبي طالب ، فإن الآية صرحت
بأنها تمت من المسجد الحرام ، ولعل هذا لأنَّ العرب كانت تعتبر

١ . الاسراء : ١ .

كل مكة حرماً إلهياً ، ومن هنا كان كل مكان من مكة يتمتع عندهم بحكم الحرم والمسجد الحرام ، فيكون المراد بالمسجد الحرام هنا مكة ، ومكة والحرم كلها مسجد ، فصحَّ أن يقول : « من المسجد الحرام » .

وتذهب بعض الروايات إلى أنَّ المعراج كان من نفس المسجد الحرام .
ثم إنَّ هذه الآية وإن كانت تصحَّ بأنَّ المعراج بدأ من « المسجد الحرام » وانتهى بـ : « المسجد الأقصى » إلا أن ذلك لا ينافي أن يكون للنبي ﷺ رحلة أخرى إلى العالم العلوي لأنَّ هذه الآية تبين فقط قسماً من هذه الرحلة ، وأما القسم الآخر من برنامج هذه الرحلة فتعرض لذكره آيات في مطلع سورة « النجم » .

٤ . إن النبي ﷺ عرج بجسمه وروحه معاً ، لا بالروح فقط .
ويدلُّ على ذلك قوله تعالى « بعبدك » الذي يُستعمل في « الجسم والروح معا » ولو كان المعراج بالروح فقط لزم أن يقول : « بروحه » .

٥ . إنَّ الغرض من هذا السير العظيم وهذه الرحلة العجيبة هو إيقاف النبي ﷺ على مراتب الوجود ، وإطلاعه على الكون العظيم ، وهذا ما سنشرحه فيما بعد .
وأما السورة الأخرى التي تعرض لبيان حادثة المعراج بوضوح وصراحة هي سورة « النجم » .

والآيات التي سندرجها هنا من هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عندما قال لقريش : « رأيت جبرئيل أوَّماً وأُحيى التي على صورته الي خُلِقَ عليها » جادلته قريش في ذلك ، فنزلت الآيات التالية تجيب على اعتراضهم : « أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » (١) .

١ . النجم : ١٢ - ١٨ .

أحاديث المعراج :

روى المفسرون والمحدثون أخباراً وروايات كثيرة حول معراج النبي ﷺ وما شاهده في هذه الرحلة العظيمة ، ليست برمتها صحيحة مُسَلِّمة مقطوعاً بها .

ولقد قسم المفسر الشيعي الكبير المرحوم « العلامة الطبرسي » هذه الاخبار إلى أصناف أربعة إذ قال :

وتنقسم جملتها إلى أربعة اوجه :

أحدها : ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به ، واحاطة العلم بصحته مثل أصل المعراج .

وثانيها : ما ورد في ذلك مما تجوز العقول ولا تأباه الاصول مثل طوافه في السماء ورؤيته أرواح الأنبياء وتحديثه معهم ورؤيته للجنة والنار ، فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته ، دون منامه .

وثالثها : ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول ، إلا أنه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول فالأولى أن نؤوله على ما يطابق الحق والدليل . مثل أنه رأى أهل الجنة وأهل النار وتحدث معهم الذي يجب أن يؤوِّف فيحمل على انه : رأى أشباحهم وصورهم وصفاتهم .

ورابعها : ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله ، وهي ما ألصق وألحق بهذه الحادثة من الأساطير والخرافات ، مثل ما روي من أنه ﷺ كلم الله سبحانه جهرة وراه وقعد معه على سريره أو سمع صرير قلمه ، ونحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه والتجسيم والله سبحانه يتقدس عن ذلك كله ، فالأولى أن لا نقبله ^(١) .

١ . مجمع البيان : ج ٦ ، ص ٣٩٥ .

متى وَقَعَت هذه الحادثة؟

مع ان أهمية هذه الحادثة العجيبة كانت تستوجب أن تكون مضبوطة التفاصيل من جميع الجهات ، إلا أنها تعرضت للاختلاف . مع ذلك . من بعض الجهات ومنها تحديد تاريخ وقوعها .

فقد ادعى كاتبها السيرة المعروفان : « ابن اسحاق » و « ابن هشام » أنها وقعت في السنة العاشرة من البعثة الشريفة .

وذهب المؤرخ الكبير « البيهقي » إلى أنها وقعت في السنة الثانية عشرة من البعثة . وذهب آخرون إلى أنها وقعت في أوائل البعثة ، بينما قال فريق رابع : أنها وقعت في أواسطها .

وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال : أنه كان لرسول الله ﷺ معارج متعددة . ولكننا نعتقد أن المعراج الذي فُرِضَتْ فيه الصلاة وَقَع بعد وفاة أبي طالب ﷺ في السنة العاشرة قطعاً .

لأن من مسلمات الحديث والتاريخ أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ في ليلة المعراج أن تصلي أمة رسول الله ﷺ كلَّ يوم وليلة خمس صلوات .

كما أنه يُستفاد من ثنايا التاريخ أيضاً أن الصلاة لم تُفرضْ مادام أبو طالب ﷺ على قيد الحياة بل فُرِضت بعد وفاته ، لأنه حضر عنده . ساعة وفاته . سراة قُريش وأسيادها ، وطلبوا منه أن يبت لهم في أمر ابن أخيه « محمد » ويمنعه من فعله ، فيعطونه . في قبال ذلك - ما يريد فقال لهم رسول الله ﷺ في ذلك المجلس : نعم كلمة واحدة تعطونهاها : « تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه »^(١) .

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤١٧ .

لقد طلب منهم رسول الله ﷺ هذا الأمر ولم يطلب منهم شيئاً آخر كالصلاة وغيرها من الفروع أبداً ، وهذا هو بنفسه يدلّ على أنه لم تجب الصلاة حتّى ذلك اليوم ، وإلاّ كان الإيمان المجرّد عن العمل ، والصلاة مفروضة ، لا فائدة فيه .

وأما أنه لم يذكر شيئاً عن نبوّته ورسالته فلأنّ الإعتراف بوحدانية الله بأمره وطلبه ﷺ إعتراف ضمّنيّ برسالته ونبوّته ، وفي الحقيقة أنّ التلقُّظ بهذه العبارات بأمره يتضمّن شهادتين واقارين : الإقرار بالله الواحد ، والإقرار بنبوّة رسول الإسلام .

هذا مضافاً إلى أن كُتِّبَ السيرة ذكروا كيفية إسلام جماعة مثل « الطفيل بن عمرو الدوسي » الذي أسلم قبل الهجرة ^(١) بأعوام اكتفى النبي ﷺ بالشهادتين ، ولم يجر أي حديث عن الصلاة ابداً .

ان هذه الامثلة تكشف عن أن هذه الحادثة (المعراج) التي فُرِضت فيها الصلاة وقعت قبل الهجرة بسنوات .

والذين تصوّروا أن المعراج وقع قبل السنة العاشرة مخطئون خطأ كبيراً لأن النبي ﷺ كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ السنة الثامنة وحتّى السنة العاشرة ، ولم يكن وضع المسلمين ليسمح بفرض تكليف زائد (مثل الصلاة) .

وأما سنوات ما قبل الحصار فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين والتي كانت هي بنفسها مانعاً من فرض الصلاة على المسلمين ، كان المسلمون قلّة معدودين ، ولم يكن نور الإيمان ، وأصول الإسلام قد ترسخت في قلوب ذلك العدد القليل بشكل قوي بعد ، ولذلك يكون من المستبعد أن يكلفوا بأمر زائد مثل الصلاة في مثل ذلك الظرف .

وأما ما ورد في بعض الأخبار والروايات من ان الامام علياً عليه السلام

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٨٣ .

صلى مع رسول الله قبل البعثة بثلاث سنوات ، واستمر على ذلك بعدها أيضاً فليس المراد منها الصلوات المحدودة المؤقتة بوقت ، المشروطة بشروط خاصة ، بل كانت تلك الصلوات عبارة من عبادة خاصة غير محدودة^(١) ، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة والعبادات غير الواجبة.

هل كان المعراج جسمانياً؟

لقد وقع النقاش والكلام في كيفية معراج النبي ﷺ وأنه كان روحانياً أو جسمانياً وروحانياً معاً ، وقيل في ذلك كلام كثير .

ومع أن القرآن الكريم والأحاديث تشهد بجلاء لا غموض فيه بأن معراجه ﷺ كان جسمانياً^(٢) ، فقد أوردت في المقام بعض الإشكالات والاعتراضات التي منعت البعض عن قبول هذه الحقيقة ، وبالتالي دفعتهم إلى ارتكاب التأويل ، والزعم بأن معراج النبي ﷺ كان روحانياً ، أي بالروح لا بالجسم .

لقد قال هؤلاء : ان روح النبي ﷺ هي التي طافت في تلك العوالم ثم عادت إلى جسد النبي ﷺ مرة أخرى!!

وذهب جماعة إلى أبعد من ذلك إذ ادّعوا بان جميع هذه المشاهدات والقضايا تمّت لرسول الله ﷺ في عالم الرؤيا ، فكل ما رآه النبي ﷺ أو فعله من الطواف واللقاء والصلوة كانت رؤيا ورؤيا الأنبياء صادقة!!

على أن أقوال الفريق الأخير من البعد عن الواقع بحيث لا يمكن ذكره في عداد الأقوال والنظريات أبداً ، لأنّ قريش بعد أن سمعت من رسول الله صلى

١ . للمزيد من التحقيق في تاريخ وجوب الوضوء والصلوة والاذان يراجع الكافي : ج ٣ ، ص ٤٨٢ . ٤٨٩ .

٢ . لقد نقل الفقيه الجليل العلامة الشيعي المرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على

جسمانية المعراج فراجع : ج ٦ ، ص ٣٩٥ .

الله عليه وآله ادعاه بانه سار كل تلك المسافة الطويلة البعيدة ، وطاف على كل تلك الاماكن المتباعدة العديدة في ليلة واحدة انزعجت بشدة وهبت لتكذيبه حقيقة ، إلى درجة أن خبر المعراج أصبح حديث الساعة في نوادي قريش واوساطها آنذاك .

ولو كان كل ذلك تحقق للنبي ﷺ في المنام والرؤيا لما كان لتكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها معنى ، إذ لا موجب للنزاع لو كان ﷺ يقول : إني فعلت تلك الامور ، ورأيت تلك المشاهد في الرؤيا والمنام ، إذ هو على كل حال رؤيا ، وكل شيء . حتى الأمور المحالة أو المستبعدة جدا . ممكن في عالم الرؤيا .

ومن هنا لا قيمة للقول الأخير أصلا فلا تستحق المتابعة أصلا .
ولكن مع الأسف استحسن بعض العلماء المصريين (مثل فريد وجدي) هذا الرأي وسعى في تقويته وتبريره ، ونحن نحذ ان نتركه ، وان لا نناقش فيه ^(١) .

ما هو المراد من المعراج الروحاني؟

لقد عمد فريق ممن عجز عن دفع وحل بعض الاعتراضات والاشكالات الواردة على المعراج الجسماني ، إلى تأويل الآيات والأحاديث ، واعتبر المعراج النبوي معراجاً روحانياً ، لا غير .

والمقصود من المعراج الروحاني هو التدبر في مخلوقات الله ومصنوعاته ، ومشاهدة جلاله وجماله والاستغراق في ذكر الحق ، والتفكير فيه ، وبالتالي التخلص من القيود والاغلال المادية ، والعلائق الدنيوية ، والعبور من المراتب الامكانية في المراحل الباطنية والقلبية التي يحصل بعد طيها نوع من القرب الخاص الذي لا يمكن وصفه .

فاذا كان المراد من (المعراج الروحاني) هو التفكير في عظمة الحق وسعة

١ . دائرة معارف القرن العشرين : ج ٦ ، ص ٣٢٩ مادة عرج .

الخلق و .. و .. فلا شك أن هذا ليس من مختصات رسول الإسلام ﷺ بل كان أكثر الأنبياء ، وكثير من الأولياء من ذوي البصائر القويّة الطاهرة يمتلكون هذه المرتبة ، على حين أن القرآن الكريم يعتبر (المعراج) من خصائص رسول الله ﷺ ويذكره على انه نوع من الامتياز الخاص به ﷺ .

هذا مضافا إلى ان مثل هذه الحالة (اعني التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إلى الحق) كانت تتكرر لرسول الله ﷺ في كل ليلة^(١) ، والحال ان (المعراج) الذي هو محط الكلام قد وقع في ليلة معيّنّة .

إن ما دفع بهذا الفريق إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من (المعراج) ، وآل بهم اختيار هذا الرأي هو فرضية الفلكي اليوناني المعروف « بطلميوس » التي كانت سائدة في الأوساط العلمية في الشرق والغرب طيلة ألفي سنة بالكامل ، والتي ألّف حولها مئات الكتب ، وكانت تعدّ حتى حين من المسلّمات في مجال العلوم الطبيعية وهي على نحو الاجمال كالتالي : إن الاجسام في هذا العالم على نوعين : اجسام عنصرية ، واجسام فلكية .

والجسم العنصري هي العناصر الأربعة المعروفة : « الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار » . وأوّل كرة تبدو لنا هي كرة التراب وهي مركز العالم ، ثم تليها كرة الماء ثم كرة الهواء ، وتأتي بعد كل هذه الثلاثة كرة النار ، وكلّ من هذه الكرات محيطة بالأخرى ، وهنا (اي وعند كرة النار) تنتهي الكرات ، وتبدأ الاجسام الفلكية .

والمقصود من الأجسام الفلكية هي الافلاك التسعة التي تقع الواحدة فوق الاخرى وتحيط الواحدة بالأخرى على هيئة قشور البصل ، وهي متصلة بعضها ببعض من دون فاصلة بينها وهي غير قابلة للاحتراق والالتئام (اي الشق

١ . راجع وسائل الشيعة : ج ٧ ، كتاب صوم الوصال ، ص ٣٨٨ قال ﷺ : « إني لست كأحدكم ، أني اظل عند ربي فيطعمني ويسقيني » .

والالتحام) والفصل والوصل ولا يستطيع أي شيء من اختراقها والتحرك فيها بصورة مستقيمة لأن ذلك يستلزم انفصام اجزاء الفلك.

من هنا يكون المعراج الجسماني مستلزماً لأن ينطلق النبي ﷺ من مركز العالم ويصعد بصورة مستقيمة إلى الأعلى عابراً الكرات العنصرية الأربع ، ومخترباً الأفلاك التسعة الواحد تلو الآخر ، بينما يستحيل خرق هذه الأفلاك ثم التحامها حسب نظرية بطليموس وفرضيته الفلكية.

وعلى هذا لا مناص من أن نعتقد بأن المعراج النبوي كان معراجاً روحانياً ، أي ان روحه ﷺ هي التي عرجت حتى لا يمنع أي جسم من عبورها وسيرها وصعودها إلى النقطة المطلوبة والغاية المرسومة.

الجواب :

ان هذا الكلام كان مقبولاً وذا قيمة عند ما كانت هيئة بطليموس وفرضيته الفلكية لم تكن بعد قد فقدت قيمتها في الاوساط العلمية وكان هناك من يعتقد بها من صميم فؤاده . ففي مثل تلك البيئة كان من الممكن التلاعب بالحقائق القرآنية ، وتأويل صريح القرآن ونصوص الروايات .

أما الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضيات قيمتها ، وظهر للجميع بطلانها ، ولم يعد أحد يتحدث عنها ، إلا من باب ما يسمى بتاريخ العلوم .

فاليوم وبالنظر إلى كل هذه الأجهزة الفلكية والآلات الفضائية الدقيقة ، والتلسكوبات العملاقة ، وهبوط المركبات الفضائية المتعددة على سطح القمر والمريخ ، وعملية القيادة الفضائية على سطح القمر لم يعد مجال لهذه الفرضيات الخيالية .

فاليوم لا يعتبر العلماء المحققون فكرة العناصر الأربعة والفلك المتصل كقشرة البصل إلا جزء من الاساطير .

فان العلماء لم يستطيعوا بالآلات العلمية وأجهزة الرصد الدقيقة والعيون

المسلحة من رؤية ، تلك العوالم التي حاكها وصنعها بطلميوس بقوة خياله ، من هنا فان أية نظرية تقوم على هذا الاساس غير الصحيح تكون عارية عن أية قيمة ، واعتبار.

نَغْمَة شاذة :

ولقد طلع مؤسس الفرقة الشيخية ^(١) « الشيخ احمد الاحسائي » في « الرسالة القطيفية » بنغمة شاذة في هذا الصعيد حيث أراد بابداء طرحه جديدة أن يرضي كلا الطرفين (القائلين بروحانية المعراج النبوي والقائلين بجسمانيته) حيث قال : ان النبي ﷺ عرج ببدنه البرزخي (الهور قليائي) ^(٢) ثم استدل لذلك بقوله :

ان الصاعد كلما صعد ألقى في كل رتبة من المراتب المذكورة ما فيها ، فمثلا إذا تجاوز كرة الهواء ألقى ما فيه من الهواء ، وإذا تجاوز كرة النار ألقى ما فيها وإذا رجع أخذ ما له من كرة النار ، وإذا وصل إلى كرة الهواء أخذ ما له من الهواء.

ومن هنا فإن النبي ﷺ عندما عرج إلى السماء ألقى في كل كرة واحدا من تلك العناصر الأربعة في كرتة ، وعرج ببدن فاقد لهذه العناصر.

ومثل هذا البدن لا يمكن ان يكون بدنًا عنصرياً ، فليس هو الا البدن البرزخي (الذي أسماه الهور قليائي) لا غير ^(٣).

١ . لا شك أن هذه الفرقة وامثالها من الفرقة المبتدعة هي من صنائع الاستعمار أو هي مما يؤيده لتنفيذ أغراضه ، ومن حسن الحظ أن انتشار الوعي بين أبناء الامة الإسلامية حدّ من نشاط هذه الفرق حتى انما أصبحت على أبواب الاندثار والانقراض نهائياً.

٢ . وهو البدن البرزخي الذي يشبه البدن الذي يفعل به الإنسان الافعال المختلفة في عالم النوم والرؤيا ويقوم بكل نوع من انواع النشاط.

٣ . تقع الرسالة القطيفية ضمن مجموعة تحتوي على ٩٢ رسالة باسم جوامع الكلم التي طبعت عام ١٢٧٣ . ومع هذا التصريح يدعي البعض . للتستر على خطأ الشيخ وزلته هذه . بأن الشيخ يعتقد بأن المعراج كان جسمانيا عنصرياً ، وأنه موافق لرأي المشهور في هذا المجال.

وبهذا . حسب تصوّره . أرضى من نفسه كلا الطرفين المذكورين ، لأنه من جانب اعتقد بالمعاد الجسماني ، وفي نفس الوقت تخلّص من اشكال « حرق الافلاك والتحامها » لأن نفوذ الجسم البرزخي لا يستوجب أي حرق وانفصال في جدار الفلك .

ولكن هذه النظرية . كما هو واضح لكلّ عالم متحرّ للحقيقة ، بعيد عن العصبية . واضحة البطلان كسابقتها (نظرية المعراج الروحاني) ، فمضافاً إلى انها مخالفة للقرآن وظاهر الاحاديث ، لأثّه . كما أسلفنا . لو عرضنا آية المعراج (من سورة الاسراء) على أي عارف باللغة ، مهما كانت وطلبنا منه رأيه في هذا الصدد لقال : ان مراد القائل هو البدن الدنيوي العنصري الذي عبّر عنه القرآن بلفظ العبد ، في قوله تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده » ، وليس الهور قليائي الذي لم يكن يعرفه المجتمع العربيّ ، ولا يعرف أمثاله في ذلك اليوم أساساً ، في حين أنهم كانوا هم المخاطبون في آية المعراج في سورة الاسراء لا غيرهم .

هذا مضافاً إلى أنّ ما دفع بالشّيخ إلى ارتكاب هذا التأويل البارد هو الاسطورة اليونانية المذكورة حول الفلك ، حيث تصوّرها كحقيقة ثابتة من حقائق اللوح المحفوظ ، وقد كذبها وفندها كلُّ فلكيّ العالم اليوم ، وأعلنوا عن سخافتها .

فلا يجوز لنا أن نقلد تلك الفرضية تقليداً أعمى .

وإذا ما رأينا بعض القدماء من المشايخ قال بمثل هذا محسناً الظن بتلك الفرضية الفلكية القديمة وأمثالها امكن إعدارهم ، لعدم قيام ادلة علمية قوية على خلافها آنذاك .

اما اليوم فلا ينبغي لنا ان نتجاهل الحقائق القرآنية لفرضية ثبت بطلانها في الأوساط العلمية .

المعراج وقوانين العلم الحديث :

قد يتصور فريق من الناس أن القوانين الطبيعية والعلمية الحاضرة لا تتلاءم

مع معراج النبي ﷺ وذلك لأنه :

١ . يقول العلم الحديث : إنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلص من جاذبية الأرض ،
وبعبارة أخرى ابطال مفعولها.

فان (الكرة) التي نكذفها إلى الأعلى تعود مرة ثانية إلى الأرض بفعل الجاذبية ومهما
كّررنا قذف الكرة إلى الأعلى فانها تعود وترجع إلى الأرض أيضاً.

فاذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبية الأرض ابطالا كاملا بحيث لا تعود الكرة المقذوفة إلى
الأعلى إلى الأرض ثانية بل تواصل مسيرها إلى الأعلى فإننا نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى
جعل سرعة الكرة باتجاه معاكس للأرض تعادل ٠.٠٠ / ٢٥ ميلا في الساعة.

وعلى هذا فان معنى المعراج هو ان يكون النبي ﷺ قد خرج من محيط جاذبية الأرض
، واصبح في حالة انعدام الوزن.

ولكن ينطرح هنا سؤال وهو : كيف استطاع رسول الله ﷺ ان يطوي بدون وسائل
هذه المسافة بمثل هذه السرعة ، وهل البدن الطبيعي يتحمل مثل هذه السرعة مع عدم توفر
الغطاء الواقي والوسائل اللازمة ، التي تصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة
الفائقة.

٢ . إن الهواء القابل للاستنشاق غير موجود فوق عدد من الكيلومترات بعيدا عن سطح
الأرض ، بمعنى اننا كلما ذهبنا صعوداً إلى الطبقات العليا وابتعدنا عن الأرض أصبح الهواء
أرقّ ، حتّى يغدو غير قابل للاستنشاق ، وربما نصل إذا واصلنا الصعود إلى الأعلى إلى
منطقة يعدم فيها الهواء اللازم للتنفس بالمرّة ، فكيف استطاع رسول الله ﷺ وبعد طي
تلك المسافة الطويلة والبعيدة في أعالي الجو أن يعيش بدون وجود الاوكسجين؟!

٣ . إنّ الاشعة الفضائية ، والاحجار السماوية والشهب الكثيرة المتطيرة إذا اصطدمت
بأي جسم أرضي أبادته ، وأفتته ، ولكنها عندما تصطدم بالغلاف الغازي المحيط بالأرض
تتلاشى وتصبح كالبودر ولا تصل إلى الأرض ، فيكون

الغلاف الغازي في الحقيقة بمثابة درع يقي سُكَّان الأرض من خطر تلك القذائف المهلكة. ومع هذه الحالة كيف تهيأ لرسول الله ﷺ أن يصون نفسه من تلك الاشعة الفضائية ، والاحجار السماوية؟! ،

٤ . إذا قلَّ ضغطُ الهواء على جسم الإنسان فزاد أو نقص اختلت حياته الطبيعية ، فهو يمكنه أن يعيش تحت ضغط معين من الهواء ، لا يوجد في الطبقات العليا من الجو ، فكيف استطاع النبي ﷺ والحال هذه أن يحافظ على حياته في أعالي الفضاء؟! ،

٥ . إنَّ سرعة الحركة التي سار بها النبي ﷺ لا ريب كانت تفوق سرعة الحركة التي يسير بها النور ومع العلم بأنَّ سرعة النور هي ٣٠٠ / ٠٠٠ كيلومتراً في الثانية ، مع العلم أيضاً أنه ثبت في العلم الحديث أنه لا يستطيع أيُّ جسم أن يتحرك بسرعة تفوق سرعة النور ، فكيف استطاع النبي ﷺ ان يسير بسرعة تفوق سرعة النور ، ومع ذلك يرجع إلى الأرض سالم الجسم كامله؟؟!

جوابنا :

وجوابنا هو : أننا إذا أردنا أن نناقش هذه المسألة على ضوء القوانين العلمية الطبيعية لتجاوز عدد الاعتراضات والاشكالات ما ذكرناه آنفاً .
ولكننا نقول في جواب هذا الفريق متساءلين : ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعية .

هل تريدون القول بأن السير في العوالم العليا أمرٌ غير ممكن ، وممتنع ذاتاً وبالتالي أنه أمر محال .

فاننا نقول . حينئذ . في الجواب على ذلك بان الجهود والتحقيقات العلمية التي بذلها علماء الفضاء في الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر . ولحسن الحظ . أمراً ممكناً ، وعادياً ، لأن مع اطلاق أوّ قمر اصطناعي عام (١٩٥٧ م) إلى السماء

والذي اسماء علماء الفضاء بـ « اسپوتنيك » اتضح أنه يمكن إبطال مفعول جاذبية الأرض بواسطة الصاروخ ، كما أن إرسال السفن الفضائية الحاملة لرواد الفضاء من البشر بواسطة الصاروخ أوضح أن ما كان يعدّه البشر مانعا من الصعود إلى الأعلى في الفضاء قد أصبح قابلا لرفعه وإزالته ، والتخلّص منه بيد العلم والتكنولوجيا.

إن البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء مثل مشكلة الشهب والنيازك المتطيرة في الجو ومشكلة الاشعة الفضائية ، ومشكلة إنعدام الغاز اللازم للتنفس و .. و .. وهما علم ارتياد الفضاء في حال توسع مستمرّ وان العلماء أصبحوا الآن يثقون بأنهم سرعان ما يتمكنون من مد بساط الحياة والعيش في إحدى الكرات السماوية والسفر إلى إحدى الكواكب كالقمر والمريخ بسهولة كبرى! (١)

إنّ هذه الأحداث العلمية وهذا التقمّل التكنولوجي في مجال ارتياد الفضاء شاهد قويّ على أنّ هذا العمل أمر ممكن مائة بالمائة ، وليس من الأمور المستحيلة. وإذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو انه لا يمكن القيام بهذه الرحلة من دون أجهزة علميّة وتكنولوجية ، ولم يكن رسول الله ﷺ يملك في تلك الليلة مثل هذه الأجهزة فكيف طوى تلك المسافات وطاف

١ . بعد اطلاق الاقمار والسفن الاصطناعية لأول مرة يوم الأربعاء ابريل عام ١٩٦١ بدأ الضابط الروسي جاجارين (٢٧ سنة) رحلته الفضائية في سفينة فضائية ، وكان أول إنسان أقدم على هذه الرحلة الفضائية ، وابتعدت سفينته ٣٠٢ كيلومتراً عن سطح الأرض ، ودارت دورة واحدة حول الكرة الارضية في ساعة ونصف. وبعد ذلك أقدمت أمريكا والاتحاد السوفيتي على ارسال السفن الفضائية إلى الفضاء في محاولة لغزو القمر حتى حطّت « أبولو » الحاملة لـ ١١ رائداً فضائياً على سطح القمر لأول مرّة ، وكان هذا أول مرة يحط فيها انسان قدمه على ارض القمر.

وقد تكررت تجربة هذا البرنامج الفضائي فيما بعد مرات ومرات وكانت ناجحة على الاغلب. وكل هذه الجهود والنتائج تكشف عن أن هبوط الإنسان على سطح الكرات والكواكب أمر ممكن ، وما يستطيع البشر فعله عن طريق العلم يقدر الله خالق البشر على فعله بارادته النافذة.

على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيلة نقل من هذا القبيل؟!!

فاننا نقول في معرض الاجابة على اعتراضهم هذا بأن جواب هذا الاعتراض يتضح من الابحاث التي سبقت منا حول معاجز الأنبياء وخصوصا بحثنا المفصل حول حادثة عام الفيل وهلاك جيش أبرهة العظيم بالأحجار الصغيرة ، لأنه من المسلم أن ما يستطيع البشر فعله عن طريق الأدوات والآلات العلمية الصناعية يستطيع الأنبياء فعله بعناية الله تعالى ، وإقداره وبدون الأسباب الظاهرية والخارجية.

لقد عرج رسول الإسلام ﷺ إلى السماء بعناية وإقدار الله الذي خلق الوجود كله ، واقام هذا النظام البديع برمته ، فهو الذي أعطى للأرض جاذبيتها ، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهواء ، وأنواع الغازات في الجو ، ومتى أراد أخذها وانتزاعها منها ، أو كبح جماحها ، وردّ عاديتها.

فاذا تحقق معراج النبي الاكرم محمد ﷺ في ظل العناية الالهية فان من المسلم ان جميع النواميس تخضع أمام قدرته القاهرة ، وارادته الغالبة ، وهي طوع إرادته ، والسموات والأرض مطويات بيمينه والجميع في قبضته ورهن اشارته دائماً وأبداً ، وفي كل حين وأوان.

وعلى هذا فماذا يمنع من أن يعمل الله الذي منح للأرض جاذبيتها ، وللأجرام السماوية أشعتها ، على إخراج عبده المصطفى بقدرته المطلقة ومن دون الاسباب الظاهرية ، من مركز الجاذبية الأرضية ، ويصونه من أخطار الاشعة الكونية ، وأن يعمد خالق كل هذا القدر الهائل من الاوكسيجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنبيه في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء ، وهذا هو معنى قولهم : « إنَّ الله مسبب الأسباب ومعطل الأسباب ».

ان أمر المعجزة يختلف ويفترق أساسا عن أمر العلل الطبيعية والقدرة البشرية. ونحن يجب أن لا نقيس قدرة الله المطلقة بقدرتنا المحدودة ، فاذا كنّا لا نقدر

على شيء من دون الأسباب لم يصح أن نقول : ان القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الاسباب الطبيعية أيضا.

إنَّ إحياء الموتى ، وقلب العصا إلى ثعبان ، وإبقاء يونس حياً في بطن الحوت ، في قعر البحار ، مما صدّفته جميع الكتب السماوية ونقلته إلينا لا تقلّ إشكالا ولا تختلف جواباً عن قصة المعراج النبوي

وخلاصة القول : ان جميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخّرة لله تعالى خاضعة لارادته ، مطيعة لأمره وارادته يمكن تعلّقها بكلّ شيء إلا بالأمر المحال ، وأما غير ذلك أي ما يكون ممكناً بالذات مهما كان ، فأنّه قابلٌ لأن يتحقق في ظل ارادة الله ومشيعته سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أن حديثنا هذا موجّه إلى من آمن بالله ، وعرف ربّه بصفاته الخاصة به تعالى ، وبالتالي آمن بالله الأزلي على أنّه القادر على كل شيء.

الهدف من المعراج :

لقد بيّنت الاحاديث . بعد الآيات . الغرض من المعراج واليك طائفة من هذه الاحاديث .
١ . يقول ثابت بن دينار سألت الامام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام عن الله جل جلاله هل يوصّف بمكان فقال : « تعالى الله عن ذلك » .

قلت : فلم اسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء؟

قال : « ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعِه وبدائع خلقه » .

٢ . وقال يونس بن عبد الرحمان قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام لأي علة عرج الله بنبيه إلى السماء ومنها إلى « سدرة المنتهى » ، ومنها إلى « حجب النور » وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟^(١) .

فقال عليهما السلام : « إنّ الله لا يُوصّف بمكان ولا يجري عليه زمان ، ولكنّه

١ . علل الشرائع : ص ٥٥ ، البحار : ج ١٨ ص ٣٤٧ و ٣٤٨ . تفسير البرهان : ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

عزوجل أرادَ ان يُشَرِّفَ به ملائِكَته ، وسكانَ سَمَواتِه ، ويكرِّمَهُم بمشاهدته ، وَيُرِيَه من عجائب عظمته ما يخبر به بَعَدَ هُبُوطِه ، وليس ذلكَ على ما يَقُولُه المشبِّهون سبحان الله تعالى عَمَّا يَصِفُون ^(١) .

أجل يجب أن يكون لرسول الإسلام وخاتم الأنبياء مثل هذا المقام العظيم ومثل هذه المنزلة السامقة ، ليقول للبشرية العائشة في القرن العشرين ، والتي أصبحت تفكر في الهبوط على « المريخ » و « الزهرة » وغيرها من الأنجم البعيدة :
بانني قد فعلت هذا من دون أية وسيلة ، وأنَّ ربي قد مَنَّ عليّ وعرفني على نظام السماوات والأرض ، وأطلَّعني بقدرته وبعنايته على أسرار الوجود ، ورموز الكون.

١ - علل الشرائع : ص ٥٥ . البحار : ج ١٨ ، ص ٣٤٧ و ٣٤٨ . تفسير البرهان : ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

سفرة إلى الطائف

انقضت السنة العاشرة بكل حوادثها الحلوة والمرّة ، فان رسول الله ﷺ فقد في هذا العام حاميه الكبيرين المتفانيين في سبيله ، ففي البداية فقد كبير بني عبد المطلب وسيدهم ، والمدافع الوحيد عن حوزة الرسالة الإسلامية والذاب بالاخلاص عن حياض الشريعة المحمدية ، والشخصية الاولى في قريش اعني «أبا طالب» عليّاً .

ولم تمنح آثار هذه المصيبة المرّ عن خاطر النبي ﷺ بعد إلا وفاجأته مصيبة وفاة زوجته الوفية العزيزة ، السيدة خديجة الكبرى التي جددت برحيلها عنه أحزان النبي وآلامه الروحية (١) .

لقد حامى أبو طالب ودافع عن النبي ﷺ وحافظ على حياته وسلامته ومكانته ، وبينما ساعدت خديجة بثروتها الطائلة في نشر الإسلام وقدمت في هذا السبيل خدمات عظيمة لا تنسى .

من هنا سمى رسول الله ﷺ تلك السنة بعام الحداد ، أو

١ . جاء في تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٠١ انه قيل بأن « خديجة » توفيت بعد «أبي طالب» بشهر وخمسة أيام ، بينما ذهب آخرون مثل ابن الأثير في الكامل ج ٢ ، ص ٦٣ إلى أن السيدة خديجة توفيت قبل أبي طالب ، لا بعده .

الحزن (١) .

ومنذ أن توفي الله الحاميين العظميين والمدافعين القويين عن النبي ﷺ واجه رسول الله ﷺ ظروفًا صعبة جدًا قلما واجهها من قبل.

فقد واجه رسول الله ﷺ منذ حلول السنة الحادية عشر جوفًا مفعماً بالعداء له ، والحقد عليه ، وصارت الاخطار تهدد حياته الشريفة في كل لحظة ، وقد فقد كل الفرص لتبليغ الرسالة وكل امكانيات الدعوة إلى دينه.

يقول ابن هشام في هذا الصدد : ان « خديجة بنت خويلد » و « أبا طالب » هلكا (اي توفيا) في عام واحد فتتبع علي رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة وكانت له وزيرة صدق على الإسلام ... وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً ، وحرزاً في أمره ، ومنعاً وناصرًا على قومه وذلك قبل هجرته الى المدينة بثلاث سنين ، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا.

ولما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها :

« لا تبكي يا بُنَيَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ مانعُ أباك ».

ويقول بين ذلك :

« ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » (٢) .

ولأجل تزايد الضغط والكبت هذا قرر النبي ﷺ أن ينتقل

١ . تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٠١ ، السيرة الحلبية : ج ١ ، ص ٣٤٧ .
٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤١٥ و ٤١٦ ، بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٥ عن إعلام الوري عن محمد بن اسحاق بن يسار .

من المحيط المكي إلى محيط آخر يتسنى له تبليغ رسالته.

وحيث أنّ الطائف كانت تعتبر آنذاك مركزاً هاماً ، لذلك رأى رسول الله ﷺ ان يسافر لوحده إلى الطائف ، ويجري بعض الاتصالات مع زعماء قبيلة ثقيف وساداتها ويعرض دينه عليهم علّه يحرز نجاحا ويكسب انصارا جددا لرسالته من هذا الطريق.

ولما انتهى ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من قبيلة « ثقيف » هم يومئذ سادة ثقيف واشرافهم ، وجلس ﷺ إليهم ، ودعاهم إلى الله ، فلم يؤثر فيهم كلام رسول الله ﷺ وقالوا له : لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي ان اكلمك!!

فعرف رسول الله ﷺ من ردّهم الصيبي أنهم يحاولون التملّص من قبول الدعوة واعتناق الإسلام ، فقام ﷺ من عندهم بعد ان طلب منهم أن يكتموا ما جرى في هذا اللقاء خشية أن يعرف سفهاء ثقيف فيتجرأوا عليه ويتخذوا ذلك ذريعة لاستغلال غيبته ووحدته ، ومن ثم إيدائه ، فوعدهم بالكنمان ، ولكنهم . وللاسف . لم يحترموا وعدهم هذا البذي أعطوه لرسول الله ﷺ وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، وفجأة وجد رسول الله ﷺ نفسه محاطاً بجمع كبير من اولئك السفهاء يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع الناس ، وأجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه في تلك الساعة ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل فجلس فيه وهو يتصبب عرقاً ، وقد الحقوا الاذى بمواضع عديدة من بدنه الشريف ورجلاه تسيلان من الدماء ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف ، وقد كانا من اثرياء قريش ، يومئذ.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ توجه إلى ربه وناجاه قائلاً :

« أَللّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكَلَّمِي ، إِلَى

بعيد يَنْجَهُمُنِي أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكَتَهُ أَمْرِي؟
 إِنَّ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِ ، عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي .
 أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي اشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلِّحْ عَلَيهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ
 يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَجِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ .
 لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » ^(١) .

هذه الكلمات وهذا الدعاء هي استغاثة شخصية عاش خمسين سنة عزيزا مكرما في ظل
 حماية من دافعوا عنه بصدق وإخلاص ودفعوا عنه كل اذى ولكنه الآن يضيق عليه رحب
 الحياة حتى يلجأ إلى حائط عدو من اعدائه ، ويجلس في ظل شجرة ، مكروبا موجعا ينتظر
 مصيره .

فلما رآه ابنا ربيعة « عتبة وشيبة » وكانا من الوثنيين ومن أعداء الإسلام وشاهدوا مالقي
 من الأذى والعذاب ، رَقَا لَهُ فَدَعُوا غَلَامًا لهُمَا نَصْرَانِيًّا مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى يُقَالُ لَهُ « عَدَّاسُ »
 فَقَالَا لَهُ : خَذْ قِطْفًا مِنَ الْعَنْبِ فَضَبِّعْ فِي هَذَا الطَّبَقِ ثُمَّ اذْهَبْ بِهِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ
 يَأْكُلُ مِنْهُ ، فَفَعَلَ عَدَّاسُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِالْعَنْبِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ
 لَهُ : كُلْ ، فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ يَدَهُ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .
 فَتَعَجَّبَ عَدَّاسُ مِنْ ذَلِكَ بِشِدَّةٍ وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ أَيْ الْبِلَادِ أَنْتَ وَمَا دِينُكَ؟
 قَالَ : أَنَا نَصْرَانِي ، مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى .

قَالَ ﷺ : مِنْ مَدِينَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى .

فَقَالَ لَهُ عَدَّاسُ : وَمَا يَدْرِيكَ مَا (مِنْ) يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟

فَقَالَ ﷺ ^(٢) : ذَاكَ أُخِي كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ،

١ - السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٢٠ .

٢ - وفي رواية البحار : ج ١٩ ، ص ٦ جملة اعتراضية هنا : . وكان لا يحقر أحدا أن يبلغه رسالة ربه ..

والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى.

فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ وقد رأى في كلماته علائم الصدق وآيات الحق ، وجعل يقبّل رأسه ويديه ، وقدميه ، وهما تسيلان من الدماء وآمن به ، ثم عاد بعد الاستئذان منه ﷺ إلى صاحبيه في البستان.

فتعجب ابنا ربيعة لما رأياه في غلامهما عداس من الانقلاب الروحي العجيب ، وسألاه قائلين : ويلك يا عداس ما لك قبّلت رأس هذا الرجل ، ويديه وقدميه وماذا قال لك؟! فجاهبهما الغلام قائلاً : يا سيديّ ما في الارض شيء خير من هذا ، هذا رجلٌ صالح لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيّ.

فشقّ كلام عداس على إبن ربيعة ، وقال له بنبرة الناصح له : ويحك يا عداس ، لا يصرفتك هذا الرجل عن دينك فان دينك خير من دينه!!^(١)

النبي ﷺ يعود إلى مكة :

انتهت ملاحقة رسول الله ﷺ بلجونه إلى حائط ابني ربيعة ، وكان عليه الآن ، وبعد أن يئس من خير ثقيف ان يعود إلى مكة ، ولكنّ عودته إلى مكة لم تكن لتخلو عن مشاكل ، لأنه قد فقد نصيره وحاميه ومدافعه الاكبر والا وحده فكان من المحتمل جداً أن يقبض عليه المشركون ويسفكوا دمه.

فقرر ﷺ ان يبقى في منطقة « نخلة » (وهي واد بين الطائف ومكة) بعض الوقت . لقد كان يريد أن يرسل أحدا إلى شخصية من شخصيات قريش يطلب منها ان تحيره حتى يدخل مكة بجوار ، ولكنه ﷺ لم يجد من يقوم له بهذه المهمة. فترك « نخلة » إلى حراء ، وهناك التقى رجلا خزاعياً وطلب منه أن

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤١٩ . ٤٢١ ، بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٦ و ٧ و ٢٢ مع اختلاف يسير .

يأتي « المطعم بن عدي » بمكة ، وكان من الشخصيات المكية البارزة ويسأله أن يجير رسول الله ليدخل مكة في أمان من اذى قريش وكيدها .

فدخل الخزاعي مكة ، وأبلغ المطعم ما طلبه منه رسول الله ﷺ فقبل المطعم . رغم كونه وثنيا مشركا . ان يجير رسول الله ﷺ فقال للخزاعي : ائتمه فقل له : إني قد أجزتك فتعال .

فدخل رسول الله ﷺ مكة ليلا ونزل في بيت مطعم مباشرة ، وبات ليلته هناك ، ولما طلعت الشمس من صبيحة غد قال مطعم لرسول الله ﷺ : لتعلمن قريش بانك في جوارنا ، فاصحبنا إلى البيت ، ليروا جوارنا .

فاستحسن النبي ﷺ رأيه فاخذ المطعم وأهل بيته السلاح ودخلوا مع النبي ﷺ في المسجد الحرام ، وكان ورودهم في المسجد بهيئة رائعة .

وكان أبو سفيان قد كمن للنبي ﷺ ليكيد به ، فلما رأى هذا المشهد المهيب غضب غضباً شديداً ، وانصرف عن ايداء رسول الله ﷺ ، فجلس المطعم وولده واختانه واخوه ، وطاف رسول الله ﷺ بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله .^(١)

ولم يمض على هذه الحادثة زمان طويل حتى هاجر رسول الله ﷺ عليه

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٣٨١ . بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٧ و ٨ . ويستبعد بعض المحققين ان يكون رسول الله ﷺ قد طلب الجوار من مشرك أو دخل في حوار مشرك ، على غرار عدم قبوله الهدية من المشرك وذكر لذلك ادلة ووجوها .

ولكن يمكن الاجابة على هذا بأن الاجارة كانت امرأ عادياً في ذلك العصر ، ولم يكن فيها ما يوجب شيناً على رسول الله ﷺ ولم تستلزم منه عليه .

ثم ما المانع في مثل هذا الجوار لو ترتبت عليه مصالح عليا ، كتتمكين رسول الله ﷺ من الدخول بسلام إلى مكة ، وتمكّنه من القيام بمهامه الرسالية ، خاصة ان هذا الجوار لم يستغرق إلا يوماً أو بعض يوم وتسقّى بعده لرسول الله ﷺ ترتيب اوضاعه في مواجهة الاخطار التي كانت تتهدده من جانب المشركين بمكة .

وآله من مكة إلى المدينة ، وتوفي المطعم في أوائل الهجرة في مكة ، ولما بلغ رسول الله نبأ موته تذكّر ﷺ إحسانه وجواره ، وانشأ حسان بن ثابت شاعر الإسلام شعراً يمدح فيه تقديراً لخدمته .

وكان رسول الله ﷺ يتذكره كثيراً ، حتى انه تذكره في واقعة « بدر » التي انهزمت فيها قريش وعادت منكسرة إلى مكة بعد أن خسرت كثيراً من رجالها واسر منها عدد كبير ، فتذكر مطعم بن عدي ثمة وقال ﷺ :

« لو كان مطعم بن عدي حيا لو هبت له هواء »^(١) .

نقطة هامة :

إنَّ سفر النبي ﷺ إلى الطائف يكشف عن اصراره في اداء رسالته واستقامته وصبره ﷺ كما ان تذكُّره لإحسان مطعم في المواقع المناسبة يقودنا إلى خصاله الحميدة وسجاياه . الفاضلة ، وخلقه العظيم .

ولكن الاهمَّ من هذا وذاك هو أننا نستطيع من خلال هذا تقييم خدمات أبي طالب القيمة ، ومعرفة اهميتها الكبرى عند رسول الله ﷺ ، بمقايستها مع ما فعله مطعم . فان مطعم لم يفعل شيئاً إلا أن اجار رسول الله ﷺ وحماه يوماً أو بعض يوم . بينما حذب أبو طالب على رسول الله ﷺ ودافع عنه وخدمه عمراً كاملاً ، ولقى في سبيله من المحن والمتاعب ما لم يلق مطعم منها ولا شيئاً ضئيلاً .

فإذا كان رسول الله ﷺ يعلن عن استعدادده للافراج عن جميع الاسرى في « بدر » تقديراً لما قام به مطعم من اجارة بسيطة قصيرة ، فماذا

١ . المغازي للواقدي : ج ١ ، ص ١١٠ ثم قال الواقدي : وكانت لمطعم بن عدي عند النبي ﷺ اجارة حين رجع من الطائف ، طبقات ابن سعد : ج ١ ، ص ٢١٠ و ٢١٢ ، البداية والنهاية : ج ٣ ، ص ١٣٧ .

عساه أن يقوم به تجاه ما اسداه إليه عمُّه وحاميه وكافله الاكبر والأوحد أبو طالب من خدمات طوال أكثر من اربعين عاماً أنه يجب ان يكون مثل هذا الشخص العظيم الذي كفل صاحب الرسالة وقام بشؤونه منهُ أربعين عاماً بايامها وليالها ودافع عنه في السنوات العشر الاخيرة وهي جلُّ عمر الرسالة الإسلامية في الفترة المكية إلى درجة ان عرَّض راحته وسلامته بل حياته وحياته أبنائه لخطر الموت دفاعاً عن حياض الرسالة ، وحميةً لصرح النبوة ، مقاماً عظيماً ومنزلة كبرى عند قائد البشرية ، ومعلم الإنسانية ، وهاديها العظيم .

كيف لا ؛ والفرق بين هذين الشخصين كبير ، والبون شاسع ، فمطعم رجل وثني مشركٌ ، بينما يعتبر أبو طالب واحداً من كبار الشخصيات الإسلامية العظيمة بلا جدال .

الدعوة في أسواق العرب :

كانت العرب تجتمع . في مواسم الحج . في نقاط مختلفة مثل : « عكاظ » و « الجحنة » و « ذي الحجاز » ، وكان الشعراء والخطباء العرب البارغون يقفون في هذه المناطق على أماكن مرتفعة ويلهون فريقاً من الناس بما يلقونه عليهم من خطب وقصائد تدور في الأغلب حول الحرب والقتال ، والتفاخر ، والعشق .

وكان رسول الله ﷺ شأن كل الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه يستغل هذه الفرصة . كغيرها . لا بلاغ رسالة ربه إلى الناس ، ولم يكن لاحد منعه أوالكيد به لحرمة القتال والجدال في الاشهر الحرم .

من هنا كان ﷺ إذا حل الموسم وقف على مكان مرتفع وحاطب الناس قائلاً :

« قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ وَتَنْذِلُ لَكُمْ لَعْنَهُمْ ، وَإِذَا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكاً فِي الْجَنَّةِ »^(١) .

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢١٦ .

دعوة رؤساء القبائل في مواسم الحج :

وكان رسول الله ﷺ يلتقي في مواسم الحج في هذه النقاط برؤساء القبائل العربية واشرافها ، ويقف على منازلهم منزلا منزلا ، ويعرض دينه عليهم ، ويدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل^(١) .

وربما مشى خلفه عمه « أبو لهب » فاذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا به قال أبو لهب فورا للناس : يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه . وقد قدمت جماعة من بني عامر إلى مكة فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وعرض عليهم نفسه ، فقبلوا أن يعتنقوا الإسلام إلا أنهم اشترطوا عليه أن يكون إليهم خلافته من بعده إذ قالوا : رأيت إن نحن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

فقال رسول الله ﷺ : « الأمر إلى الله يَضَعُه حيث يشاء » .

فرفضوا اعتناق الإسلام والإيمان بالله ورسوله .

ثم لما عادوا إلى أوطانهم رَجَعُوا إلى شيخ لهم طاعن في السن لم يقدر أن يحج معهم وكان ذا بصيرة وفهم فحدثوه بما جرى بينهم وبين رسول الله ﷺ وقالوا : جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه^(٢) ونقوم معه .

فوضع الشيخ يديه على رأسه ووجههم على رفضهم لدعوة الرسول وقال :

١ . قال ابن هشام : كان ﷺ لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدق له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده .

٢ . أي نحميه .

يا بني عامر والذي نفس فلان بيده ما تَقَوَّهَا اسماعيلي قط (١) ، وإِنَّمَا حَقُّ ، فاين رأيكم كان عنكم؟! (٢)

ان هذه القضية التاريخية تفيد . في ما تفيد . بان مسألة الخلافة والامامة بعد رسول الله ﷺ أمر تنصيبي ، تعييني ، لا انتخابي ، أي ان تعيين الخليفة بعد رسول الله ﷺ يعود إلى الله ، ولا خيار للناس فيه ، وانما عليهم الطاعة والرضا.

١ . أي ما ادعى النبوة كاذبا احد من بني اسماعيل.

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٢٤ و ٤٢٥ .

بيعة العقبة

كان (وادي القرى) في ما مضى من الزمن طريق التجارة من اليمن إلى الشام ، فكانت القوافل التجارية القادمة من اليمن تدخل واديا طويلا يدعى بوادي القرى بعد العبور بالقرب من مكة ، وكانت المناطق الواقعة على طول هذا الوادي مناطق خضراء ، ومن هذه المناطق مدينة قديمة كانت تدعى ب : يثرب والتي عرفت فيما بعد بمدينة الرسول .

وقد سكن في هذه المدينة منذ اوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتا : « الاوس والخزرج » اللتان كانتا من مهاجري عرب اليمن (من القحطانيين) .

وكان يعيش الى جانبهم الطوائف اليهودية الثلاث المعروفة : « بنو قريظة » و « بنو النضير » و « بنو قينقاع » الذين كانوا قد هاجروا اليها من شمال شبه الجزيرة العربية واستوطنوها .

وكان يقدم إلى مكة كل عام جماعة من عرب يثرب للاشتراك في مراسيم الحج ، وكان النبي ﷺ يلتقي بهم في تلك المواسم ، ويجري معهم اتصالات .

وقد مهدت بعض هذه اللقاءات للهجرة ، وصارت سبباً لتمرکز قوى الإسلام المتفرقة ، في تلك النقطة .

على ان كثيراً من تلك الاتصالات وان لم تثمر ولم تنطو على أية فائدة فعلية إلا أنها تسببت في أن يحمل حجاج يثرب . لدى عودتهم . انباء ظهور النبيّ الجديد وينشروه في اوساط المدينة كأهم نبأ من انباء الساعة ، وبلغوا نظر الناس في تلك الديار إلى مثل هذا الامر المهم والخطير .

ولهذا نقلنا هنا بعض اللقاءات والاتصالات التي تمت بين رسول الله ﷺ وجماعات من اهل هذه المدينة في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة من البعثة للتضح بدراسة هذه المطالب علة هجرة النبي الاكرم ﷺ من مكة إلى يثرب ، وتمركز قوى المسلمين في تلك المنطقة.

١ . كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلما سمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف تصدى له ، ودعاه إلى الإسلام وعرض عليه ما عنده . وقد قدم مرة « سويد بن الصامت » فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له رسول الله ﷺ : وما الذي معك . قال : مجلة لقمان يعني حكمة لقمان .

فقال رسول الله ﷺ إعرضها عليّ فعرضها عليه . فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا . قرآن انزله الله علي هو هدى ونور . ثم تلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام فقال سويد إن هذا قول حسن وآمن برسول الله ﷺ فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج فيما كان يتلفظ الشهادتين وكان قتله قبل يوم بعث (١) (٢) .

١ . بعث موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٢٥ . ٤٢٧ .

٢ . قدم « انس بن رافع » مكة ومعه فتية من بني عبد الاشهل فيهم « ياس بن معاذ » أيضاً ، يلتمسون الحلف والنصرة على قومهم من الخزرج ، فسمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم وجلس اليهم وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له : وما ذاك؟

قال : « أنا رسول الله بعثني إلى العباد أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وانزل علي الكتاب » ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

فقال ياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً شهماً : أي قوم هذا والله خير مما جئتم له .
فقد أدرك جيداً أن دين التوحيد يكفل كل حاجاتهم فهو دين شامل مبارك لأنه سيصهر الجميع في بوتقة الأحرار الواحدة فتزول عندئذ أسباب العداة والقتال ، وبذلك ينهي كل مظاهر الحرب والتنازع ، وكل مظاهر الفساد والتخريب فهو افضل من طلب المساعدة العسكرية من قريش التي جاؤوا من أجلها إلى مكة ، فأمن برسول الله ﷺ من دون ان يكسب رضا رئيس قبيلته « انس بن رافع » واستثذانه ، ولهذا غضب أنس وأخذ حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك فعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعثت بين الأوس والخزرج ولم يلبث إياس ان هلك ، وقد سمعه قومٌ حضروا عند وفاته يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً ، ولقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع^(١) .

وقعة بُعثت :

كانت وقعة بُعثت من الحروب التاريخية بين الأوس والخزرج ، ففي هذه

١ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٢٧ و ٤٢٨ .

الوقعة انتصر الأوسيون على منافسيهم ، وأحرقوا نخيل الخزرجيين ، ثم وقعت بعد ذلك حروب ومصالحات بينهم.

ولم يشترك « عبد الله بن أبي » وهو من أشرف الخزرج في هذه الوقعة من هنا كان موضع احترام من القبيلتين ، وكاد الطرفان يفقدان مقاومتهما بسبب تكرار الحروب ، وتحمل الخسائر الثقيلة ، ولهذا رغب الطرفان في عقد صلح بينهما يضع حداً لجميع أشكال العمليات العسكرية ، والغزو والاقتتال ، والثأر والانتقام ، واصرت القبيلتان على « عبد الله بن أبي » بان يقبل بقيادة عملية المصالحة هذه ، بل وأعدوا له تاجاً يتوجونه به ، حتى يصبح أميراً في وقت معيّن ، ولكن هذا المشروع تعرض للاهتزاز والسقوط وواجه الفشل على أثر اعتناق جماعة من الخزرج الإسلام ، ففي هذا الوقت بالذات التقى رسول الله بمكة بستة اشخاص من رجال الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فأمنوا به ، ولّبوا دعوته.

تفصيل الحادث :

خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه نفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الانصار وكانوا ستة انفار من الخزرج فقال لهم : أمن موالي اليهود؟ وهل لكم حلف معهم. قالوا : نعم.

قال : أفلا تجلسون أكلكم؟

قالوا : بلى.

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض ﷺ وتلا عليهم القرآن ، فحدثت كلمات النبي ﷺ في نفوسهم أثراً عجيباً ، ومما ساعد على ذلك أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكان اليهود قد غزوهم في بلادهم ،

فكانوا إذا وقع بينهم نزاع وكان بينهم شيء قال اليهود لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد اظلم (أو أطل) زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عد وإرم ، فكانت اليهود تحجر بخروج نبي من العرب ينشر التوحيد ، وتنتهي على يديه حكومة الوثنية والشرك ، وقد قرب ظهوره .

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض يا قوم : تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه .

فاجابوه فيما دعاهم إليه بان صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجنبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا اعز منك (١) .

بيعة العقبة الأولى :

لقد أثرت دعوة هؤلاء السنة ، الجادة في يثرب تأثيراً حسناً حيث سببت في إسلام فريق من اهل يثرب واعتناقهم عقيدة التوحيد .

فلما كان العام المقبل (أي السنة الثانية عشرة من البعثة) قدم مكة اثنا عشر رجلاً من اهل يثرب ، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة ، وانعقدت هناك أول بيعة اسلامية .

وابرز هؤلاء الرجال هم : أسعد بن زرارة ، وعبادة بن الصامت ، وكان نص هذه البيعة . بعد الاعتراف . بالاسلام والايمان بالله ورسوله هو :

بايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف .

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٨٦ ، والسيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٢٧ و ٤٢٨ ، بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص

فقال لهم رسول الله ﷺ : إن وفيتم فلكنم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فامرکم إلى الله عزوجل إن شاء عذب ، وإن شاء غفر .

وهذه البيعة اصطلاح على تسميتها المؤرخون وكتّاب السيرة ببيعة النساء ، لأن النبي ﷺ اخذ البيعة من النساء في فتح مكة على هذا النحو ^(١) .

وعاد هؤلاء النفر إلى يشرب بقلوب مفعمة بالايمان ، مترعة بمحبة رسول الله ﷺ فعمدوا إلى نشرالإسلام وكتبوا إلى رسول الله ﷺ أن يبعث لهم من يعلمهم الإسلام والقرآن ، فبعث النبي ﷺ لهم « مصعب بن عمير » وأمره بان يقرأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقّهم في الدين ، فكان يسمى المقرئ بالمدينة .
واستطاع هذا المبلّغ القدير ، وهذا الداعية النشيط ان يجمع المسلمين بفضله عمله الدؤوب والحكيم وتبليغه الصحيح في غياب رسول الله ﷺ ، ويؤمّمهم ، ويصلي بهم ^(٢) .

بيعة العقبة الثانية :

لقد أحدث تقدم الإسلام في يشرب هيجانا كبيرا وشوقا عجيبا في نفوس المسلمين من أهلها ، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسم الحجّ ، ليقدّموا مكة ، ويلتقوا برسول الله ﷺ عن كتب ، ويظهروا له عن استعدادهم لتقدّم ما يطلب منهم من خدمة وعمل ، وليستطيعوا توسيع نطاق البيعة من حيث الكّم ومن حيث الكيف .
وأخيرا حل موسم الحج فخرجت قافلة كبيرة من أهل يشرب للحج تضم خمسمائة نفرا فيهم ثلاث وسبعون من المسلمين من بينهم امرأتان ، والباقي إما راغبون في الإسلام ، واما غير مكترث به ، حتّى قدموا مكة ، والتقوا برسول الله

١ . والتي جاء ذكرها في الآية ١٢ من سورة الممتحنة .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٣٤ ، بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٢٥ .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَاعَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعَقْبَةِ لِلْبَيْعَةِ إِذْ قَالَ : « مَوْعِدُكُمْ الْعَقْبَةُ فِي اللَّيْلَةِ الْوَسْطَى مِنْ لَيَالِي التَّشْرِيقِ » .

فلما كانت الليلة الثالثة عشرة من شهر ذي الحجة وهي التي واعدهم رسول الله ﷺ فيها باللقاء ، ونام الناس حضر رسول الله ﷺ مع عمه « العباس بن عبد المطلب » قبل الجميع ، وخرج المسلمون من رحالهم يتسللون تسلل القطا مستخفين بعد أن ناموا مع قومهم في رحالهم ، ومضى ثلث الليل لكيلا يحسوا بخروجهم ، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة ، ولما استقرّ المجلس بالجميع ، كان أول متكلم هو : العباس بن عبد المطلب فقال واصفا منزلة رسول الله ﷺ : يا معشر الخزرج . وكانت العرب تسمي هذا الحي من الانصار الخزرج خزرجها وأوسها . إِنَّ مُحَمَّدًا مِّنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعَاهُ مِنْ قَوْمِنَا ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَنَعَةٌ فِي بَلَدِهِ ، وَإِنَّهُ قَدْ ابَى إِلَّا الْإِنْخِيَازَ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّحُوقَ بِكُمْ ، فَاِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ ، وَمَانَعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحْمِلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَمِنْ الْآنَ فَدَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ .

فقال الحضور : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم .

فقام البراء بن معرور وأخذ بيد النبي ﷺ وقال : نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما تمنع منه إرنا^(١) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله

١ . الملاحظ في هذه البيعة انها كانت بيعة للدفاع عن النبي ﷺ وليس بيعة للجهاد في سبيل الله ، ولهذا فان رسول الله ﷺ لم يقدم على القتال في بدر إلا بعد ان كسب موافقة الانصار ورضاهم .

ابناء الحروب واهل الحلقة (اي السلاح) ورثاها كابرا عن كابر .

فدب في الحضور حماس وسرور عظيم وتعالَت الاصوات والنداءات من الخزرجين والتي كانت تعبيراً عن شدة حماسهم ، وسرورهم لهذا الأمر ، فقال العباس وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ .

وفي هذه الاثناء نهض « البراء بن معرور » و « ابو الهيثم بن التيهان » و « أسعد بن زرارة » من مواضعهم وبايعوا رسول الله ﷺ ثم بايعه بقية القوم جميعا .

وقد قال ابن التيهان عند مبايعته للنبي ﷺ يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (اي اليهود) حبالا (وعلاقات) وأنا قاطعوها ، فهل عسييت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله ﷺ قال : « بل الدّم الدّم ، والهَدَم الهَدَم احارب من حاربتهم واسالم من سالمتم » يعني أنه سيبقى على العهد ، ولا يتركهم وكانت العرب تقول عند عقد الحلف : دمي دُمك ، وهدمي هَدُمك ، وهي كناية عن البقاء على العهد واحترام الميثاق والحلف .

ثم ان رسول الله ﷺ قال : اخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم ^(١) .

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا فقال ﷺ لاولئك النقباء : انتم على قومكم بما فيهم كُفلاء ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي (يعني المسلمين) فأبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .»

فقالوا : نعم وبايعوه على ذلك .

وكان النقباء الذين اختيروا لذلك تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وقد ضُبِطَتْ أسماءهم وخصوصياتهم في التاريخ .

١ . المحبر : ص ٢٦٨ - ٢٧٤ .

وبعد أن تمّت مراسم البيعة وعدهم رسول الله ﷺ بأن يهاجر إليهم في الوقت المناسب ، ثم ارفض الجمع وعاد القوم إلى رحالهم^(١).

أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة :

والآن ينبغي أن نجيب بالتفصيل على السؤال الذي يطرح نفسه هنا وهو : ما الذي دعى أهل يثرب الذين كانوا يعيدين عن مركز ظهور الإسلام إلى أن يستجيبوا لنداء الرسول ﷺ ويأخذوا بتعاليمه اسرع من المكيين مع ما كان بين المكيين وبين رسول الله ﷺ من القرابة القريبة؟! من القرابة القريبة؟!!

وكيف تركت تلك اللقاءات المعدودة القصيرة بأهل يثرب آثاراً تفوق الآثار التي تركتها الدعوة المحمدية خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة؟!!

إن علة هذا التقدم يمكن اختصارها وحصرها في أمرين :

أولاً : أن اليهود جاؤوا اليهود سنينا عديدة وطويلة قبل الإسلام وكثيراً ما كانوا يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم عن النبي العربي الذي يظهر ، ويأتي بدين جديد.

حتى أن اليهود كانوا يقولون : للوثنيين إن هذا النبي سيقم دين اليهود وينشره ، ويمحي الوثنية ويقضي عليها بالمرّة.

فتركت هذه الكلمات أثراً عجبياً في نفوس أهل يثرب ، وهبّت قلوبهم لقبول الدين الذي كان يخبر عنه يهودٌ ينتظرونه ، بحيث عند ما التقى الانفار الستة من أهل المدينة إلى الإيمان برسول الله ﷺ لأول مرّة ، بادروا إلى

١ . بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٢٥ و ٢٦ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٤١ . ٤٥٠ ، الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢٢١ . ٢٢٣ .

وفي رواية أخرى في البحار : ج ١٩ ، ص ٤٧ ، كما اخذ موسى من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً وقد كان هذا العمل النبوي حكيماً جداً لأن عامة الناس لا يمكن التعويل والاتكال على التزامهم بل لابد من الاعتماد . ضمنا . على رموز المجتمع ومفاتيحه وهم وجوده القوم وسراهم .

الايان به من غير إبطال ولا تأخير بعد أن قال بعضهم لبعض : واللّه إنّه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه .

ومن هنا فان مما يأخذه القرآن على اليهود هو : أنكم كنتم تهددون الوثنيين بالنبي العربي ، وتبشرون الناس بانه سيظهر ، وانهم قرأوا أوصافه وعلائمه في التوراة فلماذا رفضوا الإيمان به لما جاء ﷺ .

يقول تعالى : « **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** » .^(١)

ثانيا : إن العامل الأخير الذي يمكن اعتباره دخيلا في التأثير في نفوس اليبانيين وسرعة إقبالهم على الإسلام وتقبلهم لدعوة النبي ﷺ هو التعب والارهاق الذي كان اهل يثرب قد أصيبوا به من جرء الحروب الطويلة الدامية فيما بينهم والتي استمرّ مائة وعشرين عاما والتي انهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقى من رمقهم ، وجعلتهم يملون الحياة ، ويفقدون كلّ أمل في تحسّن الأحوال والاضاع .

وإن مطالعة وقعة « بُعاث » وهي . حرب وقعت بين الأوس والخزرج . وحدها كفيلا بأن تجسد لنا الوجه الواقعي الذي كان عليه سكان تلك الديار .

ففي هذه الوقعة انهزم الاوسيون على يد الخزرجيين ، فهربوا إلى « نجد » ، فعيرهم الخزرجيون بذلك ، فعُضب « الحضير » سيد الأوس ، لذلك غضباً شديداً ، فطعن فحذه برمح لشدّة انزعاجه وغضبه ، وترجّل عن فرسه وصاح بقومه قائلا : واللّه لا أقوم من مكاني هذا حتى أقتل!! فأوقد صمود « الحضير » وثباته نار الحمية والغيرة واشعل روح الشهامة والبسالة في قومه ، فقرروا الدفاع عن حقهم مهما كلفهم الامر ، فقاتلوا أعداءهم مستميتين ، والمستميت منتصر لا محالة ، فانتصر

١ . البقرة : ٨٩ .

الأوسويون المغلوبون ، هذه المرة ، وهزموا الخزرج هزيمة نكراء واحرقت مزارعهم ونزل بهم ما نزل على يد الاوسيين!!^(١) .

ثم تتابعت الحروب والمصالحات بعد ذلك ، وكانت القبيلتان تتحاملان في كل مرة خسائر كبرى ، جعلتهم يواجهون عشرات المشاكل التي حوّلت حياتهم إلى حياة مضيئة متعبة جداً. من هنا لم تكن كلتا القبيلتين راضيتين على أوضاعهما ، وكانتا تبحثان عن مخلص مما هما فيه ، من الحالة السيئة ، وتفتشان عن نافذة أمل ، ومخرج من تلك المشاكل. ولهذا وجد الخزرجيون الستة ضالّتهم المنشودة عندما التقوا . ولأول مرّة . رسول الله ﷺ وسمعوا منه ما سمعوا ، فتمنّوا أن يضعوا به حداً لأوضاعهم المتردية إذ قالوا له : عسى أن يجمعهم الله بك فان جمعهم الله بك فلا رجل أعز منك. كانت هذه هي بعض الأسباب التي دعت اليثريين إلى تقبّل الإسلام بشوق ورغبة وحماس.

ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة :

كانت قريش تغطّ في نوم عميق وكانت تتصور بانها قد حدّت من تقدم الإسلام في مكة وانه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والاندحار ، وأنه لن ينقضي زمانٌ إلاّ وتنطفئ جذوة الإسلام وتُخمد شعلته ، وتنمحي آثاره. وفجأة استيقظت على دوي بيعة العقبة الثانية التي كانت بمثابة انفجار قلبت كل المعادلات ، وأسقطت كل تصورات قريش الساذجة ، وذلك عند ما عرف زعماء الوثنيين بأن ثلاثاً وسبعين شخصاً من اليثريين عقدوا ليلة أمس وتحت جنح الظلام بيعة مع رسول الله ﷺ على أن يدافعوا عنه كما

١ . الكامل في التاريخ : ج ١ ، ص ٤١٧ و ٤١٨ .

يدافعون عن أبنائهم وأهليهم.

فأحدث هذا النبأ خوفاً عجبياً في قلوب قادة قريش وسادة مكة المشركين المتغطرسين ،
لأنهم اخذوا يقولون مع أنفسهم : لقد وجد المسلمون الآن قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية
، وانه يُخشى أن يجمع المسلمون كل طاقاتهم المبعثرة فيها. ويعملون معاً على نشر دينهم ،
ويث عقيدتهم ، وحينئذ ، وحينئذ ستواجه الوثنية في مكة خطراً جدياً ، يهددها في الضميم.
ولهذا بادرت قريش إلى الاتصال بالخزرجيين صبيحة تلك الليلة وقالوا لهم : يا معشر
الخزرج انه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على
حربنا ، إنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم.
فحلف المشركون من أهل يثرب لقريش أنه ما كان من هذا شيء ، وما علموه ، وقد
صدقوا لأنهم لم يعلموا بما جرى في العقبة. فان قافلة اليربيين كانت تضم خمسمائة شخص
، تسلل منهم ثلاث وسبعون فقط إلى العقبة وبقية الناس نيام لا يعلمون بشيء.
فأتت قريش إلى « عبد الله بن أبي بن سلول » فسألوه عمّا جرى في ليلة العقبة ، فأنكر
ذلك وقال : إنّ هذا الأمر جسيم ، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا (اي يعملوه من
دون مشورتي) وما علمته كان ، فنهض رجال قريش من عنده ليتابعوا تحقيقهم حول
الحادث.

فعرف المسلمون الذين حضروا ذلك المجلس وبايعوا رسول الله ﷺ يفشوا أمرهم ،
وانكشاف سرهم ، ولهذا قال بعضهم لبعض : مادمنّا لم نُعر بعد فلنخرج من مكة فوراً
قبل ان يظفر المشركون بنا ، ولهذا أسرعوا في الخروج من مكة والتوجه إلى المدينة ، فزاد ذلك
من سوء ظن قريش وعززت شكوكهم حول البيعة ، وعرفوا بانها قد كان ، فخرجوا في طلب
جميع اليربيين ، ولكنهم لم يتنبهوا لذلك إلا بعد خروج قافلة اليربيين من حدود مكة ،
والمكيين ، ولم تظفر قريش إلا بسعد بن عباد.

غير أن ابن هشام يرى بأنهم ظفروا بنفريين هما : « سعد بن عبادة » و « المنذر بن عمر » ، وكان كلاهما من النقباء الاثني عشر .
وأما « المنذر » فاستطاع أن يخلص نفسه منهم .
وأما « سعد » فقد أخذوه ، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بجمته^(١) وكان ذا شعر كثير .

يقول سعد :

فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيء أبيض ، طويل القامة ، فقلت في نفسي : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا .
قال : فلما دنى مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة .
فقلت في نفسي : لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير .
قال : فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ رق عليّ رجل كان معهم : فقال : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش حوار ولا عهدٌ ؟
قلت : بلى كنتُ أجير لجير بن مُطعم بن عدي تجاراً ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي .

فذهب ذلك الرجلُ إلى مُطعم وأخبره بما فيه سعد بن عبادة من الحال ، وأنه أخبره بأنه كان يجير لمطعم تجارة فقال مُطعم : صدق والله إنه كان ليجير لنا تجارة ، ويمنعهم أن يُظلموا ببلدة ثم أسرع إلى سعد وخلصه من أيديهم .
وكان رفقاء سعد من المسلمين قد علموا بوقوعه في أيدي قريش في أثناء الطريق إلى المدينة ، فعزموا على أن يعودوا إلى مكة ويخلصوه من أيدي المشركين ، وبينما هم كذلك إذ بدى لهم « سعد » من بعيد ، وأخبرهم بما جرى عليه^(٢) .

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوي :

يصرُّ المستشرقون على أن انتشار الإسلام ونفوذه في المجتمعات ثم بواسطة

١ . مجتمع شعر الرأس .

٢ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٤٩ و ٤٥٠ .

السيف وفي ظل استخدام القوِّ .

اما بطلان هذا الكلام فسيثبت من خلال الحوادث القادمة.

ونحن نذكر هنا للمثال حادثة وقعت قبل الهجرة ، ونلفت اليها نظر القارئ الكريم ، فان دراستها والتعمق فيها يثبت بجلاء ان انتشار الإسلام ونفوذه في أوساط الناس كان في بداية الأمر نابعا من جاذبيته التي كانت تجذب كل انسان بمجرد اعطاء شرح مختصر عنه وعن تعاليمه المحببة إليه .

واليك الحادثة بنصها :

قرر مصعب بن عمير المبلِّغ والداعية الاسلامي المعروف الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى المدينة بطلب من اسعد بن زرارة ، ذات يوم أن يدعو هو واسعد أشرف المدينة وساداتها إلى الإسلام بالمنطق والدليل فدخلا حائطاً^(١) من حوائط المدينة فجلسا هناك واجتمع اليهما رجال ممن اسلم ، وكان سعد بن معاذ واسيد بن حضير هما من سادات بني الاشهل موجودين هناك أيضا .

فقال سعد لا سيد : جريّ حربتك وقل لهذين (يعني مصعبا واسعد) ماذا جاء بهما إلى ديارنا يسفهان ضعفاءنا ، ولو لا أن سعد بن زرارة ابن خالتي ، لكفيئتك ذلك .

فجعل أسيد ذلك وقال لمصعب ما جاء بكما الينا تسفهان ضعفاءنا وراح يشتمهما فقال له مصعب داعية الإسلام الحكيم ، والمتكلم البليغ الذي تعلّم اسلوب الدعوة المؤثر من رسول الله ﷺ : أو تجلس فتنم ، فان رضيت أمراً قبلته ، وان كرهته كفّ عنك ما تكره؟

قال : أنصفت ثم ركّز حربته وجلس إليهما يستمع لقولهما فكلّمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه شيئا من القرآن فأثرت آيات القرآن وما قاله مصعب من المواعظ البليغة في نفسه حتى عُرفَ ذلك في إشراق وجهه ، وانفراج اساريه ، وشوقه فقال : ما احسن هذا الكلام واجمله؟! كيف تصنعون إذا اردتم أن تدخلوا

١ . بستانا .

في هذا الدين؟ فقال مصعب وسعد له : تغتسل فتطهر وتغسل ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي.

فقام اسيد بن حضير الذي حضر لقتل مصعب وسعد من عندهما مبتهجا مسرورا فغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين.

ثم قال لهما : ان ورائي رجلا إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأُسله إليكما الآن ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد بن معاذ الذي كان ينتظر عودته على احر من الجمر فلما نظر إليه سعد وقومه وهم جالسون في ناديهم قال : أحلف بالله لقد جاءكم اسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب من عندكم فلما وقف على النادي قال له سعد ما فعلت؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما احببت ، فغضب سعدٌ لذلك غضباً شديداً ، وأخذ الحربة من اسيد ، ثم خرج إلى مصعب واسعد ليقتلها ، فلما رآهما سعد مطمئنين وقف عليهما متشتماً مهدداً اياهما ، ولكن مصعباً وزميله قابلا به بمثل ما قابلاه سابقه اسيد ، وجرى له ما جرى له ، فقد فعلت كلمات مصعب في نفسه فعلتها ، وخضع لمنطقه القوي ، وبيانه الساحر ، وندم على ما قصد فعله ، وقال لمصعب نفس ما قاله اسيد واعتنق الإسلام واغتسل وتطهر وصلى ثم رجع إلى قومه وقال لهم : يا بني عبد الاشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا : سيدنا وافضلنا رايا وايمنا نقيبة.

قال : فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله فالحمد لله الذي اكرمنا بذلك.

فلم يُمس في دار بني عبد الاشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة ، وهكذا أسلم كل قبيلة بني الأشهل قبل أن يروا النبي ﷺ وأصبحوا من الدعاة إلى الإسلام والمدافعين عن عقيدة التوحيد ، لا بمنطق القوة انما بقوة المنطق^(١).

١ . إعلام الوری : ص ٥٩ ، بحار الانوار : ج ١٩ ، ص ١٠ و ١١ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٣٦ و ٤٣٧ .

ان في التاريخ الاسلامي نماذج كثيرة من هذا القبيل تدل على بطلان وتفاهة ما قاله أو روجه المستشرقون حول أسباب تقدّم الإسلام وانتشاره ، فان العامل المعتمد في جميع هذه الموارد لم يكن المال والتطميع ، ولا السلاح والتهديد ، كما ادعى المستشرقون ، وان الذين اسلموا في هذه الحوادث والوقائع لاهم رأوا رسول الله ﷺ ولا أنهم التقوا أو اتصلوا به بنحو من الأنحاء ، انما كان السبب الوحيد هو : منطق الداعية الاسلامي القوي وبيانه الساحر الجذاب ، فهو الذي كان يفعل في النفوس فعله العجيب ، خلال دقائق معدودة ، لا في نفس شخص واحد فحسب ، بل ربما في نفوس قبيلة بكاملها .
اجل انه المنطق القوي والكلام المبرهن والحجة البالغة لاسواها .

مخاوف قريش المتزايدة :

لقد ايقظت حماية اليثريين للمسلمين قريشاً من غفلتها ونومها العميق مرة أخرى ، وكانت بيعة العقبة الثانية بمثابة ناقوس خطر لها فبدأت أذاها وإظطهادها ومضايقتها لهم من جديد ، وتهيأت للعمل على الحيلولة دون انتشار الإسلام ونفوذه وتقدمه في الجزيرة العربية ، وبلغ ذلك الاذى مبلغا عظيما .

فشكى أصحاب رسول الله ﷺ إليه ما يلقونه على أيدي المشركين من ضغوط واذى ، واستأذنوه في الهجرة إلى مكان فاستمهلهم رسول الله ﷺ ثم قال :
« لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن اراد الخروج فليخرج إليها »^(١) .
وبعد الاذن بالهجرة من قبل النبي ﷺ أخذ المسلمون يخرجون من مكة ، ويتوجهون إلى المدينة شيئا فشيئا وبحجج مختلفة لكي لا تمنعهم قريش من الهجرة .

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢٢٦ .

ولم يكن قدمضى على بداية هجرة المسلمين التدريجية هذه زمان طويل الا وفطن زعماء قريش لسرها ، وخطرها عليهم فاحذوا يمنعون من اي تنقل وسفر يقوم به المسلمون ، وقرروا ان يعيدوا إلى مكة كل من وجدوه في اثناء الطريق ، كما قرروا ان يجبسوا زوجة كل مسلم يريد الهجرة وله زوجة قرشية ويمنعوها عنه ، ولكنهم كانوا يتجنبون اراقة الدماء في هذا السبيل ، بل وكان يقتصر إذاهم على الحبس والتعذيب ولا يتعداهما.

ولكن هذه المحاولات التي قام بها زعماء قريش لوقف الهجرة إلى المدينة لم تثمر لحسن الحظ.

فقد استطاعت مجاميع كبيرة من المسلمين النجاة بنفسها من أيدي قريش واللاحق بزملاتهم و اخوانهم في يثرب حتى انه لم يبق في مكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وعلي عاتق وعدد قليل من المسجونين ، أو المرضى من المسلمين.

وقد زاد اجتماع المسلمين في يثرب من مخاوف قريش ، وضاعف من قلقها ، ولهذا اجتمع كل رؤساء القبائل المكية في « دارالندوة » اكثر من مرة للتشاور في كيفية القضاء على الإسلام وطُرح في ذلك المجلس خطط متنوعة ، واقترحت أمور كثيرة لتحقيق هذه الغاية ولكنها فشلت برمتها بتدبير رسول الله ﷺ وحكمته ، وسياسته الدقيقة.

وأخيرا هاجر رسول الله ﷺ من « مكة » إلى « المدينة » في شهر ربيع الأول سنة ١٤ من البعثة.

اجل لقد تضاعف قلق قريش منذ أن حصل محمد على قاعدة ثانية خارجة عن نطاق هيمنة المكيين وسيطرتهم واصبحوا حيرى لا يدرون ماذا يفعلون ، لان جميع خططهم للمنع من انتشار الإسلام واتساع رقعته ، قد باءت بالفشل.

لقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة والالتحاق

بالانصار وقال لهم : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ دَاراً وَإِخْوَاناً تَأْمِنُونَ بِهَا » (١) (٢).

١ - بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٢٦ .

٢ . لقد انتهينا من تسجيل حوادث السنوات الثلاث عشرة من البعثة ، وقد حاولنا ذكر كل ما كان معلوماً مشهوراً من تواريخها ، ولكن لا يمكن اعتبار تواريخ كل تلك الحوادث أموراً مقطوعاً بها من هنا ذكرنا الحوادث المثبتة في الفصل ٢٤ من دون ادراج تواريخ لها في الاغلب ولكن حيث أن الوقائع الحادثة بعد الهجرة وقعت في أوقات معينة معلومة لذلك فاننا سنرفق ذكر كل حادثة بتاريخ وقوعها في الفصول القادمة .

قصة الهجرة

كان زعماء قريش ورؤساؤها يجتمعون عند كل نائبة تنوبهم في « دارالندوة » لحل المشاكل ومعالجة ما عرض لهم من نائبة من خلال التشاور حولها وتداول الرأي فيها ، ومن خلال تضافر الجهود على حلها ، ورفعها أو دفعها .

وفي السنوات الثانية عشرة ، والثالثة عشرة من البعثة واجه أهل مكة خطراً كبيراً جدياً ، فقد حصل المسلمون على مركز هام ، وقاعدة صلبة في يثرب ، وتعهد البيرونيون الشجعان بحماية رسول الله ﷺ والدفاع عنه ، وكل هذا كان من علامات ومظاهر ذلك التهديد الخطير ، الذي بات يهدد كيان المشركين والوثنيين والزعامة القرشية .

وفي شهر ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة من البعثة التي وقعت فيه هجرة رسول الله ﷺ وبينما لم يكن قد بقي من المسلمين في مكة إلا رسول الله ﷺ وعلي وأبو بكر وجماعة قليلة من المسلمين المحبوسين ، أو المرضى ، أو العجزة ، وكان هؤلاء على أبواب الهجرة ومغادرة مكة إلى المدينة اتخذت قريش فجأة قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً جداً في هذا المجال .

فقد انعقدت جلسة هامة للتشاور في « دار الندوة » حضرها رؤساء قريش

وزعماءؤها وبدأ متكلمهم^(١) يتحدث عن تجمع القوى والعناصر الإسلامية وتمركزها في المدينة والبيعة التي تمت بين الخزرجيين والأوسيين وبين رسول الله ﷺ ثم اضاف قائلاً :
يا معشر قريش إنه لم يكن أحدٌ من العرب أعزَّ مِنَّا ، نحن أهل الله تغد إلينا العرب في السنة مرتين ، ويكرمونا ، ونحن في حرم الله لا يطعم فينا طامعٌ ، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا « محمد بن عبد الله » فكنبنا نسَمِيهِ (الأمين) لصلاحه ، وسكونه ، وصدق لهجته ، حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله ، وأن أخبار السماء تاتيه ، فسقّه أحلامنا ، وسبَّ آهتنا ، وأفسد شبَّاننا ، وفرق جماعتنا ، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا ، وقد رأيت فيه رأياً ، رأيت أن ندسَّ إليه رجلاً منَّا ليقْتله ، فان طلبت بنو هاشم بدمه^(٢) اعطيناهم عشر ديات .

فقال رجلٌ مجهول حضر ذلك المجلس ووصف نفسه بانه نجدي : ما هذا برأي لأن قاتل محمد مقتول لا محالة ، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فانه إذا قُتِلَ محمد تعصَّب بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة ، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الارض فيقع بينكم الحروب وتتفانوا .

فقال أبو البخترى : نلقيه في بيت ونلقني إليه قوته حتى يأتيه ريب المنون .
فقال الشيخ النجدي مرة أخرى : وهذا رأيٌ أخبث من الآخر ، لأن بني هاشم لا ترضى بذلك ، فاذا جاء موسمٌ من مواسم العرب استغاثوا بهم ، واجتمعوا عليكم فاخرجوه .
فقال ثالث : نُخرجه من بلادنا ونتفرِّغ نحن لعبادة آهتنا ، أو قال نرحل بغيراً صعباً ونوثق محمداً عليه كتفا ، ثم نضربُ البعيرَ بأطراف الرماح فيوشكُ أن يقطعه بين الصخور والجبال إربا إربا .

فانبرى ذلك النجدي يخطئ هذا الرأي أيضا قائلاً : أرايتم إن خلص به

١ . وروي انه كان المتكلم : أبو جهل .

٢ . وفي رواية : بديته .

البعير سالماً إلى بعض الناس فأخذ بقلوبهم بسحر بيانه وطلاقة لسانه ، فصبأ^(١) القوم إليه واستجابت القبائل له قبيلة فقيلة ، فليسيرن حينئذ اليكم الكتائب والجيوش فلتهلكن كما هلكت اياد ومن كان قبلكم.

فتحيروا وساد الصمت ذلك المجلس ، وفجأة قال أبو جهل (وعلى رواية : قال ذلك الشيخ النجدي) : ليس هناك من رأي إلا أن تعمدوا إلى قبائلكم فتختاروا من كل قبيلة منها رجلاً قويا ثم تسلحوه حساماً عضباً وليهجموا عليه معاً بالليل ويقطعوه إرباً إرباً فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلها في صاحبهم فيرضون حينئذ بالدية منهم!!
فاستحسن الجميع هذا الرأي ، واتفقوا عليه ، ثم اختاروا القتلة وتقرر ان يقوموا بمهمتهم اذا جن الليل وساد الظلام كل مكان^(٢).

الإمدادات الغيبية والعنايات الالهية :

لقد كان اولئك العتاة الجهلة يتصورون أن رسالة محمد ﷺ المدعومة من قبل الله تعالى والمؤيدة من جانبه سبحانه يمكن ان يقضى عليها بواسطة هذه الحيل والمكائد ، والخطط والمؤامرات ، ولم يكونوا يدركون أن هذا النبي . كغيره من الأنبياء . يتمتع بالمدد الالهي الغيبي ، وان اليد التي حفظت مشعل الاسلام طوال ثلاثة عشر عاماً في وجه الاعاصير والرياح ، قادرة على افشال هذه الخطة الاثيمة ، وتعطيل هذه المؤامرة أيضاً.
يقول المفسرون : بعد أن دبر الكفار ما دبروا نزل ملك الوحي « جبرئيل » ، على رسول الله ﷺ وأخبره بما حاك ضدّه المشركون من مؤامرة اذ

١ . صبأ فلان : اي خرج من دين إلى دين غيره وكانت العرب تسمي النبي ﷺ الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام وتسمي المسلمين : الصباة .. وهو جمع الصابيء.
٢ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٨٠ . ٤٨٢ .

قرأ عليه قول الله تعالى : « مَذَّيْمًا لَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (١).

وعندئذ أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، ولكنّ التخلص من أيدي القساة المكلفين بقتله من قبل زعماء الوثنيين وبالنظر إلى المراقبة الدقيقة التي كانوا يقومون بها لجميع التحركات ، لم يكن بالأمر السهل وخاصة بالنظر إلى بُعد المسافة بين مكة والمدينة .
فاذا لم يكن رسول الله ﷺ يخرج من مكة وفق خطة دقيقة صحيحة كان من المحتمل جدا أن يدركه المكثبون في أثناء الطريق ويقبضوا عليه ويسفكوا دمه الشريف قبل ان يصل إلى أتباعه وأصحابه .

ولقد ذكر المفسرون والمؤرخون صوراً مختلفة لكيفية خروج النبي ﷺ وهجرته والاختلاف الذي نلاحظه بين هؤلاء المفسرين والمؤرخين في خصوصيات وتفاصيل هذه الواقعة مما يقل نظيرة في غيره من الوقائع .

وقد استطاع مؤلف « السيرة الحلبية » أن يوفق إلى درجة ما ، بين المنقولات والمرويات المختلفة ببيان خاص ، ولكنه لم يوفق لازالة التناقض والاختلاف في بعض الموارد في هذا الصعيد .

على أن الموضوع الجدير بالإهتمام هو أن أكثر المؤرخين الشيعة والسنة نقل كيفية هجرة النبي ، وخروجه من منزله ، ثم من مكة بنحو مؤداه إسناد نجاه النبي ﷺ وخلاصه إلى عامل الاعجاز ، وبالتالي فقد اسبغوا عليه صبغة الكرامة ، والمعجزة .

في حين أن الإمعان في تفاصيل هذه القصة يكشف عن أن نجاه النبي ﷺ كانت نتيجة سلسلة من الاجراءات الاحترازية ، والتحسبات ، والتدابير الحكيمة ، وإن إرادة الله تعالى تعلقت بان ينجي نبيه

١ . الانفال : ٣٠ . ليثبتوك أي ليسجنوك .

الكريم ، عن طريق الأسباب العادية المألوفة ، وليس عن طريق التدخل الغيبي وإعمال قدرته تعالى الغيبية .

ويدل على هذا المطلب أنّ النبيّ توسل بالعلل الطبيعية ، والوسائل والأسباب العادية (كمبيت شخص في فراش النبي ، واختفاء رسول الله في الغار وغير ذلك مما سيأتي ذكره) ، وبهذا الطريق نجّى رسول الله ﷺ نفسه ، وتخلص من أيدي اعدائه ، العازمين على إراقة دمه .

ملك الوحي يخبر رسول الله :

لقد اخبر ملك الوحي « جبرئيل » رسول الله ﷺ بخطّة قريش المشؤومة لاغتياله وامره بالهجرة ، وتقرر . بغية إفشال عملية الملاحقة . ان يبيت شخصاً في فراش رسول الله ﷺ ليتصوّر المشركون أنّ النبيّ لا يزال في منزله ، ولم يخرج بعد ، وبالتالي يركّزوا كلّ إهتمامهم على محاصرة البيت ، وينصرفوا عن مراقبة طرقات مكة ، ونواحيها .

ولقد كانت فائدة هذا العمل اي حصر اهتمام المراقبين ببيت النبي انه تسنى لرسول الله ﷺ اغتنام الفرصة والخروج من مكة ، والاختفاء في مكان ما من دون ان يحس به أحد من الذين باتوا يراقبون بيته ، ويغون قتله .

والآن يجب أن نرى من الذي تطوّع للمبيت في فراش رسول الله ﷺ وفدى النبي بنفسه ، ووقاه بحياته؟

ستقولون حتما : إن الذي سبق جميع المسلمين إلى الايمان برسول الله ﷺ وبقي من بدء بعثته وإلى ذلك الحين يذب عنه ، هو الذي يتعيّن أن يضحّي بنفسه في هذا السبيل ، وبقي رسول الله ﷺ بحياته في هذه اللحظة الخطيرة ، وهذا المضحيّ بحياته ونفسه ، هو « علي » ليس سواه احد ، انه تقدير صحيح ، وحس مصيب .

فليس غير « علي » يصلح لهذه المهمة الخطيرة .

ولهذا قال رسول الله ﷺ لعليّ عليّاً :

« يا عليّ إنّ قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي ، وإته أوحى إليّ عن ربّي أن اهجر دار قومي ، فُثم على فراشي والتحف ببردي الحضرميّ لئُتخفي بمبيتك عليهم أثري فما أنت قائل وصانع؟؟»

فقال عليّ عليّاً أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟

قال : نعم ، فتبسّم عليّ عليّاً ضاحكاً مسروراً وأهوى إلى الأرض ساجداً ، شكراً لما أنبأه رسول الله ﷺ من سلامته ، فلما رفع رأسه قال للنبيّ ﷺ :
إمض لما أمرت فذاك سمعي وبصري وسويداء قلبي ، ومُرني بما شئت أكن فيه كمسرتك ، واقع فيه بحيث مرادك ، وإن توفيقني إلّا بالله.

ثم رقد عليّ عليّاً على فراش رسول الله ﷺ واشتمل ببرده الحضرمي الاخضر ، ولما مضى شطر من الليل حاصر رصّد قريش . وهم اربعون رجلاً . بيت رسول الله ﷺ وقد جرّدوا سيوفهم ، ينتظرون لحظة الهجوم على النبيّ ﷺ ويتطلّعون إلى داخل البيت من فرجة الباب بين الحين والآخر ليتأكدوا من بقاء رسول الله ﷺ في مضجعه ، فيظنون أنّ النائم في الفراش هو النبيّ ﷺ .
وهنا أراد النبيّ ﷺ أن يخرج من بيته .

فمن جانب يحاصر الأعداء بيته ﷺ من كل جانب ، ويراقبون كلّ شيء ، ومن جانب آخر تعلّقت مشيئة الله تعالى وارادته القاهرة الغالبة أن ينحو رسول الله ﷺ من ايدي تلك الزمرة المنحطة ، فقرأ رسول الله ﷺ سورة (يس) مناسبة مطلعها لظروفه حتى بلغ إلى قوله تعالى : « فهم لا يبصرون »^(١) وخرج من باب البيت دون ان يشعر به رصّد قريش المكلفون بقتله ، وذهب إلى المكان الذي كان من المقرر ان يختفي

١- يس : ٩ .

فيه على النحو الذي سيأتي تفصيله.

وأما كيف استطاع رسول الله ﷺ ان يخترق الحصار البشري المشدّد الذي ضُبر على بيته ، ويتجاوز رصد قريش من غير ان يشعروا به فذلك غير معلوم جيداً.

إلا أنه يستفاد من رواية نقلها المفسر الشيعي المعروف المرحوم علي بن ابراهيم في تفسيره : قول الله تعالى : « **وَذِيكُرْ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا** » ان رجال قريش كانوا نياما ينتظرون الفجر عند خروج رسول الله ﷺ ، ولم يكونوا يتصوّنون أن رسول الله ﷺ قد عرف بتدبيرهم ومؤامرتهم.

ولكن يصحّ غيره من المؤرّخين وكتباب السيرة ^(١) بان المحاصرين لمنزل النبي ﷺ كانوا يقظين حتى لحظة الهجوم على بيت رسول الله ﷺ وان النبي ﷺ خرج من البيت عن طريق الاعجاز والكرامة من دون ان يروه ويحسوا به.

إن امكان وقوع مثل هذه الكرامة ليس موضع شك ، ولكن هل كان هناك ما يوجب ذلك؟؟

ان دراسة قصة الهجرة بصورة كاملة تجعل هذه المسألة أمراً قطعياً وهي أنّ النبي ﷺ كان عارفاً بمؤامرة القوم قبل محاصرة بيته ، وكان قد دبرّ ورسم لنجاته خطةً طبيعيةً عاديةً ، ولم يكن في الأمر اي اعجاز.

لقد كان يريد ﷺ باضجاع علي عليه السلام في فراشه أن ينجو بنفسه من أيدي المشركين من الطرق العادية والقنوات الطبيعية من غير الاستعانة بالاعجاز والكرامة.

وعلى هذا كان في مقدور النبي ﷺ ان يتحسب لمسألة المحاصرة والطوق الذي كان سيُضرب على بيته من أوائل الليل ، وذلك بمغادرة

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢٢٨ ، تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ١٠٠ .

بيته قبل المحاصرة وقبل الغروب.

ولكن يمكن ان يكون لتوقيف النبي ﷺ في البيت حتى ساعة المحاصرة علة لا نعرفها الآن.

من هنا يكون إدعاء هذا الموضوع (وهو خروج النبي ﷺ من البيت في الليل) غير مقطوع به لدى الجميع لاعتقاد البعض بان رسول الله ﷺ غادر منزله قبل فرض الحصار عليه ، وقبل غروب الشمس (١).

إقتحام الاعداء لبيت الوحي :

طوّت قوى الكفر مهبط الوحي وبيت الرسالة وباتت تنتظر لحظة الإذن في إقتحامه ، والهجوم على النبي ﷺ في فراشه وضربه وتقطيعه بالسيوف إربا إربا!
وقد أصر جماعة منهم أن ينفذوا خطتهم المشؤومة هذه في منتصف الليل وقبل الفجر فمنعهم أبو لهب من ذلك وقال : لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل ، فإنّ في الدار صبيانا ونساءً من بني هاشم ، ولا نأمن أن تقع يدٌ خاطئة ، فنحرسه الليلة ، فإذا أصبحنا دخلنا عليه.

وربما يقال أن علة التأخير هي أنهم أرادوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ عند الصباح أمام أعين بني هاشم حتى يروا أن قاتله جماعة وليس واحدا.
وانقشع الظلام شيئا فشيئا ، وانفجر الصبح ، ودبّ في المشركين شوقٌ غريبٌ ، مع اقتراب ساعة الصفر ، فقد كانوا يتصوّرون بأنهم سينالون ما يريدون قريبا ، وبينما هم ينتضون سيوفهم دخلوا حجرة رسول الله ﷺ وبينما هم يهيمون بأخذ من كان راقدا في الفراش بسيوفهم ، إذا بهم يواجهون علياً

١ . السيرة الحلبية : ج ٢ ، ص ٢٩ .

عائلاً يثب في وجوهم وهو يكشف عن نفسه برد رسول الله ﷺ الأخضر ، وقال لهم في منتهى الطمأنينة والشجاعة : ما شأنكم؟ وماذا تريدون؟؟

فقالوا له بغضب : أين محمد؟

فقال عائلاً : أجعلتموني عليه رقيباً؟!

فغضب القوم غضباً شديداً ، وكاد الغيظ يخنقهم ، فقد ندموا على إنتظارهم انفجار الصبح وحملوا أبا لهب الذي منعهم من تنفيذ الهجوم على النبي في منتصف الليل فشل الخطة وتفويت الفرصة ، فاقبلوا عليه يلومونه ويوبخونه!!

أجل لقد انزعجت قريش بشدة لفشل هذه المؤامرة ، ووجدوا انفسهم أمام هزيمة نكراء بددت كل أحلامهم ، وحيث أنهم كانوا يتصوّرون بأن النبي ﷺ لا يستطيع الخروج عن حدود مكة في مثل تلك المدة القصيرة فهو إما مختبئ في مكة ، أو أنه لا يزال في طريق المدينة ، لذلك أقدموا فوراً على العمل على ترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

النبي في غار ثور :

ان ما هو مسلّم به هو أن رسول الله ﷺ أمضى هو وأبو بكر ليلة الهجرة وليلتين اخريين بعدها في غار ثور الذي يقع في جنوب مكة في النقطة المحاذية للمدينة المنورة (١). وليس من الواضح كيف تمت هذه المصاحبة والمرافقة ولماذا ، فان هذه المسألة من القضايا التاريخية الغامضة.

فان البعض يعتقد بان هذه المصاحبة كانت بالصدفة ، فقد رأى رسول الله ﷺ أبا بكر في الطريق ، فاصطحبه معه إلى غار ثور.

١ . حيث ان الطريق المؤدي إلى المدينة تقع في شمال مكة ، فاختبأ النبي ﷺ في منطقة مقابلة أي في اسفل مكة ، ليعمي بذلك على قريش فلا يتبعوا أثره.

وروى فريق آخر أن رسول الله ﷺ ذهب في نفس الليلة إلى بيت أبي بكر ، ثم خرجا معا في منتصف الليل إلى غار ثور (١) .

وقال فريق ثالث : أن أبا بكر جاء هو بنفسه يريد النبي وكان ﷺ قد خرج من قبل فأرشدته « علي » إلى محبأ النبي ﷺ .
وعلى كل حال فإن كثيراً من المؤرخين يعدّون هذه المصاحبة من مفاخر الخليفة ومناقبه ، ويذكرون هذه الفضيلة ويتحدثون عنها بكثير من الاسهاب والاطناب ، وبمزيد من الاكبار والاعجاب .

قريش تفتش عن النبي :

لقد تسبب فشل قريش في تغيير خطتها ، فقد بادرت إلى بث العيون والجواسيس في طرقات مكة ، ومراقبة مداخلها ومخارجها مراقبةً شديدةً ، وبعثت القافة تقتص أثره في كل مكان ، وفي طريق مكة . المدينة خاصة .
ومن جانب آخر جعلت مائة ابل لمن يأخذ نبي الله ، ويردّه عليهم أو يأتي عنه بخبر صحيح .

وعمد جماعة من قريش إلى ملاحقة رسول الله والتفتيش عنه في شمال مكة ، حيث الطريق المؤدي إلى المدينة ، على حين أن رسول الله ﷺ كان قد اختبأ . كما قلنا . في نقطة بجنوب مكة لافشال عملية الملاحقة .

وتصدت مجموعة أخرى لتتبع أثر قدم النبي ﷺ ورفيقه!!

وكان الذي يقفوا لهم الأثر يدعى أبا مكرز فوقف بهم على باب حجرة رسول الله ﷺ فقال هذه قدم محمد ، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار فانقطع عنه الأثر فقال : ما جاوز محمد ومن معه هذا المكان ، إما أن يكونا صعدا إلى السماء أو دخلا تحت الأرض ، فان بباب هذا الغار . كما ترون عليه . نسج

١ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ١٠٠ .

العنكبوت والقبحة حاضنة على بيضها بباب الغار (١) ، فلم يدخلوا الغار .
ولقد استمرت هذه المحاولات بحثاً عن النبي ﷺ ثلاثة أيام بلياليها ولكن دون جدوى ،
فلما يئس القوم بعد ثلاثة ايام من السعي تركوا التفتيش وكفوا عن الملاحقة .

التفاني في سبيل الحق :

ان النقطة المهمة في هذه الصفحة من التاريخ هي ما قام به علي عليه السلام من تفان في سبيل
الحق ، والحقيقة .

إن التفاني في سبيل الحق من شيمة الرجال الذين أحبوا الحق وعشقه بكل وجودهم
وكيانهم .

إن الذين يغضون نظرهم عن كل شيء من أشياء الدنيا ويضحون بالنفس والمال
والشخصية ، ويستخدمون كل طاقاتهم المادية والمعنوية في سبيل خدمة الحق ، وحيائه ،
واقامته هم ولا شك من عشاق الحق والحقيقة الصادقين .

انهم يرون كما لهم وسعادتهم في هدفهم ، وهذا هو الذي يدفعهم إلى أن يصرفوا النظر
عن الحياة العابرة ، والعيش الموقت ، ويلتحقوا بركب الحياة الواقعية الأبدية .

إن مبيت علي عليه السلام في فراش رسول الله ﷺ في تلك الليلة الرهيبة لنموذج بارز من
هذا الحب الحقيقي للحق ، والعشق الصادق للحقيقة ، فان الدافع وراء التطوع لمثل هذه
المهمة الخطيرة لم يكن إلا حب « علي » لبقاء الإسلام الذي يكفل سعادة المجتمع ،
ويضمن ازدهار الحياة ، لا غير .

١ . الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢٢٩ تاريخ الخميس ، ج ١ ، ص ٣٢٧ . ٣٢٨ وغيرها ، ولقد ذكر عامة
المؤرخين هذه الكرامة هنا ، ولا ينبغي . نظراً لما ذكرناه في قصة الفيل وهلاك ابرهة وجنده بواسطة الابطال ، تأويل
مثل هذا الكرامات .

إن لهذه التضحية والتفاني من القيمة العظمى بحيث مدحها الله تعالى في كتابه العظيم ،
ووصفها بأنها كانت تضحية صادقة لكسب مرضاة الله ، فان الآية التالية نزلت . حسب
رواية أكثر المفسرين . في هذا المورد : « وَمِن النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَمَلَّه
رَوْفٌ بِالْعِبَادِ »^(١) .

ان عظمة هذه الفضيلة واهمية هذا العمل التضحيوي العظيم دفعت بكبار علماء الإسلام
إلى اعتبارها واحدة من أكبر فضائل الامام علي عليه السلام وإلى أن يصِفُوا بها علياً بالفداء والبذل
والاِثَار ، وإلى أن يعتبروا نزول الآية المذكورة في شأنه من المسلّمات كلّما بلغ الحديث في
التفسير والتاريخ إليها^(٢) .

إنّ هذه الحقيقة مما لا ينسى أبداً فانه من الممكن احفاء وجه الواقع والتعظيم عليه بعض
الوقت إلا أنه سرعان ما تشرق أشعة الحقيقة الساطعة حجب الاوهام ، وتخرج شمس الحقيقة
من وراء الغيوم .

إن معاداة معاوية لأهل بيت النبوة وبخاصة للامام أمير المؤمنين عليه السلام مما لا يمكن النقاش
فيه .

فقد أراد هذا الطاغية من خلال تطميع بعض صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يلبس صفحات
التاريخ اللامعة ويخفي حقائقه بوضع الاكاذيب ، ولكنه لم يجرز في هذا السبيل نجاحاً .
فقد عمد « سمرة بن جندب » الذي ادرك عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم انضم بعد وفاته
صلى الله عليه وآله وسلم إلى بلاط معاوية بالشام ، عمد إلى تحريف الحقائق لقاء اموال أخذها من الجهاز
الأموي ، الحاقده على أهل البيت .

فقد طلب منه معاوية باصرار أن يرقى المنبر ويكنه^٣ نزول هذه الآية في شأن

١ . البقرة : ٢٠٧ .

٢ . مسند احمد : ج ١ ، ص ٨٧ ، وكنز العمال : ج ٦ ، ص ٤٠٧ ، وقد نقل كتاب الغدير : ج ٢ ، ص ٤٧ .
٣ . طبعة لبنان مصادر نزول هذه الآية في شأن علي عليه السلام على نحو التفصيل ، فراجع .

علي عليه السلام ، ويقول للناس أنها نزلت في حق قاتل عليّ (أي عبد الرحمان بن ملجم المرادي) ، ويأخذ في مقابل هذه الاكذوبة الكبرى ، وهذا الاختلاق الفضيع الذي أهلك به دينه مائة ألف درهم.

فلم يقبل « سمرة » بهذا العرض ولكن معاوية زاد له في المبلغ حتى بلغ اربعمائة ألف درهم ، فقبل الرجل بذلك فقام بتحريف الحقائق الثابتة ، مسوداً بذلك صفحته السوداء اكثر من ذي قبل وذلك عند ما رقى المنبر وفعل ما طلب منه معاوية ^(١).

وقبل السامعون البسطاء قوله ، ولم يخطر ببال أحد منهم أبداً ان (عبد الرحمان بن ملجم) اليميني لم يكن يوم نزول الآية في الحجاز بل لعلمه لم يكن قد وُلد بعد آنذاك. فكيف يصح؟!

ولكن الحقيقة لا يمكن ان تخفى بمثل هذه الحجب الواهية ، ولا يمكن ان تنسى بمثل هذه المحاولات العنكبوتية الرخيصة.

فقد تعرّضت حكومة معاوية وتعرض أهلها وانصارها للحوادث ، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الذي وقع في عهده المشؤوم ، وطلعت شمس الحقيقة والواقع من وراء حجب الجهل والافتراء مرة أخرى ، واعترف اغلب المفسرين الأجلّة ^(٢) والمحدثين الافاضل . في العصور والادوار المختلفة ، بأن الآية المذكورة نزلت في « ليلة المبيت » في بذل علي عليه السلام ومفاداته النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه ^(٣).

١ - لاحظ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ٤ ، ص ٧٣ .

٢ - شرح نهج البلاغة : ج ١٣ ، ص ٢٦٢ ، ولقد أعطى ابن ابي الحديد حقّ الكلام حول هذه الفضيلة.

٣ - سمرة بن جندب من العناصر المجرمة في الحكومة الاموية ، ولم يكتف سمرة بتحريف الحقائق وقلبها بما ذكرناه ، بل أضاف إلى ذلك . حسب رواية ابن ابي الحديد . أمرا آخر أيضا إذ قال : ونزل في شأن « علي » قول الله : « **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** » (البقرة : ٢٠٤) .

ومن جرائم هذا الرجل انه قتل يوم وُلِّيَ البصرة على عهد زياد بن أبيه العراق ثمانية آلاف

كلام من ابن تيمية :

احمد بن عبد الحليم الحرّبي الحنبلي الذي مات في سجن بدمشق عام ٧٢٨ من علماء السنة ، تعود إليه أكثر معتقدات الوهابيين ، وأفكارهم. ولابن تيمية هذا آراء ومواقف خاصة من النبي الاكرم ﷺ وأميرالمؤمنين ، وعمامة أهل بيت النبوة ، وقد صرح بأكثر آرائه ومعتقداته هذه في كتابه « منهاج السنة ». وقد دفعت عقائده المنحرفة وآراؤه الضالّة الكثر من علماء عصره إلى تكفيره ، والتبري منه.

ولابن تيمية رأي عجيب حول هذه الفضيلة نذكره للقارئ الكريم مع تصرف بسيط في الألفاظ ^(١).

ومن المؤسف ان يكون قد تأثر بآرائه بعض السدّج والجاهلين ، فنجدهم يشيعون آراءه في المجتمع من دون تحقيق فيما قال ، ومن دون مراجعة ذوي الاختصاص لمعرفة رأيهم في أفكاره ومعتقداته وهم غافلون عن أن مثل هذه الآراء قد صدرت من منحرف وكذّبه بل وكفّر بسببها أهل مذهبه.

هذا واليك خلاصة رأيه في فضيلة « المبيت ».

يقول : ان مبيت « علي » في فراش رسول الله ﷺ لا تعد

مّن كانوا يجنون أهل البيت ويوالوهم وعندما سأله معاوية : هل تخاف ان تكون قد قتلت أحدا بريئا؟

أجاب قائلاً : لو قتلت اليهم مثلهم ما خشيت!!

هذا ومخازي هذا الرجل أكثر من ان تستوعبه هذه الصفحات القلائل.

وسمرة هذا هو ذلك الرجل الصلف الجاف الذي رد على رسول الله ﷺ طلبه بأن يراعي حقّ جاره في قضية النخلة مرارا فقال له رسول الله ﷺ : « إنك رجل مضار ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ولمزيد التوضيح راجع كتب الحديث والتراجم والتاريخ.

١ - راجع السيرة الحلبية : ج ٢ ، ص ٢٦٣ وسبعة الجاحظ في العثمانية.

فضيلة لأن عليًا عرف من طريقين بانه لن يصيبه شيء في تلك الليلة :
الأوَّ : إخبار رسول الله ﷺ الصادق المصدّق نفسه آياه بذلك إذ قال له في نفس تلك الليلة : « َ في فراشي فإنه لا يخلُص إليك شيء تكرهه »!!
الثاني : أن النبي ﷺ كلفه برد الودائع واداء الامانات التي أودعها أهل مكة عند رسول الله ﷺ ، إلى أصحابها.
فعلم . من ذلك . أنه لن يُقتل والا لكلف رسول الله ﷺ الآخرين بها.
فعرف « علي » من هذا التكليف أنه لن يلحقه أذى في هذه العمليّة وانه سيوفّق لأداء ما كلفه به رسول الله ﷺ .

الجواب :

وقبل أن نجيب عن هذا الكلام على نحو التفصيل نقول إجمالاً : إن ابن تيميّة بانكاره هذه الفضيلة أثبت فضيلة أعلى لعليّ ؑ لأنه إمّا كان إيمان علي بصديق مقالة الرسول كان إيماناً عادياً ، وإمّا أن كان إيماناً قوياً جداً ، وكانت جميع اقوال النبي ﷺ وإخباراته لديه . في ضوء إيمانه . كالنهار في وضوحه .
وعلى الفرض الأوَّ لم يكن لعليّ يقين بنجاته من تلك الواقعة لأنه لا يحصل لمثل هذه الطبقة من الناس (ولا شك أن عليًا ليس منهم حتما) يقين من كلام النبي ﷺ ، وحتى لو قبلوا به في الظاهر ، فانهم سيساورهم القلق ، ولا يفارقهم الاضطراب ، وإذا هم باتوا في فراشه في لحظات الخطر ، فانه سيقون فريسة الخوف والوجل وستمر في نفوسهم احتمالات كثيرةٌ حول مآل الأمر ومصيره ، وسيتمثل أمامهم شبح الموت المرعب في كل لحظة وأن .
وعلى هذا الفرض لابد أن يقال : بأنّ عليًا ؑ لم يقدم على هذا الأمر الخطير إلا وهو يحتمل الهلاك على أيدي المشركين ، لا أنه بات وهو يتيقن

النجاة والسلامة.

وأما بناء على الفرض الثاني فإنه تثبت لعلي عليه السلام فضيلة أعلى واعظم ، لأن إيمانَ الرجل يجب ان يبلغ من القوة والكمال بحيث لا يفترّ بين صدق كلام النبي وبين وضوح النهار أي أهما يكونان عنده بمنزلة سواء.

ولا شك ان أهمية مثل هذا الايمان لا يمكن أن يعادلها شيء.

ونتيجة هذا الايمان هي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ما قال له : نم في فراشي فلن يصيبك من هجوم الاعداء الحاقدين مكروة ، أن ينام في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقلب واثق بالسلامة ، ونفس مطمئنة إلى النجاة ، ومن دون أن يخالج نفسه أقل احتمال للخطر.

ولو كان مراد ابن تيمية من قوله : ان علياً كان واثقاً من سلامته ، لأن الصادق المصدّق أخبره بذلك هو : إثبات أعلى درجات الإيمان لعلي عليه السلام فقد أثبت له عليه السلام من حيث لا يشعر أكبر فضيلة ، وأعلى منقبة ، وهي كمال الايمان والثقة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخباره.

هذا هو الجواب الاجمالي واليك الجواب التفصيلي :

الجواب التفصيلي :

فقول عن الدليل الأول : إن عبارة « لا يخلص اليك شيء تكرهه » لم ينقلها بعض أرباب السيرة ورجال علم التاريخ الذين لهم سابقة لا تنكر في هذا الصعيد ^(١). نعم روى ابن الاثير المتوفى عام ٦٣٠ ^(٢) ، والطبري المتوفى عام ٣١٠ ^(٣) هذه العبارة وكأتما قد أخذها عن ابن هشام في سيرته ^(٤) التي نقل فيها تلك العبارة

١ . مثل مؤلف الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ المولود عام ١٦٨ والمتوفى عام ٢٣٠ ، وكذا

المقرئ في امتاع الاسماع ، عند ذكرهم لتفاصيل قضية المبيت.

٢ . التاريخ الكامل : ج ٢ ، ص ٧٢.

٣ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٩٩.

٤ . السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٤٨٣.

بالصورة المتقدمة الذكر ، خاصة أنّ عبارة ذينك المؤلفين (الطبري وابن الأثير) تطابق عبارة ابن هشام في هذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أنّ القضية لا توجد بهذه الصورة في مؤلفات علماء الشيعة على ما نعلم. ولقد نقل شيخ الطائفة الامامية محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ في أماليه قصة الهجرة بشكل أكثر تفصيلاً ودقة ، وذكر العبارة المذكورة مع تغيير بسيط ، إلا أنه تختلف صورة القضية مع ذلك عما هي عليه في كتب أهل السنة ، فانه ﷺ يصحّ بان عليّاً ﷺ انطلق هو و « هندبن أبي هالة » ابن خديجة وريب رسول الله ﷺ في منتصف الليل بعد ليلتين من الهجرة حتى دخلا على النبي ﷺ فقال ﷺ لعلي : « إثمّ لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم عليّ »^(١).

وهذه الجملة تشبه الجملة التي ذكرها ابن هشام والطبري وابن الأثير ، ولكن النبي ﷺ قالها لعلي ﷺ مطمئناً إياه بعد ليلتين من المبيت في الفراش ، وليس ليلة المبيت كما يروي الثلاثة المذكورون.

هذا علاوة على أن كلام علي نفسه خير شاهد على ما نقول :
فلقد عد علي ﷺ عمله هذا (أي المبيت في فراش رسول الله ﷺ في تلك الليلة الرهيبة) نموذجاً من بذله وتفانيه في سبيل الحق كما يتضح ذلك بجلاء من اشعاره حيث يقول :

وَقَيْتَ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنَ وَطَأَ الْحَصَا	وَمِنَ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحَجَرِ
مُحَمَّدٍ لَمَّا خَافَ أَنْ يَمَكُورُوا بِهِ	فَوَقَّاهُ رَبِّي فِي الْجَلَالِ مِنَ الْمَكْرِ
وَبِتَ رَأْعِي مِنْهُمْ مَا يَسُوءُنِي	وَقَبَدَ وَطَّنَتِ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ
وَبَاتَ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا	هَنَّاكَ وَفِي حَفْظِ الْإِلَهِ وَفِي سَبْتِ ^(٢)

١. الأُمالي : ج ٢ ، ص ٨٤.

٢. المصدر السابق وغيره ، هذا مضافاً إلى أنّ الامام ﷺ نفسه قد استشهد المسلمين مراراً بهذه القضية مستدلاً بها على تفانيه في سبيل الإسلام.

ومع هذه العبارات الصريحة لا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الذي تدل قرائن كثيرة على خطأه ، ويُحتمل ، احتمالاً قوياً ، بأن اشتباهه وخطأه قد نشأ من تلخيصه لسيرة ابن اسحاق ، وحيث أنه (ونعني ابن هشام) قد بنى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة ، مهملاً ظرف النطق بها لعدم أهمية زمن النطق بها وأنها قيلت في الليلة الثانية أو الثالثة ، في نظره ، وروى الموضوع بنحو يوهم بان جميع هذه الامور وقعت في ليلة واحدة!!

ويؤيد رأينا هذا أيضا الحديث المعروف الذي رواه كثير من علماء السنة والشيعه وهو : أن الله أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أني قد آخيت بينكما وجعلت عمر احدكما أطول من عمر صاحبه فأيكما يؤثر أخاه.

وكلاهما كره الموت ، فاوحى الله إليهما : عبادي ألا تكتما مثل وليي « علي » آخيت بينه وبين « محمد » نبيي فأثره بالحياة على نفسه؟ أو قال : قد نام على فراشه يقيه بمهجته. ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسة علي وحفظه من عدوه ^(١).

واما الدليل الثاني الذي يستفيد منه ابن تيمية أن علياً كان يعلم بمصيره هو توصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم له بأداء الامانات والودائع إلى أهلها ، التي كانت تكشف عن ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم بأنه لن يصل إليه مكروه ، ولهذا امره بردّ الودائع والامانات إلى أصحابها.

ولكننا نعتقد ان في مقدورنا الحصول على حلّ لهذه المشلكة إذا استعرضنا بقية قصة الهجرة بشكل صريح وكامل. واليك بقية قصة الهجرة.

الخطيب وقضية المبيت :

وينبغي أن نختتم هذا الفصل بما كتبه الاستاذ عبدالكريم الخطيب حول

١ - بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٣٩ نقلا عن احياء العلوم للغزالي.

مبيت علي عليه السلام في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً المهجرة ، وطلب إليه أن يبيت في المكان الذي اعتاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يبيت فيه ، وان يتغطى بالبرد الحضرمي الذي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتغطى به حتى إذا نظر ناظر من قريش إلى الدار رأى كأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نائم في مكانه مغطى بالبرد الذي يتغطى به ، وهذا الذي كان من علي في ليلة المهجرة إذا نظر إليه في مجرى الاحداث التي عرضت للامام علي في حياته بعد تلك الليلة فانه يرفع لعيني الناظر أمارات واضحة واشارات دالة على ان هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة لم يكن أمراً عارضاً بل هو عن حكمة لها آثارها . إلى ان قال . انه إذا غاب شخص الرسول كان علي هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه وتمثّل شخصه وتقوم مقامه ، حين نظرنا إلى علي وهو في برد الرسول وفي مثوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه فقلنا : هذا خلف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقائم مقامه ^(١) .

بقية قصة هجرة النبي :

انتهت المراحل الأولى لنجاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفق تخطيط صحيح ، بنجاح ، فقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منتصف الليل إلى غار ثور ، واختبأ فيه ، وبذلك أفشل محاولة المتآمرين عليه .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طوال هذا الوقت مطمئناً لا يحس في نفسه بأي قلق أو إضطراب ، حتى انه طمأن رقيق سفره عندما وجده مضطرباً في تلك اللحظات الحساسة بقوله : « لا تَحْزَنْ لِمَا اللَّهُ مَعْنُ » ^(٢) .

وبقي هناك ثلاث ليال محروسا بعين الله تعالى ومشمولاً بعنايته ولطفه ،

١ . راجع كتاب علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة ، ص ١٠٣ . ١٠٥ ملخصاً .

٢ . التوبة : ٤٠ .

وكان يتردد عليه ﷺ في هذه الاثناء على عليّ وهدى ابن ابي هالة (ابن خديجة) على رواية الشيخ الطوسي في أماليه ، وعبد الله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة راعي اغنام أبي بكر (بناء على رواية كثير من المؤرخين) .

يقول ابن الاثير : كان عبد الله بن ابي بكر يتسمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا ، وكان يرعى غنمه نهاره على مقربة من الغار ، وكان إذا غدا من عندهما عفى على أثر الغنم .^(١)

يقول الشيخ الطوسي في أماليه : عند ما دخل عليّ وهدى على رسول الله ﷺ في الغار (بعد ليلة الهجرة) أمر رسول الله ﷺ عليّا أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه ، فقال أبو بكر : قد كنت أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب . فقال رسول الله ﷺ : إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن . ثم أمر ﷺ عليّا فدفع إليه ثمن البعيرين^(٢) .

وكان من جملة وصايا رسول الله ﷺ لعليّ في الغار في تلك الليلة ان يؤدي أمانته على أعين الناس ظاهرا وذلك بأن يقيم صارخا بالابطح غدوة وعشيا : ألا من كان له قبل محمد أمانة أو وديعة فليأت فلنؤد إليه أمانته^(٣) .

ثم أوصاه ﷺ بالفواطم (والفواطم هن : فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ الحبيبة لديه ، والأثيرة عنده ، وفاطمة بنت أسد أمّ عليّ وهدى بنت الزبير ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم) ، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه إلى يثرب وتهيئة ما يحتاجون إليه من زاد وراحلة .

وهنا قال ﷺ عبارة التي تدّرّع بها ابن تيمية في دليله

١ . الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٧٣ مع تصرف .

٢ . أمالي الشيخ : ج ٢ ، ص ٨٢ .

٣ . الكامل : ج ٢ ، ص ٧٣ . السيرة الحلبية : ج ٢ ، ص ٥٣ .

الأول : « أنهم لن يصلوا من الآن اليك يا عليّ بامر تكراهه حتىّ تقدم عليّ » .
فالملاحظ للقارئ هو أن رسول الله ﷺ إنما قال هذه العبارة عندما أمره بآداء أمانته ،
وذلك بعد انقضاء قضية ليلة المبيت .

أي انه أمر علياً بذلك ، وقال له تلك العبارة وهو يتهيأ للخروج من غار ثور .
يقول الحلبي في سيرته : « وصى رسول الله ﷺ في احدى الليالي وهو بالغار عليا
رضي الله عنه بحفظ ذمته وآداء امانته ظاهرا على اعين الناس » (١) .

وتم ينقل عن مؤلف كتاب « الدر » ما يقتضي انه اجتمع به عند خروجه من الغار .
وخلص القول : انه مع رواية شيخ جليل من مشايخ الشيعة الامامية كالشيخ الطوسي
بالاسناد الصحيحة أن الأمر برد الودائع والامانات صدر من جانب النبي ﷺ إلى علي
عائلاً بعد ليلة المبيت لا يحق لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح ، ونعمد إلى الهاء العامة
بالتوافه ، وأما رواية مؤرخي اهل السنة هذا المطلب بشكل آخر يوحى ظاهره بأن جميع
وصايا النبي ﷺ لعلي تمت في ليلة واحدة هي ليلة الهجرة (ليلة المبيت) فقابل للتفسير
والتوجيه ، لأنه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركزة على رواية أصل الموضوع ، ولم يكن لظرف
صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها اهمية عندهم .

الخروج من الغار :

هيأ علي عائلاً بأمر النبي ثلاث راحل ودليلاً اميناً يدعى أريقط ليترحلوها إلى المدينة ،
ويدلهم الدليل على طريقها وأرسل كل ذلك إلى الغار .

١ - السيرة الحلبية : ج ٢ ، ص ٣٥ .

ولما سمع النبي ﷺ رغاء البعير أو نداء الدليل نزل هو وصاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجها من أسفل مكة إلى « يثرب » سالكين إلى ذلك الخط الساحلي ، وقد جاء ذكر المنازل التي مرَّ بها في السيرة النبوية لابن هشام^(١) وفي الهوامش المثبتة على التاريخ الكامل لابن الأثير^(٢).

صفحة التاريخ الأولى :

اجل لقد حلّ الظلام في كل مكان ، ولملمت الشمس اشعتها الذهبية من هذا الوجه من الكرة الأرضية لتوجهها إلى الوجه الآخر منها.

وعاد جماعة من رجال قريش الذين سلكوا كل طريق في مكة وضواحيها بحثاً عن النبي ، ثلاثة أيام ، بلياليها ، إلى بيوتهم ومنازلهم متعبين مرهقين ، وقد يئسوا من الثفر بالجائزة (وهي مائة من الإبل) التي وضعتها سادة قريش جائزة لمن يأخذ محمداً أو يدل على مكانه ، وأعيد فتح طريق مكة . المدينة التي أغلقت لهذه الغاية بعد اليأس من الظفر برسول الله ﷺ .^(٣)

وفي هذه اللحظات بالذات بلغ نداء الدليل الذي كان يصطحب معه ثلاث رواحل ومقداراً من الطعام ، إلى مسمع رسول الله ﷺ ورفيقه وهما في الغار وقد كان يقول بصوت خافت : لا بد ان نتخذ من ظلام هذا الليل سترًا ، ونسرع في الخروج من حدود المكّيين ، ونختار طريقاً يقل سالكوه ولا يهتدي إليه أحد.

ويبدأ تاريخ المسلمين من العام الذي تضمّن تلك الليلة بالضبط ، وجعل المسلمون يقيسون كل ما يقع من الحوادث بذلك العام وبذلك يحددون تاريخه وزمان حدوثه.

١ . السيرة النبوية لابن هشام : ج ١ ، ص ٤٩١ .

٢ . الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ٧٥ .

٣ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ١٠٤ .

لماذا أصبح العام الهجري مبدأ للتاريخ :

إن الإسلام أكمل الشرائع السماوية قاطبة ، وقد جاء إلى البشرية بما تتضمنه شريعة موسى وعيسى عليهما السلام ولكن بصورة أكمل وبصيغة تطابق وتمشى مع جميع الظروف والأوضاع.

ومع أن السيد المسيح عليه السلام وميلاده المبارك يحظى بالاحترام عند المسلمين إلا أن ميلاده عليه السلام لم يُتخذ لديهم مبدأ للتاريخ ، والتوقيت .

وكانت العرب قد جعلت عام الفيل ^(١) مبدأ لتاريخها ، وكانت تقيس حوادثها وأمورها إليه فترة من الزمن ، ومع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد وُلِدَ في ذلك العام نفسه ، إلا أن المسلمين لم يتخذوه مع ذلك مبدأ للتاريخ ، لأنه لم يكن ينطوي على ما يتصل بقضية الإيمان والإسلام.

ولاجل هذا أيضا لم يتخذوا عام البعثة مبدأ لتاريخ المسلمين أيضا لأن عدد المسلمين لم يكن يتجاوز في ذلك اليوم ثلاثة أشخاص ، إذن فلم يكن في اي واحد من تلك الحوادث ما يعطي مبرراً قوياً لاتخاذ مبدء للتوقيت والتاريخ ، إذ لا بد ان يكون ما يتخذ لذلك قضية مصيرة بالغة الأهمية.

ولكنه في السنة الاولى من الاعوام الهجرية حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً ، وقد أسست فيه حكومة مستقلة وتخلص المسلمون من التشردم والتبعثر ، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطة واحدة ، وبيئة حرة لا أثر فيها للكبت والاضطهاد ، من هنا جعلوا ذلك العام (أي العام الذي تحققت فيه هجرة النبي العظيم) مبدءً لتاريخهم ، واخذوا يقيسون إليه . وحتى الآن . كل ما يحدث ويقع من خير وشر ، لتحديد تاريخ وقوعه .

من هنا يكون قد مضى على عام هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة الف واربعمائة وتسعة اعوام.

١ . وهو العالم الذي سير فيه أبرهة جيشا لهدم الكعبة تتقدمة الفيلة . راجع الخبر : ص ٨٠٥ .

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة :

ولقد جعل رسول الله ﷺ التاريخ الهجري بنفسه .

وانّ أيّ إعراض وتجاهل لهذا التاريخ ، واختيار تاريخ آخر مكانه إعراض عن سنة رسول الإسلام الكريم ﷺ ، ومخالفة لما رسمه للمسلمين في هذا المجال .

إن وجود تاريخ معين ثابت (مؤلّف من السنة والشهر واليوم) في الحياة الإجتماعية البشرية ، من الأمور الضرورية الحيوية بل هو في غاية الضرورة والحيوية ، من أجل أن لا تتوقف عجلة الحياة الإجتماعية البشرية عن الدوران والحركة بسبب فقدان مقياس زمني ثابت ومعلوم للامور والحوادث .

وتلك حقيقة لا حاجة إلى اقامة البرهان عليها لأنّ الاستدلال عليها يكون مثل الاستدلال على الامور البديهية .

فهل يكون تنظيم المعاهدات ، والمواثيق السياسية والعسكرية ، والاتفاقيات ، والعقود الاقتصادية وتحويل وتسديد السندات والحوالات التجارية ودفع الديون وكتابة الرسائل العائلية من دون ذكر تاريخ معين فيها أمراً مفيداً؟ كلا حتماً ، ودون ريب .

فعندما سأل بعض الصحابة النبي ﷺ عن علة اختلاف أشكال القمر ، وانه لماذا يكون هلالاً تارة ثم بدراً أخرى . ثم يعود إلى سيرته الأولى هلالاً ، نزل الوحي الالهي ، يبيّن بعض حكمة هذه الظاهرة الطبيعية إذ قال تعالى : « قل هي مواقيت للناس »^(١) .

أي ان اختلاف اشكال القمر وهيئاته انما هو لاجل ان يعرف الناس به الوقت والتاريخ فيعرفوا في أي يوم من الشهرهم ، في مبدئه أو منتصفه ، أو منتهاه ،

١ . البقرة : ١٨٩ ومطلعها : « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت ... » .

ولكي يعرفوا بواسطة ذلك مواعيد واجباتهم الشرعية والاجتماعية ، ويعرف الدُّيان موعد تسلّم دُيوتهم ، ويعمّد المدينون إلى دفع ما عليهم في وقته ، ويقوم المؤمنون بفرائضهم المقيدة بالازمنة والاقوات كالصوم والحج وماشابه ذلك.

من هنا لا مجال للنقاش في احتياج كل أمة إلى تاريخ معين ثابت محدد يجعله ملاكاً للتوقيت ، ومداراً لتحديداتها الزمنية.

إنما الكلام هو في ما ينبغي إتباعه والجري عليه من التواريخ ، وتنظيم المستندات والمكاتبات والمواعيد وفقاً له.

وبعبارة أخرى : إن الكلام إنما هو في ما ينبغي جعله مبدء للتاريخ يقاس به كل العقود والاتفاقات من حيث الزمان ، والتوقيت.

فما الذي يصلح أوينبغي إتخاذه مبدء للتاريخ للامة الإسلامية؟

الجواب :

إن الاجابة على هذا السؤال واضحة جداً ، وتلك الاجابة هي :
إذا كانت لأمة من الامم حوادث لامعة وسوابق مشرقة في حياتها ، وثقافة خاصة بها ، وديناً ومسلماً مستقلاً وشخصيات علمية وسياسية بارزة ، واحداث ووقائع عظيمة مثيرة ، تبعث على الفخر والاعتزاز ، ولم تكن كنبته وحشية نبتت عفواً واعتباطاً من غير قانون ولا جذور كبعض الجماعات والشعوب الجديدة الظهور التي لا تتركز إلى أصول ثابتة معلومة.
فان على مثل هذه الأمة أن تتخذ من أعظم حوادثها الاجتماعية والدينية مبدء لتاريخها الذي تقيس ، وتنظم عليه بقية حوادثها وأعمالها التي سبقت تلكم الحادثة العظمى ، أو التي وقعت اوتقع بعدها.

ومن هنا تكون قد اكسبت شخصيتها وكيانها قوة أكبر ، وصانت نفسها من التبعية للشعوب والأمم الاخرى ، والميعان والفناء فيها.

وإذ لم يكن في تاريخ الأمة الإسلامية شخصية أعلى شأننا من شخصية رسول الله ﷺ ، كما لم يكن هناك حادثة أعظم ، وانفع من حادثة

الهجرة النبوية المباركة ، لأن هجرة النبي ﷺ فتحت . في الحقيقة . صفحة جديدة في حياة البشرية ، فقد خرج رسول الإسلام واتباعه من بيعة مكة الراححة تحت الكبت ، إلى بيعة مناسبة حرة مكنّتهم من إحداث انطلاقة كبرى لم يشهد التاريخ البشري برّمته لها مثلاً .
فقد استقبل أهل المدينة رسول الله ﷺ ومن هاجر معه من المسلمين إلى يشرب استقبالاً حاراً ، ووضعوا تحت تصرفه كلّ ما توفر لديهم من الامكانات والقوى ، فلم يعض زمن إلا وتمتع الإسلام بفضل هذه الهجرة المباركة بتشكيلات سياسية وعسكرية ، واتخذ صورة وشكل حكومة قوية لها وزنها ، وشأها ، وجانبها المرهوب في شبه الجزيرة العربية ، وسرعان ما نشر رايته على البسيطة كلها تقريباً ، وأسس حضارةً عظيمة لم تر البشرية لها نظيراً .

فاذا لم تحدث تلك الهجرة المباركة المعطاء لُقضي على الإسلام في محيط مكة ، وحُرّم العالم الانساني من هذا الفيض العظيم .
من هنا ، ولأجل هذا اتخذ المسلمون هجرة رسول الله ﷺ مبدءً لتاريخهم ، ودأبوا على ذلك إلى الآن حيث ينقضي أكثر من ألف وأربعمائة عام ، أي أن هذه الامة الكبرى تركت وراءها إلى هذا اليوم أربعة عشر قرناً من الأجداد والمفاخر ، وهي الآن على اعتبار القرن الخامس عشر؟

من الذي جعل الهجرة مبدءً للتاريخ؟

على العكس مما هو مشهور بين المؤرخين من أن الخليفة الثاني جعل هجرة النبي ﷺ مبدءً للتاريخ باقتراح وتأييد من الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام وامر بأن تؤرخ الدواوين ، والرسائل والعهود وما شابه ذلك بذلك التاريخ ، فان الامعان في مراسلات النبي ﷺ ومكاتباته التي هي مدرجة في الأغلب في كتب التاريخ والسيره والحديث والسنة ، وكذا غير ذلك من الادلة التي سوف نذكرها في هذه الصفحات يثبت أن النبي ﷺ هو نفسه أول من اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدءاً للتاريخ ،

وكان يؤرخ رسائله ، وكتبه إلى امراء العرب ، وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة بذلك التاريخ (أي التاريخ المحجري) .

وها نحن ندرج هنا نماذج من تلك الرسائل النبوية المؤرخة بهذا التاريخ ، ثم نعمد بعد ذلك إلى استعراض الدلائل الأخرى على هذا الأمر ، ونحن نحتمل ان تكون هناك أدلة أخرى غير ما سنذكره هنا . أيضا . لم نقف عليها .

نماذج من رسائل النبي المؤرخة :

١ . طلب سلمان من النبي ﷺ ان يكتب له ولأخيه (ماه بنداذ) ولأهله وصية مفيدة ينتفع بها ، فاستدعى رسول الله ﷺ علياً وأملى عليه أموراً ، وكتبها علي عليه السلام ثم جاء في آخر تلك الوصية :

« وكتب علي بن أبي طالب بأمر رسول الله ﷺ في رجب سنة تسع من الهجرة »^(١) .

٢ . أدرج المؤرخ الشهير « البلاذري » في كتابه « فتوح البلدان » نصَّ معاهدة رسول الله ﷺ مع يهود « المقنا » وذكر أن مصرياً رأى نص هذه المعاهدة في جلد أحمر اللون عتيق وكان قد استنسخها ، فقرأها لي .

ثم نقل البلاذري نص تلك المعاهدة وقد جاء في نهايتها :

« وليس عليكم امير الا من انفسكم أو من اهل بيت رسول الله ﷺ وكتب علي بن أبو طالب في سنة تسع »^(٢) ومع أن « أبا طالب » يجب أن يكتب حسب القواعد الادبية في المقام « أبي طالب » لكونه مضافاً إليه فقد كتب : « علي بن أبو طالب » ولكن مع ذلك ذكر المحققون ان قبيلة قريش كانت تتلفظ لفظة أب في جميع الموارد (أي في حالة النصب والرفع والجر) بـ « أبو » وتكتبها كذلك أيضاً ، وقد صرح الاصمعي بهذا من بين الادباء .

ويقول البروفيسور « محمد حميد الله » مؤلف كتاب « الوثائق السياسية » : اني

١ . اخبار اصفهان : تأليف ابي نعيم ، ج ١ ، ص ٥٢ و ٥٣ .

٢ . فتوح البلدان : ص ٧٢ .

لما كنت في المدينة المنورة في شهر محرم سنة ١٣٥٨ وجدت في الكتابة القديمة التي في جنوبي جبل سلع في المدينة المنورة « أنا علي بن أبو طالب »^(١).

٣ . جاء في معاهدة الصلح التي نظمها « خالد بن الوليد » لاهل دمشق ، ونص فيها على احترام دمائهم ، واموالهم وكنائسهم : « وكتب سنة ثلاث عشرة »^(٢) .
وكلنا نعلم أن دمشق فتحت في أواخر حياة الخليفة الأوّل .

فما يدعيه البعض من ان التاريخ الهجري قد اتخذ في عهد الخليفة الثاني بارشاد وتأييد من الامام علي عليه السلام غير صحيح فان تاريخ ذلك يرتبط بالسنة السادسة عشرة أو السابعة عشرة من الهجرة ، والحال ان هذه المعاهدة قد نظمت وودّنت واُخت بالتاريخ الهجري قبل ذلك بأربع سنوات .

٤ . ان كتاب الصلح الذي كتبه الامام علي عليه السلام بأمر رسول الله ﷺ لنصارى بجران مؤرخ بالسنة الهجرية الخامسة .
فقد جاء في هذه الرسالة :

« وأمر عليا ان يكتب فيه انه كتب لخمس من الهجرة »^(٣) .

ان هذه الجملة تفيد بوضوح ان النبي الاكرم ﷺ هو واضع التاريخ الهجري ومؤسسه الاوّل وهو الذي أمر عليا عليه السلام بان يؤرخ ذلك الكتاب بالتاريخ الهجري في ذيله .

٥ . جاء في مقدمة الصحيفة السجادية : قال جبرئيل وهو يفسر رؤيا رآها رسول الله ﷺ : « تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشر ، ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمس ، ثم لا بد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها »^(٤) .

١ . مكاتيب الرسول : ص ٢٨٩ ، نقلا عن شرح ملا علي القاري لشفاء القاضي عياض ، وكذا الوثائق السياسية .

٢ . الاموال : طبعة مصر ، ص ٢٩٧ .

٣ . التراثيب الادارية : ج ١ ، ص ١٨١ نقلا عن السيوطي .

٤ . مقدمة الصحيفة السجادية ، سفينة البحار : ج ٢ ، ص ٦٤١ .

- ٦ . يروي المحدثون الاسلاميون أن رسول الله ﷺ قال لام سلمة :
« يُقتل الحسين بن علي على رأس ستين من مهاجري » ^(١) .
- ٧ . قال أنس بن مالك : « حدثنا أصحاب النبي ﷺ قال : لا تأتي مائة سنة من
الهجرة ومنكم عين تطرف » ^(٢) .
- ٨ . أرخ أصحاب النبي ﷺ في أيام حياته الحوادث الإسلامية بهجرته فقالوا : وقع كذا
في الشهر كذا من الهجرة ، مثلا كانوا يقولون : حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في
شهر شعبان ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا أو ثمانية عشر شهرا ^(٣) .
على رأس ثمانية عشر شهرافى صوم شهر رمضان ^(٤) .
وقال عبد الله بن انيس أمير الوفد الذي بعثه رسول الله ﷺ :
خرجت من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس أربعة وخمسين شهرا ^(٥) .
وقال محمد بن سلمة عن غزوة القرطاء : خرجت في عشر ليال خلون من المحرم فغبت
تسع عشرة وقدمت لليلة بقيت من المحرم على رأس خمسة وخمسين شهرا ^(٦) .
إنَّ هذا النوع من تاريخ الحوادث والوقائع يكشف عن ان المسلمين كانوا إلى السنة
الخامسة من الهجرة يقيسون الحوادث بهجرة النبي ﷺ ويؤرخون بها عن طريق عدِّ الأشهر
، حتَّى إذا كانت السنة الخامسة من الهجرة

١ . مجمع الزوائد : ج ٩ ، ص ١٩٠ .

٢ . تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٦٧ .

٣ . نفس المصدر : ج ١ ، ص ٣٦٨ .

٤ . المغازي : ج ٢ ، ص ٥٣١ تحقيق الدكتور مارسدن جونز .

٥ . المغازي : ج ٢ ، ص ٥٣١ .

٦ . المغازي : ج ٢ ، ص ٥٣٤ .

أمر رسول الله ﷺ باحلال السنة الهجرية مكان الشهر الهجري (كما مر في الرسالة رقم ٤) حيث أمر النبي ﷺ بان يُؤرَّخ الكتاب الذي كتبه لنصارى نجران بالعام الهجري .
٩ . نقل المحدثون الاسلاميون عن الزهري قوله : ان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة مهاجرا أمر بالتاريخ فكتب في ربيع الأول (اي شهر قدومه المدينة) (١) .
١٠ . روى « الحاكم » عن « ابن عباس » ان التاريخ الهجري بدأ من السنة التي قدم فيها النبي ﷺ المدينة (٢) .

إن هذه النصوص تحكي عن أن قائد الإسلام الأكبر قد أوضح مسألة التاريخ من اليوم الاول. وانه جعل هجرته مبدأ لذلك التاريخ. غاية ما هنالك أن هذا التاريخ كان إلى فترة من الزمن يعدُّ بالأشهر ثم حل العدُّ بالأعوام منذ حلول السنة الخامسة من الهجرة محل العد بالاشهر.

سؤال :

ويمكن ان يسأل سائل : إذا كان حقاً أن النبي ﷺ هو مؤسس التاريخ الهجري وواضعه الاوّل فماذا نفعل بالخبر الذي رواه كثير من المحدثين والمؤرخين .
فانهم يقولون : رفع رجل إلى عمر صكا مكتوبا على آخر بدين يحل عليه في شعبان فقال عمر : اي شعبان؟ أمن هذه السنة أم التي قبلها أم التي بعدها؟
ثم جمع الناس (أي أصحاب رسول الله ﷺ) فقال : ضعوا للناس شيئا يعرفون به حلول ديونهم ... فيقال : أن بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده فكرهوا ذلك .

١ . فتح الباري : ج ٧ ، ص ٢٠٨ ، تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٢٨٨ طبعة دار المعارف .

٢ . مستدرک الحاكم : ج ٣ ، ص ١٣ و ١٤ وقد صححه على شرط مسلم .

ومنهم من قال : أرخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر فكرهوا ذلك لطوله أيضا .
وقال آخرون : أرخوا من مولد رسول الله ﷺ .
وقال آخرون : أرخوا من مبعثه . وأشار علي بن أبي طالب عليه السلام أن يؤرخ من هجرته إلى
المدينة لظهوره على كل أحد ، فانه أظهر من المولد والمبعث ، فاستحسن عمر ذلك
والصحابه ، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله ﷺ ^(١) .

الجواب :

إن هذا القسم من التاريخ لا يمكن الاستناد إليه في مقابل النصوص الكثيرة التي وصفت
الرسول العظيم ﷺ بكونه واضع التاريخ الهجري ومؤسسه الأول .
هذا مضافا إلى أنه من الممكن أن يكون التاريخ الهجري الذي وضعه النبي الكريم
ﷺ قد تعرض للترك ، وفقد رسميته بمرور الزمن وقلة الحاجة إلى التاريخ ولكن جُدد في
زمن الخليفة الثاني ، بسبب اتساع نطاق العلاقات وأعيد الاهتمام به لاشتداد الحاجة إليه في
هذا العهد .

التذكير بنقطتين :

١ . لا نجد في الاقتراحات التي عرضت على الخليفة في مجال التاريخ أي ذكر للتاريخ
المسيحي الذي يجعل ميلاد السيد المسيح عليه السلام مبدء للتاريخ .
والعلة هي : أن التاريخ الميلادي ظهر في القرن الرابع الاسلامي بين

١ . البداية والنهاية : ج ٧ ، ص ٧٣ و ٧٤ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٢ ، ص ٧٤ . الكامل
لابن الاثير : ج ١ ، ص ١٠ .

المسيحيين بعد سلسلة من المحاسبات التخمينية ، فهو لم يكن رائجاً قبل ذلك .
٢ . ان البلاد والاقطار الإسلامية بحاجة اليوم إلى الوحدة والاتفاق أكثر من اي زمن مضى .

ومن مظاهر تلك الوحدة هو السعي للحفاظ على التاريخ الاسلامي الهجري .
ومن هنا يتوجب على الاقطار الإسلامية ان تقيم كل روابطها ، وعلاقاتها على أساس التاريخ الهجري ، شمسياً كان أو قمرياً .
وان هذا الأمر بحاجة إلى مؤتمر إسلامي كبير يشترك فيه كبار الشخصيات الفكرية الإسلامية من أجل توحيد التاريخ ، ودراسة السبل الكفيلة بالوصول إلى هذا الأمر ، والتخلص من التبعية الغربية في التاريخ .
ان من المؤسف جداً أن تتجاهل بعض الدول الإسلامية والعربية التاريخ الهجري وتعتمد التاريخ الميلادي المسيحي ، حتى أن شيخ الجامع الأزهر الذي يشكل قمة القيادة الدينية في المجتمع السني يؤرخ رسائله بالتاريخ الميلادي ، ولا يذكر إلى جانبه التاريخ الهجري على الأقل!!^(١)

مؤامرة الطاغوت :

وكانت ايران من الاقطار الإسلامية التي حافظت بشدة على التاريخ الهجري ، واعتمدته في اعمالها ، ولكن في المؤامرة التي نفذت بواسطة الطاغية المقبور في عام ١٣٩٩ هـ ، استبدلت التاريخ الهجري بالتاريخ الشاهنشاهي وأعلن في وسائل الاعلام عن وجوب اعتماد هذا التاريخ المختلق بدل التاريخ الهجري الاصيل!!
ولقد تصوّر الطاغوت الأرعن أنه يستطيع بحذف التاريخ الهجري ، واستبداله

١ . وقد رأيت أنا شخصياً رسالة من شيخ الجامع الأزهر السابق هو الشيخ محمود عبد الحلیم وعليها التاريخ الميلادي فحسب!!

بالتاريخ الشاهنشاهي المشؤوم تثبيت قواعد حكومته المهزوزة ، وسلطانه المنخور ، ونظامه الظالم المتهرى ، مدة أطول ، ولكن العناية الالهية ، وهمة الشعب الإيراني المسلم العالية ، وقيادة الاستاذ الاكبر آية الله العظمى الإمام الخميني رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ الشرف أفشلت هذه المحاولة النكراء ، وآل الأمر إلى اسقاط النظام الشاهنشاهي بشورة الشعب المجيدة واقامة حكومة الجمهورية الإسلامية على انقاض الحكم الملكي المباد ، واحلال التاريخ المحجري الاسلامي المبارك محل التاريخ الشاهنشاهي المختلق. والحمد لله ^(١).

برنامج الرحلة في حادث الهجرة :

لقد كان على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ان يقطع . للوصول إلى المدينة . ما يقرب من اربعمائة كيلومتراً ، ولا شك أن طي هذه المسافة الطويلة تحت تلك الحرارة العالية الدرجة بحاجة إلى خطة صحيحة ، لضمان السلامة ، خاصة وانهم كانوا يخافون من أن يقوم الأعراب الذين كانوا ربما يصادفونهم في أثناء الطريق باخبار قريش بهم ، ولهذا كانوا يسرون ليلاً ويستريحون نهاراً.

ويبدو أن شخصاً شاهد النبي ومن معه في أثناء الطريق فرجع إلى مكة وأخبر قريشاً بذلك فخرج « سراقه بن مالك بن جعشم » يطلبهم طمعا في جائزة قريش الكبرى فلحق برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد صرف قريشاً عن ملاحقة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ذلك ليتفرد بها. ^(٢) يقول ابن الاثير : تبعهم سراقه فلحقهم فقال أبو بكر : يا رسول الله ادركننا الطلب ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لا تحزن إن الله معنا » . ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللهم اكفني شرَّ سراقه بما شئت » فجمع به فرسه وطرحه أرضاً.

١ . يستخدم في ايران تاريخ هجري آخر هو التاريخ الهجري الشمسي وهو ينفع لمعرفة الفصول وما شاكل ذلك.

٢ . التاريخ الكامل : ج ٢ ، ص ١٠٥ .

فعلم سراقه أن هذا من دعاء رسول الله ﷺ ولهذا قال بنبرة المعتذر الملتمس : يا محمد هذه إبلي بين يديك فيها غلامي .

وان احتجت إلى ظهر (اي مركوب) أو لبن فخذ منه فقد حكمتك في مالي .

فقال رسول الله ﷺ : لا حاجة لي في مالك (١) .

وروى المجلسي ان سراقه قال : فسألني حاجة .

فقال رسول الله ﷺ : رُبُّ عَتَا مَن يَطْلُبُنَا مِن قَرِيشٍ .

فانصرف سراقه فاستقبله جماعة من قريش في الطلب فقال لهم : انصرفوا عن هذا الطريق

فلم يمرّ فيه أحد ، وأنا اكفيكم هذا الطريق فعليكم بطريق اليمن والطائف .

وهكذا ما كان يمر باحد إلا وصرفه عن البحث عن النبي ﷺ في هذا الطريق بمثل هذا الكلام .

ثم إن كُتِّبَ السيرة من الشيعة والسنة يذكرون لرسول الله ﷺ كرامات كثيرة في طريق

مكة . المدينة ونحن ندرج واحدة منها :

مر رسول الله ﷺ في أثناء الطريق على خيمة لمُ معبد وكانت امرأة شجاعة فاضلة

فنزّلوا بخيمتها وطلبوا منها تمرًا ولحماً أو لبناً يشترون .

فقلت : ما يحضرنى شيء وكانت أغنامها قد أصيبت بالهزال بسبب الجذب ، فنظر

رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب من الخيمة فقال ﷺ لها : ما هذه الشاة يا لمُ

معبد؟ قالت : شاة خَلَفَهَا الجهد من الغنم فقال : هل بها من لبن؟ .

قالت : هي أجهدُ من ذلك ، قال : أتأذنين ان أحلبها؟ .

١ . يذكر كثير من المؤرخين كابن الاثير في الكامل : ج ٢ : ص ١٠٥ . والمجلسي في البحار : ج ١٩ ، ص ٧٥ .

٨٨ القصة كما نقلناها هنا ، ولكن مؤلف حياة محمد يقول : ان سراقه تطير لما كبا به فرسه وألقى في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته .

قالت : نعم ان رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها ، وسمى الله عزوجل ، ودعا لها في شاتها قائلاً اللهم بارك لها في شاتها فدرت لنا كثيراً بفضل دعائه ﷺ فطلب إناء وحلبها ، فسقاها أولاً حتى رؤيت ثم سقى أصحابه حتى رؤوا وشرب هو آخرهم ، وقال :
« ساقى القوم آخرهم شرباً ».

ثم حلب الشاة مرة ثانية فغادره عندها ، وثم ارتحلوا عنها إلى المدينة ^(١) .
وقد ذكرت هذه الكرامة في كثير من كتب السيرة والتاريخ ، وهو أمر ممكن في رؤية المؤمن بالله ، لأن الدعاء أحد الاسباب التي تستطيع أن تؤثر في الطبيعة ، وشأنها شأن غيرها من الكرامات التي ورد ذكرها في الكتب الدينية وصدقته التجربة ^(٢) .

النزول في قرية قباء :

تقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة وكانت مساكن « بني عمرو بن عرف » ومركزهم.
ولقد وصل رسول الله ﷺ ومن معه إلى قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الاول يوم الاثنين ، ونزل على « كلثوم بن الهرم » وهو شيخ من بني عمرو وكان ثمة جمع كبير من المهاجرين والانصار ينتظرون قدومه ، ويستخبرون وروده.
ولقد لبث رسول الله ﷺ في قباء إلى آخر أيام الاسبوع ، وقد خط في هذا الفترة مسجدا لقبيلة « بني عمرو بن عوف » ، ونصب قبلته ^(٣) .

١- بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٧٥ .

٢- بحار الأنوار : ج ١٨ ، ص ٤٣ و ج ١٩ ، ص ١٠٣-٩٩ ، الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢٣٠ و ٢٣١ ، تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٣٣ ، أسد الغابة : ج ١ ، ص ٣٧٧ .

٣- تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٣٨ .

وكان البعض ممن رافق رسول الله ﷺ يصبرّ عليه أن يسارع في الدخول إلى المدينة ،
ولكن رسول الله ﷺ كان ينتظر ابن عمه عليا .
ويقول : فما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أمي وأخي ، وابنتي (يعني عليا وفاطمة
عليهما السلام) (١) .

وأقام علي عليه السلام بمكة ثلاث ليال بايامها ، حتّى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي
كانت عنده للناس فقد وقف عليه مكان مرتفع في مكة ونادى قائلا :
« من كان له قِبل محمد أمانة أو ودیعة فليأت فلنؤد إليه أمانته » .
فكان يأتيه من له أمانة أو ودیعة عند رسول الله ﷺ ويذكر علامتها ويأخذها فلما
فرغ عليه من اداء الامانات والودائع خرج بفاطمة بنت رسول الله ﷺ وامه فاطمة بنت
اسد ، وفاطمة بنت الزبير وآخرين ممن لم يكن قد هاجر مكة حتى تلك الساعة ، وتوجه بهم
نحو المدينة ليلا سالكا بها طريقاً في « ذي طوى » .

كتب الشيخ الطوسي في اماليه في هذا الصدد يقول : إن جواسيس قريش غرفت بسفر
علي مع تلك الجماعة ، فخرجوا لملاحقتهم ، لغرض اعادتهم إلى مكة ، فادركوهم في منطقة
« ضحنان » .

ووقع بين رجال قريش وبين علي عليه السلام تلاح وتناوش ، وأخذ وردُّ ، ودنا الرجال من
النسوة ، والمطايا ليثوروها فحال علي عليه السلام بينهم ، وبينها ، ولم يجد عليه السلام طريقا إلا أن يدافع
عن حرم الإسلام والمسلمين ، فشدّ عليهم بسيفه شدة الأسد الغضب والليث الغيور وهو
يقول مرتجزا :

خَلُّوا سَبِيلَ الْجَاهِدِ الْمُجَاهِدِ آلِيَتِ لَا أَعْبُدُ غَيْرَ الْوَاحِدِ

١ . الفصول المهمة لابن صباغ المالكي : ص ٣٥ دون ان يذكر اسماً ، وامالي الشيخ الطوسي : ج ٢ ، ص ٨٣ .

فلما وجدوا ما به من الجذ والغضب خافوه وتفرقوا عنه وقالوا : بنيرة الخائف المتضرع . :
إحبس عنّا نفسك يا ابن أبي طالب ، فقال عليّ :
« فإني مُنْطَلِقٌ إلى ابن عمّي رسول الله ﷺ ييثر فمّن سرّه ان أفري لحمه وأهريق
دمه فليتبعني ، وليدُنْ مني » .

فتركه القومُ وعادوا من حيث أتوا ، وواصل الركبُ رحلته باتجاه المدينة .
يقول ابن الاثير : قدم « علي » المدينة وقد تفتّرت قدماه ، فقال النبيّ ﷺ : ادعوا
لي عليّاً ، قيل : لا يقدر أن يمشي ، فأتاه النبيّ ﷺ واعتنقه وبكى رحمة لما يقدميه من
الورم ^(١) .

ولقد قدم رسول الله قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، والتحق به عليّ في
منتصف ذلك الشهر نفسه ^(٢) ، ويؤيد هذا القول ما ذكره الطبري في تاريخه إذ كتب يقول :
واقام علي بن ابي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله
ﷺ الودائع التي كانت عنده إلى الناس ^(٣) .

المدينة تهبُّ لقدم النبي :

ولقد كان يوم دخول رسول الله ﷺ يوماً عظيماً جداً ، ومشهوداً .
فكم ترى ستكون عظيمة فرحة الذين آمنوا برسول الله ﷺ منذ ثلاث سنوات ،
وظلوا طوال هذه الأعوام يبعثون برسلهم ووكلائهم إليه ، ويذكرون اسمه المقدس ، ويصلّون
عليه في صلواتهم كل يوم ، إذا سمعوا أن

١ . الكامل في التاريخ : ج ٢ ، ص ١٠٦ .

٢ . إمتاع الأسماع : ص ٤٨ وعلى هذا تكون محاصرة بيت رسول الله ﷺ قد تمّت ثلاث ليال قبل شهر ربيع
الأول من السنة الأولى من الهجرة ، وقد خرج النبيّ من داره ليلة الاثنين ودخل غار ثور وبقي مائتاً فيه ثلاثة أيام
، وخرج منه ليلة الخميس اول ربيع الاول وتوجه نحو المدينة ووصل قباء في الثاني عشر منه راجع تاريخ الخميس :

ج ١ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

٣ . تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ٣٨٢ .

قائدهم ذلك الذي طال انتظارهم اياه ، واشتد تشوقهم إليه كائن عند ميلين من مدينتهم قد نزل في قبا اياماً ، وسيقدم اليهم ويدخل مدينتهم بعد ايام؟ وكم سيكون مبلغ ابتهاجهم ، وأي ابتهاج ترى سيعم كل صغير وكبير؟ إنه حقاً لأمر يعجزُ القلم عن بيانه ، ويكل اللسان عن وصفه .

ولقد كان لفتية الأنصار وشبابهم الضامئين إلى الإسلام الحنيف برنامجٌ رائعٌ وعظيمٌ ، فقد كانوا عمدوا بغية تطهير جو المدينة من ادران الوثنية إلى كل صنم في المدينة كان يقيدٌ ويعبد فاحرقوه وكسروه ، وقد كان كل شريف في بيته صنمٌ يمسه ويطيبه ، ولكل بطن من الأوس والخزرج صنمٌ في بيت لجماعة يكرمونه ويطيّبونه ، ويجعلون عليه منديلاً ويدبّجون له .^(١)

ولا بأس في أن نذكر نموذجاً من هذا العمل الجليل الذي قام به الانصار في التخلص من الوثنية :

لما قدم من بايع من الأنصار في العقبة الثانية إلى المدينة اظهروا الإسلام بها وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دين الشرك وعبادة الأوثان منهم « عمرو بن الجموح » وكان من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم وكان ابنه « معاذ » بن عمرو قد شهد بيعة العقبة . وكان عمرو هذا قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له : مناة ، كما كانت الاشراف يصنعون ، تتخذة إلهاً تعظمه وتطهره ، فلما أسلم فتيان بني سلمة : معاذ بن جبل ، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح كانوا يتسلّلون في الليل إلى صنم عمرو بن الجموح فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفَرِ بني سلمة ومزابلها ، وفيها فضلات الناس وعذرها منكساً على رأسه!!

فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجدته غسله وطهره وطيّبه . ثم قال للصنم : أما واليه لو أعلم من فعَل هذا بك لأحزبته!

١ . بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ١٠٧ .

فاذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ثانية ففعلوا به مثل ما فعلوا به أولاً .
فيغدو فيجدّه في مثل ما كان فيه من الأذى والوسخ فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون
عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك .

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه
عليه ، ثم قال : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع ، ودافع
عن نفسك فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدواً على ذلك الصنم فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً
ميتاً فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس وفضلاتهم .
ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به .

فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ، ميت ، فلما رآه وابصر
شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه فأسلم ، وهجر الوثنية والأوثان وحسن إسلامه .

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك ، وما أبصر من شأنه
ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قبرٍ
لُملقاك إلهاً مستديراً الآن فتشناك عن سوء الغيب
فالحمد لله العلي ذي المنن الواهب الرزاق ذيّان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن يكون له كبر مرهق

بأحمد المهدي النبي المرهق^(١)

النبي يدخل المدينة :

بعد أن التحق علي عليه السلام ومن معه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قباء توجه رسول الله
إلى المدينة ولما انحدر من ثنية الوداع (و

١ . اسد الغابة : ج ٤ ، ص ٩٩ .

هي منطقة قريبة من المدينة) وحط قدمه على تراب يثرب استقبله الناس رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، استقبالا عظيماً ورحبوا به اعظم ترحيب ، وردد المرحبون انا شيد الترحيب التالية :

طَلَبَعِ الْبَدْرَ عَلَيْنَا مِنْ نَيْمَاتِ السُّوَاعِ
وَجَبَّ الشُّبُكُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ
أَيْهَا الْمَبْعُوثِ فِينَا جِئْتِ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

وكانت بنو عمرو بن عوف قد اجتمعت عنده وأصير^١ عليه بأن ينزل في قباء وقالوا : أقم عندنا يا رسول الله فإننا أهل الجد والجلد ، والحلقة (أي السلاح) والمنعة ، ولكن رسول الله ﷺ لم يقبل .

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول الله ﷺ وقرب نزوله المدينة فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا يمر بحيٍّ من أحياء الانصار إلا وثبوا في وجهه وأخذوا بزمام ناقته وأصبراً عليه بأن ينزل عليهم هذا ورسول الله ﷺ يقول : خَلُّوا سَبِيلَهَا فَانْهَافًا مَأْمُورَةً .

واخيرا لما انتهت ناقته . وكان ﷺ قد أرخى زمامها . إلى باب المسجد الذي هو اليوم ، ولم يكن مسجداً إنما كان أرضاً واسعة ليتيمين من الخزرج يقال لهما : سهل وسهيل وكانا في حجر أسعد بن زرارة فبركت الناقة على باب « ابي أيوب » خالد بن زيد^(١) الانصاري الذي كان على مقربة من تلك الأرض .

فاغتمت ام أبي ايوب الفرصة فبادرت إلى رحل رسول الله ﷺ فحلته وأدخلته منزلها ، بينما اجتمع عليه الناس ويسألونه أن ينزل عليهم .

فلما اکتروا عليه ، وتنازعوا في أخذه قال ﷺ أين الرجل؟؟

فقالوا : يخوف أم أيوب قد ادخلته في بيتها .

فقال ﷺ : « المرء مع رحله » وأخذ اسعد بن زرارة بزمام

١ . بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ١٠٨ ولكن ذهب البعض كصاحب الكامل في التاريخ إلى أنهما كانا في حجر معاد بن عفراء .

الناقة فحوّوها إلى منزله (١).

أصل النفاق ومنشؤه :

كانت الأوس والخزرج قد اتفقتا على أن تملك عبد الله بن أبي بن سلول (رئيس المنافقين وكبيرهم) عليهم ، وذلك قبل أن تباع رسول الله ﷺ في العقبه وتؤمن به وتعتنق الإسلام ولكن هذا القرار ألغي بعد اتصال الأوس والخزرج برسول الله ﷺ من هنا حنق عبد الله بن أبي على رسول الله ﷺ واضمر له العداوة منذ ذلك الحين ، ولم يؤمن برسول الله ﷺ إلى آخر حياته ، بل كان ينافق باسلامه .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة وشاهد عبد الله بن أبي ذلك الاستقبال والترحيب العظيمين لرسول الله ﷺ الذي قام بهما الأوس والخزرج ، شق عليه ذلك جداً ، ولم يستطع اخفاء حنقه وغضبه ، وحده وعداوته للنبي ﷺ وسلم!

فعندما انتهى ﷺ إلى عبد الله بن أبي . وقد أرحى ﷺ زمام ناقتة لتبرك حيث تريد ، أخذ عبد الله كتمه ووضعها على أنفه ، وقد ثارت الغيرة بسبب الزحام وقال للنبي ﷺ بنبرة الحانق الغاضب : يا هذا إذهب إلى الذين غرّوك وخذعوك وأتوا بك ، فانزل عليهم ، ولا تُغشنا في ديارنا!!

فقام سعد بن عبادَة . وقد خشي أن يسوء رسول الله ﷺ هذا الموقف الوقح الشرير فقال : يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء ، فإنّا كنّا اجتمعنا على ان نملكه علينا ، وهو يرى الآن أنّك قد سلّبتة أمراً قد كان أشرفَ عليه (٢) .

١- تاريخ الخميس : ج ١ ، ص ٣٤١ .

٢- بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ١٠٨ .

هذا ويتفق عامة المؤرخين وكتاب السيرة أن رسول الله ﷺ دخل يثرب يوم الجمعة ،
وصلّى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم ، وكانت هذه أوّل جمعة جمّعها
رسول الله ﷺ في الإسلام فخطب في هذه الجمعة وهي أوّل خطبة خطبها في المدينة ،
وقد تركت هذه الخطبة البديعة البليغة التي لم يسمع اهل المدينة مثيلها لفظاً ومعنى من قبل ،
أثراً عميقاً وطيباً في قلوبهم ونفوسهم.

وقد أدرج ابن هشام نص الخطبة في سيرته ^(١) كما أدرجها المجلسي في بحاره ^(٢) أيضاً.
غير أن عبارات ومضامين الخطبة التي نقلها ابن هشام وأثبتها في سيرته تختلف عما رواها
وأثبتها المجلسي ، وللاطلاع على ذلك يراجع المصدران المذكوران.

١- السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٥٠٠ و ٥٠١ .

٢- بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ١٢٦ .

الفهارس

- ١ . فهرس الآيات القرآنية
- ٢ . فهرس الأحاديث الشريفة
- ٣ . فهرس الأشعار
- ٤ . فهرس الأعلام
- ٥ . فهرس القبائل والأمم
- ٦ . فهرس الكنى والألقاب
- ٧ . فهرس الوقائع والايام
- ٨ . فهرس الأماكن والبلدان
- ٩ . فهرس المذاهب والأديان ونظم الحكم
- ١٠ . فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة
- ١١ . فهرس المواضيع

(١)

فهرس الآيات القرآنية

البقرة . ٢

الصفحة	رقمها	الآية
٢٤١	٧٨	وآتينا عيسى بن مريم البينات
و ٢٨١	٨٩	ولما جائهم كتاب من عند الله
٣٥٠		
و ١٤٢	١٢٦	رب الجعل هذا بلدا آمنا
١٤٥		
٣٥٠	١٢٩	ربنا وابعث فيهم رسولا
١٣١	١٣٣	إذ قال لبيته ما تعبدون من بعدي
٢٤٠	١٣٤	إني جاعلك للناس إماما
٣٠٨	١٤٣	وما كان الله ليضيع إيمانكم
٣٤٩	١٤٦	الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه
٣٤٩	١٧٤	ان الذين يكتمون ما انزل الله
٣٤٤	١٨٥	شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن
٦٠٦	١٨٩	قل هي موآقيت للناس
٥٩٥	٢٠٤	ومن الناس من يعجبك قوله
٣١٦	٢١٣	كان الناس امة واحدة
٤٥	٢١٩	يسألونك عن الخمر
٦٣	٢٣١	واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن
٦٢	٢٣٣	واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن
٤٩	٢٧٥	قالوا انما البيع مثل الربا
٥٠	٢٧٥	واحل الله البيع
٤٩	و ٢٧٨	يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من

٢٧٩

الربا

آل عمران . ٣

٢٢٣	٣٧	وكفلناهم زكريا كلما دخل عليه المحراب
٢٤١	٤٢	يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك
٤٧٩	٤٩	وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم
٤٧٩	٦١	فمن حاجك من بعد ما جاءك من البينات
٢٤٠	٦٧	ولكن كان حنيفا مسلما
٣٤٨	٨١	واذ أخذ الله ميثاق النبيين
٣٥٥	١٤٥	وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله
٤٢	١٥٣	واعتصموا بحبل الله جميعا
٦٦	١٥٣	وكنتم على شفا حفرة من النار
٣٥٠	١٦٤	لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم
٣٤٩	١٨٧	واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب

النساء . ٤

٦٣	١٩	يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم
٦٩	٢٢	ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم
٤٤١	٥٦	كلما نضجت جلدوهم بدلنا هم جلودا غيرها
٤٤٩	٨٢	ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا
٢٤١	١٧١	انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته

المائدة . ٥

٤٧	٣	حرمت عليكم الميتة
٤٧٥	٤٥	وقالوا اذا ضللنا في الأرض
١٠١	٧٥	ما المسيح بن مريم إلا رسول
٣٠٢	٩٠	انما الخمر والميسر والانصاب
٤٤	١٠٣	ما جعل الله من بحير ولا...
٤٧٥	١٠٤	واذا قيل لهم تعالوا إلى ما انزل الله

الأنعام . ٦

٤٣٦	٧	ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس
٤٧٥	٨	وقالوا لولا انزل عليه ملك

٣٥١	١٩	وأُحي إلي هذا القرآن
٣٢٨	٥٠	إن اتبع إلا ما يوحى إلي
١٢١	٧٧	لئن لم يهدني ربي
١٢٥	٧٩	إني وجهت وجهي للذي فطرنني
٢٣٩	٨٤	ووهبنا له إسحاق ويعقوب ...
٤٣	١٠٠	وجعلوا له شركاء الجن وخلقهم

٧ . الأعراف

١٢١	١٢٧	وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه
٤٥ و ٦٧	١٥٧	ويضع عنهم إصره والأغلال
و ٦٣		
٢٢٤	١٥٧	الذين يتبعون النبي الأمي
٢٥٨	١٥٧	فالذين آمنوا به وعزروه

٨ . الأنفال

٥٨٦	٣٠	واذ يمكر بك الذين كفروا
-----	----	-------------------------

٩ . التوبة

٢٤٥	٣٦	ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا
٤٩ و	٣٧	انما النسيء زيادة في الكفر
٢٥٦		
٦٠١	٤٠	لا تحزن ان الله معنا
٢٤٠	٨٤	ان ابراهيم لأواه حلیم
٤١٩	١٠٠	والسابقون الاولون من المهاجرين
٣٥٥	١٢٢	وما كان المؤمنون لينفروا كافة
١٣٢	١١٣	وما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا
	١١٤	للمشركين

١٠ . يونس

٣١٠ و	١٥	واذ تتلى عليهم آياتنا بينات ...
٤٧٦		
٢٤٢ و	١٦	قل لو شاء الله ما تلوته

٢٩٧ و ٣٠٠

هود . ١١

٤٧٢

١٣

ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور

٣٥٦

٤٩

تلك من انباء الغيب نوحيها اليك

الرعد . ١٣

ولقد ارسلنا رسلا من قبلك ٤٠ . ٣٨ ٤٣٨

إبراهيم . ١٤

رب اجعل هذا بلدا آمنا ٣٥ ١٤٥

ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد ٣٧ ١٤٢

الحجر . ١٥

وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ٦ ٤٧٢ و

٣٣٢

انا نحن نزلنا عليك الذكر واناله لحافظون ٩ ٤٩١

ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ٤٢ ٤٩٦

فاصدع بما تؤمر ٩٤ ٣٩٢

انا كفيناك المستهزئين ٩٥ ٤١٣

النحل . ١٦

واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا ٥٨ و ٦

٥٩

انه ليس له سلكان على الذين آمنوا ٩٩ ٤٩٦

ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ١٠٣ ٢٣٥ و

٤٧١

انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون ... ١٠٥ و ٤١٧

١٠٦

ان ابراهيم كان أمة قانتا لله ١٢٠ ٢٤٠

واصبروا ما صبرك إلا بالله ١٢٧ ٤٧٧

الإسراء . ١٧

سبحان الذي اسرى بعبده ليلا ١ ٤٧٨ و

٥٣٨ و ٥٤٨

قل لئن اجتمعت الانس والجن ٨٨ ١٨١

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ٩٠ و ٤٣٣ و

٦٣ ٤٣٥ و ٤٣٦ و

٤٧٧		
٤٤٣	٣٨٥	وقرآنا فرقتناه لتقرأه على مكث
		الكهف . ١٨
٤٧٧	٢٨	واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم
		مريم . ١٩
٢٩٥	١٢	يا يحيى خذ الكتاب بقوة

٢٤٢	و ١٤	ولم يجعلني جبارا شقيا ...
		١٥
٢٠١	٣٣-١٦	واذكر في الكتاب مريم اذ ...
٢٩٥ و ٢٢٢		
١٣٠	٤٧-٤٢	اذ قال لاييه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع
		طه . ٢٠
٤٢٦	٨-١	طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ...
٢٠٠	٤٠-٣٧	اذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على ...
٣١٤	٥٠	رينا الذي أعطى كل شيء خلقه ...
٣٤٦	١١٤	ولا تجعل بالقرآن قبل ان يقضى اليك ...
		الأنبياء . ٢١
٣٣١	٥	بل قالوا أضغاث أحلام
٣٧	٧٠-٥١	ولقد آتينا إبراهيم رشده ...
١٣٨	٥٧	وتالله لا كيدن اصنامكم
١٣٩	٦٤	فرجعوا الى انفسهم فقالوا
٢٣٨	٨١	ولسليمان الريح عاصفة
		الفرقان . ٢٥
٣٥١	١	تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ...
٣٠٤- ٣٠٣	٤	وقال الذين كفروا ان هذا إلا افك ...
	٦	و ٤٧٢
٤٧٤	٥	وقالوا اساطير الاولين اكتبها ...
		٦
٤٧٥	٧	وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام
٤٤٣	٣٢	لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة
٤٤٥ و ٤٤٢	٣٢	كذلك اثبت به فؤادك
٤٤١	٣٢	ورتلناه ترتيلا
		الشعراء . ٢٦
٤٧٢	١٥٣	قالوا انما انت من المسحرين

٣٣٦	.	١٩٣	نزل با الروح الامين على قلبك
		١٩٥	
و ١٢٨		٢١٤	وانذر عشيرتك الاقربين
		٣٩٢	
١٩٥		٢١٩	وتقلبك في الساجدين

النمل . ٢٧

٢٣٨ ١٥ ولقد آتينا داوود وسليمان علما

القصص . ٢٨

١٢١ ٣٨ وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمت لكم من إله غيري

٣٠٨ ٤٦ وما كنت بجانب الطور

٤٢ ٤٦ ولكن رحمة من ربك

و ٢٩٧ ٨٦ وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب

٣٠٨

٣٠١ ٨٦ فلا تكونن ظهيرا للكافرين

الأحزاب . ٣٣

٣٥١ ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم

سبأ . ٣٤

٤٤ ٨ و ٧ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل

٣٣ ١٥ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية

٣٥١ ٢٨ وما أرسلناك إلا كافة للناس

فاطر . ٣٥

٥٣٣ ٣٦ والذين كفروا لهم نار جهنم

يس . ٣٦

٥٨٨ ٩ فجعلنا من بين ايديهم ... فهم لا يبصرون

ص . ٣٨

٤٧٥ ٦ و ٥ وعجبوا ان جاءهم منذر ...

٢٣٩ ٤٦ . ٤٥ واذكر عبدنا ابراهيم ...

٢٤٠ ٤٨ وانهم عندنا لمن المصطفين الاخير

فصلت . ٤١

٤٣١ ٥ . ١ حم تنزيل من الرحمان الرحيم ...

٤٥٣ ٣٠ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

الفتح . ٤٨

ولله جنود السماوات والأرض

٤

١٧٧

الطور . ٥٢

٤٧٢ ٢٩ فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون

النجم . ٥٣

٣٣٢ ٥ . ١ والنجم اذا هوى ...
٤٩ ٤ و ٣ وما ينطق عن الهوى ... ان هو الا وحي
٣٢٨ ٤ ان هو الا وحي يوحى
٤٣ و ١٩ أفرأيتم اللات والعزى ... ومناة الثالثة الاخرى
و ٤٩٣ ٢٠
٥٣٩ ، ١٢ افتمارونه على ما يرى

١٨

الصف . ٦١

٣٧٩ ٦ واذا قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل
٤٧٥ ٤٨ وعجبوا أن جاءهم منذر

القلم . ٦٨

٢٥٩ ٤ وانك لعلى خلق عظيم
٤٧٧ ٤٨ واصبروا ما صبرك إلا بالله ولا تحزن

الحاقة . ٦٩

٤٧٢ ٤٢ ولا بقول كاهن ...

المزمل . ٧٣

٤٧٧ ١٠ فاصبر لحكم ربك

المدثر . ٧٤

٣٧٩ ٣ و ١ يا ايها المدثر قم فانذر
٢٩٧ ٥ . ٤ وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر
٣٠١ ٥ والرجز فاهجر
٤٣٠ ٣٠ . ١١ ذرني ومن خلقت وحيدا ...
٤٦٩ ٥١ . ١١ ذرني ومن خلقت وحيدا ...

النازعات . ٧٩

١٧٧	٥	فلمدبرات أمرا
١٢١	٢٤	انا ربكم الاعلى

عبس . ٨٠

٤٨١	١١ . ١	عبسى وتولى ان جاءه الأعمى ...
-----	--------	-------------------------------

التكوير . ٨١

٥٨	٨	واذ الموءدة سئلت
٣٣٢	٢٨ . ٢٠	انه لقول رسول كريم ...

البروج . ٨٥

١٦١	٩ . ٤	قتل أصحاب الأخدود
-----	-------	-------------------

الضحى . ٩٣

٣٨٠	١١ . ١	والضحى والليل اذا سجى ...
٢٩٧	٧ . ٦	الم يجدك يتيما فأوى ...
٢٩٨	٨	ووجدك ضالا فهدى ...

الانشراح . ٩٤

٣٠٠	٤ . ١	الم نشحر لك صدرك
٢٠٩	٤	ورفعنا لك ذكرك

العلق . ٩٦

٣٢٢	٥ . ١	اقرأ باسم ربك الذي خلق ...
-----	-------	----------------------------

القدر . ٩٧

٣٤٤	٣ . ١	انا انزلناه في ليلة القدر
-----	-------	---------------------------

الفيل . ١٠٥

١٦٥	٥ . ١	الم تركيب فعل ربك باصحاب الفيل ...
-----	-------	------------------------------------

الكوثر . ١٠٨

٥٠٩	٤ . ١	انا اعطيناك الكوثر
-----	-------	--------------------

الكافرون . ١٠٩

٤٧٦

قل يا ايها الكافرون

المسد . ١١١

٤١٤

٥ . ١

تبت يدا أبي لهب وتب ...

فهرس الأحاديث الشريفة

الصفحة	القائل	نص الحديث
٣٦٢	(علي)	آمنت قبل الناس بسبع سنين
٣٦٣	(علي)	اتعلمون أن الله فضّل في كتابه السابق ...
٣٦٤	(النبي)	اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان ...
٣١٦	(علي)	أخذ الله على الوحي ميثاقهم ...
٤٠١	(النبي)	أرأيتكم إن اخبرتكم أن العدو مصبحكم
٩٢	(علي)	أرسله على حين فترة من الرسل
٩٤	(علي)	أرسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء
٣٥١	(النبي)	رأست إلى الناس كافة
٢١٨	(الباقر)	استرضع لولدك بلبن الحسان
٣١٦	(علي)	أسلمت قبل أن يسلم الناس بسبع سنين
٩٤	(علي)	اضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة
٥٣٣	(النبي)	أعطيت الشفاعة وهي نائلة من امتي من لا يشرك
٢٥٩	(النبي)	أفضل نساء امتي أربع ...
٨٢	(النبي)	العيافة والطيرة والطرق من الجبت ...
٢٨٧	(النبي)	اللهم أنيس المستوحشين
٣٦٢	(علي)	اللهم لا أعرف عبدا من هذه الامة عبدك ...
٦١٥	(النبي)	الله أكفني شر سراقه بما شئت
٦١٧	(النبي)	اللهم بارك لها في شاتها
٥١	(النبي)	إلى شهادة ان لا اله الا الله

- الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء (النبي) ٥٦٣
- أما والله لاستغفرن لك ولاشغعن فيك شفاعاة (النبي) ٥٢٩
- أمنكم أحد أسلم مع رسول الله (علي) ٣٦١
- أنا أوّ رجل أسلم مع رسول الله (علي) ٣٦١
- أنا اول من اسلم مع النبي (علي) ٣٦١
- أنا اول من صلّى مع رسول الله (علي) ٣٦١
- أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم الى ... (النبي) ٥٦٧
- انا الصديق الاكبر آمنت قبل ان يؤمن ابو بكر (علي) ٣٦١
- انتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم (النبي) ٥٧٢
- أنشدكم الله أيها الرهط اتعلمون أن ... (علي) ٣٦٤
- أنا عبد الله وأخو رسول الله (علي) ٣٥٧
- أنا عبد الله وأخو رسول الله وانا الصديق الاكبر (علي) ٣٦١
- انا يا رسول الله اكون وزيرك على ما بعثك الله (علي) ٣٩٥
- أنظروا من يرضع أولادكم (علي) ٢١٨
- ان أولى الناس بامر هذه قديما وحديثا (علي) ٣٦٢
- ان كثيرا من التمايم شرك (النبي) ٨٢
- إن الله بعث محمّدا نذيرا للعالمين (النبي) ٣٤٨
- ان الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده (النبي) ٣٤٨
- ان الرائد لا يكذب أهله (النبي) ٣٩٤
- إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف (الصادق) ٥٣٠
- إن محمّدا (ص) لما دعى إلى الايمان والتوحيد (علي) ٣٦٣
- إن الله لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان (الكاظم) ٥٥٣
- إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم (النبي) ٣٩٨
- أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي الله (علي) ٥٨٨
- أولكم واردا علي الحوض اولكم اسلاما (النبي) ٣٥٨

- أي بني أبي وان لم أكن عمّرت عمر من... (علي) ١١
- أيّها الذّاكر عليا انا الحسن بن علي (الحسن) ٢٦٩
- أيّها الناس ان الشمس والقمر آيتان (النبي) ٦٩
- ثم إن الله سبحانه بعث محمّدا (علي) ٩٤
- حج رسول الله (ص) عشر حجّات (الصادق) ٢٩٤
- زوّجتك خير أمتي اعلمهم علما (النبي) ٣٥٩
- صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة (النبي) ٤١٦
- صليت مع رسول الله ثلاث سنين قبل أن... (علي) ٣٦٣
- عبدت الله مع رسول الله (علي) ٣٦١
- عبدت الله قبل ان يعده احد من هذا الامة (علي) ٣٦٢
- فاني منطلق إلى ابن عمي رسول الله (علي) ٦١٩
- فبلغ بالرسالة صادعا بالندارة (الزهراء) ٩٥
- فلما بعث الله محمّدا للنبوّة واختاره للرسالة (علي) ٣٦٤
- في أصلاب النبيين نبي بعد نبي (الصادق) ١٩٥
- قولوا لا اله إلا الله تفلحوا... (النبي) ٥٦٢
- كنا اذا احمر البأس اتقينا برسول (علي) ٢٤٤
- لا تبكي يا بنيّة فان الله مانع اباك (النبي) ٥٦٦
- لا تسترضعوا الحمقاء (الباقر) ٢١٨
- لا والله ان كنت أول من صدّق به (علي) ٣٦٢
- لا والله ما ابدلني الله خيرا منها (النبي) ٣٦٢
- للدابة على صاحبها ست خصال (النبي) ٨٠
- لقد صلّت الملائكة عليّ ، وعلى عليّ (النبي) ٣٦٠
- لم يؤمر بذلك (قالها النبي في جواب من خطب فاطمة) (النبي) ٣٦٠
- لم يكن معي من الرجال غيره (علي) ٣٦٠
- لو كان مطعم بن عدي حيا لوهبت... (النبي) ٥٦١
- لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان... (الباقر) ٥٢٩

٣٦٢	(علي)	ما أعرف أحدا من هذه الامة عبد الله بعد نبينا غيزي
٢١٨	(علي)	ما من لبن يرضع به الصبي اعظم بركة من لبن امه
٢٥٢	(النبي)	ما من نبي إلا وقد رعى الغنم
٩٣	(علي)	مستقره خير مستقر
٣٩٨	(النبي)	من يؤازرني يكون أخي ووصيي وخليفتي
٢٩٣	(النبي)	مهلا يا أماه فان معي من يحفظني
٥٧١	(النبي)	موعدكم العقبه في الليلة الوسطى
٥٧١	(النبي)	نم في فراشي فانه لا يخلص اليك شيء
٩٢	(علي)	واشهد أن محمدا عبده ورسوله
٩٤	(علي)	واشهد أن محمدا عبده ورسوله ابتعثه والناس ...
١٩٥	(علي)	واشهد أن محمدا عبده ورسوله وسيد عباده
٥٣٣	(النبي)	وشفاعتي لمن شهد ان لا اله الا الله مخلصا
٣٨٢	(النبي)	وكيف ينزل علي وانتم لا تقصون أظافركم
٢٩٤	(علي)	ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما ملكا
٢٨٦	(علي)	ولقد علمتم موضعي من رسول الله
٧٠	(النبي)	يا أماه لا ارى اخوي في النهار
٢٦٣	(النبي)	يا حميراء ان الله تبارك وتعالى بارك في ...
٣٦٠	(النبي)	يا علي أخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي
٥٨٨	(النبي)	يا علي ان قريشا اجتمعت على المكر بي ...
٣٦٠	(النبي)	يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيه احد
٤٠٥	(النبي)	يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر ...

(٣)

فهرس الأشعار

٧٧	أحلامكم لسهام الجهل شافية
٧٤	أبني لا تنس البليّة إنّها
٢٨٨	ابونا شفيع الناس حين سقوا به
٧٩	إذا احتلجت عيني اقول لعلها
٧٩	إذا احتلجت عيني تيقنت انني
٧٤	إذا متّ فادفني بحراء ما بها
٦٧	إذا مت فادفني الى جنب كرمة
٢٨٣ ، ٥٥	أربا واحدا ام الف رب
٥١٤	اصبرن يا بني فاللصبر احجى
٣٧٣	ألا ان خير الناس بعد محمّد
٧٧	ألا حلاً في شقه مشقوقة
٤٦٠	ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر
٥٠٨	ألا هل اتى بحريتنا صنع ربنا
٥٢١	ألم تعلموا أنا وجدنا محمّدا
٣٧٢	أليس أول من صلى لقبلكم
٢٩١	اما الحرام فالممات دونه
، ٣٦٣	انا اخو المصطفى لا شك في نسبي
٢٩٢	انت الجليل ربنا لم تدنس
١٨٥	إن صح ما أبصرت في المنام
١٨٥	

١٨٥	أن آيات ربنا بينات
٥١٨، ٧٢	إن ابن آمنة النبي محمّد
٣٧٢	ان عليا لميمون نقييته
٢٧٥	إن الفراغ والشباب والحدة
٢٤٩	إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا
٢١١	ان الذين سمو باسم محمّد
٢٨٩	وأُصيكَ يا عبد مناف بعدي
٢١٣	ان يكن ما اتى به احمد اليوم
٢٨٧	بشيبة الحمد اسقى الله بلدتنا
٧٧	بناة مكارم وأساءة جرح
٢٨٥	تشاجرت الاحياء في فصل خطة
٧٦	تظل مقاليت النساء يطأنه
٢٤٩	حلفت انعقدن حلفا عليهم
٧٥	خانبه لما رأت شيئا بمفرقه
٦١٨	خلوا سبيل الجاهد المجاهد
٣٧٤	دعانا الزبير الى بيعة
٧٨	دعوت ابا المغوار في الحضرة
٣٧٢	رأيت عليًا لا يلبث قرنه
٣٦٣	سبقتم الى الاسلام طرا
٧٦	سفته اباة الشمس إلا لثائة
٥٦	سُلط الموت والمنون عليه
٧٦	شادن يجلو اذا ما ابتمست
٧٩	صحوت واوقدت للجهل نارا
٢١٤	صلى الآله ومن يحيق بعرشه
٦٢٢	طلع البدر علينا
٧٣	فالزمتني دنبا وغيري جرّه

٧٢	فاني اذا كالشور يضرب جنبه
٢١٥	فان يك حقا يا خديجة فاعلمي
٣٧٣	فحوطوا عليا فانصوره فانه
٢١١	فشق له من اسمه ليحلّه
٣٧٤	فصلّى الاله على أحمد
٢١٤	ففي كف احمد قد سبّحت
٣٧٤	فقل للمضلل من وائل
٥١٤	فلا تحسبونا خاذلين محمدا
٧٣	فلا تجعلوها كالبقير وفحلها
٦٦	فليت لي بهمو قوماً اذا ركبوا
٧٦	فلو ان عندي جارتين وراقيا
٢١٤	فهذا نبي الله أحمد سبّحت
٥٦	فيا رب ان اهلك ولم ترو هامتي
٧٨	فياليت ان الجن جازوا حمالي
٧٨	قالوا وقد طال عنائي والسقم
٧٩	قد استعدنا بعظيم الوادي
٧٥	قلبت ثيابي والظنون تجول بي
٧٤	قل للقوافل والغزاة إذا غزوا
٥١٩	قف عند رأيك واجتهد
٧٢	كذاك الثور يضرب بالهراوى
٥١٧	كذبتهم وبيت الله بنزى محمدا
٧٣	كمن يكوي الصحيح يروم براء
٧٥	لا تحسبن رثائما عقدها
٧٥	لعمري ان عشرت من خيفة الردى
٢١٤	لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد
٣٧٤	لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة

٦٣	لكل ابي بنت يراعى شؤونها
٨٠	ليت الغراب غداة ينعب دائبا
٥٢١	ليعلم خيار الناس ان محمدا
٣٧٢	ما كنت احسب ان الأمر منصرف
٢٦٩	مع ابن عم احمد المعلى
٢١٤	مفجعة قد شفها فقد أحمد
٣٧٣	من فيه ما فيهم ما تمترون به
٤٨٤	نبيا يرى مالا يرون وذكره
٧٦	نجسته لا ينفع التنجيس
٣٧١	هذا علي وابن عم المصطفى
٣٧٣	هذا علي والهدى حقا معه
٢٩٠ ،	وابيض يستسقى الغمام بوجهه
٥١٦	وان عليا لكم مصحر
٣٧٣	وساحرة عيني لو أن عينها
٨٠	وان ولى الأمر من بعد محمدا
٣٧١	وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى
٥٩٩	والله لو كنت الها لم تكن ولا ينفع التعشير ان حم واقع
٧٤	ولو لا أبو طالب وابنه
٥٣٣	وكلفتني ذنب امرئ وتركته
٧٣	وكم شققنا من رداء محبر
٧٧	وكم ناديته والليل ساج
٧٨	وصي رسول الله من دون أهله
٣٧٢	يا آل فھر لمظلوم بضاعته
٢٤٩	يا راكبا بلغن عني مغلغة
٤٥٥	يا رب يا رب انت مولاه
٢٦٩	

٢٨٧

يا رب لا أرجو لهم سواك

٢٩٩

يا رب رد راکبي محمدًا

٧٨

يا عجبًا لهذه الفليقة

٧٢

يا كحل قد اثقلت اذنان البقر

(٤)

فهرس الأعلام

(أ)

آبولو ٥٥١.

آزر ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ .

إبراهيم (الخليل) ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٨٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٦٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٣٥٠ ،
٤٩٨ .

إبراهيم (بن رسول الله) ٩٦ .

إبراهيم بن علي الدينوري ٥٢٨ .

أبرهة ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٨٦ ، ٥٥٢ ، ٥٩٣ ، ٦٠٥ .

ابن أبي شيبه ٣٦١ ، ٣٧٧ .

ابن أبي الحديد ٢١٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ،
٥٢٣ .

ابن اسحاق (صاحب السيرة) ٣٥٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٨ .

ابن الاثير ١٧٠ ، ٢٥٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦٤ ، ٤١٣ ، ٤٥٥ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٢ ،
٦٠٤ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ، ٦١٩ .

ابن لم مكتوم ٤٨١ .

ابن تيمية ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢ .

ابن حجر ٣٥٧ .
ابن حذيفة الاسدي ٣٧٣ .
ان حنظلة ٥٢٢ .
ابن خلدون ١٦ ، ٦٤ .
ابن ربيعة ٥٥٧ ، ٥٥٨ .
ابن الزبير ٢٥٠ .
ابن سعد (صاحب الطبقات) ٣٥٨ ، ٥٦١ .
ابن شهر آشوب
ابن الصباغ المالكي ٦١٨ .
ابن طاوس ٢٥٨ .
ابن طلحة (الشافعي) ٣٦٣ .
ابن عباس ٦٠ ، ١٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٦١٢ .
ابن عبد البر ٣٧٨ .
ابن كثير الشامي ٤١٠ ، ٥١٦ .
ابن ماجة (صاحب السنن) ٣٦١ .
ابن مزاحم (مؤلف وقعة صفين) ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .
ابن المغازلي ٣٦٠ .
ابن مغيرة المخزومي ٢٨٤ .
ابن هشام (المؤرخ) ٢١٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ ،
٣٤١ ، ٣٧٧ ، ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٥٥ ، ٤٦٨ ، ٥٠٨ ، ٥٢١ ، ٢٤١ ،
٢٦٣ ، ٥٧٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦٢٤ .
ابن الوليد ٤٣١ .
أبي بن خلف
أحمد الاحسائي ٥٤٧ .
أحمد (اسم النبي) ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ .
أحمد بن حنبل ٥٣١ ، ٥٣٢ .

- أحمد بن معين بن خراش ٥٣١ .
- أحمد بن عبد الحلیم الحراني ٥٩٦ .
- الاحنس بن شريق ٤٣٩ ، ٤٨٣ .
- أردشير بابك ١١٢ .
- أرقم بن أبي الارقم ٣٨٨ ، ٤١٦ .
- رأيقط ٦٠٣ .
- اساف (صنم) ٩٠ .
- اسبوتنيك ٥٥١ .
- اسحاق المدني ٣٧١ .
- أسعد بن زارة ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٨ ، ٦٢٣ .
- إسفنديار ٤٧٣ .
- إسماعيل (النبي) ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٨٩ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
- ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ،
- ٣٥٠ .
- الاسكندر ٦١٣ .
- الأسود بن المطلب ٤٨٨ .
- الأسود بن يغوث ٤٢٣ .
- اسيد بن خضير ٥٩٧ .
- إلياس (جد النبي) ١٤٦ .
- أمية بن أبي الصلت ٤٣٩ .
- أمية بن خلف ٣٩٠ ، ٤١٥ ، ٤٨٨ .
- أمية بن عبد شمس ١٥٠ .
- أنس بن رافع ٥٦٧ .
- أنس بن مالك ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٣٦٤ ، ٦١١ .
- انوشيروان ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٠٢ .
- اياس بن معاذ ٥٦٧ .

(ب)

- بحيرى (الراهب) ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٧٥ .
بدر من معشر ٢٤٦ .
البراء بن معرور ٥٧١ .
البراق ٥٣٥ .
البراض بن قيس الكنايني ٢٤٧ .
بركة ٢٩١ .
بريد الاسلامي ٣٦٥ .
بلال الحبشي ٤١٥ .

(ت)

- تبان اسعد ١٦٠ .
توماس كارليل ٨٥ .
تيجاريومس (الامبراطور) ١١٦ .

(ج)

- جابر بن عبد الله الانصاري ٢٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ .
جاجارين (رائد فضائي) ٥٥١ .
جبر (الغلام المسيحي) .
جبرئيل ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ،
٣٦٤ ، ٥٠٧ ، ٥٣٥ ، ٥٣٩ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ .
جعفر بن أبي طالب ٩٦ ، ٢١٤ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ،
٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٩ ، ٤٩٣ .
جعفر بن محمد (الامام) ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٤ ، ٥٢٩ .
جلال الدين الطوسي ٢٩٢ .
جندب بن زهير ٣٧٣ .
جنيد بن عبد الرحمان ٣٧٦ .
جواد علي (مؤلف) ٩١ .

جونس (دكتور مارسدن) ٦١١.

(ح)

- الحارث بن عبد المطلب ١٥٥.
الحارث بن كلدة ١٨ ، ١٥٦ ، ٥٠٤.
الحارث بن نوفل ٤٤١.
حبيب بن وُيس ٥٧.
الحجاج ٣٧٥.
حجر بن معاذ الغفرائي ٦٢٢.
حذيفة الغدر ٦٥.
حذيفة بن اليمان ٢٦٣.
حرب بن أمية ١٥١ ، ١٥٤ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٣٦١ ، ٣٧٣.
الحسن بن علي (الإمام) عليه السلام ٢٥٠ ، ٢٦٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦٤ ، ٣٧٦.
الحسين بن علي (الإمام) عليه السلام ٢٥٠ ، ٢٦٩ ، ٣٧٧ ، ٦١١.
حضير ٥٧٤.
حكيم بن حزام ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤.
حكيم مولى زاذان ٣٦١.
حمزة (عم النبي) ١٩٠ ، ٢١٥ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٥.
حناطة ١٦٢.
حمزة الاصفهاني ٨٨ ، ١٠٣.
حيدة بن معاوية العامري ٢٩٩.

(خ)

- خالد بن الوليد ٦١٠.
خالد (حكيم العرب) ٤٨٠.
خالد بن زيد ٦٢٢.
خباب بن الارت ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦.
خزيمة (جد النبي) ١٤٦.

خزيمة بن ثابت ٣٧٢ .
خسرو پرويز ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
٤٥٢ .
الخطاب ٤٢٤ .
خلف ٤٢٣ .
الخميني (الإمام) ٦١٥ .
خويلد ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٣٦٧ ، ٣٨٣ .

(د)

داود (النبي) ٢٣٧ .
داود بن أبي هند ٣٦٠ .
ديمتريوس ٣١ .
ديودورس ٣١ .

(ذ)

ذونفر ١٦٢ .
ذونواس ١٦١ .
ذوالخليفة (صنم) ٩١ .

(ر)

ربيع بن الحرث ٣٧٢ ، ٥٥٧ .
ربيعة ١٤٧ ، ٣٧٦ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٦١٨ .
رستم ٤٧١ ، ٤٧٤ .
رينان (مسيو) ٨٥ .

(ز)

الزبير بين عبد المطلب ٢٤٩ .
زرارة بن اعين ٣٤٢ .
زفر بن يزيد ٣٧٣ .

زكريا (النبي) ١٧٤ ، ٢٢٣ ، ٢٩٥ .

زمعة بن الاسود .٥٠٠ .

- زياد بن ابيه ٥٩٥ .
 زيد بن ارقم ٣٥٦ ، ٣٦٥ .
 زيد بن حارثة ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٧٨ ، ٥٢٢ .
 زيد بن عمرو بن نفيل ٢٢٤ ، ٢٨٢ .
 زيني دحلان (المؤرخ) ٢٨٩ ، ٥٢٤ .
 الزهره (كوكب) ١٢٥ .
 زهير بن أبي امية ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

(س)

- سالم بن أبي جعد .
 سالمين (محمد علي) ٦٠ .
 سراقه بن مالك بن جعشم ٦١٥ .
 سعد (صنم) ٩٠ .
 سعد بن أبي وقاص ٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٥٠٣ .
 سعد بن معاذ ٥٧٨ .
 سعيد بن زيد ٣٨٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
 سعيد بن قيس الهمداني ٣٧١ .
 صفيان بن سعيد الثوري ٥٣٠ ، ٥٣١ .
 سلامة (بولس) ٥١١ .
 سلمان الفارسي ٣٦٧ ، ٦٠٩ .
 سلمة بن كهيل ٣٦١ .
 سليمان ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
 سمرة بن جندب ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ .
 سويد بن صامت ٥٦٦ .
 سهل وسهيل ٦٢٢ .
 سهيل (كوكب) ٥٢ .

سيد قطب ١٨٢ ، ١٨٤ .

(ش)

شنفرة ٦٥ .

شهر بزاز (أخ سلمان) ١١١ .

شبية بن ربيعة ١٥٢ ، ٣٧٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

شيث (النبي) ٣٧١ .

شيرويه ١١١ ، ١١٨ .

(ص)

الصدى (طائر خرافي) ٥٦ .

صدر الدين الشيرازي (الفيلسوف) بن ناجية ٤٦ .

الصلت بن أبي يهاب ٢٦٥ .

(ط)

طارق بن شهاب الاحمس ٣٧٠ .

طالب ٥١ .

الطاهر (بن النبي) ٢٧٨ .

الطفيل بن عمرو الدوسي ٥٤٢ .

الطيب (بن النبي) ٢٧٨ .

(ع)

العاص بن وائل السهمي ٢٤٩ ، ٣٧٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٢ ، ٤٨٨ ،

٥٠٤ ، ٥٠٧ .

عامر بن فهيرة ٦٠٢ .

عبادة بن الصامت ٥٦٩ .

عباس بن عبد المطلب (عم النبي) ٢٦٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ،

٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٧١ .

عبد الحليم (الشيخ محمود) ٦١٤ .

عبد الدار ١٤٧ ، ١٤٨ .

- عبد الرحمان بن حنبل الجمحي ٣٧٤ .
- عبد الرحمان بن عثمان ٢٥٠ .
- عبد الرحمان بن عوف ٣٧٨ .
- عبد الرحمان بن محمد الحضرمي المالكي (القاضي) = ابن خلدون .
- عبد الرحمان بن ملحجم ٥٩٥ .
- عبد الرزاق ٣٥٧ .
- عبد شمس ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٤٦٨ .
- عبد الله (بن النبي) ٢٧٨ .
- عبد الله (والد النبي) ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
- ١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
- ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨ ، ٥٧٤ .
- عبد الله بن أبي بكر ٦٠٢ .
- عبد الله بن أبي بن سلول ٦٢٣ .
- عبد الله بن أبي خزرج ٥٦٨ .
- عبد الله بن أبي سفیان ٣٧١ .
- عبد الله بن أبي شيبه ٣٦١ .
- عبد الله بن أبي رافع ٤٧٠ .
- عبد الله بن انيس ٦١١ .
- عبد الله البجلي ٣٧٤ .
- عبد الله بن برير ٣٧١ .
- عبد الله بن الحارث ٥٥٤ .
- عبد الله بن حجر ٣٧٠ .
- عبد الله (بن حلیمه) ٢١٥ .
- عبد الله بن ححش ٢٨٢ .
- عبد الله بن جدعان ٢٤٩ ، ٤٥٩ .
- عبد الله بن خبابه ٣٧٠ ، ٣٧١ .

عبد الله بن ربيعة ٤٥٦ ، ٤٥٩ .
 عبد الله بن الزبير ٢٥٠ .
 عبد الله بن عمرو بن محرم ١٨٦ .
 عبد الله بن مسعود ٣٦٩ ، ٤١٧ ، ٤١٨ .
 عبد الله بن مظعون ٣٨٨ .
 عبد الكريم الخطيب ٦٠٠ .
 عبد الملك بن عمير ٥٣٠ ، ٥٣١ .
 عبد المطلب (جد النبي) ٥١ ، ١١٩ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٥٣ ، ٣٨٢ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ، ٥٠٤ ، ٥١٣ ، ٥٥٥ ، ٥٦٣ ، ٥٧١ .
 عبد مناف ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٩٠ ، ٢٨٩ ، ٤٤١ ، ٥١٣ .
 عبد العزيز بن محمد الدراودي ٥٣٠ ، ٥٣١ .
 عبيدة بن الحارث ٣٨٨ .
 عبد الوهاب النجار ١٩٠ ، ١٩٤ .
 عتبة بن ربيعة ٥٠ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ .
 عتيق بن عائذ ٢٤٧ .
 عثمان بن حويرث ٢٨٢ .
 عثمان بن عفان ٢٥٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ .
 عثمان بن مظعون ٣٨٨ ، ٤٦٢ .
 عداس ٥٥٨ ، ٥٥٩ .
 عدنان ١٤٦ .
 عدي بن حاتم ٣٧٠ .
 عروة الرجال ٢٤٧ .
 العزّ (صنم) ٥٤ ، ٥٥ ، ٩٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٤١٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ .

عطارد ٥٢.

عفيف الكندي ٢٥٩ ، ٣٥٧.

عقبة بن أبي معيط ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٤١٣ ، ٤٢٣ ، ٤٦٢ ، ٥٠٤ ، ٥٢٢.

عكرمة ١٧٠ ، ٢٦٢.

علي بن أبي طالب ٩١ ، ١٤٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ،
٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ،
٣٧٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨ ،
٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ،
٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٢٥ ، ٤٨٠ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ،
٥٣٥ ، ٥٤٢ ، ٥٨٣ ، ٥٧٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٣ ، ٦١٨ ،
٦١٩.

علي بن الحسين السجّاد (الإمام) ٥٥.

علي بن موسى الرضا (الإمام) ٣٠٠.

علي بن إبراهيم (المفسر) ٥٨٨.

عماد الدين ابن كثير ٢٤٨.

عمار بن ياسر

عمارة بن الوليد بن المغيرة ٤٠٦.

عمر بن الخطاب ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦.

عمر رضا كحالة ٤٢٧.

عمرو بن اسد ٢٧٣.

عمرو بن الجموح ٦٢٠ ، ٦٢١.

عمرو بن الحمق ٣٧١.

عمرو بن عاص ٤٢٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩.

عمرو بن لحي ٥٣ ، ٩٠.

عمرو الخزرجي ١٥١.

عمرو العلاء ١٤٨.

عميانس (صنم) ٩٠ ، ١٦١ .
عياض (القاضي) ٦١٠ .
عيسى بن مریم ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٩٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٨ ،
٤٥٩ ، ٤٩٨ ، ٥٢١ ، ٥٧١ ، ٦٠٥ .

(غ)

غالب ١٤٦ .
الغرائيق ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
غسان ٤٠ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٥٠ .
غوستاف لوبون ٤١ .

(ف)

فضل بن أبي لهب ٣٧٣ .
فضل بن الحارث ٢٤٨ .
فضر بن وداعة ٢٤٨ .
فضل بن جندب ١٦٢ .
فلاماريون ١٠٠ .
فريد وجدي (محمد) ٥٤٤ .
فهر (جد النبي) ١٤٦ .

(ق)

القاسم (بن رسول الله) ٢٦٣ ، ٢٧٨ .
القاصعة (الخطبة) ٣٥٦ .
قدامة بن مظعون ٣٨٨ .
القراريط ٢٥٢ .
قصي بن كلاب (جد النبي) ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٥ .
القمر ٥٤٦ ، ٥٥١ .
قيس بن زهير ٦٥ .

- قيس بن عاصم ٥٩ .
قيصر ١٦١ ، ٣٥٧ ، ٤٢٣ .
قتاد بن دعامة ٣٧٥ .

(ك)

- كعب (جد النبي) ١٤٦ .
كعب بن زهير ٣٧٢ .
كعب الاحبار ٤٧٧ .
كعب بن مالك ٢١٤ .
كلاب بن مرة (جد النبي) ١٤٦ .
كنانة (جد النبي) ١٤٦ .
كلثوم بن هرم ٦١٧ .

(ل)

- اللات (صنم) ٥٤ ، ٥٥ ، ٩٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٤١٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ .
لؤي ١٤٦ .
لبيد (الشاعر) ٤٦١ ، ١٦٢ .
لقمان ٥٦٦ .
اللوحي المحفوظ ٣٤٥ .

(م)

- مارسدن جونسن ٦١١ .
مالك (جد النبي) ١٤٦ .
مالك بن الحارث الاشتهر ٣٦٩ .
مالك بن عبادة ٣٧٣ .
المأمون ٣٧٨ .
ماني ١١٣ .
ماه بن داود (اخو سلمان) ٦٠٩ .
مجاهد (المفسر) ٢٠٧ .

- محمّد بن أبي بكر ٣٧١ .
 محمّد بن أحمد الذهبي ٥٣١ .
 محمّد بن اسحاق (المؤرخ) ٢٦٦ ، ٥٥٦ .
 محمّد بن جرير الطبري ٣٩٦ .
 محمّد حسنين هيكل ١٨٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٩٧ .
 محمّد حميد الله (مؤلف) ٦٠٩ .
 محمّد بن حنفية ٣٧٠ .
 محمّد بن سلمة ٦١١ .
 محمّد بن مسلم ٣٧٥ .
 محمّد عبدة ١٦٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٣٠٠ .
 محمّد عزت نصر الله ٢١٤ .
 محمّد المكنندر المدني ٣٧١ .
 محمود الألوسي ٧١ .
 محمود بن عبد الحلّيم ٦١٤ .
 مخزّمة بن نوفل الزهري ٢٥٠ .
 مدركة (جد النبي) ١٤٦ .
 مويّ (جد النبي) ١٤٦ .
 المريخ (كوكب) ٥٤٦ ، ٥٥١ .
 مزدك ١١٣ ، ١١٤ .
 المسورة بن مخزّمة
 المسيح ٥٤ ، ١١٧ ، ١٦٧ ، ١٨١ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٠ ، ٢٥٩ ، ٢٧١ ،
 ٢٩٦ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٥٢١ ، ٥٢٥ ، ٥٣٦ ، ٦١٢ .
 المشتري (كوكب) ٥٢ .
 مصعب بن عمير ٥٧٠ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ .
 مضاض بن عمرو الجرهمي ١٥٥ .
 مضر بن مزار (جد النبي) ١٤٦ .

المطعم بن عدي ٤٠٦ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧٧ .
المطلب ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .
معاذ بن جبل ٧١ ، ٢٦٠ ، ٣٦٠ .
معاذ بن عمرو ٦٢٠ .
معاوية ٢٦٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٥٦٦ ، ٥٩٤ .
معد (جد النبي) ١٤٦ .
المغيرة (جد النبي) ١٤٧ .
المقداد بن عمرو ٣٦٨ .
المعداد السيوري ١٩٦ .
الملاعلي القاري ٦١٠ .
مناة (صنم) ٥٤ ، ٩٠ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ .
مناف (صنم) ٥٤ ، ٩١ .
منذر بن عمر ٥٧٧ .
منصور بن عكرمة ٥٠١ .
ميسرة (غلام خديجة) ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠ .
ميكائيل ٦٠٠ .
موسى بن جعفر (الإمام) ٢٦٢ ، ٥٥٣ .
موسى (النبي) ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
٢٣٩ ، ٢٦٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٦٩ ، ٤٧٥ ، ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٥ ، ٥٧٣ ،
٦٠٥ .

(ن)

نائلة (صنم) ٩٠ .
ناصر (غلام خديجة) ٢٥٦ .
نزار (جد النبي) ١٤٦ .
نصير الدين الطوسي ١٩٦ .
النضر (جد النبي) ١٤٦ .

النضر بن الحارث ٤٣٢ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
النعمان بن المنذر ٥٩ ، ٨٨ .
نعيم بن عبد الله ٤٢٥ .
نفيل بن حبيب الخثعمي ١٦٢ .
النمرود بن كنعان ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ .
نوح النبي ١٤٥ ، ٢٥١ ، ٤٩٨ .
نوفل بن عبد مناف ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(ه)

هارون (النبي) ٣٤١ ، ٣٦٩ .
هاشم بن عبد مناف (جد النبي) ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
٢٩٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ .
هاشم بن عتبة ٣٦٩ .
هائلة ٨٢ .
هبل (صنم) ٥٤ ، ٩٠ .
هبيرة بن وهب المخزومي ٢٨٥ .
هرودتس ٤٠ ، ٤١ ، ١٢٠ .
هرقل ١١٨ .
هشام بن عمرو ٥٠٤ .
هند بن أبي هالة ٥٩٩ ، ٦٠٢ .

(و)

ورقة بن نوفل ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢١٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٣٨ ، ٣٤٠ ،
٣٤١ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٥ .
الوليد بن عتبة ٢٥٠ ، ٣٧٣ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ .
الوليد بن المغيرة ٢٨٣ ، ٤٢٣ ، ٤٣٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٨ ،
٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٣ .
وهب بن عبد مناف ١٩٠ .

ويليام مويير (السير) ٤٩٣.

(ي)

ياسر ٤١٦ ، ٤١٧.

يحيى بن زكريا (النبي) ٢٥٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٧٧.

يزدجرد ٦٢٢ ، ٦٢٤.

يعرب بن قحطان ٣٦.

يعقوب (النبي) ٢٣٨ ، ٢٥٦.

يوسف ٢٣٩.

يونس بن عبد الرحمان ٥٥٣.

يونس بن متى (النبي) ٥٥٨ ، ٥٥٩.

النساء:

آسية بنت مزاحم ٢٦٢ ، ٢٦٣.

آمنة بنت وهب ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٩١ ، ٤٥٤ ، ٥١٨.

أسماء بنت عميس ٢٦٠.

أنيسة بنت حليمة (السعدية) ٢١٥.

بلقيس ٣٣.

ثوية ٢١٥.

حليمة السعدية ٧٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٧٧ ،

٢٩٣.

خديجة بنت خويلد ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ،

٣٢٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ،

٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٧ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٩٩ ،

٦٠١.

- خولة ٣٨٢ .
- دلالة ١٩٠ .
- رقية (بنت رسول الله) ٢٦٣ ، ٢٧٨ .
- زينب (بنت رسول الله) ٢٦٣ ، ٢٧٨ .
- سارة (زوجه الخليل ع) ١٠٨ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
- سلمى (زوجة هاشم) ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٦٣ .
- سمية (زوجة ياسر) ٤١٦ ، ٤١٧ .
- الشيمااء (بنت حليمة السعدية) ٢١٥ ، ٢١٦ .
- عايشة بنت أبي بكر ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣٥٣ .
- عاتكة (بنت عبد المطلب) ٢١٥ .
- فاطمة بنت الخطاب ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
- فاطمة الخنعمية ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .
- فاطمة الزهراء (ع) (بنت رسول الله . ص .) ٩٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٦٠٢ ، ٦١٨ .
- فاطمة (لم قصي بن كلاب) ١٤٧ .
- فاطمة بنت أسد (لم علي بن أبي طالب) ٥٢٩ ، ٦٠٢ .
- فاطمة بنت الزبير ٦٠٢ ، ٦١٨ .
- الفواطم ٦٠٢ .
- مريم بنت عمران (لم السيد المسيح . ع .) ٥٤ ، ١٠١ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٥٢١ ، ٥٢٥ ، ٥٧١ .
- هاجر (زوجة الخليل . ع) ٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ .
- هندة ١٤٣ ، ١٤٤ .
- مارية القبطية ٢٧٨ .
- معاذة بنت عبد الله العدوية ٣٦٣ .
- نفيسة بنت عليّة ٢٧٢ .

(٥)

فهرس القبائل والأمم

- آل الرسول ٥٧ .
آل سعود ٥١٢ .
آل ياسر ٥١٦ .
اسلم (قبيلة) ٢٨٣ .
أصحاب الاخدود ١٦١ .
أصحاب الكهف ٢٨٢ .
الانصار ٦١٩ .
الاورس والخزرج ٣٠ ، ٥٠ ، ٩٠ ، ٩١٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ،
٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ .
بنو اسرائيل ٢٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥٧٣ .
بنو إسماعيل ٥٧٣ .
بنو افقم ١٦٢ .
بنو امية ٥٤ ، ١٤٩ ، ٤٨١ .
بنو بكر ٤٢١ .
بنو تميم ٥٢ ، ٥٩ .
بنو جمح ٣٧٤ ، ٤١٥ .
بنو سالم بن عوف ٦٢٤ .
بنو سعد ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ .

بنو سلامان ٦٥ ، ٨٨ .
 بنو سلمة ٦٢٠ ، ٦٢١ .
 بنو عامر ٢٤٦ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ .
 بنو عبد الاشهل ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ .
 بنو عبد الدار ٢٨٤ .
 بنو عبد مناف ٥٠٥ ، ٥١٣ .
 بنو عبس ٦٥ .
 بنو عدي ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٤١١ .
 بنو عمرو بن عوف ٦١٧ ، ٦٢٢ .
 بنو قريظة ٥٦٥ .
 بنو قينقاع ٥١ ، ٥٦٥ .
 بنو كنانة ٩٠ ، ١٤٦ ، ٢٤٥ ، بنو مخزوم ٤٠٩ .
 بنو المطلب ٥٠١ ، ٥٢٢ ، ٥٦٣ ، ٥٨٥ .
 بنو مليح ٥٢ .
 بنو النضير ٥٦٥ .
 بنو هاشم ٣٧ ، ٥١ ، ١٥٣ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٥٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،
 ٣٩٤ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٤٠ ، ٤٥٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٣٧ ، ٥٨٤ ، ٨٥٨ ، ٥٩٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ .
 تبابعة ٣٢ .
 ثقيف (قبيلة) ٥٥٧ .
 ثمود (قوم) ٣٦ ، ٢٣٣ .
 جهم (قبيلة) ٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .
 حمير (قبيلة) ٥٢ .
 خزاعة ٩٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٥٦٠ ، ٥٨٤ .
 دوس (قبيلة) ١٦١ .

الروم ٤٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٦٠ .

الساسانيون ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١١٥ .

سعد بن بكر (قبيلة) ٢١٥ .

عاد (قوم) ٣٦ ، ٢٣٣ .

العدنانيون ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ .

العرب البائدة ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

العمالقة ٣٠ .

الغساسنة ٤٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٥٠ ، ١٨٧ .

القحطانيون ٣٦ ، ٥٦٥ .

قريش ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٧ ،

٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ،

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٥٤ ،

٣٥٥ ، ٣٥٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٨ ، ٣٨١٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،

٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،

٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٥٠ ،

٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ،

٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ،

٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ،

٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢١ ،

٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ،

٥٥٧ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ،

٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٧١

.٦١٦ ، ٦١٥ ، ٦٠٤ ، ٦٠١ ، ٥٩٢ ، ٥٩١ ، ٥٨٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٧

كنانة (قبيلة) ٢٤٦ ، ٢٤٥ .

مذحج (قبيلة) ٢٤٣ .

المناذرة ٦١٧ .

اللحميون ٨٨ ، ٨٩ .

(٦)

الكنى والألقاب

« الكنى »

الرجال

- أبو أحيجة ٥٤ .
أبو الاسود الدؤلي ٣٧٣ .
أبو امامة (ابن النقاش) ٢٦٧ .
أبو أمية (ابن مغيرة المخزومي) ٢٨٤ .
أبو أيوب (الانصاري) ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٦٢٢ .
أبو البختري ٤٣٢ ، ٥٠٤ ، ٥٨٤ .
أبو بصير = اعشى بن قيس ٤٨٥ ، ٥٠٥ .
أبو بكر (ابن أبي قحافة) ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ،
٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٨ ، ٤٢٥ ، ٤٨٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٦٠٢ .
ابو تراب (علي بن أبي طالب) ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
أبو تمام (الشاعر) ٥٧ .
أبو جعفر الاسكافي ٣٩٧ .
أبو جهل ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣٠٢ ، ٣٥٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٨٣ ، ٥٠٤ ،
٥٠٥ ، ٥٢٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ .
أبو حاتم ٥٣١ ، ٥٣٢ .
أبو حازم ٣٧٥ .
أبو الحسن البكري ٢٧٠ .

أبو حكيم ٤٠٩ .
 أبو حنظلة ٥٢٢ .
 أبو دواد ٣٦١ .
 أبوذر الغفاري ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٥٣٣ .
 أبو ذؤيب ٢١٥ .
 أبو رافع الطبراني الهيثمي ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ .
 أبو رغال (ثقيف) ١٦٢ .
 أبو زرعة ٢٦٠ ، ٥٣٢ .
 أبو سعيد الخدري ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٨ .
 أبو سفيان ٥٤ ، ١٨٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٩٠ ، ٤٣٢ ، ٤٨٣ ،
 ٥٣٧ ، ٥٦٠ .
 أبو سلمة ٣٨٨ .
 أبو طالب (عم رسول الله) ١١٩ ، ١٤٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ،
 ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٥٠١ ،
 ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ،
 ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٦١٩ .
 أبو العاص بن الربيع ٥٠٣ .
 أبو عبد شمس ٤٢٠ ، ٤٢٩ ، ٤٦١ .
 أبو عبيدة (الجراح) ٣٦٨ ، ٣٨٨ .
 أبو عثمان ٣٧٦ .
 أبو عمرة (بشير بن محسن) ٣٧٠ .
 أبو عمرو (مؤلف) ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

- أبو عمرو (عامر الشعبي الكوفي) ٣٧٤ .
أبو عمرو (ابن قتيبه) ٣٦١ .
أبو فرج الاصفهاني ٢٨٥ .
أبو مرازم ٣٦٩ .
أبو لهب ٥٤ ، ٢١٥ ، ٣٧٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٢٢ ، ٥٠٢ ، ٥٦٣ ، ٥٩٠ ،
٥٩١ ،
أبو مسعود (عمرو بن عمير الثقفي) ٤٣٩ .
أبو مكرز ٥٩٢ .
أبو نضر (محمّد بن السائب الكلبي) ٣٧٦ .
أبو نعيم (مؤلف) ٢٩١ .
أبو هالة التميمي ٢٧٤ .
أبو هريرة ٢٦٠ ، ٥٣٣ .
أبو هفان العبدي ٥١٦ .
أبو الهيثم بن التيهان ٥٧١ ، ٥٧٢ .
أبو الوليد = عتبة بن ربيعة ٤٣١ .
أبو اليقظان = عمران بن عبد الله ٢٦٣ .

النساء

- لمُ أيمن ١٧١ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٢٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٦٠ .
لمُ أيوب (الانصارية) ٦٢٢ .
لمُ جميل بنت حرب ٤١٢ ، ٤١٤ .
لمُ سلمة ٤٥٤ ، ٦١١ .
لمُ كلثوم (بنت رسول الله) ٢٦١ ، ٢٧٨ .
لمُ معبد ٦١٦ .
لمُ هاني (أخت علي بن أبي طالب) ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ .

« الألقاب »

- الاصمعي ٦٠٩ .
الاميبي (العلامة) ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٣٠ ، ٥٨٤ .
البلادزي ٦٠٩ .
البلاغي ٢٤١ .
البيهقي ٥٤١ .
الترمذي ٣٦٤ .
الجاحظ ٥٩٦ .
الجنابذي ٢٥٦ .
الحاكم النيسابوري ٦١٢ .
الحلي ٦٠٣ .
الخوارزمي ٣٦٠ ، ٣٦٩ .
الدياربيكري ٢١٠ .
ذوالقرنين ٣٨٢ ، ٤٦٤ .
الزرقاني ٢٩٢ ، ٢٤٦ ، ٣٦٦ .
السيوطي (جلال الدين) ٣٦٩ ، ٣٧٢ .
الشبراوي (صاحب الاتحاف) ٢٩٢ .
الشهرستاني ٢٨٨ .
الشهيد الثاني ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
الطباطبائي ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣٤٦ .
الطبرسي ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٤٨١ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ .
الطبري ٣٤٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
٣٩٨ ، ٤٨٨ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ .
الطريحي (المؤلف) ٢٠٥ .
الطوسي (الشيخ) ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦١٨ .

- فخر الإسلام ٢٤١ .
- الفخر الرازي ٣٠٧ ، ٣٤٨ ، ٥٠٩ .
- الفرزدق ٤٦ ، ٤٩ .
- الفردوسي (الشاعر) ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .
- فرعون ١٢١ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٢ .
- القسطلاني ٣٦٧ ، ٣٧٥ .
- القوشجي ١٩٦ .
- كسرى ١٠٣ ، ١١٠ ، ٢٠٢ ، ٣٥٧ .
- لكلي ٥٢ .
- الجلسي (العلامة) ٢٦٩ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٦١٦ ، ٦٢٤ .
- المسعودي (المؤرخ) ٤١ .
- المقرئبي ٢٠٤ ، ٥٩٨ .
- النفيسي (سعيد) ١٠٤ .
- اليعقوبي ٢٨٨ ، ٣٨٥ .
- النجاشي ٩٦ ، ١٦١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ .
- ٤٦٠ ، ٤٩٣ .

(٧)

فهرس الوقائع والأيام

- احد (معركة) ٤٨٦ .
الأحزاب (معركة) ٤١٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ، ٥٧١ .
بعاث (يوم) ٦٧ ، ٥٧٤ .
بيعة العقبة ٥٧٥ .
بيعة النساء ٥٧٠ .
حادثة الغيل ١٥٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ، ٥٥٢ ، ٦٠٥ .
حجة الوداع ٦٤ .
حلق الفضول ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
الخندق (معركة) ٤٨٠ ، ٤٨٦ .
داحس والغبراء (حرب) ٦٥ .
صفين (وقعة) ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ .
الفجار (حروب) ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧٣ .
القرطاء (عزوة) ٦١١ .
ليلة المبيت ٥٩٥ ، ٥٩٦ .
المباهلة ٥٣٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ .
المعراج ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

(٨)

فهرس الأماكن والبلدان

- آسيا ٢٧ ، ١١٦ .
الابواء ٢٢٨ .
الاتحاد السوفيتي ١٥٩ ، ٥٥١ .
الاحساء ٢٨ .
الاحقاف ٢٨ .
الاردن ٥٣٦ .
أرمينية ٩٨ .
الازهر ٣٤٦ ، ٦١٤ .
افريقية ٢٨ .
امريكا ٨٥ .
الاندلس ١٠٠ .
الانطاكية ٢٧ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٨ .
وأرثية ٤٠ ، ١٠٠ ، ٢٣٧ .
اورشليم ٧ ، ١١١ .
ايران ٢٧ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٨ .
ايطاليا ٢٧ .
بابل ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ .
بادية سماءة ٢٧ .
البحر الاحمر ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .

بحيرة ساوة ٢٠٢ .
البصرة ٣٠٣ ، ٣٦٧ .
بصرى ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
بيت الله الحرام ٢٨٩ .
بيت المقدس ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٦١١ .
بيروت ٥١١ .
تھامة (سوق) ٢٥٦ .
ثنية الوداع ٢٦٢ .
جبل أبو قبيس ٢٨٧ .
جت ٢٩ ، ٢٨٤ ، ٤٥٣ .
الجزيرة العربية ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ٨٧ ،
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٣٠٦ ، ٤١٥ ، ٥٢٠ ،
٥٨٠ ، ٥٧٦ .
الجنة والنار ٥٣٦ .
الحبشة ٨٧ ، ٩٦ ، ١٥٠ ، ١٦١ ، ٢٢٤ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٠ ،
٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠١ ،
٥٠٨ ،
الحجاز ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،
١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،
٥٩٥ ،
حجر اسماعيل ١٤٤ .
الحجر الاسود ٢٨٤ ، ٤١٢ .
الحديدة (ميناء) ٣٢ .
حراء (جبل / غار) ٢٨٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٥٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
الحيرة ٢٧ ، ٥٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٥٠ ، ٤٥٢ .
الخليج ٢٧ ، ٢٨ .

- خليج عمان ٢٧ .
الخورنق ٨٨ .
خيبر ٢١٥ .
دار الندوة ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٦٨ ، ٥٠١ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ .
دار الخيزران ٣٨٩ .
دجلة ٢٧ .
دمشق ٨٩ ، ٣٧٦ ، ٦١٠ .
الدهناء ٢٨ ، ٢٣١ .
ديار ثمود ٢٣١ .
ذو المجاز (سوق) ٢٤٥ .
ذي طوى ٦١٨ .
الربع الخالي ٢٨ .
زمزم ٣٧ ، ٩٠ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .
سبأ ٣٣ .
سدرة المنتهى ٥٣٦ .
سويسرا ٢٧ .
الشام ٢٧ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ،
١٦٩ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،
٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٦٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٢ ، ٥١٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣٧ ،
٥٦٥ ، ٥٩٤ .
شعب أبي طالب ٥١٢ .
صحراء الشام ٢٧ .
صحراء العرب ٢٧ ، ٣١ .
صحراء النفوذ ٢٥٨ .
صنعاء ٣٢ ، ٣٣ .
ضحنان ٦١٨ .

الظهران ٢٨.

الطائف ٢٩ ، ٥٤ ، ٩٠ ، ٢٤٧.

العدن ٣١.

العراق ٨٧ ، ١٤٩ ، ٢٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٩٥.

العربية السعودية ٤١ ، ٥١٢.

العرم

عسفان

العقبة ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦.

عكاظ (سوق) ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧.

غار ثور ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦١٩.

غزة ١٤٩.

الفرات ٢٧ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ٣٧١.

فرنسا ٢٧.

فلسطين ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ١١٧ ، ١٤١ ، ٥٣٦.

القاهرة ٣٧٩.

قبا ٦١٧.

القسطنطينية ٨٩.

القطيف ٥١١.

قم ٥١٢.

الكعبة المعظمة ٢٩ ، ٣٠ ، ٥ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،

٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٨٨ ، ٥٠١ ،

٦١١.

الكوفة ٨٨.

مازندران ١٠٦.

مأرب ٣٣ ، ٤١.

مجنة (سوق) ٢٤٥.

المحيط الهندي ٢٧.

مدين ٢٣١.

المدينة المنورة ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ ،
١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ٢١٩ ، ٢٩١ ، ٣٨٢ ، ٤٤٢ ، ٥١٢ ، ٥٦١ ،
٥٦٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٩ ، ٦١ ،
٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ .

مراكش ٥٩٦.

مروة (جبل) ١٤٣ ، ٢٣٥.

المسجد الاقصى ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩.

المسجد الحرام ٢٨٤ ، ٤١٨ ، ٨٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٦٠.

مصر ١٢١ ، ١٤١ ، ٢٤٣.

المغمس ١٦٢.

مكة المكرمة ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٦ ،
١٠١ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٧ ،
٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،
٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٤ ،
٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،
٤٥٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،
٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،
٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ،
٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ،
٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ،
٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،
٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ .

نجد ٣١ ، ٤١ .

نجران ٨٩ ، ١٦٠ ، ٦١٠ .

نينوى ١١٨ ، ٥٥٨ .

الهند ٨٥ ، ١١٥ ، ٢٦٥ .

وادي القرى ٢٣١ ، ٥٦٥ .

يشرب ٣ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٩ ،

٥٧٠ ، ٥٧٣ ، ٥٨٣ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٨ ، ٦٢٢ ، ٦٢٤ .

اليمن ٢٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٨٧ ، ٢٣٣ ، ٢٩٣ ، ٤٥٢ ، ٥٦٥ ، ٥٩٥ .

اليمامة ٤٨٦ .

اليونان ٣١ .

(٩)

المذاهب والأديان ونظم الحكم

- الآشورية ٤٠ .
- الأحناف ٢٨٣ .
- الاستشراق والمستشرقون ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ .
- الاشكناني ٨٧ .
- الرياضة والمرتاؤون ١٨٢ ، ١٨٤ .
- الزردشتية ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ .
- الشاهنشاهية ٨٦ ، ٦١٤ ، ٦١٥ .
- العثمانية ٣٦٧ .
- الكهانة ١٥٨ .
- اللاهوتية ١٠٠ .
- المانوية ١١٢ .
- المجوسية والمجوس ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ .
- المزدكية ١١٣ ، ١١٤ .
- المدرسية (الفلسفة) اسكولاستيك ١٠٠ .
- النصرانية والنصارى ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٧٩ .
- اليقوبية ٩٩ .
- الوهابية والوهابيون ٥٩٦ .
- اليهود واليهودية ١٥٩ ، ٢٩١ ، ٣٨٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٨٧ ، ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة ضمنا

- ١ . بحث علمي حول المعجزة
٦٥
- ١ . ٢ . طهارة النبي (ص) من دنس الآباء وعهر الائمات
٦٥
- ٢ . ٣ . الاحتفال بذكرى المولد النبوي ليس شركا
٠٨
- ٢ . ٤ . خطأ المستشرقين في اسم النبي (ص)
١٢
- ٢ . ٥ . « أحمد » كان من أسماء النبي (ص) المشهورة
١٣
- ٢ . ٦ . نظرة الاسلام في تأثير الرضاع
١٧
- ٢ . ٧ . بحث قرآني وتاريخي حول كرامات فترة الطفولة عند النبي
١٩
- ٢ . ٨ . مقايسة عابرة بين القرآن والعهدين
٣٦
- ٢ . ٩ . خديجة في أحاديث الرسول واهل بيته (ع)
٥٨
- ٢ . ١٠ . بحث حول دين النبي قبل البعثة
٩٢
- ٣ . ١١ . دور الانبياء الاساس في اصلاح المجتمع
١٦
- ٣ . ١٢ . بحث حول الوحي في نظر الماديين والالهييين
٢٢

٣	١٣ . مناقشة الاساطير المدسوسة في قصة بدء نزول الوحي
٤٠	
٣	١٤ . خاتمية رسول الاسلام
٥٣	
٤	١٥ . النبوة والامامة توأمان
٤٢	
٤	١٦ . أسرار النزول التدريجي للقرآن
٤٤	
٤	١٧ . دراسة لآيات من سورة الحج حول إلقاء الشيطان
٩٤	
٥	١٨ . دراسة علمية لحديث الضحضاح
٣٠	
٥	١٩ . المعراج والقوانين العلميّة الحديثة
٤٨	
٦	٢٠ . لماذا اتخذ العام الهجري مبدأ للتاريخ الاسلامي
٥٥	

فهرس المواضيع

- شبه الجزيرة العربية أو مهّد الحضارة الإسلامية..... ٢٧
- مكة المعظمة : ٢٩
- تاريخ مكة : ٢٩
- المدينة المنورة : ٣٠
- ٢ العرّ قبل الإسلام..... ٣٥
- أخلاق العرب وتقاليدهم العامة : ٣٧
- هل كان للعرب حضارة قبل الإسلام؟..... ٣٩
- ملامح المجتمع الجاهلي العربي في منظور القرآن : ٤٢
١. الشجر في العبادة : ٤٣
٢. إنكار المعاد : ٤٣
٣. هيمنة الخرافات : ٤٤
٤. الفساد الاخلاقي : ٤٥
٥. مود البنات وإقبارهن : ٤٦
٦. تصوراتهم الخرافية حول الملائكة : ٤٧
٧. كيفية الانتفاع من الانعام : ٤٧
٨. الاستقسام بالازلام : ٤٨
٩. النسيء : ٤٨
١٠. الربا : ٤٩
- صور من الوضع الجاهلي ٥٠
- العقيدة والدين في الجزيرة العربية : ٥٢
- عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت : ٥٦
- الآداب مرآة آداب الشعوب ونفسياتها : ٥٧
- مكانة المرأة عند العرب الجاهلية : ٥٨
- المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب : ٦٠

- العرب والرُّوح القتالية : ٦٤
- الاحلاق العامة في المجتمع الجاهلي العربي : ٦٦
- النزوع إلى الخرافة والاساطير في المجتمع الجاهلي : ٦٧
- الخرافات في عقائد العرب الجاهلية : ٧٠
- نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي : ٧٢
- ١ . الاستسقاء باشعال النيران : ٧٢
- ٢ . ضرب الثور إذا عافت البقر : ٧٢
- ٣ . كي صحيح الإبل ليبراً السقيم : ٧٣
- ٤ . حبس ناقة عند القبر اذا مات كريم : ٧٣
- ٥ . عقر الإبل على الثُبُور : ٧٤
- ٦ . نهيق الرجل إذا اراد دخول القرية (التعشير) : ٧٤
- ٧ . تصفيق الضال في الصحراء ليهتدي : ٧٥
- ٨ . الرتم : ٧٥
- ٩ . وطى المرأة القتل الشريف لبقاء ولدها : ٧٥
- ١٠ . طَحَّ السِّنُّ نَحْوَ الشَّمْسِ إِذَا سَقَطَتْ : ٧٦
- ١١ . تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون : ٧٦
- ١٢ . دم الرئيس يشفي : ٧٦
- ١٣ . شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل : ٧٧
- ١٤ . معالجة المرضى بالأمور العجيبة : ٧٧
- ١٥ . خرافات في مجال الغائب : ٧٨
- ١٦ . عقائدهم العجيبة في الجن وتأثيره : ٧٩
- ١٧ . تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والاشياء : ٨٠
- مكافحة الإسلام لهذه الخرافات : ٨٠
- أوضاع العرب الإجتماعية قبيل ظهور الإسلام : ٨٣
- الدين في أرض الحجاز : ٨٩
- العلم والثقافة في الحجاز : ٩١

- الإمام علي يصف العهد الجاهلي : ٩٢
- فاطمة الزهراء تصف الوضع الجاهلي : ٩٥
- جعفر بن ابي طالب يصف العهد الجاهلي : ٩٦
- ٣ إمبراطوريتنا الروم وإيران إبان عهد الرسالة ٩٧
- أوضاع الروم إبان عهد الرسالة : ٩٨
- ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي : ٩٩
- أوضاع إيران إبان عهد الرسالة : ١٠١
- البدخ والتز في البلاط الساساني : ١٠٢
- الوضع الاجتماعي في إيران : ١٠٤
- حقّ التعلّم خاص بالطبقات الممتازة!! : ١٠٥
- صفحة سوداء من جرائم خسرو برويز : ١٠٩
- حكم التاريخ في الملوك الساسانيين : ١١٠
- الفوضى في الحكومة الساسانية : ١١١
- الفوضى الدينية في إيران الساسانيين : ١١٢
- الحروب الإيرانية الروميّة : ١١٥
- ٤ أسلاف رسول الإسلام (ص) ١١٩
- ١ . بطل التوحيد : إبراهيم الخليل عليه السلام ١١٩
- إبراهيم ومكافحته للوثنية : ١٢٣
- حوار الخليل مع عبدة الكواكب : ١٢٥
- طريقة الأنبياء في الحوار والجدال : ١٢٩
- هل كان آزر والد إبراهيم؟ ١٣٠
- القرآن ينفي أبو « آزر » لإبراهيم : ١٣٢
- إبراهيم محطّم الأصنام : ١٣٣
- العبر القيمة في هذه القصّة : ١٣٧
- هجرة الخليل ١٤١
- عين زمزم كيف ظهرت؟ ١٤٣

- ٢ . قُصَيُّ بن كلاب : ١٤٦
- ٣ . عبد مناف : ١٤٧
- ٤ . هاشم : ١٤٨
- أمية بن عبد شمس يحسد هاشما : ١٥٠
- هاشم يَتَزَوَّج ١٥١
- ٥ . عبد المطلب : ١٥٣
- التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر : ١٥٧
- حادثة عام الفيل : ١٥٩
- ما هي عوامل هذه الحادثة؟ ١٦٠
- عبد المطلب يذهب إلى مُعسكر أبرهة : ١٦٣
- كلمة حول المعجزة : ١٦٥
- نقاط تقتضي التأمل في التفسير المذكور : ١٦٩
- بحث علمي حول المعجزة في خمس نقاط : ١٧٢
- ١ . ما هي المعجزة وما هو تعريفها؟ ١٧٣
- ٢ . هل الاعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟ ١٧٥
- نعم ١٧٦
- أ . العلة الطبيعية العادية ١٧٦
- ب . العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة ١٧٦
- ج . تأثير النفوس والارواح : ١٧٦
- د . العلل المجردة عن المادة : ١٧٧
- ٣ . هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط؟ ١٧٨
- ٤ . كيف تدل المعجزة على صحّة ادّعاء النبوّة؟ ١٧٩
- ٥ . بماذا نميز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟ ١٨٠
- أوهام قريش تتفاقم!! ١٨٧
- عبد الله والد النبي : ١٨٩

- ١٩١ دَر الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام :
- ١٩٢ قصّة فاطمة الحنعميّة :
- ١٩٣ علائم الإختلاق في هذه القصة!
- ١٩٥ طهارة النبي من دنس الآباء وعهر الأمهات :
- ١٩٦ وفاة عَبْدَ اللَّهِ في « يَثْرَب » :
- ١٩٩ **٥ مولد رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**
- ١٩٩ فترة الطفولة في حياة العُظماء :
- ٢٠٣ في أي يوم وُلد رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟
- ٢٠٤ أيُّ هذين القولين هو الصحيح؟
- ٢٠٥ فَتْرَ الحَمَل :
- ٢٠٧ مُؤاخَذات وإشكالات على هذا البيان :
- ٢٠٨ الاحتفال بذكرى المولد النبوي :
- ٢١١ مَراسم تسمية النبي ﷺ :
- ٢١٢ خطأ المُستشرقين :
- ٢١٣ « أحمد » كان من أسماء النبي المشهورة :
- ٢١٥ فَتْرَ الرِّضَاع في حياة النبي ﷺ :
- ٢١٧ نَظرة الإسلام في تأثير الرضاع :
- ٢١٩ **٦ فترة الطفولة في حياة النبي ﷺ**
- ٢١٩ ١. المادُّون ، وجماعة من المستشرقين :
- ٢٢٣ حَمَسَة أعوام في الصَّحراء :
- ٢٢٥ **٧ العَوَّة إلى أحضان العائلة**
- ٢٢٧ سَفرة إلى يَثْرَب :
- ٢٢٩ وفاة عَبْدِ المَطَّلَب :
- ٢٢٩ كِفالة أبي طالب للنبي ﷺ :
- ٢٣٠ سَفرة إلى الشام :
- ٢٣٢ أُكلُ بُة المُستشرقين :

- نُظرة إجمالية إلى الترواة الحاضرة : ٢٣٦.....
- ١ . داود عليه السلام : ٢٣٧.....
- ٢ . النبي سليمان عليه السلام : ٢٣٧.....
- ٣ . يعقوب عليه السلام : ٢٣٨.....
- ٤ . إبراهيم عليه السلام : ٢٣٩.....
- ٥ . المسيح عليه السلام : ٢٤٠.....
- ٨ فترة الشباب في حياة النبي الأكرم ٢٤٣**
- رسول الله وقدرته الروحية : ٢٤٤.....
- خروب الفجار : ٢٤٤.....
- الفجار الأول : ٢٤٥.....
- الفجار الثاني : ٢٤٦.....
- الفجار الثالث : ٢٤٦.....
- الفجار الرابع : ٢٤٦.....
- جلف الفُصُول : ٢٤٨.....
- ٩ من فترة الشباب إلى مزاولة التجارة ٢٥١**
- سبب آخر لرعي الغنم : ٢٥٣.....
- إقترح أبي طالب : ٢٥٤.....
- هل عمل النبي أجيرا لخديجة؟ : ٢٥٥.....
- خديجة زوجة الرسول الأولى : ٢٥٨.....
- خديجة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ٢٦٠.....
- العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ٢٧٠.....
- كيف تمت خطبة خديجة؟ : ٢٧٢.....
- عمر خديجة عند زواجها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ٢٧٤.....
- ١٠ من الزواج إلى البعثة ٢٧٥**
- فترة الشباب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ٢٧٦.....
- أحاسيسه ومشاعره الإنسانية في فترة الشباب : ٢٧٧.....

- أولاد خديجة : ٢٧٨.....
- يُحَدِّدُ لا أساس له من الواقع!! ٢٧٨.....
- دَعِي رَسُولَ اللَّهِ : زيد بن حارثة : ٢٧٩.....
- بداية الخِلاف بَيْنَ الوَثْنِيَّين : ٢٨٠.....
- أعمدة الوَثْنِيَّة تَهْتَرُ : ٢٨١.....
- نموذج آخر عن ضَعْف قريش : ٢٨٣.....
- أَمِين قَريش يَكْفُلُ عَلِيًّا : ٢٨٥.....
- إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام : ٢٨٦.....
- إيمان جده عبد المطلب : ٢٨٦.....
- إيمان كفيله وعمه أبي طالب : ٢٩٠.....
- إيمان والدي النبي الأكرم : ٢٩١.....
- إيمان النبي بالله وتوحيده قبل البعثة : ٢٩٢.....
- الآية الأولى : الهداية بعد الضلالة : ٢٩٧.....
- الآية الثانية : الأمر بمحج الرجز : ٣٠٠.....
- الآية الثالثة : عدم علمه بالكتاب والإيمان : ٣٠٢.....
- تفسير الآية بآية أخرى : ٣٠٦.....
- الآية الرابعة : عدم رجائه إلقاء الكتاب إليه : ٣٠٨.....
- الآية الخامسة : لو لم يشأ ما تلوته : ٣١٠.....
- ١١ بدء الوحي ٣١٣.....**
- مثال واضح في المقام : ٣١٧.....
- إذا قلنا : ٣١٧.....
- أَمِين قَريش في غار حراء : ٣١٩.....
- بدء الوحي : ٣٢١.....
- ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين : ٣٢٢.....
- الروح المجردة : ٣٢٤.....
- ظاهرة الوحي عند الماديين : ٣٢٥.....

- أبرز النظريات المادية لظاهرة الوحي : ٣٢٥.....
- ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين : ٣٣٣.....
- قنوات المعرفة الثلاث : ٣٣٤.....
- أنواع الوحي واصنافه : ٣٣٦.....
- أساطير مختلفة : ٣٣٦.....
- بقية حادثة نزول الوحي : ٣٣٧.....
- خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل : ٣٣٨.....
- بُطلان هذه المزاعم : ٣٤٠.....
- ١٢ متى نزل الوحي أولاً؟** ٣٤٣
- ما أجاب به علماء الشيعة : ٣٤٤.....
- الجواب الأول : ٣٤٤.....
- الجواب الثاني : ٣٤٦.....
- الجواب الثالث : التفكيك بين نزول القرآن والبعثة ٣٤٦.....
- الانبياء والبشارة برسول الله : ٣٤٨.....
- محمد خاتم الانبياء : ٣٥٠.....
- ١٣ ما سَبَقني أحد** ٣٥٣
- أول من آمن بالنبي من الرجال والنساء : ٣٥٣.....
- من النساء : « خديجة » ٣٥٣.....
- أقدم الرجال اسلاماً : « علي » ٣٥٤.....
- ١ . علي تربي في حجر النبي ٣٥٥.....
- ٢ . علي وخديجة يقيمان الصلاة مع النبي : ٣٥٧.....
- ٣ . أنا الصديق الأكبر : ٣٥٧.....
- ٤ . أولكم إسلاماً : علي ٣٥٨.....
- النصوص النبوية : ٣٥٩.....
- كلمات اميرالمؤمنين عليه السلام : ٣٦١.....
- كلمة الإمام السبط الحسن عليه السلام : ٣٦٤.....

- رأي الصحابة والتابعين في أوّ من أسلم ٣٦٤
- مناظرة بين المأمون واسحاق : ٣٧٨
- قضية « إنقطاع الوحي » : ٣٧٩
- أسطورة وليس تاريخاً! ٣٨٠
- إختلاف المؤرخين في مسألة « انقطاع الوحي » : ٣٨١
- ١٤ الدَعْوَةُ السِّرِّيَّةُ وَدَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ ٣٨٧**
- دَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ : ٣٨٩
- كيفية دَعْوَةِ الْأَقْرَبِينَ : ٣٩٣
- خيانة تاريخية وجناية أدبية!! ٣٩٤
- النبوة والإمامة توأمان : ٣٩٧
- ١٥ الدعوة العامة ٣٩٩**
- الثبات والإستقامة على طريق الهدف : ٤٠٠
- نُبات النبي ٤٠١
- قريش تمشي إلى أبي طالب للمهرّ الثالثة : ٤٠٤
- قريش تحاول تطميع رسول الله! ٤٠٥
- نماذج من إيذاء قُريش وتعذيبها للمسلمين : ٤٠٦
- أبوجهل يكمن لرسول الله : ٤١٠
- أبو لهب يؤذي رسول الله : ٤١١
- صبر النبي ﷺ واستقامته : ٤١٢
- إيذاء المسلمين وتعذيبهم! ٤١٢
- ١ . بلال الحبشي : ٤١٣
- ٢ . آل ياسر رمز الصمود والمقاومة! ٤١٤
- ٣ . عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود : ٤١٥
- ٤ . أبوذر : أوّ المجاهرين بالإسلام ٤١٦
- قبيلة غِفَار تعتنق الإسلام : ٤١٩
- أعداء النبي الألباء : ٤٢٠

- ٤٢٢..... عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام :
١٦ رأي قريش في القرآن ٤٢٧
 ٤٢٧..... حُكم الوليد في القرآن :
 ٤٢٩..... نممغَ آخر :
 ٤٣١..... تحججات قريش العجبية :
 ٤٣٧..... الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم :
 ٤٣٧..... ١ . حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ :
 ٤٣٩..... ٢ . معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم :
 ٤٣٩..... ٣ . الخَوْفُ مِنْ عُقُوبَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ :
 ٤٤٠..... ٤ . الخَوْفُ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُشْرِكَةِ :
 ٤٤٠..... طائفة من اعتراضات المشركين :
 ٤٤١..... القرآن والنُّزُلُ التدريجي :
 ٤٤٣..... الأسرار المنطقيّة للنُّزول التدريجي للقرآن :
 ٤٤٦..... أسرار أُخرى لِنُزُلِ الْقُرْآنِ تدريجاً :
١٧ إلى الحبشة ٤٤٩
 ٤٤٩..... الهجرة الاولى
 ٤٥٣..... الهجرة الثانية إلى الحبشة :
 ٤٥٤..... قريش توفد رجالا لاسترداد المسلمين :
 ٤٥٩..... العودة من الحبشة :
 ٤٦١..... وفد مسيحي لتفصي الحقائق يدخل مكة :
 ٤٦٢..... قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق :
١٨ الأسلحة الصديئة والاساليب الفاشلة ٤٦٥
 ٤٦٦..... ١ . الاتِّهَامَاتُ الْبَاطِلَةُ :
 ٤٦٩..... الإصرار في نسبة الجنون إليه ﷺ :
 ٤٧١..... القرآن يرد على جميع الاتِّهَامَاتِ :
 ٤٧٣..... ٢ . فكرة معارضة القرآن :

- ٤٧٤..... تحججات صبيانية وجاهلية :
٤٧٦..... مقترحات عجيبة ومطالب غريبة :
٤٧٧..... صبر النبي واستقامته وثباته :
٤٧٨..... معاجز النبي لم تنحصر في القرآن :
٤٧٨..... فالقرآن نفسه يشير إلى أبرز هذه المعاجز وهي :
٤٧٨..... ١ . شق القمر.....
٤٧٨..... ٢ . المعراج.....
٤٧٩..... ٣ . مباهلة أهل الباطل.....
٤٧٩..... ٤ . الاخبار بالمغيبات.....
٤٨٠..... اصرار النبي على هداية قريش :
٤٨١..... ٣ . تحريم استماع القرآن.....
٤٨٣..... واضعوا القرار ينقضون قرارهم!!
٤٨٣..... ٤ . منع الاشخاص من الايمان برسول الله.....
٤٨٤..... ١ . « الاعشى » :
٤٨٥..... ٢ . الطفيل بن عمرو الدوسي :
٤٨٧..... ١٩ اسطورة الغرائق.....
٤٨٨..... ما هي أسطورة الغرائق؟!
٤٨٩..... محاسبة بسيطة لهذه الاسطورة.....
٤٩٠..... رأي العقل في هذه القصة :
٤٩٢..... تكذيب القصة من طريق آخر.....
٤٩٣..... دليل لغوي على تفنيد هذه الاسطورة.....
٤٩٥..... ١ . ما هو المقصود من تمني الانبياء والرسل.....
٤٩٥..... ٢ . ما هو المقصود من تدخل الشيطان؟
٤٩٧..... ٣ . ما هو المقصود من محو آثار التدخل؟
٤٩٩..... ٢٠ الحصار الاقتصادي والاجتماعي.....

- قريش تحاصر النبي والمسلمين اقتصاديا واجتماعيا..... ٥٠٠
- وضع بني هاشم المأسوي في الشعب ٥٠٣
- ٢١ وفاة أبي طالب وخديجة الكبرى..... ٥١١**
- نماذج من مشاعر أبي طالب ٥١٤
- التغيير في برنامج السفر ٥١٧
- الدفاع عن حوزة العقيدة والايمان ٥١٨
- تصوّ باطل..... ٥٢٠
- الدافع الحقيقي لأبي طالب ٥٢٠
- لمحات من تضحيات أبي طالب ٥٢١
- قضية ذات بواعث سياسيّة : ٥٢٣
- الأدلة على إيمان أبي طالب ٥٢٤
- آثار أبي طالب العلميّة والأدبية..... ٥٢٥
- الطريق الثاني لا ثبات إيمان أبي طالب ٥٢٦
- وصية أبي طالب عند وفاته ٥٢٨
- آخر الطُرق لا ثبات إيمان أبي طالب ٥٢٩
- رأي علماء الشيعة في أبي طالب ٥٣٠
- نظرة إلى حديث « الضحضاح » ٥٣٠
- ١ . ضعف أسناد هذه الرواية ٥٣١
- الف : سفيان بن سعيد الثوري..... ٥٣١
- باء : عبدالمملك بن عمير..... ٥٣١
- جيم : عبدالعزيز بن محمد الدراوردي..... ٥٣٢
- ٢ . نص حديث الضحضاح يخالف الكتاب والسنة ٥٣٢
- الف : القرآن الكريم ٥٣٣
- ب : السنة النبوية ٥٣٣
- ٢٢ المعراج ٥٣٥**
- هل للمعراج جذور قرآنية؟..... ٥٣٧

- أحاديث المعراج : ٥٤٠
- متى وَقَعَت هذه الحادثة؟ ٥٤١
- هل كان المعراج جسمانياً ٥٤٣
- ما هو المراد من المعراج الروحاني؟ ٥٤٤
- نَعْمَة شاذة : ٥٤٧
- المعراج وقوانين العلم الحديث : ٥٤٨
- الهدف من المعراج : ٥٥٣
- ٢٣ سفرة إلى الطائف ٥٥٥**
- النبي ﷺ يعود إلى مكة : ٥٥٩
- نقطة هامة : ٥٦١
- الدعوة في أسواق العرب : ٥٦٢
- دعوة رؤساء القبائل في مواسم الحج : ٥٦٣
- ٢٤ بيعة العقبة ٥٦٥**
- وقعة بُعَاث : ٥٦٧
- تفصيل الحادث : ٥٦٨
- بيعة العقبة الأولى : ٥٦٩
- بيعة العقبة الثانية : ٥٧٠
- أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة : ٥٧٣
- ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة : ٥٧٥
- تأثير الإسلام ونفوذه المعنوي : ٥٧٧
- مخاوف قريش المتزايدة : ٥٨٠
- ٢٥ قصّة الهجرة ٥٨٣**
- الإمدادات الغيبية والعنايات الالهية : ٥٨٥
- ملك الوحي يخبر رسول الله : ٥٨٧
- إقتحام الاعداء لبيت الوحي : ٥٩٠

- النبيُّ في غار ثور : ٥٩١
- قريش تفتش عن النبي : ٥٩٢
- التفاني في سبيل الحق : ٥٩٣
- كلام من ابن تيمية : ٥٩٦
- الجواب التفصيلي : ٥٩٨
- الخطيب وقضية المبيت : ٦٠٠
- بقية قصة هجرة النبي : ٦٠١
- الخروج من الغار : ٦٠٣
- صفحة التاريخ الأولى : ٦٠٤
- لماذا أصبح العام الهجري مبدأ للتاريخ : ٦٠٥
- الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة : ٦٠٦
- من الذي جعل الهجرة مبدء للتاريخ؟ ٦٠٨
- نماذج من رسائل النبي المؤرخة : ٦٠٩
- التذكير بنقطتين : ٦١٣
- مؤامرة الطاغوت : ٦١٤
- برنامج الرحلة في حادث الهجرة : ٦١٥
- النزول في قرية قباء : ٦١٧
- المدينة تحبُّ لقدم النبي : ٦١٩
- النبيُّ يدخل المدينة : ٦٢١
- أصل النفاق ومنشؤه : ٦٢٣